فهرس

الجزء الثانى عشر

من كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندى

صفحة

(تم فهرس الجزء الثانى عشر من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجزء الثاني عشر

دار الكتب السلطانية

كتاب
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثاني عشر

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٦ هـ
١٩١٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثاني

(مما يُكتَب من الولايات عن الأبواب السلطانية - [ما يكتب لأ] رباب الوظائف بالممالك الشامية)

واعلم أنَّ نُوّاب السلطنة في التولية على ضربين :

الضربُ الأوّل

(مَنْ لا تصدُر عنه منهم توليةٌ في عمل نيابته)

وهم نُوّاب الديار المصرية : من النائبِ الكافل ، ونائبِ الإسكندرية ، ونائبِ الوجه البحرىّ ، ونائبِ الوجه القِبْلىّ ، فليس لأحد منهم تصرُّف في ولايةٍ ولا عَزْل لنائبٍ ، ولا كاشفٍ ، ولا والِي حَرْبٍ . إنما النائبُ الكافلُ يكتُب في بعض الأمور على القِصَص ، والسلطانُ هو الذى يباشر الكتابةَ على الوِلايات بنَفْسه ، والنائبُ الكافل يكتُب بالاعتماد على ما يكتُبُ عليه السلطان ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه في موضعه .

الضـــرب الثانى

(من تصدُر عنه التوليةُ والعزلُ فى عمل نيابتـــه)

وهم نُوّابُ السلطنة بالممالك الشامية السبعةِ المقدمِ ذكرُها : من النّيابات الصّغار، والوظائف الدّيوانية، والوظائفِ الدّينيّة، ووظائفِ مَشايخ التصوُّف ، والوظائفِ العاديّة : كرِياسة الطّبّ ونحوها؛ ووظائفِ زُعَماء أهل الذّمّة : من رِياسة اليهودِ، وبَطْرَكيّة النصارىٰ، وغير ذلك .

فأمّا النياباتُ الصّغار التى فى أعمـال النّيابات العِظَام : فـا كانت نيابتُه إمْرةَ عَشَرة فأكثَر يولّى فيه النوّابُ ، وربمـا وَلّى فيه السلطانُ . وما كانت نيابتُه إمرةَ طبلخاناه فأكثر : يولّى فيه السلطانُ، ورُبّمـا وَلّى فيه النوّابُ . وما كانت نيـابتُه تقدِمةَ ألف، فولايتُه مختصّة بالسلطان دُونَ النوّاب .

وأما الوظائفُ الديوانيّـةُ، فـا كان منها صغيرا ككتابة الدَّرْج وما فى معناها ، فأكثرُ ما يوليها النُّوّاب . وما كان منهـا جليلًا : ككتابه السِّرّ وما فى معناها، ونظَرِ الجيش، ونظَرِ المـال ، فتوليتُه مختصّـة بالسلطان . وما كانَ منها متوسّطا بين الطَّرَفين : ككتابة الدَّسْت ونحوها : ففى دِمَشْقَ تارةً يولّى فيها السلطانُ، وتارةً يولّى فيهـا النائبُ . وفيما دُونَهـا من النيابات غالبُ من يولّى فيها النُّوّابُ، وقد يولّى فيها السلطانُ .

وأما الوظائف الدينيّة، فـا كان منها صغيرًا : كالتداريس الصّغار، والخَطابات بالجوامع الصِّغار، وأنظار المَـدارس والجوامع الصّغار، ونحو ذلك، فإنه يولّى فيها

النوّابُ ولا يولَّى فيها السلطانُ إلا نادرًا . وما كان منها جليلًا : كقضاء القُضاة ، فإنَّ توليتَه مختصَّة بالسلطان . وما كان منها متوسِّطا بينَ الرتبتين : كقضاء العسكر ، و إفتاءِ دار العَدْل ، والحِسْبة ، ووكالة بيت المال ، ومَشْيَخة الشيوخ ، ونحو ذلك : فتارةً يولّى فيها السلطانُ ، وتارةً يولّى فيها النُّوّاب . إلا أنَّ تولية السلطان فيها فى النيابات الكِبار كالشام أكثرُ ، وتوليةَ النوّاب فيها فيما دُونَ ذلك أكثرُ .

وأما مشيخةُ الخوانق فقد يُولّى فيها السلطانُ ، وقد يُولِّى فيها النوّابُ : إلا أن توليةَ السلطان فى مَشْيَخة الشيوخ بالشام أكثرُ ، وتوليةَ النوّاب فى غير مشْيَخة الشيوخ بدمَشْقَ وفى غيرها من وظائف الصُّوفية فى غيرِ دمَشْقَ أكثرُ .

وأما الوظائف العاديَّة : كرِياسة الطب ونحوها ، ففى جميع النيابات تَوْلِيَتُها من النوّاب أكثرُ ، و ربَّما ولَّى فيها السلطان .

وأما وظائفُ زعماء أهل الذمّة : كرِياسة اليهود ، وبَطْرَكيَّة النصارىٰ ، فيستبدّ بها النوّابُ دُونَ السلطان : لزيادة حَقَارتها فى الوظيفة والبُعْد عن حضرة السلطان .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الممالك بالبلاد الشامية أنه كان بها سبع ممالك عظامٍ آستقرّتْ سبع نيابات :

النيــــابة الأولىٰ

(نيابةُ دِمَشْق و يعبَّر عنها بكَفَالة السلطنة بالشام)

ووظائفُها علىٰ نوعين :

النـــوع الأول

(ما هو بحاضرة دِمشْـقَ ، ويشتمِلُ ما يُكتَب به من وظائفها عن الأبواب السلطانية علىٰ أربعة أصناف)

الصـنف الأول

(أربابُ السـيوف ، وهـمْ علىٰ طبقات)

الطبقـــة الأُولىٰ

(مَنْ يكتب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بـ«المَقرّ العـالى» مع الدعاء بـ«عِزِّ الأنصار» : وهو نائب السلطنة بها)

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كُتِب به عن السلطان الملكِ العادل «كُتْبُغا» للأمير «سيف الدين غرلو العـادِلى» من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلبىّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل لسيفِ دولتِنا علىٰ عاتِق المُلْك الأعزِّ نِجادًا ، وآدّخر لكَفَالة مملكتِنا من الأولياء مَن تَناسبَ وصْفاه آجتهادًا فى مصَالح الإسلام وجِهادًا ؛ وعَدَق أمورَ رعايانا بمن أيْقَظ لها سيْفَه وجَفْنَه فآمتلأتْ عيُونُهم بمـا وَهَب وسَلَب من نومه ونَوْمِ العِـدا رُقَادا ، ورفَع ألوِيَةَ إحسانِنا علىٰ مَنْ زادَ برفعها ظِلُّ عدْلِه آنبِساطا على الرعية وآمتِـدادا ، ووطَّد قواعدَ ممـالِكِنا بمَن أجَلْنا الفِكْرَ فى حُسن آختياره آنتقاءً لمصالِح الإسـلام وآنتِقَادا ، وأدّى لشُـكْرِ نِعم الله التى لا يؤدّى شـكْرُ بعضها ولو أنّ ما فى الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ أو كان البحرُ مِدَادا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلَتْ عزائمَنا على الأبد منْصُورَه، ومقاصِدَنا علىٰ مصالح المسلمين مقْصُورَه، وآراءَنا تفوّض زَعَامَةَ(١) الجيوش إلىٰ من تُصْبِح فِرَقُ الأعداء بِفَرَقِه مغزُوَّةً وممالِكُهم بمهابته محصُوره .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتزال تَنْشُر دَعوتَها فى الآفاق، ونُرْهِف لإقامتها فى ممالكنا سَيْفا يَصِلُ ما أمرَ اللهُ بقَطْعه ويَقْطَعُ إلّا الأرزاق، ونُرهِبُ من ألحَدَ فيها بكل ولىٍّ لرُعْبِه فى القلوب رَكْض ولرايته فى الجوانح خَفْق ولأسِنَّته فى الصُّدور إشْراق؛ ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله أشرفُ من فَوَّضَ حُكْما فى أيَّامه إلىٰ من آعتَمَد عليه، وأرأفُ من آستخْلَف علىٰ من بَعُدَ عنه من أُمَّته مَنْ يعلم أنَّ صلاحهم فى يدَيْه، وألطَفُ من عَدَق شيْئا من أمور أهل ملَّته بمن أعانَه الله وسدَّدَه فى دَفْع عدوّهم وصلاح ما يُرْفَع من أحوالهم إليه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وُلُّوا على الأمّة فعدَلُوا، وأُمِروا بما جبلَه الله عليه من الرأفة والنِّعمة والرحمة فامتثَلُوا، وعلِمُوا أنَّ الحق فيما نَهَج لهم من طُرُق طريقته المُثْلىٰ فما مالُوا عن ذٰلك ولا عدلُوا؛ صلاةً لاتَغْرُب شمسُها، ولا يَعزُب أُنْسُها، ولا تُعْتَبر أوقاتُ إقامتها إلا ويُقَصِّر عن يومِها فى الكثْرة أمسُها؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإن أولىٰ ما أعملْنا إليه ركائبَ الآراء المؤيَّده، وصرَّفْنا إليه أزِمَّةَ نجائب الأفكار المسدَّده؛ وأجلْنا فيه طِرْفَ النظر الذى لايُشَقُّ فى بلوغ الغاية غُبارُه ولا يُدْرَك، وأحلْنا الأمرَ فيه علىٰ التأييد الذى هو عمدتُنا فيما يؤخَذُ من ثواقب الآراء وما يُتْرَك؛ وقدَّمْنا فيه مُهِمَّ الآستخارة الذى يتلُوه التوفيق، وعلِمْنا أنَّ الدَّ أسبابِ الآهتداء إليه سلوكُ طريقِ النُّصح لله ولرسوله وللإسلام فسلَكْنا إليه من ذلك

(١) فى الأصل «بفرض عامة» وهو تصحيف .

الطريق ؛ وقصرْنا النيَّة فيه علىٰ مصالح الأمة التى هى فرضُ العينْ بل عَيْن الفرض ، وأطلْنا الارتيادَ فيه لتعيُّن من نرجُو له ممَّن عناهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . وندَبْنا له سيفًا لم يزَل فى صدُور الأعداء صَدْرُه وفى يَدِ جبَّار السموات قائمُه ، وأردْنا لتقدمة الجيوش فيه زعيمًا طالمَا مَلَّ ضَوءُ الصبح مما يُغيِّره وملَّ سوادُ الليل مما يزاحِمُه ، وقدمْنا له من نَشَأ فى حِجْر وَلائِنا ، وغُذِّى بلبان بِرِّنا وآلائنا ؛ وشهِدَ الوقائعَ بين يدَيْنا ، وخبَرْنا من سيرته النُّهُوضَ فى الرعايا بما كتَبَ الله لهم من الرأفة والرحمة علينا ــ أمرُ نيابةِ سلطنتنا الشريفة بالممالك الشاميَّة التى نابَتْ فيها مهابَتُنا ، عن الإقامة فيها ، وجعلتْها عنايتُنا ، من أشرف ممالكِنا التى نخُصُّها على البُعْد بدوام الملاحظة ونُصْفيها ؛ وهى واسطةُ عِقْد ممالكِنا ، ومحطُّ رحال طُرُقنا إلىٰ جهادِ الأعداء ومَسالكِنا ، وهالةُ أهلَّة سَرِىِّ القصد إلىٰ لحظها فى أديم الأرض مواقِعُ سَنابِكِنا ؛ ومواطنُ القُرُبات التى نصَّت الآثارُ الصحيحةُ عليها ، ومظانُّ العبادات التى طَالمَا نَصَّتْ ركائبُ العِباد العُبَّاد إليها ؛ ومقامُ الأبدال الذين هم أهلُ دارِ المُقامه ، ومستقرُّ طائفة الدِّينِ الذينَ لا يزالون ظاهرين علىٰ أعدائهم لا يَضُرُّهم من خذَلهم إلىٰ يوم القيامه ؛ وفَلَكُ الثغور الذى تُشْرِقُ منه كوا كبُ سعودها ، وتتصرَّف من نوئه إلىٰ مَنْ جاورها من العدا خاطفاتُ بروقها وقاصفاتُ رُعُودها ؛ فكَمْ ذى جنودٍ أمَّها فهَلَك وما ملك ، وسلك إليها بجيوشه فزَلَّتْ وتزلزلت قدمه حيثُ سلَكْ ، ولجيشها البأسُ الذى وجُودُ الأعداء به عدم ، والحدُّ الذى يعرفه أهلُ السِّياق و[ان] أنكرَتْه أعناقهم « فما بالعَهْد من قِدَم » .

وأن نفوّض [أمرها] إلىٰ من يُنْشُر بها على الأمة لواءَ عدلنا ، ويبسُط فيها بالرأفة والرَّحْمة رداءَ فَضْلنا ، ويُحيى بها سُنَنَ الإحسان التى مَبْدأُ أيامها غايَةُ من سَلَف من قبلنا ؛

ويقيم مَنَـار المُلك من بَأسه على أرفع عِماد ، ويُنيم الرعايا من عَدْله فى أَوْطَإ مِهاد ؛ ويَكُفُّ أَكُفَّ الظُّلم إلى ما(١) يتجاسر إلى إعادة يده إليهـا عادٍ ومَنْ عاد ، ويُجرِّدُ إلى العِـدَا من خَيَاله وخَيْله سرايَا تَطرُدُ عن موارد جفونهم بقوائمِها الرُّقَاد ؛ وتَسْـتَعِيد عَوَارِىَ أرواحهـم من مُسْتَوْدَعَات أجسادِهم فهى بحكم العارِيَّة غيرُمُسْـتَقِرَّة فى الأجساد ، ويَصُونُ الرُّتَب عن تَطَرُّقِ مَنْ يُفْسِد أحوالها لعدم أهليته : فإنَّه ماسَلَكَ أَحَدٌ فى أيامنا طُرُقَ الفَسَاد فَسَاد ؛ ويُعْلَم به أنَّا جَرَّدنا على العِدَا سـيْفًا يَسْبِقُ إليهـم العَذَل ، ويزاحِمُ على قَبْض نفوسِهم الأَجَل ، وتَحَلَّى بتقليده الدُّوَل ، ويُحقِّق بنتكه أنَّه لا حاكِمَ بيننا و بينهم إلَّا السَّيْفُ الذى إن جَارَ فيهم فقد عَدَل .

ولذلك لمـا كان المجلسُ العالى الفلانىّ : هو الذى ٱخْتَرْناه لذلك على عِلْم ، وقَلَّدْناه أمور الممالك : لمـا فيه من حِدَّة بأْس وآيَةِ حِلْم ، وعَجَمْنا عُودَه فكان لَيِّناً على الأولياء فَظًّا على العِـدَا ، وبَلَوْنا أَوْصَافَه فعلمنا منه السَّدَادَ الذى لا يَضَعُ به النَّدَىٰ فى مَوْضع السَّيف ولا السَّيْفَ فى مَوْضع النَّدىٰ ، وعرضنا سَدَادَه على حُسْن ٱعتبارنا للأكفاء فكان سميرًا (وحُمِلَ ، فزَيَّنَ مَعْروضًا وراعَ مُسَدَّدا) ؛ وهَزَزْناه فكان سَيْفًا يُنْصَلُ حَدُّهُ الخَطْبَ إذ أعْضَل ، وأعطيناه أمر الجُيُوش فلم يختلف أحَدٌ فى أنَّه أفضـلُ من الأفضل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يَصْطَفِى من الأوليـاء كلَّ كُفْءٍ كريم ـ أن تفوَّض إليه نيابةُ السَّلْطنة الشريفة بالممالك الشامية : تَفْوِيضًا يُعْلِى قَدْرَه ، ويبسُطُ فى مصالح الملك والممالك أَمْرَه ؛ ويُطْلِقُ فى مصالح الدولة القاهرة سَيْفَه وكَلِمَـه ، ويُدِرُّ على الأولياء إحسانَنَا الذى إذا جَارَى الغَيْثَ أخجل دَوَامُه دِيَمَه ؛ ويرفعُ بالعدل

(١) الصواب «حتى لا يجاسر» الخ .

مَنَارَ دوامِ مُلْكِنَا الذى قرنه الله للأمة بجُودِنا، ويضيف باسترفاع الأدْعِيَـة الصالحةِ لدولتنا من كل لسان جُنُودَ اللّيل إلىٰ جنودنا، وينظرُ فى أمور الممالك الشامية نَظَرًا عامًا، ويُعْمِلُ فى سِدَادِ ثغورها وسَدَادِ أمورها رَأْيًا ثاقبًا وفكْرًا تامًا، ويأمر النُّوّاب من سدّ خَلَلِها بمـا كِفَايَتُه أدْرَىٰ به منهم، ويُنَبِّهُهم من مصالحها علىٰ ماظهر لفكره المُصيبِ وخَفِيَ عنهم، ويُلَاحظُ أموال ما بَعُـدَ من البلاد كمُلَاحظَته أموالَ مادَنَا، وينظرُ فى تَفَاصيل أمورها: فإنّها وإن كانت على السَّدَاد فليس بها عن حُسْنِ نَظَرِه غِنَىً، ويَسْلُكُ بالرعايا سُنَنَ إنصافه التى وَكَلْنَه معرفَتُنَا به إليها، ويُجْرِيهم علىٰ عوائد الإحسان التى كانت من خُلُقِه سَجِيَّةً وزدناه تَحْرِيضًا عليها .

وهو يعلم أن الله تعالىٰ قد أقامنا من الجهـاد فى أعدائه بسُنَّته وفَرْضِـه، ومَكَّنَ لنا فى الأرض : لإقامة دعوته وإعلاء كلمته وتطهير أرْضِه، وعَضَّدَنا بتأييده لنُصْرة الإسـلام، وأمدّنا من عُدَدِ نصره بكلِّ سَـيْفٍ تروِّع الأعداء به اليَقَظَةُ وتَسُـلُّه عليهـم الأحلام، وبثَّ سرايا جيوشنا برّا وبحرا : فهى إمَّا سَوَارٍ فى البرّ تمرّ مَرَّ السَّحَاب أو جَوَارٍ مُنْشَآتٌ فى البَحْر كالأعلام؛ ويتعاهد أحوال الجيوش الشامية كُلَّ يوم بنفسـه، ويعدُهم فى غَدِهِ بإعادة ما اعتبره من عرضهم فى أمسِه؛ ويرتب أمْرَ كلِّ إقليم وحَالَه، ويَتَفَقَّدُ مَنْ يباشر بالتقدمة تقدّمه إلى الأطراف وآرتحاله؛ ويأمُرهم كل يوم بالتأهُّب للعَرْض الذى يباشره غدا بين يدَيْنا، إن شاء الله تعالىٰ .

✣ ✣ ✣

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام، كتب به للأمير « جمال الدين أقُوش الأشرفىّ» فى جمادىٰ الأولىٰ ، سنة إحدىٰ عَشْرَةَ وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ رحمه الله تعالىٰ ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَ الدِّينَ فى أيامنا الزَّاهرة زَاهيًا بجمَاله ، سَاميًا بتقديم مَنْ إذا أرْهَفَ فى الذَّبِّ عنه بسيفِ عزْمِه غدَتِ الجنَّة تحت ظِلَاله ، حَاليًا بتفويض زَعَامَة جُيُوشه إلىٰ مَنْ لو فَاخَرَبه البُدُورَ تعجَّبتْ من نُقْصانها وكَماله ، عاليا بإيالة من تتولَّد معانى النصر والظفر بين الكَامِلَيْنِ : من رَوِيَّة رَأْيه وٱرتجَاله ، راقيًا علىٰ هَامِ الكُفْر بعزائم من لا يَزال تُصبحُ مَهَابَتُه العِدَا بطلائع خَيْله وتُبَيِّتُهم بطوارق خَيَاله ، ناميا بإسناد الحكم فيه إلىٰ من يقطع إنْصَافُه بين المُبْطل ورَجَائه و يَصِلُ العَدْلُ[منه] بين المُحِقِّ و بين آماله .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى أنَامَتِ الرَّعايا من مَعْدِلَتِنا فى أوْطَإِ مِهاد ، وأدامتِ الدُّعَاءَ الصالحَ لأيامنا بإعلاء كَلِمَتَى العَدْل والجِهَاد ، وأقامت الإيالة فى أسْنَىٰ ممالِكنا بمَنْ هو أجْرَىٰ من الغُيُوث ، وأجْرأ من اللُّيُوثِ ، فى مصالح البلاد والعباد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزالُ الألْسُنُ لإقامتها مُدِيمه ، والضمائرُ علىٰ إدامتها مُقِيمه ، والقلوبُ تَعْقِدُ من كَلمة إخلاصها و إخلاص كلمتها فى جِيدِ الإيمان تَمِيمَه ، والتوحيدُ يُظْهِر أنوارَهَا فى الوُجُوه الوسيمه ، بمأْمَنِ مطالع القلوب السليمه .

ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى جَبَلَه علىٰ خُلُقٍ عَظِيم ، وجعله وإنْ تأخَّرَ عَصْرُه من مَقَام النبوّة فى أعلىٰ رُتَب التقديم ، ومَنَّ على الأمّة بإرساله إليهم من أنفسهم وأنه بالمؤمنين رَءُوفٌ رحيم ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين دُعُوا إلىٰ طاعته وأجابوا ، وحَكَمُوا بسنته وأصابوا ، وجَاهَدُوا المُعْرِضين عن مِلَّته حَتَّى رجعوا إلى الهدىٰ وأنابوا ؛ صلاة لا تَغِيبُ أنْواؤُها ، ولا يُفَارِقُ وجوهَ أهلها وقلوبَهم رُوَاؤُها وإرواؤُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنه ـ لما أجرانا الله عليه من عوائد نَصْره، وأغرانا به من حَصْد الشِّرْك وحَصْره، ومنحنا من بَسْطَة ملك زُيِّنَتْ بها أسارِيرُ البسيطة وأَسِرَّتُها، ووهبنا من فواتح فتوح عَلَت على وجوه الكفر مَسَاءَتُها وبَدَتْ على وجوه الإسلام مَسَرَّتُها ـ لم نَزَلْ نُؤَدِّى شكر نعم الله بالإحسان إلى عباده، ونَسْتَزِيد منها بتفويض أمورهم إلى من يقومُ فى الذَّبّ عنهم مقامَ الجَيْش على انفراده؛ فلا نقدّم على الرأفة بخَلْقِ الله أمرا، ولا نُحَابِى فى بَسْطِ المَعْدِلَة عليهم زَيْدًا ولا عَمْرا؛ ولا نعدِلُ بهم عمَّنْ إذا رَكِبَ فى مَوْكِب نيابتنا زانَهُ وجمَّله، وإذا جلس على بِساط عَدْلِنا زادَه وكمَّله؛ وإذا رَسَم بأمرنا أَصْغَت السُّيُوفُ إلى مَرَاسِمه، وإذا نظر بعَيْنِ عنايتنا ثَغْرًا أهدَى الشَّنَبَ إلى مَبَاسِمه؛ وإذا رام فى مصالح الإسلام أمْرًا قَرَّب على رأْيه بَعِيدُه، وإذا رمى فى حماية الممالك عدوًّا سَبَقَ إلى مقاتله قبلَ السيوف وَعِيدُه؛ وإذا جرّد جيشا إلى أعداء الإسلام جَرَّتْ قبل اللّقاء ذُيُولَ هزائِمِها، ورَأَت الفِرَارَ أمْنَعَ لها من صَوارِمها، ونَثَلَتْ مافى كَنَائِنِها من سِهامٍ ضَعُفَتْ عن الطَّيَرَان قُوَى قَوادِمها.

ولما كان الجناب العالى الفلانى هو معنى هذه الفرائد، وسِرُّ هذه الأوصاف التى للشِّرْك منها مَصَائبُ هى عند الإسلام فوائد، وفارسَ هذه الحَلْبة، التى أحرز [قصبَ] سبقها، وكُفْءَ هذه الرُّتبة، التى أخذها دون الأكفاء بحقِّها؛ لاتأخذُه فى الحَقّ لَوْمَةُ لَائم، ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجِدِّه «وما ليل المُجِدّ بنائم» يَسْرِى إلى قلوب الأعداء رُعْبُه وهو فى مكانه، وتؤدِّى مهابَتُه فى نكاية الكُفْر فَرْضَ الجهاد قبل إمكانه؛ ويَشْفَعُ العَدْلَ فى الرعايا بالإحسان إليهم، ويجمع بين إرهاب المعتَدِينَ وشِدَّة الوَطْأة عليهم؛ ويقف فى أحكامه مع الشريعة التى أعلى الله تعالى مَنارَها، ويَسْتَضِىءُ بأحكامها التى هى لابصار النُّظَّار تُعِير انوارَها.

وكانت المملكة الشامية المحروسة من الممالك الإسلامية بمنزلة القوّة فى اليمين ، والواسطةِ فى العِقْد الثمين ، والإدراكِ فى الصّدور ، والإشراقِ فى البُدُور ، وبها الأرضُ المقدسه ، والحُصُونُ التى هى على نكاية الأعداء مؤسَّسه ؛ ولها الجيوش التى أَلِفَتْ فى الجهاد السُّرَى ، وأنِفَت لسيوفها فى الجُفُون الكَرَى ؛ ومَرَّتْ على مَقَاتِل العِدَا أسنّتُها ، وصُرِّفَتْ فى مَسَالك الحربِ أعنّتُها ؛ وراعَتْ مُلُوكَ أهلِ الكُفْرِ سُمْعَةُ أمرائها ، وحاطَتْها أمدادُ النّصر فى حروبها من بين يديْها ومن ورائها ؛ وفيها من الأئمة العلماءِ الأعيانِ من يعدِلُ دَمَ الشهداءِ مدادُ أقلامهم ، ومن الأتقياءِ الصُّلَحاء مَنْ لا تَطِيش دونَ مقاتل أهل الكفر مواقعُ سِهامِهم ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن نُمتّعَ هذه الرتبة السنيَّة بجمالها ، وأن نُبَلِّغ هذه الدرجة السريَّة بمن حوى هذه الأوصافَ الفاخرةَ غايةَ آمالها ، لِيُصْبِحَ بها لِواءُ عدلِنا مَرْفُوعَ الذوائب ، ومَنْهَلُ فَضْلِنا مَدْفُوعَ الشوائب ؛ وكلمةُ جهادنا ، نافذةً فى المشارق والمغارب ، وقبضةُ بأسنا ، آخذةً من أعداء الدين بالذُّرَا والغَوَارِب ، وطليعةُ كتائبنا مؤتَمَّةً بمن تُوقِنُ الطَّيرُ أنَّ فَرِيقَه إذا ما ٱلتقى الجمعانِ أوّلُ غالب .

فلذلك رسم بالامر الشريف ـ لازالتْ صوارمُه للشِّرك قامِعَه ، ومراسِمُه لمصالح الدين والدنيا جامعه ـ أن تفوّضَ إليه تفويضًا يرفع عَلَمَه ، ويُمْضى فى مصالح الإسلام سَيْفَه وقَلَمَه ؛ ويَنْشُرُ فى آفاق الممالك الشامية عَدْلَه ، ويبسُطُ على رَعَايا تلك الأقاليم المحروسةِ فَضْلَه وظِلَّه ؛ فيَطْلُع فى أُفُقِ المواكب هَالَةَ أهِلّتِها ، وطِرَازَ حُلَّتِها ؛ وطَلْعةَ لوائها ، وواسطةَ عقودِ مقدّمِها وآرائها ؛ وزينةَ تسييرها ووقوفها ، وحِلْيَةَ طلائعها وصُفُوفِها ؛ ويَجْلِسُ فى مواطن الجلوس صَادِعًا بالحق فى حكمه ، آمرًا بإدامة التأنيب للعدوّ فى أيام سِلْمِه ؛ مُعْطيا مَنْصبَ النيابة الشريفة حَقَّه من الجلاله ، مُوفيًا رُتْبَتَها المنيفة مايجب لها من أُبَّهَة المهابة وكفاءة الكَفَالَه ؛ ولا يَزَالُ

لمصالح الجيوش المنصورة مُلاحِظا، وعلى إزاحة أعذارهم مُحافِظا، و إلى حركات عُدو الإسلام وسكّناته مُتطلّعا، و إلى مايتعين من إبطال مكايده متسرّعا، ولبواطن أحوالهم بحسن الأطلاع مُحقّقا، و لجموعهم بيمن الأجتماع للقائهم مُفرّقا، فلا يُضمِرون مَكيدة إلّا وعلمُها عنده قبل ظهورها لديهم ، ولا يُسِرُّون غارة إلا و رايتا خَيْله المُغِيرة أسبقُ منها إليهم .

ولْيكن لمَنار الشّرع الشريف مُعْليا، ولأقدار أربابه مُغْليا، ولرُتَب العلماء رافعا، ولأقوالهم فى الأحكام الشرعية سامعا، ولِذوى البيوت القديمة مُكرِما، ولأهل الورع والصَّلاح مُعظّما، وعلى يد الظالم ضارِبا، وفى آقتناء الأدعية الصّالحة لدولتنا القاهرة رَاغبا، وبجميل النّظر فى عمارة البلاد مُديما، و بحُسْن الفكر فى أمور الأموال مُعمِلا رأيًا بمصالحها عليا، ولجهات البرّ بجليل العناية والإعانة عامرا، وعن كلّ مالا يجب آعتمادُه ناهيا و بكل مايتعين فعلُه آمرا . وفى كَمال خِلاله ، وأدوات جَماله ، مايُغْنى عن الوصايا إلّا على سبيل الذّكرى التى تنفع المؤمنين ، وتَرفَع المتقين، ومِلاكُها تقوى الله تعالى وهى من خصائص نَفْسه الكريمه ، وعوائد سِيرته الحديثة والقديمه ؛ والله تعالى يُسدّدُه فى القول والعمَل، و يُؤيّده وقد فعل؛ إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه نسخة تقليد بكَفالة السلطنة بالشام ، كتب بها للأمير «سيف الدين تنكز الناصرى» فى ربيع الأوّل سنة آثنتى عشْرَة وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلَبى»، وهى :

الحمد لله مُفوّض أسنَى الممالك فى أيامنا الزاهرة إلى مَنْ تَزهو بتقليده، ومُشيّد قواعد أسْمى الأقاليم فى دولتنا القاهرة بمَنْ يعلو بإيالتـه ما يُلْقَى إليه مَعاقِدُ مَقالِيده،

ومُسَدِّدِ الآراء فى تصريف أَعِنَّة جيوشنا المنصورة بتقديم مَنْ تَغْدُو سيوفُه من عنق كُلِّ مُتَوَّج من العدا قِلَادَةَ جِيدِه ، ونَاشِرِ لِوَاءِ العَدْل فى رعايانا وإن بَعُدُوا بمن تُنيم كلًّا منهم فى مَهْد الأمْنِ والدَّعَة يَدُ مَهَابَتِه وتمهيده ، ومُعْلِى مَنَارِ الجهاد فى سبيله بمَنْ إذا جرّد سَيْفَه فى وغًى تَهلَّلتْ نَوَاجِذُ أفواه المنايا الضواحك بين تَجْرِيبِه وتجريده .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى أيّدت آراءَنَا بوضْع كلِّ شَيْءٍ فى مُسْتَحقّه ، وقلّدت سَيْفَ النَّصر من أوليائنا مَنْ يأخذه فى مصالح الإسلام بحَقّه ، وجدّدت آلاءنا لمن إذا جارت الحُتُوفُ سُيُوفَه إلىٰ مقاتل العِدا فاتها وفاقها بمَزِيَّتَىْ كِفَايَتِه وسَبْقِه .

ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لاشريك له شهادةً لا تزَالُ أَلْسِنَتُنا تَرفع مَنَارَها ، وسُيُوفُنا تصلى من يجحدها قبلُ نَارَها ، وآراؤُنا تُفَوّض مصالح جُمْلَتِها إلىٰ مَنْ إذا رَجَتْه لنُصْرَةٍ أنالها وإذا أَسْدَىٰ مَعْدِلَةً أنارها .

ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله الذى أيّده الله بنَصْرِه ، وجعله سابق مَنْ تقدّم من الرُّسُل علىٰ عَصْرِه ، وآتاه من الفضائل ما يَضِيقُ النُّطقُ عن إحصائه ومن المعجزات مايَحُولُ الحَصْرُ دون حَصْرِه ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين تمسّكُوا بهُدَاه ، وهجروا فى طاعته مَنْ عاداه ، ونَهَضُوا فى رضا الله تعالىٰ ورضاه إلىٰ مظَانِّ الجهاد وإن بَعُدَ مَدَاه ، صلاة يشْفَعُها التسليم ، ونَبْتَغِى إقامتَها عند الله واللهُ عنده أجْرٌ عظيم ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإنّ أولىٰ ما أعْمَلْنا فى مَصَالِحِه الفِكرَ ، وتدبّرنا أحواله بكل رأْيٍ يُسَدِّدُه الحَزم المُرَوَّىٰ ويؤيده الإلْهَامُ المُبْتَكَر ، وقدّمْنا فيه الاستخارة علىٰ ماجزم اليقينُ بأن الخِيرَةَ للإسلام والمسلمين فى اعتماده ، وتمسّكنا فيه بحَبْل التوفيق الّذى مازال تَتَكَفَّل

لنا فى كُلِّ أمرٍ بسَدَاده وفى كُلِّ ثغرٍ بسِدَادِه ـ أمرُ الممالك الشامية التى هى وَاسِطَةُ عِقْد الممالك، ومُجْتَمع مايُفضِى إلىٰ مواطن النَّصْر من المسالك، ومَرْكزُ فَلَك الأقاليم الذى تَنْتَظِمُ عليه بُرُوجُ ثغُورِها، ونُقْطَةُ دائرة الحُصُون التى منها مادّتُها وعليها مَدَارُ أمورِها، وغِيلُ لُيُوثِ الحرب التى كم أَنْشَبت أظفارَ أسِنّتِها فى طُرّةِ ظَفَر، ومَوَاطِنُ فُرْسانِ الوَغَى التى كم أسفَرَ عن إطلاقِ أعِنّتِها إلىٰ غايات النَّصْر وجهُ سَفَر؛ وأن نَرْتَادَ لكَفَالة أمورِها، وكِفَاية جُمْهُورِها، وحمايةِ مَعَاقلها المَصُونَة وثُغُورِها، وزَعَامة جُيُوشِها، وإرْغَام طَارِقِى أطرافها من أعداء الدين وَثَلِّ عُرُوشِها، مَنْ جَرّده الدِّينُ فكان سَيْفًا علىٰ أعدائه، وانتقاه حُسْنُ نَظَرِنا للسلمين فكان التوفيقُ الإلٰهىُّ مُتَوَلِّىَ جميل انتقاده وانتقائه؛ وعَجَمْنا عُودَ أوصافه فوجدْناه قويًّا فى دينه، مُتَمَكِّنًا فى طاعته بإخلاص تَقْواه وصِحّة يَقِينِه؛ متيقِّظًا لمصالح الإسلام والمسلمين فى حالَتَىْ حَرَكَتِه وسُكُونه، آخذًا عِنَانَ الحَزْم بيُسْرِ يُسْرَاه وسِنَانَ العَزْم بيُمْنِ يَمِينِه؛ واقفًا مع الحق لذاته، مقدِّما مَشَاقَّ الجهاد علىٰ سائر مآربه ولَذّاته؛ مَاضِيًا كسَيْفِه إلّا أنه [لا] يألف كالسيف الجُفُون، رَاضِيًا فى راحة الآخرة بمتاعِب الدُّنيا ومصاعبها فلا يَرْعىٰ فى مَوَاطِن الجهاد إذا حلّها أكْنَافَ الهُوَيْنا ولا رَوْضَ الهُدُون؛ مانِعًا حِمَى الإسلام لا «بحِمَى الوَقَىٰ بضَرْبٍ» يُفَرِّقُ بين أسباب الحياة و«يُؤَلِّفُ بين أشتاتِ المَنُون».

ولما كان فلان هو الذى تشوّفت هذه الرتبة إلىٰ أن تَتَجمّل به مواكِبُها، وتتكمّل به مَرَاتِبُها، وتنتظم علىٰ دَسْتِه هَالَةُ أمرائها كما تنتظم علىٰ هالة بَدْرِ السماء كَوَاكِبُها؛ فإذا طلع فى أُفُقِ مَوْكِبٍ أعشَت الأعداءَ جَلالَتُه، وأعْدَت الأولياءَ بَسَالَتُه، وسَرَىٰ إلىٰ قُلُوب أهل الكُفر رُعْبُه، وفعل فيهم سِلْمُه مايفعلُ من غيره حَرْبُه؛ وإذا جلس علىٰ بِسَاطِ عَدْلٍ خَرِسَ الباطل، وأنجز مافى ذِمّته المَاطِل، وتكلّم الحقُّ بملْءِ فيه، وتبرّأ الباطل حتّى ممّن يُسِرُّه ويُخْفِيه؛ وإن نَظَر فى مصالح البلاد أعان الغَيْثَ علىٰ

دَيّها برِفقه ، وأعاد رَوْنَق عمـارتها بكَفّ أكُفّ الظلم ووصول كلّ ذى حَقّ إلىٰ حَقّه – ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن تَجعَل فُنون أفنَانه بيُمْـنِ إيالَته دَانيةَ القُطُوف، وأن نُصَيِّرَ جَنَّتَها تحت ظِلَال سَيْفه : فإن «الجنة تَحتَ ظِلَال السُّيوف» .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف – لازال زَمَنُ عَصْره، مؤرَّخا بالفُتُوح، وسَيْفُ نَصْره، علىٰ من كفر دَعْوَة نُوح – أن تفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس : تَفْوِيضًا يُحسِنُ به المَنَـابَ فى تلك الممـالك عنّا ، ويَنْشُر فيها من العَدْل والإحسان مايُلقَّاه منّا، ويُلبِسُها من حُلَل المَهَابة مايُضَاعِفُ به أَمْنَ سِرْبِها، وتُصْبِحُ به السُّيوف المجرّدةُ أَحْفَظ لها من قُرُبِها، ويطلُعُ فى أُفُقِ مواكبها الجليلة طُلُوعَ الشَّمس التى يَعُمُّ نَفْعُها، ويُغْشِى النَّوَاظِرَ لَمْعُها، ويجلسُ فى دَسْتِ نيابَتِنا حاكما فيهـا بأمرنا، جَازِمًا بحُكْم الشرع الشريف الذى قد عَلِمَ أنه حِلْيَـةُ سِرِّنا وجَهْرِنا، نَاشِرًا من مَهابَة المُلْك مَاتَرْجُفُ له القلوب من العِدا، وتُصَبِّحُهم به سَرَايَا رُعْبِـه علىٰ بُعْد المَدَى، مُلزِمًا مَنْ قِبَـلَه من الجيوش المنصورة بمُضَاعَفَة إعْداد القُوَّه، وإدامة التَّأهّب الذى لاتبرح بسُمْعَتِه بِلَادُ أهلِ الكُفْر مَغْزُوّه، مُطّلِعا علىٰ أحوال العدا بلُطْف مقاصده، ونِكَاية مَكَايِدِه، وحُسْنِ مصادره فى التدبير ومَوَارِدِه، فلا يُبْرِمُون أمْرًا إلا وقد سَبَقَهم إلىٰ نَقْض مُبْرَمِه، ولا يقدِمون رِجْلًا إلا وقد أخّرها بوَثَبَاتِ إقْدامه وثَبَاتِ قَدَمِه . ولْيعظِّمْ مَنَـارَ الشرع الشريف بتكريم حُكَّامِه، والوُقُوف مع أحكامه، ويرفَعْ أقدارَ حَمَلَة العلم بترفِيهِ أسرارهم، وتسهيلِ مآرِبِهـم وأوطارِهم، ولْيَعُمَّ الرعايا بعَـدْله وإنْصافه، ويسترفِعْ لنا أدْعِيَـةَ الأولياء والصُّلَحاء بإسْعَاده وإسْعَافه . وفى خصائص أوصافه الكريمه ، وسَجَايَاهُ التى هى لمصالح الإسلام مُسْتَدِيمَه ، ما يُغْنِى عن تَشَدُّدٍ فى القول والعمل ، والله تعـالىٰ يؤيده وقد فعل ، ويجعله من أوليائه المتقين وقد جعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب به للأمير «يلبغا الكاملى» بعد نيابته بحَلَب وحَمَاة، من إنشاء المقرّ الشّهابى بن فضل الله، وهى :

الحمد لله مُجْرِى الأقدار، برِفْعة الأقدار، ومُثْرِى آمالِ مَنْ حَسُنَتْ له فى خدمتنا الآثار، بمَوَاهِبِ العطايا والإيثار، ومُمْرِى غُرُوسِ نِعَمِ أوليائنا التى رعَىٰ عَهْدَها عِهَادُ سُحُبِ جُودِنَا الغِزار، جَاعِلِ أصفياء مملكتنا الشريفة كُلَّ حين فى آزدياد، ومانحِ المخلصين فى خدمتنا مَزِيدَ الإسعاف والإسعاد، وفاتح أبواب التأييد بسيوف أنصارنا التى لا تَهْجَعُ فى الأغْماد .

نحمده علىٰ مواهب نَصْرِه، ونشكُره علىٰ إدراك المآرب من جُوده الذى يَعْجِزُ لسانُ القَلَم عن حَصْرِه، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤيد قائلَها فى مَوَاقفه، وتجمعُ له من خَيْرِ الدُّنيا بين تَالِدِه وطَارِفه، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هَدَى الله به هذه الأمة من الضَّلال، وفَضَّل به المجاهدين حيثُ جعل الجَنَّةَ تحت ما لِسُيُوفهم من ظِلَال . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً لا آنفصامَ لعُرْوتِها ولا آنفصال، ولا آنقضاءَ لأسبابها ولا زَوَال، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإن أوْلىٰ مَن آنتُدِبَ لحِفْظِ ممالك الإسلام، وأُتْمِنَ علىٰ صَوْنِها بعَزْمِه الذى لا يُسامىٰ ولا يُسَام، وأُسْنِد إليه من أمور الرعايا بأجَلِّ الممالك ما يَقْضِى بمَزِيد التكريم، وآعْتُمِد علىٰ صِيانته ودِيَانَته لَمَّا شَهِد الآختبارُ بأنه أهْلٌ للتقديم، وجَرَّبَتِ الدول مُخَالَصَتَه، وتُحُقِّقَ آهتمامُه الذى بَلَّغَه من العِزِّ غَايَتَه، وأثْنَتْ علىٰ حُسْنِ سِيرَتِه وسَرِيرَتِه سوابقُ خِدَمِه، وشُكِرَ آهتمامُه فى المخالصة التى أعربَت عن عزمه، ففاق أشْباهًا وأنْظَارا، وكَفَلَ الممالك الشريفة الحَلَبِيَّة والحَمَوِيَّة فأيدها أعوانا وأنصارا،

وبسط فيها من العَدْل والإنصاف ما أعلىٰ له شأنًا ورَفَع له مِقْدارا ، وسلك فيها مَسْلَكًا شَنَّفَ أسماعا وشَرَّفَ أبصارا .

ولما كان المقرّ الكريم (إلىٰ آخره) هو صَاحِبَ هذه المناقب ، وفَارِسَ هذه المَقَانِبْ ، ونَيِّرَ هذه الكواكب ، كم أبهج النفوس بمَالَهُ من عَزْمٍ مشكور ، وحزم مَأْثور ، ووَصْفٍ بالجميل مَوْفُور .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لازال لسيف أوليائه مُرْهِفًا ، ولا بَرِحَ لأخصائه مُسْعِدًا ومُسْعِفا ــ أن تفوّض إلى المشار إليه نِيَابَةُ السَّلطنة الشريفة بالشام المحروس ، علىٰ أجمل عوائد من تقدّمه فى ذٰلك وأكمل قواعده . فليتناولْ هذا التقليد الشريف بيدٍ لم يَزَلْ لها فى الوَلَاءِ البَاعُ المديدُ الطويل ، وليتلقَّ هذا الإحسانَ بالشُّكْر الذى هو بدوام النعمة خَيْرُ كَفِيل ، ويضاعفْ ماهو عليه من اهتمامٍ لم يزل منه مألوفا ، واعتزامٍ إذا لَاقَىٰ غَيْرُه مُهِمًّا واحدًا لَاقَىٰ هو أُلُوفا ، ويُمْعِن النظرَ فى مصالح هذه المملكة الشامية المحروسه ، ويعتمدْ من حُسن تدبيره ما تغدو رُبُوعُها بحسن ملاحظته عَامِرَةً مأنوسه . وهو يعلم أن العَدْلَ من شِيَمِ دولتنا الشريفه ، وسَجِيَّةِ أيامنا التى هِيَ علىٰ هَامِ الجَوْزَاء مُنِيفَه ، فليسلك سَنَنَه ، ويتبع فَرْضَه وسُنَنَه ، وليعلمْ أنَّ عدل سَنَةٍ خيرٌ من عبادة ستين سَنَه ، ولينشُرْ على الرعايا مَلَابِسَه الحَسَنَه ، وليعظِّمِ الشَّرعَ الشريفَ وحُكَّامه ، وليُعَيِّنِ الإقطاعات لمن يستحقها من الأيتام أو يوجبُ الاستحقاق إكْرَامَه ، والله تعالىٰ يجعل السَّعْد خَلْفَه وأمامه ، ويؤيِّدُه تَأْيِيدًا يُبَلِّغُه مُرَادَه من النَّصْر ومَرَامَه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام :

الحمد لله الذى طَهَّرَ الشَّامَ وقَدَّسَه ، وصَانَه وحَرَسَه ، وجعل لسلطاننا فيه قواعِدَ بالنَّصْر مُؤَسَّسَه ، وأنوارا للهُدىٰ مقتَبَسه ، وكَفَلَه بمن إذا صَفَّ له العدوُّ افترسه ، وأَذَلَّه وأرْكَسَه ، وأرغم مَعْطِسَه ، واَقْتَطَفَ بسَيْفِه أَرْؤُسَه ، ومَنْ يُعْطَى النَّصْرَ إذا امْتَطىٰ فَرَسَه ، ومن كَرَّم الله نَفْسَه ، وكَثَّر أُنْسَه ، وعَطَّر نَفَسَه ، ومن يُنْصِفُ المظلومَ من ظالمه ويبلِّغ السائلَ مُلْتَمَسَه ، ومن لَبِس ثوبَ العفاف واتَّقىٰ فكان خيرَ ثوبٍ لِبْسَه .

نحمده علىٰ أَصْلِ جُودٍ غَرَسَه ، وعارضِ سَوْءٍ حَبَسَه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً أزالت الشِّرْكَ ومَحَتْ نَجَسَه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنبع الله من أصابعه عَيْناً مُنْبَجِسَه ، واَخْضَرَّ العُودُ اليابسُ لَمَّا لَمَسَه ، وأضعف الوساوِسَ المُخْتَلَسَه ، واَنتزعَ الحَقَّ ممن بَخَسَه ، وحماه الله من الشيطان لما وُلِدَ فما نَخَسَه ، ونَوَّرَ القَلْبَ الذى خيم عليه الضلالُ وطَمَسَه ، وكان الشِّرْكُ قد اَنْبَثَّ فى الأرض فطواه دينُه وكَبَسَه ، ومحاه ودَرَسَه ، وجاء بالقرءان فطُوبىٰ لمن تلاه ودَرَسه ، وأنزل عليه : ﴿ واَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَه ﴾ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أولجَ اللهُ اللَّيْلَ فى النهار وغَمَسَه ، وميَّز بنصف العدد من الثلث سُدُسَه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن الشَّامَ هو عِقْدُ النِّظَام ، وأَجَلُّ ممالك الإسلام ، ومَعْدِنُ النَّصْرِ الذى بُرُوقه تُشَام ، ومُسْتَقَرّ البركات الوِسَام ، وعَسْكَرُه أفضلُ عَسْكَرٍ فى حسن الاَعتزاء والاَعتزام ، لا يَرْهَبُون الحِمَام ، ويخوضون لُجَجَ المَنُون بالحُسَام ، ونيابةُ السلطنة الشريفة به من أَجَلِّ النيابات مقدارا ، وأَكْرمها آثارا ، وأعزّها أنصارا ،

إذ هو تِلقاء أوامرنا الشريفة المنطوية عليها أسرارُ البَريد، ومن عنده تتفرّع المهمات للقريب والبعيد ، وعنه يَصْدُرُ البريد، وإليه يَرِدُ بكل نبأ جديد ، ومنه يأتى إلىٰ مسامعنا الشريفة بما نُريد ، فلا يَحُلُّ دارَ سعادتها إلا من هو منصورٌ سعيد ، وذُو رَأْيٍ سديد، وحزمٍ حديد ، وقد آخترنا لها بحمد الله كُفْأَها المعيد .

ولما كان فلان هو الضَّارِىَ علىٰ العِدا ، والغَيْثَ المتوالِىَ النَّدىٰ ، والهمامَ الذى جَرَّد سيفَ عَزْمه أبدا فلا يُرىٰ مُغْمَدا ، وآتَّصَفَ بحسن الصفات فما سَادَ سُدَىٰ ؛ قد تجلت الممالك بآرائه ورَاياته ، وثَبَاته ووَثَبَاته ، ورَوْض تَدْبيره وطِيبِ نَبَاته ، وحُسْنِ آعتماده فى خدمة مُلْكنا الشريف ومهمَّاته ؛ إن ذُكِرَت المُوَالاة الصادقة كان رَاوِىَ مُسْنَدِها ، وحَاوِىَ جَيِّدها ، والآوِىَ إلىٰ ظِلِّها المَديد وطِيبِ مَوْرِدها ؛ وإن ذُكِرَت الشجاعةُ كان زعيمَ كتائبها ، ومَظْهرَ عجائبها ، ولَيْثَ مَضَارِبِها ، ومُجَرِّدَ قَوَاضِبِها ، وفارسَ جَنَائبها ، ومُطْلِبَ أطلابها ومُنْجِحَ مَطَالِبها ، ومُجَلِّىَ غَيَاهِبِها ـ اقتضى حُسْنُ الرأىِ الشريف أن يُعقَد عليه لواء الآحتشام ، فى الشام، وأن يُخَصَّ بالبركات، المُخَلِّصَة من الدَّرَكات .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، وأن يكونَ داخلا فى نيابته الشريفة ما هو مضافٌ إلى الشام المحروس : من مَمَالكَ وقِلَاع ، ومُدُنٍ وضِياع، وثُغُورٍ ومَوَانِى ، وسَوَاحِلَ فى أَقَاصٍ وأدانى ؛ تفويضا آتَّسَقَتْ دُرَرُه ، وأشرقت غُرَرُه ، وتُلِيَتْ آياتُه وسُوَرُه .

فلْيُمهِّد بالعدل أكْنَافَ البلاد ، ولْينظرْ بعين الرعاية والسَّدَاد ؛ ولْيَنْشرْ لواء الإنصاف، لتكون الأمّة تحت ظلّه الضَّافِى وإليه الحَقُّ مضاف. ولْيُدِرِّ الأرزاق

من الأخلاف ، وليأمرْ بإقامة الحدود على شارب السُّلَاف ، وعلى السارقين بالقطع من خِلَاف ، وليَسْتَرْهِف عزائمَ العَسَاكِر المنصورة فى القتال والجهاد ، وليأخُذْهم بحسن الآستعداد ، وليَعْرِف للأمراء منازلهم : فإنهم أركانٌ وأعضاد ، وأنصارٌ وأمْجاد، وأولياءُ دَوْلتِنا الشريفة المَاحُونَ للفَسَاد، وممَّن تتجمَّلُ بهم المَوَاكِب وتتفطَّر بهم للعِدا الأكباد ، واللهَ اللهَ فى الشَّرع الشريف وإقامة مَنَارِه ، وتنفيذ كَلِمَة أحكامِه وإزالَةِ أعذاره ، والتَّقوىٰ فهى أفضل شعَارِه ، وقُرَّةُ أبصاره ، والوصايا فمنه يُشْرِقُ هلالُها إلىٰ أن يتمَّ فى إبداره ، ويتكمَّل بأنواره ، وهو غَنِيٌّ عن إكثاره . فخُذْ تقليدَنا هذا باليمين ، وآلْبَسْ من هذا التفويض المَلْبَسَ الأسْنَى الثمين ، وأخْبَارَ البريد المنصور فلا تَقْطَعْها عنا ، فمنه إلينا تَرِدُ أخبارُ البريد وإليه تَرِدُ المهماتُ منّا ، واللهُ تعالىٰ يخوّله كُلَّ يوم من إحساننا فى الزيادة والحُسنىٰ ، والخط الشريف أعلاه .

الطبقة الثانيــــة

(مَن يُكتب له تقليدٌ شريفٌ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى»
وهو الوزير من أرباب السيوف، وهو بالمملكة الشامية
علىٰ حدّ الوزير بالديار المصرية)

وهذه نسخة مرسوم من ذلك :

الحمد لله مُسَدِّدِ سهام الآختيار، ومُسَيِّرِ الأولياء إلىٰ منازل العَلْياء مَسيرَ الأهِلّةِ إلىٰ منازل الإبْدار، الذى جدّدَ نِعَما ، وعدّدَ كَرَما ، وعلِم مَوَاقِعَ الآضطرار، إلىٰ مَوَاقِع الأوزار، فأرسل إليها مَنْ تستهلُّ آراؤه دِيَما .

نحمده حمدا كثيرا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يتَّخذ صاحبا ولا وزيرا ، ونصلّى علىٰ سيدنا محمد الذى عَمَّر الله به البلاد تَعْميرا ، وأحسن بالعَدْل

تقريرا ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين ظَاهَرُوه بالسيوف والأقلام كاتبا وأميرا ؛ صلاةً لا ينقطع تَوَاليها، ولا تزال الآفاق تَتَنَاقلُها وتَسْتَهْدِيها .

وبعد، فانّ أولىٰ من عَظُم شانُه، وكَرُم مكانُه، وثبت إمكانُه، وأُنبِتَ فى مَنَابِتِ الرماح قلمُه الذى هو ترجمانه، وبُسِطَتْ فى تشيید الممالك يَدُه وأُطْلِق لِسَانُه ــ من كان علَامة العِلْم، وغَدَا بالنشاط فى كِبَرِه فَتِيَّ السِّنّ كَهْلَ الحِلْم، الذى فاق جلالةً ونَسَبا، وٱستعلىٰ هِمَّـةً وأدبا، وعُرِفَ بالديانة التى طار صِيتُها فى الآفاق شرقا ومغربا، والهِمَّةِ التى سواء عليها أَحَمَلَت قلمًا أم ٱنتضت قُضُبا .

ولما كنتَ أيُّها المجلس الفلانى ــ أدام الله تأييدَك، وتسديدَك وتمهيدَك؛ وكَبَتَ حَسُودَك، وضاعف صُعُودَك ــ أنتَ المَعْنِيَّ بهذه المآثر، المُنَضَّدَة عليك هذه الجواهر، الدالّةَ علىٰ مناقبك هذه المَفَاخِر؛ الذى وجَدْناك علىٰ الأنتقاد تزيد ٱستخلاصا، وتَعْدُو على السَّبْك خَلَاصًا .

فلذٰلك خرج الأمر الشريف أن تُوَزَّر، وتُحْمَىٰ مواردُ آرائك لتُسْتَغْزَر، ويكونَ لك الحكم فى المملكة الشامية عموما، وتَتَصَرَّفَ فى معاملاتها مجهولا ومعلوما؛ علىٰ أكمل قواعد الوزراء وأتمها، وأجملها وأعَمِّها؛ متصرّفًا فى الكثير والقليل، والحقير والجليل؛ تَعْزِل وتُوَلِّى مَنْ شيت، وتَكْفِى وتَسْتَكْفِى من ٱرتضيت . ونحن نُوصِيك بالرِّفْقِ الذى هو أَخْلَق، والعدلِ الذى تُسْتَدَرُّ به سُحُب الأموال وتُسْتَغْدَق؛ والحَقِّ فإن كل القضايا به تتعلَّق، ويُمْنِ السياسة فإن الرِّياسةَ بها تكمل وتُغْدَق؛ وإيّاكَ والغرضَ الذى هو يَهْوِى بصاحبه، ويُرْدِيه فى عواقبه؛ وٱتَّقِ اللهَ الذى لا تتم الصالحات إلا بتقواه، وٱحذر أن تكون مع من ضلَّ سبيلَه وٱتبع هواه؛ واللهُ تعالىٰ يُنْجِحُ رجاءَك ويُوَضِّح منهجك، ويُعْلِي دَرَجك، ويلقِّنُك إذا خاصمت وٱختصمت حُجَجَك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثالثة

(من يُكْتَبُ له مرسومٌ شريف، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(من يُكْتَبُ له فى قطع النصف وهو نائب قَلْعة دِمَشْق)

إن كان مقدّم ألْفٍ كما كان أوّلا، كتب له بـ «المجلس العالى». أو طبلخاناه كما هو الآن، كتب له بـ «السامى» بغيرياء. وبالجملة فإنه يكتب له مفتتحا بـ «الحمد لله».

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بنيابة قَلْعة دِمَشْق المحروسة، من إنشاء المقر الشّهابِى ابن فضل الله رحمه الله، وهى :

الحمد لله مُشَرِّف القِلَاع، ومُصَرِّف رجالها فى الآمتناع، ومُعَرِّف من جَادَلَهَا أنّ الشَّمْسَ عاليةُ الآرتفاع.

نحمَدُه حمدًا يُشَنِّف الأسماع، ويُشَرِّف الإجماع، ويُحَلِّق فى صُعُودِه الملائكةُ أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجو بها لمَا بَقِىَ من قلَاع الكُفْر الآقْتِلاع، وآسْتِعَادَةَ ما قَرَّ معهم من قُرًى وضَاعَ من ضِيَاع؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى حَمَىٰ به دِرَّةَ الإسلام من الآرْتِضَاع، وصَانَ به حَوْزَةَ الحق أن تُضَاع، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً دائمةً ما أُسْبِلَ للّيلِ ذَيْلٌ وآمْتَدَّ للشّمس شُعَاع؛ وسلم تسليما كثيرا.

وبعد، فإن للحُصُونِ حواضِرَ كالبِلَاد، وحَوَاضِنَ تَضُمّ بقاياها ضَمَّ الأُمَّهاتِ للأولاد؛ ومَعَاقِلَ يُرْجَعُ إليها إذا نَابَتِ النُّوَبُ الشِّدَاد، ومَعَاقِد يعتصم من منَعَتِها بجبال ويتمسك بأطواد؛ وقلعةُ دمَشْق المحروسةِ هى التى تفتخر بقايا البِقَاع(١) بالآتصال

(١) لعله القلاع.

بِسَبَبِها، واتَّمَسُّك فى الشدائد بذَيْل حَسَبِها، لا يُهْتَدىٰ فى السِّلْم والحَرْب إلا بِمنَارها، ولا يُقْتَدىٰ فى التسليم والامتناع إلا بآثارها، ولا يُسْتقىٰ إلا بما يَفيضُ علىٰ السُّحُب من فَيْض أمْطارها، قد تَرَجَّلَتْ لتُبَارز، وتَقَدَّمَتْ لتُنَاهِز، ودَلَّتْ بقُوَاها فما احْتَجَبَتْ من سُجُوف الجَبَل بحِجَاب ولا احْتَجَزَت من الغَمام بحَاجِز؛ بل أَلْقَتْ إلىٰ قَرَارِ المَاء حِجْلَها، وأثبتت فى مستَنْقَع الموت رجلها؛ وكَشَفَتْ لِحَـرْب العَوَان قِنَاعها، وأشعلت أبْنِيَتُها من الذهب شُعَاعها، وأشغلت أفنيتُها البروقَ أن تُطَاوِلَ باعَها، أو تُحَاوِلَ ارتفاعَها؛ قد جاورت قُبَّتُها الزَّرْقاءُ أُخْتَها السَّماء، وجَاوَزَتْ بُرُوجها مِنْطَقَةَ البُرُوج اعْتِلاء؛ وهى مَعْـقِلُ الإسلام يَومَ فَزَعِهِم، وأَمْنُ قُلُوبهم أعاذها الله من جَزَعِهِم؛ وقد نزل العَدُوُّ عليها ونَازَلَها زمانا بجُمُوعه وأعَانَهُ عليه قَوْمٌ آخرون، وأَقْدَمُوا وتقـدَّموا وهم مُتَأَخِّرون؛ وطَاوَلُوها فكانت حَسْرَةً عليهـم، ونَكَالًا لمـا خَلْفَهم ومابين يَدَيْهِم؛ وثَبَّتَ الله بها أقدامَ بَقِيَّةِ القلاع، وقَوَّى بعَزَائمها إقْدَامَ من فيها علىٰ الامتناع؛ وقَلْعـةُ الجَبَلِ المحروسةُ وإيَّاها كالأُخْتَيْن، وهى لهـا ثَانِيَـةُ اثْنَيْن؛ وكِلْتَاهُما لكُرْسِيِّ مُلْكنا الشريف منزلٌ سعيد، ومَسَـرَّة يَوَدُّ صَفِيحُ الأفلاك لو تَرَامَىٰ إليه من مكان بعيد.

فلمَّا رسمنا بنقل من كان فى النيابة الشريفة بها فى مَنَازلهـا من مكان إلىٰ مكان، وقَدَّمْنَاه أمامَها كما يهتَزّ فى قَادِمَة الرمح السِّـنَان؛ واتَّخَـذْنا من بُرُوق عَزَائمه لبعض ثُغُورِها الضاحكة شَنَبا، ومن هِمَمه المُتَّصلة المَدَدِ بها ما تَمُـدّ منها إلىٰ سَمَائها سَبَبا ـ اقتضىٰ رَأْيُنا الشريفُ أن نُوَلِّ فى أمرها المهِـم، وبِرِّها الذى به مصالح كثير من ممـالكنا الشريفة تَتِم؛ وتُحَلِّيَ مَشَارِفَها بمن تُضَاحِكُ البروقَ سُـيُوفُه فى لَيْلِ كُلِّ نَقْعٍ مُدْلَهِمّ، وتَحْمِي حِمَـاها برجل تَمْنع مَهَابَتُه حَتَّى عن نَقْل الأسـنة (؟) طَارِقَ الطَّيْف أن يُلِمّ؛ وهو الذى لا تزعزعُ له ذُرَا، ولا يُناخ لبادرة سَيْله فى ذَرَا، ولا يَقْدرمعه

الأَسَـدُ أن يَبِيتَ حول غَابِهِ مُصْحِرا، ولا الطَّيرُ أن يُحَلِّقَ إليه إلا مَاسِحاً بجناحه على الثَّرىٰ، ولا أَدْلَجَتْ إليه زُمَرُ الكواكب إلا تَقَاعسَت فلا تَسْتَطِيعُ السُّرىٰ .

وكان فلانٌ هو حَامِىَ هذا الحِمَىٰ، ومَانِـعَ ما يَحْلُو فى الثُّغُور من مَوَارِدِ اللَّمَىٰ ، وغَيُورَ الحَىِّ فلا تبرُزُ له إلا من عَقَائِل المَعَاقِل قاصرَاتُ الطَّرْف كَالدُّمَىٰ ، وحَافِظَ ما ٱسْتُودِعَ من مَصُون، وٱسْتُجْمِعَ من حُصُون، وٱستجهرَ من مَوَارِد تَرِدُها من زَرَدِ الدروع عيون، ويُفَرِّقَ منها المجانيقَ سَحَائِبَ مُمْطِرَةً بالمَنُون؛ فصَمَّمَ رأْيُنا الشريفُ على ٱختياره لِيُوقِّلَ[(1)] صَهْوَةَ هـذا الجواد، ويُوَفِّىَ ما يجب لهـذه العقيلة من مرتمق لحظ ومرتمىٰ فؤاد ، ويبحث من الشغف بها عن أمل آمل أو مراد مراد ، ويُعجَب من عقيلتها المصونة أن أبراجها تَتَبرَّج وما لنُعْمَاهَا إنعامٌ ولا لسُعَادِهَا إسْعَاد .

فرسم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكِىّ، الفلانىّ ـ أعلاه الله وشرفه، وأدام فى الأرض ومَنْ عَلَيها تَصَرُّفَه ـ أن تفوّض إليـه النيابة بقَلْعة دِمَشْقَ المحروسة : علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَته، ومُقَارَبته ومُبَاعَدَته ، وتَخَلِّيه ومساعدته ؛ وكل ما جرت به العوائدُ فى رجائها ورجالها ، ومالها ومآلها ؛ وهـذه نِيَابَةٌ شريفه، وسَحَابَةٌ مُطِيفَه ؛ ونعمةٌ تُقَابَلُ برعايتها، وتُكْتَمُ نوَافِحُها بإذاعتها ؛ وتقوىٰ الله حلْيَـة عنقها، وحُلَّة أُفُقِها، ومَجْرَى المَجرَّة إجلالا فى طُرُقِها .

فعليك بحفظها لَيْلا ونهارا، وتَفَقُّدِ أحوال مَن فيها سِرًّا وجِهَارا ؛ وفَتْحِ بابها وغلقها مع الشمس، وتَصَفُّحِ ما بها من لِبْس، وتَتَبُّعِ أسبابها كما فى النفس؛ والتَّصَدِّى لملازمة الخدمة الشريفة فى أبوابنا العالية ببابها ، والأَخْذِ فى أدوات حِفْظها بمجامع أطرافها دون التمسك بأهدابها؛ والتَّجَسُّسِ علىٰ مَن يُلِمُّ فيها جَفْنُه بكَرًى وما أثقله مناما،

(١) ليوقل ليصعد .

وإلزامِ كُلٍّ واحدٍ بما يلزمه من الوظائف فى ليله ونهارِه، وإدْلاجه وآبتكارِه، ومن عليه فى هذا المعقل إشراف من شُرُفَاته أو تَسَوُّرٌ علىٰ أسواره، وإظهار الرَّهَج والصِّيتِ والسُّمْعة بالاهتمام فى كُلِّ ليلة زِفَافِ عَرُوسِها، وضَرْب الحَرَسِ لنواقيسها، والإعلانِ لصَبَاح الخَيْر لنا فى صُبُحَاتِها والدعاءِ الصَّالِح فى تَغْلِيسها، وصيانةِ ما فيها من حوَاصل، أو يصلُ إليها من وَاصِل، وما فيها من ذخائر، وما فى خزَائِنِها العاليةِ من مَدَدِ البَحْرِ الزَّاخِر، وما تشتملُ عليه دَارُ الضَّرْبِ من أموالٍ تُضْرَبُ للهِبَات بَرَسْمِنا، وأموالِ الناس [التى] حُمِلَتْ إليها لتُشرَّف تقودُها باسمنا، وخزائن السلاح المنصورة وما يُسْتَكْثَر فيها من عَدد، وما يُسْتَغْزَر من مَدَد، والمَجَانيقُ التى تخْطِرُ منها كُلُّ خَطَّارَة كالفَنِيق، وتصْعَد ومرماها إلى السماء كأنَّما تَخْطَفُه الطَّيْرُ أو تَهْوِى به الرِّيحُ فى مكانٍ سَحِيق، شائِلَةً عقَارِبُها، آفلة بالأعْمَار كوَاكِبُها، والحدُوج والقِسِىّ والرايات وغير ذٰلك من سِلَاح، أو دُرُوع تَرُدُّ السِّهامَ علىٰ أعقابها وتحْنى قامَاتِ العوَالِى وتُضَيِّقُ صُدُورَ الصِّفَاح. والبحريَّةُ وغيرهم من رجال هذه القلعة المحروسة من نجوم آفاقها، وغُيُومِ إرْعَادها وإبْرَاقها، ودِيَمِها إذا أسبلت المسالمةُ ذيولَها وأعوانها إذا شمَّرَتِ الحَرْبُ عن سَاقِها. وبقيَّةُ المستخْدَمين وأرباب الصنائع الذين هم عمارة أوطانها، وأمارةُ العناية بها من سلطانها، فكل ذلك مذخورٌ لمنافع الإسلام، وما رِيشَ السَّهْمُ لأنَّه فى كل ساعة يُرْمَىٰ ولا طُبِعَ السَّيْفُ لأنه فى كل بَارِقة يُشَام، فآحفظْ لأوقاتها تلك المَوَادَّ المذخوره، والْحَظْ هؤلاء الرجالَ فإنهم ظَهْرُ العساكر المنصوره، وخُذْ بقلوبهم وأوْصِلْ إليهم حُقُوقَهم، وآجْمَعْ علىٰ طاعتنا الشريفة مُتَفرِّقَهم وأكْرِمْ فَرِيقَهم، ومنهم المماليكُ السلطانيةُ وهم إخْوانُك فى ولائنا، والذين تَشْرَكُهم فى آلائنا، وبَالِغْ فى حِفْظ المعتقَلين فى سُجُونها، ولفظِ المعتقدين خلافا فى مكنونها، ونَحْنُ نُعيذُها بالله أن تقول: تَفَقَّدْها بالترميم والإصلاح، ولٰكِنَّا نأمُرُك

أن تتعهّدها بما تتعهده من الزَّيْنِ المِلَاح ؛ ولك مِنْ معاضدة مَنْ فى ذلك الإقليم ، مَنْ لَكَ برأيِهِ طريقٌ مستقيم ؛ ومَنْ تُرَاجِعُه فيما أشكل عليك من الأمور ، وتجِدُ به فى طاعتنا الشريفةِ نورًا على نُور ، وٱتبعْ مَرَاسِمَنا المُطَاعةَ فهى شِفَاءٌ لِمَا فى الصُّدُور ؛ والوصايا كثيره ، والله تعالىٰ يجعلك علىٰ بَصِيره ، ويتولّاك بما فيه حُسْنُ السِّيره ، وصَلَاحُ السريره ؛ والاعتماد ... ...

⁂

وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة دِمَشْقَ المحروسة ، كُتِبَ بها لحُسَام الدين «لاچين الإبراهيمىّ» من إنشاء الشريف شِهَابِ الدين ، رحمه الله ، وهى :

الحمد لله الذى صان الحُصُون بانْتِضَاء الحُسَام ، وزَانَ المُلْكَ بارتضاء ذَوِى اليَقَظة من الأولياء والاهتمام ، وأَبَانَ سَبِيلَ السَّعادة لمن أَحْسَنَ بفروض الطاعة وأَجْمَلَ القيام .

نحمده علىٰ أن جعل نِعَمَنا لأصفيائنا وَافِرةَ الأقسام ، ونَشكره علىٰ أن أقبل عليهم بأوْجُه إقبالنا الوِسَام ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً لعُقُود إخلاصِها ٱنتظام ، ولسعود ٱختصاصها ٱلتئام ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى مَنَحَه الإجْلَالَ والإعظام ، ومَدَحَه بالإفضالِ والإكرام ، ورَجَّحه بمزايا الفضل علىٰ جميع الأنام ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه بُدُورِ التمام ، ورَضِىَ عن أصحابه الذين لهم صِدْقُ الاعتزام ، صلاةً ورضوانًا لهما تجديدٌ ومزيدٌ وتأييدٌ ودوام ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد : فإن آلاءَنا لا تزال تَخْتَارُ الأكفاء ، وآراءَنا لا تَبْرَحُ تمنحُ ذَوِى المناصحة الإصفاء ، ونَعْمَاءَنا تُدِيمُ لملابسِ إجلالها علىٰ أُولِى الخِدَمِ الإفاضةَ والإضْفَاء ، وتفى بوُعُود جودها لمن أدام لمناهج المُخَالصة الاقتفاء .

ولما كان فلانٌ هو الذى عُرِفَتْ له فى مُهِمَّاتنا خِدَمٌ سالفه، وأُلِفَتْ منه هِمَّةٌ عَلِيَّةٌ خَصَّتْه بكلّ عَارِفه، وخَوَّلْناه نِعَمَنا الواكِفه، وأهّلْناه لآستحفاظ الحصون فساعده تَوَفُّرُ التوفيق وسَاعَفَه، ونقّلْناه فى الممالك فسار سيرةً حميدةً آقتضت لمَوَاهِبِنا لَدَيْه المضاعفه ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نَرْبَعَ محلّه بأعزّ القِلَاع، ونُطْلِعَه بأفُقِ سعدها أيْمَن إطلاع، ونندُبَه لضَبْطها فيَحْسُنُ له فيها الآستقرارُ ويُحْمَدُ منها له الآستيداع.

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زالت صدقاتُه تُحَقِّقُ الأطماع، وهِبَاتُه تُفِيضُ ملابِسَها التى ليس لها آنتزاع ــ أن يستقرّ فى نيابة قلعة دمَشْق ....

فليباشر النيابة بالقلعة المذكورة بَاذِلًا الآجتهاد، مُواصِلًا للعَزْم والسَّداد، عاملًا بالحَزْم فى كلّ إصْدار و إيراد، كافِلًا منها بحسن الآعتماد، حافظًا حَوَاصِلَها من الضَّياع، مقرِّرا أحوالَها علىٰ أجمل الأوضاع، ولْيَأْخُذْ رجالَها بالآئتلاف على الخدمة والآجتماع، ولْيُحَرِّضْهم على المبادرة إلى المراسيم والإسراع، ولْيُطالِعْ من أمورها بما يتعين عليه لأبوابنا العالية فيه المطالعة ويَجِبُ لعلومنا الشريفة عليه الآطّلاع، وليراجعْ كافل الممالك الشامية بما جَعَلْنا لآرائه فيه الإرجاع، وليكنْ له إلىٰ إشارته إصْغاءٌ واستماع، و إلىٰ سبيل هَدْيه آقْتِفَاءٌ وآتّباع، ولْيَقِفْ عند ما يَتَقَدَّمُ به إليه فبذٰلك يحصل له الرُّشْد والآنتفاع، والله تعالىٰ يجدّدُ عليه سَوَابِغَ نِعَمِنا التى جادت بأجْناسٍ وأنواع، ويجرّدُ فى نُصْرتنا حُسَامَه الذى من بأسه الأعداءُ تَرْهَبُ وتَرْتَاع، ويديمُ له ولجميع الأولياء من صَدَقَات دَوْلَتِنا الشريفة الإمتاع، والخط الشريف اعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه وصية نائب قلعة أوردها فى "التعريف" :

وعليه بحفظ هذه القلعة التى زُفّتْ إليه عقيلتها المُمنَّعه، وجليَتْ عليه سافرة ودُونَها السماء بالسُّحُب مُقنَّعَه، وسُلّمت إليه مَفَاتيحُها، وخواتيم الثُّرَيَّا أقفال، وأُوقدَتْ له مَصَابِيحُها، وفَتَائِل(١) البروق لا تُشَبُّ لقفّال . فليبدأ بعمارة ما دعَت الحاجة إليه من تجـديد أبنيتها ، وتشييد أقْبِيَتها ، وشدّ عقُودها ، وعدّ مالا يحصىٰ [فى الذخائر(٢)] من نُقُودها ؛ [وتنبيه أعيُنِ رجالها والكواكبُ قد همّتْ بُرقُودها(٢)] ، والأخذ بقلوب من فيها ، وتَدارُك بقية ذَمائهم وتَلافيها ، وجَمْعِهم على الطاعه ، وبَذْرِ الإحسان فيهم إذا عرَف أرضًا تزكو فيها الزراعه ، والتَّمادِى لهم : فرُبَّ رجال تجزئ عن عِدّة سنين فى ساعَه ، وتَحْصِينِ هذا الحِصْن المنيع بما يُدَّخر فى حواصله ، ويُسْتَمَدُّ بعمارة البلاد المختصة به من وَاصِلِه ، وما يكون به من المجانيق التى لا تُرْقَىٰ عقارِبُها ، ولا تُوقَىٰ منها أقاربها ، ولا تُرَدُّ لهـا مَضَارِب ، ولا يُكَفُّ من زُبانَى زَبَانِيَتِها كلُّ ضَارِب ، ولا يُخْطِئُ سَهْمُها ، ولا يَخْفىٰ بين النجوم نَجْمُها ، ولا يُعْرَفُ ما فى صُنْدوقها [المقفل]، من البلاء المُرْسَل ، ولا ما فى نِخَذِها المُشَمِّرِ السَّاقِ من النشاط الذى لا يكسل ؛ وغيرها من الرايات التى فى غيرها لا تُشَـدّ ، ولسوى خيْرِها لا تُعقد ؛ وما يُرمىٰ فيها من السهام التى تَشُقُّ قلبَ الصَّخْر ، وتُبكِى خَنْسَاءَ كلَّ فاقدة علىٰ صخر ؛ وكذلك قِسِىُّ اليد التى لا يَدَ بها ولا قِبَل ، وكَنَائِنُ السِّهام التى كم أصبح رَجُلٌ وبه منها مِثْلُ الجبل ؛ وما يُصَان من اللَّبوس(٣) ، ويعدّ للنعيم والبُوس ؛ وما يمدّ من الستائر التى

(١) الذى فى "التعريف" «وقناديل» .

(٢) الزيادة من "التعريف" (ص ٩٥) .

(٣) فى "التعريف" «من العدد والعدد واللبوس» .

هى أَسوارُ الأسوار ، ولمَعَاصِم عقائِل المَعَاقِل منها حلىً سوى كلِّ سِوار ؛ وهى التى تُلاثُ لُثُمُها علىٰ مَبَاسِم الشُّرُفات ، وتُضْرَبُ حُجُبُها علىٰ أعالى الغُرُفات ؛ وسوىٰ هـذا مما تعتصِم به شوامخُ القِلال ، ويُتَبَوّأ به مَقَاعِد للقتال ؛ فكُلَّ هذا حَصِّنْه وحَصِّنْه ، وآحْسبه وحَسِّنْه ؛ وأَعِدَّ منه فى الأمْنِ لأوقات الشدائد ، وآجْرِ فيه علىٰ شَأْوِ مَنْ تقدّم وزِدْ فى العَوائِد ؛ وهكذا مايُدَّخَرُ من عُدَد أرباب الصنائع ، ومَدَد التحصين المعروف بكثرة التَّجَارِب فى الوقائع ، والأزواد والأقوات ، وما لا يُزال يُفَكَّرُ فى تحصيله لأجل بعض الأوقات ؛ وكُنْ من هـذا مُسْتَكْثِرا ، وله علىٰ ما سواه مُؤْثِرا ؛ حتَّى لا تزالَ رِجَالُك مُطْمَئِنَّةَ الخَوَاطِر ، طيِّبة القلوب ماعليها إلا السُّحُب المَوَاطِر ؛ وآعمل بعادة القِلَاع فى غَلْق أبْوَابِ هذه القلعة وفَتْحِها ، وتَفَقُّد متجدّدات أحوالهـا فى مَسَاء كُلِّ ليلة وصُبْحِها ؛ و إقامة الحَرَس ، و إدامة العَسَس ، والحِذَارَ ممَّن لعلَّه يكونُ قد تَسَوَّر أو آخْتَلَس ؛ وتَعَرَّفْ أخبارَ مَن جاورك من الأعداء حتى لاتزال علىٰ بصـيره ، ولا تبرح تُعِدُّ لكلِّ أمرٍ مَصيرَه ؛ وأَقِمْ نُوَبَ الحَمَام التى قد لاتَجِد فى بَعْض الأوقات سواه رَسُولا ، ولاتَجِدُ غيرَه مخبِراً ولاسِواه مسْئُولا ؛ وطالِـعْ أبوابنا العالية بالأخبار ، وسَارِعْ إلىٰ ما يَرِدُ عليك منها من آبْتِدَاءٍ وجَوَاب ؛ وصُبَّ فِكْرَك كُلَّه إليها و إلىٰ ماتَتَضَـمَّنُه من الصواب .

المرتبة الثـانيـــة

(من المراسيم التى تكتب بحاضرة دمشق لأرباب السيوف ـ
ما يكتب فى قطع الثلث ، وفيها وظيفتان)

الأولىٰ ـــ شَـدُّ الدواوينِ بدِمَشْق . وصاحبُـها يتحدّث فيما يتحدّث فيه شادّ الدواوين بالديار المصرية ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة مرسوم شريف بشدّ الدّواوين بدِمَشْق :

الحمد لله الذى أرهَفَ لمصالح دولتنا القاهرةِ من الأولياء ، سَيْفًا ماضِيا ، وجَرَّد لمهمَّات خِدْمَتِنا الشريفة من الأصفياء ، عَضْبًا يَغْدُو المُلْكُ عن تَصَرُّفه الجميل رَاضِيا ، وجدّد السُّعود فى أيامنا الزاهرة لمن لا تحتاج هِمَمُه فى عمارة البلاد المحروسة مُتَقَاضِيا .

نحمده على نِعَمِه التى تستغرقُ المحامد ، وتستوجبُ الشُّكْرَ المستأنَفَ على الحامد ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له شهادةَ مُجاهدٍ لأعدائها ، مُجاهِرٍ لإعلائها ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ الأنبياء قَدْرا ، وأوّلُهم فى الرتبة مكانةً وإن كان آخِرَهُم عَصْرا ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نَهَضُوا بما أُمِرُوا ، وعَمَرُوا الدِّينَ قبل الدنيا فلم تمكن الأيّامُ من [نقض] ما عَمَرُوا ؛ صَلاةً يتأرج نَشْرُها ، ويتبلّج بِشْرُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من عُدِق به من مهماتنا الشريفة أعَمُّها نَفْعا ، وأحْسَنُها فى عمارة البلاد وَقْعا ، وأكْثَرُها لخزائن الأموال تَحْصيلًا وجَمْعا ؛ وأجمعها لمصالح الأعمال ، وأضبطُها لحواصل الممالك التى إذا أعدّ منها جِبالًا تَلَا عليها لِسَانُ الإنفاق : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ مَنْ زانت عَزْمَه نَزَاهتُه ، وكَمَّلَتْ قُوّتَه فى الحَقّ خِبْرَتُه ونباهته ؛ وكان من أولياء دولتنا المُعَدِّين لشدّ أركانها ، وإشادة بُنْيانها ؛ والنُّهُوض بمصالحها المتنوعه ، ونَشْرِ كلمة عدلها التى تَغْدُو بالأدعية الصالحة مبسوطةً وبالأَثْنِيَة العاطرة مُتَضَوِّعَة .

ولما كان فلان هو الذى أُشِيرَ إلى مَحَاسِنه ، ونُبِّهَ على إبريز فَضْله المُظْهَر من معادنه ؛ مع صَرَامَةٍ تُخِيفُ اللُّيُوث ، ونَزَاهَةٍ تُعِين على عِمَارَة البلاد الغُيُوث ؛ وخِبْرَةٍ بإظهار المصالح الخفية وَفِيَّه ، وبإبراز معادن الأموال من وجوهها الجليّة مَلِيَّه ؛

ومَعْرِفَةٍ تَعُمُّ البلادَ بين الرغبة والرهبه، وتجعل مَثَل ما يُودَعُ فيها بالبركة والنماء مَثَلَ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّة ـ آقتضت آراؤنا الشريفةُ أن تُنَبِّه علىٰ حسن آعتنائنا بأمره ، وآعتمادنا بما قدّمه من أسباب إسناء رُتبته ورفعة قَدْره ؛ فلذلك رسم ـ زاد الله فى علائه ـ أن يفوّض إليه ... ...

فليباشِرْ ذلك مُظْهِرًا من مصالح الدولة القاهرة ما كان فى ضَمِيرِ كفايته مكْنُونا ، مُبْرِزًا من تثمير الأموال وتَعْمِير الأعمـال مايُحقّقُ به : من خِصْبِ البلاد بمشيئة الله تعالىٰ ماكان مظنونا، مُوَالِيًـا إلى الخزائن المعمورة من حُمُول تدبيره مايُمْسى به طائرُ تَصَرُّفه ميمونا،وسَبَبُ توقفه مأمونا . ولْيَكُنِ النَّظَرُ فى عمـارَةِ البلاد هو المهمَّ المقدّمَ لَدَيْه، والأمْرَ الذى يتعـينُ تَوَفُّرُ آهتمامه عَلَيْه، فَلْيَجْتَهِدْ فى ذلك آجتهادًا يَظْهَرُ أثَرُه، ويُجْتَنىٰ ثَمَرُه ، ويُحْمَـد وِرْدُه وصَدَرُه ؛ ولتتفرّعُ عنـه أنواعُ المصالح ، وتَتَرَتَّبُ عليه أسبابُ المَنَاجِح؛ ومِلَاكُ ذٰلك بَسْطُ المَعْدَلَة التى هى خيرٌ للبلاد من أن تُمْطَرَ أربعينَ يوما ، وآعتمادُ الرِّفْقِ الذى لايَضُرُّ معـه البَاسُ قوما، ولا يجلُبُ علىٰ فاعله مع الحزم لَوْما ، ولا يَطْرُدُ عمنْ أنَامه العَـدْلُ فى مِهَادِ الدَّعَة نَوْما ؛ وليَصْرِفْ إلى آسْتِجْلَابِ الأموال ومُوَالَاة حَمْلها هِمَّةً ناهِضَه، وعَزْمَةً إلىٰ ماقَرُب ونَأَىٰ من المصالح رَاكِضَه، وقُوَّةً بأسـباب الحَزْمِ آخِذَةً وعلىٰ أَعِنَّـةِ التدبير قَابِضَـه ؛ وفيما خَبَرْنَاه من عزائمه المشكوره، وسِيرتِهِ التى ما بَرِحَتْ بين أولياء دولتنا القاهرة مَشْهُوره ؛ مايُكْتَفَىٰ به عن الوصايا المُؤَكَّدَه ، ويُوثَقُ به فيما عُدِقَ به من الأمور المسدّده ؛ لَكِنْ تقوى الله تعالىٰ أَوْلَى الوَصايا وأوْلُهـا ، وأحقُّ ما تُلِيَتْ عليه تَفَاصيلُها وجُمَلُها، فَلْيُقَدِّمْ تقوى الله بين يديه ، ويجعَلْهـا العُمْدَةَ فيما آعتُمِد فيـه عليه ؛ بعْـد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

الوظيفة الثانية — شد المهمّات . وصاحبها يتحدّثُ فيما يُطْلَبُ للأبواب السلطانية من المستعملات وغيرها . وقد ذكر فى "التثقيف" أنّ عادته أن يكون مقدّم ألْف .

وهذه نسخة توقيع بشدّ المهمات بدمشق ، وهى :

الحمد لله الذى شَدّ عُرَا المَصَالح من الأولياء بكل ذى أَيْد، وكُلِّ مَنْ هو فى المهمات أبطَشُ بعَمْرٍو من زَيْد ، ومن له تدبيرٌ كَمْ أغنىٰ باقتناصه لشَوارد الأمور عن حِبَالَةِ صَيْد .

[وبعد] [1] فإن أحق من ٱسْتُخْلِص لٱستخلاص الأموال ، وٱخْتِيرَ لصَوْنِها من الٱختزال وحِفْظِها من الٱختلال، وأُهِّلَ قَلَمُه وكَلِمُه : هذا للتمثيل وهذا للامتثال ؛ وفُوِّضَ إليه التّصرّفُ فى الترغيب والترهيب، والٱجتهادُ فى التّميز والتّحرير والتّوفير إذ كلُّ مجتهدٍ مُصيب — من اشتهر بأنه ذُو حَزْم لا يَنِى، وعَزْمٍ عن المصالح لا يَنْثَنِى، وٱحتفالٍ بالأحوال التى منها نُكْرٌ لمن يَجْنِى وشُكْرٌ لمن يَجْتَنِى ؛ وله نَبَاهَةٌ يدرِكُ بها كلَّ إيهامٍ وكلَّ إبهام، ويطَّلِع [بها] علىٰ فَلَتَاتِ أَلْسِنَةِ الأقلام، ويفهَمُ بها مقاصدَ كُلِّ من هو من الجنّة فى كل وَادٍ يَهِيم ، ولايخفىٰ عليه جَرَائرُ الجرائد ولامَخَازِى المَخَازِيم ؛ وفيه رحْمَةٌ كَمْ أصْبَحَ بها وهو الأتْقىٰ ، ولم يَأْتِ قَسَاوةً يكون بها هو المُنْبَتَّ الذى لا أرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أبْقىٰ ؛ وكم ساسَ الأمورَ ودبّرها فأحسنَ فيها السياسةَ وأجْمَلَ التدبير ، وٱستخرج [الشَّىْءَ الكثير] بالتخويف اليسير ؛ حتّى جمع حُسْنَ تَدْبيرٍ وٱسْتِرْعا ، وصنع حَسَنًا وأحْسَنَ صُنْعا .

(١) زدنا هذه اللفظة للزومها واستقامة الكلام بها . فتنبه .

ولما كان فلان هو لهذا الأمرِ الجليلِ المُسْتَرْعَى، واسْمُه فى أوّل مَدارِج التَّنْويهِ والتَّنْويل خَيْرُ مُسْتَدْعَى؛ وفيه من جميل الأوصاف ما يُرْضِى حسن الاقتراح وقد خَبَرَ أمور الكَتَبَه، وقد عَلِمَ من أحوالهم ما هو أحْرَى لهم بالتَّجْرِبه؛ وعَرَفَ خَفايا المعاملات معرفةً تامَّه، وأحاط بجزئيات الجهات وكُلِّيّاتها إحاطةً خاصَّة وعامَّه — آقتضى حُسْنُ الرَّأْيِ المُنِيف، أن رسم بالأمر الشريف — لا بَرِحَ يَشُدُّ عَضُدَ كلِّ مُهتمٍّ من الأولياء بِأَنْجَى كل عَزْم، ويجعلُ له سلطاناً لا يَكِلُ مصلحةً إلى حزمِ ذى حزم — أن يفوّض إليه شدّ المهمات بالشامِ المحروس .

فلْيَضْبِطِ الأمور ضَبْطًا مُسْتَوْعِبا، ولْيَنْتَصِبْ لذلك آنْتِصاباً مُتَرَتِّبًا؛ ولْيَحْتَرِزْ مُنَفِّذًا ومُصَرِّفا، ومُسْرِعا ومُسْتَوْقِفا؛ ومتىٰ ظهر حَقٌّ يتمسكْ به تَمَسُّكَ الغَرِيم، ولا يُحَابِ فيه ذا بَأْسٍ قَوِيّ ولا ذا مَنْهَجٍ إلى المَنْعِ والدَّفْعِ غيرِ قَوِيم؛ وما مِنْ جهة إلا ولها شروطُ صَوْبَ الصَّواب، ولا يعتمدْ علىٰ غَيْرِ الحقّ منكّبا عن تَرْوِيجِ الكُتّاب؛ ولْتَكُنِ الحمولُ مُيَسَّره، والمتخرّجات مُتَوَفِّره، وجهات الخاصّ مقرّره، إذ الضُّمّانُ لا يُنْتَظَرُ لهم نَظِرَةٌ إلىٰ مَيْسَره؛ فإنهم سُوسُ المعاملات، وكَوَاسِرُ الجهات؛ ومنهم يُحْفَظ أو يُضَاع، وبهم يَتَرَقَّى أو يَنْحَطُّ الارتفاع؛ وجِهَاتُ المُقْطَعِينَ الواجبُ له أن يجعل عليها وَاقِيَةً بَاقِيَه، ولْتُحْمَ لهم حَتَّى لا يتطاول إلىٰ ذِرْوَتِها آمتدادُ الأيدى المُخْتَزِلَة ولا خُطَا العُدْوان الرَّاقِيَه؛ ولْيَصْرِفْ وَجْهَهُ بحفظه إلىٰ مراقبة من فى باب الشَّدِّ من مُقَدَّمين ومن رُسُلٍ يأكلون أموال الناس بالبَاطِل، ويَبِيعُون الآجِلَ بالعَاجِل؛ ويُحِيفُونَ العامَّ والخاص، وكل منهم يروم الغِنَاءَ وهو رَقَّاص .

هذه زُبْدَةٌ من الوصايا مُقْنِعَه، وعَزَماتٌ غَنِيَّة عن تكثيرٍ فى القَوْل أو تَوْسِعَه؛ والله تعالىٰ يكونُ له ويُعِينُه، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

الصـــنف الثـانى

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينيـة ، وجميع ما يكتب فيها تواقيـعُ ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـــــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلِسِ العالِىّ» بالياء» مفتتحا بـ«الحمد لله»)

وبذٰلك يُكتَب للقضاة الأربعة بحاضرة دِمَشْق .

وهـذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعيـة بدَمَشْقَ المحروسة ، كُتِبَ به لقاضى القضاة «بهاء الدين أبى البقاء السُّبكى» وهى :

الحمد لله الذى أَقَرَّ أحكام الشَّرع الشريف ، فى أيامنا الزاهرة علىٰ أكمل القَوَاعِد ، وأمَرَّ مَدَارَ الحُكم المنِيف ، فى دولتنا القاهرة علىٰ أجمـل العوائد ، وأمضىٰ فَصْـلَ القَضَاءِ فى مَمَـالِكِنَا الشامية بيَـدِ إمَامٍ غَنِيَتْ فَضَائِلُه عن الشواهد ، وَأَمَّتْه الأَئمَّـةُ لاقتباس الفوائد ، وعُدِقَتْ أحكامُ المِلَّة منه بمُجَاهِرٍ فى الحق مجاهِد ، مُسَدِّدٍ فى الدِّين سَهْمَ ٱجْتِهَادٍ رَمىٰ به شَاكِلَةَ الصَّواب عن أثبت يَدٍ وأشدِّ سَاعِد .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى حَلَّتْ مَنَاصِبَ الدين فى ممـالكنا الشريفة بأَكْفَائها ، وعَلَّتْ رُتَبَ العـلم فى دَولتنا القاهرة بٱسـتقرار من جعَلَتْهُ فضَـائلُه غَايَةَ ٱختيارها ونِهَايَةَ ٱصْـطِفَائها ، ودَلَّتْ على ٱعتنائنا بتنفيذ أحكام مَنْ أَتْعَبَتْ سِيرَتُه الجَمِيلَةُ مَن سَهِد فى ٱتباعها وجَهَد فى ٱقتفائهـا ؛ ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحْدَه لا شَرِيكَ له شهادةً لا تزال أعْلَامُنا بهـا تَنْتَصِر ، وأيّامُنا على الجهـاد لتكُونَ كلِمَتُها هِىَ العُلْيا تقتصر ، وأقْلَامُنَا لنَشْرِ دَعْوَتِها فى الآفاق تُسْهِبُ ولا تُوجِزُ وتُطْنِبُ ولا تَخْتَصِر ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من قَضَتْ أُمَّتُه بالحقِّ فعَدَلَت ، وتَلَقَّتْ عنه أَحْكَامَ مِلَّتِه

ففاقت بذلك الأمم وفضلت ، وحكمت بما أراها الله من شرعته فما مالت عن سننه القويم ولا عدلت ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أسلموا لله فسلموا ، وعملوا فى دين الله بما علموا ، وبذلوا النفوس فى طاعته فما استكانوا لما أصابهم فى سبيل الله ولا ألموا ، صلاة نؤدى بها من أمر الله المفترض ، ونرغم بإقامتها الذين فى قلوبهم مرض ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من تنقل فى رتبه السنيه ، ووطدت له بمصر والشام قواعد سيرته السريه ، وأطلقت جياد البراعة فى إمضاء حكمه فى المملكتين مثانى أعنتها ، وأنطقت صعاد البراعة فى إعلاء بهائه فيهما [ألسنة] أسنتها ، وأردنا أن نرده إلى أعز الممالك علينا لنقر عينها ، وقصدنا أن نعيده إلى رتبته بها لنوفى باستعادته دينها ، واخترنا أن نجدد لهذه الوظيفة سالف عهده ، وأن نريه اعتناءنا بأمر منصبه الذى لم يله مثله من الأئمة من بعده ، وعلمنا أن الديار المصرية قد اختصت بفضائله زمنا طويلا ، وأن البلاد الشامية قد ألفت من أحكامه ما لم ترد به بديلا — من ظهرت فضائله ظهور نعته ، وتهادت فوائده رفاق الآفاق : من علماء زمانه وأئمة وقته ، وعلمت أوصاف الصدور الأول من علمه وورعه وسمته ؛ ونشرت الأيام من علومه ما لم يطو بل نطوى إليه المراحل ، ونقلت الأقلام من فنونه ما يروى فيروى به السمع الظامى ويخصب به الفكر الماحل ، وألفت الأقاليم من حكمه ما غدت به بين مسرور بإشراقه ، ومروع بفراقه ، فمن أقضية مسدده ، وأحكام مؤيده ، وأقوال منزهة عن الهوى ، وأحوال صادرة عن زهادة محكمة القواعد ونزاهة مجتمعة القوى ، وإصابة دالة على ما وراءها من علم وورع ، وإجابة فى الحق تحيا بها السنن وتموت البدع ، وشدة فى الدين تصدع فى كل حكم بالحق وإن صدع ، وعدل لا يستلان

جَانِبُه، وحَزْمٍ لايُسْتَزَلُّ صَاحِبُه، ولايُسْتَنْزَلُ رَاكِبُه؛ وقُوَّةٍ فى الحقّ تمنع المُبْطِلَ من الإقدام عليـه، ولِينٍ فى الله يُفْسِحُ للحقّ مَجَالَ القَوْلِ بين يديه؛ ومَجَالِسَ غَدَتْ بالعِلْمِ طَيِّبَةَ الأَرَجِ، وفَضَائِلَ يُحَدَّثُ فيها عن مواد فكره عَن البَحْر ولَا حَرَجَ؛ وبَدَائِعَ تُضْرَبُ إلىٰ ٱستماعها أَكْبَادُ الإبِل، وبَدَاءَةٍ تَهْرَمُ الأيامُ وعُمْرُ شَبَابِها مُقْتَبِل .

ولـمّا كان المجلس العالىّ ـ أدام الله نِعْمَتَه ـ هو الذى ورَدَ علىٰ أبوابِنَا العالية ونُورُ وَلَائِهِ يسعىٰ بين يَدَيْه، وصَدَرَ الآنَ عَنْها وحُلَلُ آلائِنَا تَضْفُو عَلَيْه؛ وأقام فى خدْمتنا الشريفة مَعْدُودًا فى أكرمِ مَنْ بها قَطَن، وعَادَ إلىٰ الشَّامِ مجموعًا له بين مُضَاعَفَةِ النِّعَمِ والعَوْدِ إلىٰ الوَطَن . وهو الذى تختال به المَنَاقِب، وتَخْتَارُ فَضْلَهُ العواقب؛ ويُشْرِقُ قلمُــه بالفَتَاوىٰ إشراق النَّهَار، وتُغْدِقُ مَنَافِعُه إغْدَاقَ السُّحْبِ بالأمْطَار، وتُحْدِقُ الطَّلَبَــةُ به إحداق الكِمَامَة بالثَّمرِ والهَالَاتِ بالأقْمَـار؛ وهو شَافِى عِيّ كُلِّ شَافِعِىّ، ودَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِىّ؛ طَالَمَا جَانَبَ جَنْبُهُ المَضَاجعَ سُهَادا، وقطَعَ اللَّيْـلَ ثم ٱستمدّه لمَدَدِ فَتَاوِيهِ مِدَادا؛ وجمع بين المَذْهَبَيْنِ نظرا وتقليدا، والمُذْهَبَيْنِ من القَوْلَيْنِ قديما وجديدا؛ وسَلَكَ جميعَ الطُّرُق إلىٰ مَذْهَبِ إمَامِه، ومَلَكَ حِسَانَها فأسْفَرَ له كُلُّ وَجْهٍ تغطّىٰ منْ أوراق الكُتُبِ بِلِثَامِه؛ وٱنْفَتَحت بفَهْـمِه للتصانيف أبوابٌ شَـغَلَتْ «القَفَّالَ» أقْفَالُها، ونَفَحَتْ [له] نَفَحَاتٌ ما «لِلمَاوَرْدِىّ» مِثَالُها، ومَنَحَتْ حُلَلًا يَفْخَرُ «الغَزَالِىّ» إذا نُسِجَ علىٰ مِنْوَالِهِ سِرْبَالُها، فلو أدركه «الرَّافِعِىُّ» لشرح "الوَجِيزَ" من لفظه، وأمْلىٰ أحكامَ المَذَاهب من حِفْظِه؛ وصَـدَّرَ المسـائل بأقواله، وأَعَدَّ لكُلِّ سُؤَالٍ وَارِدٍ حُجَّةً من بَحْثِه وبُرْهانًا من جِدَالِه؛ فلَه فى العِـلْمِ المُرْتَقَى الَّذى لايُدْرَك، والمنتهىٰ الذى لايُنَـازَعُ فى تَفَرُّدِه ولا يُشْرَك، والغايَةُ التى أحرزها دون غيره فلولا المشقةُ لم تُتْرَك؛ وهو الذى ما زال بهذه الرتبة مَلِيّا، وبمـا عُدِقَ بذِمَّتِه من أحكامها

وَفِيًّا، وبكلّ ما يُرْضِى الخليقة عنه من أحوالها قائما وكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا، وبأعبائها مُسْتَقِلًّا من حين منحه الله العلم نَاشئًا وآتاه الحُكْمَ صَبِيًّا . وما بَرِحَ تدعوه التَّقْوَىٰ فيُجيبها، ويترك ما لا يُرِيبُ نفسه تنزيهًا عمّا يُريبها، فكَمْ فجَّر بالبِلاد الشَّامِيَّة من علمه عُيُونا ، وغَرَسَ بها من أفنانِ فَضْله فُنُونا ؛ وكان لها خَيْرَ جارٍ ترك لها ماسِوَاها ، وأَكْرَمَ نَزِيلٍ نوىٰ بالوصول إليها مَصْلَحَةَ دِينه فلم يُضَيِّعِ اللهُ له نِيَّتَه التي نَوَاها ؛ وأَلِفَ قَوَاعِدَ أهلِها وعوائدهم ، وعَرَفَ بحُسْنِ اطلاعه ما جبل الله عليه غائبهم وشاهدَهُم ؛ وعدُّوهُ من النِّعَم المقبلة عليهم ، واقْتَدَوْا فى محبَّته بالذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ؛ ثم قَدِمَ إلى الدِّيار المصرية وما كان قُدُومُه إلا علينا، ووَفَدَ إليها بحُسْنِ مَوَدَّته ومحبته اللَّتَيْنِ ماوفَدَ بهما إلا إلينا ؛ فرأينا منه إمامًا لا يُحَكِّمُ فى توليته الحكمَ بالهوىٰ، ولا يُنَوِّى فى تقليده القضاءَ غيرُ مصلحة المسلمين « ولِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » ؛ وهو ـ بحمد الله ـ لم يَزَلْ بقواعد هذا المَنْصِب خَبِيرا، وبعوائد هذه الرتبة بَصِيرًا ، وبإجرائها عَلَىٰ أكمل السُّنَنِ وأوضح السَّنَنِ جديرا ، وبإمضاء حُكْم الله الذى يُحَقِّقُ إيجادُ الحقِّ فيه للأمة أنّه من عند الله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ؛ مع ماتكملت به فضائلُه من الوقوف مع الحَقِّ المُبِين، والتَّحَلِّى بالوَرَع المَتِين ، والتَّخَلِّى للعبادة التى أصبح مَنِ اتصف بها مع النَّبِيِّين والصِّدِّيقِينَ والشُّهَداء والصَّالِحِين .

فلذلك رسم بالأمر الشريف الأَشْرَفِيِّ النَّاصِرِيِّ ـ لازال عَلَمُ العِلْم فى أيامه مرفوعا، وأَلَمُ الجَهْل بما خص الله به دولته من الأئمة الأعلام مدفوعا ـ أَنْ يفوض إلىٰ المشار إليه قَضَاءُ القضاة الشافعيَّة، ونظرُ الأوقاف بدمشق المحروسة وأعمالها بالبلاد الشامية، وما هو مضاف إلىٰ ذلك من الصدقات والتَّدارِيس والتصدير وغير ذلك، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذلك وقَاعدته ومعلومه .

فليُقَابِلْ هذا التقليدَ السعيدَ بيَدٍ زِيدَ فى الحقِّ تمكّنُها، وعلى الخير تمرّنُها، وفى العدل انبِساطُها، وفى احكام الله تعالىٰ بحسن المعاضدة على الحقّ قوّتها واحتياطُها، ويُمضِ علىٰ ما أُلِفَ من سِيرَتِه التى زان العلمُ أوصافَها، وزان الورعُ اتّصافَها، وحَلَّى العَدْلُ مَفَاخِرَها، وأحْيا التُّقَىٰ مآثِرَها، وتناقلت رِفاقُ الآفاق أحكامَها، واستَصْحَبتْ من هدايا هُدَاهَا ما تُتحِفُ به حُكّامَها، وفيما نُعِتَ من محَاسِنِه ما يُغْنِى عن الوصايا المجدَّدَه، والإشارات المردَّدَه، لكن الذكرىٰ بتقوى الله تنفع المؤمنين، وتَرْفَعُ المُتَّقِين، وتجمع مصالح الدنيا والدين، فَلْيَجْعَلْها خُلُقَه ما استطاع، وليَرَ حُكْمَها هو الحُكْمَ المتبع وأمْرَها هو الأمْرَ المُطَاع، والاعتماد ... ... رابع عشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

قلتُ : ولم أقف علىٰ تفويض لقَاضٍ من كتّابة من تقدّم سوىٰ تفويض واحد، من إنشاء المقر الشّهابىّ بن فضل الله، كتبه لقاضى القضاة «شهاب الدين بن المجد عبد الله» بالشام المحروس، علىٰ مذهب الإمام الشافعىّ. وهذه نسخته :

الحمد لله على التّمسُّكِ بشرائعه، والتّنَسُّكِ بذَرَائِعِه، والتّوسُّلِ إلى الله بتأييد أحكام شارعه، والتوصل به إلىٰ دِينٍ يُقطَع به من الباطل أعْنَاقُ مَطَامِعِه .

نحمده حمدًا يأخذ من الخيْرِ بمجَامِعِه، ويُضَاهِى الغَمامَ فى عموم مَنَافِعِه، ويُبَاهِى السيف بقلم الشرع فى قَهْرِ عاصِيه وحماية طَائِعِه . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤدّى للإيمان أمانَةَ وَدَائِعِه، وتَهْدِى إلىٰ صِيَانَةِ مَشَارِعِه، وتقيمُ من العلماء كُلَّ شِهَابٍ تُقْسِمُ الأنوارُ بلوَامِعِه، وتُقْسِمُ الأبصارُ ببَدَائِعِه، وتجُولُ الفَتَاوىٰ فى صدره الفسيح وتَجُولُ فى شوارعه، وتُرْهِفُ منهم للحكم العزيز كُلَّ قَلَمٍ يدُلُّ السهمَ علىٰ مَوَاقِعِه، ويُنَبِّه الرُّمحَ من مَقَاتِلِ الأعداء علىٰ مَوَاضِعِه، ويَسْرِى

غمامُه إلى الأعداء بصواعقه وإلى الأولياء بهوامعه ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أسعد الأمة بطالعه ، وأصعد الأئمة فى مطالعه ، وأسعف الملّة بما أبقى الله فيها من حسن صنائعه ويُمن طلائعه ، ومن شريعته التى أَمِنَ حبلُها الممدودُ من جذب قاطعه ، وكُفى شرَّ قاطعه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة [تتوالى إليه توالى] العذب إلى منابعه ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن الله لمّا أقامنا لحماية شرعه الشريف أن يُستباح حماه ، أو يُباح لأحد من حُكّامه أن يركب هواه ، أو يتعدّى حُدودَه فى سُخطه أو رضاه ، أو يُحدث فى أمره ما ليس منه إلا أن يكون ردًّا على سواه ـ [جعلنا] نجدُّ على إقامة مناره أن يُطمس ، وإدامة مباره أن يُقلَع منارُها أو يُبخس ؛ استدامةً لتأبيس حُكّامه ، وتأييد أحكامه ؛ لأنه سحائبُ أنواءٍ يعمُّ الربيعَ ربوعُها ، ومشكاةُ أنوارٍ يكاثرُ الصّباحَ لموعُها ، وأفاويقُ وفاقٍ تنيم به الأمةَ ضروعُها ، وشجرة مباركة إسلامية زكت أُصولها ونمت فروعُها ؛ شُكرًا لله على ما خصّنا به : من تحصينِ ممالك الإسلام ، وتحسينِ مسالكِ دارِ السلام ؛ لِنمنعَ المِحَنَ أن تُسام ، وبُروقَ الفِتَنِ أن تُشام ، ووُجوهَ الفتوى أن تتزيّن إلّا بِشامةِ الشّام ؛ غِبطةً بأن الله جعل للإسلام منها ما هو خيرٌ وأبقى ، وأشرفُ وأتقى ، وأعظمُ بلدٍ تتشعّبُ بالمذاهب طُرُقا ، وتودُّ المجرّةُ لو وقفتْ بها على الشريعة نَسَقا . تتزاحمُ فى مراكزها الأعلام ، وتتضافرُ على الجهاد فى الله بالجلاد والجدال تارةً بالسيوف وتارةً بالأقلام . ودِمَشْقُ حرسها الله هى أمّ ذلك الإقليم ، ومددُه الذى يحنو على مشارعها حُنُوَّ الوالدةِ على الفطيم ، وتنبت بها فوائدُ لا تأمن معها الغوانى حتّى تلمس «جانب العِقدالنّظيم» ؛ وهى دارُ العلم ، ومَدارُ الحُكْم ، ومَوْطِنُ علماءَ تتعاقب

فيهـا كواكبهم ، وتَتَناوَبُ سَحائِبُهم ؛ وتتناهى إلىٰ حكمها العزيز الشكوىٰ ، وتنفصل بحكم حاكمها الدعوىٰ ، ويَمْتَدُّ جَناحُ طَيْلَسانه علىٰ رَضْوىٰ ، ويُحَلِّقُ البَرْقُ وراء فَهْمه ولا يبلغ غايته القُصْوىٰ ، ويَطُولُ قَلَمُه على السيف المُشْهر ، ويُرَفْرِفُ سِجِلُّه على الشرع المُطَهَّر ، كَمْ حَلَّتْ فى صُدوره صُدُور ، وكَمْ طلعَتْ منهم شُمُوسٌ وبُدُور ، وكَمْ حُمِدَتْ منهم أمورٌ عاقبةٍ ولله عاقبةُ الأمور ؛ كَمْ أَدَاءَ دَرْسٍ بهم ذُكِر ، وكَمْ أَدَبَ نَفْسٍ شُكِر ؛ كَمْ بِهِم مَجْدٌ رَسَخ ، وجَدٌّ لملّةٍ ممالاةٍ نَسَخ ؛ كَمْ أَقْضِيَةٍ لهم بالحق وَصَلَتْ ، وقضيّةٍ لِحَقٍّ فَصَلَت ، ومهنة من غَلَبِهِم اللاحق حصَلَت ؛ كم سِجلٍّ صاحبُ هذا المنصب حاملُ عَلَمِه المنشور ، ومصباح دِيمِه الحافلة علىٰ ممرّ الدُّهور ؛ بشرف مُدَرِّس عِلْمٍ يطْلُع من محرابه ، ونَسَّاك حلم يبدو بَدْرُه التَّمَامُ خلف سحابه ، ومَجْلِسِ إفادةٍ ، آنعقد عليه فيه الإجماع ، ومَحْفِلِ سَادَةٍ ، كان فيهم وَاسِطَةَ عِقْدِ الآجتماع .

[ولمـا] تزلزلت قَدَمُ مَنابِره ، وآنْتُهِكَ حِجابُ ضَمائِره ، وآستزلّه الشيطانُ بكيده المتين ، وأضله علىٰ علمه المبين ، وسَبَقَ القَلَمُ الشَّرْعِىُّ ، بما هو كائن ، ومَضَى الحكمُ القَطْعِىُّ ، بما هو من تصرُّفه بائن ـ تردّد الآختيار الشريف فيمن نُحَلِّى جِيدَهُ بتقليدها ، ونُؤَهِّلُ يَرَاعَهُ لتسليم مقاليدها ، وصَوَّبْنا صَوَابَ النَّظَر فيها مِصْرًا وشَاما ، وآستشرفنا أعلاما ، وتَيَقَّنَّا لأقوىٰ ما يكون [لهـا] قواما ، وابتكرنا أنه لا يصلح إلا من كان لِحُلَّةِ المَجْدِ طِرَازا ، ويزيدُ العَمَلَ إليه آعتزاء والعِلْمَ به آعتزازا ، إلىٰ أن أَجْمَعَ رأيُنَا العالى علىٰ من لا يُنْكِرُ ذُو قدَم ولا قَدَم ولا قَلَم ، أنه السابق ؛ ولا يَجْحَدُ رَبُّ عِلْمٍ ولا عمـل ولا عَلَم ، أنه الباسق . ولا يَشُكُّ أَنَّ مِنْ فوائده يُسْتَمَدُّ المَطَر ومن توقُّد ذهنه يُقْدَحُ زِنَادُ البَارِق ، ولا يَرْتَاب البحر أن فرائده مايُطَوِّقُ العُنُق ويُشَنِّفُ الأُذُنَ ويُتَوِّجُ المَفَارِق ، ولا يُمَارَىٰ فى فَضْله الذى لو طُلِبَ له مِثْلٌ لم يُصَبْ ، ولو آدَّعَىٰ الكَوْكَبُ السَّارى أَنَّه له شَبِيهٌ لَمَسَّهُ النَّصَبْ ، أو تَلَفَّتَتْ أعناق القَنَا إلىٰ قلمه لأَيْقَنَتْ أنهـا كَلٌّ على القُضُبْ ؛

وهو الذى أفنىٰ عُمْرَه فى تحصيل العلم آشتغالا ، وجدّ فى الطَّلَبِ لصالح العَمَلِ وإن تَغالَىٰ ، وبقِىَ فَقِيهَ قَوْمٍ ماجدٌ منهم مِثْله مَاجِد ، ولا جَادَتْ يَدُ كَرِيمٍ منهم تمتدّ بما هو جَائِدْ ، ودَرَجَ أقْرَانُه إلى الله وخُلِّىَ دونهم شَرْعًا لا يردّ واردا ، وخُلِّفَ بعدهم سَهْمًا فى الكِنَانة وَاحِدًا .

وكان المجلس العالى ـ أدام الله تأْيِيدَه ـ هو الذى تَخْتَالُ به المَنَاقِب ، وتَخْتَار فَضَائِلَه العواقب ، وتُشْرِقُ بقَلَمِه الفَتَاوَىٰ إشراق النَّهار ، وتُغْدِق مَنَافِعُه إغداق السُّحُب بالأمطار ، وتُحْدِقُ به الطَّلَبَةُ إحداق الكِمَامَة بالثَّمَر والهَالَاتِ بالأقمار ، وهو شَافِى عِىِّ كُلِّ شَافِعِىّ ، ودَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِىّ ، طالما جَانَبَ جَنْبُه المضَاجِعَ سُهادا ، وقَطَعَ الليلَ ثم آستمدّه لمدد فتاويه مِدَادًا ، وجَمَع بين المذهبين نَظَرًا وتقليدا ، والمُذْهَبَيْنِ من القولين قَدِيمًا وجديدا ، وسلك جَمِيعَ الطرق إلىٰ مذهب إمامه ، وملك حِسَانَها فأسفر له [كل] وجه تَغَطَّى من أوراق الكتب بِلِثَامِه ، وآنْفَتَحَتْ [بفهمه] للتصانيف أبواب شَغَلَت « القَفَّالَ » أَقْفَالُها ، ونَفَحَتْ له نَفَحَاتٌ ما « لِلمَاوَرْدِىّ » مِثَالُها ، وسفحت دِيَمٌ غِزَارٌ يسق «المزنى» سجالُها ، ومنحتْ حللا يَفْخَر «الغَزَالِى» إذا نُسِج علىٰ مِنْواله سربالُها .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زال يجدّد مَلَابِسَ فَضْلِه ، ويقلِّدُ كُلَّ عَمَلٍ لصالح أهله ـ أن يفوّض إليه قضاء قضاة الشافعية بدمشق المحروسة وأعمالها وجُنْدها وضَوَاحِيها ، وسَائِر الممالك الشامية المُضَافَة إليها والمَنْسُوبة لها والمحسوبَة فيها ، يُوَلَّى ذلك ولايةً صحيحةً شَرْعيه ، علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَته المَرْعِيَّه ، مع ماهو مضاف إلىٰ من كان قبله من تدريس المدارس ، تَفْوِيضًا لايُنَافِسُه فيه مُنَافِس ، ولا يجالسه فى درسه إلا من ارتضىٰ من النجوم ان يجالس ، وأَذَنًا له أن يَسْتَنِيبَ عنه من

لا يَخْجَلُ عند الله ولا عِنْدَنا بآسْتِنَابَتِه، ولا يُدَاخِلُه ظَنٌّ فى خَلَاص ذمته بإنابته إلىٰ الله فى نيابته؛ علىٰ أنّه يتفقدُ أعْمالَهم، ويَتَصَفَّحُ أحْوالَهم: فمن نَقَلَ إليه ثِقَاتُه أنه علىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ أقرّه، وإلا صَرَفَه ثم لايكون لَهُ إلىٰ عَمَلِه كَرّه؛ وهو القائم بحُجَّة الشرع الشريف وحجةُ الله عليه قائمه، وعليه إن قَصَّرَ ـ والعياذ بالله ـ فى أموره تَعُودُ اللّائمه؛ وأنت تعلم أنَّا ما كُنَّا نعرفك عِيانا، وإنَّما وُصِفْت لنا حتى كأنَّا نَرَاك وسَمِعْتَ بما نحن عليه حتىٰ كأنَّك تَرَانا، فَشَيِّدْ لمن شَيَّدَ لك شُكْرَهم أركانا، وأَعْلِ ذِكْرَهُم لمَجْدِك بنيانا، وجَعَلَ لك قَدْرُهم الجميلُ مِنّا سلطانا؛ وأَقِمْ بحُسْنِ سُلُوكِكَ علىٰ ماقالوا فيك بُرْهَانًا، وآعْرِفْ لهم حَقَّ معروفهم وجَازِهِمْ عن حُسْنِ ظَنِّهم بالحسنات إحسانا .

ونحن نُوصيك بِوَصَايَا تشهد لنا يوم القيامة عَلَيك ببَلَاغِها، ويَعْتَرِضُ منها فى الحُلُوقِ شَجًا : فأَيُّ الرجالِ يَقْدِر علىٰ مَسَاغِها؛ فإن قُمْت بها كَانَ لَنَا ولك فى الأجر آشتراك، وإنْ أَضَعْتَ حقوقَها فآللهُ يَعْلَم أننا أخرجنا هذه الأَمَانَةَ من عُنُقِنا وقَلَّدْنَاك، وآللهُ وملائكَتُه بيننا و بينك شهود علىٰ ماأوليناك وما وَلَّيناك؛ فعليك بتَقْوى الله فى السِّرّ والإعلان، والعَمَلِ بما تعلمه سَوَاءٌ رَضِيَ فُلَانٌ أو سَخِطَ فُلَان؛ والآنتهاء إلىٰ ما يقتضيه عُمُومُ المصالح، وإمْضاء كل أمْرٍ علىٰ ماأمر الله به رسولَه صلَّى الله عليه وسَلَّم وكان عليه السَّلَفُ الصَّالح؛ وإقَامَة حُدُودِ الله ولا تَتَعَدَّ حدودَه، وقَمْعِ البِدَعِ لإظهار الحق لا لإثارة فِتْنَةٍ مَقْصُودَه؛ فقد عَلِمْتَ ما أنكرَه أنْتَ وأمثالُك من الأئمة العلماء علىٰ من تَقَدَّمَك من تَسَرُّعِه فى مِثْلِ ذَلِك، وتَطَلُّعِه إلىٰ مَطَالِبَ سقط دُونَها فى مَهَاوِى المَهَالِك؛ فإيَّاكَ إيَّاكَ أن تَتَّبِعَ فى هذا النَّحْوِ سُبُلَه، أو «تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتِىَ مِثْلَه» .

والصدقات الحكمية علىٰ مادّة المساكين، وجادّة الشاكين؛ ففرّقها علىٰ أهلها، وٱجمع لك الحسنات عند الله بتبديد شملها؛ ولا تُبقِ منها بقيةً تبقىٰ معرّضةً لأكلها، فلو أراد واقفوها ـ رحمهم الله ـ أنها تبقىٰ مخزونةً، لمَا سمحوا ببذلها؛ وبقيّة الأوقاف شارِفْ في أمورها، وشارِكِ الواقفينَ ـ رحمهم اللهُ ـ فى أجورها؛ وخُصَّ الأسارىٰ ـ أحسنَ اللهُ خلاصَهم ـ بما يصل به إحسانُك إليهم، ويضعُ عنهم إصرَهُمْ والأغلالَ الّتِي كانَتْ عَلَيْهِم .

والأيتام ـ جبرهمُ اللهُ ـ : منهم الطِّفل والمُميِّز والمُراهِقُ ومَنْ لم يملك رُشْدَه، أومن يحتاج أن يبلُغ فى جواز التصرّف أشُدَّه؛ وكُلُّ هؤلاء فيهم من لا يعلم من يضرّه ممن ينفعه، ولكن الله يعرّفه وفى أعماله يرْفعُه؛ فاجتهد أن تكون فيهم أبًا برّا، وأن تتّخذ فيهم عند الله أجْرا، وأنْ تعامَلَ فى بَنِيكَ بمثل ماعامَلْتَهم إذا ٱنقلبت إلى الدّارِ الأخرىٰ؛ وٱحفَظْ أموالَهم أن تنتهكَها أُجْرةُ العُمَّال، وترجع فى قراضها إلىٰ مايُجحِف برءوس الأموال؛ ومثّلْ أعمالَكَ [المعروضة] على الله فى صحائفها المعروضه، وٱحْذَرْ من المعاملة لهم إلا بفائدةٍ ظاهرة ورُهُنٍ مَقْبُوضَه .

والجهاتُ الدِّينيّةُ هى بِضاعَةُ حِفْظك، ووَداعَة لَحْظك، فلاتُولِّ كُلَّ جِهَةٍ إلا من هو جامعٌ لشرطها، قائمٌ بموازين قِسْطِها .

والشهود هم شهداءُ الحَق، وأُمناءُ الخلق؛ وعلىٰ شهاداتِهم تُبْنىٰ الأحكام، فإيّاك والبِناءَ علىٰ غير أساسٍ ثابتٍ فإنّه سريعُ الانهدام؛ ومنهم من يشهدُ فى قيمةِ المِثْل ويتعين أن يكون من أهْلِ البَلَدِ الأمْثَل، لأنه لايَعْرِفُ القيمةَ إلّا مَن هو ذُو سَعَةٍ مموَّل؛ ومنهم مَنْ أُذِنَ له فى العُقُود فامنع منهم من تسهل بسَبَبٍ من الأسباب، وما تمهّلَ إشفَاقا لاختلاط الأنسال والأنساب؛ يقبل بالتعريف مايخلو من الموانع

الشرعية مَنْ كان، ولا يُحْسِن فى تزويجه يُمْسك إمْساكًا بمَعْرُوف ولا يُسَرِّحُ تَسْرِيحًا بإحسان؛ وهؤلاء مَفَاسِدُهم أكثرُ من أن تُحْصَى، والبلاء بهم أكبر من أن يُسْتَقْصَر أو يُسْتَقْصَى؛ فاعْتَبِرْ أحوالَهُم اعتبارا جليًا، وفكِّرْ فى استدراك فَارِطِهِم فكرًا مَلِيًّا؛ ومَنْ لم يكنْ له من العلمِ والدِّينِ ما يُوضِّحُ له المُشْتَبِهات، فإيَّاكَ وتَرْكَه قَرْبَ مُعْتَقِد(١) أنه يَطأُ وطأً حَلالا وقد أوقعه هـذا ومِثْلُه فى وَطءِ الشُّبُهات؛ ومنهم من يعمدُ إلى التَّحْلِيل، ويرتكبُ منه مَحْذُورًا غيرَ قليل؛ وهو بعَيْنِه نِكَاحُ المُتْعَةِ الذى كان آخرَ الأمرين من رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم النَّهْىُ عنه، وقام أمير المؤمنين عُمَرُ ابن الخطاب رضى الله عنه مُحَذِّرًا منه؛ فاحْسِمْ هذه المادّة الرَّدِيَّةَ التى تُؤْلِمُ عضوا فيسرى إلى سائر الأعضاء أَلَمُهَا، ويَبْقَى فى كثير من الذَّرارِيِّ المولودة من هذه الأنكحة الفاسدة ثَلْمُها.

والرُّسُلُ والوكلاءُ بمجلس الحكم العزيز ومَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقات، وما نزل فى أُمُورِ ما يريدون بها تقليدَ حكمك بل ما يقضون به الأوقات؛ فلا تَدَعْ ممن تريد منهم إلا كلَّ مَشْكُورِ الطريق، مشهورِ القصة بين الخصوم بطلب التوفيق.

والمَكَاتِيبُ هى سهامك النَّافذه، وأحكامك المؤاخذه؛ فسَدِّدْ مَرامِيها، ولا تُرْدِفها ماعرض عليك من الأحكام حتى لا يسرع الدخول فيها؛ والمَحَاضِرُ هى محل التقوى، فاجتهد فيها اجتهادا لاتَذَرُ معه ولا تُبْقى.

وأما قضايا المتحاكمين إليك فى شَكَاوِيهم، والمُحَاكِمين فى دَعَاوِيهم، فأَنْتَ بهم خَبِير، ولهم نَاقِدٌ بصير؛ فإذا أَتَوْكَ لتَكْشِف بحكمهم لَأْوَاءَهُم، فاحْكُمْ بينهم بما أَرَاكَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُمْ؛ وقد فَقَّهَكَ الله فى دِينه، وأوردَكَ من مَوارِدِ يقينه، ماجعله لك

---

(١) فى الاصل: متقعة وهو خطأ.

نُورًا، وجَلاه لك سُفُورًا ، وأقامَه عليك سُورًا ، وعَلَّمَك مالم تَكُنْ تعلمُ منه أُمورًا ، فإن أشْكَلَ عليك أمْرٌ فرُدَّهُ إلىٰ كتاب الله وسُنّةِ رسوله صلىَّ الله عليه وسلم و إجْمَاع أصْحابِه فإن لم تجِدْ فعِنْدك من العلماء من تجْعلُ الأمرَ بينهم شُورَىٰ ؛ ولأمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه كتابٌ كتَبَه إلىٰ بعض القُضَاه، فاعْمَلْ بمقتضاه، وٱعلم بأنَّ الله تعالىٰ قد ٱرتضاك لخلْقه فاعمل علىٰ رِضَاه .

والأئمة العلماء هم إخوانك فى الدِّين ، وأعوانُك علىٰ رَدْعِ المُبْتَدِعِين، ولِسانُك فى المَحْفِلِ وجَنَاحُك إذا جلسوا ذَاتَ الشمال وذَاتَ اليَمِينِ،فنزِّلْهم منازلهم التى أحلهم الله فى شُرُفَاتِها ، وبوِّأْهم رفيعَ غُرُفاتِها ، وتَألَّفْ خَوَاطِرَهم فإنك تنظر إلىٰ كثير من الأمور فى صَفَاءِ مُصَافَاتِها .

ومن نُسِبَ إلىٰ خِرْقة الفقر وأهل الصلاح هم أولياء الله المقرَّبُون ، وأحِبَّاؤه الأقربون ، فعَظِّمْ حُرُمَاتِهم، وجَانِبْ محاباتهم، فما منهم و إن ٱختلفت أحوالهم إلا من هو علىٰ هُدًى مُبِين، وٱحْرِصْ أن تكون لهم حِبًّا(١) يملأ قلوبهم فإنَّ الله ينظر إلىٰ قَوْم من قُلُوب قَوْمٍ آخَرِين .

وٱنْتَصِبْ للدروس التى تَقَدَّمْتَ بها علىٰ وافد الطلبة فإنَّ الكرم لايمحقه الالتماس، والمصباحَ لايُفْنِي مُقَلَه كثرةُ الاقتباس، والغمام لايَنْقُصُه تَوَالِى المَطَر ولا يَزِيدُه طُولُ الاحتباس، والبحر لايتَغَيَّرُ عن حاله وهو لايخلو عن الوُرَّادِ فى عَدَدِ الأنفاس.

والوَصَايا كثيرة و إنَّما هذه نُبْذَةٌ جامعه ، وبارِقَةٌ لامِعَه ؛ ومنك يُسْتَفاد بِسَاطُ القَوْل، وٱنبساط الطَّوْل؛ ولهذا يُكْتَفَىٰ بما فِيك ، والله تعالىٰ يكْفِيك ، ويُحْصِى حِسَابَ أعمالك الصَّالِحة ليوفيك، حَتَّى تجِدَ فلا يتخلَّفُ بك السير، وتَسْتَعِد ليُخْتَمَ لك بخاتمة الخَيْر، والاعتماد على الخط الشريف .

(١) فى الأصل «حبلا يملا فى قلوبهم» فتأمل .

قلت : وهذه نسخة توقيع بقضاء، أنشأتُه بدمشق للقاضى «شرف الدّين مسعود» وهى :

الحمد لله الذى شيّد أحكام الشّرع الشريف وزاد حكّامه فى أيامنا شرفا ، ورفع منار العلم على كلّ منار وبوّأ أهله من جنّات إحساننا غرفا ، وأباح دم من ألحد فيه عنادا أو وجّه إليه طعنا ، وأوجب الانقياد إليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ، وألهم الصواب فى اختيار من لم يزل لهذه الرتبة مُعَدًّا ومن رجالها معدودا ، وصرف وجه إقبالنا إلى من ارتضيناه للسلمين حاكما فأصبح بنظرنا مسعودا .

نحمده حمد من اعتنى بالقيام بشرائع الإسلام وتعظيم شعائره ، ونصح للرعيّة فيمن ولّاه عليهم وأعطى منصب الشرع حقّه بتقديم أكابره . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة يقضى لصاحبها بالنّجاة من النّار ، ويسجّل لقائلها بالثبوت فى ديوان الأبرار ، وأن محمدا عبده ورسوله الذى شرط الإيمان بالرضا بحكمه وأوجب طاعته أمرا ونهيا واستجابة وتحكيما ، فقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نحن بسيرهم مهتدون ، وبآثارهم مقتدون ، وعلى آله وصحبه الغرّ الكرام الذين قضوا بالحقّ وبه كانوا يعدلون ، صلاة لا يختلف فى فضلها اثنان ، ولا يتنازع فى قبولها خصمان ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فلما كانت مرتبة الشرع الشريف هى أعلى المراتب ، ومنصب حكّامه فى الورى أرفع المناصب ، إليه تنتهى المخاصمات فيفصلها ثم لاتعدوه ، ويحكم فيه على

الخصم فيُذعِنُ لِحُكْمِه ثم لا يَشْنُوه ، بل يتفرق الخَصْمان وكلٌّ منهما بما قُضِىَ له وعَلَيْه رَاض ، ويقولُ المُتَمَرِّدُ الجائِرُ لحاكمه : قد رَضِيتُ بحُكْمِكَ فاقْضِ فِىَّ ما أَنْتَ قَاض ؛ وناهِيكَ بِرُتْبَةٍ كان النبىّ صلّى الله عليه وسلم هو المتصدّى للقيام بواجبها ، والخلفاءُ الراشدون — رِضْوَانُ الله عَلَيهم — محافظين علىٰ أَدَاءِ رَوَاتِبِها ؛ ثم آخْتَصَّ بها العلماءُ الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء من الخليقه ، وآسْتَأْثَرُوا بها دون غيرهم من سائر الناس فهم أهلها على الحقيقه ؛ إذ لا يُؤَهَّل لهذه الرتبة إلا من آرْتَقَى إلى درجات الكمال ، وآتَّصَفَ بأَحْسَنِ الأوصاف وآحْتَوىٰ علىٰ أَنْفَسِ الخصال ، وتَضَلَّعَ من العلم الشريف بما يُرْوِيه ، وفاق فى العقل والنقل بما يحته ويَرْوِيه .

ولما كان المجلس الفلانىّ : هو دُرّ هذه القِلادَة وَوَاسِطَةَ عِقْدِها ، وقُطْبَ دائرتها ومِلاكَ حَلِّها وعَقْدِها ، إذ هو «شُرَيْحُ» الزمان ذكرا ، و «أَبُو حَامِد» سِيرَةً و«أبو الطَّيِّبِ» نَشْرا ، لاجَرَمَ ٱلْبَسَتْهُ أَيَّامُنا الزاهرةُ من الحُكْمِ ثَوْباً جَدِيدا ، وأفاض عليه إِنْعَامُنا نِحْلَةً نُعْقِبُها — إن شاء الله تعالىٰ — مزيدا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف — لازالت الشريعة المُطَهَّرة بمناصرته فى أَعَزِّ صِوَان ، وحُكَّامُها بمَعَاضَدَتِهِ فى أعلىٰ درجة وأَرْفَع مكان — أن يفوّض إليه ... ...

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مِثْلِه لِمِثْلِها ، ولْيَعْمَلْ بما يعلمه من أحكامها فهو آبن بَجْدَتِها والخبيرُ بمسالك وَعْرِها وسَهْلِها ؛ فهو الحَاكِمُ الذى لا يُسَاوَىٰ ، والإمامُ الذى يقتدىٰ به فى الأحكام والفَتَاوَىٰ ؛ فَعَلَيْه بالتأنّى فى الأحكام ، والتَّثَبُّتِ فيما يصدُر عنه من النَّقْض والإبرام ؛ ولْيَنْظُرْ فى الأمر قبل الحكم المَرَّةَ ثم الأخرىٰ ، ويُكَرِّرِ النَّظَرَ فى ذلك ولو أَقَام شَهْرا ؛ ويُرَاجِعْ أَهلَ العلم فيما وقف عليه ويُشَاوِرْهم فما نَدِم من آستشار ، ويُقَدِّمِ آستخارة الله تعالىٰ فى سائر أموره فما خَابَ من آسْتَخَار ؛ ولْيَدْر

مع الحقّ كيف دار ، ويتّبع الصّواب أنّى توجّه ويقتفى أثره حيث سار ؛ وإذا ظهر له الحقّ قضىٰ به ولو علىٰ ابنه وأبيه ، وأعزّ أصدقائه وأخصّ ذويه ؛ غير مفرّق فى فصل القضاء بين القوىّ والضّعيف ، والوضيع والشّريف ؛ ولا مميّز فى تنفيذ الحكم بين الغنىّ والفقير ، والسّوقة والأمير ؛ وليُسوّ بين الخصوم حتّىٰ فى تقسيم النظر إليهم ، كما فى موقف الحكم وسماع الدّعوىٰ وردّ الأجوبة فيما لهم وعليهم ؛ وليستخلف من النوّاب من حسنت لديه سيرته ، وحُمدت عنده طريقته ؛ ويوص كلًّا منهم بما نوصيه به ويبالغ فى تأكيد وصيته ، ويستحضر السرّ فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ألا كلّكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيّته » . وليُمعن النظر فى أمر الشهود الذين تترتب علىٰ شهادتهم أمور الدنيا والفروج والأموال ، ويتفقّد أمرهم فى كل وقت ولا يغفل عنهم فى حال من الأحوال ؛ ويحملهم من الطرائق علىٰ أحسن وجهها ، وأحقّهم بإمعان النظر شهودُ القيمة والعمائر ، الذين يقطع بقولهم فى أملاك الأيتام والأوقاف مما تنفر عنه القلوب وتنبو عنه الضّمائر .

والوكلاء والمتصرّفون فهم قوم فضل عنهم الشرّ فباعوه ، واستحفظوا الودّ فلم يرعَوا حقه وأضاعوه ؛ فهم آفةُ أبواب القضاة بلا نزاع ، كيف وهم الضّباعُ الضّارية والذّئاب الجياع . وما تحت نظره من أوقاف المدارس والأسرىٰ والصّدقات ، وغيرها مما يقصدُ به واقفوه وجه البر وسبيل القُربات ؛ يُحسن النظر فى وجوه مصارفها ، مع حفظ أحوالها الذى هو أغيا مراد واقفها .

وأهل العلم أبناءُ جنسه الذين فيهم نشأ ومنهم نجم ، وجُندُه الذين يقصدونه بالفتاوىٰ فيما قضى وحكم ؛ فليوفّر لهم الإحسان ، ويصنع معهم من المعروف ما يبقىٰ ذكره علىٰ ممرّ الأزمان ؛ ومثلُه لا يحتاج إلى كثرة الوصايا ، وثوقًا بما عنده من العلم

بالأحكام والمَعْرِفَة بالقضايا ؛ لَـكِنْ عليه بتقوى الله ومراقبته يكن له مما يَتَبوءه ظهيرا ، ويَسْتَرْشده فى سائر أموره يجعلْ له من لَدُنْه هادِيا ونصيرا ؛ والله تعالىٰ يبلغ وَاثِقَ أَمَلِه من كَرَمِنا مَراما ، ويُوطِّئُ له المِهَادَ ببلدٍ حَسُنَتْ مستقرًا ومُقاما . إن شاء الله تعالىٰ .

❖

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضَاة المـالكية بالشام، من إِنْشاء الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحلبيّ تغمّده الله برحمته، وهى :

الحمد لله جاعل المَذَاهِب الشَّرعيَّـة فى أيامنا الشريفة زَاهِيَةً بأركانهـا الأربَعَه ، مستقرّةً على النِّظامِ الذى غدتْ به قواعدُ الحُجَّة محكمةً ومَوَاقِعُ الرحمة مُتَّسِعه ، فإذا خلا رُكْنٌ من مُباشَرَةٍ أَقَمْنَا من تكون القلوب علىٰ أَولَوِيَّته مُجْتَمِعَه ، وٱنتقينا له من الأتقياء من تَغْدُو به الأمّةُ حيث كانت مُنْتَفِعَه ، وٱستدعينا إليه من تَغْدُو الأدعية الصالحة لنـا بتفويض الحكم إليـه مُرْتَفِعَه ؛ الّذى خَصَّ مذهبَ « إمام دار الهجرة » بكل إمام هَجَرَ فى التَّبَحُّر فيه دواعى السُّكُون وبَوَاعِثَ الدَّعَه ، وجَمَّلَ مَنْصِبَ حُكْمِه بمن كَلّ بعلوم الدين نَحْرُه فإذا حكم غَدَتِ الأَقْضِيَةُ لحكمه مُنَفَّذَةً وإذا قضَىٰ أَضْحَتِ الأحكام لأقضيته متَّبعه .

نحمـده علىٰ نِعَمِه التى جعلَتْ مُهِمَّ الشَّرع الشريف لَدَيْنَـا كالاستفهام الذى له صدر الكلام ، وبِمَثَابَةِ النِّيَّة المقدّمة حتّى [علىٰ] تكبيرة الإحرام ، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة أَثْبَتَ الإخلاصُ حُكْمَها ، وأَحكَمَ الإيمـانُ عِلْمَها ، وأَبْقَىٰ اليقـينُ علىٰ صَفَحَاتِ الوُجُوهِ والوُجُودِ وَسْمَها المُشْرِقَ وٱسْمَها ، ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى أَخَذ الله ميثاق النَّبِيِّـينَ فى الإقرار بِفَضْلِه ، وأرسله ﴿بالهدىٰ

وبِنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، وخصَّه بالكتاب الذى أخرس الأمَمَ عن مُجارَاته فلو ﴿اجتمعت الإنسُ والجنُّ علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتُونَ بمثلِهِ﴾، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين تمسكوا بسَنَنِه وسُنَّتِه، وأوضحوا شَرْعَه الشريف لمن تلقَّاه بعدهم من أئمة أمته؛ صلاة لا تزال بِقَاعُ الإيمان لأحكامها منبته، وأنواء الإيقان لأوامها مُقْلِتَه[1]؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنه لما كانت الأحكامُ الشرعيةُ تتوقفُ علىٰ ملاحظة قَضاءِ قُضاتها فى غالب الأمور، وتستند إلىٰ مُراجَعَةِ أُصول حُكَّامها فى أكثر مصالح الجمهور ، لم يكن بُدٌّ من مُرَاعَاةِ أُصولها التى إنما تَنُوبُ الفروعُ عنها، وتَدَبُّرِ أحوال أحكام حُكَّامِها التى تَنْشَأُ أقضية النواب منها؛ ولذلك لمَّا أصبح منصب قضاء القضاة علىٰ مذهب الإمام «مَالِكِ بن أَنَسٍ» رضى الله عنه بالشَّام المحروس لضَعْف مباشره الممتد ، فى حكم الخالى ، وتعطل بعجزه المشتد، مما أُلِف به قديما حال حكمه الحالى؛ وتمادى ذلك إلىٰ أن تَرَقَّى الناسُ منه إلىٰ دَرَجة اليَقِين؛ وتناهى الحكمُ فيه إلىٰ أن يعين أن يُرْتَادَ من يتعيَّنُ لمثله من الأئمة المُتَّقِين ؛ لئلَّا يخلُوَ هذا المذهبُ من قاضى قضاةٍ يُقِيمُ مَنَارَه ، ويُدِيمُ أنوارَه ، ويرفع شِعَارَه ، ويُحْيى مآثِرَ إمامه وآثارَه ، ويُؤَمِّنُ كَمَالَ أفقه أن يُعاوِدَ سِرَارَه ؛ وكان المجلس السامى ، القاضوى ، الفخرى ، هو الذى لا يَعْدُوهُ الارْتِيَاد، ولا يقِفُ دونَه الانتقاءُ والانْتِقاد، ولا تتجاوزُه الإصابة فى الاجتهاد : لما عليه من عِلْمٍ جعله مخطوبا للمناصب ، وعَمَلٍ تركه مَطْلوبا للمراتب التى لا تُذْعِنُ لكلِّ طالب ؛ وتُقًى أعاده مُرْتَقِيًا لكلِّ أُفُقٍ لا يصلح له كلُّ شارق ، ووَرَعٍ فتح له أبواب التَّلَقِّى بالاستدعاء وإن لم تُفْتَح لكلِّ طارق ؛ وقد هَجَرَ الكَرَا فى تحصيل مذهب «إمام دار الهجرة» إلىٰ أن وَصَل إلىٰ ما وَصَل ، وأنْفَق مُدَّة

(١) الأوام شدة العطش ومقلته مهلكه .

عُمْره فى آقتناء فوائده إلىٰ أن حَصَل من الثَّرْوَة بها علىٰ ما حَصَل ؛ فسارت فتَاويه فى الآفاق ، ونَمَتْ بَرَكات فَوائِده التى أنفقها على الطَّلَبَـةِ فزَكَتْ على الإنفـاق ـ آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُبْقِيَ فَخْرَ هذا المنصب الجليل بفَخْرِه ، وأن نَخُصَّ هذا المَذْهَبَ النبيل بذخره ، وأنْ نُحَلِّيَ جِيدَهُ بمن نَقَلْنا إلىٰ وِشَام الوسام ما كان من حُسْن شَنَبِ العلم مُخْتَصًّا بثَغْرِه .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زالَ لأحكَامِ الشرع مُقِيما ، وللنظر الشريف فى عموم مصالح الإسـلام وخصوصها مُدِيمًـا ، أن يفوّض إليـه ... ... لمـا تَقَدَّم من تَعَيُّنِه لذلك ، وتَبَـيَّنَ من أنَّه لحكم الأولوية بهـذه الرتبة فى مذهب الإمام مالك مالِك .

فلْيَلِ هـذه الوظيفةَ حَاكِمًا بمـا أراه الله من مَذْهَبِه ، مُرَاعِيًا فى مباشرتها حقَّ الله فى الحكم بين عباده وحَقَّ مَنْصِبِه ، مجتهدا فيما تَبْرَأُ به الذمةُ من الوقوف مع حكم الله فى حَالَتَىْ رضاه وغَضَـبِه ، وَاقِفًا فى صِفَةِ القَضَاء علىٰ ما نُصَّ فيه من شروطه وأُوضِحَ من قواعده وشُرِح من أَدَبِه ، مُمْضِياً حقوقَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فيما يقتضيه رَأْىُ إِمَامِه ، مُتَوَّجًا الحكمَ بنصوصه المجمع دليها من أَئِمَّةِ مذهبه فى نَقْضِ كُلِّ أَمْرٍ وإِبْرامه ؛ جارِيًا فى ذلك علىٰ قواعد أَحْكام هذا المَذْهَب الذى كان مُشْرِقا فى ذلك الأُفُق بجماله وزَيْنِه ، وَاقِفًا فى ذلك جميعه مع رضا الله تعالىٰ فإنَّه فى كُلِّ مايأْتى ويَذَر بعَيْنِه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، ويبلِّغه من رضاه نِهَايَةَ سُولِه وغَايَةَ أَمَلِه ؛ بمنِّه وكَرَمه! إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهـذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنـابلة ، كُتِبَ بها للقاضى عَلاءِ الدِّين «منجى التنوخى» وهى :

الحمد لله الذى رفع بعلاء الدِّينِ قضاءَ قُضاته، وأوْضح الهُدَىٰ فى القيام فى توليتهم بمفترضاته، وأعلىٰ منارَ الشَّرع بما أوْقَفهم عليه من أحْكامه ووفَّقهم له من مَرْضاته .

نحمده حمدا نَسْتعيدُ من بَرَكاته، ونَسْتعيذُ به أن نَضِلَّ فى ضَوْءِ مِشْكاته، ونستعينُ عليه بربِّ كل حكمٍ يُمِدُّنا قَلْبُه بسُكُونه وقَلَمُه بحَرَكاته، ويُثْبِتُ من جميل مَحْضَره لدينا ما يرفع مَسَّ شَكَاته، ونشهدُ أنْ لَا إلٰه إلا الله وحْدَه لا شريك له شَهادةً يُسْتَوْدَعُ إخْلاصها فى قلوب تُقَاته، وتُفَوِّضُ أحكامُها إلىٰ تِقَاته، ويُحْمىٰ سَرْحُها من أبْطَالِ الجِلاد والجِدَال بكل مُشْتاقٍ إلىٰ مُلاقاته؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله أفضلُ من حكم بما أنزل اللهُ من آياته، وجاهَدَ فى الله برأْيه ورَاياته، وشَرَع من الدِّينِ ما يُنَجِّى المتمسكَ به من غَوَاياته؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين أقام شَرْعَه منهم بكُماته، وجعل حُكْمهم دائمَ النُّفُوذِ أبدا بأقلام علمائه وسيوف حُماته؛ وسلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعد، فمَنْصِبُ الحكم الذى به تُفْصَلُ الأُمور، وتَنْفَرِجُ له الصُّدُور، وتَسَدَّدُ أقْلام حُكَّامه سِهاما، وتُفيضُ غَماما، وتتعلَّمُ منه الأُسُودُ زَئيرا، ويطول السَّيْفُ صَليلًا والرُّمحُ صَريرا؛ وتَنْتَصِب بين يَدَىْ حُكَّامه الأقْدام، وتنتصف علىٰ أحكامه الخِصَام[1]، وتَنَكَّس الرُّءوسُ لَهَيْبَتِه إطراقا، وتَغُضُّ المُقَلُ فما تُديرُ جُفُونا ولا تُقَلِّبُ أحْدَاقا، ويَجْرِى بتصريفه قَلَمُ القَضاء، ويُجارِى مُرْهَفَه البُرُوقُ فتُقِرُّ له بالمَضَاء؛ وقد شَيَّدَ اللهُ مَبانِيَهُ فى ممالكنا الشريفة مِصْرًا وشامًا علىٰ أربعة أركان، وجمع فى قضائه الأئمَّةَ الأربعةَ لتكمل بهم فُصُولُ الزمان؛ ومَذْهَبُ الإمام أبى عبد الله «أحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ» رضى الله عنه هو بالسُّنَّة النبوية الطِّرَازُ المُذْهَب، وطريقة

(١) الخصام جمع خصم كبحر وبحار. انظر المصباح.

السلف الصالح فى كُلِّ مَذْهب ، وقد تجنَّبَ من سَلَف من علمائه التَّأْوِيلَ فى كثِير ، ووَقَفَ مع الكِتاب والسُّنَّةِ وكلٌّ منهما هو المصباح المنير .

وكانت دِمَشْقُ المحروسةُ هى مَدارَ قُطْبِهِم ، ومَطْلَعَ شُمُوسِهِم ونُجُومِهِم وشُهُبِهم ؛ وأَهْلها كثيراً مَّا يحتاجون إلىٰ حاكم هذا المذهب فى غالب عقد كل بيع وإيجار ، ومُزارَعَةٍ فى غِلالٍ ومُساقاةٍ فى ثِمار ، ومُصالحَةٍ فى جوائحَ سماويةٍ لا ضَرَر فيها ولا ضِرار ، وتَزْوِيج كلِّ مملوكٍ أَذِنَ له سَيِّدُه بحُرَّةٍ كَرِيمَه ، وٱشتراطٍ فى عَقْدٍ بأن تكون الأمْرَأَةُ فى بلدها مُقيمه ، وفَسْخٍ إن غاب زوجُها ولم يترك لها نفقةً ولا أَطْلَقَ سَرَاحَها ، وبَيْعِ أوْقافٍ دائِرَةٍ لا يجد أربابُ الوَقْفِ نَفْعًا بها ولا يستطيعون إِصْلاَحَها .

فلما ٱستأْثَر اللهُ بِمَنْ كان قد تكَمَّلَ هذا المَنْصبُ الشريفُ بشرَفِه ، وتجمَّلَ منه بَقِيَّةُ سَلَفِه ، حصلَ الفِكْرُ الشريفُ فِيمَن نقلده هذه الأمانَةَ فى عُنُقِه ، ونُنْهِى هذا المنصب بطلوع هلاله فى أُفُقِه ، إلىٰ أن ترجح فى آرائنا العالية المُرَجِّحُ المُرجِّى ، وتَعَيَّن واحدا لمَّا ٱبْتُلِيَ الناس بالقضاء كان المُنْجِى ٱبنَ المُنْجِى ؛ طالما تطرَّزَتْ له الفتاوىٰ بالأقلام ، وٱلْتَفَّتْ به حَلْقَةُ إِمَام ، وخاف فى طَلَبِ العِلْمِ من مُضايَقةِ اللَّيالى فما نام — ٱقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف أن يفوِّض إليه قضاء القضاة بالشام المحروسة علىٰ مذهب الإمام الربانىّ «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل» الشيبانىّ ، رضى الله عنه .

فَلْيَحْكُمْ فى ذلك بما أَرَاه الله من عِلْمِه ، وآتاه من حُكْمِه ؛ وبَيَّنَه له من سُبُلِ الهُدىٰ ، وعَيَّنَه لبصيرته من سُنَنِ نَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلم التى مَن حادَ عنها فقد جار وٱعْتَدىٰ ؛ ولْيَنظُر فى أمور مَذْهبه ويَعْمَلْ بكل ما صَحَّ نقْلُه عن إمامه ، وأصحابه من كان منهم فى زَمَانه ومن تَخَلَّفَ عن أَيَّامِه ؛ وقد كان — رحمه الله — إمامَ حَقٍّ

نهض وقد قعد الناس تلك المدّه، وقام نوبة المحنة وقام «سيّد تيم»(١) رضى الله عنه نوبة الردّه، ولم تهب به زعازع «المريسى» وقد هبّت مريسا، ولا «ابن أبى دواد» وقد جمع كلّ ذود وساق له من كلّ قطر عيسا، ولا نكث عهد ما قدّم إليه «المأمون» فى وصيّة أخيه من المواثق، ولا روعه صوت «المعتصم» وقد صبّ عليه عذابه ولا سيف «الواثق»؛ فليقف على أثره، وليقف بمسنده على مذهبه كله أو أكثره؛ وليقض بمفرداته وما آختاره أصحابه الأخيار، وليقلدهم إذا لم تختلف عليه الأخبار؛ وليحترز لدينه فى بيع ما دثر من الأوقاف وصرف ثمنه فى مثله، والاستبدال بما فيه المصلحة لأهله؛ والفسخ على من غاب مدّة يسوغ فى مثلها الفسخ وترك زوجة لم يترك لها نفقه، وخلاها وهى مع بقائها فى زوجيته كالمعلّقه، وإطلاق سراحها لتتزوّج بعد ثبوت الفسخ بشروطه التى يبقى حكمها به حكم المطلّقه؛ وفيما يمنع مضارّة الجار، وما تفرّع على قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لاضرر ولاضرار». وأمر وقف الإنسان على نفسه وإن رآه سوى أهل مذهبه، وطلعت به أهلّة علماء لولاهم لما جلا الزمان جنح غيهبه. وكذلك الجوائح التى يخفف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرى بها الإلزام، ولاتجرى إلا مجرى المصالحة دليل الالتزام. وكذلك المعاملة التى لولا الرخصة عندهم فيها لما أكل أكثر الناس إلا الحرام المحض، ولا أخذ قسم الغلال والمعامل هو الذى يزرع البذر ويحرث الأرض؛ وغير ذلك مما هو [محيط] بمفرداته التى هى للرفق جامعه، وللرعايا فى أكثر معايشهم وأسبابهم نافعه، وإذا آستقرت الأصول كانت الفروع لها تابعه؛ والخط الشريف أعلاه، إن شاء الله تعالى.

---

(١) سيد تيم هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

المرتبـــة الثانية[١]

(من تواقيع الوظائف الدينيـة بدمشـق ، ما يُكتب فى قطع الثلث مفتتحا
بـ«الحمـد لله» إن عَلَتْ رُتْبَـةُ المُتَوَلِّى أو بـ«أمّا بعد حمْـدِ الله»
إن انحطت رُتْبَتُهُ عن ذلك بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى — قَضَاءُ العَسْكر . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ، كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثـانية — إفْتَاءُ دار العدل بِدِمَشْق . وبها أربعة : من كل مذهب واحدٌ ، كما بالديار المصرية .

الوظفية الثـالثة — الحسـبة .

وهذه نسخة توقيع بالحسبة الشريفة :

الحمد لله مُجَدِّدِ النِّعَمِ فى دَوْلتِنا الشريفـة لِمَن ضَفَتْ عليـه مَلَابِسُها ، ومُضَاعِفِ المِنَنِ فى أيامنا الزاهرة لمن سَمَتْ به نَفَائِسُها ، ومُولِى الآلاءِ لِمَن بَسَقَ غَرْسُها لَدَيْه فزهت بجماله ثَمَرَاتُها وزَكَتْ مَغَارِسُها .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى تُؤْنَس بالشـكر أَوَانِسُها ، وتُؤَسَّس علىٰ التَّقْوىٰ مجَـالِسُها ، ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً آستضاء بنور الإيمـان قَابِسُها ، وآجْتَنَىٰ ثَمرَ الهُدَىٰ غَارِسُها ، ونَشْهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشْرفُ من أشْرقَتْ به معالمُ التوحيد فعَمَرَ دَارِسُها ، وأشْرَقَ دَامِسُها ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين قلوبهم مَشَاهِدُ الذِّكْرِ وألسِنَتُهم مَدَارِسُها ، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرا .

---

(١) فى الأصل الطبقة الثانية .

وبعـد ، فإنَّ أَوْلىٰ من أَمْضِىَ له ما كان به أُمِرَ ورُسِم ، وجُدِّدَ له من المَنَاصِب الدِّينية ما عُرِف به من قَبْـلُ ووُسِم ، وأُثبِتَ لترَقِّيه ما حُتِم له به من المراتب السنية بمقتضىٰ الاستحقاق وحُكِم ـ من رَقَتْ أوامِرُنا له حُلَّةَ مَنْصِب يجدِّدها الإحسان ، وأَمَرَتْ له مَرَاسِمُنا بوظيفة تُؤَكِّد عوَارِفَنا الحِسَان ، وأَثَلَتْ [له] نِعَمُنا مَنْصِبًا أعدَّ له من كَمَالِ الأَهْلِيَّة أَكْمَلَ ما يُعِدُّه لذلك الإنْسَانُ .

ولما كان فلان هو الذى تحلَّىٰ من إِحْسَانِنا بما يأمن [معه] سعيد رتبته [من] العَطَل ، واَتَّسَمَ من بِرِّنَا وامْتِنَانِنا بمـا هو فى حكم المستَقِر له وإن ألوىٰ به الدَّهْرُ ومَطَل ـ اقتضىٰ إِحْسَانُنا أَنْ نُجَدِّدَ له مَوَاقِـعَ النِّعَم ، ونُشَيِّدَ من رجائه مَوَاضِعَ ما شَمِلَه من البِرِّ والكَرَم ، ونُرِىَ من عَدَقَ بِنَا رَجَاءَ أَمَلِه أَنَّنَا نَتَعَاهَدُ سُقْيَا آمَالِ الأَوْلِياءِ والخَدَم .

فلذلك رسم ... ـ لازال بِرُّه شامِلا ، وبَدْرُه فى أُفُقِ الإحسان كامِلا ـ أن يُفَوَّضَ إليه نظر الحِسْبَة ويَسْتَمِرَّ فى ذلك علىٰ حكم التوقيع الشريف الذى بيَدِه : لِمَا سبق من اختياره لذلك واَصْطِفَائِه ، وادِّخَارِه لهذا المَنْصِبِ من كُفَاةِ أَعْيانِه وأَعْيَانِ أَكْفَائِه ، ولِمَا تَحَلَّىٰ [به] من رِيَاسَـةٍ زانته عُقُودُها ، وتَكَمَّلَ له من أَصَالَةٍ ضَفَتْ عليه حِبَرُها وسَمَتْ به بُرُودُها ، وتَجَمَّلَ به من نَزَاهَـةٍ أَشْرَقت فى أُفُقِ صُعُودِها إلى الرتبة الجَلِيلة سُعُودُها ، واتَّصَفَ به من كَمَالِ مَعْرِفَةٍ نُجِزَتْ له به من مَطَالِبِ المَنَاصِب وُعُودُها .

فَلْيُبَاشِرْ ذلك مُعْطِيًا هٰـذه الوظيفةَ من حُسْنِ النَّظَرِ حقَّها ، مُحَقِّقًا بجميـل تَصَرُّفه تَقَـدُّمَ أَوْلَوِيَّتِه وسَـبْقَها ؛ ولْيَكُنْ لأَمْرِ الأقوات مُلاحِظا ، وعلىٰ مَنْعِ ذَوِى الغَـدْرِ من الاحتكار المُضَيِّقِ على الضُّعَفَاء مُحَافِظا ، وعلى الغِشِّ فى الأَقْوَاتِ مُؤَدِّبًا ؛ ولإجراء المَوَازِين علىٰ حُكْمِ القِسْط مُرَتِّبًا ؛ ولمن يَرْفَعُ الأسعارَ لغَيْرِ سَبَبٍ رَادِعا ، ولمن لا يَزَعُه الكلام من المُطَفِّفِينَ بالتَّأديب وَازِعا ؛ ولِقِيَمِ الأشـياء مُحَرِّرًا ، ولقانونِ الجَوْدَة

فى المَزْرُوع والمَوْزُون مُقَرَّرا، ولِذَوِى الهيئات بلزوم شرائط المُرُوءَة آخذا، وعلى تَرْك الجُمَع والجَمَاعَاتِ لعامة الناس مُؤَاخِذا، ولتقوى الله تعالى فى كُلّ أَمْرٍ مُقَدَّما، وبما يُخَلِّصُه من اللهِ تعالى لكل ما تقع به المعاملات بين الناس مُقَوِّما، وفى خَصَائِص نَفْسه مايُغْنِيه عن تأكيد الوَصَايا، وتَكْرَارِ الحَثّ على تقوى الله تعالى التى هى أَشْرَفُ المزايا، فَلْيَجْعَلْها شِعَارَ نَفْسِه، ونَجِىَّ أُنْسِه، ومُسَدِّدَ أَحْوالِه التى تظْهر بها مَزِيَّةُ يَوْمِه على أَمْسِه، والخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، حُجَّةٌ بمقتضاه .

وهذه نسخة توقيع بنظر الحِسْبَةِ الشريفةِ، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله، مضافا إلى نظر أوقاف المُلُوك، وهى :

الحمد لله مُثِيبِ من احْتَسَبَ، ومُجِيبِ المُنِيبِ فيما اكتسب .

نحمده حمدا رسب الأدب صرب الطرب[(1)] (؟) ونشهد أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ظَاهِرَةَ الحَسَبِ، طاهرة النسب؛ ونشهد أن سيِّدَنا محمدا عبدُه ورسولُه أَفْضَلُ مَن انتدى وانتدب ، وأَدَّبَ أُمَّتَه فَأَحْسَنَ الأَدَبَ، صلَّى الله عليه وعلى آلِه وصَحْبِه صَلاةً يُكْتَتَمُ أَجْرُها فيكتتب، ويستتم بها كل صلاح [ويغتنم بها كل فلاح] ؛ وسَلَّم تَسْلِيمًا كثيرا .

وبعد ، فإنّ الحِسْبَةَ الشَّرِيفَةَ هى قَانُونُ جَوَادِّ الأوضاع ، ومَضْمُون مَوَادّ الإجماع، تجمع إلى الشريعة الشريفة سِيَاسَةً يُرْهَبُ حَدُّها، ويُرْهَفُ حَدُّها، وتخشى الرعايا سطوات مباشرها ، وتَتَنَحَّى عما تَصُبُّه سيول بوادرها؛ وأَصحابها الآلة التى هى أُخْتُ السَّيْفِ فى التأثير، ولكُلٍّ منهما سَطْوَةٌ تُخَافُ لافرق بينهما إلّا مابَيْن

(١) كذا فى غير نسخة بالاهمال ولم نهتد الى تثقيفه .

التأنيث والتذكير، وله التصرف المطلق، والتعرف الذى يفتح من الحوانيت على أربابها كلّ باب مغلق، ولركوبه فى المدينة زينة يحشر لها الناس ضحى، ورهبة يغدو بها كلّ أمين لشأنه مصلحا، وإليه الرجوع فى كلّ تقويم، وهو المرجوّ فى كلّ أمر عظيم، وهى بدمشق - حرسها الله تعالى - من أجلّ المناصب التى تتعلق [عو]اليها بيد متوليها وتؤمل منازل البدور، وإنّ ربها ترجع إلى تصريفه أزمّة الأمور، وينتجع سحابه الهطل عمامة الجمهور، وتحيا به سنة عمرية لولاها لضاقت رحاب المعاملات، وضاعت بالغش المعايش المتداخلات، وظهر الغبن فى غالب مايشرى ويباع، وانتشر التطفيف [الذى] يزيل راجحة الميزان ونو الزراع، ولكم ناب بحسن تدبيره عن الغمام، ونظر فى الدقيق والجليل للخاص والعام، طالما انحطّ به سعر غلا أن يقوم، ووجد من الأقوات صنف لا يوجد ولو بذل من الشمس دينار والبدر درهم.

وكان المجلس السامى، القضائى، الأجلّى، الكبيرى، الصدرى، الرئيسى، العالمى، الكافلى، الفاضلى، الأوحدى، الأثيرى، الماجدى، الأصيلى، العمادى، مجد الإسلام، شرف الرؤساء، بهاء الأنام، جمال الصدور، فخر الأعيان، خالصة الدولة، صفوة الملوك والسلاطين: أدام الله علوه، هو الذى ربته السيادة على وسادها، ولبته السعادة إلى مرادها، وبنت العلياء قواعدها على عماده، وثنت المراتب أعناقها متشوفة إلى حسن اعتماده، وباشر الجامع المعمور خصوصا والأوقاف الشامية عموما فعمرها، وكثر أعدادها وأنمى من بركات نظره متحصلاتها وثمرها، وشيد فى كلّ منها مواطن عباده، وملتقى حلقة ومدار سبحة ومفرش سجاده، وأبى الله أن يقاس به أحد والجامع الفاروق وللذين أحسنوا الحسنى وزياده، فأوجب له جميل نظرنا أن نضاعف له الأجر فى كلّ عمل إليه ينتسب، ونزيده

فى رزقه سعة : من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب ؛ فرأينا أنه أحق أن يقلد من أمور الحسبة الشريفة حكمها المصرّف ، وحكمها المعرّف ، ويقام فيها بهدى من تقدمه فى تقرير أمورها على أثبت القواعد ، وتقدير مصالحها على أجمل ما جرت به العوائد ، ويطهّر أقواتها من الدنس فيما يحضر على الموائد ، وإخافة الأعناق من مضاربه التى تقطع ماغفا السيف عنه من مناط القلائد .

فرسم بالأمر الشريف العالى ـ لا زالت بمراسيمه تتلقّ كل رتبه ، وتتوق الدنايا بمن يقوم بالحسبه ـ أن يفوض إليه النظر على الحسبة الشريفة بدمشق وما معها من الممالك الشامية المضافة إليها ، بالمعلوم المستقر ، الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : مضافا إلى ما هو بيده : من نظر الأوقاف المبرورة بالشام ، وأوقاف الملوك . خلا نظر الجامع المعمور إلى آخر وقت بحكم إفراده لمن عين له ، تفويضا يضمه إلى رتائب كنفه ، ويعمه بمواهب شرفه ، ويحله فى أعلى غرفه ، ويحليه بما يحسد الدر مارمى من صدفه .

فاتق الله فى أحوالك ، واتق من يجمع عليه من النواب فى أعمالك ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فمنك المنكر لا يعرف والمعروف منك لا ينكر ، واعتبر أحوال أرباب المعايش اعتبارا يصلح للناس أقواتهم ، ويرغد أوقاتهم ؛ ولا تدع صاحب سلعة يتعدى إلى غير ما أحله الله له من المكاسب ، ولا صاحب معيشة [يقدم] على تخلل خلل فى المآكل والمشارب ، واقصد التسوية بالحق فإنه سواء فيه البائع والمشترى ، ولا فرق بين الرخيص والثمين ، وأقم الموازين بالقسط حتى لا تمكن كفاتها أن تحامل ولا تحمل ، ولا يستطيع قلبها أن يميل مع من يتمول ، ولا يقدر لسانها أن يكتم الشهادة بالحق وإن كان مثقال حبة من خردل ، واجعل لك على

أهل المبايعات حفظة لتظلّ أعمالهم لك تُنسخ . وتفقّد الأسواق مما يتولّد فيها من المفاسد فإنّ الشيطان ربّما باض فى الأسواق وفرّخ. وأرباب الصنائع فيهم من يدلّس، وفقهاء المكاتب منهم من لعِرضه يدنّس، والقصّاص غالبهم يتعمّد الكذب فى قصصه ، وأهل النجامة كم منهم من لعب مرّة بعقل امرأة وأمات رجلا بغُصصه، وآخرون ممن تضلّ بهم العقول، وتظلّ حائرة فيهم النقول، وكثير ممن سوى هؤلاء يدك مبسوطة عليهم، وأحكامك محيطة بهم من خلفهم وبين يديهم؛ فقوّم منهم من مال، وقلّد مالكًا رضى الله عنه فيما رآه من المعاقبة تارة بإنهاك الجسد وتارة بإفساد المال؛ فربّما أطغى الغنى والمصباح فربما قطب ... ...(١) وثمّ من لا يستقيم حتى يؤدّب، ومن لا يلمّ على شعث وأىّ الرجال المهذّب؛ وفيك من الألمعية نورٌ باهر، وكوكبٌ زاهر؛ فلا حاجة إلى أن تُلقى الوصايا أقلامها أيّها يكفُلك، ولا تنبّهك على زينة العفاف فيها وهو حُلَلك ؛ والله تعالى يوفّق اعتمادك، ويوفّر من التقوى زادك ؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، حجة بمقتضاه . إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الرابعة — وكالة بيت المال المعمور .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال، من إنشاء القاضى تاج الدين البارنبارى، للقاضى نجم الدين أبى الطيّب .

الحمد لله الذى جعل الطيّبات للطيّبين، وهدى بالنجم المنير السبيل المبين، وعدق بأئمة الدين مصالح المسلمين، وآتانا بتفويضنا إليه، وتوكّلنا عليه، شرفًا فى الشأن وقوة فى اليقين .

(١) بياض بالأصل .

نحمده على أن أعان بخيره وهو خير معين، ونشكره على أن بصّرنا فى الإرادات، بالملائكة المقرّبين، ونصرنا فى الولايات، بالقوىّ الأمين، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً أنوارها فى القلب مشرقةٌ على الصّفحات والجبين، وأذكارها على اللّسان جعلت الإنسان من صالح المؤمنين؛ ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه هادى المهتدين، وموضّحُ شرعة الإحسان للحسنين، و «أبو الطّيّب» و «أبو القاسم» كُنِّىَ بأولاده المطهّرين، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من كان من السّابقين الأوّلين، ومنهم من كان مهيبا للكفر يهين، ومنهم من تزوّج بابنتى الرسول ولم يتّفق ذلك لغيره فى سالف السنين، ومنهم من كان الخيرُ ملءَ يديه : فشمولُ البركة بشماله وذو الفقار فى اليمين؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد، فأكرم التفويض ما صادف محلّا، وأبرك الولايات ماوجد قدرا معلّى، وأحسنُ الإحسان ماأصبح به الحال محلّى، وأسنى الأنجم ما أشرق فى مطلعه وتجلّى، وأحقّ [الولاة] بإعلاء منصبه من أقبلت عليه وجوهُ الإقبال حين تولّى؛ وأولى [الولايات] بإجمال النّظر وإمعانه، فى تشييد شانه، وتمكين مكانته ومكانه، وحفظ حوزته من سائر أركانه ـ وكالة بيت المال المعمور التى بها تُصان الأرض المقيسه، ومنها تُستبصر الآراء الرئيسه، وبها يؤمن الاستيلاء على المحالّ والأبنية من كلّ جائر، وبها تُزادُ قيمُ المبيعات ممّا هو لبيت المال ما بين عامرٍ ودائر؛ وإلى متولّيها تأتى الرّغباتُ ممن يبتاعُ أرضا، وبه تُمضى المصالح وتُقضى، وبه يظهر التمييزُ فى الثّمن الأرضى؛ وهى فى الشّام نخيمةُ المقدار، كريمة الآثار، مرضيّة بالربح فى كل أرض بيّنةُ المصالح فى كلّ بناء دائرةٌ بالنجح فى كل دار؛ فلا يَشيم برقها، ويتوج فرقها، ويوفّيها حقّها، إلّا من له علمٌ وتبصره، وعرفانٌ أوضح الطريق وأظهره، وحسنُ رأى فيها آثره وأثّره، وصدارةٌ ورد بها منهل الكرام البرره .

وكان فُلانٌ هو ذُو السُّؤْدُد العَرِيق، والبَاسِقُ فى الدَّوْحِ الوَرِيق، والمُنْتَسِبُ إلىٰ أعزّ فريق، والطَّيِّبُ أَصْلًا وفَرْعًا على التَّحْقِيق، والإمَامُ فى عُلُومه التى أَصَّلَت التَّفْرِيعَ ووصَّلَت التَّفْرِيق، والمُوَفَّق فيما يَأْتِى ويَذَرُ واللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيق؛ قد أشْرَق بدِمَشْق نَجْمُهُ نُورا، وٱبْتَسَمَ البرقُ الشَّامىُّ به سُرُورًا، وتَصَدَّر بمحَافِلها فشَرَح صُدُورا، وٱبْتَنىٰ له سُؤْدُدا وجعَلَ مكَارِمَ الأخلاق عَلَيه سُورًا، تُلْقىٰ بمَحْضَرِه المسائلُ فَتَلْقىٰ منه وليًّا مُرْشِدا، وتُذْكَر لَدَيْه المَباحثُ فتجدُ علىٰ ذِهْنِه المُتَوَقِّد هُدىٰ، وإذا ٱضْطَرَبَ قَوْلٌ مُشْكِلٌ سكَن بإبانَته وهَدَا؛ إنْ تَأَوَّلَ أَصَاب فى تَأْوِيلِه، وإن نَظَر فى مَصْلَحَة كانَ رَأْيُه فى السَّداد مُوافِقًا لِقيلِه، وقد ٱستخرنا الله تعالىٰ ـ وهو نِعْمَ الوكيل ـ فى تَوْكِيلِه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه ... ...

فَلْيأتِ هذا المَنصبَ المُنْصَبَّ وَبْلُ برَكَتِه من بَابِه، ولْيُخَيِّمْ فى فسيح رحابه، ولْيَنعَمْ بجنَّاته فى جَنابه؛ ولْيُحَرِّرْ ما يباع من أمْلاك بيت المَال بشروطه ولَوَازمه المسطورة فى كِتابه، ولْيَرْدَعْ من ٱستَوْلىٰ علىٰ أَرْض باغتصابه، فليس لعِرْقِ ظَالمٍ حَقٌّ: وهو إما بِناءٌ بإنْشَائه وإمّا غِرَاسٌ بإنْشَابه؛ وما يرتَجِعُ إلىٰ بَيْت المَال المعمور من أرْض وعَقَار، وروضاتٍ ذَاتِ غِرَاسٍ وأنْهار، وقُرًى وما يُضاف إلىٰ ذلك من آثار؛ فلْيُحَرِّرْ مجموعَه، ولْيَسْلُكْ فى ذلك الطريقَةَ المَشْروعه. ولْيُشْفِقْ إشْفَاقَ المتّقين المَاهدين لمالهم، ولْيَنْصَحْ لَنَا وللمسلمينَ فهو وَكِيلُ بيْتِ مَالهم. ومن مَاتَ ولا وَارثَ له من عَصَبَةٍ أو كَلالَه، فإنَّ لبيتِ المَال أرْضَه ودارَه ومَالَه.

وقد وَكَلْنا إليك هذا التقليد وقلّدناك هذه الوَكَالَه، ووَالدُك ـ رحمه الله ـ كانت مُفَوَّضَةً إليه قديمًا فلذلك أَحْيَيْنَا بك تلك الأصاله.

وآعْلَم ـ أعزّك الله ـ أنّ الوَصَايا إنْ طالت فقد طاب سَبْحها ، وإن أُوجِزَتْ فقد كفَىٰ لَمْعُها ولمحُها ، وعَلَى الأَمْرَيْنِ فقد أنارَها هنا بالتوفيق صُبْحُها ، وحَسُنَ بالتصديق شَرْحُها ، وأطْرَبَ من حَمَامِ أقلامها صَدْحُها ، والتَّقْوَىٰ فهى أوَّلُها وآخِرُها وخَتْمُها وفَتْحُها ، والله تعالىٰ يَسْقِى بك كُلَّ قَضْبَةٍ [ذوى] صَيْحُها(١) ، والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع شريف بوكالة بيْتِ المَالِ بالشَّامِ أيْضا :

الحمد لله كَافِى مَنْ تَوَكَّلَ عليْهِ ، ومُحْسِنِ مآلِ مَن فَوَّضَ أمْرَه إليه ، ومُجْمِلِ مآبِ مَن قَدَّم رَجَاءَنا عند الهجْرَة إلىٰ أبوابنا بين يديه ، ومُقَرِّعِىٰ من أسْهر فى آستمطار عَوارِفِنا بكمال الأدواتِ نَاظِرَيْه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى جعلت سَعْىَ مَنْ أمّ كَرَمنا ، مشْكُورا ، وسَعْدَ من قَصَدَ حَرَمنا ، مَشْهُورا ، وإقْبَالَ مَن أقْبَل إلىٰ أبوابنا العالية مُحَقَّقا يتقلّب فى نِعَمنا مَحْبُورا ، ويَنْقَلِبُ إلىٰ أهْلِه مَسْرُورا ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شَهَادَةً نَعْتَضِدُ فيها بالإخلاص ونَعْتَصِم ، ونَتَمسَّكُ فى الدُّنيا والآخرة بعُرْوَتِها ، التى لاتَنْفَصِم ، ونُوَكِّلُ فى إقامة دعوتِها ، سُيُوفَنا التى لاتزال هى وأعْنَاقُ جَاحِدِيها تَخْتَصِم ، ونشهد أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أضَاءتْ شريعته ، فلم تَخْفَ علىٰ ذِى نَظَر ، وأنَارَتْ مِلّتُه ، فأبْصرها القلب قبل البَصر ، وعَمّتْ دعوتُه ، فاستوىٰ فى وجوب إجَابَتِها البَشَر ، وآخْتَصّت أُمَّتُه ، بعلماء يُبَصِّرُونَ من فى طَرْفه عَمًى ويُظْهِرُون حَقَّ مَن فى بَاعِه قِصَر ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله الذين عَمِلُوا بما عَلِمُوا ، وعَدَلُوا فيما حكمُوا ، وحَفِظُوا بالحَقّ بيوتَ أمْوال الأئمّة

(١) القضبة الرطبة من النبات وذوى يبس والصيح فى الأصل خروج العنقود من كامه .

فاشترك أهل الملّة فيما غنموا؛ صلاةً توكّل الإخلاص بإقامتها، وتكفّل الإيمانُ بإدامتها؛ وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعد : فإن أهمّ ماصُرفت إليه الهِمَم، وأعمّ مانوجب فى آختيار الأكفاء له براءة الذمّ، وأخصّ ما آتخذنا الآستخارة فيه دليلا، وأحقّ ما أقمنا عنّا فيه من أعيان الأمّة وكيلا، لا يدعُ حقّا للأمة ما وجد إليه سبيلا — أمرُ بيتِ مال المسلمين الذى هو مادّةُ جهادهم، وجادّةُ جِلادهم؛ وسببُ آستطاعتهم، وطريقُ إخلاصهم فى طاعتهم؛ وسِدادُ ثغورهم، وصلاح جمهورهم؛ وجِماعُ مافيه إتقان أحوالهم وآستقرارُ أمورِهم؛ ومن آكد مصالحه وأهمّها، وأخصّ قواعده وأعمّها، وأكمل أسباب وُفوره وأتمّها، الوكالةُ التى تصون حقوقه أنْ تُضاع، وتمنعُ خواصّه أن تُشاع؛ وتُحسنُ عن الأمّة فى حفظ أموالها المناب، وتتولّى لكُلٍّ من المسلمين فيما فرض الله لهم الدعوىٰ والجواب؛ ولذلك لم نزلْ نتخيّرُ لها من ذخائر العلماء من زانَ الورعُ سجاياه، وكمّلَ العلمُ مزاياه؛ وآنعقد الإجماعُ علىٰ كماله، وقصُرت الأطماع عن التحلّى بجمالِ علمه : وهلْ يُبارىٰ من كان علمُه من جماله .

ولما كان المجلس السامىّ، الشّيخىّ، الفلانىّ، هو الذى ظهرت فضائلُه وعلومُه، ودلّ علىٰ بلوغ الغايةِ منطوق نعته ومفهومُه؛ وحلّىٰ علمَه بالورع الذى هو كمال الدين على الحقيقه، وسلك طريقةَ أبيه فى التفرّد بالفضائل فكان بحكم الإرث من غير خلافٍ صاحبَ تلك الطّريقه؛ مع نسب لنسيب مامرّ حلاله، وتُقًى مّا ورِثه من أبيه عن كلاله؛ وثباتٍ فى ثُبوت الحقّ لاتستفزّهُ الأغراض، وأناة فى قبول الحكم لا تُحيل جواهِرَه الأعراض؛ ووقُوف مع الحقّ لا يُبعدُه إلىٰ ما [لا] يجب، وبَسْطةٍ فى العِلْمِ بها يَقبلُ مايَقبل ويجتنب مايجتنب؛ وتحقيقٍ تجرى الدّعاوى الشرعيّةُ علىٰ محجّته، و إنصافٍ لا يضرُّ خصمَه معه كونُه ألحنَ منه بحجّته؛ معَ وفادة إلىٰ

أبوابنا العالية تقاضت له كرمنا الجم ، وفضلنا الذى خص وعم — اقتضت آراؤنا الشريفة أن يرجع إلى وطنه مشمولا بالنعم ، مخصوصا من هذه الرتبة بالغاية التى يكبو دونها جواد الهمم ، منصوصا على رفعة قدره التى جاءت هذه الوظيفة على قدر، مداوما [لشكر أبوابنا](١) على اختياره لها بعد إمعان الاختبار و إنعام النظر .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه وكالة بيت المال المعمور بالشام المحروس .

فليرق هذه الرتبة التى هى من أجل ما يرتقى ، و يتلق هذه الوكالة التى مدار أمرها على التقى وهو خير ما ينتقى ، و يباشر هذه الوظيفة التى مناط حكمها فى الورى الذى لاتستخف صاحبه الأهواء ولا تستفزه الرقى ، ولينهض بأعبائها مستقلا بمصالحها ، متصديا لمجالس حكمها العزيز لتحرير حقوق بيت المال وتحقيقها ، متلقيا ما يرد من أمر الدعاوى الشرعيـة التى يبث مثلها فى وجهه بطريقها ، منقبا عن دوافع ما يثبت له وعليه ، محسنا عن بيت المال الوكالة فيما جره الإرث الشرعى إليه ، مستظهرا فى المعاقدة بما جرت به العادة من وجوه الاحتراز ، مجانبا جانب الحيف فى الأخذ والعطاء بأبواب الرخص وأسباب الجواز ، متنكبا فى تشدده عن طريق الظلم الذى من تحلى به كان عاطلا ، سالكا فى أموره جادة العدل فإنه سيان من ترك حقه وأخذ باطلا ، مجتهدا فى تحقيق ما وضح من الحقوق الشرعيـة وكمن ، متتبعا ما غالت الأيام فى إخفائه فإن الحق لايضيع بقدم العهد ولا يبطل بطول الزمن .

وفى أوصافه الحسنه ، وسجاياه التى غدت بها أقلام أيامنا لسنه ، وعلومه التى أسرت إليها أفكاره والعيون وسنه ، ما يغنى عن وصايا يطلق عنان اليراعة فى تحديدها ، أو قضايا ينطق لسان البراعة فى توكيدها ، ملاكها تقوى الله وهى سجية نفسه ،

(١) فى الأصل « مداوما لها على الخ » .

ونَجِيَّةُ أُنْسِه، وحِلْيَة خِلَالِه المعروفة فى يَوْمِه وأَمْسِه؛ فلْيقدِّمْها فى كُلِّ أَمْر، ويَقِفْ عِنْد رضا الله فيها لا لرِضَا زَيْد ولا عَمْرو؛ واللهُ الموفق بمنّه وكَرمه :

[الوظيفة الخامسة — الخَطَابه(١)] .

وهـذه نسخة توقيع بالخَطَابة بالجامع الأُموِىّ، كُتِب بها لزَيْن الدِّين الفارقِىّ، من إنشاء الشيخ شِهاب الدِّين مَحْمود الحَلَبِىّ :

الحمد لله رافع الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَات، وجَاعِلِ أَرْجَاءِ المَنَابِرِ بفضائل أَئِمَّة الأُمَّة أَرِجَات، وشَارِحِ الصُّدُور بذِكْرِه بعد أَنْ كانت من قَبْـل المواعظ حَرِجَات، الَّذِى زان الدِّينَ من العلمـاء بمن سُلِّمت له فيه الإِمَامَه، وصَانَ العِـلْمَ من الأَئمة المتقين بمن أَصْحَبَ(٢) له جَامِحُ الفَضْـل يُصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ زِمَامَه؛ ووَطَّدَ ذِرْوَةَ المِنْبَرِ الكَرِيم لمن يحفَظ فى هِـداية الأُمَّة حَقَّـه ويَرْعَىٰ فى البِدَايَة بنَفْسِـه ذِمَامَه، ووَطَّأَ صَـدْرَ المحراب المنير لمَن إذَا أَمَّ الأُمَّةَ أَرَتْه خَشْيَةُ اللهِ أَنَّ وجْهَ اللهِ الكَرِيمِ أَمَامَه .

نَحْمَـده علىٰ ما مَنَحنا من صَوْنِ صَهَواتِ المَنَابِرِ إلا عن فُرْسَانِها، وحِفْظ دَرَجات العِلْمِ إلا عَمَّن ينظر بإِنْسَانِ السُّـنَّة ويَنْطِقُ بلِسَانِها . ونشهد أَنْ لا إِلٰه إلَّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً لاتزال أَفْوَاهُ المَحَارِبِ تُثْبِتُ طُرُوسَها، وأَنْوَاءُ المَنَابِرِ تُنْبِتُ غُرُوسَها، وأَلْسِنَةُ الإخلاص تُلْقِى على المَسَامع من صُحُفِ الضَّمَائر دُرُوسَها . ونشهد أَنَّ محمدًا عبدُه ورَسولُه الذى شُرِّفَتِ المَنابِرُ أَوَّلًا بِرُقِيِّه إليها، وآخِرًا بذِكْرِ ٱسْمِه الكريم عَلَيْها؛ فهى الرُّتْبَـةُ التى يَزِيدُ تَبْصِرَةً علىٰ مَمَرِّ الدُّهُورِ بَقَاؤُها، والدَّرَجَة التى يطول إلا علىٰ ورثة عِلْمِه ٱرْتِقَاؤُها؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِـه الَّذِين ذَكَّرهم بأَيَّامِ اللهِ فذَكَرُوها،

(١) أضفنا هذه الزيادة لاقتضاء الكلام لها .

(٢) أى ذلّ وانقاد بعد صعوبة .

وبَصَّرهم بآلاءِ اللهِ فشكَرُوها، وعَرَّفَهم بمواقِع وحْدانيّته فجادلوا بسُنّته وأسنّته الّذين أنْكَروها، صلاةً لا تبرح لها الأرض مَسْجدا، ولا يَزالُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجدا، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّه لمّا كانت الخطَابَة من أشْهر شعَائر الإسلام، وأظْهر شعَار مِلّة سيّدنا محمد عليه أفْضل الصلاة والسلام، شرعَها اللهُ تعالىٰ لإذكار خَلْقه بنِعَمه، وتحْذير عباده من نِقَمه، وإعْلام برِيّته بما أعَدّ لمن أطَاعه فى دَارِ كَرَامته من أنْوَاع كَرَمه، وجعلها من وَظَائف الأمة العامه، ومن قَوَاعد وِرَاثَة النُّبوّة التامه، يَقِفُ المتلبّس بها مَوْقف الإبْلاغ عن اللهِ لعِبَاده، ويقُومُ النّاهِض بفَرْضِها مَقَام المُؤدّى عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ إلىٰ أمّته عن مُرَادِ اللهِ ورسولِه دون مُرَادِه، ويُقِيمُها فى فروض الكفايات علىٰ سنن سُبْلِه[1]، ويستنزلُ بها مَوَادّ الرحمة إذا ضنّ الغيثُ على الأرض بوَبْله؛ وكان المسجدُ الجامع بدِمَشْق المحروسة هو الذى سَارَتْ بذِكْره الأمْثال، وقِيلَ هَذا من أفْرَاد الدّهْر التى وُضِعَتْ علىٰ غَيْر مِثَال؛ قد تعَيّن أنْ نرْتَاد له بحكم خُلُوّه من الأئمة مَن هو مِثْلُه فَرْدُ الآفاق، ووَاحدُ العَصْر عند الإطلاق؛ وإمَامُ علماء زَمَانه غير مُدَافَع عن ذٰلك، وعَلّامَةُ أئمّة أوَانه الذى يُضِيءُ بنُورِ فَتَاوِيه لَيْلَ الشّكّ الحَالك، ونَاصِرُ السُّنّة الذى تَذُبُّ علُومُه عنها، وحَاوِى ذَخَائرِ الفضائلِ التى تَنْمِى علىٰ كَثْرة إنْفَاقه على الطَّلَبَة منهـا؛ وشَيْخُ الدُّنيا الذى يعْقَدُ علىٰ فَضْله بالخناصر، ورُحْلَة الأقطار الذى غَدَتْ نِسْبتُه إلىٰ أنْوَاع العلوم زَاكِيَةَ الأحْسَابِ طَاهِرَةَ الأوَاصِر؛ وزَاهِدُ الوَقْتِ الذى زان العِلْمَ بالعَمَل، ونَاسِكُ الدّهْر الذى صَانَ الوَرَعَ بامتداد الفضائل وقِصَرِ الأمَل؛ والعَابِدُ الذى أصْبح حُجّة

(١) فى الأصل "نبيه" .

العَارِف وقُدْوَة السَّالِك ، والصَّادِعُ بالحقّ الذى لا يُبَالِى من أَغْضَب إذا رَضِىَ اللهُ ورَسُولُه بذٰلك .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى خَطَبَتْه لهـذه الخَطَابة علُومُه التى لا تُسَامَىٰ ولا تُسَام، وَعَيَّنَتْه لهـذه الإمَامَة فَضَائِلُه التى حَسُنَت بها وجُوهُ العِلْمِ الوِسَامُ، حتّىٰ كأَنَّها فى فَمِ الزمن ٱبتِسَام، وأَلْقَىٰ إليه مَقَالِيدَها كَالَّه الذى صَدَّ عنها الخُطَّاب، وسَدَّ دونها أبوابَ الخِطَاب ، وقيـل : هذا الإمام الشافعىّ أَوْلَىٰ بهذا المِنْبَر وأَحْرَىٰ بهذا المِحْرَاب ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أَنْ نُحَلِّيَ أَعْطَاف هذا المِنْبَر بفَضْلِه الذى يُعيدُ عُودَه رَطيبا ، ويُضَمِّخُ طِيباً منه مَاضِمَّ خَطِيبا ، وأَنْ نصدِّر بهذا المِحْرَابِ مَن نعلم أنّه لَدَى الأُمّة مُنَاجٍ لرَبِّه، واقِفٌ بين يَدَىْ مَن يَحُولُ بين المَرْءِ وقَلْبِه .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زال يُوَلِّى الرُّتَب الحسان ، ويَجْرِى بمـا أَمَر اللهُ به من العَدْل والإحْسان ـ أَنْ تفوض إليـه الخَطَابة والإمامة بجامع دِمَشْق المحروس علىٰ عادة من تقدّمه .

فَلْيَرْقَ هذه الرُّتْبَةَ التى أَمْطاه اللهُ ذِرْوَتَها ، وأَعْطاه الفَضْلُ صَهْوَتَها، وعَيَّنَه تفرُّدُه بالفضائل لإذْكَار الأُمَّة عليهـا ، وَرَجَّحَه لها ٱنعقادُ الإجْمَاع علىٰ فَضْلِه حتّىٰ كادت للشَّوْقِ أَن تَسْعىٰ إليه لَوْ لَمْ يَسْعَ إليها، حتّىٰ تَخْتَالَ منه بإمَامٍ لا تَعْدُو مَوَاعِظُه حَبَّاتِ القلوب، لأنها تَخْرُجُ من مِثْلها، ولا تَدَعُ خُطَبُه أَثَراً للذُّنوب، لأنّها تُوَكِّلُ مَاءَ العُيُون بَغسْلِها، ولا تُبْقِى نَصَائحُه للدُّنيا عند المُغْتَرّ بها قَدْرًا : لأنّها تُبَصِّره بخداعها، ولا تترك بَلاغَتُه لمُقَصِّرٍ عن التَّوْبَة عُذْرًا : فإنَّها تُحَذِّره من سُرْعَة زوال الحياة وٱنقطاعها، ولا تجعل فَوَائِدُه لذَوِى النَّجْدَة والبَأْس ٱلْتِفَاتاً إلىٰ أَهْل ولا وَلَدٍ لأنّها تُبَشِّره بمـا أعدّ اللهُ

لمن خرج فى سبيله، ولا تمكّن زواجره من نشر الظلم أن يمدّ إليه يدًا لأنها تخبره بما فى الإقدام علىٰ ذلك من إغضاب الله ورسوله .

فليُطِل ـ مع قِصَر الخُطبة ـ للظّالم مجالَ زجره، وليُطِب قلب العالم العامل بوصف ما أعدّ اللهُ له من أجره، وليَجعل خُطَبه كلَّ وقتٍ مقصورةً علىٰ حكمه، مقصودةً فى وُضوح المقاصد بين من ينهض بسُرعة إدرَاكه أو يقعُد به بطْءُ فهمه؛ فخيرُ الكلامِ مادلّ ببلاغته وإن قلّ، وإذا كان قِصَرُ خُطبة الرجلِ وطُولُ صلاته مَئِنّةً من فقهه فما قصّر من حافظ علىٰ حُكم السُّنّة فيهما ولا أخلّ .

* * *

[وهذه] نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأُمويّ، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين السبكى» .

الحمد لله الذى جعل درجاتِ العلماء آخذةً فى مزيد الرُّقى، وخصّ برفيع الدرجات من الأئمة الأعلام كُلَّ تقى، وألقىٰ مقاليدَ الإمامة لمن يصون نفسه النّفيسة بالورَع ويَقِى، وأعاد إلىٰ معارج الجلال، من لم يزل يختار حميد الخلال، وينتقى، وأسدَل جلبابَ السُّؤدد علىٰ من أعدّ للصّلاة والصّلات من قلبه وثوبه كلَّ طاهرٍ نقى .

نحمده علىٰ أن أعلىٰ علَم الشّرع الشّريف وأقامه، وجعل كلمةَ التّقوىٰ باقيةً فى أهل العلمِ إلىٰ يوم القيامه، ونشهد أن لا إله إلّا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةَ عدلٍ(١) قيّد الفضلَ بالشكر وأدامه، وأيّد النّعمة بمزيد الحمد فلا غروَ أن جمع بين الإمامة

(١) فى الأصل «شهادة عدل فيها قيد الخ» وضبب علىٰ لفظة «فيها» .

والزَّعامه ، ونشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أعلى الله به عقيرة مُرتّل الأذان ومُدْرِج الاقامه ، وأغلى ببركته قيمةَ مَن تمسَّك بسبيل الهُدى ولازم طريق الاستقامه ، صلّى الله عليه وعلى آله الذين عقدوا عُهودَ هذا الدّين وحفظوا نظامَه ، وعلى أصحابه الذين مامنهم إلا مَن اقتدى بطريقه فاهتدى إلى طُرق الكرامه ، صلاة لاتزال بركاتُها تؤيّد عقد اليقين وتُديم ذِمامَه ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ ، فإنّ من شِيَم دولتنا الشريفة أن ترفع كُلّ عالى المِقدار مكانًا عليًّا ، وتجعلَ له من اسمه وصفته قولًا مسموعًا وفعلًا مَرضيًّا ، وتوطّد له رُتبَ المعالى وتزيدَ قدرَه فيها رُقيًّا ، وتكسُوهم من جلباب السُّؤدُد مطرفًا مباركا وطيًّا ، وتُطلق لسانَ إمامه بالمواعظ التى إذا تعقّلها أولو الألباب خرّوا لطاعة ربّهم سُجّدًا وبُكيًّا .

ولما كان المجلسُ العالى هو الذى أعزّ أحكام الشريعة الشريفة وشادَها ، وأبدى من ألفاظه المباركة المواعظَ الربّانيّة وأعادها ، وأذاع فيها أسرار اليقين وزادَها ، وأصلح فسادها ، وقوّم مُنآدها ، وكيف لا وقد جمع من العُلوم أشتاتا ، وأحيا من معالِم التُقى رُفاتا ، وأوضح من صفات العلماء العاملين بهَدْيه وسَمْته هَدْيًا وسَمْاتا ، فلذلك خرج الأمر الشريف الصالحىّ العمادى ... ...

قلتُ : وهذه نسخة توقيع بخطابته أيضا ، أنشأته للشيخ « شهاب الدين ابن حاجّى » :

الحمد لله الذى أطلع شهابَ الفضائل فى سَماء معاليها ، وزيّن صهوات المنابر بمن قرّتْ عيونُها من ولايته المباركة بتواليها ، وجمّل أعوادَها بأجلّ حَبرٍ لو تستطيع فوق

قدرتها لسَعتْ إليه وفارقتْ ـ خرْقًا للعادة ـ مبانيها، وشرُف درَجها بأكْمَلِ عالِم ماوضَع بأسافلِها قدمًا إلا وحسَدتْها على السَّبقِ إلىٰ مسّ قدمه أعاليها .

نحمده علىٰ أنْ خصَّ مَصاقِعَ الخُطباء من فضْل اللّسَنِ بالباعِ المَديد، وقصَر الجامعَ الأُمويَّ علىٰ أبْلغ خطيبٍ يَشيبُ في تطَلُّبِ مثلِه الوليد، وأفرد فريدَ الدّهر باعتبار الاستحقاق برُقِيّ درَجِ منبره السَّعيد . ونشهد أنْ لَا إله إلَّا الله وحده لا شريكَ له شهادةً تَخْفُقُ علىٰ مواكِبِ الصُّفوف أعلامُها ، وتتوفَّر من تذكير آلاء الله تعالىٰ أقسامُها ، ولا تُقصِّر عن تبليغ المَواعظ حبَّاتِ القُلوب أفهامُها ، ونشهد أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيّ نبَّهَ القُلوب الغافلة من سِناتها، وأيقظ الخواطرَ النائمة من سُباتها ، وأحيا رَميمَ الأفئدة بقوارِعِ المَواعظ بعد مَماتِها؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين علَا مَقامُهم ، ففاتت أعْقابُهم الرُّءوس ، ورُفِعت في المَجامع رُتبُهم ، فكانت منزلتُهم منزلةَ الرئيس من المرءُوس؛ صلاةً لا تزالُ الأرضُ لها مسْجدا ، ولا يبرح مُفترَقُ المَنابِرِ باختراق الآفاق لاجتماعها مَوْرِدا .

وبعد، فإنَّ أولىٰ ماصُرِفت العناية إليه، ووقَع الاقتصار من أهمّ المُهمَّات عليه ـ أمرُ المَساجد التي أُقيم بها للدِّين الحنيف رَسْمه، وبيُوتِ العبادات التي أمرَ الله تعالىٰ أنْ تُرفَع ويُذكَر فيها اسْمُه ، لا سيَّما الجوامعُ التي هي منها بمنزلة المُلوك من الرعيَّة، وأماثِلِ الأعْيانِ من بين سائر البريَّه؛ ومن أعْظَمِها خطَرا، وأبْيَنِها في المحاسن أثرا، وأسْيرِها في الآفاق النائية خبَرا ؛ بعْد المَساجد الثلاثة التي تُشَدُّ الرِّحالُ إليها ، ويُعوَّلُ في قصْد الزيارة عليها ـ جامعُ دِمشْقَ الذي رسَت في الفخْر قواعدُه، وقامتْ علىٰ ممر الأيام شَواهدُه، وقاوم الجمَّ الغفيرَ من الجوامع واحدُه، ولم تزَلِ الملوكُ تَصْرِفُ العناية إلىٰ إقامة شَعائرِ وظائفه ، وتقتصر من أهْلِ كُلّ فنّ علىٰ رئيس ذلك الفنّ وعارِفه ؛

فما شَغَرَتْ به وَظِيفَةٌ إلا اختاروا لها الأعلىٰ والأرفع ، ولا وقع التَّرَدُّدُ فيها بين اثنين إلّا تَقَيَّلُوا منهما الأَعْلَمَ والأَوْرَع ؛ خصوصًا وظيفة الخَطَابَة التى كان النبىُّ صلّى الله عليه وسلّم للقيام بها مُتَصَدِّيا ، وعَلِم الخلفاءُ مقامَ شَرَفِها بعدُ فباشروها بأنفسهم تأَسِّيا .

ولما كان المجلس العالى ، القَاضَوِىّ ، الشَّيْخِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الأَوْحَدِىّ ، الأَكْمَلِىّ ، الرَّئِيسِىّ ، المُفَوَّهِىّ ، البَلِيغِىّ ، الفَرِيدِىّ ، المُفِيدِىّ ، النَّجِيدِىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المُحَقِّقِىّ ، الوَرَعِىّ ، الخَاشِعِىّ ، النَّاسِكِىّ ، الإمامىّ ، العَلَّامِىّ ، الأَثِيلِىّ ، العَرِيقِىّ ، الأَصِيلِىّ ، الحَاكِمِىّ ، الخَطِيبِىّ ، الشِّهَابِىّ : جَمَال الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ العُلَماء العَامِلِين ، أَوْحَدُ الفُضَلاء المُفِيدين ، قُدْوَة البُلَغَاء المجتهدين ، حُجَّة الأُمَّة ، عُمْدَة المُحَدِّثِين ، فَخْر المُدَرِّسِين ، مُفْتِى المسلمين ، مُعِزّ السنة ، قَامِع البِدْعَة ، مُؤَيِّد المِلَّة ، شَمْس الشَّرِيعَة ، حُجَّة المتكلّمين ، لِسَانُ المُنَاظِرِين ، بَرَكة الدَّوْلَة ، خَطِيبُ الخُطَبَاء ، مُذَكِّر القُلُوب ، مُنَبِّه الخَوَاطِر ، قُدْوَة الملوك والسَّلَاطِين ، وَلِىُّ أَمير المُؤْمنين « أَبُو العبَّاس أَحمد » أدام الله تعالىٰ نِعْمَتَه : هو الذى خَطَبَتْه هذه الخَطَابَة لنَفْسها ، وعَلِمَت أنّه الكُفْءُ الكَامِلُ فنَسِيَت به فى يَوْمِها ما كان من مَصَاقِع الخطباء فى أَمْسِها ؛ إِذْ هو الإِمَامُ ، الذى لا تُسَامَىٰ عُلُومُه ولا تُسَام ، والعلَّامة الذى لا تُدْرَك مَدَارِكُه ولا تُرَام ؛ والحَبْرُ الذى تُعْقَد علىٰ فَضْله الخَنَاصِر ، والعَالِم الذى يعترف بالقُصُور عن مُجَارَاةِ جِيَادِه المُنَاظِر ، والحَافِظُ الذى قَاوَمَ عُلَماء زَمَانه بلا مُنَازِع ، وعَلَّامَةُ أَئِمة أَوَانه من غير مُدَافِع ؛ ونَاصِرُ السُّنَّة الذى يَذُبُّ بعلومه عنها ، وجَامِعُ أَشْتَاتِ الفُنُون التى يَقْتَبِس أَمَاثِلُ العُلَمَاء منها ، وزَاهِدُ الوَقْتِ الذى زَانَ العِلْمَ بالعَمَل ، ونَاسِكُ الدَّهْر الذى قَصَّر عن مَبْلَغ مَدَاه الأَمَل ؛ ورُحْلَةُ الأَقْطار الذى تُشَدُّ إليه الرِّحَال ، وعَالِمُ الآفَاق الذى لم يَسْمَح الدَّهْرُ له بِمِثَال ــ اقتضىٰ

حسن الرأى الشريف أن تَرْفَعَه من المنابر على درجها ، وتَقْطع ببراهينه من دَلائِل الإلباس المُلَبَّسة دَاحِضَ حُجَجِها ، وتُقَدِّمَه علىٰ غيره ممن رَامَ إبْرَامَ الباطل فنقض، وحَاوَل رَفْعَ نَفْسه بغيرِ أداةِ الرَّفع فخفض .

فلذلك رسم بالأمْر الشَّريف العَالِى، المَوْلَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكِىّ، المَنْصُورِىّ، المُعِزّىّ ـ لا زال يَرْفَع لأَهْل العِلْم رَاسا ، ويُحَقّق لذَوى الجهْلِ من بلوغ المَرَاتب السَّنِيَّة يَاسا ـ أن يفوّض إلى المجلس العالى المشار إليه خَطَابَة الجَامِع المذكور بانفراده، علىٰ أَتَمّ القواعد وأَكْمَلِها، وأَحْسَن العوائد وأَجْمَلِها .

فلْيَرْقَ مِنْبَرَه الذى عَاقَب فيه رَامِحُهُ الطَّالِعُ أَعْزَلَ غيرِه الغَارِب،ولْيَتَبَوَّأْ ذِرْوَةَ سَنَامِه الأَرْفع من غير شريك له ولا حَاجِب؛ ولْيَقْصِد بمَوَاعِظه حَبَّاتِ القُلُوب، ويَرْشُقْ بِشِهابِ قَرَاطِيسها المَانِعة فإنَّها الغَرَضُ المطلوب؛ ولْيَأْتِ من زَوَاجِرِ وَعْظِه بمَا يَذْهَبُ مَذْهَبَ الأَمْثَال السائرة، ويُرْسِلْها من صَمِيم قَلْبِه العَامِرِ فإنَّ الوَعْظَ لا يَظْهر أَثَرُهُ إلَّا من القلوب العَامِرة؛ ويُقَابِلْ كلَّ قَوْم من التذكير بما يناسب أحْوالهم علىٰ أَكْمَلِ سَنَن، ويخُصَّ كُلًّا من أَزْمَان السَّنَة بما يوافق ذلك الزَّمَن ؛ والوَصَايَا كَثِيرةٌ وإنَّما تَهْذِيبُ العِلْمِ يُغْنِي عنها، وتَأْدِيبُ الشريعة يَكْفِي مع القَدْر اليسير منها؛ وتَقْوَى الله تَعالىٰ مِلاكُ الأمور وعنده منها القَدْر الكَافِي، والحَاصل الوافِى ؛ والله تعالىٰ يُرَقِّيه إلىٰ أرْفَع الذُّرَىٰ، ويرفَعُ على الجوزاءِ مَجْلِسَه العالى: «وإنّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرا» .

✢

الوظيفة السادسة — التَّداريسُ الكِبَار بدِمَشْق المحروسة .

وهـذه نسخة تَوْقيـع بتَدْرِيس المدرسـة الرَّيْحانية ، كُتِب به لقـاضى القضاة «عماد الدين الطَّرَسُوسىّ» الحَنفىّ ، عوضا عن جَلال الدِّين الرَّازىّ . كُتِبَ بسؤال بعض كُتَّاب الإنشاء، وهى :

الحمد لله الذى جعل عِمَادَ الدِّين عليًّا ، وأَحْكَمَ مبانِىَ مَن حَكَمَ فلم يُدْعَ عصيًّا ، وقَضَىٰ فى سابِق قَضَائِه لإمْضَاءِ قَضَايَاه أَنْ لا يُبْقِىَ عَتيًّا .

نحمده علىٰ ما وهب به من أَوْقات الذِّكْر بُكْرَةً وعَشيًّا ، ونشهد أَنْ لا إلٰه إلَّا الله وحدَه لا شريك له شهادةً تُنَبِّـه بالعِلْم بوَحْدَانيَّتـه من كان غَبيًّا ، وتَكْبُتُ لمقاتل سيوف العلماء مَنْ كان غَوِيًّا ، ونشهدُ أَنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كان عند رَبِّه رَضيًّا ، وعلىٰ ذَبِّه عمَّا شَرَع من الدين مَرْضيًّا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لايزال فَضْلُ قَدِيمها مِثْلَ حَدِيثها مَرْوِيًّا ، وسلَّم تَسليمًا كثيرا .

وبعـد، فلمَّا كانت رُتَبُ العِلْم هى التى يُتَنَافَسُ عليها ، ويُتَطَاوَلُ إلى التَّنقُّل إليها ، ويُخْتَارُ منهـا ما كُسِىَ بمباشرة المتقدِّم مَلابِسَ الجَلال ، وآنَ له أَنْ ينتقل إليه البَدْر بعد الهلال ؛ وكانت المدرسة الرَّيْحانيَّةُ بمحروسة دِمَشْق هى رَيْحَانَةَ المَجَالِس ، ورَوْضَةَ العِلْمِ الزَّاكِيَةَ المَغَارِس ، وبَحْرَ الفَوائِد الذى يُخْرِجُ الفرائد ، ومَسْرَحُ العلمـاء الذى قد آن أَنْ يظْفر به منهم من الأَلْفِ زائد .

ولـمَّا تُوُفِّىَ من آلت إليه ، وعَالَت مَسْأَلَتُها إلَّا عَلَيْه ، وكان ممَّن قد وَلِىَ الأَحكام اسْتِقْلالا ، وكان لبَصَر الدُّنْيـا جِلاءً وللدِّين جَلالا ، لم تكن إلَّا لمن يَتَسَنَّىٰ به ذلك

الذّاهبُ ، و ينسب إليه علمُ مذهَبِه كلِّه و إن كان لايقتصر به على بَعْض المذاهب ؛ ويعْرَفُ مَن هُوَ و إن لم يُصَرّح باسْمِه ، ويعرفُ مَن هُوَ وإن لم يُذْكر بعَلاَءِ قَدْرِه العَلِيّ وعِلْمِه ؛ ولا يُمْتَرَى أنّه خَلَف «أبَا حَنِيفَةَ» فيمن خلف ، وحَصَل على مِثْل ماحَصَل عليه القَاضِى «أبُو يُوسُف» وذهب ذلك فى السَّلَف الأوّل مع من سَلَف ؛ وأَعْلَمَ بجِدَالِه أنَّ «محمدَ بنَ الحَسَن» ليس من أقْرَانِ أَبِي الحَسَن ، وأنَّ «زُفَر» لم يُرْزَق طِيبَ أنْفَاسِه فى بَرَاعة اللَّسَنِ ؛ وأنَّ «الطَّحَاوِىَّ» ما طَحَا به «قَلْبٌ إِلَى الحِسَانِ طَرُوب» و «القَاضِى خَان» لَدَيْه مِنه الأنْبُوب ، وتَلقَّب «شَمْسَ الأئمة» لما طلعَ عِلْمُ أنَّهُ قد حَانَ من شَمْسِ النَّهار غُرُوب ، و «الرَّازِىّ» لما جاء تيَقّنَ أنَّه يروزه[2] عن علم الجيوب ، و «المَرْغِينَانِىّ» مُسَّ ولم يُرْغَنْ[3] لَهُ فى مطلوب ، و «الثَّلْجِىّ» ما بَرَّد لطَالِبٍ غُلَّه ، و «الخَبَازِىّ» لم يُوجَدْ عنده لطَعَامٍ فَضْلَه ، و «الهُنْدُوَانِىُّ» ما أَجْدَى فى جِلَاد الجِدَالِ ولا هَزَّ نَصْلَه ؛ ولم يَزَلْ يُشَار إليـه والتَّقْلِيدُ الشريف له بالحكم المُطْلَق بما تَضَمَّنَه من محَاسِنِ أوْصافه شَاهِد ، ودَسْتُ الحُكْم على عُلَى كِيوَانَ شائد ، ومدارس العلم تُسَرّ من حُبّه ، ما حُنِيت عليه من محاريبها الأَضَالع ، ومجَالِسُ القضاء تُظْهِرُ بقُرْبِه ، مالم يكن تُدَانى إليه المواضع .

وكان الجناب الكريم ، العالى ، القَضَائىّ ، الأَجَلِىّ ، الإمامىّ ، الصَّدْرِىّ ، العَالمىّ ، العَامِلىّ ، العَلَّامىّ ، الكَامِلىّ ، الفَاضِلىّ ، الأوْحدىّ ، المُفِيدِىّ ، الوَرَعِىّ ، الحَاكِمِىّ ، العِمَادِىّ ؛ ضِيَاءُ الإسلام ، شَرَف الأَنام ، صَدْر الشَّام ، أثِير الإمَام ، سيد العلماء والحكَّام ؛ رَئِيس الأصْحاب ، مُعِزُّ السُّنَّة ، مُؤَيِّد المِلَّة ، جَلَال الأئمّة ؛ حكَم الملوك والسلاطين ، خالِصة أَمِيرِ المؤمنين ، أبُو الحسن علىّ بن الطَّرسوسىّ الحَنَفِىّ ، قَاضِى

(١) كذا فى الأصل ولعله من زيادة قلم الناسخ .
(٢) يروزه يسأله ويختبره . يريد يسأله عن علم الجيوب الفلكية .
(٣) من أرغن له فى كذا . أطاعه فيه .

القُضَاة بالشَّام ـ نشر مُلَاءَةَ مَذْهَبِه ، وحَلَّى بجلوسه لمحكم طَرَفَى النَّهار إضاءَةَ مُفَضَّضِه وتوشيع مُذْهَبِه ، طَالَمَا سَاسَ الرَّعِيَّةَ بحُكْمِه ، وسَاد نُظَرَاءَه فى معرفة العلوم الشَّرْعِيَّة بعلْمِه وحِكَمِه ، وسَار مَثَلُ فَضْلِه فى الأَقطار وضَوْءُ الشَّمس مَرَدُّ شُعَاعِه ، فطَالَ إلى السَّماء وقَصُر الأُفق الممتد علىٰ طُول بَاعِه ، وفَاضَ فَيْضَ الغمام وما آكْتَال البَحْرُ بكَيْلِه ولا صَار مِثْـلَ صَاعِه ، وعُرِضَت عليـه هذه المدرسـة التى لم يكن لغيره أَنْ يُحِيَ رَيحانَتَهـا ، ولا أَنْ تؤدّى إلى يَدِ سِوَاه فيُودَعَ أَمَانَتَها ، فآثَرَها علىٰ أَنَّه ترك المدرسةَ المُقَدَّمِيَّة المتَقدّمَ له دَرْسُها ، المُعظَّمَ به فى كُلِّ حِينٍ غَرْسُها ، ليُوسِّعَ بهـا على الطالب مَذْهَبَـه ، ويُفْرِغَ لهـا سَاعَةً من أَوْقَاتِه المُنْتَهِبَة ، ويَهَب [لها] من حَقِّه الذى هو فى يده مالو شاء ما وَهَبَه .

فرُسم بالأَمر الشريف ـ لَا زَالَ يُقَرِّبُ الآماد ، ويُرْضِى القَوْم وأَقْصَاهُم عَلِيٌّ وأَثْبَتُهم طَوْدًا العِماد ـ أن يفوَّض إليه تَدْرِيسُ المدرسـة الرَّيحَانية المعيَّنة أَعْلاه ، علىٰ عادة من تَقَدَّمه وقاعِدَتِه إلىٰ آخر وقت ، بحكم تركه للمقدّمية ليَهُبَّ عليـه رَوْحها وتَهب له السَّعادةُ رِيحها ، ولها من البُشْرىٰ بعلْمِه ما تَميس به رَيْحَانَةٌ رِيحها سُرُورا ، وتَمِيدُ وقد أَكَنَّتْ جَبَلًا من العِلْمِ وَقُورا ، وتمتدّ وقد نَافَحَت فى مِسْكَةِ اللَّيل عَبِيرا ، وفى أُقْحُوانَةِ الصَّبَاح كَافُورا ، وما نُوصِى مِثْلَه ـ أَجَلَّ اللهُ قَدْرَه ـ بوصـية إلا وهو يَعْلَمُها ، ويُلَقِّنُها من حِفْظه ويُعَلِّمُها ، ومن فضل قَضَائِه تُؤْخَذُ الآدَاب ، وتُنْفَذُ سِهَامُ الآراء والآرَاب . وتَقْوَى الله بها بَاطِنُه مَعْمُور ، وكُلُّ أَحَدٍ بهـا مَأْمور ، وما نَذْكُره بها إلا علىٰ سبيل التَّبَرُّك بذِكْرِها ، والتَّمَسُّك بأَمْرِها . والفُقَهاء والمُتَفَقِّهة هم جُنْدُه ، وبهم يَجِدُّ جِدُّه ، [فليجعلهم له فى المشكلات عُدَّه ، وليصرف فى] الإحسان إليهم جُهْدَه ، والله تعالىٰ يُعِينُه علىٰ ما وَلِى ، ويُعِينُه لكلِّ عَلْيَاءَ لا يصلح أَنْ يَحُلَّها إلَّا عَلِي . وسبيلُ كلِّ وَاقِفٍ عليه العملُ به بعد الخطِّ الشريف أَعْلاه .

الوظيفة السابعة — التصادير بدمشق المحروسة .

وهـذه نسخة توقيع أنشأته لقاضى القضاة «بدر الدين محمد» ابن قاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء، وولده جلال الدين محمد، بإعادة تصديرين كانا باسمهما، بالجامع الأموى بدمشق : أحدهما انتقل إليهما عن سلفهما، والثانى بنزول، وخرج عنهما عند استيلاء «تنم» نائب الشام على الشام فى سنة اثنتين وثمانمائة، ثم أعيد إليهما فى شوال من السنة المذكورة، فى قطع الثلث، وهى :

الحمد لله الذى جعل بدر الدين فى أيامنا الزاهرة متواصل رتب الكمال، مترددا فى فلك المعالى بأكرم مساغ بين بهاء وجلال ؛ منزها عن شوائب النقص فى جميع حالاته : فإما مرتقب الظهور فى سراره، أو متسم بالتمام فى إبداره، أو آخذ فى الازدياد وهو هلال .

نحمده على أن أقر الحقوق فى أهلها، وانتزع من الأيدى الغاصبة ما اقتطعته الأيام الجائرة بجهلها، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تحمى قائلها من شوائب التكدير، وتصون منتحلها من عوارض الإصدار إذا ورد أصفى مناهل التصدير، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل نبى اقتفت أمته آثاره واتبعت سننه، وأكرم رسول دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الحق وأعلام الهدى، وحماة الدين وكفاة الردى، صلاة يبقى على مدى الأيام حكمها، ولا يندرس على ممر الليالى رسمها، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من رعيت له الحقوق القديمه، وحفظت له مساعيه الكريمه، وخلدت عليه النعم التى حق لها أن تكون بأهلها مقيمه، من كرم أصلا وطاب

فرعا ، وزكا منبعًا وعذب نبعا ، ووقع الإجماع على فضله المتواتر فأُعدِق الحكم بتفضيله قطعا ، ومن إذا تكلّم فاق بفضله نثر اللآلى ، وإذا قُدر قدره انحطّت عن بلوغ غايته المعالى ، وإذا طلع بدره المضىءُ من أُفق مجلسه الموروث عن أبيه وأعمامه قال : ليت أشياخى شهدوا هذا المجلس العالى ، ومن إذا جلس بحلقته البهيّة غشيته من الهيبة جلاله ، وإذا أطافت به هالة الطلبة والمستفيدين قيل : ما أحسن هذا البدر فى هذه الهاله ! ، ومن تتيه طلبته على أكابر العلماء بالانتماء إليه ، وتشمخ نفوس تلامذته على غيره من المتصدّرين بالجلوس بين يديه ، ومن إذا أقام بمصر طلع بالشام بدره ، ولو أقام بالشام بقى بمصر على الدوام ذكره .

وكان المجلس العالى ، القاضوى ، الكبيرى ، العالمى ، العاملى ، الأفضلى ، الأكملى ، الأوحدى ، البليغى ، الفريدى ، المفيدى ، التجيدى ، القدوى ، الحجى ، المحقق ، الإمامى ، الأصيلى ، البدرى ، جمال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، أوحد الفضلاء المفيدين ، قدوة البلغاء ، حجة الأدب ، عمدة المحدثين ، فخر المدرسين ، مفتى الفرق ، أوحد الأئمة ، زين الأمة ، خالصة الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين ، أبو عبد الله ، محمد ابن المجلس العالى ، القاضوى ، الكبيرى ، المرحومى ، البهائى ، أبى البقاء الشافعى ، السبكى ، ضاعف الله تعالى نعمته : هو عين أعيان الزمان ، والمحدّث بفضله على ممرّ الليالى وليس الخبر كالعيان ؛ ماولى منصبا من المناصب الدينيّة إلّا كان له أهلا ، ولا أراد الانصراف من مجلس علم إلّا قال له مهلا ، ولا استبدل به فى وظيفة إلّا نسب مستبدله إلى الحيف ، ولا صرف عن ولاية إلّا قال استحقاقه : كيف ساغ ذلك لمتعاطيه فكيف وكيف .

وكان ولده المجلس السامى، القضائى، الكبيرى، العالمى، الفاضلى، الكاملى، البارعى، الأصيلى، العريقى، الجلالى، ضياء الإسلام، فخر الأنام، زين الصدور، جمال الأعيان، تجل الأفاضل، سليل العلماء، صفوة الملوك والسلاطين، خالصة أمير المؤمنين، أبو (١) محمد بلّغ الله تعالى فيه [عارفيه] غاية الأمل، وأقرّ به عين الزمان كما أقر به عين أبيه وقد فعل؛ قد أرضع لبان العلم وربى فى حجره، ونشأ فى بيته ودرج من وكره؛ وكمل له سؤدد الطرفين: أبا وأما، وحصل على شرف المحتدين: خالا وعما؛ لم يقع عليه بصر متبصر إلا قال: نعم الولد، ولا تأمله صحيح النظر إلا قال: هذا الشبل من ذاك الأسد؛ ولا رمى والده إلى غاية إلا أدركها، ولا أحاط به منطقة طلبة إلا هزها للبحث وحركها؛ ولا اقتفى أثر أبيه وجده فى مهيع فضل إلا قال قائله: أكرم بها من ذرية ما أبركها!.

واتفق أن خرج عنهما ما كان باسمهما من وظيفتى التصدير بالجامع الأموى المعمور بذكر الله تعالى بدمشق المحروسة: المنتقلة إحداهما إليهما عن سلفهما الصالح قدما، والصائرة الأخرى إليهما بطريق شرعى معتبر وضعا وثابت حكما - اقتضى حسن الرأى الشريف أن يحفظ لهما سالف الخدمه، ويرعى لهما قديم الولاء فالعبرة فى التقديم عند الملوك بالقدمه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال لذوى البيوت حافظا، وعلى الإحسان لأهل العلم الشريف على ممر الزمان محافظا - أن يعاد ذلك إليهما، ويوالى مزيد الإحسان عليهما؛ فليتلقيا ذلك بالقبول، ويبسطا بالقول ألسنتهما فمن شمله إنعامنا الشريف حق له أن يقول ويطول؛ وملاك أمرهما التقوى فهى خير زاد، والوصايا

(١) بياض بالأصل.

وإن كَثُرَتْ فعنهما تؤخذ ومنهما تُسْتَفَاد، والله تعالى يُقِرُّ لهما بهذا الاستقرار عينا، ويُبْهِجُ خَوَاطِرَهُما بهذه الوِلَايَة إبْهاجَ من وَجَدَ ضَالَّتَه فقال : ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ . والاعتماد فى ذلك على الخَطِّ الشَّرِيف أعلاه الله تعالى أعلاه، حُجَّة بمُقْتضاه؛ إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثامنة — النَّظَــر .

وهذه نسخة تَوْقيع بنظر البِيمَارَسْتان النُّورى، كُتِب بها لمن لَقَبُه «شِهَابُ الدِّين» وهى :

رُسِمَ ... ... — لا زَالَ يُطْلِعُ فى سماء المناصب السَّنِيَّة من ذَوِى الأَصَالَة والكِفَايَة شِهَابا، ويُوزِعُ المُسْتَحِقِّين بجِهَات البِرِّ شُكْرَه إذ اختار لهم من أَهْل النَّهْضَة من ارتدى العَفَاف جِلْبَابا، ويُودِعُ صَحَائِفَ الأَيَّام ذِكْرَه الجميلَ حين أَحْيا قُرُبَاتِ المُلُوك السَّالِفين بانْتِخَاب مَنْ يُجَدِّد لهم بحُسْنِ المُبَاشَرَة ثَوَابا — أَنْ يُحْمَل «مَجْلِس الأمير» فُلَان : أعَزَّه الله تعالى فيما هو بيده من نظر البِيمَارَسْتَان النُّورِى بدِمَشْق المحروسة، على حُكْم التَّوْقيع الكريم والوِلَاية الشَّرعية اللَّذَيْن بيَده، واستقراره فى ذلك بمُقْتَضاهما استقرارا يَبْسُط فى هذا المَنْصِب يَدَه ولِسانَه، ويُظْهِرُ شِهَابَ عَدْله الذى يُحْرِقُ من الجَوْرِ شَيْطَانَه، ويُبْرِزُ من مُبَاشَرَتِه ما عُرِفَ جَوْهَرُه بحُسْنِ الانْتِقاء وإبْرِيزُه بحسن الانتقاد، ومن تأثيره ماتَبْلُغ به الأنْفُسُ المُرَادَ بأوْسع مَرَاد؛ ويُبْدِى من تدبيره، ما يُنْتِج تمييز الوقف وتثميره .

فَلْيُبَاشِرْ ذلك على عادة مُبَاشَرَتِه الحَسَنَه، ولْيَسْلُكْ فيها ماعُهِدَ من طَرِيقَتِه المُسْتَحْسَنه؛ مُحَصِّلًا من المفردات مايصرفها لمُسْتَحِقِّها وقت الحاجة إليها، مُثَابِرًا

علىٰ حُسْن مُعَالَجَة المَضْرُور الذى لا تَقْدِرُ يَدُه من العَجْزِ عليها ، مُواصِلًا فِعْلَ الخَيْر باستمرار صدقات الواقف لِيُشارِكه فى الأَجْرِ والثَّوَاب ، مُسْتَجْلِبًا له من الدعاء ولنا بمُشارَكَته فى الأَمْر بالعَمَل بسُنَّته إلىٰ يَوم المَآب ، ضَابِطًا أَموال هـذه الجهة بتحرير الأُصُول والمطلق والحِسَابِ والحُسَّاب ، متقدما إلى الخُدَّام والقَوَمَة بحسن الخِدْمة للعَاجِز والضَّعِيف ، مُؤَكِّدا عليهم فى أَخْذِهم بالقَوْل اللَّيِّن دُونَ الكلام العَنِيف ، مُلْزِمًا لهم بجَوْدَةِ الخدمة لَيْلًا ونَهارا ، مُؤَاخِذًا لهم بمـا يُخِلُّونَ به من ذلك إهمَـالا وإِقْصارًا ، مُتَقَدِّمًا إلىٰ أَرْباب وَظَائِف المعالجة ببَذْلِ النَّصِيحه ، وٱستدراك الأَدْواء المُسْقِمَة بإتقان الأَدْوِية الصَّحِيحَه ، ولْيَتَفَقَّد الأَحْوال بنَفْسِـه : لِيَعْلَم أَهْلُ المكان أَنَّ وَرَاءَهم من يقابلهم على التَّقْصير ، ولْيَبْذُلْ فى ذلك جُهْدَه فإنَّ الاجتهادَ القَلِيـلَ يُؤَثِّر الخيرَ الكَثِير . والوَصايا كَثِيرةٌ وعنده من التَّأَدُّب بالعِلْم وحُسْنِ المُبَاشَرة ما فيـه كِفَايَه ، وفى أَخْلاقه من جَمِيل المَآثِر وما حَازَه فى البِدَايَة ما يَنْفَعُه فى النِّهَايَه ؛ ولكِنْ تَقْوى اللهِ عَزَّ وجَلَّ هى السَّبَبُ الأَقْوىٰ ، والمَنْهَلُ الذى مَن وَرَدَه يَرْوىٰ ؛ فلْيَجْعَلْها له ذَخِيرةً لِيَوْم المَعَاد ، ومَعْقِلًا عند الخُطُوب الشِّدَاد ، واللهُ تعالىٰ يُبَلِّغُه من التوفيق الأَمَلَ والمُرَاد ؛ بمنِّه وكَرَمه ! ، والاعتماد ... ... إنْ شاء اللهُ تعالىٰ .

الصنف الثالث

(من تواقيع أرباب الوظائف بحاضرة دِمَشْق – تَوَاقِيعُ أَرْباب الوظائف الدِّيوانِيَّة ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» وهى على ضربين)

الضرب الأوّل(١)

(تواقيع الوزارة بالمملكة الشَّامِيَّة على ما آستقرّ عليه الحال)

فقد ذكر فى "التعريف" أنّه يكتب بالشّام للصاحب [عز](٢) الدين أَبى يَعْلَى «حَمْزَة بن القَلَانِسِىّ» رحمه الله بـ«الجناب العالى» لجَلَالَة قَدْره ، وسَابِقَة خِدَمه ، وعناية من كَتَب له بذلك . لكنّه لم يُبيِّن مِقْدَارَ قطْع الورق لذلك . ولا يخفى أنه كُتِب به فى قَطْع الثُّلُثَيْن ، على القاعدة فى أنّه يُكْتَب للجَنَاب فى قَطْع الثلثين . وقد ذكر بعد ذلك أنَّ الذى آستقرّ عليه الحال أنّه يكتب للوزير بالشّام «المجلس العالى» بالدعاء ، كما كُتِب للصَّاحب أمينِ الدِّين أَمينِ المُلْك .

[وفيه وظائف :

الوظيفة الأولى – ولاية تدبير الممالك الشامية](٣) .

وهذه نسخة تَوقِيع للصاحب «أَمينِ المُلْك» المذكور بتدبير الممالك الشّامِيَّة والخَوَاصّ الشريفة والأَوْقاف المَبْرُورة ، من إنشاء الصَّلَاح الصَّفَدِىّ ، وهى :

(١) لم يذكر الثانى .

(٢) بياض بالأصل والتصحيح من "التعريف" (ص ٧٥) .

(٣) زدنا ما بين القوسين لاقتضاء المقام وتميم الكلام .

الحمد لله الذى جعل وَلِىّ أيّامنا الزّاهِرة، أمينا، وأحلّه من ضمائرنا الطاهرة، مكانًا أيْمَا توجّه وجده مكينا، وخصّه بالإخلاص لدولتنا القاهرة، فهو يقينًا يقينا، وعضد بتدبيره ممالكنا الشّريفة فكان علىٰ نيل الأمل الذى لا يمين يمينا، وزيّن به آفاق المعالى فما دجا أمرٌ إلّا كان فكره فيه صحيحا مبينا، وجمّل به الرّتب الفاخرة فكم قلّد جيدها عقدًا نفيسًا ورصّع تاجها درًّا ثمينا، وأعانه علىٰ ما يتولّاه فهو الأسد الأسدّ الذى اتخذ الأقلام عرينا .

نحمده علىٰ نعمه التى خصّتنا بولىّ تجمّل به الدّول، وتغنى الممالكُ بتدبيره عن الأنصار والخول، وتحسُدُ أيّامنا الشّريفة [عليه] أيّام من مضىٰ من الدّول الأُوَل . ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحده لا شريك له شهادةً نستمطر بها صوبَ الصّواب، ونزفّ منها فى ثوب الثّواب، ونعتدُّ برّها واصلًا ليوم الفصل والمآب، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه الصّادقُ الأمين، ورسولُه الذى لم يكن على الغيب بضنين، وحبيبُه الذى فضل الملائكة المقرّبين ، ونجيُّه الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ حُجّةً علىٰ المُلحدين، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين صحبوا ووزروا، وأيّدوا حزبه ونصروا ، وعدلوا فيما نهوا وأمروا، صلاةً تكونُ لهم هُدًى إذا حُشروا ، وتضوعُ لهم عرفهم فى العُرف وتُطيّب نشرهم إذا نُشروا ، وسلّم تسليما كثيرا إلىٰ يوم الدّين .

وبعد، فإنّ أشرف الكواكب أبعدُها دارًا ، وأجلّها سُرًى وأقلّها سِرارًا ، وأعلاها منارا، وأطيب الجنّات جنابًا ما طاب أرجًا وثمارًا ، وتجرى خلاله كلّ نهرٍ «يروعُ حصاه حالية العذارىٰ» ، ورنّحت معاطف غصونه سُلافُ النّسيم فتراها سُكارىٰ، ومدّت ظلال الغُصون فتخال أنّها علىٰ وجنات الأنهار تدبّ عذارا .

وكانت دمشق المحروسة لها هذه الصفات ، وعلى صفاها تهب نسمات هذه السمات ، لم يتصف غيرها بهذه الصفه ، ولا اتفق أولوا الألباب إلا على محاسنها المختلفه ، فهى البقعة التى يطرب لأوصاف جمالها الجماد ، والبلد الذى ذهب بعض المفسرين إلى أنها إرم ذات العماد ، وهى فى الدنيا أنموذج الجنة التى وعد المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يرزقون ؛ وهى زهرة ملكا ، ودرة سلكا ، وقد خلت هذه المدة ممن يراعى تدبيرها ويحمى حوزتها ويحاشيها من التدمير ويملأ خزائنها خيرا يحلى ، إذا ملأنا ساحتها خيلا ورجلا ـ تعين أن ننتدب لها من جربناه بعدا وقربا ، وهززناه مثقفا وسللناه عضبا ، وخبأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف مايدخر وأعز مايخبى ؛ كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرا لما وزر ، وكم غنيت به أيامنا عن الشمس ولياليبنا عن القمر ، وكم رفعنا راية مجد تلقاها عرابة فضله بيمين الظفر ، وكم علا ذرا رتب تعز على الكواكب الثابتة فضلا عمن يتنقل فى المباشرات من البشر ، وكم كانت الأموال جمادى وأعادها ربيعا غرد به طائر الإقبال وصفر .

و [لما] كان [الصاحب أمين الملك] (١) هو معنى هذه الإشاره ، وشمس هذه الهالة وبدر هذه الداره ؛ نزل من العلياء فى الصميم ، ونخرنا بأقلامه التى هى سمر الرماح كما نخرت بقوسها تميم ؛ وحفظت الأموال فى دفاتره التى يوشيها فأوت إلى الكهف والرقيم ، وقال لسان قلمه : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ وعقم الزمان أن يجيء بمثله «إن الزمان بمثله لعقيم» وتشبه به أقوام فبانوا وبادوا ، وقام منهم عباد العباد فلما قام عبد الله كادوا ـ أردنا أن تنال الشام فضله كما نالته مصر فما تساهم فيه سواهما ، ولا يقول لسان الملك لغيره :

حللت بهذا حلة ثم حلة ٭ بهذا فطاب الواديان كلاهما

(١) بياض بالأصل والتصحيح مما تقدم .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه تدبير الممالك الشريفة، ونظر الخواص الشريفة والأوقاف المبرورة على عادة من تقدمه فى ذلك .

فليتلق هذه الولاية بالعزم الذى نعهده، والحزم الذى شاهدناه ونشهده، والتدبير الذى يعترف الصواب له ولا يجحده؛ حتى تثمر الأموال فى أوراق الحساب، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب؛ مع رفق يكون فى شدته، ولين يزيد مضاء حدته، وعدل يصون مهلة مدته؛ والعدل يعمر، والغدر يدمر، ولا يثمر؛ بحيث إن الحقوق تصل إلى أربابها، والمعالم تطلع بدور بدرها كاملة كل هلال على أصحابها؛ والرسوم لا تزداد على الطاقة فى بابها، والرعايا يجنون ثمر العدل فى أيامه متشابها؛ وإذا أنعمنا على بعض أوليائنا بنحل فلا يكدر وردها بأن تؤخر، وإذا استدعينا لأبوابنا بمهم فليكن الإسراع إليه يخجل البرق المتألق فى السحاب المسخر؛ فما أردناك إلا لأنك سهم خرج من كنانه، وشهم لا ينهى إلى الباطل عيانه وعنانه؛ فاشكر هذه النعمة على منائحها، وشنف الأسماع بمدائحها؛ متحققا أن فى النقل، بلوغ العز والأمل، وأنه لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى «لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل»؛ فاستصحب الفرح والجذل، بدل الفكر والجدل .

الوظيفة الثانية — كتابة السر بالشام .

ويعبر عنها بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بدمشق . وشأنه هناك شأن كاتب السر بالأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بصحابة ديوان الإنشاء بالشام، كتب بها لفتح الدين بن الشهيد، من إنشاء القاضى ناصر الدين بن النشائى، فى مستهل ذى القعدة سنة أربع وستين وسبعمائة، وهى :

الحمد لله مُجزل المَنّ والمِنَح، ومُرسِل سحائب العطاء السَّمْح، ومُعمِل فكرنا الشريف في انتخاب من أورى زند الخير بالقدح، ومنقّل السّريين الأفاضل من صدرٍ إلى صدرٍ بحمًى يصونُ له السَّرح، ويُغنى مشهورُ ألفاظه عن الشَّرح، ومُجمِّل بناء الدِّين، بما سكن به من صميم الفضل المبين، وما اقترن بأبوابه من حركة الفتح .

نحمده على نِعَم عاطرة النَّفح، ونشكره على مِنَنٍ عالية السَّفح . ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً تُنجى قائلها من حرّ الجحيم وتقيه شرّ شرر ذلك اللّفح، وتخطب بها ألسنةُ الأقلام على منابر الأنامل فتُنشى عندها من مُطربات الوُرْق على غصون الأوراق هديل الصَّدح . ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله الذى بلّغ الرِّسالة وأدّى الأمانة وعامل الأمّة بالنُّصح، وأزال عنهم التَّرح وأمنه الله على أسرار وحيه فكان أشرف أمين خصّه الله فى مُحكم آياته بالمدح، وجعله أعظم من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فلم تأخذه فى الله لومةُ لائم ممّن لحا وممّن لم يلح، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه أهل الوفاء، والصَّفاء، والصِّفاح والصَّفح، والذين جاهدوا فى الله حقّ جهاده بالنّفس والمال والكدّ والكدح، ورفعوا أعلامهم المظلّلة، ونصبوا أقلامهم المعدّلة، فكم لهم فى المشركين من جراح لا تعرف الجرح، وذادوا عن حوزة الدين، بإراقة دم الكفّار المتمرّدين، فحسُن منهم الذَّبّ والذَّبح، وكانوا فرسان الكلام، وأسود الإقدام، الذين طالما خسأت بهم كلاب الشِّرك فلم تطق النَّبح، صلاةً دائمةً باقية الصَّرح، ما اقترن النَّظر باللَّمح، وما هطل السَّحاب بالسَّح، وسلّم تسليمًا كثيرًا .

وبعد، فإنّ أولى من خطبت المناصبُ العليّه، محاسنه الجليلة الجليّه، ورغبت المراتبُ التى هى بالخير حريّه، فى جميل حالته التى هى بعقود المفاخر حاليّه، وسحبت

سحائبُ الإقبال الوابِليَه ،ذُيولَ فضائِلِه الفاضِليَه ، واكْتسب العلومَ الفرْعيَّة والأَصْلِيَه ، من مجاميع فُنُونه التى تُعْرب عن أَنْواع الفوائد الجُمْلِيَة والتَّفصِيلِيَه ــ من شَهِدَت المَفاخرُ بأنَّه لم يزَل الشَّهِيدَ لها وآبْنَ الشَّهيد ، وحُمِـدَت المآثرُ التى هو الشَّهيرُ بها فما عليها فى جميل الأدوات من مَزِيد ، وتَشَـيَّدت مَبانِى مَعالِيه التى آقترن بابُ خيْرِها منـه بالفَتْح المُبِـين ، وتَمَهَّدت مَعانى أَمالِيـه بالتَّخَيُّل اللَّطيف واللَّفظ المَتِين ؛ وتَعدَّدت أَوْصاف شِيَمِه فهى لمحَاسِن الدَّهْر تَزِيدُ وتَزِين ، وغَدا من الكَاتِبين الكِرَام والكِرَام الكَاتِبين ، الذين تَضِحُ باطِّلاعهم مَراصِدُ المَقاصد وتَبِين . طالمَا آتَّسق عِقْدُ نَظْمه المَتِين ، وبَسَق غُصْنُ قَلَمه المُثْمِر بالدِّين ، وأَضاف إلى أَدَبِ الكُتَّاب حِلْيَةَ العُلَماء المُتْقِنين ، وآرْتَقَبَ أَفْعالَ الجَمِيلِ التى آسْتَوجب بها حُسْنَ التَّرَقِّى إلى أَعْلىٰ دَرجات المُتَّقِين ، وقَلَّد أَجْيادَ الطُّروس جَواهِرَ أَلْفَاظه التى تَفُوقُ الجَوْهرَ عن يَقِين ؛ فهى بنُضَار خَطِّه مَصُوغةٌ أَبهجَ صِياغَه ، وفى طَرِيقِ الإِنْشَاءِ سَالِكَةٌ نَهْجَ البَلاغَه ، وكذا بِحَارُ الفَضَائل وَارِدَةٌ مَناهِلَها المُسَاغَه ؛ كم أَعْرَبَ كَلِمُهُ الطَّيِّبُ ، عن سَحِّ سَحَابِ الصَّوَاب الصَّيِّب ؛ وكَمْ أَغْنَى فى المُهِمَّات بكُتُبِه ، عن جَيْشِ الكَتَائِب وقُضُبِه ؛ وكَمْ هَزَأَتْ صَحائفُه بالصَّفَائِح ، وكَمْ أَغْنَت رَاشِقَاتُ فِكَرِه الثابتة العلم عن سَهْوِ السَّهْمِ الرَّائِح ، وكَمْ تَشَاجَرت أَقْلامُه البِيضُ الفِعَالِ هى وسُمْرُ الرِّماح فكان نَصْرُها اللائِح ، وكَمْ تَعارَضَ نَشْرُ وَصْفِه وشَذَا الطِّيبِ فألْفَى الزَّمانُ ثَناءَه هو الفَائِح ، وكَمْ آشْتَمَلَ على أَنْوَاعٍ من النَّفَاسَة فاستوجَبَ مَنَامًا يقْضِى له بأَجْزَلِ المُنَىٰ والمَنَائِح .

ولمـا كان المجلسُ العالى ، القَاضَوِىُّ ، الأَجَلِّىُّ ، الكَبِيرِىُّ ، العَالِمِىُّ ، الفَاضِلِىُّ ، الكَامِلِىُّ ، الأَوْحَدِىُّ ، الأَثِيرِىُّ ، الرَّئِيسِىُّ ، البَلِيغِىُّ ، المُفِيدِىُّ ، المُجِيدِىُّ ، الأَصِيلِىُّ ، العَرِيقِىُّ ، العَابِدِىُّ ، الزَّاهِدِىُّ ، المُؤْتَمَنِىُّ ، الفَتْحِىُّ ؛ جمَـال المُلوك والسَّلاطين ، وَلِىّ

أَمِير المؤْمنين ، محمدُ بنُ الشَّهيد ، أدام الله نِعْمَته : هو الذى أَغْرب القلمُ عن صِفَاته ، وأَطْرب المَسَامعَ ما أَدّاه اليَراعُ عن أَدَواته ، ورامَ البَنانُ أنْ يَسْتَوعِبَ بيانَ شُكْره فلم يُدْرِك شأْوَ غاياته ، وتَسارَعَتْ بَدَائعُ البَدائِهِ من أفكاره فسابَقَت جَرَيانَ يَراعه فى أبياته ، ورَاقَتْ أَمَاليه ، لِنَاقِلِ أَلْفَاظه ومَعَانيه ، فشَكَر السَّمْعُ والفَهْمُ بها هَبَّاتِ هِبَاته ، فآدَابُه مَشْهوره ، وعُلُومُه مَذْكوره ، وتَحَلِّيه بمَذَاهب الصُّوفية ٱرتاضت به نَفْسُه الخَيِّرةُ الخَبِيره ، و إخْلاصُه فى عبادة الله تعالى حَسُنَتْ به منه السِّيرة والسَّريره ، وصِيَانَتُه للأَسْرار الشَّريفة ٱستحق بها إسْنادَ أَمْرِها إليه ، و إيداعَ غَوَامِضها لَدَيْه ، والتَّعْويلَ فى حِفْظِها وفى لَفْظه للفظها عليه — ٱقتضى حسْنُ الرَّأْىِ الشَّريف أنْ نَجْتبيَه لِمَا تَحَقَّقْنا منه من ذلك ، ونَخُصَّه بصَحَابة دِيوانِ الإنْشاء الشَّريف فى أَجَلِّ المَمالك ، ونَجْعَلَ قَدَمه ثابتةَ الرُّسوخ ، والصُّعُودِ فى مَشْيَخة الشُّيُوخ ، لِيَسْلُكَ فيها أَحْسَن المَسَالك .

فلذلك رسم بالأمر الشريف (١) الأَشْرفىّ ، النَّاصرىّ — لا زَالَ لأَبْوابه الشريفة فَتْحٌ فى الخَيْر يَقْدُمُه النَّصْر ، ولسَحَابه مَنْحٌ ما يعْرِف مَدَدُ أمداده القَصْر — أنْ تفوَّضَ إليه صَحَابة دِيوانِ الإنشاء الشَّريف ، ومشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس ، على عَادة من تقدَّمه وقاعِدَته ومَعْلومه الشاهد به الدِّيوانُ المعمورُ إلى آخر وَقْت .

فَلْيُباشِرْ ذلك بوافر عَفَافه ، ووافى إنْصَافه ، ومَشْهور أَمَانته ، ومَشْكور صِيَانَته ؛ كاتمًا للأَسْرار ، كاتبًا للمَبَارّ ، ليكونَ من الأَبْرار ؛ عالمًا مَصَالحَ الأَنَام بإرْشاد رأيه وصَوَابه ضابطًا أَحْوال دِيوانه ، مُتَحَرِّيًا فى كثير الأُمور وقليلها : فإن الكُتَّاب يَظْهر من عُنْوانه ، مُحَرِّرًا لِمَا يُمْلِى مُعْتبرًا لِمَا يكْتُب ، مُجْمِلًا لمُطالعات الكريمة بفِكْره المُتَسَرِّع

(١) بياض بالأصل ولعله "العالى" .

وتصوره الأرْتَب ، حافظًا أزِمَّة ما يصدُر من مِثال وما يَرِدُ فى المُهِمَّات الشَّريفة فهو أدْرَى وأدْرَبُ بما علَى ذلك يترتَّب ، مُحافظًا كعادته علَى دِينه ، لازمًا لصدْق يَقِينه ، خافضًا لأهْل الخَيْر جناحه ، مانحًا لهم نجاحه ، مُعامِلًا للفقراء بكَرَم نفْس بالله غَنِيَّة ، مُلاحِظًا لأحوالهم بالقَوْل والفِعْل والعَمَل والنيَّة ، مُحْتَرِمًا لكَبِيرِهم ، حانِيًا علَى صغيرهم ، مُفكِّرًا فيما يعودُ نفْعُه عليهم ، راكِنًا فى الباطِنِ والظَّاهِرِ إليهم ، مُعْنِيًا لهم بالاشْتِغَال بالعِبَاده ، مُسلِّكًا لهم الطَّرِيق إلى الله فإنَّها الطريقُ الجادَّه ، مُسْتَجْلِبًا لدَعَواتهم الصَّالِحه ، مُسْتَفِيدًا من مَتاجِر بركَاتِهم الرَّابِحَه . والوَصَايا كثيرةٌ ومن نُورِ إفادَته تُقْتَبَس ، ومن مَشْهُورِ مادَّته تُلْتَمَس ، ومِلاكُها التَّقْوَى وهى أوَّلُ كُلِّ أمْرٍ وآخِره ، وبمُلازَمَتِها تَتِمُّ له مَفاخِرُه ، واللهُ تعالَى يَحْرُسُه فى السِّرِّ والنَّجْوَى ، ويُظْهِر بإرشاده للمَعانِى والبَيَان كُلَّ نَجْوَى ، بمنّه وكرمه ! إنْ شاء اللهُ تعالَى .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بكِتَابة السِّرِّ بالشَّام ، كُتِبَ به للقَاضِى « شَرَف الدِّين عبد الوَهَّاب » بن فَضْل الله ، عند مارُسِم بنقْله من القَاهِرَة إلَى دِمَشْق ، فى ذِى الحِجَّة سنة إحْدَى عشرة وسَبْعمائة ، من إنْشاء الشَّيخ شِهاب الدِّين « محمود الحَلَبِىّ » وهى :

الحمد لله الذى خَصَّ دَوْلَتَنا الشَّرِيفَة برِعَاية الذِّمَم ، وحِفْظ ما أسْلَفَ الأوْلِياءُ من الطَّاعات والخِدَم ، وإدامَة ما أسْدَتْه إلَى خَدَم أيَّامنا الزَّاهِرة من الآلاء والنِّعَم ، وإفاضَة حُلَل اعْتِنائها ، التى هى أحَبُّ إلَى مَن شَرُفَ بولائها ، من حُمْر النَّعَم ، وأبْقَى عَوارِفَها علَى مَن لم يَزَل مَعْرُوفًا فى صَوْن أسْرارِها بسَعَة الصَّدْر وفى تَدْبِير مَصَالِحها بصحَّة الرَّأْى وفى تنْفيذ مَرَاسِمِها بطاعة اللِّسان والقَلَم .

نحمده على نعمه التى ما استهلّت على ولىّ فأقلع عنه غمامها، ولا استقرّت بيد صفىّ فانتزع من يده حيث تصرّف زمامها؛ ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً لا نزال نعتصم بحبلها المتين، ويتلقّ عرابة إخلاصنا راية فضلها باليمين؛ ونشهد أنّ محمّدا عبده ورسوله أكرم مبعوث إلى الأمم، بالإحسان والكرم، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كرمت أنسابهم، وأضاءت لهم وجوههم وأحسابهم؛ فرفلوا فى حلل ما اكتسوه من سُننه، واكتسبوه من سَنَنه، فحسن منها اكتساؤهم واكتسابهم؛ صلاةً لا تزال لها الأرض مسجدا، ولا يبرح ذكرها مغيرا فى الآفاق ومنجدا؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ أولى من خوّلته مكارمنا الإقامة حيث يهوى من وطنه، وبوّأته نعمنا الجمع بين ذمام برّنا وبين ما فارقه من سكنه؛ وملّكته عواطفنا، زمام التصرف حيثما أمكن من خدمتنا الشريفه، وعرّفته عوارفنا، أنّ مكانته عندنا على حالها حيث أدّى ما عدق به من وظيفه — من لم يزل قلمه لسان مراسمنا، وعنان ما نجريه فى الآفاق من سوابق مكارمنا، وترجمان أوامرنا، وخطيب آلائنا التى غدت بها أعطاف التقاليد من جملة منابرنا .

ولمّا كان المجلس العالى : هو الذى لم يبرح صدره خزانة أسرارنا، وفكره كنانة إعلاننا فى المصالح وإسرارنا، وخاطره مرآة آرائنا، ويراعه مشكاة ما يشرق: من أنوار تدبيرنا، أو يبرق: من أنواء آلائنا؛ ينطق قلمه فى الأقاليم عن ألسنة أوامرنا المطاعه، وينفذ كلمه عن مراسمنا فى ديوان الإنشاء بما تقابله أقلام الجماعة بالسمع والطاعه؛ وكانت سنّه قد علت فى خدمتنا إلى أن رأينا توفير خاطره على البركات، عن كثير ممّا يتبع ركابنا الشريف من لوازم الحركات؛ وأن نعفيه ممّا يلزم الإقامة بأبوابنا

الشريفـة من كَثْرة المُثُول بين يدَيْنا، وأَنْ تَقْتَصِر به عَلىٰ أَخَفّ الوَظِيفَتَيْن إِذْ لا فَرْق في رُتْبَة السِّرَّين ما يَصْدُر عَنَّا أَوْ ما يَرِدُ إِلَيْنا .

فرُسم بالأَمْر الشَّرِيف، العَالى، المَوْلَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكِىّ، الفُلانىّ، الفلانى، أَنْ يكونَ فلانٌ صاحبَ دِيوانِ الإِنْشاء الشَّرِيف بالشَّام المَحْرُوس، بمَعْلومه الشَّاهد له به الديوان المعمور بالأَبْواب العَالِية، عِوَضًا عن أَخِيه المجلس السامىّ، القضائىّ، المُحْيوىّ «يَحْيى بن فَضْـل الله» ويستـمرّ أُخُوه القاضى «مُحْيِي الدِّين» المـذكور مع جُمْـلة الكُتَّاب بدِيوان الإِنشاء الشَّرِيف بالشَّام المحروس، بالمعـلومِ الشَّاهد به الدِّيوانُ المَعْمُور .

فلْيُبَاشِرْ هذه الرُّتْبَةَ التى تَأَثَّلَتْ به قَواعِدُها وعن تَقْرِيره وتَحْرِيره أَخَذَ كُلّ مَن كَانَ بأَنْواعها وَأَوْضَاعِها عليا ؛ فإِنَّه لم يخرج عن أَخِيه شَىْءٌ وَصَل إِلَيْه، ولا فُوِّضَ له إِلَّا ما هو بحكم عموم الأَوْلَوِيَّة والأَوَّلِيَّة فى يَدَيْه ؛ وأَمَّا ما يتعلَّق بذلك من وَصَايا تُبْسَط، وقَواعِدَ تُشْرَط ؛ فإِنَّها منه آستفادها من رَقَّمَها، وعَنْه آرْتَوَىٰ بها ورَوَاها من تَعَلَّمَها ؛ ونَحْنُ نعلَمُ من ذلك ما لا يحتاجُ إِلىٰ أَنْ يزدَادَ فيه يَقِينًا، ولا أَنْ نَزِيدَه بذِكْرِه مَعْرِفَةً وتَمْكِينًا، والاعتماد ... ...

قلتُ : ومن غَرِيبِ ما وقع : أَنَّه كتب للمَقَرّ الشِّهَابِيّ بن فَضْـل الله بكِتَابَةِ السِّر بالشَّام، حين وَلِيَها بعد آنفصاله من الديار المصرية تَوْقِيعٌ مُفْتَتَح بـ«أَمَّا بعدَ حَمْدِ الله» من إنشاء المَوْلَى «تاج الدِّين بن البارنبارى» وكَأَنَّه إِنَّما كُتِب بذلك عند تَغَيُّر السلطان الملكِ النَّاصِر «محمد بن قَلاوُون» عليه، علىٰ ما هو مذكور فى الكلام علىٰ كُتَّاب السِّر فى مُقَدِّمة الكِتَاب .

وهذه نسخة توقيع بكتابة السر بالشام المحروس :

أمّا بعد حمد الله مُنقل الشُّهب فى أحبّ مطالِعها ، ومُعلِى الأقدار بتصريف الأقدار ورافعها ، ومُبهِج النفوس بمعادها إلى أوطانها ومواضعها ، ومُمضى مشيئته فى خليقته بالخيرة فيما يشاء لطالعها ؛ والشهادة له بالوحدانية الآخذة من القلوب بمجامعها ، والصلاة على سيدنا محمد الذى بصّر الأمة بهديها ومنافعها ، وصان شرعته الشريفة تلو الملل بنسخ شرائعها ، وعلى آله وصحبه الذين آستودعوا أسرار الملّة فحفظوا نفيس ودائعها ـ فإنّ ممالكنا الشريفة هى سواءٌ لدينا فى التعظيم ، وأولياء دولتنا الشريفة يتنقّلون فيها فى منازل التكريم ، وعندنا من « فضل الله » رعايةٌ للعهد القديم ، وتأكيدٌ لأسباب التقديم ؛ فلا غضاضة لمن نقلناه من أبوابنا إليها ، ولا وهن يطرأ على علوّ المراتب ويعتريها ، حيث صدقاتنا دائمه ، وثغور إقبالنا باسمه ، ومراسمنا لمساعدة الأقدار فى الأيام حاكمه ؛ و « الشهاب » لو لم يسر فى سمائه ، لما آهتدى الناظرون بضيائه ، والدّرّة لو مكثت فى صدفها ، لما حظيت فى العقود بشرفها .

وكان المجلس العالى ، القضائى ، الشهابى ، قد أقام فى خدمتنا الشريفة بالأبواب العالية حافظًا للأسرار ، قائمًا بما نحبّ ونختار ، ثم لمّا أخذ حظّه من القرب من أيدينا الشريفة : رأينا أنّ عوده إلى أوطانه ، وأهله من تمام إيمانه ، وأنّ مرجعه إلى محلّه ، من نعم الله عليه وفضله ؛ وما سار إلّا والإقبال يزوّده ، والآستقبال به وأهل بيته يسعده ويصعده .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن ينقل إلى كتابة الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة ، وأن يكون متحدّثا عن والده ، على ما كان عليه بالديار المصرية ، وليقرّر له من المعلوم كذا وكذا .

فليَسِرْ إلىٰ دارِ كرامته، وليَسْتقرَّ فى مَوْطِن إقامته، قريرَ العين، مملوءَ اليدَيْن، مَسْرُورًا برفعِ المحلّ فى المملكتين، وليكُنْ لوالده - أعزّه اللهُ تعالىٰ - عضدا، وليُصْبِحْ له فى مهماتنا الشريفة ساعدًا ويَدا، وليُضْحِ به اليومَ برًّا ليجدَ رضا الله غدا، فإنّ والده بركةُ الممالك، وله قديمُ هجرة، وسالفُ خدمة، وحُسْنُ طوِيّة، فنحن نرعاه لذلك، والمهمّاتُ الشريفةُ يتلقّاها بنفسه، وليُصْدِرْ فصُولَ المطالعة مُدبّجةً علىٰ عادته فى تدْبيج طِرْسه؛ وليَسْتَعِنْ بالله فهو ولىُّ الإعانة، وليَعْتَمِدْ على الرِّفْق فى أمْره فما كان الرِّفْقُ فى شىْءٍ إلّا زانه؛ وما بَعُدَ عنّا، مَن كان بعيدًا بالصورة قريبًا بالمعنىٰ، واللهُ تعالىٰ يزيده منًّا منّا!؛ والخط الشريف أعلاه حُجّة فيه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

الوظيفة الثالثة — نَظَر الجيوش بالشّام.

وشأن صاحبها كِتَابة المُرَبَّعات التى تُنْشأ من الشّام، وتَنْزِيلُ المناشير الشريفة التى تصدر إليه.

وهذه نسخة توْقيع شريف من ذلك، كُتِبَ به «لموسىٰ بن عبد الوهاب» من إنْشاء السيّد الشريف شِهاب الدِّين، وهى:

الحمدُ لله الذى جعل إحْسانَنا عائدًا بصِلاته، وفضْلَنا يجمع شَمْلَ الإسْعاد بعد شَتاته، وعواطِفَنا تُنَبِّه جَفْنَ الإقْبال من إغْفائه وسِناته.

نحمده علىٰ أنْ نصرنا جيْشَ الإسلام فى أرْجاء مُلْكِنا الشّريف وجِهاته، وجعل البركةَ واليُمْنَ بأمْرنا فى حالَتَىْ محْوه و إثْباته، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحده لاشريك له شهادةً زادت فى جزاء المُخْلِص وحَسَناته، وأضحتْ نورًا يَسْعىٰ بين يديه إلىٰ رحمة ربّه و إلىٰ جنّاته، ونشهدُ أنّ سيدنا محمدًا عبدُه و رسُوله الذى أظْهر اللهُ به واضحَ آياته،

وأصبح النشر عابقا من نشر راياته، ومحا الفترة بهديه وسرّ سرائر أوليائه وأكمد قلوب عداته؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ماتأرّج النسيم فى هبّاته، وأبهج العطاء بجزيل هباته، وسلّم تسليما .

وبعد، فإنّ من النعم ما إذا عادت أقرّت العيون، وحقّقت الآمال والظنون، ورفعت الأقدار وإنْ لم يزل رفيعا محلّها، وجمعت المسارّ الممتدّ على الأفئدة ظلّها، وعمرت ربوع الإحسان، وغمرت بمنائحها الحسان؛ كهذه النعمة التى تلقت الإقبال من حافل غمامه، وجمعت شمل التقديم مشفوعا بإكرامه؛ وأعادت سماء التكريم هادية بقطبها، مشرقة الأرجاء بنور ربّها؛ وسفرت بدورها بمن هو أولى باجتلائها، وتهيّأت رتبها لمن هو جدير باعتلائها؛ وحقيق بأنْ تعود المواهب بعد فترتها، وأنْ تقبل عليه وجوه المنائح بعد لفتتها؛ لتصبح كواكب الإسعاد كأنّها ما أفلت، وعطايا التخويل كأنّها ما انتقلت؛ ويعود عليه اليوم كأمسه، ويرجع أفق العوارف الجسام مشرقا ببدر الأجتباء وشمسه .

ولمّا كان فلانٌ هو الذى حسنت فى الخدم الشريفة آثاره، وحمد إيراده فى المهمّات الشريفة وإصداره؛ وشكره شامه ومصره، وسما فى كلّ جهة حلّها محلّه وقدره؛ وتحقّقت منه رآسةٌ قضت له بإبداء النعم وإعادتها، وأنْ تجرى له الدولة من الإكرام على أجمل عادتها؛ وأن ترعى له حقوقُ ألفها حديثا وقديما، وتنشر عليه ظلال الفضل حتّى لايفقد منها على طول المدى تكريما .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ... لازال ... أن يستقر ... تجديدا لملابس سعده، وتأكيدا لقواعد مجده؛ وترديدا للفضل الذى حلا منهل ورده؛ ورعاية لخدمه التى أكبّت عليها السيوف والأقلام، وشكرت تأثيرها جنودنا ـ نصرها الله

تعالىٰ - بمصر والشام ؛ ولما له من حُسْنِ سَمْتٍ زاده وقاره ، وأصْلٍ صالحٍ طابَتْ منه ثِمارُه .

فليستقرّ فى هذه الوظيفة المباركة : عالمًا أنّ لسانَ القلم أمسك عن الوصايا لأنّه خَبَر هٰذه الوظيفة فرعًا وأصلًا ، وألِفَتْ منه ناظرًا علا قدرًا وكَرُم محتدًا وفضلًا ؛ وهو بحمد الله أدرىٰ بسُلُوك مِنْهاجِها القويم ، وأدْرَبُ باقتفاء سَنَنِها المُسْتقيم ؛ والخير يكون ، والاعتماد فى ذلك علىٰ الخطّ الشريف إن شاء الله تعالىٰ أعلاه ، حُجّة بمقتضاه .

المرتبة الثانية

(من مراتب أرباب التواقيع الديوانية بدمشق - من يُكتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء مفتتحا بـ«الحمد لله» إن علَتْ رُتْبته وإلا بـ«أما بعدُ» ، وتشتملُ علىٰ وظائف)

منها - نَظَر الخزانة العالية ، وشأنها هناك نظير الخزانة الكُبرىٰ بالديار المصرية فى القديم ، ونَظِيرُ خزانة الخاصّ الآن .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخزانة العالية :

أمّا بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمه التى خَصّت المَناصبَ السنيةَ فى أيّامنا الزّاهرة بكُلّ كُفْءٍ كريم ، وجعلت علىٰ خزائن الأرض من أولياء دولتنا القاهرة كلّ حفيظٍ عليم ؛ وأفاضت ظِلّ إنعامنا علىٰ من إذا أُنعِمَ النّظر فى حقّ ذوى البُيُوت القديمة كان أحقّ بالتّقديم ؛ والصّلاةِ علىٰ سيدنا محمد أفضل من حَباه بفضله العَميم ، واجْتباه لهِداية خَلْقه إلىٰ السَّنَنِ القَويم ، وجعل سلامةَ الصّلاة المقبولة من النقص مقرونةً بالصلاة عليه والتّسليم - فإنّ أولىٰ من رجّحه لخدمتنا الاختيار ، وقدّمه فى دولتنا الاختبار ؛

وأَخْلَصه حسنُ نَظَرنا الشَّرِيف رُتْبَةَ أبيه من قَبْل ، وأغدق له سَحَابُ بِرِّنا صَوْبَ إِحْسانٍ فلم يُصِبْه طَلٌّ بَلْ وَبْل - من حُمِدَ سَيْرُه وسِيَرُه ، وشُكِرَ فى طَاعَتِنا وِرْدُه وصَدَرُه ، وزَانَ الأصالةَ بالنَّبَاهه ، والرَّآسةَ بالوَجَاهه ، والمعرفةَ بالنَّزَاهه ، وجمع بين الصَّلَف والاطِّلاع ، والتَّضَلُّع من العِفَّة والاضْطِلاع ، والصِّفات التى لو تَخَيَّرها لنَفْسه لم يَزِدْها على مافيه من كَرَم الطِّبَاع .

ولما كان نَظَرُ الخزانة العالية بدِمَشْقَ المحروسة رُتْبَةً لا يَرْقَى إليها من الأكْفَاء إلا مَنْ ومَنْ ، ولا يُقَدَّم لها من الأولياء إلا مَن تَعَيَّنَ من رُؤَساء العَصْر وفُضَلاء الزَّمَن ؛ وكان فلانٌ هو الذى عَيَّنه لها ارْتيادُ الأكْفاء ، واصْطُفِى هو من أهل الصَّفَاء ، وتَقَدَّم من وَصْف محاسنه ما لا يَرُوع تَمَامُ بَدْره وظُهُورُه بالنَّقْص والاخْتِفَاء .

فلذلك رسم بالأمر الشَّرِيف أنْ يفوّض إليه نَظَرُ الخِزَانة المذكورة .

فلْيُبَاشِرْ ذلك مباشرةَ من يحقّقُ فى كِفَايَته وفَضِيلَته التَّأْمِيل ، ويُظْهِرُ حسنَ نَظَرِه الذى هو كالنهار لا يحتاجُ إلى دَلِيل ؛ ولْيَجْرِ على جميل عادته فى النهوض فى خِدْمَتنا بالسُّنَّة والفَرْض ، ويُضَاعِف اجْتِهَادَه الذى بمثله جُعِلَ مَن اخْتِيرَ على خَزَائِن الأَرْض ؛ وهو يعلم أنَّ هذه الرتبةَ مآلُ الأموال ، وذَخَائِر الإسلام التى هى مَادَّة الجُيوش ومَوَارِدُ الإفْضَال ؛ فلْيُعْمِلْ فى مَصَالحها فِكْرَه ودَأْبَه ، وإذا كان حسنُ نَظَرنا الشريف قدجعله المُؤْتَمَن عليها : (فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَه وَلْيَتَّقِ اللّٰهَ رَبَّه) . وفى سيرته التى عُرِّفَت ، وصِفَاته التى إنْ وُصِفَت فما أُنْصِفَت ، مايُغْنِى عن تَفَاصِيل الوَصَايا وجُمَلِها ، وإعَادَة مزايا التأكيد : قَوْلها وعَمَلِها ؛ لكنْ مِلاكُها الصِّيَانَة التى هو بها مَوْصوف ، والتَّقْوى التى هو بها مَعْروف ، والاعْتماد على الخط الشَّرِيف أعْلاه .

ومنها ـ صَحَابة دِيوانِ النَّظر، وصَحَابة دِيوانِ الجَيْش ونحو ذلك من الوظـائف الديوانية بِدِمَشْق .

قلتُ : هـٰذا إن كتب من الابواب الشَّريفة السُّلطانية ، و إلَّا فالغالبُ كِتَابة ذلك عن نائب السَّلطنة بدمَشْق .

الصـــنف الرابع

(من الوظائف بِدِمَشْـــق وظائفُ المُتَصَوِّفة ومَشَايِخ الخَـوَانِق، وفيهـا مَرْتبتان)

المرتبـــــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع الثلث بـ«ـالمجلس السَّامى» بالياء، مفتتحا بـ«ـالحمدُ لله» . وبذلك يُكْتَب لشَيْخ الشُّيُوخ بالشَّام، وهو شَيْخ الخَانقاه الصَّلاحية، المسماة بالشميصاتية)

وهذه نسخة تَوْقِيع بذلك ، وهى :

الحمدُ لله الذى اختار لعِمَارَة بيُوته أوْلِياءَ يُحِبُّونَه ويُحِبُّهم ، وأَصْـفِياءَ حَقَّهُم بِرَحْمَته فاجْتَهدوا فى طَاعَتِه فازداد قُرْبُهم ، وأَتْقِيَاءَ زَهِدُوا فى الدُّنيا وابْدلوا الفَانِىَ بالبَـاقِ وطَابَ فى مَوْرِدِ الصَّفَاءِ شِرْبُهم .

نحمُده حَمْدَ من جعل حُبَّ الله دِثَارَه ، ومَلَابِس التَّقوىٰ شعارَه ، ونَشْكُره والشُّكْرُ لمَزِيد النِّعم أمارَه ، وللقُلوب الدَّائِرَة عِمَارَه ، ونشهدُ أنْ لَا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِص فى التَّوْحِيد، يَتَبَوَّأُ بهـا جِنَانَ الخُلْدِ ويَخْلُص من سَمَاع قَوْل جَهَنَّمَ :

هَلْ مِنْ مَزِيد ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أسْرَىٰ به إلىٰ حَضْرَة أُنسِه، وحَظِيرَة قُدْسِه ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَن سَبَق الأمّة بِشَيْءٍ وقَرّ فى صَدْره ، ومنهم من دلّت واقعةُ سَارِيةَ علىٰ عُلُوِّ شأنه ورِفعة قَدْره ، صلاةً لاتزالُ الأرضُ لها مَسْجِدا ، ولَا يبرحُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجِدًا ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فإنَّ أحقَّ مَن عُومِل بالتَّقديم ، وأجْدَرَ مَن يُخَصّ بالتَّكْريم ، مَن كان قَدْرُه فى الأولياء عَظِيما ، وذِكْرُه فى الآفاق بين أهْل المَعْرفة قَديما ، وتَجْريدُه عن الدنيا مَشْهورا ، وسَعْيُه علىٰ قَدَم الطاعة مَشْكورا ، وشُهُوده لمَقام الكَمَال مُسْتَجْليا ، وٱسْتِجْلَاؤُه لمواد الأُنْس مُسْتَمْليا ، فهو فى هذه الطائفةِ الجليلة سَرِيُّ المِقْدار ، مَعْرُوفُ الصفة فى حلْية الأوْلياء ومَناقِب الأبْرار ، والمُتَقَدِّم من الإمامة فى مجمع الأخْيار .

ولما كان المجلسُ السامى ، الشَّيْخىّ ، الكَبِيرىّ ، العَالمىّ ، العَامِلىّ ، الأوْحَدىّ ، الزَّاهدىّ ، الوَرَعىّ ، الأصِيلىّ ، الفُلانىّ ؛ جَلَال الإسلام والمسلمين ، وشَرَف الصُّلَحاء فى العالَمين ، شيخُ الشُّيوخ ، قُدْوَة السَّالكين ، مُعْتَقَد الملوك والسَّلَاطين ، أعاد اللهُ تعالىٰ من بَرَكاته : هو المقصودَ من هٰذه العِبَاره ، والملْحُوظَ بهذه الإشَاره ـ ٱقتضَىٰ حسنُ الرَّأى الشريف أنْ يُخَصّ فى الدنيا بالتَّعظيم ، ويُميَّز فى هذه الأُمّة بالتَّكْريم .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريف ـ لا زالَ له من جُنُود اللَّيل جيْشٌ لا تَطِيشُ سِهامه ، ومن فُرْسان المَحَارِيب مَدَدٌ لا تَزِلُّ فى مُلَاقاة الرِّجال أقْدامهُ ـ أنْ يستقرّ فى كذا .

فلْيُقَابِلْ هٰذه النعمةَ بالسُّرور ، وليتأثّلْ هٰذه الفَضِيلة بحَمْد اللهِ الشَّكُور ، ولْيُوَاظِبْ علىٰ وظيفة الدعاء بدَوَام أيّامنا الزَّاهره ، ولْيَسْتَمْطِرْ جَزِيل الفَضْل من سَحَائب جُودنا

المَاطِرَه، ولْيَبْسُطْ يده فى عَمَل المَصَالح، ولْيَسْتَمِرَّ على السَّعْىِ الحَسَنِ والعَمَل الصَّالح؛ فإنّ هـذه البُقْعَةَ مأْوَى القَادِم والقَاطِن، وتَسْمُو على أمْثالها من المَوَاطن؛ ولْيَكُنْ لأسْرَارِهم مُوَقِّرا، ولِأَقْوَاتِهم المُعِينَة على الطَّاعَة مُيَسِّرًا ؛ والله تعالى يجعل خَلَوَاته مَعْمُوره، وأفْعَالَه مَبْرُوره؛ والاعتماد فى ذلك على الخطّ الشَّريف .

قلتُ : هٰذا إن وليها شَيْخٌ من مَشَايخ الصُّوفية، على عَادَة الخَوَانق . وقد يَلِيها كاتبُ السِّرّ بالشَّام، فيُكْتَب تقليده بكِتَابة السِّرّ فى قَطْع النّصف «بالمجلس العَالى» على عادة كُتَّاب السِّرّ، ويُشَارُ فى تقليده إلى بَعْض الألْفاظ الجامعة بين المقامين، ويُضَاف إلى ألْقَاب كِتَابة السِّرّ بعضُ ألْقَاب الصُّوفِية المُنَاسِبةِ لهذا المقام . على أنّه رُبَّما كُتِبَ بوِلَايَتِها عن نائب السَّلطنة بالشَّام لكَاتِب السِّرّ أوْ غيره .

المرتبــــة الثـانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسِم»)

وهذه نسخة تَوْقيع من ذلك، وهى :

رُسِمَ بالأمْر الشَّريف ــ لا زالت أوَامِرُه تُحِل القُرُبات مَحَلَّها، ومَرَاسِمُه تُسْنِد الرُّتَبَ الدِّينِيَةَ لمَن إذا خُصُّوا بمَواقعها كانوا أحقّ بِهـا وأهْلَها ــ أنْ يُرَتَّب فلانٌ فى كذا : إذ هو أوْلَى من خُصَّ بمَوَاطِن العبَاده، ونَصَّ بتَرْفِيـه الأسْرار على التَّحَلِّى بإفَاضَـة الإفاده؛ ووَفَّر كَدّه على اجتلاء وجوه المعارف من أفق المراقبـه، وجَمَع خَاطِرَه لاجتناء ثَمَرة الأُنْس من أفْنانِ الطّاعات النَّابِتَة فى رِيَاضِ المُحَاسَبَه؛ مع تَمَسُّكه بعُلُوم الشريعة الذى [خلص] معرفته من الشَّوائب، وأحْيَا الدُّجَى من اقتبال شَبِيبَة

ظَلَامه إلىٰ أن تَشِيبَ منه الذَّوائِب ، ونَفْعٍ مَتَعَدٍّ إلىٰ كلِّ طَالِبِ فَضْلٍ وملتمس ، ودين باهر من مصباح مِشْكَاة العِلْم والعَمَل لكُلِّ بَاغِى نُورٍ ومُقْتَبِس .

فَلْيَسْتَقِرَّ شَيْخًا بالمكان الفُلَانِيّ : لتعمُرَ أرجَاؤه بتهجُّده ، وتُشْرِق خلَوَاتُه بتعبُّده ، وتَعْذُبَ مَوَارِدُه بأوْرَادِه ، وتُطْلِعَ مجالسُه نُجُومَ معْرفته البَازِغَة من أُفُق إيراده ؛ [و] لتَغْدُوَ هـذه البُقْعَة رَوْضَةَ أفكار ، وقِبْـلَةَ أذْكَار ، ومَرَاقِيَ دَعَوات ، ومَرَافِعَ بَرَكَات ، تُسْتَنْزَل بين صَلَوات مَقْبولة وخَلَوات ؛ ولْيَتَنَاوَل المعلومَ المستقرَّ له تَرْفِيهـًا لِسِرِّه ، وتَنْزِيهًا لِفِكْرِه ، وإعَانَةً علىٰ الانقطاع بهـذه البقعة التى تتصل به أسْبابُ السَّعادة فى أرْجَائها ، وتَخْصِيصًا لها منه بإمَامٍ تَقِيّ لو كان لِبُقْعَةٍ أنْ تَجْتَنِيَ بَرَكَتَه لكان مُنْتَهىٰ رَجَائها ؛ ولْيَرْفَعْ من الأدْعِية الصالحة لأيَّامنا المباركة مالا تَزَال مَوَاطِنُ القَبول لنَفَحَاته المترقَّبـة مُتَلَقِّيَه ، وما لا تَبْرَحُ النفوسُ لخَشْيَتِه المَانِعَة مُتَوَقِّيَه ؛ والاعتماد علىٰ الخطِّ الشَّريف أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

قلتُ : هٰذا إن كُتب عن الأبواب السُّلطانية . وإلَّا فالغالبُ كِتَابة ذلك عن نائب السلطنة بالشَّام .

النـــوع الثـانى

(من وظائف دِمَشْق ماهو خارج عن حاضرتها)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية : انَّ لدِمَشْق أرْبَعَ صَفَقات ، وهى : الغَرْبية ، والشَّرْقية ، والقِبْلية ، والشَّمَالية .

فأمَّا الصَّفْقة الغَرْبية : وهى المعبَّر عنها بالسَّاحِلِيَّة والجَبَلِيَّة ، على ماتقدّم فيها ، ففيها من وظائف أرْباب السيوف عدّةُ وظَائِف ، وتُوَلَّى فيها الأبْوابُ السُّلْطانية .

منها — نِيَابَةُ القُدْسِ . وقد تقدّم أنها كانت فى الزّمن المتقدّم وِلَايَةً صغيرةً يَلِيها جُنْدِىٌّ، ثم آستقرّت نيابةَ طَبْلَخَاناه، فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وأنّ العادةَ جرت أنْ يُضَاف إليها نَظَر الحَرَمَيْن : حَرَمِ الخَلِيل عليه السلام، وحَرَمِ القُدْس . والذى يكتب له مرسومٌ فى قَطْع الثُّلث بـ«السَّامىّ» بالياء .

ومنها — نيابةُ قلعة الصُّبَيْبَة . وقد تقدّم أنّها من أجَلّ القِلَاع وأمْنَعِها، وأنّه كان يَلِيها نائبٌ مُفْرَد من أجْناد الحَلْقَة أو مُقَدَّميها عن نائب دِمَشْق ، ثم أُضِيفت إلى وَالِى بَانِيَاس . ثم آستقرّت فى سنة أرْبَعَ عَشْرَةَ وثمانمائة فى الدولة الناصرية «فرج» نِيَابَةً .

ومنها — نيابةُ قَلْعة عَجْلُونَ . وقد تقدّم أنّها على صِغَرِها حِصْنٌ حَصِينٌ، مَبْنِيَّةٌ على جَبَل عوف (١)، بناها أُسَامَةُ بن مُنْقِذ، أحَدُ أُمَرَاءِ السُّلطان صَلاح الدِّين «يوسف ابن أيّوب» فى سَلْطَنة العادل أبِى بَكْر، وأنّه كان مَكَانَها راهبٌ آسمه عَجْلُون، فسُمِّيت به . ثم آستقرّت فى الدولة الناصرية «فَرَج» فى سنة أرْبَعَ عَشْرَةَ وثمانمائة إمْرَةَ طَبْلَخَاناه .

وقد تقدّم أوّلَ هذا القِسْم ما يُكْتَب للمقدّمين، وما يكتب للطَّبْلَخَاناه، وما يكتب للعَشَرات .

أمّا أرْباب الوظائف الدِّينيَّة .

فمنها — مَشْيَخَة الخَانْقَاهِ الصَّلاحية بالقُدْس . وتَوْقِيعُها يُكْتَب فى قَطْع الثلث مفتتحا بـ«الحمد لله» .

(١) فى تقويم البلدان ص ٢٢٨ أن جبل عوف كان أهله عصاة فبنى عليهم أسامة حصن عجلون وهو معقل حصين مشرف على الغور .

ومنها – خَطَابَة القُدْس ، وتوقيعها كذلك .

ومنها – مَشْيخة حَرَم الخليل ، وتَوْقيعُها فى العَادَة يكتب مفتتحا بـ«مرسم» .

وأمّا الصَّفْقة القِبْلِيَّة ، فالّتى يولّى بها من الأبواب السُّلطانية نِيَابةُ صَرْخَد . وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب المملكة الشّاميّة أنّه قد يجعل فيها من يَقْرُب من رُتَبِ السَّلْطنة ، وحينئذ : فإن وَلِيَها مُقَدّم أَلْف ، كان مَرْسُومُه فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العالى» . و إنْ وَلِيَها أميرُ طَبْلَخاناه ، كان مَرْسُومه فى قَطْع النّصف أيضا ، بـ«السّامىّ» بالياء .

وأما الصَّفْقة الشّرقية فالنّيابات بها على طَبَقَتَيْن :

الطبقــة الأولى
(ما يُكْتَب به مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع النّصف ، وهو ما يَلِيه مُقَدّمُ أَلْفٍ أو طبلخاناه ، وفيهـا نيابات)

النيـابة الأولى — نيـابة حِمْص .

وقد تقدّم أنّها كانت نِيَابَةً جليلةً ، كان يَلِيها فى الدّولة النّاصرية «محمد بن قلاوون» مقدّمُ أَلْف ، وأنه ذكر فى " التّثقيف " أنّها صارت الآن طَبْلَخَاناه . وحينئـذ : فإن كان بها مُقَدّمُ أَلْف ، كان مَرْسومُه فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العالى» . و إن كان طبلخاناه ، كان مَرسومُه فى قَطْع الثّلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء .

وهذه نُسخة مرسوم شريف بنيابة السلطنة بِحِمْص :

الحمد لله مُقَدّرِ كلِّ أجلٍ إلى حين ، ومُقرّرِ أُمورِ الممالك فى عبَاده الصّالحين ، الذى جعل بِنَا أَوْلياءَنا من الرّابحين ، وحَفِظَ ما ٱستَرْعَانا من أُمور عِبَاده بولَايَة النّاصحين .

نحمَدُه على اختيارٍ لا يَصِلُ إليه قَدْحُ القادحين ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نكونُ بها فى غَمَرات الحُرُوب على السَّوابحِ سابحين ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أكرم المانحين ، وأعظم الفاتحين ، وأشرف من ولّى الأعمال الكُفاةَ الوُفاةَ المُكافحين ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً لا تزال فيها الحَفَظَةُ على أعمالنا مُماسين ومُصابحين ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ مَراسمنا الشّريفة وإنْ تأخر وقتُها إلى أجلٍ مَعْدُود ، وأمدٍ مَمْدُود ، ومَضَتْ أيامٌ وليالٍ ولها بابٌ مَسْدود ، وعَمَلٌ سَبَبُه غيرُ مَشْدُود ــ فإنّا كالسّيف يتلاهى ثم إذا صَمّم لايرجع ، وكالغَمام تتمادى مُدَدُ مَدّه ثم يجود فلا يُقلِع ، ولم نزَلْ منذ فوّض اللهُ أُمُورَ بلاده إلينا ، وصرّف أُمور جُمْهور عباده بيديْنا ؛ نرى أنْ نحمى غاباتها بأشدّ الأُسُود ، ونرمى غاياتها بمَن هو لأمرٍ مّا يَسُود ؛ ونحُوطَ جَنَباتها بمن لا يَستبيح حَرَمَه إلا الوُفُود ، ونحُطّ رَكائبَ رَعاياها منه على من هو المقصود ، ونُنيب إلى مايترجّح من مَصالحهم لدَينا ، ونَستنيب لِمَن يترجّى الحُسنى إذا عُرِضَتْ مُتجدّداتُ أُمورهم علينا ، وإذا انفرد بحُكم لا يُظَنّ إلّا أنه بمَسْمَعٍ من أُذُنَينا ، ومَرأًى من عَيْنينا ، لأنّ نُوّابَ الممالك الشريفة فُرُوع عَدْلِنا الشّريف ونحن أصلُها ، وأسبابُ إحسانٍ بأوامرنا المُطاعة قطعها ووَصْلُها .

وكانت حِمْصُ المحروسةُ من أكبر المَمالك القديمَه ، والمُدُن العظيمَه ؛ تَغرَق الأقاليمُ فى مَدّها ، وتمتدّ عساكرُها فتعُدّ حُماةَ حَماةَ من جُنْدها ؛ وهى من الشّام المحروس فى مُلتقَى مواكبه ، ومَجَرّ عَواليه ومَجرَى سوابِقه ومَجْمَع كتائبه ؛ طالما كان بها الحَرْب سِجالا ، وطالما سابقَتْ بها الرِّجالُ آجالا ؛ وكان لنا بها فى الحَرْب يومانِ عَوّضنا الله أدناهما بما حفظت المعارك ، وضاقت الأرض بدماء القتلى ففاض إلى

السماء ما ٱلتقى بالشفق من [تلك المسالك][(١)]، وٱتصلت بالبرّ والبحر من جانبيها ؛ وٱتصفت بأنها مهبّ الرياح، ومركز الرماح ؛ لما يهبّ لنا من بشرى النصر ويخفق من عصائبنا المنصورة عليها .

فلما تطاول الأمد على خلوّها ممّن ينوب عن السلطنة الشريفة فى أحكامها، ويثوب إلى تسديد مرامى سهامها ؛ لم تزل آراؤنا العالية تجول فيمن يصلح أن يقدّم قدمه إلى رتبتها العليه ، ويجرّد منها عزائمه المشرفيّه ؛ ويجمع بها على طاعتنا الشريفة من فيها من العساكر المنصوره، والقبائل المشهوره، والطوائف المذكوره، ويبسط بساط العدل فى كافّة جنودها ورعاياها فإنها بهؤلاء محروسة وبهؤلاء معموره — فرأينا أنّ أولى من حكم فى عاصيها والمطيع ، وٱتخذ لسوريا السور المنيع ؛ من هو الموثوق بما أمضت السيوف من هممه ، وأرضت التجارب من سوابق خدمه ؛ وطارت سمعة شكره فى الآفاق ، وطابت أثنيته فجاءت بما يعرف من الطرب لإسحاق[(٢)] ؛ وكان قد تقدّمت له فى عينتاب، نيابة كم أصابه فيها رجل بالعين ثم إنه من العين تاب ؛ وقام بين أيدى كفلاء ممالكنا الشريفة حاجبا ، وفهم من أحكامهم التى تلقّوها منّا ما أصبح لها صاحبا ؛ فما للنيابة إحكام أحكام إلا وهو به عالم ، ولا تولية حكم إلا وقد ٱستحقّها لقرب ما بين الحاجب والحاكم .

وكان فلانٌ هو المرتضى للبس هذه المفاخر، والمنتظر الذى كم ترك الأوّل فيه للآخر — فاقتضت مراسيمنا المطاعة أن يزان جيده بهذا التقليد، وتلقى إليه المقاليد؛ وتمدّ يد هذه الرتبة لتلقّيه ، وتخضع عنق هذه المرتبة لترقّيه ؛ وتحوّل اليه هذه النعمة

(١) بياض بالأصل .

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلى مغنّى الخلفاء المشهور .

التى ألحقت قدره بالأكفاء، وأهلت هممه للاكتفاء، وشرفت مكانه بما أجمعت عليه آراؤنا الشريفة له من الاصطفاء، وأحسنت به الظن لما رأت نيته الجميلة ممثلة من خاطره فى مرآة الصفاء.

فرسم بالأمر الشريف - لا زال مرفوعا به كل علم، ممنوعا به حمى كل حرم - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بحمص المحروسة وأعمالها، وجندها وعمالها، وعساكرها وعشائرها، وعامرها وغامرها، وأولها وآخرها، ودانيها، وقاصيها، وكل ما فى حدودها الأربعه، وداخل فى جهاتها الممنعه، على أكمل ماجرت به عوائد من تقدمه، واستقرت عليه القواعد المتقدمه.

فاتق الله فى أمورك، واجعل الشرع الشريف مشكاة نورك، وعظم حكامه، ونفذ أحكامه، فهم أمنع سورك. واعدل فهو قرار خواطر جمهورك، وتيقظ لسداد سداد ثغورك، وارفق لتطلق به نطق نطاق شكورك. وأقم الحدود فإنها زيادة فى أجورك. وأما العساكر المنصورة، فجمل بهم فى خدمتنا الشريفة مواكبك، وكل بعزائمهم مضاربك، ولا تستخدم منهم إلا من يسرك أن تراه فى يوم العرض، وتعقد هوادى جياده السماء بالأرض، واحم أطراف بلادك من عادية الرجال، واحفظ جانبيها من تخطف الغارات فسر قيامها [لايدفعه] غير احتيال، واهتم بالجهاد تحت صناجقنا المنصورة لأعداء الله متى أجمعوا، وضرسهم بأنياب أسنتك فأنت صاحب العصا وهى تتلقف ماصنعوا، وعمر بلادها بملاحظتك الجميله، وتم أمورها فهى قوام الجنود وهم إلى الثقة فى النصر الوسيله، وسارع إلى ما ترد به مراسمنا الشريفة عليك لتهديك إلى صراط مستقيم، وعجل البريد فإنك تعلم به مالست بعليم،

وبَقِيّةُ الوصايا لاحاجة إليها لما تعرفه من قديم، والله تعالىٰ يُمَتّعك بكلّ خُلُق كريم؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه ... .

النيابة الثانية — نيابة الرَّحْبة .

وهـــذه نسخةٌ بنيابتها :

الحمدُ لله الذى أمدّنا بنَصْره، وشمِل بجُود سلطاننا أهلَ عَصْره، وأيّده بجنودٍ أوّلُها متّصلٌ بأوّل عِراقه وآخِرُها بآخِر مِصْره، وفرّق بسهامه الأعداءَ فى حَواصل الطير بين حِضْنه وخَصْره .

نَحمدُه حمدًا يقومُ بشكره، ويحافِظُ علىٰ حُسْن ذكره، ويُستعاذ به إلّا ممّا يُدَمِّر على العِدَا من عواقب مكره؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُرْغِم مَن جادَلَه بكُفْره، وتُمزّقه بين كل نابِ سيف وظُفْرِه؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أرسله مُقيمًا لأمره، ومُديمًا فى الجهاد لإعمال بِيضه وسُمْره، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه حَمَلة سِرِّه، ونَقَلة هَدْيِه بأسْره؛ صلاةً باقيةً فى الوجود بقاء دَهْره، راقيةً ارتقاءَ زُهْرِه .

وبعــدُ، فإنّ الثغورَ بسِدَادِها، والبُحُور بإمدادِها ، والنُّحُور لا تحلّىٰ بأحسنَ من حلْية نِجادِها ؛ والممالكَ المحروسةَ لا تُحْرَس إلا بشُهُب خُرْصانها، ولا تُسْقىٰ بأنقع مما تُطِلُّه من الدِّماء سُحُبُ فُرْسَانها ؛ والفُرات لا تُحْمىٰ مواردُها إلا بأمثال سيوفها القَوَاضب ، ولا تمنعُ مَخَاوِضها[1] إلّا بدمٍ خاضب ، والحصُونَ لا يَرضىٰ بها كلُّ مَنْجَنِيق غضْبانَ إلا بوِصَال مُغَاضِب ، والقــلَاع لا تتطلّع عيونُ دَيَادِبها إلا لمن ماءُ الكَرىٰ

(١) فى الأصل مخالصها .

فى جُفُونه نَاضب ، والمَعَاقِلَ لا تَسْمَح بعقَائِلها إلّا لمن هو علىٰ خِطْبَتِها مُوَاظِب ؛ وكانت الرَّحْبة ـ حَرَسها الله تعالىٰ ـ هى أوسَعُ مكانٍ رِحَابا ، وأدنىٰ إلىٰ مطرٍ سحابا ، وأوْثَق ما أغْلَق على البلاد بَابا ، وأقرب ما سَمِع حُرَّاسُها فى السماء دُعَاءً مُجَابا ؛ قد مُلِئت سَماؤُها حَرَسًا شَديدا وشُهُبا ، ومَدّتْ كواكبَ الدلو واسْتَقَتْ من الغَمام قُلُبا ، وعَدَّت ماوراء المَجَرَّة فعُمِّيت دونها المَسَالِك ، وحُسِبَت لملك ونُسِبَت إلىٰ مالك ؛ ومالكٌ ـ لا أعنِى إلّا ٱبن طَوْقٍ ـ خَازِنُها ، ومَنْزِلُ أمْنٍ وفى غَاب الأُسْد مَسَاكِنُها ؛ قد وقَفَت لبَغْدادَ فى فَمِ المَضِيق ، وهَمّت بلادُ العِدا أن تَخُوضَ الفُرَاتَ إليها فقالت : مالَكِ إلىَّ طَرِيق ؛ قد ٱفترّ فى وَجْهِ العساكرِ المنصورةِ ثَغْرُها الضَّاحك ، وردّ قَرْنَ الشمسِ فَرْعُها المُتَمَاسِك .

فلمـا أُغْمِد حُسَامها المسْلُول ، وأقْلع غَمَامُها وكلُّ هُدْبٍ بالبكاء عليه مَبْلُول ـ ٱقتضىٰ رأيُنا الشريفُ أن نجـدّد لعَرُوسها زِفَافا ، ولبيوتها أفوافا ؛ ولسُيُوفها جلاء ، ولسقوفها إعْلاء ؛ ونُولِّيها لمن تكون هِمّتُه فيها جَدِيدةَ الشَّباب ، أكيدةَ الأسْباب ؛ ليكون أدْعىٰ لمصالحها ، وأرْعىٰ لمَنَاجِحها ؛ وأوْعىٰ لمـا يجمعه سَمْعه من مَصَالِحها ، وأسْعىٰ فى حِمَاية مَمَاسِيها ومَصَابِحها ؛ وكان فلانٌ هو أصْلَبَ مَن فى كَنَائننا الشريفة عُودا ، وأنجزَ وُعودا ؛ وأصْدقَ رُعُودا ، وأيْمَن إذا طلع نجمُه فى أُفُقٍ سُعُودا .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه نيابةُ الرَّحْبة المحروسة ، علىٰ عادة من تَقَدّمه وقاعدته ؛ [فليتول ذلك] مقدِّمًا تقوى الله والعملَ بما شَرَع ، وٱتباعَ مَرَاسمنا الشريفة فمثلُه من ٱتّبع ؛ وحِمَايةَ أطْرافِها ، من كل طَارِقٍ إلا طَارِقًا يَطْرُقُ بخَيْر ، وصِيانةَ أكْنَافها ، من كل عِصَابةٍ مُحلِّقة إلىٰ جَوّها كالطَّيْر ؛ وحِفْظَها من عَادِيَةِ كلِّ أفّاك وسَفَّاك ، وبَادِية أعْراب وأتْراك ؛ وكلِّ فارس فَرَس وراكب بَعِير ، وكلِّ وقفة محاصِرٍ وحَقْطة مُغير ؛

وجانبَىْ برٍّ وبحرٍ : فى أحدِهما المسالكُ تَعْمَىٰ والآخرلا يُعَام ، وصاحِبَىْ سرٍّ وجَهْر : هذا تخشىٰ له عاقبة كَلَامٍ وهذا مُعاقبة كَلَام .

وليتخطَّفْ من الأخبار ماتَلْمَع لَدَيْنا بوارِقُه ، ويتَقَطَّف من الأقوالِ ثمراتِها ولا يَدَعْ كلَّ ما تجمعُه حَدائِقُه ، وليجعلْ له من المناصحين طلائعَ ما منهم إلَّا مَن هو فى انتهاب الأخبار أبو الغارات ، ومَن إذا ألجمه الخوفُ كان له فى لَمْعِ البُرُوق إشارات ، وليتّخذْ من الكشّافة من يَسْبِقُ قبلَ أن يرتدّ إليه طَرْفُه ، ومن الخيّالة من لا يرتدّ عن وَقْدِ الرِّماح طِرْفُه ، ومن القُصّاد مَن لا يَطْوِى عنه خبرا ، ومن الدَّيادب من يُعيرُه وقلَّ أن تُعار العيونُ نَظَرا ، ولْيَحْفَظ التُّجّار فى مذاهبهم غُدُوًّا ورَواحا ، ومَساءً وصَباحا ، وليَسْتَوْصِ بهم خيراً فإنّهم طالما ازدانَتْ بهم صدورُ الخزائن على امتلائها انشراحا ، وليأْخُذْ منهم ماليَبْتِ المالِ فكَمْ وجَدُوا بعطائه أرباحا ، وليُوصِلْ الىٰ أرباب القَراراتِ ما لهم من مُقرَّرٍ معلوم ، وليُعْطِهم ما تصدّقْنا به عليهم وهو مشكورٌ وإلّا أعطاهم وهو مذموم ، وليَعْمُر البِلادَ بتَوْطين أهلِ القُرىٰ ، وإنامتِها بالعَدْل مَلاءَنةَ الجُفُونِ من الكَرىٰ ، وليكُنْ للفُراتِ متيقّظا لئلّا يَطْغىٰ بها التيّار ، ويغلبَ بمدّها المُخمَّر علىٰ سكرِها من السُّكْر الخُمّار ، ويقوىٰ علىٰ سَدّها قبل أن لا يَقْدِر علىٰ مُقاواة البِحار ، ويتفقّد مَبانيها فإنّها من أسنىٰ ما تتفقّدُه الأبصار ، وليغلق زُروعها لتكون : ﴿ كَمَثَلِ زَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ وليَعِفَّ فإنّ العَفافَ هو الغِنىٰ ، ولْيُؤمِّنْ من يَليه فإنّ الأمانَ هو المُنىٰ ، وليُقِرَّ ما استقرّ بيننا وبين القَوْم من صُلْحٍ أُكِّدَتْ أواخيه ، وأصبح كلٌّ من أهل الجانبَيْن لا يَفِرُّ من أخيه ، ولا يرخّصْ لأحَدٍ فيما ينقضُه لا فى عاجلِ أمرٍ ولا فى تراخيه ، حتّىٰ إذا كشفتِ الحربُ عن ساقِها ، وشدّتْ عَقْدَ نِطاقِها ، فليكُنْ بحسب مراسمنا الشريفة اعتمادُه فى شَنّ كلِّ غاره ، وسَنّ كلِّ ماض

مُزْهِقًا غِرارَه ، وجَوْس خِلال دِيارِ العِدا وٱخْتِطَاف كلِّ قَمَرٍ من دارَه ، والمُحْرِقات التى لا تُحْرِقُ نَبَاتا حتَّى تَشِبَّ فى ضلوعهم ، والعَيَّارة فهى الزَّلازل التى تَتَساقَطُ منها مَبَانِى رُبُوعِهم ، ومُوالاة البُعُوث : فإنَّ كلَّ بَعْثٍ يتكفَّل بشَتَاتِ جُمُوعِهم ، والعمل بكلِّ ما تَرِدُ به مَرَاسِمُنا العاليه ، والمُواصَلة بكُتُبِه التى تَرُفُّ ما سِوىٰ أخْبارها المُتواليه ، وإرسال كل بريد وحمام تُحَلِّقُ بهما : إمَّا رِيحٌ ظاهرة وإمَّا رِيحٌ عَاديَه ، والله تعالىٰ يقرب له الغايات المنادية ، بمنه وكرمه !

النيابة الثالثة — نيابة مِصْياف .

وهذه نسخة مَرْسوم بِنيابتها :

الحمدُ للهِ الذى صرَّف ممالِكَنا الشَّريفَةَ فى المَمالك ، وشَرَّف بنا كلَّ حصْن لا تَعْرِضُ له المَجَرَّةُ فى المسالك ، وعَرَّف بالتَّربِيَة فى خِدْمة أبْوابنا العاليَة إلىٰ أين يَنْتهى السَّالك .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى نَعْتَدُّ بها الحمد من ذلك ، ونَرْغب أن نَلْقَ الله علىٰ أداء الأمانة فيها كذلك ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له فيما هو مَالك ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أضاء به كلَّ حَالٍ حَالك ، وأنجىٰ به من مَهاوى المَهالك ، وجَمَع به من الأُمَّة ما وَهىٰ وهْىَ كالعِقْد المتهالك ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة يَجِدُ بها قائِلُها فى الدار الآخرة كُلَّ هَناءٍ هُنالك ، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ النظرَ فى أُمُور المَمالك هو أوّلُ مايقدّمه الملك ، وأولىٰ مايتقدّم إليه مَن سَلك ، ومملكة بَيْتِ الدَّعْوَة هى من أجَلِّ ماتَفرَّدت به ممالِكُنا الشَّريفَه ، وامتدّت به فى الأماكن المُخيفَه ، وأرْسَلت من قِلاعها من يَقْتَلِعُ العِدا بوُثُوبه ، ويُسابق السَّهْم إلىٰ مَطْلُوبه ، ويتَعبَّد بمُوالاتنا التى وَرِثَها عن سَلَفه فى طَاعة أئمَّتهم ،

وعَلِمُوا بهـا أن الدَّوْلة العلوية ما انقضت حتّى آنتقلت إلينا الوِلَايَةُ علىٰ شِيعَتِهم ؛ وأن المُلْكَ الإسْماعِيلِيّ فينا قد آنحصر مِيرَاثُه ، وأن كلَّ مَن مات من الخلفاء الفَاطميِّين - رحمهم الله - نحن وُرَّاثُه ؛ فهمْ بهذا يبْذُلون نفُوسَهم فى الطاعة الشَّرِيفة التى يَرَوْنها فرضًا عليهـم ، ويَبْلُغون بنـا أعلىٰ مَرَاتِبِ الإيمـان : لأنهم إذا رَأَوْا مُنْكرا أزالُوه بيدَيْهم ، كَمْ هجمُوا علىٰ عدوّ من أعْداء الله هَجْمة طَيْف ! ، وكَمْ آسْتَطالُوا بسِكّينٍ لا يتطاوَلُ إلىٰ مُبَارَاتِهـا سَيْف ! ، وكَمْ أوْقَدوا لهم بَارِقة عَزْمٍ فقيل : هذه سحابة صيف ! ، ولم ورَدُوا بالدِّماءِ خَدًّا غدَا ينادى : يا كِرام الوِرْدِ ضَيْف ! . وكانت مَصْياف - حرسها الله تعـالىٰ - هى كُرْسِىُّ هـذه المَمْلكه ، وقَلْعتُها هى التى بذَوائِبِ الجَوْزاءِ مُتَمَسِّكه ؛ وآقتضتْ مَرَاسِمُنا المُطاعةُ نقْلَ النائب بها إلىٰ مارسَمْنا به الآن ، نخلتْ ممّن يترقّىٰ فيها إلىٰ أعزّ مكان ، واحتاجتْ إلىٰ مَن تَغْنىٰ به عمّـا يقال : من آعْتِقال رُمْحٍ وتَجْرِيد سِنَان .

فحصَل الفِكْرُ الشريفُ فيمَن نُقلّده هٰذه النِّيـابَه ، ويتقلد أمْرَ هـذه العِصابَه ؛ ويتَصَرَّف فى أُمُورِها بمُقْتضَىٰ ما تَرِد به مَرَاسِمُنا المُطاعَه ، ويُعلَم أنّه من شِيعَتِنا : لأنّه دَاعِينا فى هَذه الجَماعَه ؛ فرأينا أنَّ أحقَّ [الناس بها] من قدّمه وَلَاؤُه ، وعظَّمه آنْتِمـاؤُه ، ونبَّهَ عليه آهتِمَامُ همَمه التى لا تُشابِهُها الكواكِبُ فى سَيْرِها ، وعزائمه التى طَالمَـا كان بها فى خِدمَتنا الشريفة «يَظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمسى بغَيْرِها» ؛ ولم تزَلْ به مَساعِيهِ حتّىٰ وصل إلىٰ المَزِيد ، وأسْرعَ له الشَّيبُ فى طاعتنا الشَّرِيفَة : لأنّه فى كلّ وقتٍ [كان] يسمعُ قَعْقعةَ لجامِ البَرِيد ؛ وكان فلانٌ هو الذى أشار إليـه القَوْلُ بوَصْفه ، ودلَّ عليه ثَنَاؤُه بعَرْفه .

فرسم أن تفَوَّضَ إليه النيابةُ بمَصْيَافَ وأعْمالهـا ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته . فليقدِّم تقْوَى الله تعالىٰ فيما وُلِّيه ، ولْيَنْشُرْ جَنَاحَ عَدْلنا الشريف علىٰ من يليه ، وليَعْمَلْ

بالأحكام الشَّرعيـةِ فى كل ما يَقضيـه ؛ وليَسْلُك فى أهلها أوْضَح المَراشـد ، ولْيبيِّن لهم أنَّه يدعوهم إلىٰ سبيل الرشاد إلا ما آدعاه راشـد ؛ ولْيوصِّلْ إلى المجاهدين أرْزاقَهم التى هى أثمـانُ نفوسهم ، وثِمـار مادَنَّى القِطَاف من رُءُوسِهم . وأهـلُ من مات أو يموتُ منهـم علىٰ طاعتنا الشَّريفـة فكُنْ عليهـم متعطِّفا ، ومَن طاب منك الإنْصَافَ فكُنْ له مُنْصِفا ، وآفعـلْ معهم أحْسنَ الأُسْوَه ، وقلْ لهم عنَّا : إنَّ الصَّدَقاتِ الشَّريفةَ قد آستَجابَتْ لكم يا أهلَ الدَّعْوه ، وخُذْ بقُلُوبِهـم ، لتَزْدادَ من حُبِّهم ، وقل للمُجاهدين : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَـاءٌ عِنْدَ رَبِّهِـمْ ﴾ . والأَمْوال فصُنْها من الضَّيَاع ، وعِمَـارة البِلاد عَلَيْك بها فإنَّ القَلْعة لا تكون إلا بالمَدِينَة والمدينَةَ لا تكونُ إلا بالضِّيَاع ؛ وآمْتِثال مَراسِمنا الشَّريفةِ وكُلُّ ما يُرسَم به سَارِعْ إلىٰ اعتماده ، وطائفة المُجاهِدين لا تَدَعْ منهـم إلا مَن هو معتـدّ لجهاده ، والكِتْمانَ الكِتْمانَ ! فبه تُنالُ المَطالِب ، وتُدْرَكُ المآرِب ؛ وعَلَيْك بقَمْع المُفْسدين ، ورَدْع المُعْتدين ، و إقامةِ الحُدُودِ : فإنَّ بها أقام اللهُ هـذا الدِّين ؛ ونحن نَغْتنِى بمـا فيـك من المَعْرفه ، و بمـا انت عليـه ـ بحَمْد الله تعـالى ـ من كمالِ كُلِّ صفَه ، عن آستيعاب الوصايا التى لم تَبْرَحْ سَجاياك بها متَّصِـفه ، والله تعالىٰ يزيدُك من كلِّ نَوْعٍ أشرفه ، والخط الشريف أعلاه ....

*
* *

وأما الصَّفْقة الشَّمالية ، فالذى يولَّى بهـذه الصَّفْقة عن الأبواب السلطانية ، نِيابةُ بَعْلَبَكَّ فقطْ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشَّامية أنَّهـا كانت أوّلًا إمْرةَ عشرة ، ثم صارت طبلخاناه ، وأن نائبَ الشَّام يولِّى بها ، وربمـا وَلِّيتْ من الأبواب الشَّريفَةِ السُّلطانية . وحينئذ فيكون مَرْسومُ نائبها فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السامىّ » بالياء .

وهذه نسخة مَرْسوم بنيابة بعلبك :

أما بعـد حمدِ الله علىٰ أملٍ حقّق مُناه ، وصدّق غَناه ، وفرّق عليه سُحُبَ اْعتناءٍ أوْرَق به عُودُه وطاب جَناه ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ نَبِيِّه سيدنا محمدٍ الذى كَمَّل بناه ، وعلىٰ آله وصحبه ما شَيَّد مَعْقِلٌ فَخَارَ مَبْناه ــ فإنَّ من أعْظم مُدُن الشَّام القَديمه ، ودُورِ المُلك التى ذهب مَن يَحُلُّها من الملوك وبَقِيت آثاره مُقيمَه ، مدينة بَعْلَبَكَّ وهى التى تَحصَّن الإسلامُ بقلْعتِها ، وتَحصَّل الرعْبُ فى قُلوب الأعداء [بمَنَعَتِها](١) بنيت علىٰ عهد سُلَيمان بن داود عليهما السلام وأتْقن بَنَّاؤُها ، وهَالَت أسْوارُها حتّٰى نُسِب إلىٰ صَنْعة الجنّ بِناؤُها ، ودَعَمتِ السَّماءَ عَمَدُها ، فطالت شُرَفُها حتّٰى كادت تُخَضْخِض فى سَجْلِ السحاب يَدُها ، وجَمعتْ مَحاسِنَ فى سـواها لا تُوجَد ، وتقرّر بمُلْكِها من الملوك : تارةً سـعيدا وتارة أمجد ، وما خلَتْ من علماء عظيمى الشان ، وصلحاء يلُمُّهم الجَبَـلان : سِيسُ ولُبْنان ، وهى بابُ دِمَشْق المَفْتوح ، وسحابُ الأنواءِ المَسْفُوحُ بالسُّفُوح ، وباب البُروقِ التى آلَتْ أنَّها بأسْرارِها لا تبُوح ، ومآبُ السِّفارَةِ التى تَغْدُو مُحَمَّلَةً أوْقارَ ركائبِها وتَرُوح ، ولهـا العين المُسَبَّلَة الرَّواتب ، والجبال الرَّاسـية الوَقارِ لمَفْرِقها الشَّائب ، العالية الذُّرىٰ ... ...(٢) من قِطَعِ السَّحائب ؛ و[لما] كان مَن فيها الآنَ مِمّن لا تَسْـتغنِى الدولةُ القاهرةُ عن قُرْبه ، ولا تَسْتَثْنِى أحدًا معه فى تَجْريده سَيْفَه المشهورَ من قُرُبِه ، أجَلْنا الرَّأْىَ فى كُفْءٍ لعَرُوسِها ، ومُمـاثِل لمركز تأوُّد غروسها ، فلم نَجِدْ أدْرىٰ بأحوالها ، وأدْربَ بما يُؤَلِّف علىٰ الطَّاعة قُلوبَ رجالها ، كمَن اْستقرّ به فيها مع أبيه المـاضى ــ رحمه الله ــ الوطن [ونالا منه الوطر] ، ومرت [عليهم فيه]

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

(٢) « « ولعله : التى كأنهـا ملتفعة من الخ .

سنون وأيامٌ هتف بها دَاعِى قصر ، ولا غِنًى [عنه] مع مالَهُ من وِلَايَاتٍ صَحِبَ فيها الناسَ وفَارَقهم علىٰ وَجْهٍ جَمِيل ، ورَافَقهم ثم ٱنْصرفَ وٱنصرفوا عنه وما ذَمَّهُ فى النَّازِلِين نَزِيل ؛ وكان فلانٌ هو المتوقِّدَ الشِّهاب ، المُتوقِّل فى تلك الهِضَاب ، المشْكورَ قولًا ودِينا ، المشهورَ بوَضْعِ كلِّ شَىْءٍ فى مَوْضعه شِدَّةً ولِينا .

فلذلك رسم ... ... ـ لا زال إحسانه أحمد وٱختياره مُقدِّما ـ أن يُرَتَّبَ فى نيابة بَعْلَبَكَّ علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، مُبْتَدِئًا حُسْنَ النظر فى الأمور العامه ، لا يَدَعُ ظُلَامَه ، ولا يَدَعُّ سالكَ طريقٍ إلىٰ سلامه ، ولا يُعِدُّ سَمعًا إلا لسَماع شُكرٍ لا مَلَامَه ، ولْيَنْظُرْ فى المظالم نظرًا يجلِي به سَدَفها ، وليشكرِ العشير توطيا يوطأ به هدَفُها ، ولْيلَاحِظِ الأمورَ الديوانية بما يُنمِّى به أموالَها ، ويُنَدِّى بسحابه المُتدفِّق أحْوالَها . والأوقاف فَلْيشارِكْ واقِفِيها فى إحسانهم ، ولْيُجْرِ حَسَناتِها علىٰ ما كانت عليه فى زَمانهم ؛ وليكن لها نعم الكفيلُ فى دوام المحافظة ولْيَتفقّدْ ما فيها من الحواصل والزَّرَدْخاناه مما يُدَّخَر لوقته ، ويُؤَخَّر لفَرْط الشَّغَف به لا لمَقْتِه . ومن أهمّ ما يُحتفَظُ به قلوبُ الرجال ، وعِمَارَةُ الأسْوار فإنها للفُرْسان المُقَاتِلَة مجَال ، وعليها تُنْصب المجانيق وتُتَخطَّف الآجال . وأمّا الشَّرِيعةُ المطَهَّرة : فإنَّ من تعدَّى غَرِق أو أوْشك أنْ يَغْرَق ، وٱتِّباع أوَامِرِها : وإلّا ففيم يُعذَّبُ من يعذّبُ ويُحْرق من يُحْرق ؛ وتقوى الله تعالىٰ هى الوَصِيَّة الجامعه ، والتَّذْكِرَة التى تَرْتَدُّ بها الأبصارُ خَاشِعه ؛ ولْيَفْهَم هذه الوَصَايا ولا يُخْرِجْ شيئا منها من قلبه ، ولْيَتبيَّنْ معانِيَها ليكونَ بها علىٰ بَيِّنَةٍ من رَبِّه ؛ والله تعالىٰ يَكْشف عنه غِطَاءَ حُجُبِه ، ويَزَعُه عما يأخُذُه ويؤاخذه من نِيَّتِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى(١)

(ممّن [هم] خارج دِمشق : ممّن يُوَلَّى عن الأبواب السلطانية ـ أمراءُ العُرْبان ، وهم على طبقتين :)

الطبقـــة الأولى

(من يُكْتَبُ له منهم تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«المجلس العالى» وهو أمير آل فَضْل خَاصَّةً : سواءٌ كان مستقلًّا بالإمارة أو شريكًا لغيره فيها)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب المملكة الشامية نقلا عن "مسالك الأبصار" أنّ ديارهم من حِمْص، إلى قلعة جَعْبَر، إلى الرَّحْبَة، آخذين على شِقِّ الفُرات وأطراف العِـرَاق .

⁂

وهذه نسخةُ تقليـدٍ بإمْرة آل فَضْل : كُتبَ به للأمير شجاع الدين « فضل بن عيسى » عوضًا عن أخيه مُهنًّا ، عنـد ما خرج أخوه المذكور مع قَرا سنقر الأفرم ومن معهما من المتسحبين، وأقام [هو] بأطْراف البلاد ولم يُفَارق الخِدْمة ، فى شهور سنة آثنتى عَشْرة وسَبْعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبىّ ، وهو :

الحمد لله الذى مَنَح آل فَضْل فى أيّامنا الزاهرةِ بحُسْنِ الطاعة فَضْلا ، وقدّم عليهم بقـديم الإخلاص فى الوَلاءِ من أنْفُسِهم شُجَاعًا يجمعُ لهم على الخـدْمة أُلْفَةً ويَنْظِم لهم على المخالصة شَمْلا ، وحَفِظ عليهم من إعْزازِ مكان بيتهم لَدَيْنا مكانةً لا تَنْقُضُ لهـا الأيامُ حُكْمًا ولا تنْقُص لهـا الحوادثُ ظِلًّا .

(١) لم يتقدم تقسيمه الى أصـناف ولعل مراده أن ما تقدم من التولية فى الصفقات صنف أول وهذا صنف ثان . فليتنبه .

نحمدُه علىٰ نِعمه التى شَمِلَت بِرَّنا ، الحَضَر والبَدْو ، وألهجَتْ بشُكرنا ، ألْسِنَةَ العَجَم فى الشَّـدْوِ والعَرَب فى الحَدْو ، وأعْمَلَتْ فى الجهاد بين يدينا من اليَعْمَلاتِ ما يُبَارِى بالنَّصِّ والعَنَقِ الصَّافِنَاتِ فى الخَبَبِ والعَـدْو ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تَدرأُ بها الأمورَ العظام ، ونُقلِّد بُمْنِها ماأهَمَّ من مصالحِ الإسلام لمَن يَجْرِى بتَدْبيره علىٰ أحسن نِظَام ؛ ونشهد أن محمدًا عبـدُه و رسولُه المبعوثُ من أعلىٰ ذَوَائِب العرَب وأشْرَفِهـا ، المرجُوُّ الشَّـفاعةِ العُظْمىٰ يوم طُولِ عَرْضِ الأُمَمِ وهَوْلِ مَوْقِفها ؛ صلَّى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين كَرُمت بالوَفَاء أنسابُهم ، وأضاءت بتقْوَى الله وجوهُهُـم وأحسابُهم ؛ صلاةً لا تَزال الألْسُنُ تُقِيم نِداءَها ، والأقلامُ تَرْقُمُ رِدَاءَها ، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

و بعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من أجْنَته الطاعةُ ثمرَةَ إخْلاصِه ، وَرَفعته المخالصـةُ إلىٰ أسْنىٰ رُتَبِ تَقْريبه وآخْتِصاصه ، وألَّف بمُبَادرته إلىٰ الخِدْمة الشريفة قلوبَ القَبائل و جمعَ شَمْلها ، وقلّده حسْنُ الوَفاء من أمْر قومه و إمْرتِهم ما يُسْتَشْهَدُ فيه بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ — من آرْتقىٰ إلىٰ أسْنىٰ رُتَب دنياه بحفْظ دِينـه ، ودلَّ تمسُّكُه بإيمـانه علىٰ صِحَّةِ إيمـانه وقُوَّة يَقينه ؛ ولاحَظَتْه عيونُ السَّعادَةِ فكان فى حِزب الله الغالِب وهو حِزْبُنا ، وقابَلَتْـه وجُوهُ الإقبال فأرَتْه أنَّ المغبُونَ من فاته تقْريبُنـا وقُرْبُنا ، ورأىٰ إحْسانَنا إليه بعين لم يَطْرِقْها الجُحود ، ولم يَطْرُقْها إعراضُ السُّعود ؛ فسلَك جادَّةَ الوَفاءِ وهى من أيمن الطُّرُق طَرِيقًا ، وآقْتدىٰ فى الطاعة والولاء بمن قال فيهم بمثل قوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

ولـمَّـا كان المجلسُ العالى ... هوالذى حَازَ من سعادَةِ الدُّنيا والآخرة بحُسْن الطَّاعة ما حَازَ ، وفازَ من بِرِّنا وشُكْرِنا بجميل المُبَادَرة إلى الخِدْمة بمَـا فَازَ ، وعلم مواقع إحْسانِنا

إليه فعمل على ٱستدامة وَبْلها ، وٱستزادة فَضْلها ؛ والٱرتواء من مَعْروفها الذى بَاء بالحِرْمان [منه] من خَرج عن ظلّها ؛ مع ما أضاف إلى ذلك : من شجاعة تَبِيتُ منها أعداءُ الدِّين على وَجَل ، ومَهَابَةٍ تَسْرِى إلى قلوب من بَعُدَ من أهل الكُفْر سُرَى ما قَرُب من الأجَل ـ ٱقتضتْ آراؤنا الشريفة أن نمدّ على أطْراف الممالك المحروسة منه سُورًا مصَفَّحًا بصِفَاحِه ، مشرَّفا بأسِنَّة رِمَاحِه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ـ لا زال يقلد وَلِيَّه فَضْلا ، ويَمْلأُ ممالكه إحسانا وعَدْلا ـ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت : لِمَا تقدم من أسْباب تَقْدِيمه ، وأُومِئَ إليه من عِنَايتنا بهذا البيت الذى هو سرُّ حَدِيثه وقَدِيمه ؛ ولِعِلْمنا بأوْلَوِيَّته التى قُطْبُها الشَّجَاعه ، وفَلَكُها الطَّاعه ، ومادَّتُها الدِّيانةُ والتُّقَى ، وجادَّتُها الأمانةُ التى لا تسترقُّها الأهواء ولا تَسْتَفِزُّها الرُّقَى .

ولْيَكُنْ لأخبار العَدُوّ مُطَالِعا ، ولنَجْوَى حَرَكَاتِهم وسَكَنَاتِهم على البُعْد سَامِعا ، ولديارِهم كُلَّ وَقْت مُصَبِّحًا حتَّى يظنوه من كل ثَنِيَّة عليهم طَالِعا ، ولْيُدِم التأهُّبَ حتَّى لا تفُوتَه من العَدُوّ غارةٌ ولا غِرَّه ، ويُلْزِمْ أصحابَه بالتيقُّظ لإدامة الجِهادِ الذى جَرَّب الأعداءُ [منه] مَوَاقِعَ سيوفهم غيرَ مَرَّه ؛ وقد خَبَرْنا من شَجَاعَتِه وإقْدَامِه ، وسياسته فى نَقْض كلِّ أمْر وإبْرامه ، ما يُغْنِى عن الوصايا التى مِلاكُها تقوى الله تعالى وهى من سَجاياه التى وُصِفَت ، وخَصَائِصه التى أُلِفَت وعُرِفَت ؛ فلْيَجْعَلْها مِرْآة ذِكْره ، وفاتِحَة فِكْرِه ، والله تعالى يؤيِّدُه فى سِرِّه وجَهْرِه ، بمنه وكرمه ! : إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه نسخة مَرْسوم شريف بإمْرة آل فَضْل ، كُتب بها للأمير حُسام الدين «مُهَنَّا بن عيسى» من إنشاء الشيخ شهَاب الدِّين محمود الحلبىّ ، وهى :

الحمد لله الذى أرهف حُسام الدِّين فى طاعتنا بيَدِ من يُمْضِى مَضَارِبَه بيَدَيْه ، وأعادَ أمْرَ القَبَائِل وإمْرَتَهم إلىٰ من لا يَصْلُح أمْرُ العَرَب إلّا عَلَيْه ، وحفظ رُتْبَةَ آلِ عيسىٰ باستِقرارِها لمن لا يزالُ الوَفاءُ والشَّجاعَةُ والطَّاعَةُ فى سائر الأحوال مَنْسُوباتٍ إلَيْه ، وجعلَ حُسْنَ العُقْبىٰ بعنايتنا لمن لم يَتَطَرّق العَدُوّ إلىٰ أطْراف البِلاد المحروسة إلّا وردّه الله تعالىٰ بنَصْرِنا وشَجاعتِه علىٰ عَقِبَيْه .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى ما زالت مُسْتَحَقَّة لمن لم يَزَل المقدّمَ فى ضَمِيرِنا ، المعوّلَ عليه فى أُمُورِ الإسلام وأُمُورنا ، المُعيَّنَ فيما تنطوِى عليه أثناءُ سَرائِرنا ومَطاوِى صُدُورِنا ؛ ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُوجِبُ علىٰ قائلِها حُسْنَ التَّمَسُّك بأسْبابها ، وتَقْتَضِى للخلص فيها بَذْلَ النُّفوس والنَّفائس فى المحافظة علىٰ مَصالِح أرْبابِها ، وتكونُ للمحافِظ عليها ذَخيرةً يوم تتقدّمُ النُّفوسُ بطَاعتِها وإيمانِها وأنْسابِها ؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ من أشْرف ذَوائِب العرب أصْلا وفَرْعا ، المفروضَةُ طاعَتُه علىٰ سائِر الأمَم دِيناً وشَرْعا ، المخصوصُ بالأئمّة الذين بثُّوا دَعْوتَه فى الآفاق علىٰ سَعَتِها ولم يَضِيقُوا لجهاد أعْداء الله وأعْدائِه ذَرْعا ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين حازُوا بصُحْبَتِه الرُّتَبَ الفاخِرَه ، وحَصَلُوا بطاعة الله وطَاعَتِه علىٰ سعادة الدنيا والآخره ، وعلِمُوا أنَّ الجنة تحت ظِلالِ السُّيُوف فلم يُزَحْزِحْهم عن ظِلّها الرُّكُونُ إلى الدُّنيا السَّاحِره ، صلاةً تقطعُ الفَلَواتِ رَكائِبُها ، وتَسْرِى بسالِكى طُرُق النَّجاة نجائبُها ، وتَنْتَصِر بإقامتِها كَتائبُ الإسلام ومَوا كِبُها ، وسلَّمَ تَسليمًا كثيرا .

أما بعـدُ ، فإن أوْلىٰ من تَلَقّتْه رُتْبَتُه ، التى توهّم إعْراضَها بأيْمَن وَجْهِ الرِّضَا ، وآستقبلته مكانَتُه ، التى تخيّل صُدُودَها بأحْسَنِ مواقع القَبُول التى تَضَمَّنت الاعتداد من الحسنات بكل ما سلف والإغْضاء من الهَفَوات عمّا مَضىٰ ، وآلَتْ إليه إمْرَتُه

التى خافت العطَلَ منه وهى به حَالِيه، وعادَتْ منزلَتُه إلىٰ ما ألِفَتْـه لدينا : من مَكَانةٍ مكينةٍ وعَرَفْتَه عندنا : من رُتْبةٍ عاليه ـ من أمِنَت شَمْسُ سعادَتِه فى أيامنا من الغُرُوب والزوال، ووثِقت أسْبَابُ نِعَمِه بأن لا يُرَوَّعَ سَرِيرُها فى دولتنا بالانتقاض ولا ظِلالُها بالانتقال، وأغنَتْه سوابقُ طاعتِه المحفوظةُ لَدَيْنا عن توسُّط الوسائل، وٱحْتَجَّتْ له مواقع خِدَمِه التى لا تُجْحَدُ مواقِفُها فى نِكايَةِ الأعْداء ولا تُنْكَرُ شُهْرتُها فى القَبائِل، وكَفَل له حُسْنُ رأينا فيه بما حقَّق مَطَالِبَه، وأحْمَد عوَاقبَه، وحَفِظَ له وعليه مكانَتَه ومَراتِبَه، فما توهَّم الاعداءُ أنَّ بَرْقَه، خَبَا حتَّىٰ لَمَع، ولا ظنُّوا أنَّ وَدْقَه، أقْلَع حتَّىٰ همىٰ وهَمَع، ولا تخيَّلوا أنَّ حُسَامَه نَبَا، حتَّىٰ أرْهَفَتْه عنايَتُنا فحيثما حَلَّ من أوْصالِهِم قَطَع، وكيف يُضَاعُ مثلُه ؟ وهو من أركان الإسلام التى لا تنزل الأهواء ولا تَرتَقِى الأطْماعُ مُتُونَها، ولا تستقر(؟)(١) الأعداءُ عند جهادها وٱجتهادها فى مصالح الإسلام حَسبَها ودِينَها .

ولما كان المجلس العالى ... هو الذى لا يَحُولُ ٱعتقادُنا فى وَلائه، ولا يَزُولُ اعتمادُنا علىٰ نَفاذِه فى مصالحنا ومَضَائه، ولا يتغيَّر وُثُوقُنا به عمَّا فى خَواطِرنا من كمال دِينِه وصحَّةِ يَقِينِه، وأنه ما رُفِعت بين يَدَيْنا رايةُ جِهادٍ إلَّا تلقَّاها عَرابَةُ عَزْمِه بِيَمِينه، فهو الوَلِىُّ الذى حسُنت عليه آثارُ نِعَمِنا، والصَّفِىُّ الذى نَشَأ فى خِدْمة أسْلافنا ونَشَأ بَنُوه فى خِدَمنا، والتَّقِىُّ الذى يأبىٰ دِينُه إلا حِفْظَ جانبِ الله فى الجهاد بين يدى عزيمتنا وأمام هممنا ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن نُصرِّح له من الإحسان بما هو فى مَكْنُون سرائرنا، ومَضْمُونِ ضمائرنا، ونُعْلِنَ بأنَّ رتبتَه عندنا بمكانٍ لا تتطاوَلُ إليه يَدُ الحوادث، ونُبيِّن أن أعْظم أسباب التقدم ما كان عليه من عنايتنا وٱمتناننا أكْرَمُ بواعث .

(١) لعله "ولا تستقل" .

فلذلك رُسم أنْ يعادَ إلى الإمرة علىٰ أمراء آل فَضْـل ، ومشايخهم ومقدميهم ، وسائرِ عُرْبانهم ، ومَن هو مضافٌ لهم ومنسوبٌ إليهم ، علىٰ عادته وقاعدته .

فليَجْرِ فى ذٰلك علىٰ عادته التى لا مَزِيدَ علىٰ كمالها ، ولا مَحِيدَ عن مَبْدَئِها فى مصالح الإسـلام ومآلهـا ؛ آخذًا للجهاد أُهْبَتَـه من جَمْع الكلمة واتّحادها ، واتّخاذِ القُوّة وإعدادها ، وتَضَافُرِ الهمَم التى ما زال الظَّفَـر من مَوَادّها والنَّصْرُ من أمْـدادها ؛ وإلزامِ أُمَراءِ العُرْبان بتكميل أصْحابهم ، وحِفْظِ مراكزهم التى لاتُسَدّ أبوابُها إلّا بهم ؛ والتَّيقُّظِ لمَكَايِدِ عدُوِّهم ، والتَّنبُّهِ لكَشْف أحوالهم فى رَوَاحهـم وغُدُوّهم ؛ وحِفظ الأطراف التى هم سُورُها من أنْ تَسَوَّرَها مكَايِدُ العِـدا ، وتَخَطُّفِ من يتَطَرَّق إلى الثغور من قبـلِ أنْ يرفعَ إلىٰ أُفُقِها طَرْفًا أو يمدَّ على البعـد إلىٰ جِهَتها المَصُونَة يَدا ؛ ولْيَبُثَّ فى الأعداء من مكَايِدِ مَهَابَتِـه ما يمنعهم القَرار ، ويُحَسِّنُ لهم الفِرَار ، ويَحُولُ بينهم و بين الكَرىٰ لاشتراكِ اسم النَّوْمِ وحَدِّ سَيْفِهِ فى مُسمَّى الغِرَار .

وأما ما يتعلقُ بهـذه الرتبة من وصايا قد أُلِفَت من خِلَالِه ، وعُرِفَت من كماله ، فهو ابن بَجْدَتِها ، وفارِسُ نَجْدَتها ، وجُهَيْنَةُ أخْبارها ، وحَلْبَة غايتها ومِضْمارِها ، فَيفْعلُ فى ذلك كلِّه ماشُكِرَ من سيرته ، وحُمِد من إعْلانِه وسَرِيرَتِه ؛ وقد جعلنا فى ذلك وغَيرِه من مصالح إمْرَتِه أمْرَه من أمرِنا : فيعتَمِدُ فيه ما يُرضى الله تعالىٰ و رسوله ، ويُبَلِّغُ به من جهاد الأعداء أمَلَه وسُولَه ؛ والله الموفق بمنه وكرمه ! والاعتماد ... .

الطبقة الثانيـــــــة

(من عرب الشام – من يكتب له مرسومٌ شريفٌ)

وهم على مرتبتين :

المرتبة الأولى – من يُكتب له فى قَطْع النِّصف، وهم ثلاثة :

الأوّل – أمير آل علىّ، ورتبته « السامىّ» بالياء . وقد تقدّم أن منازلهم مَرْجُ دِمَشْق وغُوطَتُها، بين إخوانهم آلِ فَضْل وبَنِى عَمِّهم آلِ مِراء، ومنتهاهم إلى الحَوْف والجابنة، إلى السكة، إلى تَيْماء، إلى البرادع . وأنه ذكر فى "التعريف" : أنهم إنما نزلوا غُوطَةَ دِمَشْق حيث صارت الإمْرَة إلى مُهَنا بن عيسى .

وهـذه نسخةُ مرســوم شريف بإمْرة آل عَلِىّ، كُتب به للأمير عِزّ الدِّين « جماز » بعد وفاة والده محمد بن أبى بكر، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله الذى أنْجح بنا كلَّ وَسِيلَه، وأحْسن بنا الخَلَفَ عمَّن قَضَى فى طاعتنا الشريفة سَبِيلَه، ومَضَى وخَلَّى ولَده رَسِيلَه، وأمْسك به دَمْعَةَ السُّيوف فى خُدُودِها الأسِيلَه، وأمْضَى به كلَّ سيف لا يُرَدُّ مَضاءُ مَضارِبِه بِحِيلَه، وأرْضَى بتقليده كلَّ عُنُقٍ وجَمَّل كلَّ جَمِيلَه .

نحمده على كلّ نعمةٍ جزيله، ومَوْهِبَةٍ جميله، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُرشِدُ من آتخـذ فيها نجوم الأسِنَّة دليلَه، وتجعلُ أعداءَ الله بعِزّ الدِّين ذَليلَه، وأنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى أكْرم قَبِيلَه، وشَرّف به كُلَّ قَبِيلَه، وأظهر به العَرَبَ على العَجَم وأخمد من نارِهم كلَّ فَتِيلَه، صلَّى الله عليـه وعلى آله وصَحْبِه صلاةً بكلّ خيرٍ كَفِيلَه، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ دولتنا الشريفة لمَّا خفق على المَشْرِق والمَغْرب جناحُها، وشمِل البَدْو والحَضَر سَماحُها، ودخَل فى طاعَتها الشريفةِ كلُّ راحِلٍ ومُقيم فى الأقطار، وكلُّ ساكِنِ خَيْمَةٍ وجِدار - تَرْعَى النِّعم بإبقائها فى أهلها، وإلقائِها فى محلِّها؛ مع ما تقدَّم من رِعايَةٍ تُوجِب التقديم، وتُودِعُ بها الصَّنائِعُ فى بَيْتٍ قديم؛ وتُزيَّن بها المَواكبُ إذا تعارضت جَحافِلُها، وتعارَفَتْ شُعوبُها وقبائِلُها، وٱستَوْلَتْ جِيادُها على الأمَدِ وقد سبقت أصائِلُها، وتداعَتْ فُرْسانُها وقد ٱشتبهت مَناسِبُها ومَناصِبُها ومَناصِلُها؛ وكانتْ قبائلُ العُرْبانِ ممَّن تعمُّهم دَعْوتُنا الشَّريفة، وتَضُمُّهم طاعتُنا التى هى لهم أكْمَلُ وَظِيفَه، ولهم النَّجْدةُ فى كلِّ باديةٍ وحضر، وإقامةٍ وسَفَر، وشامٍ وحِجاز، وإنجادٍ وإنجاز، ولم يَزَلْ (لآلِ علِيٍّ) فيهم أعلىٰ مَكانَه، وما منهم إلا من تَوَسَّد سَيْفَه وٱفترش حِصانَه؛ وهم من دِمَشْق المحروسةِ رَدِيفُ أسْوارِها، وفَرِيدُ سِوارِها، والنَّازلون من أرْضِها فى أقرب مكان، والنَّازِحُون ولهم إلى الدار بها أقْطار وأوْطان؛ قد أحْسَنُوا حَوْل البلاد الشامية مُقامَهم، وٱستَغْنَوْا عن المُقارَعَةِ على الضِّيفَانِ لما نصبوا بقارِعَةِ الطريق خِيامَهم؛ وباهَوْا كلَّ قبيلةٍ بقَوْمٍ كاثَرَ النُّجومَ عَدِيدُهم، وأوْقَدوا لهم فى اليَفاعِ نارًا إذا هَمَى القَطْرُ شَبَّتْها عَبِيدُهم؛ وهم مِن آلِ فَضْلٍ حيث كان عَلِيُّها، وحديثُه فى المسامع حُلِيُّها؛ فلما ٱنتهت الإمْرَةُ إلى الأمير المرحوم شمس الدين، محمد بن أبى بكر رحمه الله - جمعهم على دَوْلتنا القاهره، وأقام فيهم يبتغى بطاعتنا الشريفةِ رِضا اللهِ والدَّارَ الآخره؛ ثم أمدَّه الله من ولده بمن ألْقَىٰ إليه هَمَّه، وأمضىٰ به عَزْمَه، ونَفَّذ به حُكْمَه، ونَقَّل قَسْمَه.

وكان الذى يتحمل دُونَه مشقَّاتِ أمورهم، ويتلقَّىٰ شكاوىٰ آمرِهم ومأمورهم؛ ويردُ إلىٰ أبوابنا العالية مستمطرا لهم سحائبَ نِعمنا التى أخصب بها مَرادُهم،

وساروا فى الآفاق ومن جدواها راحلتهم وزادهم ، وتفرد بما جمعه من أبوته وإبائه ، وركز فى كل أرض مناخ مطيه ومرسى خبائه ، وضاهى فى المهاجرة إلى أبوابنا الشريفة النجوم فى السرى ، وحافظ على مراضينا الشريفة فما انفك من نار الحرب إلا إلى نار القرى ؛ وورد عليه مرسومنا الشريف فكان أسرع من السهم فى مضائه . كم له من مناقب لا يغطى عليها ذهب الأصيل تمويها ! ، وكم تنقل من كور إلى سرج ومن سرج إلى كور فتمنى الهلال أن يكون لهما شبيها ! ؛ كم أجمل فى قومه سيره ! ، وكم جمل سريره ! ؛ كم أثمر لها أملا ! ، كم أحسن عملا ! ؛ كم سد خللا ! ، كم جمع فى مهماتنا الشريفة كل من امتطى فرسا وركب جملا ! ؛ كم صفوف به تقدمت ، وسيوف أقدمت ، وحتوف حمائم الحمام بها على الأعداء ترنمت ! ! .

وكان المجلس السامى الأميرى ، الأجلى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العضدى ، النصيرى ، الأوحدى ، المقدمى ، الذخرى ، الظهيرى ، الأصيلى : مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء فى العالمين ، همام الدوله ، حسام الملة ، ركن القبائل ، ذخر العشائر ، نصرة الأمراء والمجاهدين ، عضد الملوك والسلاطين « جماز بن محمد » أدام الله نعمته ـ : هو المراد بما تقدم ، والأحق بأن يتقدم ، والذى لو أن الصباح صوارم والظلام جحافل لتقدم ؛ فلما مات والده رحمه الله نحا إلى أبوابنا العالية ، ونور ولائه يسعى بين يديه ، ووقف بها : وصدقاتنا الشريفة ترفرف عليه ؛ فرأينا أنه بقية قومه الذين سلفوا ، وخلف آبائه الذين عن زجر الخيل ما عزفوا ؛ وكبيرهم الذى يعترف له والدهم ووليدهم ، وأميرهم الذى به ترعى عهودهم ؛ وشجرتهم التى تلتف عليه من أسبابهم فروعها ، وفريدهم الذى تجتمع عليه من جحافلهم جموعها .

فرسم بالأمْر الشَّريف أنْ تفوض إليـه إمْرة آل عَليّ : تامَّةً عامَّة ، كاملةً شاملة ، يتصرّف فى أُمُورهم ، وآمِرِهم ومَأْمُورِهم ، قُرْبًا وبُعْـدا ، وغَوْرًا ونَجْدا ، وظَعْنًا وإقامَـه ، وعِرَاقًا وتِهامَه ؛ وفى كلِّ حَقِيرٍ وجَليـل ، وفى كلِّ صاحب رُغَاءٍ وثُغَـاء وصَرِير وصَـليل ، علىٰ أكمل عوائد أُمَراء كلِّ قبيـله ، وفى كلِّ أُمُورهـم الكثيرةِ والقَليله .

ونحنُ نأمرك بتقوى اللهِ فيها صـلاحُ كلِّ فريق ، وإصلاحُ كلِّ رَفيق ، ونَجاحُ كلِّ سالكٍ فى طريق . والحكمُ : فليكُنْ بما يوافق الشَّرعَ الشَّريف . والحقوقُ : تخلِّصُها علىٰ وجه الحق من القوىِّ والضَّعيف . والرفقُ بمن وَلِيتَه من هَذا الجَمِّ الغَفير، والجمع الكَبير ، وإلزامُ قَوْمك بمـا يلزمهم من طاعتنا الشَّريفةِ التى هى من الفُروض اللازمةِ عليهـم ، والقيامُ فى مُهِمَّاتِنا الشريفةِ التى تَبْرُزُ بهـا مَراسِمُنا المطاعةُ إليـك وإليهم ؛ وحفظُ أطْراف البلاد والذَّبُّ عن الرَّعايَا من كلِّ طارق يَطْرُقهم إلا بخَيْر، والمسارعةُ إلىٰ ما يُرْسَم لهم به ما دامت الأسفار فى عَصَاها سَـيْرْ ؛ والإفْراج لعَرَبك لاتسمحْ به إلا لمَن له حقيقةُ وُجُود، وله فى الخِدْمة الشريفةِ أثَرٌ موجود؛ ومَنْعُهم : فلا يكونُ إلا إذا تَوَجَّه منعهم ، أو تَوَانَتْ عزائِمُهم وقَلَّ نَفْعُهم ؛ والمَهَابَةُ : فانْشُرْها كسُمْعتِك فى الآفاق ، ودَعْ بَوارِقَ سيوفها تُشَام بالشَّامِ ودِيَمَها تُراقُ بالعِرَاق ؛ وخيولَ التَّقادم : فارتَدْ منها كلَّ سابقٍ وسَابِقة تَقِفُ دونهما الرِّياح ، ويحسُـدُهما الطَّيرُ إذا طَارَا بغَيْرِ جَناح ؛ ولا تَتَّخذْ دوننا لك بِطانَةً ولا وَلِيجَه ، ولا تقطعْ عنَّا أخْبـارَكَ البَهِيجَه ؛ ولْيَعْرِفْ قَومُه له حَقَّه ، ويُوفُوه من التعظيم مُسْتَحَقَّه ؛ فإنه أميرهم وأمْره من أمْرِنا المُطاع ، فمن نَازَع فقدْ خَالَفَ النَّص والإجماع ، والله تعـالىٰ يُوفِّقه ما اُستطاع ، بمنه وكرمه ! والخط الشريف ... ...

[الثانى — أمير آلِ فضل][1] .

وهذه نسخة مَرْسوم شريف بالتَّقدمة على عَرَبَىْ آل فَضْلٍ وآل عَلِيّ ، كتب به للأمير فَخْر الدين « عثمان بن هبة » وهو :

الحمدُ لله الذى خصّ مَن وَالَى هـذه الدَّولةَ بالتَّقْدِمة والفَخْر ، ورَمَى من عَاداها بالمَذَلَّة والقَهْر ، ومدّ فى عُمُـر أيَّامِها حتَّى يُسْتَنْفَد الدَّهْر ، وحتَّى تُوصَف أيَّامها — وإن قصرت — بالمساز : كلُّ شَهْرٍ يمرّ منها كالعام واليومُ كالشَّهر .

نحمدُه على مامَنحنا : من تَأْييد وظَفر ، وطَوَى دَعْوة من عَانَدَنا بعد النَّشْر ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً إن دَخَلَتْ شَواهِدُها تحت الإحصـاء فلا تدخلُ فَوَائدُها تحت الحَصْر ، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعل اللهُ به الهِدَايَةَ فى المَبْدَإ والشَّفاعةَ فى المَعاد يَوْم الحَشْر ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً تُسْعِدُ بعد الشَّقاء وتَجبُر بعد الكَسْر .

وبعــدُ ، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لمـا مَكَّن لنا فى الأرض ، وجعل بيدنا البَسْطَ والقَبْض ، وأرانا كَيْف تَصْنَعُ الجميلَ ونُجمِّلُ الصُّنْع ، وكَيْفَ نَجبُرُ قَلْبَ من جُعِـل فى أيامنا جَبْره بعد الصَّـدْع ، وكيف تُضْيِحُ أنْجُم ذَوِى الأقـدار فى سمـاء مملكتنا نَيِّرَةَ المَطالِع ، وكيْفَ نُلَقِّ الخيرَ فى عِراصِها من رَامَهُ إذا كان على الخَيْر فى غَيْر أيَّامنا مَانِع ؛ وكيف نُحِلُّ التقدمة فيمَن إذا عَقَل فى حُلَلِها قيل : هـذا هو أحَقُّ بها ممَّن كان ، وهذا الذى ما بَرِحَت التقدمةُ فى بَيْته فى صَدْرِ الزَّمان ، وهَذا الذى إذا ذُكِرَ آلُ فَضْـل وآلُ عَلِيّ كانت له مرتبـةُ الشَّرَف ولا غَرْوَ أنْ تكون مرتبةَ الشَّرَف

---

(١) الزيادة من المقام .

لعُثمان، وأنّنا لا نُمطِى صَهْوَةَ العِزِّ إلّا لأهلها، ولا نَنْسَخُ الآيةَ لمن تقدّم فى التّقدمة إلا بخَيْر منها أو مِثْلِها، ولا نُسَلِّم رايتَها، إلا لمن تُعْقَد عليه الخَنَاصِر، ولا يَتَسنَّمُ ذِرْوتَها، إلا من هو أحَقُّ بها وأهلها فى الأوّلِ والآخِر.

ولما كان المجلسُ السّامىّ، الأميرىّ، فخرُ الدين، عثمان بن مانع بن هبة: هو المُرادَ بهذا القوْل الحَسَن، والمَمْدُوحَ بحَشْدِ هذا المَدْحِ الذى يَسُرُّ السِّرَّ والعَلَن، والحَقِيقَ من الإحسان بكُلّما والخيرِ بأن، والخصيصَ من سَوالِف الخِدَمِ بما والمُفَضَّلَ على سائرِ النُّظَراءِ ولو قِيسَ بمَن - اقتضى حسنُ الرّأْىِ الشّريف، أن رُسِم بالأمرِ الشريف - لا زال ذُو القَدْر فى أيّامه يَرْتفِع، وذُو الفَضْل فى دَوْلته لا يَعِزُّ عليه مَطْلبٌ ولا يَمْتنِع، وذُو الأصالةِ التى يجتمعُ له فيها من النَّعْماءِ ما لا يَلْتئِم له فى غيْرِها ولا يجْتمع - أن تُفَوَّضَ إليه التقدمةُ على العُرْبان بالشّام المحروس، وهم من يأتى ذِكْره، على ما استقرّ عليه الحالُ فى ترْتيبهم، وأنّ منازِلَه الدّارُوم: بُعْدًا وقُرْبا، حَضَرا وبَدْوا، عامِرًا وغامِرا، رائحًا وغاديا، من الرَّسْتَنِ إلى المَلُّوحة. والعرَبُ: آل فَضْل وآلُ علىّ حيثُ ساروا نزلوا منزلة المذكور، أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمد بن أبى بكْر، والخدمةُ واحدَه، والكلمةُ على اتّفاقِ المصالحِ مُتعاضِدَه.

فليكن لِلقُوى جسدَ رُوحِها لا بَلْ رُوحَ جَسَدِها، ومجموعَ القبائل أوْحدَ عُدَدِها إذا صحّ الأوّل من عَدَدِها، وقُطْبَ فَلَكِها الذى على تدبيره مَدَارُها، وعلى تقريره اقْتِصارُها، وعلى تقدمَتِه تعْوِيلُها، وإلى نسبة إمارته جُمْلَتُها وتفْصيلُها، وليَجْمَعْهم على الطّاعة فإن الطّاعةَ مِلاكُ الأمرِ للآمر، وأُسُّ الخير للبادى والحاضر، وليعلم أن لِكلٍّ منهم نِقَابَةً تُعرَف، وعلَمِيَّةَ أصالَةٍ بها يُعرَّف، ومنزلةً يرِثُها الولَدُ عن الوالد، ومَشْيَخةً ترجع من ذلك البَيْت إلى ذلك الواحد، فلْيَحْفَظْ لهم الأنْسابَ، ولْيَرْعَ لهم

الأسباب، وإذا أُمِرُوا بأمرٍ من مَهامّ الدَّوْلَة يتلُو عليهم : ﴿ ٱدْخُلُوا الْبَابَ ﴾ . والألزام له ولهم مَخَاوِض تحفظ ، ومَفَاوِز تُلْحَظ ، ومَطَارِحُ لا تُلفَظ ، ومَشَاتٍ ومَصَايِف ، ونفائض ومَصَارف ، ومَرَابِع ، ومَرَاتِع ، ودُنُوٌّ وٱقْتِراب ، وتَوطُّن وٱغْتِراب ، وإغَارَةٌ ونَهِيض ، وبَرْقٌ ووَمِيض .

فلْيُرَتِّبْ ذلك أجْمل تَرْتِيب ، ولْيَسْلُك فيه خَيْرَ مَذْهب وتَهْذِيب ، ولْيَدَعْ العَادِى ، ويُلَاحِظ الرَّائِحَ والغَادِى ، ولْيُؤَمِّن ذلك الجانب فأمْننا تُطْرِب أبْيَاتُه المَحْدُوَّ والحَادِى ، وعليهم عداد مقرر ، وقَانُونٌ مُحَرَّر ، ولْيَكُن على يد شاده شادًا ، ولسَبَبِ تأْيِيدهم مَادًّا ، ويعلم أنه وإن كان قد أغمض من جُفُونه فيما مَضَى ، وأعْرَض عنه فى الزَّمن الأوّل الذى ٱنْقضى ، وقُدِّمَ عليه من كان دُونَه ، فقد ردّ الله له أبْكَارَ الأمْر وعُونَه ، فلا يجعلْ لقائلٍ عليه طَرِيقا ، ولا يَدْخُلْ فى أمرٍ يقال عنه فيه : كان غَيْرُه به حَقِيقا ، بل يَفُوقُ مَن تَقَدّم فى الخِدْمة والهِمّه ، والصَّرامَة والعَزْمه ، والله يُوزِعُه شكرَ هذه النِّعمه ، والخط الشريف ... ... :

الثالث — أمير آل مِراء ، ورتبته «السامى» بالياء .

وقد تقدّم أنّ منازلهم حَوْرَانُ . وعن "مسالك الأبصار" أنّ دِيارَهم بين بلاد الجيدور والجولان ، إلى الزرقاء ، إلى آخر بُصْرَى . ومشرّقا إلى حَرَّة كشت ، على القرب من مكّة المشرّفة ، زادها الله شرفا .

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف بإمْرَة آل مِراء ، كتب بها للأمير بدر الدين «شطى بن عمر» وهى :

الحمد لله الذى زَيَّنَ آفاقَ المَعَالى بالبَدْر ، ورفع بأيّامنا الشريفة خَيْرَ وَلِيٍّ أضحى بين القبائل جليلَ القَدْر ، ومنح من أخلص فى خِدَم دَوْلتنا الشريفة مَزِيدَ الكَرَم

فأصبح بإخلاصه شديدَ الأزْر، وأجزل بِرّه لأصائل العَرَب العَرْباءِ فوفّر لهم الأقسام، وأسْبغ ظلالَ كرَمِه على من يَرْعَى الجارَ ويحفَظُ الذّمام .

نحمـدُه على نِعَمٍ هطَل سَحابُها ، ومِنَنٍ تفتّحتْ بالمسارّ أبوابُها ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُقرّبُ صاحبَها يوم الفزَع الأكبر، من المحلّ الآمِن ، وتُورِدُه نَهر الكَوْثَر، الذى ماؤه غيرُ آسِن ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثـه اللهُ من أشْرف القبـائِل ، وأوْضح بنُورِ رسالتِـه الدّلائل ، فأنقذ الله به هذه الأمّةَ من ضَلالهـا ، وبوّأها من قُصُور الجِنَان أعلى غُرَفِها وأشْرف ظِلالهـا ، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين أوْضَحُوا مناهجَ الإيمـان ، وشيّدُوا قواعدَ الدّين إلى أن علَتْ كلمتُـه فى كلّ مكان ، [فكان] عَصْرُهم أجْملَ عَصْر وقَرْنُهم خيرَ أوَان ، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ أوْلى من أدْنَيْنا من بِسَاط الاصْطِفاء محلَّه ، وارْتَشف من سَحاب مَعْروفنا طَلَّه فوَبْلَه ، ونَالَ من عواطِفنا منزلةَ القُرْبِ على بُعْد الدار، وحكَم له حسنُ نَظَرِنا الشريف بتوالى غَزير كَرَمنا المِدْرار[1] .

ولمـا كان المجلس الفلانىّ : هو المشارُ إليـه بهذا النَّعت الحَسَن ، والمَوْصوفَ بالشَّجاعة فى السِّرّ والعَلَن ــ رسم بالأمر الشريف ــ لا زال بَدْرُه ، ساطعَ الأنْوار ، وبِرُّه ، هامِعَ القِطَار ، وخيرُه يشمَلُ الأولياءَ بجَزِيل الإيثَار وجميلِ الآثَار ــ أن يستقرّ المشارُ إليـه فى كَيْت وكَيْت : لأنّه البَطَل الشّـديد ، والفَارس الصّـنْديد ، وليْثُ الحرب المذكور ، ومَن هو عندنا بعَيْن العِنايَة مَنْظُور .

(١) لم يذكر خبرا لإن ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل « من كرم أصلا ومحتدا ، وسل سيف عزيمته حتى خضعت له رقاب العدا » أو نحو ذلك .

ولْيَثِق من صَدَقاتِنا الشَّريفة بما يُؤَمِّلُ ويَعْهَد ، ولْيَتحقَّقْ قُرْبَه من مَقامِنا الشَّريف والعَوْدُ أَحْمد ، ولْيتلَق هذا الإحسان بقَلْب مُنْشَرِح ، وأَمَل مُنْفَسِح ، وليجتهِدْ فى أمْر عُرْبانِه الذين فى البلاد ، فإنَّا جعلنا عليه فى أُمورهم الاعْتِماد ، وقد أقمْناه أميرا علىٰ عَرَب آلِ مِراء ، فلْيُشَمِّرْ عن ساعد الاجتهاد فى مصالح دولتنا الشَّريفة بغير زُورٍ ولا مِراء ، وليَقْمَع المُفْسِدَ من عُرْبانِه ويقابلْه بالنَّكال ، والصَّالحُ الخيِّرُ منهم يُجزلُ له النَّوَال ، والوصايا كثيرةٌ ولِمثْله لا تُقال ، والخط الشريف أعلاه حجة فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بِنِصْف إمْرَة آل مِراء ، كُتِب به لقناة بن نجاد ، فى العشر الأخر من شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . من إنشاء المقرّ الشِّهابِىّ بن فَضْل الله ، وهى :

الحمدُ لله الذى استخدَم لنَصْرنا كلَّ سَيْف وقَنَاه ، وكلَّ سُرْعة وأَناه ، وكُلَّ مُتَّقِف تُسْلِي[(١)] جناياتُه ويَعْذُب جَناه ، وكُلَّ ماضٍ لا يعُوقُه عن مَقاصِده الصالحةِ يَعُوق وهو عَبْد مَنَاه .

نحمدُه حمْدَ من أغْناه ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَستمِدّ من قَبَلِها فَلَقُ الصَّباح سَنَاه ، ويُفَكُّ منها من قَبْضةِ السُّيوف عُنَاه ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى [بوَّأه منازل الشرف] وبَنَاه ، وأحَلَّه من العَرَب فى مكان يَخْضَع له رَأْسُ كلِّ جَبَّار ويَخْشَعُ بصَرُه وتستَمِعُ لما يُوحَىٰ أُذْنَاه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَخُصُّهم من كل شَرَف بأسْماه وأسْناه ، وسلم تسليما .

(١) تسلى جناياته — تترك فلا يقتص منه .

وبعـد، فإنّ لكلّ ثاكلةٍ قرارا، ولكلّ هاجرةٍ مزارا، ولكلّ معصَمٍ سوارا لايليقُ إلا بزَنْده، ولكلّ عُنقٍ دُرًّا لا يصلُح إلا لعِقْده، ولكلّ سَيْفٍ طال هُجوعُه فى غِمْدِه آنسلالا، ولكلّ قنـاةٍ لم تُعْتَقل مُدّةً آعْتِقالا، وكانت إمْرةُ آلِ مِراء قد ثُبّتت من البَيْت الأحْمدىّ بأوْثق أوْتادها، ووصلت منه فى الرِّفعة إلىٰ نِجَادها، ولم تزلْ تنتقلُ فى آفاقها بُدُورُهم الطّالعه، وتُضِىءُ عليها من صِفاحهم بُروقُهم اللّامعه، وتَجُولُ فيها من سوابقهم السُّحُبُ الهـامعه، وتُغْنى فى حروبها عزائمُهـم إذا وقَعت الواقعه، وتقدّمَتْ للمجلس السامىّ، الأميرىّ، الفُلانىّ، بركابنا الشّريف صُحْبةٌ حَمَدَ فيهـا السُّرىٰ، وخِدْمةٌ أوقـدَتْ له نارَ القِرىٰ، وهاجَر إلينا فى وَقْتٍ دلّ علىٰ وفائه، وسَهِر إلىٰ قصدنا اللّيْـلَ وله النجم محيط المُقَلِ بإغفائه، وآنقطعَ إلينا بأمَله، ولازم من عهدنا الشريف صَالحَ عَمَلِه، وآسـتحق تَعْجيلَ نِعَمِنا الشريفةِ وإن تأخرت لأجل مَوْقوت، وأمل نجاحُه لا يفُوت .

فلما آن أن تُفاضَ عليه ثِيابُها، ويُضافَ إليه ثوابُها، ويُصَرَّف فى قَوْمه أمْرُه، ويشرَّف بينهم قَدْره، ويَعْرِفَ من لم يَعْرف المِسْـكَ أنّه عندنا ذِكْرُه، ومَنْ جهل البِرّ: أنه علىٰ ما يُحمَد عليه شُكْره، ومن أنكر أنّ شيئاً أصْعَبُ من المَوْت: أنّه فى مجال الموت صَـبْرُه، ومن خالف فيما هو أمْضىٰ من القَضَاء: أنّه فى البيعة صَدْره، ومن آدّعى أنّه لا تصيبه البِيضُ والسُّمْر: أنّها مُثَقّفتُه وبُتْرُه، وزال من هذا البَيْتِ العَرِيق الطَّوْدُ وهو ثابِت، ونُزِعَ منـه السِّنان لولا أنّه فى قناته نابت، و[لولاه] لهـاجت هذه القبيلة إلىٰ من يُقْبِل على نباتها، ويَقِيلُ بها: تارة يُنْجِدُ فى نجدها وأُخرىٰ يجُول فى جَوْلَاتِها ـ رسم بالأمْر الشريف أن يُقلَّد من إمْرة آلِ مِراء ما كان الأمير «ثابتُ ابن عَسّاف» رحمه الله يتقلده إلىٰ آخر وقْت، ويُرْفَعَ فيها إلىٰ كلّ مُسامَتةٍ وسَمْت؛ ليُكَمِّل ما نَقَص من التّمـام وَصْفُه، ويعلَم أنّه حلّق إليه حتّىٰ أتىٰ دون نِصف البَدْر

فاختطف النصف وذلك النصف هو نصفه ، ليكون لهم إحدى اليدين، وأخرى تقع لسيف بحدّين .

وتقوى الله أبرك ما آشتملت عليه عودها، وآنتخبت له زبيدها، فليتخذها له ذروة يهتدى بها أنّى سلك من الفجاج ، وآقتحم من حلك العجاج . وعليه بحسن الصحبة لرفيقه، ويمن القبول على فريقه، وإقامة الحدود على ما شرع الله من دينه القويم، وإدامة التيقظ [للثأر] المنيم ، وإنزال عربه ومن يتزل عليه أو يتزل عليهم فى منازلهم .

وليجمع قومه على طاعتنا الشريفة كل الجمع، ويقابل ما ترد به مراسمنا المطاعة عليه بما أوجب الله لها من الطاعة والسمع ، وليأخذ للجهاد أهبته ، ويعجل إليه هبته ، وليقف من وراء البلاد الشامية المحروسة دريئة لأسوارها المنيعه، ونطاقا على معاقلها الرفيعه ، وسدًّا من بين أيديها وخلفها لباب كل ذريعه، وخندقا يحوط بلادها الوسيعه ، وحجابا يمنع فيها من تعدى الحق وخاض الشريعه ، ولا يفارق البلاد حتى يعبس فى وجوهها السحاب، ولا يعود حتى تؤذن زروعها المخيمة بذهاب ، والكرم هو فيه سجايا، والعزم ما برح لوشان (؟) أسنته بكل قناة لحايا(1)، والحزم بيده المراوية من آل مراء يظهر له الخفايا، والشجاعة هو فى رباها المنيرة «ابن جلا وطلاع الثنايا» ، وما رضع المرمل كأفاويق الوفاق، ولا وضع شيئا فى موضعه كمداراة الرفاق، فليكن لرفيقه أكثر مساعدة من الأخ لأخيه ، وأكبر معاضدة من المصراع لقسيمه والجفن لجفنه والشىء لما يؤاخيه . هذا يجب ويتعين وليس يجمعهما فرد طاعه، ولا يلزمهما لشىء واحد آستطاعه ، فكيف وهو [و] رفيقه إلينا آعتزاؤهما ومنا إعزازهما، وهما فرعان معتنقان : لدينا إجناؤهما وبيدنا إهزازهما .

(1) يريد لحاء بالهمز فاضطر للقلب مراعاة للسجع .

وليَحَصِّل من الخيل كلَّ سابقةٍ تليق أن تقــدّم إلينا، وسابِحةٍ فى كل مَهْمهٍ حين يَقْدَمُ علينا . والشَّرْعُ الشريفُ يكون إليه مآبُك، وعليه عَفْوُك وعِقابُك؛ و بمقتضاه عَقْدُ كلِّ نِكاح لا يصح إلا علىٰ وَجْهِه المَرْضِىِّ و إلَّا فهو سِفاح، والميراثُ علىٰ حُكمه لمن جَرَّه إليه و إلا فهو ظُلْمٌ صُراح، وبقيةُ ما نوصيه به إذا انتهىٰ منه إلىٰ هذه النُّبْذَة فما عليه فى سواها جُنَاح . وسبيلُ كلِّ واقِفٍ علىٰ تقليدنا هذا أن يُنِيبَ إلىٰ نُصُوصه، ويؤُوبَ إلىٰ عُمُومه وخُصُوصه، والحَذَرَ من الخُروج عنــه بقَوْلٍ أو عَمَلٍ ، فالسَّيْفُ أَسْبقُ من العَذَل ؛ والله تعالىٰ يُمتِّعه بمــا وهبه من العزِّ فى النُّقَل، والمحاسن التى هى يَدُ المسامع والأفواه والمُقَل؛ والخط الشريف أعلاه ... .

المرتبــة الثــانيــة

(من أرباب المراسيم من العرَب ـ من يُكْتَبُ له فى قَطْع الثُّلث بـ«السَّامى» بغير ياء، مفتتحا بـ«أمَّا بعدُ» وهم ثلاثة أيضا)

الأول — أُمَراء بَنِى مَهْدِىّ ، وهى مقسومة بين أرْبعــة . ورتبةُ كلٍّ منهــم «مجلس الأمير» .

وقد تقدّم أنَّ منازلهم البَلْقاء، إلىٰ مائر، إلى الصوان، إلىٰ عَلَمَ أعفر .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بِرُبْع إمْرَة بنى مَهْدِىّ، وهى :

أمَّا بعــدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى حقَّقَت فى كَرَمنا المآرب، وأجْزلَت من آلائنا المَواهب ، وقرَّبَتْ لمن رَجانا بإخْلاص الطاعة ما يَأْبَىٰ عليه من المَطالب؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ المبعوثِ من أشْرف ذَوَائِب لُؤَىِّ بن غَالِب، المخصوص باللِّواء الذى لا يَضْحَىٰ من أوىٰ إلىٰ ظِلّه والحَوض الذى لا ظَمَأَ بعــدَ وُرُوده

لشَارِب ، وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فَازُوا من صُحْبته وطاعته بأسمى المَراتب وأسْنَى المَناقِب — فإنَّ أولىٰ من رَفعت رعايتُنا قَدْرَه ، وأطْلعتْ عنايتُنا فى أُفق السعادة بَدْرَه ، وحقَّقتْ آلاؤُنا سُولَه ، وبلَّغتْه صدَقاتُنا مَرامَه ومأمُولَه — من أحْكم فى طاعتنا أسْبابَ وَلائه ، وأتقن فى خِدْمتِنا آنتساب بعيده وآنتمائه ، وتقرَّب إلينا بإخْلاصه فى آجتِهاده ، ومتَّ بما يُرْضِينا من آحْتِفاله بأُمورِ جِهاده ، مع ما تَميَّزَ به من أسْباب تتقاضىٰ كَرَمَنا فى تقديمه ، وتَقتضى إجراءَه علىٰ ما أَلِفَ أولياءُ الطاعة من حَديث إحساننا وقَديمه .

ولما كان فلانٌ هو الذى آختصَّ بهذه المقاصد ، وعُنِىَ بما ذكر من المصادِر والمَوارِد — رُسِم أن يُرتَّب فى رُبْع إمْرة بَنى مَهْدىّ .

فليُرتَّبْ فيما رُسِم له به من ذلك قائما من وظائفها بما يَجب ، عالمًا من مصالحها بما يأتى وما يَجتنب ، واقفًا لاَعتماد ما يَرِد عليه من المَراسِم وُقوفَ المنتظِر المُرْتقِب ، مُلزِمًا عَربَه من الخِدَم بما يُؤكِّد طاعتَهم ، ومن إعداد الأُهْبَة بما يُضاعِف آستِطاعتَهم ، ومن المُحافَظة علىٰ أسْباب الجهاد بما يجعل فى رِضَا الله تعالىٰ ورضانا قُوَّتَهم وشَجاعتَهم ؛ ولْيُقَدِّم تقوى الله تعالىٰ بين يديه ، ويجعلْ توفيقَه العُمْدَةَ فيما آعتَمد فيه عليه ؛ والخيرُ يكون ، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف برُبْع إمْرة بَنى مَهْدىّ أيضا :

أمَّا بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى جدَّدتْ لمن أخلص فى الطَّاعة رُتَبَ السُّعود ، ورَفعتْ مَن نَهض فى الخِدَم الشَّريفة حقَّ النُّهوض إلىٰ مَناصب الجُدود ، والصَّلاة والسَّلامِ علىٰ سيدنا محمد المخصوصِ بلواءِ الحَمد المَعْقود ، وظلِّ الشَّفاعة الممْدود ،

والحَوْض الذى لا يَنْضُبُ على كثرة الوُرود ؛ وعلى آله وصَحْبه الذين وَفَّوْا بالعهود ، وبَدَتْ سِيمَاهُم فى وجوههم من أثرِ السُّجود - فإنَّ أوْلى من آجْتَلى وُجوهَ النِّعم ، وآجْتَنى ثَمَرة ما غَرَس من الخِدَم ، وآرْتَقى إلى ما أُنْعِم به عليه من التَّقدُّم الذى أقامه السَّعْدُ لاستحقاقه على أثبتِ قَدَم - من نشأ فى طاعتنا الشَّريفة يَدِينُ بولائها ، ويتقلَّب فى خَيْرِ نِعَمها وآلائها ، ويتعبَّدُ بما يُؤَهَّل له من خِدَمها ، ويبادِرُ إلى ما يُنْدَب له من المَهَامِّ الشَّريفة بين يَدَىْ مراسمنا أو تحت عَلَمها .

ولمَّا كان فلانٌ هو الذى ذُكِرتْ طاعتُه ، وشُكِرت خِدَمُه وشجاعتُه - رُسم .... أنْ يُرتَّب فى رُبْع إمْرة بنى مَهْدِىّ ، على عادة من تقدّمه وقاعدته .

فليرتَّبْ فى ذلك ، قائمًا بما يجب عليه من وظائفها المَعْروفةِ المألُوفه ، وخِدَمها التى هى على ما تبرُزُ به أوامرُنا الجاريةُ موقُوفه ؛ وليكنْ هو وعَرَبُه بصَدَدِ ما يُؤْمَرون به : من خِدْمةٍ يبادرون إليها ، وطاعةٍ يُثَابِرون عليها ، وتأهُّبٍ للجهاد ، حيثُ سَرَت الجيوشُ المنصورةُ لم يَبْقَ لهم عائقٌ عن التَّوجُّه بين يديها ؛ وسياسةٍ تأخذُهم من الطرائقِ الحميدةِ بسُلُوك مايجب ، ويعرفُ بها سلُوكَ مايَسْلُك وآجتنابَ ما يَجْتَنب ؛ والخيرُ يكون ، إن شاء الله تعالى .

الثانى — مقدم زُبَيْد . ومنازلُ بعضهم بالمَرْج وغُوطَةِ دمَشْق ، وبعضهم بصَرْخَد ، وحَوْران .

⁂

وهذه نسخةُ مَرْسوم شريف بتَقْدِمة عرب زُبَيْد ، وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى أبقى بنا للنِّعَم تأبيدا ، وأحْسن العاقِبَة لأحسن عاقِبَةٍ أدام لهم فيها تخليدا ، وأحيا به منهم حيًّا نكتب لأميرهم وإمْرتِهم فى كُلِّ حِينٍ تقليدا ؛

ونَقَل منهم نوفلاً فلا نزالُ نجدِّدُ فيهم ملابسَ الفخار بذكر آسمه تجديدا ، ورعَى بنا أبناءَ بيتٍ تناسقوا أبناءً وجدودا ، وتباشروا بولَدٍ لمّا خلف والده بأنّ آبنَ سعيد لا يكون إلّا سعيدا ، والصَّلاة والسَّلام على نبيه محمد الذى أهلك بسيفه كلَّ غاشم ، وأخجل بسَيْبِه كلَّ غمام لوجنة الرِّياض واشم ، وأسعد بسَبَبِه نوفلا وعبد شمس بأخوّتهما لهاشم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خُلاصة العرَب ، صلاةً لا يُعدّ ضريبا لها الضَّرب ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ العساكرَ المنصورةَ الإسلامية : منهم حاضرةٌ أهلُ جِدار ، وباديةٌ فى قفار ، وقومٌ هم المُدُن المُمدَّنة وقومٌ عليها أسوار ؛ وهم صنفان : صنفٌ لا تملّ السيوفَ عواتقُهم ، وصنفٌ سيوفُهم تُحبَس بها مناطقُهم ؛ والعرَبُ أكرم [أهل] البَوادى ، وأعظمُ قبائلهم تضرُّما كالبرق مباراةً للسُّحب الغوادى ؛ قد نَصَبُوا بقارعة الطَّريق خيامَهم ، وسرَحوا مع أسراب الظِّباء سوامَهم ؛ ووقفُوا دُونَ الممالك المحروسة كتائبَ مصفُوفه ، ومواكبَ بما تُعرَفُ به العربُ من الشَّجاعة موصوفه ؛ وزُبَيْد من أنخرها قبيله ، وأكثرها فوارس : [فأمّا أحسابها] فكريمةٌ وأمّا وجوهها فجميله ؛ شاميَّةٌ أعرقَتْ أنسابا فى يَمَنِها ، وأتهمتْ بشطء أسنّتها ماتفتّح فى المجرّة من سوسنها ؛ فما يبيتُ بطَلٌ منهم على دِمَن ، ولا يُعرَف فارسٌ إلا إذا تملّى فى الخليطَين من شامٍ ومن يمَن ؛ كم فيهم بمواقع الطِّعان فَطِنٌ ذو كَيْس ، وكم صبغ منهم بالدِّماء رايةً حمراءَ يمَنىٌّ لا يُنسب إلى قيس ؛ كم كَرّ على معديكرِب منهم فارس ، ونُسِب إلى زُبَيْد وهو خشِنُ الملابس ؛ منهم صاحب الصَّمْصامة بقِى مثلها السَّيف فردا ، وكم قتل من أقرانه الشُّجعان من أخٍ صالح وبوّأه فى العَجاج بيديه لَحْدا ؛ ومن نجومهم الزواهر السُّراه ، وغيومهم الأكابر السَّراه ، من لم يزل حول دمشق وما يليها من حَوْران ، منارةَ منازلَ وأوطان ؛ حاموا عن جنابها المَصُون ، وحاموا حولَ غُوطتها تشبُّها بحمائمها

علىٰ الغُصُون ، وماثلوا بسيوفهم أنهارَها ، وبرماحِهم حَوْلَ دَوْحاتِ الأيك أشجارَها ، وآستلأموا بمِثْلِ غُدْرانها دُرُوعا ، وحَكَوْا بما أطَلُّوا من دماء الأعْداء شَقائق رَوْضِها ، وبما جَرُّوا من حُلَلهم المُسَهَّمَة سيلا ، ولم يَزَلْ لهم من البَيْت النَّوْفَلِيِّ مَن يجمع جماعَتهم ، ويضُم تحتَ راية الدولة الشريفة طاعَتَهم ، يخْلُف آبنٌ منهم لأبيه أو أخٌ لأخيه ، وينْتظِم كلُّ فَرْقد مع من يناسِبُه وينضاف كلُّ كَوْكَبٍ إلىٰ مَن يُؤاخيه .

وكان مجلس الأمير الأجلّ ، فلان بن فلان الزُّبيْدى ــ أدام الله عزه ــ هو بقيّة من سلف من آبائه ، وعرف مثل الأَسَد القَسْوَرة بإبائه ، وآنحصر فيه من آستحقاق هذه الرتبة مِيراثُ أبيه ، وآستغْرَق جميع ما كان من أمْر قوْمه وإمْرتهم يَلِيه .

فرسم بالأمر الشريف ــ زاده الله تعالىٰ شرَفا ، وذَخَر به لكلِّ سالِفٍ خَلَفا ــ أن يرتب فى إمْرةِ قوْمه من زُبَيْد النّازلين بظاهرِ دِمَشْق وبلاد حَوْرانَ المحروس ، علىٰ عادة أبيه المستقرّه ، وقاعِدَته المستمرّه ، إلىٰ آخر وقت ، من غير تَنْقِيص له عن نَجْم سَعْده فى سِمَةٍ ولا سَمْت ، تقْدِمةً تشملُ جميعَهم ممَّن أعرَقَ وأشْأم ، وأنجَد وأتْهم ، لا يخرج أحَدٌ منهم عن حُكْمه ، ولا ينفردُ عن قِسْمه ، لا ممَّن هو فى جِدار ، ولا ممَّن هو مُصْحِرٌ فى قفار ، يَمْشِى علىٰ ما كان عليه أبُوه ، ويقومُ فيهم مَقَامَه الذى كان عليه هو وأُولُوه .

ونحنُ نُوصِيك بتقْوَى الله تعالىٰ ، وباتِّباع حكْمِ الشَّريعةِ الشريفة ما أقَمْتَ علىٰ بلد أو أزْمَعْتَ آرْتحالا ، وجَمْع قوْمِك على الطاعة فُرْسَانًا ورُكْبانا ورِجَالا ، واتباع أوامِرِها الشَّريفةِ وأمْر نُوّابِنا الذين هم بإزائهم ، وما آعْتزازُ من قبلك إلا لِمَا مالوا إليه فى آعتزائهم ، والتّأهُّبِ أنت وقوْمك لما رسم به فى لَيْلٍ أو نهار ، وحِمايةِ حِمًى أنتم حوله فى صَحْراءَ مُصْحِرة أو مِن وَرَاء جِدار ، والمطالعةِ بمن يَنْتقِلُ من أصْحابك

بالوَفاه، والوصايا كثيرة ومِثْلك أيْسَرُ ماقال له آمِرٌ وكفاه، والله تعالىٰ يوفقك لما يرضاه، ويُؤْثرك فى كلّ أمْرٍ للعمل بمقتضاه، وسبيل كلٍّ واقفٍ عليه العملُ به بعد الخط الشريف شرّفه الله تعالىٰ وأعلاه أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

النيابة الثانية

(من نيابات البلاد الشامية ـ نيابة حلب . ووظائفها التى يكتب بها من الأبواب السلطانية علىٰ نوعين)

النوع الأول

(من بحَاضِرَة حَلَب، وهم علىٰ أصناف)

الصنف الأول

(منهم أرباب السُّيوف، وهم علىٰ طبقتين)

الطَّبَقة الأولىٰ

(من يُكتب له تقليدٌ، وهو نائب السَّلطنة بها، وتَقْليده فى قَطْع الثُّلثين بـ«الجناب الكريم»)

وهذه نسخةُ تَقْليد شريف بنيابَة السلطنة بحَلَب، كُتِب به للامير استدمر، من إنشاء الشَّيخ شهاب الدّين محمود الحلبىّ، وهى :

الحمدُ لله حافظ ثُغُور الإسلامِ فى أيَّامنا الزَّاهرة، بمن يَفْتَرُّ عن شَنَب النَّصر سَيْفُه، وناظِمِ نِطاق الحُصون فى دَوْلَتِنا القاهرة، علىٰ هِمَم من لم يَزَلْ يغزُو عدوَّ الدِّين قبلَ طُلوع طَلائِعه طَيْفُه، وناشرِ لواءِ العَدْل فى أسْنىٰ ممالكنا بيَد من لا يُؤمَنُ فى الحق قوّتُه

ولا يُرْهَبُ فى الحُكْمِ حَيْفُه، ومدَّخر [أجر] الرِّباط فى سبيله لمن لم يبِتْ ليلةً إلا والتأييد نزيلُه والنَّصر سَميرُه والظَّفَرُ ضَيْفُه، الذى جعلَ الجهاد فى أطراف الممالك المحروسة سُورًا لعواصِمها، والصِّعادَ فى مَقَاتِل أعداء الدِّين شجًا فى صُدُورها وشَجًى فى غَلاصِمها، والسُّيُوفَ الحِدَادَ تَزْهَىٰ بمشاركتها لاسم من بُلِيَتْ منه أجساد أهلِ الكُفْر بقاسِمها، ورُمِيَتْ منه أعمـارهم بقاصِمها، وأرهف لهذا الأمرِ من أوليائنا سيفًا تحلَّى الشَّهباء بجواهرِ فِرِنْده، وتتوقَّع الأعداء مواقعَ فَتَكَاته قبـل تألُّقِ برْقه من سُحُب غِمْـده، ويعرفُ أهْلُ الكُفْر مَضَاربَه التى لاتُطيقُ مَقَاتِلُهم جَحْدَها، وتتفرّقُ عُصَب الضلال فِرَقًا من مهابته التى طالما أغارَتْ علىٰ جيوشهم المتعدِّدَة وحْدَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت النَّصْر لأجياد ممالكنا عُقُودا، والكُفْرَ للَهَبِ صَوارِمنا وَقُودا ، والتأييدَ من نتائج سُـيوفنا التى تأْنَفُ أن تُرىٰ فى مَضاجعِ الغُمُود رُقُودا، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُعْلِى منارَ الهُدىٰ ، وتُطفئ أنوار العِدَا، وتُخْلِي أجسادَ أهلِ الكُفْر من قُوىٰ أرْواحِهم فتَغْدُو كديارِهم التى لا يُجيبُ فيها إلا الصَّدىٰ، ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أعْلَى الله بِناءَ الإيمـان بتأذينه، وأيّدنا فى الذَّبِّ عن مِلَّتـه ، بكل وَلِىٍّ يتلقَّ رايةَ النَّصْر بيَمينه، وأعانـنا علىٰ مصالح أُمَّتِه، بكلِّ سيفٍ تتألَّق نارُ الأجلِ من زَنْده ويتَرقْرقُ ماء الحياة من مَعِينه، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَسَمَتْ أسِنَّتُهم من وجوه الكُفْر أغفالا،وكانتْ سيوفُهم لمَعاقِلِ أهْلِ الشِّرك مَفاتِحَ فلمَّا فُتِحت غَدَت لهـا أقْفالا، فمنهم من فَازَ بمزيَّة السَّبْق إلىٰ تَصْديقه ، ومنهم من كان الشيطانُ يَنْكُبُ عن طَرِيقه، ومنهم من أمَر بإغماد سَيْف الانتصار لدَمه عن مُرِيقه ، ومنهم من حاز رُتْبَـة أختانه وصِهْره دون أُسْرته الكرام وفَرِيقه ، صلاةً دائمـةَ الخُلود، مُسْتمرَّةَ الإقامة فى التَّهائم والنُّجود ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولى من حُلّيت التقاليدُ بلآلئ أوصافه، ومُلِّكت الأقاليمُ بمواقع مهابته وإنصافه، وريعت قلوبُ العدا بطُروق خياله قبل خيله، وخاف الكفرُ كلّ شيء أشبه ظُباه من توقُّد شموس نهاره أو حكى أسنّته من تألّق نجوم ليله؛ ومُدّ على الممالك من عزماته سورٌ مصفّحٌ بصفاحه، مُشرّفٌ بأسنّة رماحه، سامية على منطقة الجوزاء منطقةُ بروجه، نائيةٌ على أمانى العدا مسافةُ رفعته فلا يقدر أملُ باغ على ارتقائه ولا رجاءُ طاغ على وُلُوجه — من تمهّدت بسداد تدبيره الدُّوَل، وشهدت بسيَر محاسنه السّيَرُ الأُوَل؛ وتوطّدت الممالكُ على أسنّته فحقّقت أنّ أعلى الممالك ما يُبنى على الأسَل، وسارت فى الآفاق سُمعتُه فكانت أسرى من الأحلام وأسبق من الأوهام وأسيرَ من المثَل؛ وصانت الثغورَ صوارمُه فلم يَشِمْ برقَها إلا أسيرٌ أو كسير، أو من إذا رجع إليها بصرَه انقلب إليه البصرُ خاسئاً وهو حسير؛ وزانت الأقاليمَ معدلتُه فلا ظُلمَ يغشى ظلامُه، ولا جورَ يُخشى إلمامُه، ولا حقّ تُدحض حجّتُه ولا باطلَ يعلو كلامُه؛ فالبلادُ حيثُ حلّ بعدله معمُوره، وبإيالته مغمُوره، وسُيوفُ ذوى الأقلام وأقلامُهم بأوامره فى مصالح البلاد والعباد منهيّةٌ ومأمُوره .

ولما كان الجنابُ العالى هو الذى عانق الملكَ الأعزّ نجادُه، واللّيثَ الذى لم يزل فى سبيل الله إغارتُه وإنجادُه؛ والكَمِيّ الذى كم له فى جهاد أعداء الله من موقف صدقٍ يضلُّ فيه الوهمُ وتزلُّ فيه القدم، والهمامَ الذى إن أنكرتْ أعناقُ العدا مواقعَ سيُوفه «فما بالعهد من قدم»؛ والمقدامَ الذى لا تُنكَر مشاهدُه فى إرغام الكُفر ولا تُكفَر، والزّعيمَ الذى حمتْ مهابتُه السّواحلَ فخاف البحرُ: وهو العدوُّ الأزرق، من بأسه الأحمر، على بنى الأصفر، والمُقدّمَ الذى كم ضاقتْ بسرايا شيعته الفِجاج،! وكم أشرقتْ نُجُوم أسنّته من أُفق النّصر فى ظُلَم العجاج،! وكم حمى العذبَ الفراتَ على البُعد بسُيوفه وهي مجاورةٌ للملح الأُجاج!!، مع سطوةٍ أنامت الرّعايا فى مهاد أمنها،

ورأفة عَمرت البرايا بعاطفة إقبالها ويُمْنها، ورفقٍ تكفَّل لسهل البلاد وحزنها بإعانة مُزْنِها ، وشجاعةٍ أعدَّت الجيوشَ التى قبلَه فغدَتْ آحادُها أُلُوفا ، وفتكاتٍ عوّدت الطَّيرَ الشِّبَعَ من وقائعه فباتت على راياته عُكُوفا ، ومَعْدلةٍ عمَّت مَن فى إيالته فأضحى الضَّعيفُ فى الحقِّ قويًّا عنده والقوىُّ فى الباطل ضعيفًا .

وكانت البلاد الحلَبيَّة المحروسةُ هى المملكةَ التى لا تُجارىٰ شَهباؤُها فى حَلْبَة فَخار، والرُّتبةَ التى لا يُؤهَّلُ لها من خواصّ الأولياء الأعِزَّة إلَّا مَن آستخرنا الله تعالىٰ فى تقليد جيد مفاخره بلاَلِى كفالتها نَخار ، فهى سُورُ الممالك الذى لا تتسوَّره الخُطوب ، وأمّ الثُّغور التى ما برح يُسْفِر بابتسامها عن شَنَب النَّصر وجْهُ الزمن القَطُوب ، ومَوطنُ الرِّباط الذى كلُّ يوم وليلة [فيه] خير من الدُّنيا وما فيها ، وعقيلةُ الأقاليم التى لَمْ أشجىٰ قلوبَ الملوك الأكابر صُدُودُها وأسْهر عيونَ العظماء الأكاسرة تجافيها ؛ بل هى عِقْدٌ دُرُّه حُصُونُه ، ورَوْضٌ سيوفُ الكُماة جداوله ورماحُ الحُماة غُصُونُه ، وحِمًى لم تزل عيونُ عنايتنا بعَوْن الله تحفُّه وأيدى تأييدنا بقوّة الله تَصُونُه ــ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُرْهِفَ بحمايتها هذا السَّيفَ الذى تُسابِقُ الأجلَ مَضَاربُه ، وتبطل الحِيَلَ تجاربُه ، ويتقدَّم خبرَ عزائمه خَبَرُها فلا يُدْرَىٰ : هل ريحُ الجنوب أسرىٰ وأسرع أم جَنائبُه ؛ وتبثُّ مهابتُه أمام سراياه إلى العِدَا سرايا رُعْبٍ تَفُلُّ جَمْعَهم ، وتَسْبِقُ إلى التَّحرُّز من بأسه بَصَرهم وسَمْعَهم ؛ وتسفر بكل أفق عن تعتها مغيره، أو كتيبة تجعلها لمعالى النصر الكامنة مُثيره . (١)

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف العالى ــ لا زالت أوامرُه مبسُوطةً فى البسيطه ، وممالكُه محُوطةً بمهابته الشَّاملة ومَعْدلته المُحيطه ــ أنْ تفوض إليه نيابةُ السَّلطنة الشَّريفة بالمملكة الحلَبيَّة : تفويضًا يعوِّذُها من عيون العِدا بآيات عزائمه، ويعوِّدُها

(١) كذا فى نسختين ولعل الصواب "عن شيعة" الخ .

آجتناء ثمر المنى والأمن من ودق صوارمه ، وينظم درارى الأسنة من أجياد حصونها فى مكان القلائد ، ويجعل كماة أعدائها لخوفه أضعف من الولدان وأجبن من الولائد ، ويجرد إلى مجاوريها من همته طلائع تحصرهم فى الفضاء المتسع ، وتسد عليهم مجال الأرض الفسيحة فيغدو لهم حزنها الحزن الشامل وسهلها السهل الممتنع .

فليتقلد هذه الرتبة التى بمثلها تزهى الأجياد ، وبتقلدها يظهر حسن الآنتقاء لجواهر الأولياء والآنتقاد ، وبتفويضها إلى مثله يعلم حسن الآرتياد لمصالح البلاد والعباد ، وليزد جيوشها المنصورة إرهابا لعدوهم ، وإرهافا لصوارم الجهاد فى رواحهم وغدوهم ، وإدامة للنفير الذى حببه الله إليهم ، وقوة على مجاوريهم من أهل النفاق الذين يحسبون كل صيحة عليهم ؛ فإنهم فرسان الجلاد الذين ألفوا الوقائع ، وأسوار الفرات الذين عرفوا فى الذب عن ملتهم بحفظ الشرائع ، وكشافة الكرب الذين لا يزال لهم فى سائر بلاد العدا سرايا وعلى جميع مطالع ديار الكفر طلائع ؛ وهم بتقدمته تتضاعف شجاعتهم ، وتزيد آستطاعتهم وطاعتهم ؛ وليأخذهم بمضاعفة الأهب وإدامة السعى فى حفظ البلاد والذب ، والتشبه بأسود الغابات التى همها فى المسلوب لا السلب ؛ وليهتم بكشف أحوال عدو الإسلام ليبرح(١) آمنا على الأطراف من حيفهم ، متيقظا لمكايدهم فى رحلتى شتائهم وصيفهم ؛ مفاجئا لهم فى كل منزل بسير يروع سربهم ، ويكدر شربهم ؛ ويجعل روح كل منهم من خوف قدومه نافرة عن الجسد ، ويسلبهم بتوقع مفاجآته القرار « ولا قرار على زأر من الأسد » ، ولا تزال قصاده بأسرار قلوب الأعداء مناجيه [ولا تبرح له من أعيان عيونه بين العدا فرقة ناجيه](٢) وليحتفل بتدريج الحمام التى هى رسل أعنته ،

(١) مراده ليبق على الدوام آمنا الخ إلا أن هذه المادة لا تؤدى هذا المعنى إلا بسبق النفى . تأمل .

(٢) الزيادة مما يأتى قريبا ليستقيم الكلام .

وإقامة الدَّيادب الذين إذا دَعَوْا هَمْهَمَةً بألسنة النيران لبّتهم ألسنة أسنّته ، وليُميتْ قلوبَ أعدائه بوَجَل لِقائه قبل الأجَل ، وليَزِدْ في الحزم على ابن مزيد الذى لم يُرَ في الأمن إلا في درعٍ مُضاعَفة « لا يأمَنُ الدَّهرَ أن يُدْعَى على عَجَل »[(١)] ؛ وليْجعَلْ أحوال القلاع المحروسة دائما بمرأى منه ومَسْمَع ، ويُشيِّدْها من مُلاحَظته باحْتِفالٍ لا يَدَعُ لشائمِ بَرْقِها وحمول أموالها [مطمعا] فقد استكمل حُسْنَ النَّظر في مصالحها أجْمع ؛ وليُقِم مَنارَ الشَّرع الشَّريف بمُعاضَدةِ حُكّامه ، والانقياد إلى أحكامه ، والوُقُوفِ مع نَقْضه وإبْرامه :

فَلْيَجْعَلْ حكمَ الشريعةِ المطهَّرة أمامه وإمامَه ، وليُقِمْ أمرَ الله فيمن اقتاده الشرعُ إلى حكمه بجاذب زِمامَه ؛ وليُعظِّمْ حَمَلةَ العِلْم الذى أعلى اللهُ مَنارَه ، وأفاض على الأُمّةِ أنوارَه ، وحَفِظ بهم على المِلَّة سُنَّةَ نبيهم صلَّى الله عليه وسلم وآثارَه ؛ وليكُنْ لأقدارهم رافعا ، ولمضارّهم دافعا ، ولأوقافهم بجميل الاحتفال عامرا ، وفي مصالحهم بتَحْلية الأحوال آمرا ؛ ولينشُرْ لِواءَ العَدْل الذى أمر اللهُ بنَشْره ، ويشفَعْه بالإحسان الذى هو مألوفٌ من سجاياه ومَعْروفٌ من طَلاقَة بِشْره ؛ ويمدَّ على الرَّعايا ظلَّ رأفَتِه الذى يُضْفِي في النِّعَم لِباسَهُم ، ويُديمُ إلْفهم بالرَّفاهية واستِئْناسَهم ؛ ويُقِمْ حُكْمَ سياسته على مَن لم يَستَقِم ، ويَقِفْ مع رضَا اللهِ تعالى في كلِّ أمْر : فإذا رَحِم فللهِ فليَرْحَمْ وإذا انتقم فلِغَيْر الله لا ينتَقِم ؛ وليُعْتَنِ بعمارة البلاد ببَسْط العَدْل الذى ما احْتَمى به مُلكٌ إلّا صانَه ، والرِّفْقِ الذى لم يكن في شيْءٍ إلّا زانَه ، وتوخّى الحقّ الذى مَن جعله نُصْبَ عَيْنَيه وفّقه اللهُ له وأعانَه . وكذلك أمرُ الأموالِ : فإنّها ذَخيرة المُلْك وعَتادُه ، ومادّةُ الجَيْش الذى إذا صُرفَتْ إلى مصالحهم هِمَمُه لم يُخْشَ عليه انقطاعُه ولا

(١) يشير إلى بيت من قصيدة لمسلم بن الوليد يمدح بها يزيد بن مزيد الشيبانى وهو :

تراه في الأمن في درع مضاعفة ☆ لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

تَفَادُه، وجميعُ الوصايا قد ألِفنا من سِيرَته فيها فَوقَ ما نَقترح، وخَبَرْنا من مَقاصِده فيها ما يَقولُ للسانِ قَلَمِها : قد عرفتُ ما أَوْمأْتَ إليه من مَقاصِدك فاسْتَرِح ؛ ومِلاكُها تقوَى الله تعالىٰ ورِضَانا ، وهو المَألُوف من عَدْله وإنْصافه ؛ والله تعالىٰ يُديمها بتأييده وقد فعل ، ويجعله من أركان الإسلام وأَعْلامِ المسلمين وقد جَعل ؛ بمنّه وكَرَمه، والاعتمادُ ...... إن شاء الله تعالىٰ .

✤

وهذه نسخةُ تقليدٍ شريف بنِيابة حَلَبَ أيضا، كُتب بها عن السلطان المَلِك النَّاصر «محمد بن قلاوون» للأمير شَمْس الدِّين «قراسُنْقر» باعادته إليها . من إنشاء الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحَلَبى، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل العَواصِمَ بإقامَةِ فَرْض الجهَاد فى أيّامنا الشريفة مُعْتَصِمَه ، والثُّغُورَ بما تفتَرّ عنه من شَنَبِ النَّصر فى دَوْلتنا القاهرةِ مُبْتَسِمَه ، والصَّوارِمَ المُرْهَفة فى أطراف الممالك بأيْدى أوْليائنا لأرواح مَن قَرُب أو بَعُد عنها من الأعْداء مُقْتَسِمَه ، والحُصونَ المُصَفَّحة بِصفَاحِنا بأعلام النَّصْر مُعْلَمَةً وبسِيَما الظَّفَر مُتَّسِمَه ؛ مُعْلِى قَدْرِ مَن أحْسن فى مصالح الإسلام عَمَلا ، ورَافِعِ ذِكْرِ مَن يبسط إلىٰ عِزّ طاعة الله ورسوله وطاعَتِنا أمَلا ، ومُجَدِّدِ سَعْدِ مَن تَلْبَس الأقلامُ من أوْصافه أنْخَرَ الحُلَل إذا خَلعتْ من المحامد علىٰ أوْصافه حُلَلا، ومُفَوِّضِ زَعامَةِ الجُيوش بمواطن الرِّباط فى سبيله إلىٰ من إذا فَلَّتْ مَقاتِلُ العدا سيوفَ الجِلادِ كانت عَزائِمُه من السيوف المُرْهَفَةِ بَدَلا .

نَحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت طاعَتَنا من آكَدِ أسْباب العُلُوّ ، وخِدْمَتَنا من أنْجَح أبْواب الرِّفْعة بحَسَب المبالغة فى الخِدْمة والغُلُوّ، ونِعَمَنا شامِلَةً للأوْلياء بما يُرْبى علىٰ

طَوامِح الآمَال فى البُعْد والدُّنُوّ ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُستنزلُ بها موادُّ النَّصر والظَّفَر ، وتُستجْزَلُ بها ذخائرُ التأييد التى كَمْ أسفر عنها وَجْهُ سَفَر ، وتُرْهَفُ بها سيوف الجهاد التى كم آلفَتْ من آمَن وكَفَّتْ من كَفَر ، ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسولُه الذى أنزل سَكِينَتَه عليه ، وزُوِيَتْ له الأرضُ فرأىٰ منها مايَبلُغ مُلْكُ أُمَّته إليه ، وعُرِضتْ عليه كُنوزُ الدُّنيا فأعْرَضَ عمَّا وُضِع من مقاليدها بيَدَيْه ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذينَ رضى الله عنهم ، ونَهَضُوا بما أُمِروا به من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه وطاعةِ أُولى الأمْرِ منهم ؛ صلاةً دائمةَ الظِّلال ، آمنةً شمسُ دَوامِها من الزَّوال ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإن أَوْلىٰ من طُوِّقَتْ أجيادُ الممالك بفرائد أوْصافه ، وفُوِّقَتْ إلىٰ مَقاتِل العِدا سِهامُ مَهابَتِه التى تحُولُ منهم بين كُلِّ قَلْبٍ وشِغَافه ، وخُصَّتْ به أُمُّ الثُّغور التى دَرَّ لها حَلَبُها ، ومدّت عليها أفياءَ النَّصر المَمْدودةَ ذَوابِلُها وقُضُبُها ، وأهْدىٰ أرجَ التَّبلُّج افْتِرَارُها وشَنَبُها ــ مَن تقومُ مَهابَتُه مقامَ الأُلُوف ، وتَجْتَنِى سُمْعَتُه من ذَوابِل العزائم ثَمَر النَّصر المَألُوف ، ويَسْبِقُ خَيالُه سرايا خَيْلِه التى هى أَسْرىٰ من هُوجِ الرِّياح إلىٰ هَزْم الجُمُوع وتَفْريق الصُّفُوف ، وتَنْظِمُ أسِنَّةُ رِماحه فى الوَغىٰ قلوبَ العِدا نَظْمَ السُّطور وتَنثُرُ صِفَاحُه رُءُوسَهم نَثْرَ الحُرُوف ، وتُحيطُ بنِطَاق المَمالك المُتَطرِّفة صَوارِمُه إحاطةَ الأسْوار بالحُصُون ، والحَمائِل بالغُصُون ، والهَالاتِ بالأقْمار ، والجَوانِح بالأسْرار ؛ ولا تَبِيتُ مُلُوكُ العِدا منه إلّا علىٰ وَجَل ، ولا يُرىٰ فى الأمْنِ إلا فى دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ «لا يَأْمَنُ الدهرَ أنْ يُدْعَىٰ علىٰ عَجَل» ؛ ولا يَخْفىٰ عن ألْمَعِيَّته ما يُضْمِرُ الأعداءُ من الحركات قبلَ إظْهارها ، ولا يَبْعُد علىٰ عَزَماتِه ماهى مَلِيَّةٌ به من بِدَارِها أعْداءَ الدِّين

بدَارِها، وإذا جلس لنَشْر المَعْدِلَة تبرَّأ الظلم من فكر [ ](١) البغى والجَوْر على إنسان، وشَفَع ما تَصَدَّىٰ له من ذلك بمـا أَمَرَ اللهُ به من العَدْل والإحسان .

ولمـا كان الجناب العالى الفُلانىّ هو الذى مُلِئَتْ قلوبُ العِـدا بُرعْبِه، وٱنْطوتْ قلوبُ الرعايا علىٰ حُبِّه، وتَهلَّلتْ وجوهُ المُنَىٰ فى سِلْمِه وٱستهَلَّتْ سُحُب المنايا فى حَرْبِه، وجمع بين حِدَّةِ البَأْس ولُطْف التُّقَىٰ فكان هو الكَمِىَّ الذى شَفَع الشَّجاعةَ بالخُضوعِ لرَبِّه، وحَاطَ ماوَلِيَه من الأقاليم بسُورَىْ بأْسِه وعَدْلِه فبـات كلُّ أحَدٍ وَادِعًا فى مِهادِه آمِنًا فى سِرْبِه، وأغارَتْ سَرايَا مَهابَتِه قبل طُلوع طَلائِعه فأصْبح كلٌّ من العِدا أَسِيرَ الذُّعْر قبلَ إمْساكِه ـ قَتِيلَ الخوْف قبـلَ ضَرْبِه؛ مع ٱحْتفال بعِمارة البِلادِ، أعَان السُّحُبَ علىٰ رَيِّها، وٱشتمالٍ علىٰ مصالح العِباد، قام فى تَيْسِيرِ أرْزاقِهم مقامَ وَسْمِىِّ الغَمائم ووَلْيِها، وتَيَقُّظٍ لمصالح الثُّغورِ أنامَ عنها عيونَ الخُطوب، وإشراقٍ فى أُفُقِ المَوَاكِب كَسَا وجْهَ الدِّين نُورَ البِشْر ووَجْهَ الكُفْر ظلامَ القُطُوب .

وكانت المملكة الحَلَبِيَّـة عقيلَةَ المَعـاقِل، وعِصْمَةَ العَواصِم، ووَاسِـطَةَ عُقود المَمالك، وسِلْكَ فرائد النَّصْر التى كم أضاءَتْ بها إلى الكُفْر وجُوهُ المسالِك، لا تُدْرَكُ فى مِضْمار الفَخَار شَهْباؤُها، ولا تُرَىٰ إلا كما تُرى النجوم فى عيون العِـدا حَصْباؤُها؛ ولهـا من الحُصونِ المَصُونَةِ كلُّ قَلْعة يتَهَيَّبُ الطَّيْفُ سلوكَ عِقابِها، ويتقاصر لَوْحُ الجَوّ عن منال عُقابِها؛ فهى عَزِيزَةُ المَنالِ، إلَّا علىٰ كريم كَفاءَتِه، بعيدةُ مَجال الآمال، إلَّا علىٰ ما أَلِفَت من إيالة كِفايَتِـه، سامِيـةُ الأُفُق إلا علىٰ شَمْسِه، نَابِيـةُ الطَّرف إلا علىٰ ما عَرَفت من سلوكه فى أمْسِه، ظَامِيـةُ الغُروسِ التى أنْشأَها فى مصالحها إلىٰ ما ٱعْتادَتْه من سُقْيَا غَرْسِه ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أنْ تَزِيدَها إشراقًا بشَمْس

(١) بياض بالأصل .

جَلالِه ، وٱعتلاءً بسَيْفِه الذى رِياضُ الجَنَّة تحتَ ظِلالِه ؛ وأن نُعيدَ أمْرها إلىٰ من طالمـا حَسَّن عَدْلُه بُقْعتَها، وحصَّن بَأْسُه قَلْعتَها، وأطارت مَهابتُه سُمْعتَها، وأطالتْ سِيرتُه سُكُونَ رعاياها فى مِهادِ الأمْن وهَجْعتَها، وأعاد وُجودُه أحْوال مُجاوِرِيها من العِدا إلى العَـدم ، وأبَاد سَيْفُه أرْواح مُعانِدِيهـا : فلو أنْكَرتْه أعناقُهم لم يكن بالعَهْد من قِدَم .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زالتْ شَمسُ عَدْله ، مُشْرِقةً فى الوجود، وغَيْثُ فَضْله ، مستهِلَّ الجُود فى التَّهائم والنُّجود ـ أنْ تفوَّضَ إليه ... ... تفويضًا يُجدِّد ٱرْتفاعها ، ويُعمِّر وِهادَها وبِقاعَها، ويُؤيِّد ٱنْدِفاعَ مَضارِّها وٱنْتِفاعَها، ويُعيدُ الإشْراقَ إلىٰ مَطالِعِها ، والأُمُورَ إلىٰ مواقِعِها من سَدَادِ التدبير ومَواضِعِها، والإقْدامَ إلىٰ جُيُوشِها وأبْطالها [والشجاعة الى حماتها ورجالها] .

فلْيَطْلُعْ فى أُفُق مَواكِبِها طلوعَ نَعْته الكريم ، ويُجْرِ فى جَوانبِها ما أَلِفَتْه من موارِد عَدْله الذى فارقَها غَمامُه وأثرُ سَيْله مُقيم ؛ ويُعاوِدْ مصالِحَ تلك المملكةِ التى لا تصلُحُ أمورُها إلَّاعليه، ويُراجِعْ عِصْمةَ تلك العَقِيلةِ التى لاتطمَحُ أبْصارُ عَواصِمِها إلَّا إليه، ويُلْقِ فى قُلوبِ مُجاوِرِيها ذلك الرُّعْبَ الذى نَعَىٰ إلىٰ كلِّ منهم نَفْسَــه وأسْلاه عمّـا فى يَدَيْه؛ ويُثَبِّتْ تلك المهابةَ التى جعلتْ مَنايا العِدا براحَتِه يأْمُرها فيهـم ويَنْهاها ، ويَنْشُرْ فى الرعايا تلك المَعْدِلةَ التى هى كالشَّمْس : لا تَبْتَغى بمـا صَنعتْ مَنْزِلةً عندهم ولا جَاها ؛ ولْتَكُنْ أحْوالُ عدوِّ الإسْلام بمرأًى منه علىٰ عادته ومَسْمَع ، ويَكُفَّ أطماعَ الكُفَّار علىٰ قاعدته فلا يَحْدُثُ لهم إلىٰ شَيْمِ بَرْق الثُّغور مَطْمَحٌ ولا فى العَلَم بشَنَبِها مَطْمَع ؛ وليكنْ من أرصادِه، نَهارُ عدوِّ الدِّين ولَيْلُه ، ومن أمْدادِه، مَجازُ الجِهاد وحقيقَتُه فلا يبرحُ يُبَيِّتهم خَيالُه إذا لم تُصَبِّحْهم خَيْلُه ؛ ولا يبرحُ له من أعْيان عُيُونه

بين العدا فِرقةٌ ناجيــه، وطائفــةٌ بأسرار قُلوب القَوْم مُناجيــه، لتكونَ له مَقاتِلهم علىٰ طُول الأبَد بَادِيَه، وتَغْدُو مَنازِلُهم خاوِيَةً بين سراياهُ الرائحــة والغادِيَه. وليَتعاهَدْ أحْوالَ الجيوش بإدامةِ عَرْضِها، وإقامةِ واجبـاتِ القُوّة وفَرْضِها، وإطالة صِيتِ السُّمْعةِ المشهورةِ لكُماتِها فى طُولِ بلاد العِدا وعَرْضِها، وإزاحة أعْذارِها للرُّكوب، وإزالَة عَوائِق ٱرتيادها للوُثُوب، وإعْدادِ العُدَد التى لهـا من أيْديهم طلوعٌ و[فى] مقاتل أعْدائهم غُروب. وليَتفقدْ أحْوالَ الحُصونِ المَصُونة بسِدَاد ثُغُورِها، وسَدَاد أُمُورِها، وإزاحَةِ أعْذار رجالهـا، وإرهاف هِمَم حُماتِهـا التى تضيقُ علىٰ آمالِ العدا سَعَةُ مجالهـا، وتَوْفير ذخائرِها، وتَعْمير بواطِنها وظَواهِرِها، وتَحْصينِ مَسَالِكها التى يَرْهَبُ الخيالُ المتولى إلىٰ العيونِ سلوكَ مَحاجِرِها.

ولْيُعْلِ مَنـارَ الشَّرعِ الشريفِ بتَشْيِيد مناره وإحْكامِه، وتنفيذه لقَضايَا قُضاته وأحْكامِ حُكّامِه، والوُقوفِ فى كلِّ أمْرٍ مع نَقْضِــه فى ذلك وإبْرامِه، ورَفْعِ أقْدار حَمَلةِ العِلْم علىٰ ما ألِفوه من الرِّفْعــة والسُّموّ فى أيّامِه. ولْتَكُن وطْأةُ بأسِــه علىٰ أهل الفَساد مُشْتَدَّه، وأوامِرُه مُتَقَدِّمةً بوَضْعِ الاشـياء فى مواضعها: فلا تُوضَعِ الحِـدَّةُ موضعَ الأَنَاةِ ولا الأنَاة موضع الحِـدَّه. وليراعِ عُهودَ المُوادِعين مهـما استقاموا، ويجمع عليهم إن يَكُفُّوا أناملَ بأسِه التى هم فى قَبْضَتِها رَحلُوا أو أقامُوا، ولتخبر ألْسنةُ النيران بشَبِّها على اليَفَاع [والآكام] مَنْ قدم لمكيدة أو طعن بمَطَارِ الحَمَام ــ وجميع ما يتعلّق بهــذه المَرْتَبة السنية من قواعدَ فإلىٰ سالفِ تَدْبيره يُنْسب، ومن ســوابق تَقْريره وتَحْريره يُحْسَب، فهو ٱبن بَجْدَتِها، وفَارِس نَجْدَتِها، ومُؤَثِّل قواعدها، ومُوثِّر ماحُمِد من ٱمتداد عَضُدِها إلىٰ مصالحِ الإسلام وسَاعِدِها، فلْيَفعلْ فى ذلك ما يشكره الله والإسلام عليــه، ويُثبِّت الحجّةَ عند الله تعالىٰ فى إلْقاء المقاليد إليــه، وملاكُ

الوصايا تقوى الله وهى سجيّة نَفْســه، وثمرة ما اجْتنىٰ فى أيام الحيـاة من غَرْسه، ونَشْرُ العَدْل والإحسان فيهما تظهرُ مَزِيّة يَوْمه الجميلِ علىٰ أَمْسه؛ والله تعالىٰ يجعل نِعَمَه دائمة الاستقبال، وشمسه آمنة من الغُروب والزّوال؛ والاعتماد ... ... :

الطبقة الثانيـــة

(من يكتب له فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفـــة الأولىٰ

(نيابة القَلْعَة بها)

وهذه نسخةُ مَرْسُومٍ شريفٍ بنيابة قَلْعة حَلَب :

الحمدُ لله مُعْلِى قَدْرِ من تحلّىٰ بالأمانة والصَّوْن، ورافعِ مكانةِ من كان فيما عَرَض من العَوارِض نِعْم العَوْن؛ ومُؤهِّلِ من أَرْشَدَنا إليه للاجْتِباءِ حسنُ الاختبار، ومُبلِّغ الإيثار من شُكِرَتْ عنه محامدُ الآثار .

نحمَده حمدَ الشّاكرين، ونَشْكره شكرَ الحامدين؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِص فى اعتقاده، مُبرَّإٍ من افتِراء كلِّ جاحدٍ وإلحادِه؛ ونشهد أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أرسله بالحقّ بشيرًا ونذيرا، وأيّده بسُلْطانٍ منه وطَهَّر[به] الأرضَ من دَنَسِ الضَّلالِ تَطْهيرا، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يزال علَمُ العِلْمِ بها مَنْشورا، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ العنايَةَ بالحصُون تُوجب أن لايُختارَ لهـا إلا من هو مَلِيٌّ بحفْظها، مُوفَّرٌ[لها] من حُسْن الذَّبِّ غايةَ حَظِّها؛ حسَنُ المُرابَطَه، مبرَّأٌ من دَنَس الأفعال

السّاقطَه، ذو قَلْبٍ [قوىّ] وقَالِب، وعَزْمٍ مازال لمهمات الأمور أشجع مُغالِب، إذْ هو للمُرابِطين بها أوْثقُ حِرْزٍ حَرِيز، وأصْوَنُ حِجابٍ لمُبارَزة ذَوِى التَّبريز، [فتصبح به] مستورا عَوارُها، كاتمةً لأسْرَارِها أسْوارُها، تخاطب مُنازِلِيها من مَجانيقها بأبْلغ لِسان، وتُشافهُ مُلَاجِيها من أنَفةِ أنْفِها إلا أنه بأعلىٰ مكان .

ولمـا كانت القلعةُ الفلانية بهذه المَنْزِلة الرَّفيعه، والمكانَةِ التى كلُّ مكانَةٍ بالنِّسْـبة والإضافة إلىٰ عُلُوِّ مكانها المكانَةُ الوَضيعَه ـ اخْتَرْنا لهـا وَابْتَغَينا، وَاسْتَوْعَبنا بالتَّأهيل لنيابتها ولم نترك فى اسْتِيعابِنا ولا أبْقَيْنا ، فلم نَجِدْ لولايَتِها كُفْأً إلا من نُظِمَتْ عُقود هذا التَّقْليدِ لتَقْليده، ورُتِّلَتْ سُوَرُ هذه المحامِدِ بمُبْدِئِ لسان تَقْريظه ومُعِيده، إذ هو أوْثَقُ من يُلْقىٰ إليـه إقْليدُها ، وأكْفأُ من يُنْجِزُ به مَوْعُودُها ، إذ كان المَكِينَ ، والثِّقَةَ المُتَحَلِّىَ إذ كان التحلّى ممـا يَزِينُ العاطِلَ المَشِين، إن ذُكِرَ الرَّأىُ فهو المتَّصفُ بسَدِيده، أو العَزْمُ فهو الموسُومُ بشَدِيده، أو التَّثَبُّتُ فهو من صِفة شَجاعَتِه، أو حُسْنُ المُظافَرة فهو الباذل فيها جُهْدَ استطاعته .

ولمـا كانت هذه المناقبُ مَناقِبَه، وهذه المَذاهِبُ مَذاهِبَه، رُسم بالأمر الشّريف العالى ـ زاده الله مَضاءً ونَفاذا ، وَاسْتِحْواءً وَاسْتِحْواذا ـ أن تفوّضَ نيابة السَّلْطنة بالقَلْعة الفُلانيَّـة وما هو منسوبٌ إليها من رُبُضٍ ونَواحٍ، وقُرًى وضَواحٍ ، للمجلس السَّامى فُلان .

فلْيَرقَ إلىٰ رُتبتِها المُنيف قَدْرُها، المُهِمّ سِرُّها وجَهْرُها، ولْيَكُن من أمْرِ مصالحها علىٰ بَصِـيرَه ، ومن تَفَقُّدِ أحْوالهـا علىٰ فِطْنةٍ مازالت منـه مَجْبُورَه ، ولْيأخُذْ مُحْرِزَها من الجُنْـد وغيرِهم بالمُلازمَة لمـا عُدِق به من الوظائف ، ويتَقَدَّمْ إلىٰ واليهـا مع طَوَّافِهـا أوّل طائف، ولْيتفقّدْ حواصِـلَها من الذَّخائر، ووَاصِلَها من التبْـذير بمن

يرتِّبه علىٰ حفظها من الأخاير، ومهما عَرَضَ يُسْرِعُ بالمطالعة بأمْره، والإعلام بنَفْعه وضَرِّه .

هذه نُبْذَةٌ كافيةٌ للوثُوق بكفايته، والعِلْم بسَديد كفالتِه ؛ والله تعالىٰ يحسن له الإعانَه، ويجزل له الصِّيانَه ؛ والخط الشَّريف أعْلاه ... ... :

الوظيفة الثانية
(شدُّ الدَّواوين بحَلَب)

وهذه نسخةُ توْقيع بشدِّ الدَّواوين بحَلَب :

الحمدُ لله الذى أرْهف فى خِدْمة دوْلتِنا كلَّ سَيف يزْهَى النَّصرُ بتَقْليده ، ويُرْوىٰ نبأُ الفتْح عن تَجْربَته فى مصالح الإسلام وتَجْريده، ويَرْوىٰ حَدُّه إذا قابله عَدُوُّ الدِّين من قُلُب قَلْبه ومَوارِدِ وَرِيده .

نحمدُه علىٰ نِعَمه السابغة حمدَ متعرِّض لمزيده، ونشكره علىٰ مِنَنه السَّائغة شكرَ مستَنْزِل موادِّ تأْبيده، ونشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مُقرٍّ بتَوْحيده، مُسِرٍّ مثل ما يُظْهِرُ من الخضوع لكِبْرياءِ تَقْديسه وتَمْجيده، مُصرٍّ علىٰ جهادِ من ألْحَدَ فى آياته بنَفْسه وجُنُوده ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشْرفُ من دعتْ دعْوتُه الأُمَمَ إلىٰ الاعتراف بخالقها بعد جُحُوده، وأنجزَ لأُمَّته من الاستيلاء علىٰ الكُفْر سابِقَ وُعُوده، وأمالَ به عَمُودَ الشِّرْك فأهْوىٰ إلى الصَّعيد بعد صُعُوده؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من بَذَل فى طاعة الله وطاعته نِهايةَ مجْهوده، وأطْفأ نارَ الكُفْرِ بعد وُقُودها بإيقادِ لَهَبِ الجهاد بعد خُمُوده ؛ صلاةً تقترن بركوع الفَرْض وسُجُوده، وتُقامُ أرْكانُها فى أغْوارِ الوجود ونُجُوده؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإنّ أولى ما أجملنا فى مصالحه النّظر، وأعملنا فى ارتياد الأكفاء له بوادر الفكر؛ واخترنا له من الأولياء من كان معدودا من خواصّنا، محبوّا بمزيد تقريبنا ومزيّة اختصاصنا، أمرُ الأموال الدّيوانيّه بالمملكة الحلبيّه وتفويضُ شدّ دواوينها المعمورة إلى من تضاعفها رتبته المكينه، ونزاهته المتينه؛ ويده التى هى بكمال العفّة مبسوطه، وخبرته التى بمثلها يحسُن أن تكونَ مصالحُ الدولة القاهرة منوطه؛ ومنزلته التى تكفّ عن الأموال الأطماعَ العاديه، ومهابته التى تكفى الأولياءَ من ضبط الأعمال بما يروى الآمالَ الصّاديه؛ لأنّها موادُّ الثّغور التى ما برحت عن شنب النّصر مفترّه، وأمدادُ الجيوش التى جعل الله لها أبدًا على أعدائه الكرّه؛ ورياضُ الجهادِ التى تجتنى منها ثمراتُ الظّفر الغضّه، وكنوزُ المُلك التى ينفق منها فى سبيل الله القناطيرَ المقنطرة من الذّهب والفضّه.

ولما كان فلانٌ هو الذى اخترناه لذلك على علم، ورجّحناه لما اجتمع فيه من سرعة يقظة وأناة حلم؛ وندبناه فى مهمّاتنا الشريفة فكان فى كلّ موطن منها سيفا مرهفا، واخترناه فكان فى كلّ ما عدقناه به بين القوىّ والضّعيف منصفا؛ وعلمنا من معرفته ما يستثير الأموال من مكامنها، ومن نزاهته ما يظهر أشتات(؟) المصالح من معادنها، ومن معدلته ما يمتّع الرعايا باجتناء ثمر المنى من إحسان دولتنا القاهرة واجتلاء محاسنها - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نحلّى جيد تلك الرتبة بعقود صفاته الحسنه، وأن ننبّه على حسن هممه التى ما برحت تسرى إلى مصالح الدولة القاهرة والعيونُ وسنه.

فلذلك رسم أن يفوّض إليه ذلك تفويضًا يبسط فى مصالح الأموال لسانه ويده، ويقصر على مضاعفة ارتفاع الأعمال يومه الحاضر وغده، ويحسّن بسدّ الخلل

وتَتَبُّع الإهمال مَصْدَره الجميلَ ومَوْرِدَه ، ويجعل [له] فى مصالحها العَقْدَ والحَلّ ، والتَّصَرُّفَ النافذَ فى كلّ مادقّ من الأموال الدِّيوانية وجَلّ .

فليُباشِرْ ذلك بهِمّةٍ علِمْنا فى الحق مَواقِعَ سَيْفِها ، وأَمِنّا على الرعايا بما اتّصفَتْ به من العدل والمعرفة من مواقع حَتْفِها ، وأيقظتِ العيونَ الطّامحةَ لسلوك ما [لا] يجب بما لم تزلْ تَتَخَيَّلُه من روائع طَيْفِها ، وليُثمِّر الأموالَ بالجمع فى تحصيلها بين الرَّغْبة والرَّهْبه ، ويجعلْ مايَستخرِجُ منها ببركة العِفّةِ والرِّفق : ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ . وليُعَفِّ أثرَ الحمايات ورَسْمَها ، ويُزِلْ بالكلّية عن تلك الممالك الحَسَنة وَسْمَها القَبيحَ واسْمَها ، وليكُنْ مُهِمُّ الثغورِ هو المُهِمَّ المقدَّمَ لديه ، والنَّظَرُ فى كُلَف القِلاع المحروسةِ هو الفَرْضَ المتعيِّنَ أداؤُه عليه ، فيحْمِلُ إليها من الأموال والغِلال مايَعُمُّ حواصلَها المَصُونَه ، ويكْفِي رِجالَها الفِكْرَ فى المَئُونَه ، ويضاعِفُ ذخائرَها التى تُعَدّ من أسْباب تَحْصِينها ، ويُصْبِح به حَمْلُ عامِها الواحدِ كِفايةَ مايستقبلُه مع موالاةِ الحُمول من سِنِينها ، وماعدا ذلك من الوصايا فقد أَلْقينا إلى سَمْعِه ما [عليه] يعتمد ، وعَرَّفْناه أنّ تقوى الله أوفَى مابه يَسْتَبِدُّ وإليه يَسْتَنِد ، بعد الخط الشَّريف :

الصنف الثانى

(من أرباب الوظائف بحَلَب ــ أَرْبابُ الوظائف الدِّينية)

وهم على طبقتين أيضا :

الطبقة الأولى

(من يُكْتب له فى قَطع الثلث بـ«السّامىّ» بالياء ، وتشتمل على وظائف)

منها ــ قَضاء القُضاة . وبها أربعة قُضاةٍ : من كل مذهب قاضٍ ، كما فى الديار المِصْرية والشّام . والشافعىُّ منهم هو الذى يولّى بالبلاد كما فى مِصْر والشّام .

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الشّافعية :

الحمد لله الذى رفع منارَ الشّرع الشريف وأقامه، ونَوّر به كلّ ظلامٍ وأزال به كلّ ظُلامه، وجعله صِراطًا سَوِيًّا للإسلامِ والسّلامه؛ الذى جعل القُضاة أعْلامًا، بهم يُهتدىٰ، ونَصَبهم حُكّاما، بمراشدهم يقتاد ويُقتدىٰ، وأخذَ بهم الحقّ من الباطل حتّى لا يُعتَلّ فى قَضيّةٍ ولا يُعتدىٰ؛ والصّلاة علىٰ سيدنا محمد الذى أوضح الله به الطّريق، وأبدىٰ به بين الحلال والحرام التّفريق، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَكفل لرغَبَات قائلها بالتّحقيق .

وبعدُ، فإنّ أحقّ ما وَجّهت الهِمَمُ إلىٰ تصريفه وجْهًا مُسْفِرا، وقربتْ إلىٰ يَدِ الاقتطاف من شجرته المباركة غُصْنا مُثْمِرا، وسَهّدت[1] فى الاختيار له والاصطفاء لَحْظًا ما زال للفِكْر فى مصالح الأُمّة مُسْهِرا ـ الشرعُ الشريفُ الذى حرس الله به حَوْمَةَ الدّينِ وحَمىٰ جانبَه، وحَفِظ به أقوالَ الهُدَى عن المجادلة من المُبْتَدِعين وأطْرافَه من المُجاذَبَه؛ وكانت حِراسَتُه معدُوقةً باختيار الأئمّة الأعْلام، ومَوْقوفةً علىٰ كلّ مَن يُطاعِنُ البِدَعَ عند الاستفتاء برِماح الخطّ وليست رماحُ الخطّ غيرَ الأقلام؛ ومُصَرّفةً إلىٰ كلّ مُنصِف فى قضاياه حتّى لو ترافعت إليه اللّيالى لأنْصفها من الأيّام .

ولمّا كان فلانٌ هو مَدْلولَ هذه العِبارَه، ومُرْتَمَىٰ هذه المَشارَه، ومُرْتَمَق هذه الإشارَه؛ وقد حَلّ من المَمادح فى محل صَعْبِ المُرْتَقىٰ علىٰ مُتَوَقّله، وطلع من منازل سعودها فى بُرُوجٍ بَعيدَةِ الأوْجِ إلا علىٰ سَيْر بَدْره وتَنَقّله ؛ وطالما حَكَم فأحْكَم ؛ وفَصَل فَفَصّل ؛ ورُوجِع فما رَجَع وعدَل فعدّل ؛ وشهدت مراتبُه الشريفةُ بأنّه خير من تَولّها ميراثا واستحْقاقا، وأجَلّ مَن كادت تَزْهُو به مَطالعُ النجوم إشْراقًا وإشراقا؛ وكانت حَلَبُ المحروسةُ مركزَ دائرة لأيّامه، وسلك جوهر تصريفه الذى

(١) فى الأصل «وصلت» ولم نفهم له معنى يناسب .

طالما تقلدت أحسن العقود بنظامه، وقد آفتخرت به آفتخارَ السماء بشمسها، والرَّوْضة بغَرْسها، والأفهام بإدراك حِسّها، والأيام بما عَمِلته من خير فى يومها وأسلفته فى أمسها، وقد آشتاقت إلىٰ قربه شَوْقَ النَّفس إلىٰ تردّد النَّفَس، واللَّيلة إلىٰ طلوع النَّجم أوّلا وإلىٰ إضاءة القَبَس .

فلذلك خرج الأمرُ الشَّريفُ بأن يُجدّد له هذا التوقيعُ بالحكم والقضاء، بالمملكة الحَلَبِيَّة وأعمالها وبلادها، علىٰ عادته .

فلْيَستَخِرِ الله تعالىٰ ولْيَستصحِبْ من الأحكام ما هِمّتُه مَلِيَّةٌ باستِصحابِه، ويَستوعِبْ من أُمُورها ماتتوضح المصالحُ باستيعابه، ويُقِمْ بها مَنارَ العَدل والإحسان، ويَنهَضْ بتدبير ما أقعدَه منها زَمانَةُ الزَّمان . وعنده من الوصايا المباركه، مايستَغْنِى به عن المُساهَمة فيها والمُشارَكه، لكن الذِّكرَى النافعةُ عند مِثْله نافقه، فإن لم يكن شُعاعُ هِلالٍ فبارِقه، وليَتّقِ الله ما آستطاع، ويُحسِنْ عن أموال اليتامىٰ الدِّفاع، ويحرُسْ مَوجودَ من غاب غَيبَةً يجب حِفْظُ ماله فيها شرعا، ويَقْطَعْ سَبَبَ من رام لأسباب الحقِّ قَطْعا، ولا يراع لحائفٍ حُرْمَةً فإنّ حُرمات الحائفين لا تُرْعىٰ، ويَنْظُرْ فى الأوقاف نَظَرا يحرُسُها ويَصُونُها، ويبحثْ عنها بَحْثًا يَظْهَرُ به كَمِينُها، والله تعالىٰ يسدِّدُه فى أحكامه بمنه وكرمه ! .

قلتُ : وعلىٰ ذلك تُكتَبُ تواقيع بقية القُضاة بها من المذاهب الثلاثة الباقية .

ومنها ـ وَكالةُ بيْتِ المال المعمور .

وهذه نسخة توْقيع من ذلك، كُتب بها لمن لقبه « كمال الدِّين » وهى :

الحمدُ لله الذى جعل كمالَ الدِّين موجودا، فى آقتران العِلْم بالعَمَل، وصلاحَ بَيْتِ المال مَعْهودا، فى استناده إلىٰ مَن ليس له غير رضَا الله تعالىٰ و براءة الذِّمة أمَل،

وٱرْتقاءَ رُتَبِ المتَّقين مقصورًا علىٰ من بارتقاءِ مِثْلِه من أئمّة الأمَّة تزهىٰ مناصبُ الدُّول، والاكتفاءَ بالعلماء مَحْصُورًا فى الآراء المَعْصُومة بتوفيق الله من الخَلَل .

نحمـدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت مُهِـمَّ مصالح الإسلام، مُقَدَّمًا لَدَيْنا، وٱختصاصَ المَرَاتب الدِّينية بالأئمّة الأعْلام، مُحَبَّبًا إلينا؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً رفَع الجهادُ عَلَمها، وأمضىٰ الآجتهادُ كَلِمَها؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أشْرقتْ سماءُ مِلَّتِه، من علماء أُمَّتِه، بأضْوا الأهِلَّه، ونطقتْ أحْكام شِرْعَته، علىٰ ألسِنَة حَمَلَة سنَّته، بأوْضح الأدلَّه، و بزغتْ شمسُ هِدايَتِه فى تهائم الوُجود ونُجُودِه فانطوت بها ظُلَمُ الأهواءِ المُضِلَّه ؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نصحوا لله ولرســوله ، وآثروا رضاه علىٰ نفوسهم فلم يكنْ لهم مُرادٌ سوىٰ مُراده ولا سُولٌ غير سُولِه ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تَلَقَّـاه كرَمُنا بوَجْه إقباله ، وٱختارتْ له آلاؤنا من الرُّتَبِ ما صدّه الإجْمال فى الطَّلبِ عن تَعَلُّقه ببَالِه ؛ ورأىٰ إحسانُنا مكانَه من العِلْمِ والعَمَل فعَـدَق به من مَصالح المسـلمين مالم يترُكه أوّلًا إلّا موافقةً له لا رَغْبةً عن خَيالِه ، ورَعىٰ بِرُّنا وِفَادَتَه فاقتضى إعادته من مَناصِبه إلىٰ مالم يَزَلْ مُشْرِقَ الأُفُق بكمال طَلْعته وطَلْعـة كماله ـ مَن ظهرتْ لَوامِعُ فوائده ، وبهرتْ بدائعُ فرائده، وتدفَّقتْ بحارُ فَضائِله ، وتألَّقتْ أشِعَّة دلائله ؛ وتنَوَّعتْ فُنُونه : فهو فى كلِّ عِلْمٍ آبنُ بَجْدَتِه ، وفارسُ نَجْدَتِه ، وحامِل رايَتِه ، وجَوادُ مضماره الذى تَقِفُ جيادُ الأفكار دُون غايته .

ولمـا كان فلانٌ هو هذا البحرَ الذى أُشير إلىٰ تَدَفُّقه ، والبدْرَ الذى أُومِئَ إلىٰ كمال ما تألَّق به من أُفُقِه ؛ وكانت وكالَة بيْتِ المـال المعمورِ بحَلَب المحروسةِ من المناصب التى لايتعيَّنُ لها إلا من تُعقَدُ الخناصر عليه ، ويُشارُ ببنَان الآختِصاص إليه ، ويُقْطَعُ

بجميل نُهوضِه فيما يُوضَع من المصالح الإسلامية بيَدَيْه ؛ وله فى مباشرتها سَوابِق ، وآثارٌ [إن] لم تَصِفْها ألْسِنَةُ الأقْلام أوْحتْ بها تلك الأحْوالُ الحاليةُ وهى نَواطِق - آقتضتْ آراؤُنا الشريفَـةُ إنْعام النَّظَر فى الإنعام عليـه بمكانٍ ألِفَه ، ومَنْصِبٍ رَفَع ما أسْلفه فيه من جميل السِّيرة قدرَه عندنا وأزْلَفَه .

فرسم بالأمر الشريف - لازال بَابُه ثِمالَ الآمال ، وأُفُقَ السَّعْدِ الذى لَو أَمَّهُ البَدْرُ لَمَا فارق رُتَبَ الكمال - أنْ يفوّضَ إليه كذا : لما ذكر من أسْبابٍ عَيَّنَتْه ، وفَضائِلَ تَزَيَّنَتْ به كما زَيَّنَتْه ، ووِفَادَةٍ تقاضَتْ له نُزُلَ الكرامَه ، واقتضتْ له مواد الإحسان ومواردَه فى السُّرَىٰ والإقامَه .

فلْيَلِ هذه الرتبـةَ التى علىٰ مِثْله من الأئمَّة مَدَارُ أمْرِها ، وبمِثْل قُوَّتِه فى مصالحها يتضاعَفُ دَرُّ آحْتِلابِها ويترادفُ آحتلاب دَرِّها ؛ مُراعِياً حقوقَ الأُمَّة فيما جرّه الإرْثُ الشرعىّ إليهم ، مُناقِشًا عن المسلمين فيما قَصَره مذْهَبُه المُذْهَبُ من الحقوق المَالِيَّة عليهـم ؛ وَاقِفًا بالحقِّ فيما يثْبُت بطَرِيقِه المُعْتَبَر ، تابِعًا لحكْمِ الله فيما يختلف سبيله [و]فيما يحترز بالعِيانِ أو يُحَقَّقُ بالخَبَر ؛ مُحافِظًا علىٰ مايَئُول إلىٰ بيْتِ المال بلُطْفِ تَدْقِيقِه ، وحُسْنِ تَحْقِيقِه ، وقَبولِ الدَّافِع بوجْهِه ودَفْعِـه بطَرِيقِه ؛ ولا يَمْنَعُ الحَقَّ إذا ثبت بشروطه التى أعذر فيها ، ولا يَدْفَع الواجب إذا تعيَّن بأسْبابِه التى يتقاضاها الشَّرْعُ الشَّرِيفُ ويقْتَضِيها ؛ وهو الوكِيل عن الأُمَّة فيما لهم وعليهـم ، ومتولِّى المدافَعـة عنهم فيما يُقِرُّه الشرعُ فى يَدَيْهم ؛ فلْيُؤَدِّ عنهم أمانَةَ دينـه ، ويجْتهِدْ لهم فيما وضعناه من أمْرِ هذه الوكالة الشريفة بيَمِينه ؛ ومِلاكُ هذا الأمْرِ الوقوفُ مع الحَقِّ الجلِىّ ، والتَّمسُّكُ بالتَّقْوى التى تظهر بها قُوَّةُ الأمِين وأمانَةُ القَوِىّ ؛ والله تعالىٰ يوفِّقه ويسـدِّده .

قلتُ : وفى معنىٰ ما تقدّم من قَطْع الورق والألقاب الحسبةُ ، ونظرُ الأوْقاف الكِبَار، وخَطابَةُ الجوامع الجليلة، وكِبَارُ التَّدَارِيس، وما يجرى مجرىٰ ذلك : إذا كُتِب به من الأبْواب السُّلطانيـة . و إلّا فالغالبُ كِتابةُ ذلك جَمِيعِـه عن نائب السَّلْطنة بها .

الطبقـــة الثـانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة «بالسامى» بغير ياء، أو «بمجلس القاضى»)

قال فى "التثقيف": وهم مَن عَدا القضاة الأرْبعة من [أرباب] الوظائف الدينية. فيدخلُ فى ذلك قَضاءُ العَسْكر، و إفْتاءُ دار العَدْل ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ، حيثُ كُتِب من الأبواب السلطانية .

الصـــنف الثـالث

(من أرباب الوظائف بحَلَب ـ أرْباب الوظائف الديوانية، وهــم علىٰ طبقتين)

الطبقـــة الأولى

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ«السامى» بالياء . وتشتمل علىٰ وظائف)

منها ـ كِتابة السرّ. ويعبَّر عنها فى دِيوَانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية ـ بصاحب دِيوانِ المُكاتَبات، ورُبَّمـا قِيلَ : صاحبُ ديوان الرسائل . قال فى "التثقيف" : ورُبَّما كُتب له فى قَطْع النِّصف .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك، وهى :

الحمدُ لله الذى زان الدّولةَ القاهرةَ، بمَن تغدو أسرارُها من أمانته فى قرارٍ مكين، وحلّىٰ أيّامنا الزاهرةَ، بمن تبدُو مَراسِمُها من بلاغته فى عِقد ثمين، وجمّل الكُتب السائرة، بمَن إذا وشّىٰها بَراعتُه ويَراعتُه قيل : هذا هو السِّحْر البيانىّ إن لم يكن سِحْرٌ مُبين .

نحمدُه علىٰ نِعمه التى خصّت الأسرار الشريفة بمن لم يرثها عن كَلالة، ونصّت فى ترقّى مناصبِ التّنفيذ علىٰ من يستحقُّها بأصالةِ الرأى وقِدَمِ الأصالة؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لاشريكَ له شهادةً رقَم الإخلاصُ طُروسَها، وسَقَى الإيمانُ غُروسَها؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى آتاه جوامعَ الكَلِم، ولَوامعَ الهُدىٰ والحِكَم؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كتَبَ فى قلوبهم الإيمان، وكبَتَ بهم أهلَ الطُّغيان؛ صلاةً يشفَعُها التّسليم، ويتبعُها التّعظيم؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولىٰ الرُّتَبِ بارتيادِ مَن تُعقَدُ علىٰ أولويّته الخناصر، ويُعتَمدُ علىٰ أصالته التى ما برِحتْ فى الاتّصال والاتّصاف بها ثابتةَ الأواصر؛ ويعتقَدُ فى أمانته التى تأوِى بها الأسرارُ إلىٰ «صخرةٍ أعيا الرِّجالَ انصداعُها» ويعتضَدُ بفضائله التى يقِلُّ فى كثير من الأكفاء اجتماعُها؛ ويعوّلُ فيها علىٰ بلاغته، التى أعطتْ كلَّ مقامٍ حقّه من الإطْنابِ والإيجاز، ويرجعُ فيها إلىٰ بديهته، التى جرتْ بها سوابقُ المعالى إلىٰ غاية الحقيقةِ فى مِضمار المجاز — رُتْبةٌ هى خِزانةُ سِرِّنا، وكِنانةُ نهيِنا وأمرِنا؛ فلا يتعينُ لبلوغها إلّا مَن ومَن، ولا يعين لتلقّيها وترقّيها إلّا أفراد قلّ أنْ يكثرَ مثلُهم فى زمَن؛ ولا يحسُنُ أنْ تكونَ إلّا فى بيتٍ عريقٍ فى أنسابها، وثيقٍ فى تمكّنِ عُرا أسبابها، علم بقواعدها التى إذا اشتبهت طُرُقُ آدابها كان أدرىٰ بها .

ولما كان فلانٌ هو الذى ذُكِرت أسباب تعيّنه لهذه الرُّتبة وتعيينه ، وفُتحت أبواب أَوْلويّته بتلقّى راية هذا المنصب بيمينه ؛ مع أدواتٍ كَمَّلت مفاخره، وصفاتٍ جَمّلت مآثره، وكتابةٍ ، إذا جادت أنواؤُها أرض طِرسٍ أخذت زُخْرُفها، وإذا حاذت أنوارُها وجهَ سماءٍ وَدّتِ الدّرارِىُّ لو حكت أحرُفَها ؛ وبلاغةٍ ، إن أطرت بوصف أغارت الفرائد، وأعارت دُرَرَها القلائد، وأتت من رقّة المعانى بما هو أحسنُ من دُموعِ التّصابى فى خُدودِ الخرائد، وإن أغرت بعدوٍّ أعانت على مقاتِله السُّيوف، ودلّت على مكامنه الحُتوف ؛ ودِيانةٍ، رفعته عند الله وعندنا إلى المكان الأسنى ، وصيانةٍ ، جمعت له من آلائنا وٱعتنائنا بين الزّيادة والحُسنى ؛ وأمانةٍ ، أغنته بجوهرِ وصفها الأعلى عن التّعرّض إلى العرَض الأدنى ، وبراعةٍ ، ٱعتضد بها يَراعُه فى بُلُوغ المقاصد ٱعتضادَ الرَّقْص بالمَغنى .

فلذلك رُسم بالأمر الشّريف أن يفوّض إليه كذا فلْيُبْشِر بتلقّى هذا الإحسان، بيد الٱستحقاق ، ولْيتلقَّ عقودَ هذا الٱمتنان، الذى طالما قلّد نحره الأعناق ؛ ولْيُباشر ذلك مباشرةً يسرّ خُبرُها ويَسْرى خَبَرُها ، ويَشنف الأسماع تأثيرُها وأثرُها ؛ ولْيسلُكْ فيها من السَّدادِ، ما يُؤكّد حمْده، ومن حسن الٱعتماد، ما يُؤيّد سعْده ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها خبيرٌ عليم ، حائزٌ منها أوفرَ الأجزاء وأوفى التّقسيم[(١)] ؛ ومِلاكُها تقوى الله فلْيجعلْها عُمدَته، وليتّخذها فى كلّ الأمور ذخيرته ؛ والله تعالى يضاعفُ له من لدُنّا إحسانا ، ويرفع له قدْراً وشانا ؛ والٱعتماد فى ذلك على الخطّ الشّريف أعلاه الله تعالى أعْلاه .

ومنها ــ نظر المملكة الحلبيّة القائم مقام الوزير .

---

(١) فى الاصل : وأوفى التقصير، ولا معنى له .

وهـذه نسخة توقيع من ذلك : كُتِب به لعماد الدِّين « سعيد بن ريان » بالعَوْد إليها ، وهى :

الحمدُ لله رافعِ قَدْرِ مَن جعل عليه آعتمادا ، ومُجَدِّدِ سَعْدِ مَن غدا فى كُلِّ مايُعْدَقُ به من قواعد النَّظرِ الحَسَنِ عِمادًا ، ومُسَنِّى حَمْدِ مَن تكَفَّلَ له جميلُ التَّصرُّف أن لا تُبْعِدَ الأيامُ عليـه مُرادا ، ومُجزِلِ موادِّ النِّعم لمَن إذا آستمْطر قلَمَـه فى المصالح همىٰ فافتنَّ أفنانًا وأينع تَمْيِرًا وأثمر سَدادا ، وإذا أيقظ نظَرَه فى مُلاحظَةِ الأعمال آستجْلىٰ وجُوهَ المصالح آنتقاءً لِمـا خَفِى منها وآنتقادا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى لا تزالُ النِّعمُ بها مُجَدَّدَة ، والقواعدُ مُوَطَّدة ، والكرمُ مُعادا ؛ وآلائه التى جعل لهـا الشُّـكرَ آزديادا علىٰ الأبَدِ وآزديادا ؛ ومِنَنه التى لا يقومُ بهـا ولا بأداءِ فَرْضِها الحمْـدُ ولو أنَّ ما فى الأرض مِنْ شَجَرةٍ أقلامٌ أو كان البَحْرُ مِدَادا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً لا تألُو هِمَمُنا آجتهادا فى إعْلاءِ منارِها وجِهادا ، ولا تَكْبُو جيادُ عَزائِمِنا ، دُون أن تُسْكِنَها من الجاحِدين قُلوبًا وتُجرِى بها من المنْكِرين ألْسِنةً وتُقلِّدَها من المشركين أجْيادا ، ولا تَنْبُو صَوارِمُنا ، حتّى تتّخِذَ لهـا من وَرِيدِ كلِّ مُعانِدٍ مَوْرِدًا ومن قِمَمِ كلِّ نا كِثٍ أغمادا ؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبـدُه ورسوله الذى أسْرى اللهُ به إليه فبَلغ فى الآرتقاء سَـبْعًا شِدَادا ، وأنزل عليه أشرفَ كُتُبِه بيانًا وأعْجزها آيةً وأوْضَحها إرْشادا ، وبعثَه إلىٰ الأحمر والأسْـوَد فسَعِد من سَعِد به إيمـانًا وشَقِىَ من شَقِىَ به عِنادا ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين لم يألَفُوا فى طاعة الله وطاعتـه مِهادا ، صلاةً لا تستطيعُ لهـا الدُّهور نَفَادا ، ولا تمَلُّها الأسْماعُ تَعْدادًا وتَرْدادا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإن أَوْلىٰ من سَمَا به منْصبُه الذى عُرِف به قديما، وزَهِيَتْ به رُتبتُه، التى لم يزلْ فيها لاقْتناءِ الشُّكرِ مُسْتديمـا ؛ وتحلَّتْ به وظيفتُه، التى لم يبرحْ يلْبَس بها ثَوْب الثناء قَشيبًا ويجرُّ بها رِداءَ السَّعد رَقِيما، وتقاضَتْ له عوارِفَنا معارفُه التى لم يزلْ عقدُها فى جِيدِ المراتب السَّنِيَّةِ نَظِيما ؛ وتطلَّع إليـه مكانُه فكأنَّه بقدم هِجْرتِه لم يبرحْ فيه وإن بعُدَ عنه مُقِيما ـ من لم يزَلْ قلمُه بصَرْفه فى أسْنىٰ ممـالكنا الشَّريفـةِ كاسْمِه سَعيدا، وطَرْف نَظرِه فيما يَلِيـه من المناصب السَّنِيَّة يُرِيه من المصالح ما كان غائبـا ويُدْنِى إليـه من أسْباب التَّدْبير ما كان بعيدا ؛ فمـا أعْمل فى مصالح الدولةِ القاهرةِ قلمًـا إلا وأقبلتْ نحوَه وجوهُ الأمْوال سافِرَه ، ولا لحَظَ فى مُهمَّات وظائفها أمْرًا إلَّا وعاوَدَتْه أَسْـبابُ التَّثمير النافِرَه ، ولا آعترضَ[1] قلمُـه بنُطْقِه وفِكْرِه إلَّا وغدَت الثلاثةُ علىٰ كلِّ ما فيه عِمارةُ ما يُفوَّض إليه من الأعمال مُتضافِرَه ؛ وذلك لِمـا آجتمع فيـه من عِفَّةِ نَفْسه وكمال معرفته وطهارة يَراعِه ، وآتَّصف به من حسن اضْطِلاعه وجميـل آطِّلاعه ، وجُبِلَتْ عليه طباعُه من نَزاهَةٍ زانت خِبْرته ومَنَّ يُنَقَلُ مشكورا عن طباعه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى حَنَّت إليـه رُتبته وتَلَفَّت إليه مَنْصِبُه ودَعَتْه وظيفتُه النَّفيسـةُ إلىٰ نَفْسها ، وآعتذرتْ بإقبالها إليه فى يَوْمِها عن نُشُوزِها عنه فى أمْسِها ، وآشْتاقتْ إلى التَّحلِّى بفضائله التى لم تزلْ تُزْهىٰ بما ألِفَته منها علىٰ نُظَرائِها من جِنْسِها ـ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُجمِّل لها عادتَها ونُجدِّدَ له من الإحسان بمباشرتها السَّعيدة إعادَتَه ، ونُعيدَ إليه بمباشرة نَظرِه الجميل مَسرَّته التى ألِفَها وسعادَتَه .

فلذلك رسم ... ـ لا زال بِرُّه لعِماد الدِّين رافعا ، وأمْرُه بالإحسان شافعا ـ أن يفوَّضَ إليه نظر المملكة الحَلَبيَّة علىٰ عادة من تقدّمه .

---

(١) لعله : ”آعتضد“ .

فليباشرْ هذه المملكةَ التى هى من أشهر ممالكنا سُمْعـه ، وأيمنها بُقْعه ، وأحسَنها بِلادا ، وأخصبها رُبًا ووِهَادًا ، وأكثرها حُصونًا شَواهِق ، وقِلاعًا [سوامى](١) سوامق ، وثُغورًا لا تَشِيمُ ما ٱفْتَرَّ منها البروقُ الخوافق ، مباشَرةً تزيد مصالحَها على ما عَرفَته ، وتُريها من خِبْرته فوق ما ألِفَته ، وتدلُّ على ما فيه من كفاءة هذَّبَتْها التَّجارِب ، وهذَّبتها الأنوارُ الثَّواقِب ، وصرفَتْهـا الأفكارُ المطَّلِعة على الطوالع من المغارب ، وسـدَّدها إلى الأغراض الجميلة الخُلوُّ من الأغراض ، ووقَّفها على جواهر الصَّواب عدمُ ٱعتراضِ النَّظر إلى الأعْراض ، وأراها التَّوفيقُ ما تَأْتى من وجوه التدبير وما تَذَر ، وعَرَّفَتْها المعرفةُ الاحتراسَ من مخالفة الصَّواب فما تزالُ من ذلك على حَذَر ، وفتحتْ لها الدُّرْبَةُ أبوابَ التَّثمير فما لحظت أمْرًا من الأُمور الديوانية إلا وبدت البِدَر ، ولتكن النعمُ المصونةُ المقـدّم لديه ، والنظرُ فى مصالح القِلاع المحروسة هو الغَرَضَ المنْصُوصَ عليه ، فلْيُضاعِفْ ذخائرَها ، ويتفقَّدْ مواردَ أمورها ومَصادرَها ، وفى معْرِفته بقواعد هذه الوظيفة ما يُغنِى عن الوصايا ، لكن ملاكُها تقوى الله ، فلْيجعلْها نَجِىَّ نَفْسه ، وسمير أُنْسِه ، والخط الشريف .... .

⁂

ومنها ــ نظر الجيش بهـا .

وهذه نسخة تَوْقيع بنظر الجَيْش بالمملكة الحَلَبيَّة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل أُفُقَ السـعادة بطلوع شمْسه مُنِيرا ، وأقرَّ فى رُتَبِ العَلْياء مَن يغْدُو ناظرُها بحسْنِ نَظَرِه قَرِيرا ، وحَلَّى مفارِقَ المناصب السَّنِيَّة بصَـدْرٍ إذا تعالَى

(١) الزيادة ممـا يأتى بعد نحو عشر صفحات .

اللسانُ فى وَصْفه كان بَنانُ البيانِ إليه مُشيرا ، وآختار لأمصارِ ممالكنا الشريفة من إذا فُوِّض إليه نظرُها كان بِنسْبَتِه إلى الإبْصار حَقيقًا به وجَديرا .

نحمَدُه وهو المحمود، ونشكُره شكرًا مُشْرِقَ السُّعود، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً عذْبَةَ الوُرود ، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضحت به شيوخٌ من الإسلام منشُورة البُنُود ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه ما أوْرق عُود ، وأُوضِحَ نهارُ السيوف فى لَيْلِ الغُمُود، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإن الله تعالى لما خصَّ كُلَّ مملكةٍ من ممالكنا الشريفة بكثْرة الجُيُوش والأنصار ، وجعَل جُيُوشَنا وعساكِرَنا تُكاثِرُ عددَ النُّجومِ فى كلِّ مِصْرٍ من الأمْصار، وكانت المملكةُ الشريفةُ الحلبيّةُ هى ركنٌ من أركان الإسلام شَديد، وذُخْرٌ مادعاهم دَاعٍ إلّا ولبَّاه منهم عَدَدٌ عَديد ــ وجب أن يُختارَ للنَّظر عليها من الأكْفاء من سَما فى الرآسة أصْلُه وزَكا فَرْعُه ، فاستحقّ بما فيه من المعرفة تمييزَ قَدْره ورَفْعه، وفَاقَ فى فَضْل السِّيادةِ أبْناءَ جِنْسه ، وأشرقتْ أفلاكُ المعالى بطُلوع شَمْسه ،وأقرّ [بنظره] نظرَ الجيوش المنصوره، وسارت الأمْثِلَةُ بما آتُّفق عليه [فيه] من حُسْنِ خِبْرة وخِيَره، وكان فلان هو الذى طلع فى أُفُق هذا الثّناء شَمْسًا مُنيرَه ، وآختبر بالكفايةِ والدِّرايةِ وآختير لهذا المَنْصِب على بَصِيرَه ، وهو الذى له من جميلِ المباشرة فى المناصب السَّنية ما هو كالشَّمْسِ لا يَخفى، والذى أحْسن النّظرَ فى الأوْقاف المبْرورَة حتّى تمنَّى كلُّ منصبٍ جليلٍ أن يكونَ عليه وقْفا ، وهو الذى حَوَى من الفضائِل ما لا يُوجَدُ له نَظيرٌ ولا شَبِيه ، والذى سما إلى رتبة من المعالى رَبِيعةٍ وكان ذا الجَدِّ النَّبيه والأبِ النبيه .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زالَ يُقِرُّ الناظرَ بجُودِهِ ، ويُحسِنُ النظرَ فى أمْرِ جُيُوشه وجُنودِه ـ أن يفوّض إليه كذا : علماً بأنه أحَقُّ بذلك وأوْلىٰ ، وأنَّ كفايتَه لا يُستثنى فيها بإلّا ولا بلَوْلا ، وأنَّ السَّدادَ مقترنٌ بحسن تَصْرِيفه ، وعلْمَه قد أغنىٰ عن تعليمه بمواقع التَّشْديدِ وتَوْقِيفه .

فلْيباشِرْ ذلك بصدْرٍ مُنْشرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ، عاملًا بالسُّنة من تقوى الله تعالىٰ والفَرْض ، عالمًا بأنّا عند وُصُولنا إلى البلاد نَأْمُر بعَرْض الجيوش : فليَعْمَل علىٰ مايُبيِّضُ وجْهَه يوم العَرْض ، وليُلْزِمْ عِدّةً من المباشرين بعَمَل مايلزمُهم من التَّفْريع والتَّأْصِيل ، والتَّجْريد والتَّنْزيل ، وتَحْريرِ الأمْثلة والمقابلة عليها ، وسُلُوكِ الطَّريق المُسْتقيم التى لا يتطرَّقُ الذَّمُّ إليها ، والملاحظةِ لأُمُور الجيوش المنصورة فى قَليل الإقطاعات وكَثيرها ، وجَليلِها وحَقيرها ، بحيثُ يكون علْمُه محيطًا بذلك إحاطةَ اللَّيل ، ويشْترِطُ علىٰ من يتعيَّن تنزيلُه ما آستطاع من قُوّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ، ويقابِلُ الأُمورَ المضطربَةَ بالإضْراب ، ويسلكُ أحْسن المسالك فى سَيْرِه وسِيرَته : فإنّا فوّضْنا إليه الجيوشَ المنصورةَ من جُنْد المملكة الحَلَبيّة ومن أهْل المدِينَة ومَن حَوْلهم من الأعْراب . والوَصايا كثيرةٌ وإن كَثُرَتْ فعِلْمُها عنده ، وقد ضُرب له منها مثَلٌ فلْيكُنْ علىٰ سياقَتِه فيما لم يُذْكر فى العِدّه ، وأهَمُّ الأُمور أنْ يتمسّكَ من خَشْيَة الله بالسَّبَب الأقْوَىٰ ، ويجعلَ تقْوَى الله عمادَه فى كلِّ الأمور : فإنَّ خير الزَّاد التَّقْوىٰ ، والخطُّ الشريفُ أعْلاه حجّةٌ فيه .

الطبقة الثانية

من يكتب له من أهْل المملكة الحَلَبيّة فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رسم» إمّا مع «مجْلس القاضى» أو مع «القاضى الأجَلّ» ككُتّاب الدَّرج ومن فى رُتْبتهم ، إن كُتب

لأحد منهم من الأبواب السلطانية . وإلّا فالغالبُ ٱستبدادُ نائب السَّلْطنة بها بالكتابة فى ذلك . فإن كُتب شىءٌ منها من الأبْواب السلطانية، فلْيمش فيه على نحو ماتقدّم فى الديار المصرية والمملكة الشامية التى قاعدتُها دِمشق .

النـــــوع الثانى

(من أرباب الوظائف بالمملكة الحلبية ـ من هو خارجٌ عن حاضرتهـا ، وهم على أصناف)

الصـــنف الأوّل

(أرْباب السيوف، وهم غالبُ مَن يكتب لهم عن الأبْواب السُّلْطانية)

وقد تقدّم أنّ العادةَ جاريةٌ بتَسْمِية مايُكْتب لمن دون أرْباب النيابات العِظام: من دمَشْقَ، وحَلَب، وطَرَابُلُس، وحَماة، وصَفَد، وغَزَّة، والكَرَك ـ مراسيم . وأنّ التقاليدَ مختصـةٌ بالنُّوّاب العظام المقدّم ذكرهم . ولا يخفى أنّ النياباتِ الدَّاخلةَ فى المملكة الحَلَبِيَّة : ممـا هو تحت أمْر نائب السَّـلْطنة بحَلَب أكثر من كل سائر الممـالك الشامية .

وبالجُمْلة فأمْرهم لا يخرُج عن ثلاثة أضْرب : إما مُقَـدّم ألْف ، كنائب البِيرَة ، ونائب قَلْعـة الرُّوم المعبرِ عنها فى ديوان الإنشاء بقَلْعة المسـلمين ، ونائب مَلَطْيَة ، ونائب طَرَسُوس ، ونائب البُلُسْتَيْن ، ونائب البَهَسْنَى ، ونائب آياس المعبرَّ عنها بالفتوحات الجاهانية . وإمَّا طبلخاناه، كنائب جعبر، ونائب دَرَنْدَة ونحوهما . وإما أمير عشرة ، كنائب عين تاب ، ونائب الرَّاوَنْدان ، ونائب كَرْكَر، ونائب بَغْـراس، ونائب الشُّغْر وبَكَاس ، ونائب الدَّرْبَساك، ونائب سرْفَنْـد كَار، ومن فى معناهم .

وقد تقدم فى الكلام على المكاتبات نقلًا عن "التثقيف" : أنَّ هؤلاء النوّابَ تختلف أحوالهم فى الارتفاع والانحطاط : فتارةً تكون عادةُ تلك النيابة أميرَطبلخاناه، ثم يولّى فيها عشرةٌ وبالعكس . وقد تكون عادتُها طبلخاناه فيستقر بها مقدَّمُ ألف وبالعَكْس . والضابط فى ذلك أنَّ من يُكْتب له المرسوم : إن كان مقدّمَ ألف، كُتِب مرْسومُه فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه، كُتِب له مرسومُه فى قَطْع النصف أيْضا بـ«السامىّ» بالياء . وإن كان أميرَ عشرةٍ كُتِب مرْسومُه فى قَطْع الثُّلث . فأمّا ما يُكْتَب فى قطع النِّصف، فإنَّه يفتتح بـ«الحمد لله» سواء كان صاحبُه مقدّمَ ألْف أو أميرَ طبلخاناه .

✣

وهذه نسخة مَرْسوم شريف بنيابة آياس، وهى المعبَّر عنها بالفُتوحات الجاهانيَّة، يستضاء بها فى ذلك ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل من أَوْلياءِ دَوْلتِنا الشَّريفة كلَّ سيْفٍ لا تَنْبُو مَضاربُه ، واَصْطفَى لبوادر الفُتوحات من أنْصارنا من تُحمَدُ آراؤه وتجاربُه ، وألْهمنا حسْنَ الاختيار لمن تُؤْمَن فى المحافظة مآربُه ، وتَعذُبُ فى المخالطة مَشارِبُه ، وحقّقَ آمالَنا فى مضاعفة الفَتْح التى أغْنَى الرُّعْبُ فيها عما تُدافِعُه سيوف الإسلام وتُحاربُه .

نحمدُه حمدًا يضاعِفُ لنا فى التَّأْييد تمْكينا، ونشكرُه شكرًا يستدْعى أن يزيدنا من فضله نَصْرًا عزيزًا وفَتْحًا مُبِينا ، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُخلِصُ فيها يقيناً من المخاوف يَقِينا ، ونَرِدُ من نَهَلِها مَعِينا ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيده الله بالملائكة والرُّوح ، وزَوَى له الأرْضَ فرأَى مشارِقَها ومَغارِبَها ونَرْجو أنْ يكونَ ما زَواهُ له مُدَخَرًا لنا من الفُتوح ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه

الذين هم خيرُ أُمّةٍ أُخرِجتْ للإسلام ، والذين ما زال الإيمانُ بهم مرفوعَ الألوية والأعلام ، والذين لم يبرحْ داعى الضَّلالة تحتَ قهرِ سُيوفهم : فإذا أغفَى «جرّت عليه سيوفَها الأحلام» ؛ صلاةً يطيب اللّسانُ منها فيُطْرِب ، ويُعْرِب عن صِدْق الإخلاص فى تكرارها فيُغْرِب ؛ وسلَّمَ تسليماً .

أمّا بعــدُ ، فإنَّ أولى من تَسْتَنِدُ أمورُ الممالك لعَزْمته ، ويُلْقِى أمْر بوادِرِ الفتوحات السَّعيدة لهِمَّته ، ويُعتَمَدُ فى تدبير أحوال البلاد والعباد على يُمْنِ تصرُّفه ومُمْتدّ نهْضَته ـ مَن لم يزلْ معروفاً ســدادُ رأيه ، مشكوراً فى الخِدْمةِ الشريفةِ حُسْنُ سَعْيه ، مؤيَّدا [فى] عَزْمه ، مظفرا فى حَزْمه ، مأمونَ التأثير ، ميمون التــدبير ، كافياً فى المهمات ، كافلاً بعلُوّ الهِمَّات ، إذا همّ ألقَى بين عينيه [صادق] عزْمه ، وإذا آعتُمِد عليه فى مُهِمٍّ تلقَّاه بهمّته وحَزْمــه ؛ وإذا جُرِّدَ كان هو السَّيفَ آسْمــا وفعْلا ، وإذا دارتْ رحَى الحَرْبِ الزَّبُون فهو الشهمُ الذى لا يخافُ سهْمًا ولا يرهبُ نَصْلا .

ولمــا كان (١) هو بَدْرَ هذا الأُفُق ، ومُقلَّدَ هذا العِقْد ولا يصلُح هــذا الطَّوْق إلا لهــذا العُنُق ؛ وهو الذى فاق الأولِيــاءَ آهتماما ، وراقَ العُيونَ تقدّمًا وإقداما ، وأرضَى القلوبَ نُصْحًا ووَفاء ، وأنضَى الهِمَمَ آحتفالا للمصالح وآحتفاء ، طالمــا جُرِّبَ فحُمِد عند التجارب ، وجُرِّدَ فأغنَى عن القواضب ، وآختُبِر فاختِير ، ونُظِر فى خصائِصه فلم يُوجَدْ له نظير ـ آقتضَى حسنُ الرَّأْي الشريف أن نقــلّده فتوحاتٍ أنقــذها الله تعــالى من شَرَك الشِّرْك ، وأخرجها إلى النُّور بعد ظلام الإفك ، وبشَّرها أنَّ هــذه سحــابةُ نَصْرٍ يأتى وَابِلُه إن شاء الله تعــالى بعد رَذاذه ، وأنَّها مقدّمةُ سَعْدٍ تتلو قولَه تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ .

---

(١) بياض بالأصل والمراد المولى بآسمه ولقبه .

فلذلك رُسم ... ... – لا زال الفتح فى دولته يَزْهو بانتظام سلكه، وأيامه الشريفة تسترد مغتَصَب البلاد من يَد الكفر إلىٰ بَسْطَة مُلْكه وقَبْضة مِلْكه، وإحسانُه يحمى الحصونَ بسَيْفٍ يُرَوِّعُ العِدا ببَأْسه وفَتْكه – أن يُفوَّض ... ... آعتمادًا علىٰ مَضائه الذى لا ينكر مثله للسَّيف، ورُكونًا إلىٰ هِمَّته التى تَسْرى برُعْبها إلىٰ قلوب الأعداء سُرَى الطَّيْف .

فليباشِرْ النيابةَ المذكورة : مُعْمِلًا رَأْيَه فى تَمْهيد أحْوالها، وتَقْرير أمورها التى رَاقَ الأَوْلياءَ وراعَ الأعداءَ ما كان من مآلها ؛ مُجْتَهِدًا فى حِفْظ ما بها من القِلاع والحُصون، مُبادِرًا [إلى] كلِّ ما يَحْمِى حِماها ويَصُون، قائمًا حقَّ القيام فى مصالح تقْريرها، وأحْوال تحْريرها، وأمور تُمَهِّدُها، ومنافِعَ تُشَيِّدُها ؛ وحواصلَ تكْفيها، وأسْبابِ مَصْلَحةٍ تُوافيها بمزيد الآهْتِمام وتُوَفِّيها ؛ وليكنْ بأحْكام الشَّرع الشريف مقْتَديا ، وبنُور العَدْل والإحسان مهْتَديا ؛ وبتقوى الله عزّ وجلّ مُتَمَسِّكا ، وبخَشْيَة الله متَنَسِّكا؛ وهو يعلم أنّ هذه الفتوحات [قَذًى] فى حدَقة العَدُوِّ المخذول وشَجًا فى حُلُوقهم، وعِلَّةٌ فى صُدورهم وحَسْرَةٌ فى قلوبهم .

فليكن دَأْبُه الآجتهادَ الذى ليس معه قرار، والتَّحرُّزَ الذى يحلّيها أو يحميها فيكونُ عليها بمنزلة سُورٍ أوسِوَار؛ ويُصَفِّحُها من عَزْمِه بالصِّفاح، ويجعلُ عليها من شُرُفات حَزْمه ما يكون أحدَّ من أسِنَّة الرِّماح؛ ثم لا يزالُ آحتياطُه محيطًا بها من كلّ جانب، وتيقُّظُه لأحْوالها بمنزلة عَينٍ مُراقِب، وآحتفالُه الآحتفالَ الذى بمِثْله يُصانُ رداؤُها من كلِّ جاذب؛ ثم لا تزالُ قُصّادُه وكُشّافُه وطَلائِعُه لا يَقرّبهم السُّرىٰ، ولا يعرفُون طَعْمَ الكرىٰ، يَطّلعون من أخْبار العِدَا علىٰ حقائقها، وتَتَحَيَّلُ كلُّ فِرْقَةٍ منهم علىٰ معرفة الأحْوال بينهم بمَكْرٍ من تعدُّد طُرُقها وآتِّساع طرائقها، لتكونَ المتَجدِّداتُ عنده بمنزلة ما يراه

فى مِرْآة نَظَره، وسِرُّ أمور العِدا لَديه قبلَ أنْ يشيع بينهم ذِكْرُ خَبَره، والوصايا كثيرةٌ وهو بحمد الله لا يحتاج مع معرفته إلىٰ تَبَصُّره، ولا يفتقِرُ مع حسن بصيرته إلىٰ تَذْكِرَه، والله تعالىٰ يتولّاه، ويُعِينُه علىٰ ما وَلّاه، بعد الخطِّ الشريف أعْلاه .

وأما من يكتب له فى قَطْع الثلث بـ«مجلس الأمير» وهم العشرات [فقد ذكر فى "التعريف" : أنه يكتب لهم من الأبواب السلطانية علىٰ ذلك .

قلت : وقد تقدّم فى الطبقة السابعة أنّ الكَخْتا، وكَرْكَر، والدَّرْبَساك، قد تكون عشرةً أيضا . وفى معنىٰ ذلك نيابة عين تاب ، والراوَنْدان ، والقُصَير ، والشُّغْروبَكَاس، إذا كانت عشرة . ونيابة دَبْرَكى إذا كانت عشرة] (١) فيفتتح فيها بـ«أما بعد حمد الله » علىٰ عادة ما يُكْتَب للعشرات .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف من هذه الرتبة، كُتب به لنائب حَجَر شُغْلان من معاملة حَلَب ، وهى :

أما بعد حمد اللهِ الذى شيَّد المعاقلَ الإسلامية بأكْفائها، وصان الحُصونَ المحروسة بمن شُكِرَتْ هِمَّتُه فى إعادتها و إبدائها، وحَمىٰ سَرْحَها بمن أيقظ [فى] الخِدْمة الشَّريفة عيونَ عَزْمه فما ألمت بعد إيقاظه بإغفائها، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى انتضىٰ سيوفَ التأييدِ فأعَزَّتِ الهدىٰ وأذلّت العدا حين انتضائها ، وعلىٰ آله وصَحْبه ما بَدَت النجومُ فى ظَلْمائها ، وسرت الغيوم فى فَضائها ــ فانَّ من شُكِرت هِمَمُه، وثَبَتَتْ فى الطاعة الشريفةِ قَدَمُه، وأشبه عَزْمُه فى مَضائه صارِمَه، وأضحت

(١) ما بين القوسين المربعين [ ] وجد ملحقا بهامش نسخة ومؤشرا عليها بالتصحيح فأثبتناه فى الصلب عملا بتلك الاشارة .

ثغور تقديمه باسمه، أولى بأن ترفع هذه الدولة الشريفة من محلّه، وتنشر عليه [من] تكريمها وارف ظلّه، وترتضيه لقلاع الإسلام وتشييدها، وتجتبيه لصونها وتأييدها، وتجعله قرّة عينها وحلية جيدها، وتمضى كلمته فى مصالحها، وتغدق به أسباب مناجحها، فيصبح ولقدره منّا إعلاءٌ وإعلان، ويمسى وله شغلٌ بطاعتنا العالية الشّان، وشغل بالمعقل الذى يحرز بعزمه ويصان، فلأجل ذلك غدا وله من هذه النيابة على الحقيقة شغلان .

وكان [فلان] هو الذى جادت عليه دولتنا الزاهرة بسحائبها، وأشرقت علىٰ حظوظه سعودُ كواكبها، وأسمت له قدرا، وجعلت له إمرةً وأمرا، وصرفته إلىٰ نيابة معقلٍ معدودٍ من قلاع الممالك الإسلامية وحصونها، ومعاقلها التى علت محلّا فالجبالُ الشّمّ من دونها، قد أصبح شاهقًا فى مبناه، ممنعًا فى معناه، محصّنًا برجاله، مصونًا من ماضيين : السّيف فى مضائه والعزم فى احتفاله ــ اقتضىٰ حسن الرأى الشريف أن نوقّله رتبة هذه النيابه، وننشر عليه من إحساننا سحابه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زال ... ... أن يستقر ... ...

فليحلّ هذه النيابة المباركة مظهرًا من عزمه ما تحمد عواقبه، وتعلو مراقبه، وتسمو مراتبه، وتتوضّح سبله ومذاهبه، محصّنًا لسرحه، معززًا مواد نجحه، مراعيًا[1] أحوال رجاله، المعدّين من حماته وأبطاله، حتّى يغدوا يقظين فيما يندبهم إليه ويستنهضهم فيه، مبادرين إلىٰ كل ما يحفظ هذا الحصن ويحميه، ومن بهذا المعقل من الرّعية فليرفق بضعفائهم، وليعاملهم بما يستجلب لنا به صالح دعائهم، والوصايا كثيرةٌ وملاكها التّقوىٰ، فليتمسّك بها فى السّرّ والنّجوىٰ، وليغرسها فى كل

(١) فى نسخة : مرتقبا والمعنى واحد .

قول يُبْدِيه ، وفِعْل يرتَضِيه ، فإنّ غُروسَها لا تَذْوَى . والله يوفقه لِصالح القَوْل والعَمَل ، ويصُونُه من الخَطَإ والخَطَل ؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه ، حجة بمقتضاه ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ ، والحمدُ لله وحده .

قلتُ : وقد تقدم أنَّه لا يكتب عن السلطان مَرْسومٌ بنيابة فى قَطْع العادة ، لأنَّ ذلك لا يكون إلا لجُنْدِىٍّ وهو دون ، ومثل ذلك إنما يُكْتب عن نوّاب الممالك .

الصنف الثانى

(ممّا هو خارجٌ عن حاضرة حَلَب ـ الوظائفُ الدِّينية بمعاملتها : من القِلاع وغيرها)

وهى فى الغالب إنّما تصدر الكتابةُ فيها عن نائب حَلَب أيْضا أو قاضيها ، إنْ كان مرجعُ ذلك إليه . فإن صَدَر شَىْءٌ منها عن الأبْواب السُّلطانية ، كان فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رُسِم» .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ من هٰذا النَّمَط يُنْسج علىٰ مِنْواله ، كُتِب به لقاضى قلعة المسلمين ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال عَدْلُه مؤيّدًا للحُكّام ، ورأيُه مسدّدًا فى النَّقْض والإبْرام ، وسُلْطانُه يختار للمناصب الدِّينية مَن نطقَتْ بشُكْرِه ألْسنةُ الأنام ـ أن يستقرّ فى كذا : لما اشْتَهر عنه من عِلْم ودين ، وظهر من حُسْنِ سِيرَةٍ اقتضتْ له التَّعْيين .

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركَةَ بالحقِّ حاكما ، وللرِّفْقِ مُلازِما ، وللتَّقْوَىٰ مداوما ؛ وهو غَنِيٌّ عن الإسهاب فى الوصايا ، مَلِيٌّ بسُلُوكِ تَقْوَى الله فى القَضَايا ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُه تأييدا ، ويضاعِفُ له بموادِّ السعادة تجْديدا ؛ والعلامةُ الشريفةُ أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الصــــنف الثــالث

(ممـا هو خارج عن حاضرة حَلَب ـ الوظائفُ الدِّيوانية)

وهى إنّمـا تصدُرُ فى الغالب أيْضا عن نائب حَلَب . فإن كُتب شيءٌ منهـا عن الأبواب السلطانية ، كان فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسِم بالأمْر» .

وهذه نسخةُ توْقيع من ذلك ، يُستضاءُ به فيما يُكْتَب من هٰذا النوع ، كُتب بها بنَظَر جَعْبَر ، من مُعاملة حَلَب ، وهى :

رُسِم بالأمْرِ الشَّرِيفِ ـ لا زال مُنْهَلَّ النَّدىٰ ، مُسْتَهَلَّ الجَدىٰ ، مُعِيدًا للإحسان كما بَدا ـ أن يُعادَ فلانٌ إلىٰ وظيفته : لمـا أَلِفَتْ من سِيرةٍ له لم تَزَلْ تُحْمَد ، وسِيما خَيْرٍ منه علىٰ مِثْل الشَّمْس تَشْهَد ؛ ولأمَانَتِه التى لم تَزَلْ تَفْتَرُّ بها الثُّغور ، وتَحْضُرُ بها المَعاهِدُ : تارةً فى طَوْقِ النَّحْر وتارةً فى نُحور البُحور ؛ وأصالةٍ آمتـدَّ ظِلُّها الظَّلِيل ، وعُرِف منها فى العَصْر حسنُ الأصِيل ، وأيْنعَتْ أكْرَمَ فرعٍ زَكا مَنْبِتُه[1] فى الأرْض المُقَدَّســة وجِوار الخَلِيل ؛ ولِـما أَسْلَف فى هذه المباشرة من عَمَلٍ صالح ، وسَـدادِ آعتِقادٍ لم يخرجْ عن تحريرِ تَقْرِيرٍ وتقريرِ مصالح ؛ وكِتَابةٍ رآها الرَّائى ونقلها النَّـاقِل ، وكفايَةٍ حفَّتْ عليه مثل العروس المجْلُوَّة من عقائل المعاقل .

---

(١) فى الأصل « منبتها » بالتأنيث .

فليباشر هذه العروس فقد أنقدها[1] سالف الخدم وأمهرها، وليثابر سقيا الغروس التى أنشاها فى هذه الجهة وثمرها، وليسلك مسلكه الذى لم يزل مخيما على رءوس القنن، ومهوما به طرف الأمن لليقظة الذى لا يلم به الوسن؛ مخولا فى وظيفته المبرات، مستقبلا للمسرات، مفتخرا بمباشراته التى تجرى مجارى البحار: تارة الملح الأجاج وتارة العذب الفرات؛ وهو أعرف بما يقدمه من أمانة بها يتقدم، وديانة يرجب بها استكفاؤه ويحكم؛ وتقوى الله جماعها فليكن بها متمسكا، وبمشاغلها متنسكا؛ والله تعالى يجعل عطاءه موفرا، وعمله متدفقا ليرد جعبرا جعفرا.

النيابة الثالثة

(نيابة طرابلس، ووظائفها التى جرت العادة بالكتابة فيها من الأبواب السلطانية على نوعين)

النوع الأول

(ماهو بحاضرة طرابلس، وهو على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف، وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له تقليد)

وهو نائب السلطنة بها. ومرسومه فى قطع الثلثين، ولقبه «الجناب العالى» مع الدعاء بمضاعفة النعمة.

---

(١) الذى ورد فى القاموس وغيره أن النقد بمعنى الاعطاء من باب الثلاثى فلعل الهمز من زيادة الناسخ فتنبه.

وهذه نسخة تقليد شريف بنيابتها :

الحمدُ لله الذى جعل لنا التأييدَ مَدَدا ، والنَّصرَ عَتادًا لا نَفقِدُ مع وجوده من الأولياء أحدا ، والعِزَّ وَزَرًا تُصِمُّ شُهبُه مسامعَ العِدا : ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدا﴾ . والفتحَ ذُخرًا فحيثُ ما نشاء مَدَدْنا إليه بقوّة الله يدا ، وشَدَدْنا عليه بمعُونته عَضُدا .

نحمَده على نِعمِه التى جعلت مراتبَ دولتنا فلكًا تُشرِقُ فيه رُتَبُ الأولياء إشراقَ البدُور ، وثُغُورَ ممالكنا أُفُقًا حيثما شامَته العِدا ضُرِبَ بينهم وبينه من سيوف مَهابَتِنا بسُور ، وفواتحَ الفُتوح التّالية دانيةً من هِمَمِ أصفيائنا فإذا يَمَّمُوا غرضًا طارتْ إليه سهامُهم بأجنحة النُّسُور ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يرفعُ الجهادُ علَمها ، وينصُر الإيمانُ كَلِمَها ، ويُزجى الإيقانُ إلى رياض التأييد دِيَمَها ، ويَستنطِقُ التوحيدُ بإعلانها وإعلائها سيفَ أيّامنا الزاهرة وقلَمها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الهادى إلى الحقِّ وإلى طريق مُستقيم ، ونبيُّه المخصوصُ بالآيات والذِّكر الحكيم ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين نصرُوا الله فنَصرهم ، وأظهروا دينَه فأعزَّهم وأظهرهم ، ويسَّروا لأمّته سبُلَ الهُدى فهداهم وللسَّبيل يسَّرهم ، صلاةً لا يزال اليقينُ يُقيمُ دعوتَها ، والتوحيدُ يعصِمُ من الانفصام عُرْوتَها ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولى من تفترُّ الثغورُ بإيالته ، عن شَنَبِ النَّصر ، وتَرمِى الحصونُ بكفالته ، مَن شامَ من العِدا بَرْقَها بشَرَرٍ كالقَصْر ، وتَقسِمُ السَّواحلُ بمهابته ، مَن جاور من أهلِ الكُفر بحرَها بين الحَصْد والحَصْر ، وتَمنعُ عزَماتُه شَوانِىَ العِدا أن تدبَّ عقاربُها ، أو تَركبَ اللُّجَجَ بغير أيّامه(١) مراكبُها ، أو يَنتقِلَ عن ظَهر البحر إلى غير

(١) لعله « بغير أمانه » تأمل .

سيوفه أو قُيوده مُحاربها - من لم يزلْ فى نُصْرةِ الدّين لامعًا كالبَرْق شِهابُه ، زَاخِرًا كالبَحْر عُبابُه ، وَاصِبًا علىٰ الشّرك عَذابُه ؛ ظَامِيًا إلىٰ مَوارِدِ الوَرِيد سَيفُه ، سارِيًا إلىٰ قلوب أهْلِ الكُفْر قبل جُفونهم طَيْفُه ، قائمةٌ مقام شُرَفِ الحُصون أسِنّةُ رِماحه ، غَنِيّةٌ بُروجُ الثُّغورِ عن تَصْفيحها بالجَلْمَد بصَفا صِفَاحه ؛ مع خِبْرة بتَقْدمة الجُيوش تُضاعِفُ إقْدامَها ، وتُثَبّت فى مَواطِنِ اللّقاءِ أقْدامَها ، وتُسَدّدُ إلىٰ مقاتل أهْل الكُفْر سِهامَها ، وتُقَرّبُ عليها فى البَرّ والبحر مَنالَهـا وتُبْعِدُ مَرامِيَها علىٰ مَن رَامَها ؛ ومَعْدِلةٍ للرّعايا السُّكونُ فى مِهاد أمْنِها ، والرُّكونُ إلىٰ رُبَا إقْبالها ووِهَادِ يُمْنِها ؛ فسِرْبُ الرعايا مَصُونٌ بعَدْله ، والعَدْلُ مكنونٌ بين قَوْله وفِعْله .

ولمـا كان فلانٌ هو اللّيثَ الذى يُحْمىٰ به غَابُه ، والنَّيّرَ الذى يَزْهىٰ أُفُقٌ تألّق فيـه شِهابُه ، والهُمامَ الذى تُعْدِى هِمَمُه فُرسانَ الوَغىٰ فتَعُـدُّ آحادُها بالأُلُوف ، والشُّجاعَ الذى إذا آسـتعانَتْ سَواعِدُ الشُّجعان بسُيوفها آسْتَعانَتْ بقُوّةِ سَواعِده السُّـيوف - آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن تُحَلّىٰ به جِيدَ مملكةٍ آنتظمتْ علىٰ وِشَام البَحْر ، وأحاطت بمـا فى ضَميره من بلاد العِدا إحاطَةَ القلائد بالنَّحْر .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أنْ يفوّضَ إليه كَيْتَ وكَيْتَ : لِمـا أشير إليه من أسْباب تَعَيُّنه لهذه الرُّتبة المَكِينَه ، وتَحَلّيه بمـا وُصِف من المحاسن التى تُزْهىٰ بهـا عقائلُ الحصون المَصُونَه .

فلْيَلِ هذه النيابةَ الجليلةَ بعزْمَةٍ تُجمّلُ مواكِبَها ، وهِمّةٍ تُكمّلُ مراتِبَها ، ومَهابَةٍ تَحُوط ممالِكَها ، وصَرامَةٍ تُؤَمّنُ مسالِكَها ، ومَعْدِلَةٍ تُعَمّر ربوعَها ورِباعَها ، ويَقَظَةٍ تَصُون حُصونَهـا وقِلاعَها ، وشَجاعَةٍ تَسْرِى إلىٰ العدا سَرايَا رُعبِها ، وسَطْوَةٍ تُعْدِى السُّيوفَ فلا تَستطيع الكُماةُ الدُّنُوَّ من قُرْبِها ، وسُمْعَةٍ تُرْهِبُ مُجاوِرِيه حتى يُخَيَّلَ البَحر [أنه] من أعوانه علىٰ حَرْبِها .

وليُؤتِ تقدمة الجيوش الإسلامية حقَّها من تدبير يجمع على الطاعة أمرها وأُمراءها، ويرفعُ فى مراتب الخدمة الشَّريفةِ علىٰ مايجب أعيانها وكُبراءها، ويُرهبُ بإدامة الاستعداد قُلوبَ أعدائها، ويربُطُ بإزائها شوانىَ البَحْر حتَّى تعتدَّ الرباط فى ذلك من الفُروض التى يُتعبَّدُ بأدائها؛ فلا يَلُوحُ قِلْع فى البحْر للعدا إلا وهو يرهبُ الوقوعَ فى حبالها، ولا تلحظُ عينُ عدوٍّ سنا البرّ إلا وهى تتوقَّعُ أن تُكْحَل بنصالها؛ ولْيُقِمْ منار العَدْلِ بنَشْر لوائه، ويعضُدْ حكم الشَّرعِ الشريف برجوعه إلىٰ أوامره وانتهائه؛ وليكُفَّ يدَ الظُّلمِ [عنها] فلا تمتدّ إليها بنان، وليشْفعِ العَدْلَ بالإحسان إلىٰ الرعيَّة فإن الله يأمُر بالعَدْل والإحْسان؛ وفى سيرته التى جعلته صَفْوةَ الاختيار، ونُخْبةَ ما أوضحتْه الحقيقةُ من الاختبار، ما يُغنى عن الوَصيَّة إلا علىٰ سبيل الذكرىٰ التى تنفعُ المؤمنين، وترفعُ قَدْرَ المُوقنين؛ وملاكُها تقوى الله تعالىٰ : فلْيجْعلْها أمام اعتماده، وإمام إصْدارِه وإيراده، والله تعالىٰ يُديمُ موادَّ تأْييده وإسعاده؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانية

(من يُكْتب له مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السَّامى» بغيرياء، وتشتمل علىٰ وظائف)

منها — شدُّ الدَّواوين بطرابُلُس .

وهذه نسخةُ توْقيع بها :

الحمدُ لله مُجدِّدِ الرُّتَبِ لمن نهضَ فيها إخلاصه بما يَجب، ومُولى المِنَنِ لمن إذا اعْتُمد عليه من مُهمَّات الدَّوْلة القاهرة فى أمْرٍ عرفَ ما يأْتى فيه وما يجْتنب؛

ومؤكِّد النِّعَم لمَن إذا ٱرتِيدَت الأكْفاء فى الخِدْمة الشَّريفة كان خيرةَ مَن يُختار ونُخْبة من يُنْتَخَب .

نحمَده على نِعَمه التى سَرَتْ إلى الأوْلِيـاء عَوارِفُها ، وٱشْتَمل على الأصْـفياء وافرُ ظِلالهـا ووَارِفُها ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لديه ، وتكونُ لقائلهـا ذَخيرةً يوم العَرْض عليه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه أشرفُ مَبْعوث إلى الأمَم ، وأكْرم منعُوتٍ بالفَضْـل والكَرَم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه الذين وُلُّوا أمْرَ الأُمَّة فعدَلُوا ، وسلَكُوا سَنَنَ سُنَّته فمـا مالُوا عنها ولا عَدلُوا ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلى ما ٱختِيرَله من الأوْلياء كلُّ ذى همَّة عَليَّـه ، وعَزْمَة بمصالح ما يُعْدَق به من مُهمَّات الدَّولة القاهِـرة مَلِيَّه ؛ وخِبْرة بكلِّ ما يُراد منها وَفِيَّه ، ويَقَظَة تَلْحظ فى كلِّ ما قرب ونأى من المصالح الأُمورَ الباطنةَ والأحْوالَ الخفِيَّه ؛ وصَرامَة تُؤْيِسُ من ٱستِلانة جانِبه ، ونَزاهـة تُؤَمِّنُ من إمالة رَأيِه فى كلِّ أمْرٍ عن سـلوك واجِبـه ؛ ومعرِفَة مُطَّلِعـه ، ونَهْضه بكلِّ ما إن حُمِّلَه من أعْباء المهمَّات الشَّريفـة مضطلِعَه ـ أمْرُ الأموال الديوانية : فإنَّها معادنُ الأرْزاق ، ومَوادُّ مصالح الإسلام على الإطـلاق ؛ وخزائنُ الدَّولة التى لو ملكتْها الغمائمُ لأمسكتْ خَشْـية الإنْفاق ، وذخائرُ الثُّغورِ التى مواقعها من أعْداء الدِّين مواقع الشَّـجا فى القُـلوب والقَذَى فى الأحْداق .

ولمـا كان المجلس السامى هو الذى سَمَتْ به هِمَمُه ، ورَسَختْ فى خِدَم الدَّولة القاهرةِ قَدَمُه ، وتبارَى فى مصالح ما يُعْدَقُ به من المُهمَّات الشَّريفة سيفُه وقلَمُه ؛ وكانت المملكة الطَّرابُلُسِيَّة من أشْهر ممـالكنا سُمْعَـه ، وأعمِّها بُقْعَه ، وأعْمرِها بلادا ،

وأخْصبها رُبًّا ووهادا، وأكْثرها حُصونا شَواهِق، وقِلاعًا سَوامِيَ سَوامِق، وثغورا لا تشيمُ ما آفتَرّ من ثُغُورها البروقُ الخوافِق؛ ولهـا الخواصُّ الكثيره، والجهـات الغَزِيره، والأمْوالُ الوافِره، والغَلّاتُ المتكاثِفةَ المُتكاثِرَه - آقتضت آراؤُنا الشريفـةُ أن نَرْتادَ لها من يسُدُّ خلَلَ عطَلِها، ويشُدُّ عَضُد مَيَدها ومَيَلها، وينْهَضُ من مصالحها بمـا يُراد من مثْـلِه، ويعيدُ لهـا بحسْنِ المباشرة بَهْجَة مَن فَقَدَتْه(١) من الأكفاء من قَبـلِه .

فلذلك رسم ... ... أن يفوّض إليه شَدُّ الدواوين المعمورة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة والحصون المحروسة، على عادة من تقدّمه فى ذلك .

فليباشرْ ذلك بمعْرِفة تستخرج الأمْوال من معادِنهـا، وتَسْتثير كوامِنَ المصالح من مكَامِنها؛ وتُثَمِّرُ أمْوالَ كلِّ معاملة بحسن الآطلاع عليها، وصَرْف وَجْه الآعتناء إليها، وتفقُّد أحْوالِ مُباشِريها، ومُباشَرةِ مايتجدَّدُ من وجوه الأمْوال فيها؛ وضَبْط آرتفاعها بعَملِ تَقْـديره، وحِفْظ مَتَحصِّلِ ضِياعها من ضَياعه وصَوْنِ بِدارِها عن تَبْـذيره؛ ولْيَجْتَهِدْ فى عمـارة البـلاد بالرِّفْقِ الذى ما كان فى شَيْءٍ إلا زانَه، والعَـدْلِ الذى ما آتَّصفَ به مُلْكٌ إلا صَانَه، والعفَّـةِ التى ما كانت فى امرئٍ إلّا وفقه الله تعالىٰ فى مقَاصِدِه وأعانَه؛ ولْيُقَدِّم تقوى اللّه بين يديه، ويعتَمِدْ علىٰ توْفيقه فيما آعتُمِدَ فيه عليه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وعلىٰ ذلك يكتبُ شدُّ مراكزِ البريد ونحوها .

---

(١) لعله "مافقدته من عمل الأكفاء" .

الصنف الثانى

(من الوظائف بطَرَابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية ـ الوظائف الدِّينيَّة ، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(مَن يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء، وتشتمل على وظائف)

منها ـ القضاء . وبها أربعةُ قُضاة من المذاهب الأربعة : من كُلّ مذهب قاض .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بقضاء قُضاة الشّافعيّة بها، يُنْسج على منواله، وهى :

الحمدُ لله الذى أعزَّ الدِّينَ بعُلَمائه، وعضَّدَ الحكْمَ بالمتَّقين من أوْليائه، وأوْضح الرُّشْد للمقتدين بمن جعلهم فى الهداية كنجُوم سمائه، وجعل لكلّ من الأئمَّة من مطالع الظهور أفقًا يُهتدى فيه بأنْواره ويُقْتدى بأنْوائه .

نحمدُه على أنْ جعل سَهْم آجتهادنا فى الآرتياد للأحْكام مُصيبا ، وقَسَم لكلّ من أُفُقَىْ ممالكنا من بركة علماء قَسِيمه الآخرِ نَصيبا، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تعصِمُ من الهوى فى الحُكْم لعباده، وتَفْصم العرا ممن جاهر فيها بعناده، ونشهدُ أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أضاءتْ أنْوار ملَّته، فاسْتَشَفَّ العلماءُ لَوامعَها، ووَضَحتْ آثارُ سُنَّته، فأحْرز أئمَّةُ الأمَّة جَوامعَها، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه الذين دُعوا إلى الله فأجابُوا، ودَعَوْا إلى الحُكْم بسنّته فأصابُوا، صلاةً لا تزال الألْسن تُقيمها، والإخْلاصُ يُديمُها، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلى ماأدّى فيه الآجتهادُ جُهْدَه، وبلغ فيه الآرتيادُ حدَّه، وآسْتُضىء فيه بنور التَّوفيق ، وآسْتُصْحب فيه من آستخارة اللهِ خيرُ رَفيق ـ أمرُ الحُكْم العزيز

وتفويضه إلى من وسّع الله تعالى مجال علمه، وسدّد مناط حكمه، وطهّر مرام قلبه، ونوّر بصره فى الحكم وبصيرته فأصبح فيهما على بيّنة من ربّه ؛ فأجرى الحق فى البحث والفُتيا على لسانه ويمينه، ونزّهه عن إرادة العلم لغير وجهه الكريم، ونبّهه على ٱبتغاء ما عند الله بذلك والله عنده أجر عظيمٌ .

ولما خلا منصبُ قضاء القُضاة بطرابُلُس المحروسة على مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه : وهو المنصب الذى يضىءُ بالأئمّة الأعلام أُفُقُه، وتلتق بالفضلاء الكرام طُرُقُه ؛ وتحتوى على أرباب الفُنون المتعدّدة مجالسُه، وتزكو بالفوائد المختلفة مغارسُه ؛ وكان فلانٌ هو الذى أُشير إلى خصائص فضله، ونُبّه على أنّ الاجتهاد للأُمّة أفضى إلى إسناد الحكم منه إلى أهله ؛ وأنّه واحدُ زمانه، وعلّامة أوانه ؛ وجامعُ الفضائل على ٱختلافها، وقامعُ البدع على ٱفتراق شُبَهها منه وأْتلافها ؛ وحاوى الفروع التى لا تتناهى، والمُرْبى على ربّ كلّ فضيلة لا يعرف غيرها ولا يألَفُ سواها ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن نجزم من ٱرتياده لهذه الرتبة بهذا الرأى [السديد]، وأن نُقرّب سُراهُ إلى هذا المنصب الذى ناداه بلسان الرّغبة من مكان بعيد .

فلذلك رُسم بالأمر الشّريف ـ لا زال إحسانُه كالبدْر، يملأ المشارقَ والمغارب، وبرّه كالبحر، يقذف للقريب الجواهر ويبعثُ للبعيد السّحائب ـ أنْ يفوّض إليه كذا .

فليطلُعْ بذلك الأفق الذى يترقّبُ طلوعه رقْبة أهلّة المواسم ، ويُسْرِعْ إلى تلك الرُّتبة التى تكاد تستطلعُ انباءه من الرياح النّواسم ؛ وينشُرْ بها فوائده التى هى أحقّ

أن تطوى إليها المراحل ، ويَقْدُمْ بها على الأسماع الظّامية لعَذْب فَوائِده قُدومَ الغَمامِ علىٰ الرَّوض الماحِل ؛ ويَلِ هـذا المَنْصِبَ الذى هو فيـه بين عَدْل يَنْشُره ، وحقّ يظهره ، وباطِل يزْهِقُه ، وغالب يرْهِقُه ، ومظلوم ينْصُره .

وليكُنْ أمرُ أموال الأيْتام المُهِمّ المقدّمَ لديه ، وحَدِيثُ أوْقاف البِرّ من أوّل وأوْلىٰ ما يَصْرِف فِكْرَه الجميـلَ إليه ، ويتعاهَدُ كَشْفَ ذلك بنَفْسِـه ، ولا يكتفى فى عِلْمِه فعـل اليوم باطّلاعه عليـه بأمْرِه فى أمْسِه (١) ؛ وهو يعلَمُ أنّ الله يجعله بذلك مشاركًا للواقفين فى الأجْر المختصّ بهم والشُّكْر المنسوبِ إليهم ، خارجًا من العُهْدَة فى أمْر اليتامىٰ باستعمال الذين يَخْشَوْنَ لو تَرَكُوا من خَلْفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافًا خَافُوا عَلَيْهِم ؛ وليُقِمْ منارَ الحق علىٰ ما يجب وإن سَرَّ قومًا وساء قَوْما ، ويَقُمْ بالعَـدْل علىٰ ما شُرِع : فإنّ « عَدْلَ يومٍ خيرٌ للأرْض من أنْ تُمْطَرَ أرْبعين يَوْما » .

وأمّا ما عدا ذلك من أحْوال الحكم وعَوائِده ، وآداب القَضـاء وقَواعِده ، فكُلّ ذلك من خصائصه يُسْتفاد ، ومن مَعارِفه يُسْتزاد ؛ ومِلاكُ ذلك كلّه تقوى الله وهى من أظْهرِ حِلاهُ الحَسَـنَة ، وأشْرَف صِفاته التى تَتداوَلُها الألْسِنَة ؛ فليَجْعَلْها وسيلةَ تَسْدِيدِه فى القَوْل والعَمل ، وذَخيرةَ آخرته التى ليس له فى غيرها أمَل ، ويقلد العلىٰ فيما حَدّثتْه من أسْباب نُقْلتِه فإنّ كَمَالَ العِزّ فى النُّقَل ؛ والله تعـالىٰ يمدّه بموادّ تأْييدِه وقد فعل ، ويجعَـلُه من أوليائه المتّقين وقد جعَل ؛ بمنّه وكَرَمه ! ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وعلىٰ ذلك تكتب تواقيع القُضاة الثلاثة الباقين .

ومنها ــ وكالة بَيْتِ المـال .

---

(١) لعله « على أمره فى أمسه » .

✤

وهذه نسخة توقيع من ذلك، وهى :

الحمــدُ لله الذى عمّر بيْتَ مال المسلمين بسَدَاد وَكِيله ، ونمو تحْصـيله ومَزِيد تَمْويله ، وتمسُّكه بالصِّدْق من قِبَله ، وسُلُوكه ماتبيَّنَ [من] سبيله ، وآعتماده الحق فى دليله ، ودَفْعه المَضَارَّ وجَلْبه المسارّ بتَخْويله .

نحمَدُه علىٰ بِرّه وتَفْضيله ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ تنزّه عن نِدّه ومَثِيله ، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه الله لتمـام هذا الدِّين وتكْميله ، وأنزل عليه المُعْجزات فى تنزيله ، وحَفِظ به الذِّكْرَ الحكيمَ من تَبْديله ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه وقَبِيله ، وسلَّمَ تسليماً .

وبعــدُ ، فإن بيْتَ المالِ المَعْمورَ هو نِظامُ الإسلام ، وذُخْرُ الأنام ، وفيه مَحْصولُ المسلمين تحتَ نَظَرِ الإمام ، وفيــه مادّةُ المجاهدين فى سبيل الله علىٰ تَطاوُلِ الأيّام ، وإليه تُجْبَى القَناطِيرُ المُقَنْطَرةُ من الأمْوال ، وعنه تصدُر المبيعاتُ من الأملاك ما بين أراض وأبْنية ومَحالّ . والوكيلُ علىٰ ذلك عنّا بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة المحروسةِ هو الذّابُّ عن حَوْزَته ، القائمُ بتأمين رَوْعته ، المجتَهِدُ فى تمييز رَجْعته ، وينبغى أن يكونَ من العلمـاء الأعْلام الائمّـه ، المعوَّل عليهم فى الأُمور المُهِمّه ، البَصيرِ بمـا يترجح به جانبُ بيتِ المـال المعمورِ ويكْشِف كلَّ غُمّه ، العَرِيقِ فى السِّيادة التى آنقادت إليها السجايا الجميلةُ بالأزِمّه .

ولمـا كان فلانٌ هو الرّاقِىَ هَضْبَةَ [هذه] المآثِر ، الطّالِـعَ كوكبُ مجْده السّافِر ، المستحِقَّ لكلّ آرتقاءٍ على المنابر ، ويَعُدُّ سَلَفًا كريمـا نَصيرًا فى المفاخر ، ويَمُتُّ ببَيْت

بحره زاخر؛ وله فى مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه بَحْثٌ فاق به الأشباهَ والنظائر، وعنده علمٌ بالمسائل المضروب مَثَلُها السّائر — فلذلك رسم ... ...

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مُحترِزًا فى كلّ ما يأتيه ويَذَرُه، ويقصِدُه ويُحرِّره، ويُورِدُه ويُصْدِرُه، ويُبيِّنه ويقدِّره، ويُخْفِيه ويُظْهِرُه، ويُبْدِيه ويَسْتُره، ويُدْنيه ويُحْضِرُه؛ ويقرِّرُ جانبَ بيْت المال المَعْمور، بما فيه الحظُّ المَوْفُور؛ والغِبطَة فى كلّ الأُمُور، وهو عالمٌ بما فيه صلاحُ الجُمْهُور؛ ومن رَغِب فى ابْتياع أراض وقَرَاح، وأبْنِيَة وأمْلاك ورحاب فِسَاح؛ مما هو جَارٍ فى ملك بيْت المال فلْيُوفِّرْ جانبَ القيمة على ما فيه الصَّلاح، وهو بحمد الله من بَيْت الدِّين والصَّلاح والإصْلاح، وهو يقوِّى بإسناده الأحاديثَ الصِّحاح؛ ومن له حقٌّ فى بيْت المال فلْيَسْمَعْ دعوى مُدَّعِيه، ولا يصرِفْ دِرْهَمًا ولا شيئًا إلا بحقٍّ واضحٍ فيما يثبته فيه، وهو وَكِيلٌ مأمونٌ فى تأتِّيه، [ومَعْنى الوكيل الذى يُوكَلُ إليه الأمْر الذى يَلِيه .

والوصايا كثيرةٌ وأجلُّها تَقْوى الله بالسَّمْع والبَصَر واللسان، فمن تمسَّك بها من إنْسان فإنّه يفوز بالإحسان؛ وهو غَنِيٌّ عن الوصايا بما فيه من البيان؛ والله يجعله فى كَلاءَة الرَّحْمن؛ بمنّه وكَرَمه ! . والخطّ الشريف أعلاه ... ... ، إن شاء الله تعالى .

قلتُ : وقد يُكتب لوكالة بيت المال ونحوها بالافتتاح بـ«أمّا بعدُ» على قاعدة أصْل الكتابة فى قَطْع الثلث . والكاتب فى ذلك على ما يراه بحسب ما يقتضيه الحال .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بطرابُلُس ـ مَن يُكتب له
فى قطع العادة ، مفتتحا بـ«رُسم»)

وهذه نسخةُ تَوْقيع من هـذه الرتبة بوظيفـة قراءة الحديث النَّبوىّ ، علىٰ قائله أفضل الصلاة والسلام، لمن آسمه «يحيى» يستضاء به فى ذلك، وهى :

رُسم بالأمرِ الشريف ـ لا زال رَميمُ الفَضْل بأرْواح عنايته يَحْيا، وأحاديثُ مِنَنه الحِسانِ تَعِيها أُذُنٌ واعيةٌ من طِيبِ السَّماعِ لا تَعْيَا، ولا بَرِحتْ أوْليـاءُ خِدَمه تُثْنى علىٰ صدقاته بألْسِنَة الأقلام، وتُديرُ(١) على الأسْماع من رَحيقها كُئوسًا مِسْكيَّةَ الخِتَام ـ أنْ يستقرَّ فى كذا آستقرارًا تَرْشُف الأسماعُ، كُئُوسَ روايتها فلا تَرْوىٰ، ورتب كماله يقْصُر عن طلوعها كُلُّ باعٍ، فَمُناواتُه لا تُنْوىٰ، ورُبُوعُ معروفه لا تَبِيد، وآياتُ صِـلَاته ينْطِقُ بتلاوتها كُلُّ بليغ فيُبْدِئُ ويُعِيد ؛ لأنَّه العـالِمُ الذى أحْيا من مدارِس العُلوم مادرَس، والفاضلُ الذى أضاءَ ببَصَر عُلومه ليلَ الجهْـل ولا غَرْوَ : «فَطُرَّةُ الصُّبْح تَمْحى آيَةَ الغَلَس»، والكاملُ الذى لا يَشُوبُ كمالَه نَقيصَه، والأمْثَلُ الذى أنْتَه المعالى رَخيصَه، والإمام الذى تأْتَمُّ وراءَه الأفاضـل، وتأخر عصْرُه ففاقَ الاوائل، مادَرَّس إلا وجمع من فوائد «أبى حَنيفة» و«آبن إدريس»، ولا عَرَّس بليْلِ الطَّلَب إلَّا حَمِد عنـد إدراك طَلَبه ذلك التَّعريس، ولا أعاد الدُّروسَ للطَّلَبة إلا وترشَّحتْ منه بالفَوائد، ولا جمع ما فصَّله العلماءُ إلا وأتىٰ بالجَمْع الذى لا نظير له فى القَرائِد .

---

(١) فى الأصل : وقد مرّ وهو تحريف واضح .

فليباشِرْ هـذه الوظيفةَ مُباشَرةً أنوارُ هداها لا تَخْمُدُ[(١)]، وليُـلازِمْها ملازمةً تشكره عليها الألسنة وتَحْمَد؛ وأنت ـ أدام الله تعالىٰ فوائدك ـ لا تحتاج إلى الوصايا إذْ أنْت بها عَالِم، وبأسْبابها مُتَمَسِّكٌ وبالقيامِ بها يَقِظٌ غيرُ نائم؛ لكن التقوىٰ [أوْلىٰ] بمن عرف الأمور، ولِباسُ سَوابِغِها يُبْعِـدُ كلَّ محْـذُور؛ والاعتماد علىٰ الخطِّ الشريفِ أعْلاه .

الصـــنف الثـالث

(من الوظائف بطَرابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية ـ الوظائف الدِّيوانية، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» باليـاء، وتشـتمل علىٰ وظائف)

منها ـ كِتابةُ السِّرِّ، ويعبَّر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بـ«صاحب ديوان المكاتبات» .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ من ذلك، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الأسْرارَ عنـد الأحْرار، وطَوَى الصُّحُفَ علىٰ حَسَـنات الأبْرار، وأجْرى الأقْلامَ تَرْجُماناً للأفْكار، وجعـل الحَفَظَةَ يَكْتُبون الأعمـالَ مع تَطاوُلِ الأعْمار، آناءَ اللَّيلِ وأطْرافَ النَّهار، وبَسط المَعانِى أرواحا، والألْفاظَ لهـا أشْباحا، مع التَّكْرار، وأبهج الصدور بصُدُورِ الكُتُبِ والإيراد والإصدار .

---

(١) فى القاموس خمدت النار كنصر وسمع .

نحمده على فضله المدرار ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إقرار ، وعمل بالجوارح بلا إنكار ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المصطفى من مضر بن نزار ، المخصوص بالمهاجرين والأنصار ، الثاوى بأشرف بقعة تزار ، المشرف كتاب الوحي : فهم يكتبون بما يمليه عليهم المختار ، وجبريل يلقى على قلبه الآيات والأذكار ، عن رب العزة المسبل الأستار ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما نفح روض معطار ، وسح صوب أمطار ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن ملاك الملك الشريف حفظ سره ، والاحتفال بكتبه الشريفة ولفظها ودره ، وخطابها ونثره ، وخطها ونشره ، وختمها وعطره ، وتجهيزها مع الأمناء الثقات الذين تؤمن غائلة أحدهم في كل أمره ؛ وما ألقى السر الشريف إلا لأكمل الأعيان ، وصدر الزمان ، وبليغ كسحبان ، وفصيح كقس في هذا الزمان ، وأصيل في الأنساب ، وعريق في كرم الأحساب ، وفاضل يعنو له فاضل بيسان ، وينشى لفظه الدر والمرجان ، وكاتب السر فلا يفوه بلسان .

ولما كان فلان هو واسطة عقد الأفاضل ، ورأس الرؤساء الأماثل ، وحافظ السر في السويداء من قلبه ، وناظم الدر في سطور كتبه ، والمورد على مسامعنا الشريفة من عبارته ألفاظا عذابا ، القائل صوابا ، والمجيد خطابا ، وإذا جهز مهما شريفا راعاه بعينه عودا وذهابا ، وإذا استعطف القلوب النافرة عادت الأعداء أحبابا ، وإذا أرعد وأبرق على مأزق أغنى عن الجيوش وأبدى عجبا عجابا ، وإذا كتب أنبت في القرطاس رياضا خصابا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كذا . فليحل هذا المنصب الشريف حلول القمر هالته ، وليعد إليه أيام سره وسروره الفائتة ، وليعرب عن أصول ثابتة ،

وفُروعٍ فى منابت الخيرِ نابِتَه ، وليَنفِّذِ المهماتِ الشَّريفةَ أوَّلاً فأوّلا من غير أنْ يَعْدِق مُهِمًّا بغـيره أو يُبَيِّتَه إلىٰ غَدِه، وليُحَرِّر البَريدَ المنصورَ بيديه غير معتمد فيه علىٰ غير رَشَدِه، ولا يَغِبْ عن وظيفتـه طَرْفةَ عَيْنٍ بل يكون كالنَّجْم فى رَصَدِه لمُرْتَصِـدِه ؛ ولْيُوصِ كُتَّاب الإنشاء لَدَيْه ، والمتَصَرِّفين بين يديه ، بكتم السِّرِّ فإن ذلك إليه ؛ فإذا أفْشىٰ أحدٌ من السِّرِّ كَلِمَه ، فليَزْجُرْه وليأمُرْه أن يحفظ لسانَه وقلمَه ، ولْيُعْطِ كلَّ قضيَّة ماتستحقها من تَنفِيذ كَلِمَه ؛ والابتداءاتُ والأجْوِبةُ فلْتَكُنْ ثغورها بألفاظه متشنِّبـة وعُقودُها بإملائه مُنْتَظِمَه ؛ فأمَّا الابتـداءُ فهو على اقْتِراحه ، وأمَّا الجوابُ فهو علىٰ ما يقتضيـه الكتابُ الوارد باصْطِلاحه ، ولا يملى إلَّا إلىٰ ثقاته ونُصَّاحه ؛ والكتبُ الملوكية فليوفِّها مقاصِدَها ، وليراعِ عَوائدَها ؛ والتَّقوىٰ فهى الهامُّ [من] أمْرِه ، وختامُ عِطْرِه ، وتَمامُ بَدْرِه ؛ والوصايا فهى كثيرةٌ لديْه وفى صَـدْرِه ، والله تعالىٰ يُجَمِّل به أوْقات عَصْرِه ، بمنّه وكرمه ! والخطُّ الشَّريف أعْلاه ... .

ومنها — نظر المملكة ، القائمة بها مقامَ الوِزارة .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ من ذلك ، وهى :

الحمدُ لله مُفِيض حُلَلِ إنعامِنا علىٰ مَن أخْلص فى طاعتنا الشَّريفـةِ قلبُهُ ولِسانُهُ ، ومُولِى فَضْـلِ آلائنا العَميمةِ علىٰ مَن أرْهَف فى مصالحها آلةَ عَزْمه وبنانَه ؛ ومُحَلِّى رُتَبِ عَلْيائنا الشَّريفةِ بمن أشْرق فى سمـاء المَعالى بَدْرُه و إنْسانُه ، وأينعتْ فى غصون الأمان قُطوفُه وأفْنانُه .

نحمدُه حمدًا يَبْلُغُ [به] أقصىٰ غاية المجْد مَن تبْتَسِم بجميل نَظَره الثُّغور ، وتَعْتَصِمُ بحميد خَبَره وخِبْرته الأُمور ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُشْرِق بها

البُـدور، ويُعتَمَدُ عليها فى الأيَّام والدُّهور؛ ونشهدُ أنَّ سـيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الهـادى إلى الحقِّ وإلى طريق مُسْـتقيم، والنَّاشرُ لواءَ العَدْل بسَنَنِه الواضح وشَرْعه القويم؛ وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين آهتدىٰ بهَدْيِـهم ذَوُو البصائر والأبْصار، وآرْتدىٰ بأرْدِيَتِهِم المُعْلَمةِ مقتفى الآثار من النُّظَّار، وسلَّمَ تسليمًا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ من أسْندنا إلىٰ نَظَرِه الجميلِ رُتْبَةَ عِزٍّ ما زالتْ بنُو الآمال عليها تَحُوم، وعدَقْنا بتَدْبيره الجميلِ مَنْصبَ سِيادَة ما بَرِحَتْ الأمَانىُّ له تَرُوم؛ واعتَمَدْنا علىٰ هِمَمِه العَلِيَّة فصَـدَّق الخُبْرُ الخَبَرَ، ورَكَنَّا إلىٰ حَمِيـدِ رَأيِه فشَهِد السَّمعُ له وأدَّى النَّظَـــر .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى رَقِىٰ فى ذِرْوَةِ هَذِه المعالى، وانْتَظم به عِقْدُ هذه اللآلى، وحَوىٰ بفَضِيلة البيانِ واللِّسانِ مالم تدركه المُرْهَفاتُ والعَوالى؛ فمـا حلَّ ذِرْوَةَ عِزٍّ إلَّا حلَّاها بنَظرِه الجميـل، ولا رَقِىٰ رُتْبَة سِـيادَة إلا وأسْفر فى ذِرْوَتِها وجْهُ صُبْحه الجميل، ولا عُدِق بنظَرِه كَفالَةُ رُتْبَة إلا وكان لهـا خيرَ كَفيل .

فلذلك رُسِم بالأمْرِ الشَّريفِ ــ لا زال يَنْتَصِى للرُّتَبِ العَلِيَّـة خيرَ مُنْجِد ومُعِـير، ويَختارُ للمَناصب السَّنِيَّة نِعْمَ المَولىٰ ونِعْمَ النَّصِير ــ أن يفوَّضَ إليه كذا فإنَّه القوىُّ الأمين، والمتمسكُ من تَقْوى الله تعالىٰ وكِفايَتِه بالسَّبَب المَتين، والمُسْتَنِدُ بجميـل كَفالَتِه وحَميدِ ديانَتِه إلىٰ حِصْن حَصِين، والمُسْتَذْرِى بأصالَتِه الطَّاهرة وإصابَتِه إلى الجُنَّةِ الواقِيَةِ والحَرَمِ الأمين .

فليَقَدَّمْ خِيرَةَ الله تعالىٰ ويُباشِرِ الجهةَ المذكورةَ بعزْمٍ لا يَنْبُو، وهِمَّة لا تَخْبُو، وتَدْبِير يتضاعَفُ علىٰ مَمَرِّ الأيَّام ويَرْبُو؛ ونَظَرٍ لا يعزُب عن مبـاشرته مثقالُ ذَرَّة إلا وهى من خاطره فى قَرار مَكين، وضَبْط لا تمتدُّ إليـه يدُ ملتمس إلا ويجدُ من مُرْهَفه

ما يَحُفُّ كَفَّها بالحدّ المَتِين . ولْيضاعِف هِمَّته، فى مصالح هذه الجهة التى عَدَقْناها بنظره السعيد، ولْيُوفِّر عزمَته، فإنّ الحازمَ من ألقَى السَّمْعَ وهو شهيد ؛ والوصايا كثيرةٌ ومثله لا يُدَلّ عليها، والتّنبيهاتُ واضحةٌ وهو ــ وفقه الله تعالىٰ ــ أهْدىٰ من أنْ يُرشَدَ إليها ؛ واللهُ يوفِّقه فى القَوْل والعَمَل، ويُصْلِحُ بجميل تدبيره وحَميدِ تأثيلِهِ كلَّ خَلَل ؛ والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ــ نظر الجَيْش بها :

وهذه نسخة توقيع بها لمن لقبه «شَمْس الدِّين» وهى :

الحمدُ لله الذى أطْلع فى سماء المَعالِى شَمْسًا مُنيرَه، وأيْنع غُروسَ أُولِى الصَّدارَة بِعِهادِ سُحُب عَوارِفِه الغَزيرَه، وأبْدع الإحْسانَ إلىٰ من قدّمه الاختبارُ والاختيارُ علىٰ بَصيرَه .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى عمّ فَضْلُها، ومُدّ علىٰ أوْلياء الدولة القاهرة ظِلُّها ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لَدَيْه، وتُسْلِفُ ما يَجِدُه المتمسِّكُ بها يومَ العَرْض عَلَيْه ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من بُعِثَ إلى الأُمَم كافّه، وأكْرمُ مَن غدَتْ أملاكُ النَّصر بآيته حافّه ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حازوا بصُحْبته الشَّرف، وفازُوا بطاعة اللهِ وطاعَته من الجنان بغُرَف من فَوْقها غُرَف .

وبعدُ، فإنّ أوْلىٰ ما عُدِق بالأكْفاء، وأحَقّ ما صُرِف إليه وجه الاعْتناء، وأجْدرَ ما أُوقِظ له طَرْفُ كافٍ لا يُلِمُّ بالإغْفاء ــ أمْرُ الجيوش المنصورة بطَرابُلُس

المحروسة التى لا ينهض بأعباء مصالحها إلا من عُرف بالسّداد فى قلمه وكَلمه، وأُلِفَ منه حُسْنُ التصرُّف فيما يُبديه من نزاهته ويُظهِره من هِممه، بخبرة مؤكَّده، وآراء مسدَّده، ومعرفة أوضاع ترتيبها وأحوالها، وقواعد مُقدّميها وأبطالها، وكفاية تفتح رحاب حالها.

ولما كان فلانٌ هو الصَّدْرَ المليَّ بوافى الضَّبط ووافر الاهتمام، والكافىَ الذى نطقت بكفايته ألسنةُ الخرصان وأفواهُ الأقلام، والضَّابطَ الذى لا يعجزُ فهمُه عن إحاطة العلم بذوى الآلام.

فلذلك رُسم بالأمر الشريف – لا زال يقدّمُ للمراتب، كافيا مشكورا، ويُرَشِّح للمناصب، صدرًا أضحىٰ بالأمانة مشهورا – أن يفوض إليه كذا: لأنه الصَّدر الذى تزاحمتْ ألسنةُ الثناء عليه، وترادفتْ بين أيدينا محامدُه فقرّرنا العوارف لديه، وشُكرتْ عندنا هِممُه فى سَداد كلِّ ما يُباشره، وذُكرتْ لدينا بالخير سيرتُه وسرائرُه.

فليُباشر هذه الوظيفة الجليلة متحلّيًا بين الأنام بعقودها، مُطلِعًا شمس نزاهته فى فلك سعودها، ناهضًا بأعباء منصبه السعيد، ضابطًا قواعده بكلّ تحرير تليد، متقنًا ديوانَ الجيوش المنصوره، مُعْملًا فى ملاحظتها نافذَ البصر وحُسنىٰ البصيره، محرِّرًا أوراق العِدّة والعُدّه، باذلًا فى ضبط الحلِّ اهتمامَه وجُهْدَه، والله تعالىٰ يُسْعِدُ جَدَّه، ويُجدِّدُ سَعْدَه، والخطُّ الشريفُ أعلاه ... ... إن شاء الله تعالىٰ.

قلتُ: ورُبَّما كُتب مفتتحًا فى هذه الرتبة بـ«أمّا بعد» فإنها أصل ما يكتب فى قطع الثلث.

المرتبـــة الثانية

(من مراتب أرباب الوظائف الديوانية بطرابُلُس ـ من يُكتب له فى قَطْع العادة بـ«مَجْلس القاضى»)

وهو قليلُ الوقوع . والغالب فى ذلك أن يكتب عن نائب السلطنة بها .

وهذه نسخةُ توْقيع من هذه الرتبة بكتابة الدَّسْت بطرابُلُس ، يقاسُ عليه ما عداه من ذلك ، وهى :

رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال أمْره الشريفُ ، يزيد من يَصْطَفيه شرَفا ، وبِرُّه المُنيفُ ، يُفيد من يجْتَبيه تُحفا ، وخَيْرُه المُطيفُ ، يُجيد لمن يختاره جُودا ، ويسُرُّ قلْبَ مَن رفعه إلىٰ صَــدْر الدَّسْت صُعودا ، فيُبوِّئُه من جنَّات العَلْياء غُرفا ـ أنْ يَسْتقرّ فى كذا : آستقرارًا تُجتَنَىٰ منه ثِمار الخيرات ، وتُجلَىٰ عليه عَروسُ المَسَرَّات ؛ لأنَّه الرئيسُ الذى تَفْتخرُ هــذه الوظيفةُ بآنتسابها إليه ، وتَتجمَّلُ حُلَلُها وألْوِيَتُها إذا نُشِرت عليه ؛ والفَاضِلُ الذى ألقَتْ إليه البلاغةُ زِمامَها ، والكاملُ الذى ملك بيانَها ونظامَها ؛ والأديبُ الذى لا يُدْرَكُ فى الآداب ، واللَّبيبُ الذى يقصُر عنه طُولُ عامَّة الطُّلَّاب ؛ كَمْ له من كِتَابَةٍ حَسَنة الآتِّساق ، وبَلَاغَة حصَل علىٰ فَضْلِها الآتِّفاق ، ودِيانَةٍ أطْلَق فيها لِسانَهُ ويَدَه فشكرها الناسُ على الإطْلاق ؛ فهو مُسْتَنَد الرآســه ، وآبنُ من حاز كلَّ فَخَار ورَآســه ؛ والعَلَمُ المشهورُ عِلْمُه ، وصاحبُ القَلَمَ المشكورُ رَقْمُه ؛ فالمناصبُ بارتِفاعه إليها مُفْتخِرَه ، والمراتِبُ بعَلَائه مُسْتَبْشِرَه ؛ والأسْمَاعُ بفضائله مُشَــنَّفه ، والأسْجاعُ بكَلِمه مُشَرَّفَه .

فليباشِرْ هــذه الوظِيفَه ، وليَسلُكْ فيها طَريقَ نَفْســه العَفِيفَه ؛ وليُدَبِّجِ القِصَصَ بأقلامه ، وليُبهِج التَّواقيعَ بمــا يُوقِّع مُبْرَمُ فصيحِ كَلَامه ؛ وليُزَيِّنِ الطُّروسَ ، بكتابتِه ،

ولْيُنْعِش النُّفوسَ ؛ ببلاغتـه ؛ وليَجْمُلْ من المباشرة ما تُصبح منـه مطالعُ شَرَفه مُنيره ، وتُمْسى به عينُ مُحِبِّه قريرَه ؛ والوَصايا فهو خَطيبُ منبَرِها ، ولْيَبُ مَوردِها ومَصْدَرِها ؛ والتَّقوىٰ فلْيلازِمْ فيها شِعَارَه ، ولْيداوِمْ بها علىٰ ما يَبْلُغُ به أَوْطارَه ؛ والله تعالىٰ يجعـلُ سُعودَه كلَّ يوم فى ٱزدياد ، ويسهلُ له ما يرفعُ ذِكْرَه بين العباد ، بمنّه وكرمه ! . والاعتماد فى ذلك على الخطّ الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الثانى

(من الوظائف بطرابُلُس ـ ما هو خارجٌ عن حاضرتهـا ، وهـــم علىٰ ثلاثة أصْناف أيضـا)

الصِّـــنْف الأوّل

(أرباب السيوف)

وقد تقـدّم أنّه ليس بها مقدّمُ ألْف سوىٰ نائب السَّلْطنة بها ، وحينئذ فالنيابات بمعاملتها علىٰ طبقتيـــن :

الطبقـــة الأولىٰ

(الطَّبْلَخاناه)

ومَراسيمُهم تُكتبُ فى قَطْع الثلث بـ«السَّامىّ» بالياء ، مفتتحة بـ«الحمد لله» .

وهـذه نسخةُ مرسوم شَريف من ذلك بنيابة قَلْعة ، تصلح لنائب اللَّاذِقيّـة ، يُنْسج علىٰ منوالهـا ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الحُصونَ الإسلاميَّةَ فى أيّامنا الزّاهرةِ ، مصَفَّحةً بالصِّفاح ، والثُّغورَ المَصُونَةَ فى دَوْلتنا القاهرةِ ، مشَرَّفةً بأسِنَّة الرِّماح ، والمعاقِلَ المحروسةَ مخصوصةً من أوْليائنا بمن يُعَدُّ بَأْسُه لها أوْقَى الجُنَنِ وذَبُّه عنها أقْوى السِّلاح .

نحمدُه على نِعَمِه التى عَوارِفُها عَميمَه ، وطوارِفُها كالتّالدةِ لمَزِيد مُسْتَدِيمَه ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَنطِقُ الضمائرُ قبل الألْسنة بإخلاصِها ، وتُشْرِقُ القلوبُ بعموم إحاطَتِها بها وٱخْتِصاصِها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أشْرقتْ بنور مِلَّتِـه الظُّلَمُ ، وٱرتوت بفَوْر شَريعتِـه الأُمَمُ ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبِـه الذين ٱمتَطَوْا إلى جهـاد أعْداء الله وأعْدائِه غارِبَ الهِمَم ، صـلاةً سارِيةً كالرِّياح هامِيَةً كالدِّيَم ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ ما عُقِدَ عليه فى صِـيانةَ الحُصونِ الخناصِر ، وٱعْتُمِدَ علىٰ مِثْله فى كِفايةِ المَعاقِل إذا لم يكُنْ غيرَ تأْييدِ اللهِ وحدَّ السَّـيف ناصِر ــ من هو فى حِفْظ ما يليه كالصُّدور التى تصونُ الأسْرار ، والكَمائمِ التى تحُوط الثِّمار ، مع اليَقَظَة التى تَذُود الطَّيْفَ أنْ يُلِمَّ بحِماةِ حماه ، والفِطْنة التى تَصُدُّ الفِكْرَ أنْ يتخيَّلَ فيه ما ٱشتمل عليه وحَواه ، والأمانَةِ التى ينوِى فيها طاعةَ الله وطاعةَ رسوله صلَّى الله عليه وسلم وطاعتَنا الشريفة ولكلِّ ٱمْرِئٍ ما نواه .

ولمـا كان فلانٌ هو السـيف الذى تروق تجربَتُـه ويَرُوع تجريدُه ، وإذا ورد فى الوَغىٰ مَنْهلَ حَرْبٍ فَمَشْرَعُه من كلِّ كَمِيٍّ وَرِيدُه ــ ٱقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُرهِفَ حدَّه بحِفْظ أسْنَى الحصونِ عندنا مكانًا ومكانَه ، وأسْمى المعاقل رِفعةً وعِزّةً وصِيانَه .

فرُسِم بالأمْر الشّريف أن تفوّض إليه النيابةُ بقلعة كذا .

فليباشِرْ هذه النِّيابةَ السَّامِيَ قدرُها ، الكامِلَ فى أُفُقِ الرُّتب بدرُها ، مباشرةً تصُدُّ الأفكارَ ، عن توهُّمِها ، والأبصارَ ، عن توسُّمِها ، والخواطِرَ ، عن تخيُّلِ مَغْناها ، والسَّرائِرَ ، عن تمثُّل صورتها ومَعْناها .

وليكُنْ لمصالحها متلَمِّحا ، ولنَجْوىٰ رجالِها متصفِّحا ، ولأعْذار حُماتها مُزِيحا ، وللخواطر من أسْباب كفايتها مُرِيحا ، ولمواطِنها عامِرا ، وبما قلَّ وجلَّ من مصالحها آمِرا ، ولوظائفها مُقِيما ، وللنَّظَر فى الكبير والصغير من أُمُورها مُدِيما ، ولِخدْمتها مُضاعِفا ، ولكلِّ ما يتعيَّنُ الاحتفال به من مُهِمَّاتها واقِفا ، ومِلاكُ الوصايا تقْوَى الله : وهى أوَّلُ ما يقدِّمه بين يديه ، وأوْلىٰ ما ينبغى أن يصْرِفَ نظرَه إليه ، فلْيجعَلْ ذلك خُلُقَ نَفْسه ، ومَزِيَّةَ يومِه علىٰ أمْسه ، والخير يكونُ . والخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقـــة الثـانية

(العشرات)

ومراسيمهم إن كُتبت من الأبْواب السُّلطانية ففى قَطْع الثلث بـ«السَّامى» بغير ياء ، مفتتحة بـ«أمَّا بعد» إلا أنَّ الغالبَ كِتابتُها عن نائب السَّلطنة .

وهذه نسخةُ مَرْسوم شريف بنيابة قَلْعة بَلاطُنُس ، من معاملتها وهى :

أمَّا بعـد حمدِ اللهِ علىٰ نِعَمٍ توالىٰ رِفْدُها ، ووجب شكْرُها وحَمْدُها ، وعَذُب لذَوِى الآمالِ وِرْدُها ، والصَّلاةِ والسـلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى رُفع به لقُرَيْش مَجْدُها ، فعَلا جَدُّها ، وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يُحصىٰ عَددُها ولا يحصُرُ حَدُّها — فإنَّه لمَّا كان فلانٌ ممن قَدُمتْ تقادمُ خدمه ، وتعالَىٰ به إلىٰ العَلْياء سَامِى هِمَمِه ، وترَفَّع به حُسْنُ

ولائه حتى أعلت الدولةُ من شأنه ورفعتْ من عَلَمه، وآستكفته لَصُون الحصُون، وجادَتْ عليه بصَوْب إحسان روَّى الأمانيَّ فأضحت نَضرَةَ الغُصون ؛ وكانت قلعةُ فلانة هى القلعةُ التى شمخَتْ بأنفها على القلاع عُلوًّا، وسامَت الجَوْزاءَ سُمُوًّا، فوجب أن لا يُسْتَحْفَظَ عليها وفيها ، إلّا مَن عُرِف بحسْن المحافظة وتَوَقِّيها ؛ وكان المشار إليه هو عينَ هـذه الأوصاف ، والوارِدَ من حُسْن الطاعة الموردَ الصَّاف ـ آقتضى حسنُ الرأيِ الشَّريفِ أن نُنَوِّه بذكره، ونَرفَعَ من قَدْره .

ولذلك رُسم ... ... ـ لا زال ... ... أن تفوَّضَ إليه النيابةُ بهذه القلعة المحروسه، وأن تكون بأوَانِس صِفاته مأنوسه .

فلْيكن فيما آستُحْفِظَ كُفوا ، وليُورِد الرَّعيَّةَ من حُسْن السِّيرة صَفْوا ، وإذا تعارَضَ حكمُ الانتقامِ وكان الذنبُ دُونَ الحدِّ فلْيقَدِّمْ عَفْوا . وعليه بالعَدْل ، فإنّه زِمامُ الفَصْل، والقَلْعَةَ ورجالَها، وذَخائرَها وأموالَها، فلْيُمعِن النظر فى ذلك بُكْرةً وأصيلا، وإجْمالا وتَفْصيلا، وتَحْصينًا وتَحْصيلا . وعليه بالتَّمسُّك بالشَّريعة المطهَّره، وأحْكامها المحرَّرَه ؛ وليَرْدَعْ أهـل الفساد، ويقابِلْ من ظَهر منه العِناد، بما يُؤَمِّن المناهِج، ويجدِّدُ المَباهِج ؛ والوصايا كثيره، فلْيَكُنْ ممَّا ذكر على بَصيره ؛ أعانه الله على ما أوْلاه ، ورَعاه فيما آسْترعاه ؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجّةٌ بمقتضاه ؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الصـــنف الثـانى

(ممَّا هو خارج عن حاضرة طرابُلُس ـ الوظائفُ الدِّينية)

والغالبُ كِتابتها عن نائب السلطنة بطَرابُلُس . فإن كُتب شَىْءٌ منها عن الأبواب السلطانية، كان فى قَطْع العادة «بمجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم» .

وهـذه نُسخة توقيع من ذلك بنظر وَقْف على جامع بمعاملة طرابُلُس، كُتب به لمن لقبه «زَيْن الدِّين» وهي :

رُسِم بالأمر الشَّريف ـ لا زال كَرِيمُ نَظَرِه يستَنِيبُ عنه بمصالح بيُوت الله تعالىٰ من تَزْدادُ بنظره شَرَفًا وزَيْنا ، ويعَيِّنُ لهـا من الأعْيـان من تُسَرُّ به خاطِرًا وتَقَرُّ به عَيْنا ، ويمنَحُها مَن إذا باراه مُبارٍ وُجِد بينهما بَوْنا وبَيْنا ، ويقرّر لهـا كلَّ كافٍ إذا فاه رَاءٍ بوصْف آرائه المَمْوحَةِ عَيَّن صَوابَها ولا يَجِدُ عليها عَيْنا ـ أنْ يستقِرّ بالنَّظرِ علىٰ كذا : آستقرارًا يَرَى الوقْفُ بنَظَرِه علىٰ رَبْعه طَلاوَه ، ويجدُ بمباشرته فى صَحْنه حَلاوَه ، ويُعْرِب عن آستمراره علىٰ حُسْن الثَّناء ، ويَجِدُ من نيلِ رَيْعه أكْمل وَفَاء ، لأنّه الناظرُ الذى لا يَمَلُّ إنْسانُه ، من حُسْن النَّظر ، ولا يكِلُّ لِسانُه ، عن الأمْر بالمصالح ولفْظُه عن إلْقاءِ الدُّرَر ، والشَّريفُ الذى وُجِدَتْ مخايِلُ شَرَفه من فَضْـل خِلاله ، والجَوادُ الحائزُ بجُوده قَصَب السَّبْق علىٰ أمْثاله ، والكاملُ الذى لا تُوجدُ فى صفاته نَقِيصَه ، والفاضِلُ الذى أتَتْه الفضائل علىٰ رَغْمِها رَخِيصَه .

فلْيباشِرْ هذا النَّظَر مباشرةً ما تكَحَّل ناظِرُه فيها بالوَسَن ، ولْيُقابِلْها من جميل سُلوكه بكل وَجْه حَسَن ، ولْيَبْـدَأْ أوْقاف الجـامع المذكور بالعِمارَه ، ولْيقطَعْ بمُدْيةِ أمانَتِه يَدَ من يَشُنّ علىٰ ماله الغَارَه ، ولْيأمُرْ أرْبابَ وظائفـه باللُّزوم ، وليخُصَّ كُلًّا منهـم من فَضْـله بالعموم ، وليَتّقِ اللهَ تعـالىٰ فى القَوْل والعَمَل ، وليجتَهِدْ علىٰ أن لا يَتَخلَّل مباشرته الخَلَل ، والاعْتادُ علىٰ الخطّ الشَّريف أعْلاه ... .

الصـــنف الثـالث

(مما هو خارجٌ عن حاضرة طرابُلُس ـ أرْباب الوظائفِ الدِّيوانية)

وقلّ أن يُكْتب فيهـا شَىْءٌ عن الأبْواب الشَّريفةِ السُّلطانية، وانّ الغالبَ كتابةُ ما يكتب فيها من نائبِ السَّلْطنة بطرَابُلُس . فإن اتّفق كتابةُ شَىْءٍ من ذلك عن الأبواب السلطانية ، مَشَىٰ الكاتِبُ فيه علىٰ نَهج ما تقدّم فى الوظائف الدِّينيَّة : من كتَابَتِـه فى قَطْع العادة بـ«مجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم» لا يختلف الحال منـه فى ذلك إلّا فى الفَرْق بين التَّعلُّقات الدِّينية والدِّيوانيَّـة . والكاتب المـاهر يصَرِّفُ قلمه فى ذلك وفى كلِّ مايحدُث من غيره علىٰ وَفْق ماتقتضيه الحال، وبالله المستعان .

النيابة الرابعـــة

(نيابة حَماةَ . ووظائفُها التى تُكْتب بها من الأبواب السلطانية، ما بحاضرتها خاصّة ، وهى علىٰ ثلاثة أصْناف)

الصـــنف الأوّل

(أرباب السيوف)

وليس بهـا منهم إلّا نائبُ السلطنة خاصَّة . ويُكْتَب له تقليـدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بمضاعَفَة النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة حَماة :

الحمدُ لله ذى التَّدْبير اللَّطِيف ، والعَوْن المُطِيف ، والحِياطَةِ التى تَسْتوعبُ كُلَّ تَصْريف وكلَّ تكْليف .

نحمده بمحامد جميلة التفويف، حسنة التأليف، محكمة التكييف، بريّة من التطفيف، حريّة بكلّ شكر منيف، وذكر شريف؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خلص تحريرها عن كلّ تحريف، وتنزّه مقالها عن تسويد تفنيد أو تسويف؛ ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله صاحب الدين الحنيف، والمبعوث بالرّحمة والتّخفيف؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة متناوبة تناوب الصّرير والصّريف، والشّتاء والمصيف؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ من شيم الدّولة وسجاياها، وأحكامها وقضاياها؛ تقديم الأهمّ فالأهمّ، وتحتيم الأتمّ من الرّأي وتحكيم التّدبير الأعمّ؛ وفعل كلّ ما يحوط الممالك ويحفظها، ويذكي العيون لملاحظتها ويوقظها: لما أوجبه الله من حقوقها، وحظره من عقوقها؛ ولا يكون ذلك إلا باختيار الأولياء لضبطها، والتّعويل على الأملياء بالقيام بشرطها، والاستناد من الزّعماء إلى من يوفّى من الخرّاجة[1] والعيون وافى قسطها .

ولما كانت المملكة الحموية جديرة بالالتفات، حقيقة بالحياطة من جميع الجهات؛ مستدعية من جميل النّظر كلّ ما يحرس ربعها، ويديم نفعها، ويحفّل ضرعها، ويلمّ شعثها ويشعب صدعها، ويسرّ سمعها، ويفعم شرعها، ويعظّم شرعها؛ ويكتنفها اكتناف السّور والسّوار، والهالة للبدر والأكمام للثّمار؛ وكان فلانٌ هو المتقشّع سحاب هذا الوصف عن بدره المنير، والمتقلّع ضباب هذا التفويض عن نور شمسه المنعشة قوى كلّ نبت نضير، والذى بأهليّته لرتبة هذا التفويض ما خاب المستخير، ولا ندم المستشير، والذى يفرده استحقاقه بهذه الرتبة فلا يقول أحدٌ من كبير ولا صغير امتثالا للمراسيم الشريفة فى حقّه : «منّا أميرٌ ومنكم أمير» ـ اقتضى

(١) فى القاموس "رجل خرّاج ولّاج كثير الظرف والاحتيال" ولعله المراد هنا .

جميلُ الرأيِ المُنيف ، أن خرج الأمرُ الشريف ـ لا برح يُحسِن التَّعْويل ، ويَهْدِى إلىٰ سواء السبيل ، ويَمْضى مَضاءَ القضاءِ المُنَزَّل والسيف الصَّقيل ـ أن تفوَّضَ إليه نيابةُ السلطنة المعظمة فى مملكة كذا وكذا .

فلْيَقَـدَّمْ خيرَةَ الله قائِلًا وفاعلا ، ومُقيما وراحلا ، ومُوجِّهًا ومواجِهًا ومُسَـجِّلا وساجلا ، وعالِمًا وعاملا ؛ ومعتمدًا على الله فى أمْرِه كلِّه . وليَكُنْ من هذه المعرفة قريبًا ، وعلىٰ كلِّ شىءٍ حتّىٰ علىٰ نفسه رَقِيبا ؛ وإذا آتَّقَى الله كفاه اللهُ الناس ، وإن آتقى الناس لم يُغْنُوا عنه من اللهِ شيئًا فلْيَقِسْ علىٰ هذا القياس ، ويَقْتَبِسْ هذا الاقتباس .

وأما الوصايا فالعساكر المنصورة هم مِخْلَبُ الظَّفَر وظُفْره ، وبهم يُكْشَف من كل عَدُوٍّ سرُّه ، ويُخَلَّىٰ وطنُه ووَكْرُه ، ويضْرَبُ زيدُه وعَمْره ، ويبَدَّدُ جَمْعه ، ويُساء صُنْعه ، ويعمىٰ بَصَرُه ويَصَمُّ سَمْعُه ؛ وهم أسْوارٌ تُجاه الأسْوار ، وأمواجٌ تَنْدفِعُ وتَنْدفِقُ أعظم من آندفاق البحار ، ومامنهم إلا مَن هو عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخْيار ؛ فأحسِنِ استجلابَ خواطِرِهم ، وآستِخْلاب بواطنهم وسرائرهم ، وآستِخْلاب الشائع(١) من طاعاتهم فى مواردِهم ومصادِرِهم ؛ وكُنْ عليهم شَفُوقا ، وبهم فى غير الطاعة والاستعباد رَفُوقا ، وأوْجب لهم بالجهاد والاجتهاد حُقُوقا ، وآصرف لهم حِمْلا لأعباء المهِمَّات والملمَّات مُطِيقا ؛ وآستَشِرْ منهم ذوى الرأْيِ المصيب ، ومن أحْسن التَّجْرِيب ، ومن تَحَقَّقَ منه النُّصْح من الكُهُول والشِّيب ، ممن كل بغيرة منه ما شَبَّ فإنَّ المرْءَ كثيرٌ بأخيه ، وإذا آجتمعتْ غُصونٌ فى يد أيَّدَ عَسَتْ(٢) علىٰ قَصْفه وقَصْفُ كلِّ واحدَة فواحِدَة لا يُعْيِيه .

(١) فى الأصل "السابع مع من" الخ وهو تحريف كما لايخفى .

(٢) فى اللسان "عسى القضيب يبس" . وهو مناسب للمقام .

والجهاد(١) فهو مِلاكُ كلِّ ٱستحواءٍ وٱستحواذ ، وبه تميزُ أفعال الكُفّار بالنَّفاد وأفعالُ الدِّين الحنيف بالنَّفاذ، وماجعل اللهُ للدافعين عن دِين الله سواه، ولامُزجِى صَوْبِ صَوابٍ إلا إيّاه ؛ وعلىٰ ذلك جعل الله أرْزاقَهم ، وهيَّأ لهم به إرفاقَهم ؛ فليكرِمْهم بأخذ الأُهْبه ، فى الٱعتلاء والٱنْصِباب فى كلِّ هَضْبه ، والٱستعداد برباط الخَيْل وكلِّ قُوّه .

ومن الوصايا التى ينبغى أنها ترسَمُ فى جبهات الفِكَر [دون توانٍ] أو ركون أن لا يستحقرعدوًّا ، ولا يَستهزئَ بقِلَّته لا رَواحًا ولا غُدُوًّا ، وليكُنْ للاستظهار مُستوعبا ، ولإعمالِ المكايد مستوثِبا ، وللكَشْف بعد الكَشْف مُستَصْحِبا ، وغير ذلك من الأُمور ، التى بها صلاحُ الجُمْهور .

والشَّرع الشريف وتنفيذ أحكامه ، وتَقوية أيْدى حُكَّامه ؛ فهو مِيزانُ الإسلام والسَّلامه ، وقِوامُ الصَّلاح والٱستقامه ، وأخُوه المُرْتضِع من ثَدْى الحَقِّ ، العَدْلُ الذى كم شاق وكثيرا ما على أهل الباطل شَقّ ؛ وعَمَّ القريبَ والبعيدَ ، والسَّائق والشَّهيد ، والمُرِيبَ والمريد ، وكلَّ ذى ضَعْف مُبِيد ، وكلَّ ذى بأس شديد ، وكلَّ مُنتَشِيرٍ ومُستَرِيد ؛ فإنّ ذلك إذا شَمِل حاط ، وتمّ به الٱرتيادُ والٱرْتباط ، وهدَىٰ إلىٰ أقوَمِ صِراط .

والحُدود فهى حياةُ النفوس ، وبها تُزَالُ البُؤُوس ؛ فأقِمْها ما لم تُدْرأ بالشُّبُهات الشَّرعيه ، والأُمور المَرْعِيَّه .

والأموالُ فهى مَجْلَبة الرِّجال ، ومَخْلبةُ الآمال ؛ وبها يُشَدُّ الأزْر ، ويَقْوَى الٱستظهارُ [و] الظَّهْر ، فيَشُدّ من الذين أمْرُها بهم معْذُوق ، ويُقَوِّى أيْديهم بكلِّ طريق فى كلِّ طُرُوق ، بحيث لا يؤخَذ إلا الحق ولا يترك شىءٌ من الحقوق .

(١) فى الأصل "والاجتهاد" وهو غلط .

والرعيةُ فهُم عند وَالى الأمر ودائِـعُ : ينبغى أنَّها تكون مَحفوظه ، وبعين الاعْتناء ملْحُوظَه ؛ فأحسن جِوارَهم ، وأزِل نِفارَهُم ، وٱكْفُف عنهم مَضارَّهم ، ولا تعامِلْهم إلّا بمـا لا تُسْأَلُ عنه غدًا بين يَدَى ربِّك فإنّه يراك حِين تَقُوم ، وأعْدِدْ جوابًا لذلك فكلُّ راعٍ مَسْئُول .

وأمّا غير ذلك فلا بدّ أن تُطْلِعَك المباشرةُ علىٰ خفايا تُغْنِيك عن المُؤامره ، وستَتَوالَىٰ إليك الأَجْوِبةُ عنـد المُسافَرَة فى المكاتبات الوَارِدَةِ والصَّادره ، والله يوفقك فى كلِّ مَنْهج تسلكه وتقْتَفيه ، ويسدِّدُك فيما من ذلك تَنْتَحِيه .

قلتُ : أمّا سائر أرْباب الوظائف بهـا : كشَدِّ الدواوين ، وشدّ مراكز البَرِيد وغيرهما ، فقد جَرتِ العادة أنّ النائب يستقلُّ بتوليتها . فإن قدِّر كتابةُ شيءٍ من ذلك لأحد بهـا ، كُتب لمن يكون طبلخاناه فى قَطْع النصف بـ« السامى » بغير ياء ، ولمن يكون عشرة فى قَطْع الثلث بـ«مجلس الأمير» كما فى غيرها .

الصـــنف الثـانى

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم علىٰ مَرْتبتين)

المرتبة الأولىٰ — من يُكتب له فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ بالياء» . وهم قُضاة القُضَاة الأرْبعة .

المرتبة الثانية — من يُكتب له فى قَطْع العادة : إمّا فى المَنْصُورىّ ، مفتتحًا بـ«أمّا بعدُ» وإما فى الصَّغير مفتتحًا بـ«رُسِم» . وعلىٰ ذلك تُكتب تواقيع قضاة العَسْكر بهـا ، ومفتى دار العَدْل ، والمُحتَسِب ، ووَكيل بيْت المـال ، ووظائف

التّداريس والتصادير، ونظر [1] إن كتب شيءٌ من ذلك عن الأبواب السلطانية، وإلّا فالغالبُ كتابةُ ذلك عن النائب بها [2] .

النيابة الخامسة

(نيابة صَفَد)

قد تقدّم فى الكلام على المكاتبات أنّها فى رتبة نيابة طرَابُلُس وحَماةَ فى المكاتبة، وأنّها تُذْكر بعد حَماةَ فى المطلقات .

ووظائفها التى تولّى من الأبواب السّلطانية علىٰ ثلاثة أصناف .

الصنف الأوّل

(أرْباب السيوف، وفيه وظيفتان)

الوظيفة الأولىٰ

(نيابة السلطنة بها، ويكتب تقليده فى قطْع الثلثين)

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السّلطنة بصَفَد، كُتب به لسيف الدين «قطلقتمش» السلحدار الناصرى، فى سابع رمضان سنة عَشر وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ، وهى :

الحمدُ لله الذى صانَ الثُّغورَ المحروسةَ من أوْليائنا بسَيْف لا تَنْبُو مَضارِبُه، وخصّ أسْنى الممالك المصُونة من أصْفيائِنا بعَضْب لا يَفُلُّ غَرْبَه مُحَارِبُه، وقدّم علىٰ زَعامَة

(١) بياض بالأصل ولعله الأحباس .

(٢) ترك الكلام على الصنف الثالث وهم أرباب الوظائف الديوانية كما يؤخذ من نظائره السابقة واللاحقة .

الجيوش من خواصّنا لَيْثًا يسكُنُ إليه كلُّ أَسَدٍ من أُسدٍ ذائلة(١) ثَعالبُه ، حافِظ(٢) نطاق البَحْر من أبْطال دولتنا بكلّ كَمِىّ تصدّ البحرَ مهابتُه أنْ يَسْتقلَّ براكبه أو تستقرّ على ظهره مراكبُه ، وناشر(٢) لواءِ عدْلِنا فى أقاليمنا بما يُغنى كلَّ قُطْر [عن] أن تتدفّق جَداولُه أو تستهلّ به سَحائبُه .

نحمَدُه على نِعَمه التى جعلتْ سيْفَ الجهاد رائدَ أوامرِنا ، وقائدَ جيوشنا إلى مواقف النَّصر وعَساكرِنا ، وذائدَ أعْداءِ الملة عن أطْراف ممالكنا التى أَسْبَقُ إليها من رَجْع النَّفَس فى الدُّجى تألُّقُ نجوم ذَوابِلنا ، وفى الضُّحى تبلُّجُ غُرَرِ صَوارمنا ؛ ونَشْهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يستظلُّ الإيمانُ ، تحت لِوائها ، وتَعْبَق الأكْوانُ ، بما تنطق به الألْسنةُ من ارْوائها ، ويُشْرِق الوجودُ بما يبدُو على الوجوه من رُوائها ، وتُجادِلُ أعداءَها فى الآفاق لرفْع كَلِمة مِلَّتها على المِلَل وإعْلائها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خاتَمُ الأنبياء ، وأشْرفُ حَمَلَة الأنْباء ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه المخصوصِين بأسْنى مراتِب الاجْتِباء ، صلاةً دائمةً بدوام الأرْض والسماء ، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإنَّ أولى من فُوِّضتْ إليه زَعامةُ الجيوش بأسْنَى الممالك ، وعُدِق به من تَقدُّم العساكر ما يُرجِف بمهابته هُناك أرْضَ العدوِّ هُنالك ، وعُقِد به للرعايا لِواءُ عدل تَجلَّى بإشراق لَيلَ الظُّلْم الحالك ، وعُوِّل عليه من جميل السيرة فيما تَعْمُر به البلادُ وتأمَنُ به الرعايا وتَطْمئنُّ به المسالك ـ من لم يزَلْ فى خدمة الدولة القاهرة سيفًا تَرْهَبُ العدا حدَّه ، ويخافُ أهلُ الكُفر فتكاتِه تحقُّقًا أنَّ آجالهم عِنده ، ويتوقَّعُ كلُّ كَمِىٍّ من عظماء الشِّرك أنّ رأسَه سيكونُ غِمْدَه ؛ مع سياسة تشتملُ على الرعايا

(١) ذائلة طويلة الذيلة .
(٢) حق التركيب «وحفظ عطفا على صان» ... ونشر لواء .

ظلالُها الممتدّه، وسيرة تضعُ الأشياءَ مواضِعَها فلا تَضَعُ الحدّةَ موضع اللّين ولا اللّينَ موضعَ الحدّه، وتوفُّرٍ على عمارة البلاد يُعِينُ على رَيّها طَلَّ الأنْواء والوابل، وبراءة تجعلُ ما يودَعُ فيها بالبركة والنماءِ : ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ .

ولما كان الجناب العالى هو السيفَ الذى على عاتِق الدَّولة نِجادُه، واللَّيثَ الذى لم يزلْ فى سبيل الله إغارتُه وإنجادُه، والغيثَ الذى يُخْصِبُ بمعدلَتِه البلدُ الماحل، والأسدَ الذى تَصُدُّ ساكنى البَحْرِ مهابتُه فيتحققُون أنّ العَطَبَ لا السلامةَ فى الساحل ـ اقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نَزيدَ حدّ عزمه إرهافا، وأن نُرهب العدا ببأسه الذى يردُّ آحادَ ما تقدَّم عليه من الجيوش آلافا، وأن نُفوّضَ إليه من أمور رعايانا ما اذا أسند[1] إليه يُوسِعُهم عَدْلًا وإنصافا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف : أن تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بصَفَد المحروسة : تفويضًا يُعلِى قَدْرَه، ويُمضِى فى عموم مصالحها وخُصوصِها نَهْيَه وأمْرَه، ويُرْهِفُ فى حفْظِ سواحلها وموانيها بِيضَه وسُمْرَه، ويُصْلِي مُجاوِرَها من ساكنى الماء من بأسِه المُتَوقِّدِ جَمْرَه .

فلْيَتلَقَّ هذه النعمةَ بباعِ شُكرِه المَديد، ويَترقَّ هذه المرتبةَ بمزيّةِ اعْتزامِه التى ليس عليها فيما يُعدَقُ به من مصالح الإسلام مَزيد، ويَنشُرْ بها من عموم مَعْدِلَتِه ما لا يَخُصُّ دونَ قومٍ قَوْما، ويعمُرْ بلادَها بالعَدْلِ : فإنّ «عدلَ يومٍ واحدٍ خيرٌ للأرض من أن تُمطَرَ أربعين يَوْما»، ويبسُطْ فيها من مَهابتِه ما يكُفُّ أكُفَّ البُغاةِ أن تَمْتَدّ، ويمنع رُخَاءَ أهْوِيَةِ أهْلِها أن تَشتَدّ، ويؤمِّنُ المسالك أن تُخاف، والرعايا أنْ يُجار عليهم أو يُحاف، وليكُنْ من فى تَقْدِمَته من الجيوش المنصورةِ مكمَّلى العَدَد والعُدَد،

(١) فى الأصل "رعايا يا أسند اليه ما" الخ وهو خلط من الناسخ .

ظَاهِرِى اللَّأْمَةِ التى هى مادَّةُ المجالدَةِ وعَوْنُ الجَلَد؛ مُزاحِى الأعْذارِ فيما يُرْسم لهم به من الرُّكوب، مُزالِى العوائِق فى التَّأهُّبِ لما هم بصَدَدِه من الوُثوب؛ حَافِظِى مَراكِزِهم حفْظَ العيونِ بأهْدابِها، آخِذِى أخْبار ما يَشْغَلُ البَحْرَ من قِطَع العِدا فى حال بُعْـدها كحَال اقْترابِـها؛ بحيثُ لا يُشْرِفُ علىٰ البَرّ من قِطَعِ المخْذُولين إلا أسِيرٌ أو كَسِير؛ أو مَن إذا رجَعَ بَصَره إلى السَّواحل ينقلب إليـه البَصَرُ خاسِئًا وهو حَسِير؛ وليكُنْ أهْلُ الجبـالِ بمهابَتِه كأ[هل ا]لسَّهل فى حُسن انقيادهم وطَاعَتِهم، ويصـدّ عنهم بسطوته مَجَال الأوْهام المتَّصِلةِ فلا تَنْصرِف إلىٰ غيرِ مُجاورِيهم من الأعْداء مواقعُ بأْسِهم وشَجاعَتِهم؛ ومِلاكُ الوصايا تقوى الله: وهى من أخصِّ أوْصافه، والجمعُ بين العَدْلِ والإحسان وهما من نتائج إنْصافه؛ فلْيجْعَلْهما عمدَتَىْ حُكْمه فى القول والعمل، والله تعالىٰ يجعلُه من أوليائه المتّقين وقد فعل؛ والاّعتماد ... ... إن شاء الله تعالىٰ.

الوظيفـــة الثانيـــة
(نيـابةُ قَلْعة صَفَد)

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف بنيابة قَلْعة صَفَدَ المحروسةِ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ ابن فضل الله، كُتب به للأمير سيف الدين «أزاق الناصرى» خامس المحرّم سـنة أرْبعٍ وثلاثين وسبعمائة، وهى:

الحمـدُ لله الذى خصَّ الحصونَ برِفْعةِ ذُراها، وسُمْعَةِ مَن فيهـا من رجالٍ تَحْمِى ا[...]اها، وتَخْطَفُ أبصارَ السيوف بسَناها، وتُصيبُ برميها حتىٰ قَوْسَ قُزَحَ إذا راماها.

نحمدُه حمدًا تبرزُ به المعاقلُ فى حِلاها، وتفْخَرُ به عقائلُ القِـلاع علىٰ سِوَاها؛ وتشْرُفُ به شُرُفاتها حتّىٰ تجرى المَجَرَّةُ فى رُباها؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يطيبُ جَنَاها، ويطنب فى السماءِ مُرْتقاها؛ ونشهد أنَّ سيدَنا

محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كَتَبَ به للأُمَّةِ هُـداها ، وكَبَتَ عِداها ، وبَوَّأها مقاعدَ للقتال تَقْصُر دُونَها النجومُ فى سُراها ، صلَّى اللهُ عليـه علىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ينقطِع عنهم قِراها ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلىٰ يوم الدين .

وبعـدُ، فإنَّ صفَدَ صَفَتْ، ووفَتْ ووَفَتْ، وكَفَّتْ وكَفَتْ، وجاورتِ البَحْرَ فما غَمَضَتْ عنـه لدِيادِبها عُيون ، ولا خيطَتْ لسيوفها بالكَرىٰ جُفُون، ولا وَنَتْ لرماحها عَزائمُ شابَتْ لِمَمُها، ولا انتَشَتْ من السِّهام نِبالٌ تَفيضُ دِيَمُها، ولا أطالَتْ مجانيقُها السُّكوتَ إلا لتَهْدِرَ شَقاشِقُها، وتُهَدِّدَ بها من الجبال شَواهقُها، وتَهولَ العدا بما تُريهم من التَّهْويل، وتَرْمى به من كِفَّاتها الحجارةَ من سِجِّيل .

وهى القلْعةُ التى يضْرَب المثَـلُ بحَصَانتها ، ويَطْمَئِنُّ [أَهْلُ] الإسـلامِ فى إيداع أموالهم وأهْلهم إلىٰ أمانَتِها، قد أطَلَّتْ على الكواكب نزولا ، وجَرَّدَتْ علىٰ مِنْطَقَة بُروجِها من البُروق نُصُولا، وأتعبتِ الرياحَ لمَّا حلَّقتْ إليها، وأخافَتِ الهلالَ حتَّى وقَف رَقيبًا عليها ، وفيها من جنودنا المؤيَّدةِ مَنْ نَزيدُهم بها مَدَدا ، وتَطيبُ قلُوبُهم إذا خرجُوا لجهاد أعداء الله وخَلَّوْا لهم فيهـا مالًا وولَدا . وكانت النيابةُ بهـذه القلْعةِ المحروسةِ قد كادتْ تَنطِقُ بِشَكْواها، وتَتَظَلَّمُ ممَّن أساء صُحْبتَها لمَّا تولَّاها، واقتضَتْ آراؤنا العاليةُ أن نُزَحْزِحَ ظَلامَه، عن صَباحِها، ونُقَوِّضَ خِيامَه، عما فَرَش على الفُلْك الشاهقة من بِطاحِها، وفكَّرْنا فيمَن له بالقِلاع المحروسة دُرْبَةٌ لا يخفىٰ عليه بها سُلُوك، ولا يُخاف معه علىٰ هذه الدُّرَّة الثمينة فى سُلوك ؛ ممَّن حُمِـد فى دَوْلتنا الشريفة مَساءَ صَباح ، ومَن كان فى أبوابنا العاليـة هو الفَتَّاح ، ومَن له هِمَّةٌ تُناطُ بالثُّرَيَّا مطالبُها، وعَزْمَةٌ ما القضاءُ إلا قَواضِبُها، ومعرِفةٌ ما الرُّمْحُ المثقَّفُ إلَّا تَجارِبُها، وكفايَةٌ ما الغُرُّ الزواهرُ إذا عدِّدت إلَّا مناقِبُها .

وكان المجلس السامىّ ـ أدام الله عِزّه ـ هو المحلّق إلى هذه المرتبه ، والمخلّق بالأصيل أرديتها المُذهبه ؛ والمحقّق فى صفاته الورع ، والمنزّه عن تدنيس طباعه بالطّمع ؛ وله فى الأمانة اليدُ المشكوره ، وفى الصّيانة مايمتع به ذُيول السّحاب المجرُوره ؛ ومن التّقوىٰ ما قرّب عليه المطالبَ البَطيّه ، ومن الفُروسيّة ما اتخذ كلَّ ذِروةٍ صَهْوةً وكلَّ جَبلٍ مَطيّه ، ومن الاستحقاق مايُسهّل له من صدقاتنا الشريفة صَفَدَ : وفى اللّغة أنّ الصّفَد هو العَطيّه .

فرسُم بالأمر الشريف ـ شرّفه الله وعظمه ، وأحكمه وحكّمه ـ أنْ يرتّبَ فى النيابة بقلعة صَفَد المحروسة : علىٰ عادة من تقدّم وقاعدته فى التقرير ، وأمّا كيف يكون اعتماده ، فسنُرشِدُه منه بصُبْح مُنِير .

فقدّم تقوى الله فى سِرّك ونجواك ، واقصر على القَناعة رَجْواك[1] ؛ واحفظ هذه القلعةَ من طوارق اللّيل والنّهار ، وأعِدّ مَنْ قِبلَك للقتال فى قُرًى مُحصّنَة أو من وراء جِدار ، واملأ سماءك حَرسًا شديدًا ، وشُهُبًا وكثّر رجالَها لتُبارِىَ بهم النّجومَ فى أمثالها من بروج السماء عَديدا ، وخُذْ إلىٰ طاعتنا الشريفة بقُلُوبهم وهم علىٰ ذلك ولٰكنّا نُرِيدُ أنْ نزيدَهم تَوكيدا ، وتألّفهم علىٰ مُوالاتنا حتّىٰ لا تجِدَ أنت ولاهم إلى المزيد مزيدا ؛ وتفقّد الذخائرَ والآلات ، وتيقّظْ لما تُلجِئُ إليه الضائقةُ فى أوسع الأوقات ؛ وحصّنْ مبانيها ، وحصّلْ فيها من الذخائر فوقَ ما يَكْفيها ؛ ومن السّلاح ماهو أمنعُ من أسوارها ، وأنفعُ فى أوقات الحاجة ممّا تكنِزُه الخزائن من دِرْهمِها ودينارِها ، : من مجانيقَ كالعَقارب شائلةً أذنابَها ، دافعةً فى صدْر الخَطْب إذا نابها ؛ ترْمِى بشَرر كالقَصْر ، وتنزِل من السماء بآيات النّصر ؛ ومن قِسِيٍّ : منها ما تُدافِعُ بالأرْجُل مَرامِى

(١) مراده واقصر رجاءك على القناعه ولكن اضطره السجع فاستعمل مصدرا للرجاء ليس فيما بأيدينا من كتب اللغة فتنبه .

سهامه ، ومنها ماتُدوَّرُ بالأيدى كأْسُ حمامه ؛ ومنها مايَسْكُت إذا أُطْلق حتّى لايسمعَ كلامُ كَلامه ، ومنها ما يترنَّم إذا غنَّى بالحَمامِ صَوْتُ حَمامِه ؛ و[من] ستائرَ يستَّرُ بها وجْهُها المصُون ، ومَنائرَ يُشاهَدُ منها أقْربُ مَن يكونُ أبْعدَ مايكُون ؛ ورهجية تُجلَى بها فى كلِّ ليلة عروسُها المُمَنَّعه ، ودرّاجة تحاط بهم من جهاتها السِّتّ وحدودها الأربعه ؛ وأقِرَّ نُوبَ الحَمامِ الرَّسائلىّ فبها تَسْقُط علينا وعليك الأخبار ، ويُطْوى المَدى البَعيدُ فى أوّل ساعة من نَهار ؛ وآفتح البابَ وأغْلِقه بشَمْس ، وآحترز علىٰ ما آشتملت عليه من مَال ونفْس ؛ وبقيةُ الوصايا أنت بها أَمَسّ ، والله تعالىٰ يزيل عنك اللَّبْس ؛ والآعتماد ... .

الصنف الثانى

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذين يكتب لهم من الأبواب السلطانية صاحبُ ديوان الرَّسائل ، وناظرُ المال ، وناظرُ الجَيْش ، ووكيل بيْتِ المال . وما عدا ذلك فإنّه يكتب عن نائبها ، وربما كتب عن الأبواب السلطانية .

الصنف الثالث

([أرباب] الوظائف الدينية ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ : مايُكتب فى قَطْع الثلث بـ«السَّامى» بالياء ، وهم القضاة الأربعة .

المرتبة الثانية : من يُكْتب له فى قَطْع العادة ، وتشتمل علىٰ قَضاء العَسْكر ، وإفتاء دار العَدْل ، والحِسْبة ، ووكالة بيت المال .

الصـــنف الرابع (١)

(أرباب الوظائف الديوانيـــة)

والذى يكتب به من الوظائف الديوانية بهـا ـ ثلاث وظائف ، يُكْتَب لكلّ منهم فى قطع الثلث بـ«السامى» باليـاء، وهم : صَحابةُ ديوان المكاتبات ، ونَظَرُ المَالِ، ونظَرُ الجَيْش . فإن كُتب لأحد غير هؤلاء ، كتب له فى قَطْع العادة .

النيـابة السادســـة

(نيـابة غَزَّة)

وقد تقدّم أنّها تارةً تكون نيابةً، وتارة تكون تقدمةَ عَسْكر ، ومُقدّمُ العسْكَربهـا يراجِع نائبَ الشّام فى أموره . وبكلّ حال فالوظائف التى تُولَّى بها من الأبواب السلطانية علىٰ صِنْفين :

الصِّـــنْف الأوّل

(أرْباب السُّيوف)

وليس بهـا منهم إلّا نائبُ السّلطنة إن كانت نيابةً، أو مُقدَّمُ العَسْكر إن كانت تَقْدِمةَ عسكرٍ . فكَيْفما كان فإنّه يُكتب له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بدوام النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابتهـا : كُتِب به للأمِير « عَلَم الدِّين الجاولى » من إنشاء الشَّيخ شِهاب الدِّين محمود الحَلَبىّ، وهو :

---

(١) هذا الصنف زائد على ما فى التقسيم ومع ذلك هو بمعنى الصـنف الثانى وغاية ما فى هـذا أنه بين فيه اللقب وقطع الورق فتنبه .

الحمدُ لله رافعِ عَلَمِ الدِّين فى أيّامنا الزّاهرة، بإقامة فَرْض الجهاد و إدامته، وجامع رُتَب التَّقْديم فى دولتنا القاهرة، لمن تفترّ الثّغور بين ترقرق عدْله وتألّق صرامته، وقاطع أطماع المُعْتدين بمن يتوقّد بأسُه فى ظلال رفقه توقّد البرق فى ظُلَل غمامته، وقامع أعدائه الكافرين بتفويض تَقْدمة الجُيوش بأوامرنا إلى كلّ ولىّ يُجتنَى النّصر ويُجتلَى من أفنان عزماته ووجاهة زعامته .

نحمده على نعمه التى سدّدت ما يصدُر من الأوامر عنّا ، وقلّدت الرُّتَب السَّنِيّة بتقليدها أعزّ الأولياء منّا مَنّا، ورجّحت مُهمّات الثّغور لدينا على ما سواها فلا نَعْدق أمورَها إلا بمن تُعْقَدُ عليه الخناصرُ نفاسةً به وضَنّا، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزالُ القلوبُ بإخلاصها مُتَديِّنه ، والألسنةُ بإعلانها مُتَزيِّنه ، والأسنَّة والأعنَّة مُتباريَيْن فى إقامة دعوتها التى لا تحتاج أنوارُها البيِّنةُ إلى البيِّنه ؛ ونشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ مبعوثٍ إلى الأُمَم ، وأكرمُ منعوتٍ بالفضل والكَرَم ، وأعزّ منصورٍ بالرُّعْب الذى أُغْمِدَتْ سيوفُه قبل تجريدها فى القِمَم ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بجهاد أعداء الله وأعدائه على أثبتِ قدَم، وسرَوْا لفتح ما زُوِى له من الأرض على جياد العزائم ونجائب الهِمَم، وبذلوا نفائسهم ونُفوسَهم للذّبّ عن دينه فلم تَستَزِلّ أقدامَهم حُمْرُ النَّعَم، ولم يَثْنِ إقدامَهم بِيضُ النِّعَم؛ صلاةً لا يَمَلّ السامعُ نداءَها ، ولا تسأمُ الألسُنُ إعادتَها وإبداءَها ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّا من حين مكّن الله لنا فى أرضه ، وأنهضنا بمسنون الجهاد وفرضه ؛ وقلّدنا سيفَ نصره الذى انتضاه ، وأقامنا لنصرة دينه الذى ارتضاه ؛ لم يزل مُهِمّ كلّ ثغر مقدّمًا لدينا ، وحفظُ كلّ جانب جاور العدوّ برًّا وبحرًا متعيّنًا على اعتنائنا

ومُحبّباً إلينا ؛ فلا نُزهِف لإيالة الممالك إلّا من إذا جرّد سيفَه أغمده الرُّعبُ فى قلوب العدا، ومَن إنْ لم تسلُكِ البَحْرَ خَيْلُه بثّ فى قلوب ساكنيه سَرايا مَهابة لا تَرهبُ مَوْجًا ولا تستبعِدُ مدىً؛ ومَن إذا تقدّم على الجُيوش أعاد آحادها إلى رُتَب الأُلُوف، وجعل طلائعَهم رُسُلَ الحُتُوف، وأعداهم بَأسُه فاستَقَلّوا أعداءَهم وإن كثُروا، وأغْراهُم بمعنَى النّكايَة فى كَتائِبِ العِدا : فكَمْ من قَلْب بالرِّماح قد نَظَمُوا وكَمْ من هَامٍ بالصِّفاح قد نَثَرُوا .

ولذلكَ لمَّا كان فلانٌ هو الذى ما زال الدِّين يرفَعُ عَلَمَه ، والإقْدامُ والرَّأْىُ يَبُثّان فى مقاتِل العِدا كُلُومَه وكَلِمَه، والعَدْلُ والبَأْسُ يتَولّيان أحْكامَه فلا يُمْضِيان إلّا بالحقّ سَيفَه وقلَمَه، فكَمْ نكّس رايَةَ عدوٍّ كانت مُرْتَفِعَه ، وأباح عَزْمُه وحَزْمُه معاقِلَ شِرْك كانت مُمْتَنِعَه ، وكَمْ زلزَلَ ثَباتُه قدَمَ كُفر فأزالَها ، وهزَم إقدامُه جيوشَ باطِلٍ ترهبُ الآسادُ نِزالَها ؛ فهو العَلَمُ الفرْد ، والبطَلُ الذى لأوليائه الإقبالُ والثَّبات ولأعدائِه العَكْسُ والطَّرْد، والوَلىُّ الذى لولا احتِفالُنا بنِكايَة العِدا لم نسمَحْ بمِثْله ، والهُمام الذى ما عدَقْنا به أمْرًا إلا وقع فى أحْسن مواقعه وأُسنِد إلى أكْمل أهْلِه .

وكانت البلادُ الغَزّاوِيّة والسّاحِليَّة والجَبَلِيَّة على ساحل البَحْر بمنزلة السُّورِ المشرَّف بالرِّماح ، المصفَّح بالصِّفاح، مُرُوجُه الحُماه، وقُلَلُه الكُماه ؛ لايَشِيم بَرْقَه من ساكنى البَحْرِ إلا أسيرٌ أو كَسير، أو مَن إذا رجع إليه طَرْفَه ينقَلِبُ إليه البَصَرُ خاسئًا وهو حَسِير؛ وبها الجيشُ الذى كَمْ لسيوفه فى رِقابِ العِدا من مَواقِع ، ولسُمْعتِه فى قلوب أهْل الكُفرِ من إغارَة تركتْها من الأمْن بلاقِع ؛ وبها الأرض المقدّسَه ، والمَواطِنُ التى هى على التَّقوىٰ مُؤسّسه ؛ والمعابِدُ التى لا تُعْدَق أُمورُها إلا بمِثْله من أهْل الدِّين والوَرَع ، والأعْمالُ التى هو أدرىٰ بما يأْتِى من مصالحها وأدْربُ بما

يدع - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعذق به نيابة ملكها ، ونزين بلآلئ مفاخره عقود سلكها، وأن نفوض إليه زعامة أبطالها، وتقدمة عساكرها التى تلقى البحر بأزخر من عُبابه والأرض بأثبت من جبالها ، وأن نرمى بحرها من مهابته بأهول من أمواجه، وأمر فى لهوات ساكنيه من أجاجه، لتغدو عقائل أهله ، أرقّاء سيفه الأبيض وذابله ، ويتبرّ العدوّ الأزرق من بنى الأصفر، خوف بأسه الأحمر .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه كيت وكيت : تفويضا يحقق فى مثله رجاءها ، ويزين بعدله أرجاءها ، ويصون ببأسه قاطنها وظاعنها، ويعمر ويغمر برفقه وإنصافه مساكنها وساكنها .

فليباشر هذه الرتبة التى يكمّل به سعودها ، ويجمّل به عقودها، مباشرة يخيف بأسها الليوث فى أجماتها، ويعين عدلها الغيوث على دفع أزماتها، ويغدو بها الحق مرفوع العلم ، مسموع الكلم ، ماضى السيف والقلم ، ممدود الظل على من بها من أنواع الأمم . وليأخذ الجيوش التى بها من إعداد الأهبة بما يزيل أعذارهم عن الركوب، ويزيح عوائقهم عن الوثوب، ويجعلهم أول ملبٍّ لداعى الجهاد، وأسرع مجيب لنداء ألسنة السيوف الحداد، وينظّم أيزاكهم على البحر انتظام النجوم فى أفلاكها، والشذور فى أسلاكها، فلا تلوح للأعداء طريدةٌ إلا طُردت، ولا قطعةٌ إلا قُطعت، ولا غرابٌ إلا حُصّت قوادمه، ولا شانخ عمارة إلا وأتيح له من اللهاذم هادمه . وليُعْلِ منار الشرع الشريف بإمضاء أحكامه، ومعاضدة حكّامه، والانقياد إلى أوامره، والوقوف مع موارد نهيه ومصادره، ولتكن وطأته على أهل العناد مشتدّه ، ومعرفته تضع الأشياء مواضعها : فلا تضع الحدّة موضع اللين ولا اللين موضع الحدّه ، وليعلم أنه وإن بعد عن أبوابنا العالية مخصوص منا

بمزيّة قُرْبه ، مختصّ بمنزلة إخلاصه التى أصْبح فيها على بيّنة من رَبّه ؛ وجميعُ مايذكر من الوصايا فهو مما يُحكىٰ من صفاته الحَسَنه ، وأدَواته التى مابَرِحت الأقلامُ فى وصف كمالها فَصِيحَة الألْسِنه ؛ وملاكها تقوى الله وهى فى خصائصه كلمة إجماع ، وحِلْيةُ أبصار وأسماع ؛ والله تعالىٰ يُعلِي قَدْره وقد فعل ، ويؤيِّده فى القوْل والعمل ؛ والاعتماد ... .

وهذه نسخةُ تقليد بتَقْدمة العَسْكر بغَزّة المحروسة :

الحمدُ لله مُبْدئ النِّعَم ومُعيدِها ، ومُؤكِّد أسْبابها بتَجْديدِها ، ومُعْلِي أقْدارِها بمزايا مَزِيدِها ؛ الذى زيَّن أعناقَ الممالك من السُّيوف بتَقْلِيدها ، وبيَّن من ميامنه ما رُدّت إليه بمقالِيدِها .

نحمَدُه بمحامِده التى تَفُوت الدَّرارِىَّ فى تَنْضِيدِها ، وتفُوق الدُّرَّ فيتمنَّى منه عِقْدَ فريدِها ، ونشهدُ أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نافعةً لشَهِيدِها ، جامعةً لتَوْحِيدِها ، ناقعةً لأهل الجُحود ممّا يُورِّدُ الأرضَ بالدّماء من وَرِيدِها ؛ ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى كاثَرَ الأُمَمَ بأُمّته فى عَدِيدِها ، وظاهَرَ علىٰ أعْداء الله بمن يَفُلّ بأْسَ حديدِها ، فيُرسِلُ من أسنته نُجُومًا رُجومًا لمَرِيدِها ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً تتظافر بتأْييدِها ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ من عوائد دَوْلتنا القاهرةِ أنْ تَعُودَ بإحْسانِها ، وتَجُود بثُبوتِ كلّ قَدَم فى مكانها ؛ وإذا ولَّتْ عرف سَحابِها عن جهة عَادَتْ إليها ، أو سَلَبت لها رَوْنَقًا أعادت بهجَته عليها ؛ وكانت البلاد الغَزّاوِيّة وما معها قد تمتَّعتْ من قدماء ملوك (١)

(١) فى الأصل «ممالك» وهو لايناسب المقام .

بيتنا الشَّريف بسَيف مشهور، وبطَل تُشامُ بوارقُ عَزْمِه فى الثُّغور، وهو الذى عمَّ بصَيِّبِه بلادَها سَهْلاً وجَبَلا ، وعمَّر روضَها بعدْل أغْنادا أن يَسقِىَ طَلُّ طَلَلا ، وجمع أعْمالَها برًّا وبحْرا، ومنع جانبَيْها شامًا ومصْرا ، وألِف أهْلُها منه سيرةً لولا ما آسْتأْثرنا الله به من سِرّه لما أفْقدناهم فى هذه المدَّةِ حلاوةَ مَذاقِها ، وسَريرةً لا نرْضَىٰ معها بكَفِّ الثُّريَّا إذا بُسِطت لأخْذ ميثاقِها ؛ ولم نَرْفعْ يدَه إلا لأمرٍ قضى اللهُ به لأجَل موْقوت ، ومضَىٰ منه ما يُعْلَم أنَّه برجُوعه القَريب لا يَفُوت ؛ لأنَّ الشمسَ تَغيبُ لتطلُعَ بضَوْءٍ جديد، والسَّيفَ يُغْمَدُ ثم ينْتضَىٰ فيقُدُّ القَدَّ والجِيد ، والعُيونَ تُسهَّدُ ثم يعاوِدُها الرُّقاد، والماءَ لو لم يُفقَدْ فى وَقْت لما وُجِد لموْقعه بَرْدٌ على الأكْباد .

فلمَّا بلَغَ الكِتابُ أجلَه ، وأخذَ حقَّه من المَسْألَة ، وآنتقل مَن كان قد استقرَّ فيها إلىٰ جوارِ ربِّه الكريم ، وفارق الدُّنيا وهو علىٰ طاعَتِنا مُقِيم ـ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن يُراجِعَ هذه العقيلَةَ كفؤُها القديم ، وترجِعَ هذه الأرضُ المقدَّسةُ إلىٰ مَن فارقها وما عهْدُه بذَميم ؛ مَن لم تزلْ به عقائِلُ المَعاقِل تُصان ، وخُصُورُ الحُصون بحمائِل سُيُوفه تُزان، ومباسِمُ الثُّغور تُحمَىٰ فى كلِّ ناحية من أسِنَّته بلِسان؛ وحمَى الثَّغرَيْنِ وما بينهما من الفِجاج ، وجاوَر البَحْرَيْن فمنَعَ جانبَيْهما : فهذا عَذْبٌ فُراتٌ وهٰذا مِلْحٌ أُجاج؛ وله فى العِدا وقائعُ زُلْزِلَت لمواقعها الأُلُوف، ومواقفُ لولا ما نَعقَتْ فيها من غِربان البَيْنِ لطالَ على الدِّيار الوُقوف؛ وهو الذى مُدِحتْ له فى بيْتِنا المنصور المنصورىّ من الخِدْمة سَوابِق ، وحُمِدتْ طرائق ؛ وكَثُرتْ محاسن ، وكَبُرتْ ميامن؛ ولمَعَتْ كواكب، وهمَعتْ سَحائب؛ وصدَحتْ حمائِم ، وفُتِحتْ كَمائِم ؛ وعزَّتْ جيوشُنا المؤيَّدةُ له بمضارب، وهزَّتْ سيوفًا حِدادًا وهو بالسَّيف ضَارب .

وكان المجلس العالى ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمته ـ هو الذى حُمِدتْ له آثار، وحسُنَتْ أخبار، وعَمّتْ مِدَح، وتَمَّتْ مِنَح، فرسَمْنا بإقراره من(١) هذا المَنْصب الشَّريف فى محلِّه، وإعادَتِه إلىٰ صيِّب وَبْله، وإنامَةِ أهْلها مُطْمَئِنِّين فى عَدْله، وإقرار عُيون من أدْرك زمانَهُ بعوده ومَن لم يدرك زَمانَه بمـا سيَرَوْنَه من فَضْله.

فرُسِم بالأمر الشريف ـ لازالتْ ملابِسُ نِعَمه، تُخْلَع وتُلْبَس بُرودُها، وعَرائِس كرَمه، تُفَارَق ثم تُراجَع غِيدُها ـ أنْ تفوَّض إليه أُمور غَزَّة المحروسة وأعْمالها وبِلادها، والتَّقْـدِمَةُ علىٰ عساكرها وأجْنادها، والحكْمُ فى جميع ما هو مُضافٌ إليهـا من سَهْلٍ ووَعْر، وبَرٍّ وبَحْر، وسَواحِل ومَوانى، ومَجْرى خُيول وشَوانى، ومَن فيها من أهْل عَمَد، ورعايا وتُجَّار وأعيان فى بَلَد، ومن يتعلق فيها بأسْباب، ويعدُّ فى صف كَتِيبَة وكِتاب، علىٰ عادة من تقدم فى ذلك، وعلىٰ ما كان عليه من المسالك.

وسنَخْتَصر له الوصايا لأنّه بها بَصير، وقد تقدّم لهـا علىٰ مسامعه تكْرير، ورأسُ الأمورِ التَّقْوىٰ وهو بها جَدير، وتأْييدُ الشَّرع الشريف فإنَّه علىٰ هُدًى وكِتاب مُنير، والاطلاع علىٰ الاحوال ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبِير.

والعدْلُ فهو العُرْوةُ الوُثْقىٰ، والإنْصاف حتّى لايجد مسْتَحِقًا، والعَفافُ فإنَّ التَّطلع لمـا فى أيْدى النـاس لا يَزيدُ رِزْقا، والاتِّصافُ بالذِّكر الجميـل هو الذى يَبْـقىٰ، وعَرْضُ العَسْكر المنصور ومن يَنْضَمُّ إليـه من عَرَبه وتُرْكُمانه وأكْرادِه، وكلِّ مكبِّرٍ فى جَحافِله ومكثِّرٍ لسواده، وأخْذهم بالتأهُّب فى كلِّ حركةٍ وسُكون، والتيقُّظ بهم لكلِّ سيف مشْحوذ وفُلْك مشْحُون، والاحتراز من قِبَـل البرِّ والبَحْر، وإقامة كلِّ يزَك فى موضعه كالقِلادة فى النَّحْر، ولا يُعيِّن إقطاعًا إلا لمن يَقْطَع باستحقاقه،

(١) فى الأصل «من اقراره فى» وهو تصحيف الا أن يكون الأصل فرسمنا مارسمنا من الخ.

ويقمعُ العدا بما يعرَفُ فى صَفَحات الصِّفاح من أخلاقه ، ولا يُخل المباشرين من عنايةٍ تمدُّ إليهم ساعدَ المساعده ، فلا يُخلُّوا فى البلاد بعمارةٍ تغدُو فى حُلاها مائده ، وليحفَظ الطُّرُقات حفظًا تكون به ممنوعه ، ويُمسك المسالكَ فإنَّه فى مفرَّقِ طرقاتها المجموعه ، وليقدِّمْ مُهمَّات البَريد وما ينطِق علىٰ جناح الحمام ، وليتَّخذهما نُصْب عينَيه فى اليَقظةِ والمَنام ، فرُبَّ غفلةٍ لا يَستدرِكُ فائتَها رَكْض ، ورسالةٍ لا يبلّغها إلّا رسولٌ ينزل من السماء وآخرُ يَسيحُ فى الأرض ، ويرصُد ما ترِدُ به مراسِمُنا العالية ليسارع إليه مُمتثِلا ، ويطالعُنا بما يتجدَّدُ عنده حتَّى يكون لدينا مُمثَّلا ، وهو يعلم أنَّه واقفٌ من بابنا الشريف بالمجاز ، وقُدَّام عينينا حقيقةً وإن قيل علىٰ طريق المجاز ، فليؤاخِذْ نفسَه مؤاخَذَةَ من هو بين يدينا ، ويعمَلْ بما يسُرُّه أنْ يقدِّم فيما يُعرَض من أعماله علينا ، واللهُ تعالىٰ يزيدُه حُظْوةً لدينا ، ويؤيِّد به الإسلامَ حتَّى لا يَدَعَ علىٰ أعداءِ الله للدِّين دَينا ، والاعتماد ... .

الصنف الثانى

(الوظائف الديوانية بغزَّة)

وبها ثلاثُ وظائفَ : يُكتَب لكلٍّ منها فى قطْع العادة بـ«السامى» بغير ياء . وهى : كتابةُ الدَّرج القائمةُ مقام كتابة السِّرّ ، ونظرُ المال ، ونظرُ الجيش . قال فى " التثقيف " : أمَّا قاضيها ومحتسبُها ووكيلُ بيت المال بها ، فإنَّهم نوّابٌ عن أرباب هذه الوظائف بالشَّام ، فلا يكتَبُ لأحد منهم شيءٌ عن المواقف الشريفة .

قلتُ : وما ذكره بناءً علىٰ أنَّها تقدمةُ عسكر . أمَّا إذا كانت نيابةً فإنَّ هذه الوظائفَ يكتَبُ بها عن الأبواب السُّلطانية . وقد يُكتَب حينئذ بوكالة بيت

المـال والحِسْبة عن النّائب ، ويكون ذلك جميعُه فى قطع العـادة ، مفتتَحًا بـ«أمّا بعـدُ» فى المنصوريّ ، أو بـ«يُرسم» فى الصَّغير، على حَسَب ما يقتضيه الحالُ . على أنّه قد حدث بها فى الدولة الظاهرية قاض حَنَفيٌّ يكتب له من الأبواب السُّلطانيـة .

النيـابة السابعـة

(نيابة الكَرَك . وأرْبابُ الولايات بها من الأبْواب السلطانية على أصْناف)

الصـنف الأوّل

(أرْبابُ السيوف)

وليس بها منهم غيرُ نائب السَّلطنة، ويكتَبُ له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«المجلس العـالى» .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السَّلطنة بالكَرَك، كُتب به للأمير «سيف الدين ايتمش» من إنشاء الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحلبيّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى خصّ بعَزائمنا مَعاقِلَ الإسلام وحُصُونَه، وبصَّرنا باختيار من نُرتِّبُه فى كلّ مَعقِل منها من أمْجاد الأُمَراءِ ليحْفَظَه ويَصُونَه ، وجعلَها بعنايَتنا روْضًا تَجْتلِي أبصارُ الأولياءِ من بيض صِفاحنا نُوره وتَجْتني من سُمْر رِماحنا غُصُونَه، وعوّذَها من آيات الحَرَس بمـا لا تزالُ حُماتُها وكُماتُها يَرْوُونَ خبره عن سَيْفنا المنتَضَى لحفْظها ويقُصُّونه .

نحمَدُه على نِعَمه التى أعلَتْ بِنا بنَاءَ الممالك، وحاطَتْها من نَبْل مهابَتنا، بما لو تَسلَّلَتْ بيْنَه الأوْهامُ ضاقتْ بهـا المسالِك، وصفَّحتْها من صِفاح عنايَتنا، بمـا يحُولُ برْقُه

بينها وبين ما يستُر طَيْفَ العِدا من الظَّلام الحالك ، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تَعْصِمُ من أوىٰ إلىٰ حَرَمِ إخلاصِها ، وتُنجي غدًا مَن غدا من أهْلِ تقريبِها واْختِصاصِها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءَتْ مِلَّتُه ، فلم تَخْفَ علىٰ ذى بَصَرٍ ، وعلَتْ شرْعَته ، فَغدا باعُ كُلِّ ذى باعٍ عن معارضتها ذا قِصَرٍ ، وسَمَتْ أُمَّتُهُ ، فلو جالدها مُعاد أوبَقَه الحصْرُ أو جادَلها مُناو أوثَقه الحَصَرُ ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانت مَعاقِلُهم صَهَوات جِيادِهم ، وحُصُونُهم عَرَصاتِ جِلادهم ، وخيامُهم ظلالَ سُيوفهم وظلالُهم أفْياء صعادهم ، صلاةً لايزال الإخلاصُ لها مُقيما ، والإيمانُ لها مُديما ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ الحُصون الإسلامية بأنْ تَحُوطَ عنايَتُنا أركانَه ، وتتعاهَدَ رعايتُنا مكانَه ، وتُلاحظَ مهابَتُنا أحوالَه فتُحَلِّيها ، وتشاهِدَ أوامِرُنا قواعِدَه فتشيِّدُها بجميلِ النَّظر وتُعليها ، وتَحُولَ سَطواتُنا بين آمال الأعداءِ وتَوهُّمه ، وتَحْجُبَ مخافَةُ بأْسنا أفكارَ أهـلِ العِناد عن تأمُّلِ ما فى الضَّمير وتَوَسُّمه ـ حِصْنٌ انعقد الإجماعُ على انقطاعِ قَرِينِه ، وامتناعِ نَظيره فيما خصَّه الله به من تحْصِينِه ، فهو فَرْدُ الدَّهْرِ العزيزُ مِثالُه ، البعيدُ مَنالُه ، المستكنَّةُ فى ضمائر الأوْدِيَةِ الغوامض بُقْعته ، المسْتَجِنَّةُ بقُلَلِ الجبال الشواهق نَقْعتُه ، السَّائرُ فى أقْطار الأرْض صِيتُه وسُمْعتُه .

ولمـا كانت قَلْعـةُ الكَرَك المحروسـةُ هى هذه العَقيلَةَ التى كَمْ ردَّتْ آمالَ المُـلوك رَاغمَـه ، ومنَعتْ أهواءَ النُّفوس أن تُمثِّلها فى الكَرَى الأجْفانُ الحالمَه ، وكان فلانٌ ممَّن ينهضُ مِثلُه بحفْظِ مِثْلِها ، ويعلم أنَّ أمانتَها التى لا تحمِلُها الجبالُ قد أُودِعتْ منه إلىٰ كُفْئِها ووضعت كفايَتَها فى أهْلِها ، فهو سَيْفُنا الذى يحُوطُها ذُبابُه ، ووَلِيُّنا الذى مَن طَمَح بصَرُه إلىٰ أُفُقِ حَلِّه أحرقه شِهابُه ، ونَشُوُ أيَّامنا التى تُنَشِّئُ كلَّ لَيْث يَقْنِص

الظَّفَر ظُفْرُه و ينبو بالسيوف نابُه ، وغَذى دَوْلتنا الذى ما آعتمدْنا فيه على أمرٍ إلَّا كَرُم به نُهوضُه وحَسُن فيه مَنابُه – آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَخُصَّها بمهابة سَيْفه ، ونُحَصِّنَها بمـا فيه من قُوّة فى الحقِّ تكُفُّ كلَّ باغٍ عن حَيْفه .

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف – لازالت الحصونُ المصونةُ تختالُ من ملكه فى أبْهى الحُلَل ، وتعْلو معاقلَ الكُفر بسُلْطانه عُلُوَّ مِلَّة الإسـلام على المِلَل – أنْ تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفـة بالكَرَك المحروس تفويضًا يُعْـلِى قَدْرَه ، ويُطْلِـعُ فى أُفُقها بَدْرَه ، ويُطْلِقُ فى مصالحها سـيْفَه بالحقِّ وقَلَمه ، ويُمْضِى فى حمايتها أفْعالَه وكَلِمَه ، ويسدِّدُ فى أُمورها آراءَه المقْرونَةَ بالصَّواب وهِمَمَه .

فلْيباشِرْ هذه الرُّتبـةَ العَلِيَّةَ صورةً ومَعْنًى ، العَلِيَّةَ إذا طاولَتِ الكواكبَ بأنْ لا يعلم لهـا[(١)] أسْمىٰ وأسْنىٰ ، ولْيجتهِدْ فى مصالحها آجتهادًا يُوالى له من شُكْرنا المِنَح ، ويأْتى فيـه من مَواضِينا بالغَرَض المُقْترح ، ويزيدُها إلىٰ حَصانَتِها حَصانةً وقُوّه ، ويَزِينُها بسياسته التى تَغْدو قلوبُ أهْل العِناد بمحاقتِها مَغْزُوّه . ولينظُرْ فى مصالح رجالها فيكونُ لحُماتِهم مُقَدِّما ، ولمقدَّميهم مُكْرِما ، ولأعذارهم مُزِيحا ، ولخواطِرِهم بتَيْسِير مقرّراتِهم مُرِيحا . وليكُنْ لمَنار الشَّرع الشريف مُعَظِّما ، ولأحْكامِه فى كل عَقْد مُحَكِّمًا ، ولمَـا قَرُب وبَعُد من بلاد نيابته عَامِرا ، ولأكُفِّ الجَوْر عن الرعية كافًّا : فلا يبرحُ عن الظُّلْم ناهيًا وبالعَـدْل آمِرا ؛ ومِلاكُ الوصايا تقوى الله فلْيجعلْها حِلْيةَ نَفْسِـه ، ونجىَّ أُنْسِـه ، ووظيفةَ آجتهادِه التى تَظْهَر بهـا مَزِيّةُ يومه علىٰ أمْسِه ؛ والله تعالىٰ يسدِّدُه فى أحْواله ، ويعَضِّدُه فى أفعاله وأقواله ؛ بمَنّه وكرمه ! .

(١) لعله «بأن لا يعلم أسمى منها وأسنى» .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك ، كُتب به للأمير «تلكتمر الناصري» عند ما كان المقرّ الشهابيّ أحمد ولدُ السلطان الملك النّاصر بالكَرَك ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل بنا الممالكَ مُحصّنةَ الحُصون ، مَحْمِيّةً بكلّ سَيف يقطُر من حدّه المَنُون ، ممنّعةً لا تتخطّى إليها الظّنون ، مُحجّبةً لا تَراها من النجوم عُيون ، رافِلَةً من الكواكب فى عِقْد ثَمين ، مَنِيعةً أشبهت السّماءَ وآشتبهت بها فأصبحتْ هذه البروجُ من هذه لا تَبِين .

نحمدُه على نِعَمه التى رفعت الأقدار ، وشرَّفت المِقْدار ، وحلّت فى ممالكنا الشّريفة كلَّ عَقِيلة ما كان مِعْصَمُها المُمتدُّ إلى الهلال لِيُترَكَ بغيرِ سوار ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفعت للحصون العاليةِ رُتَبا ، ومُلِئتْ بها سماؤُها حَرَسًا وشُهُبا ، وأعلتْ مكانَها فاقتبستْ من البرق نارًا ووَرَدتْ من السّحاب قُلُبا ؛ ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من بعثَ وُلاةً على الأمْصار ، وكُفاةً على الأقْطار ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه ما صدَحت الحَمائِم ، وسفَحتِ الغَمائم ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ ، فإنّ خيرَ من حُميتْ به الممالك ، وحُمِدتْ — ولله المِنّة — منه المسالك ، وآرتقتْ هِمَمُه إلى الشّمس والقَمر والنّجوم وما أشْبه ذلك ، مَنْ حصل الوُثوقُ به فى أشرف مملكة لدَيْنا ، وأفضل ما يُعرض فى دَوْلتنا الشريفة من أعمالها الصالحة علينا : وهى التى قعدتْ من الجبال على مَفارقها ، واتّصلتْ من النّجوم بعلائقها ؛ وتحدّرت الغَمائمُ من ذُيولها ، وطفَتْ على السماء وطافتْ على الكواكب بمَجَرّة المَجرّة

من سُبُولها . وكان الكَرَكُ المحروسُ هو المُراد، ومدينته التى لم يُخْلَق مِثْلُها فى البلاد، وقلعتُه تتشكّى الرِّياحُ لهـا طلوعَ وَادٍ ونُزول وَادٍ؛ وهى أرضٌ تَمُتُّ بأنّها لنا سَكَن، ونَمّت مناقبُها بمـا فى قلوبنا من حُبِّ الوَطن؛ وآستقرّت للمقامات العاليـة أوْلادنا ـ أعزّهم الله بنَصْره ـ فانتقلَتْ من يَمينٍ إلىٰ يسار، وتقابلت بين شُموسٍ وأقْمار، وجادَ بها البَحْر علىٰ الأنْهار .

فلمّـا خَلَتْ نيابةُ السلطنة المعظمة بها عَرَضْنا علىٰ آرائنا الشّريفة مَن تَطْمئِنُّ به القلوب، ويحصـلُ المطلوب، وتَجْرِى الأُمُور به علىٰ الحُسنَىٰ فيما يَنوب؛ وتُبارى عزائمُه الرياح بمرمى كل مقلة وهزّة جيد، ولا يُشَكُّ فى أنّه كُفْؤُ هـذه العَقِيله، وكَافى هذه الكَفالَةِ التى ماهى عند الله ولا عندنا قَلِيلَه، وكافِلُ هذه المملكة التى كَمْ بها بَنِيّةٌ أحْسنُ من بَنِيّة وجَمِيلَةٌ أحسن من جَمِيلَه؛ من كان من أبْوابِنا العالية مَطْلَعُه، وبين أيْدينـا الشَّرِيفة لا يُجْهلُ مَوْضِعُه؛ طالمـا تَجَمّلَتْ به الصفوف، وتَجَمّلَتْ به الوقوف، وحُسْنُ كلّ موصوف، ولم تخف مَحاسِنُه التى هو بهـا معروف؛ كَمْ له شِيمَةٌ عَلِيّه، وهِمّةٌ جَلِيّه، وتَقدماتُ إقدامٍ بكلّ نهايةٍ غاية مَلِيّه، وعزائمُ لهـا بنَعْتِه مَضاءُ السّـيف وباسمه قُوّةُ الحديد وهى بالنسـبة إليه مُلْكِيّه؛ وكان المجلس العالى ـ أدام الله نِعْمته ـ هو لابِسَ هذه البُرود التى رُقِمَتْ، والعُقودِ التى نُظِمت، وجامِعَ هذه الدُّرَرِ التى قُسِمت، والدَّرارِىّ التى سَمَتْ إلى السماء لمـا وُسِمت؛ وهو من المَلائِكِ فى الوَقار، وله حُكْمٌ كالمَـاس وبأْسٌ يَقْطَعُ الأحْجار، وهو مَلَكٌ نِصْـفُه الآخَرُ من حَدِيد كما أنّ لله مَلائِكةً نِصْـفُهم من الثّلج ونصفهم من نَار؛ وهو الذى آقتضت آراؤُنا الشريفـة أن نجعلَه فى خدمة ولدنا ـ أمتعه الله ببقائنا ـ نائبًا بهـا، وقائمًـا بحسن مَنابِها؛ والمتصَرِّف فيها بين أيديه الكريمه، والمتلَقّى دُونَه لأُمورها التى قلّدنا بها عُنُقَه أمانةً عظيمه .

فلذلك خرج الأمر الشريف ـ لا زال به سيف الدين ماضيا ، ولا برح كلّ واحد بحكم سيفه فى كلّ تجريد وقلمه فى كلّ تقليد راضيا ـ أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس وما معه على عادة من تقدّمه فيها ، وقاعدته التى يتكفل لها بالإحسان وبكفّ العدوان ويكفيها ؛ وكلّ ما فيها من أمر فهو به منوط ، وكلّ عمل لها به محوط ، وحكمه فى مصالحنا الشريفة فى جميع بلادها مبسوط ، وله تطالع الأمور ومنه تصدر المطالعه ، وبه تزال كلّ ظلامه ، وتزاح كلّ ملامه ، ويؤيّد الشرع الشريف ويؤبّد حكمه ، وينشر علمه وينشر علمه ، وتقام الحدود بحدّه ، والمهابة بجدّه . ورجال هذه القلعة به تتألّف على طاعتنا الشريفة قلوبهم ، والرعايا يعمهم بالعدل والإحسان وأيسر ما عندنا مطلوبهم ، وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ، ورعيّتنا الذين هم لنا ولك ، فرفرف عليهم بجناحك ، وخذهم بسماحك ، والمسارعة إلى امتثال مراسمنا الشريفة هى أوّل ما نوصيك باعتماده ، وأولى ما يقتبس من نوره ويستمدّ من أمداده ، فلا تقدّم شيئا على الانتهاء إلى أمره المطاع ، والعمل فى السمع والطاعة باكر له مايمكن أن يستطاع ، وخدمة أولادنا فلا تدع فيها ممكنا ، واعلم بأنّ خدمتهم وخدمتنا الشريفة سواء لأنّه لا فرق بينهم وبيننا ، وهذه القلعة هى التى أودعناها فى يمين أمانتك ، وحميناها بسيفك وصنّاها بصيانتك ، فالله الله ! فى هذه الوديعه ، وأدّ الأمانة فإنّها نعمت الذريعه ، واحفظها بقوة الله وتحفّظ بأسوارها المنيعه ، وعليك بالتقوى لتقوى والوقوف عند الشريعه ، والله تعالى يزيدك علوّا ، ويبلّغك مرجوّا ، والاعتماد ... .

قلت : وربّما ولى نيابة الكرك من هو جليل الرتبة رفيع القدر ، من أولاد السلطان أو غيرهم ، فتعظم النيابة بعظمه ، ويرفع قدرها بارتفاع قدره ، وتكون مكاتبته وتقليده فوق ما تقدّم ، بحسب مايقتضيه الحال من «الجناب» أو غيره .

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك، كُتب بها عن السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » لولده الملك الناصر « أحمد » قبل سَلْطَنَتِه ، وكتب له فيه بـ«الجناب العالى» ، من إنشاء الشريف شهاب الدِّين، وهى :

الحمدُ لله الذى أسعدنا بوراثة المُلْك والممالك، وأرشدنا للرأى المُصيب فى أن نَستَنِيبَ من نشاء من ذلك ، وأيَّدنا بالعَوْن والصَّوْن فى حفظ ما هُنا ولَحْظ ما هنالك، وعوَّدنا الإمدادَ بيُمْنِه المتداوَل والإنجادَ بمنِّه المتدارك ، وسدَّدنا بالفضل والإسعاف إلى أن نتبَّع من العدْل والإنصاف أنجحَ السُّبل وأوْضح المسالك، وعضَّدنا من ذُرِّيَّتنا بكلِّ نَجْل مُعْرِق، ونجم مُشْرِق، يَرْشُقُ شِهابُهُ، فى الكَرْب الحالّ ويأتلق صَوابُه، فى الخَطْب الحالك، وأوردَنا بالنَّظَر الجميل، والفكْر الجليل، إلى أسعد تحويل تنير بمرآته فى الآفاق الشُّهبُ الطوالعُ وتَسيرُ بِبُشْراه فى الأقطار النُّجب الرَّواتك[1] .

نحمدُه ! وكيف لا يحمَد العبدُ المالك ! ، ونشكره على أنْ أهَّلنا لإقامة الشَّعائر وإدامة المَناسك، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له جل فى جَبَرُوته، عن مُشابِهٍ وتعالَى فى مَلَكُوته، عن مُشارِك ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أنجد جنودَه من الملإ الأعلى بالملائك ، وأمدَّ بُعوثَه بالنَّصر والظَّفَر فى جميع المواقف والمَعارِك ، وأيَّد أمَّتَه بولاية ملوك يجلِسُون فى النَّعيم على الأرائك، ويَحْرُسُون حِمَى الدِّين بجِهادِهم واجْتِهادهم من كلِّ فاتِنٍ وفاتِك، صلَّى الله عليه وعلى آله سُفُن النَّجاة المؤمِّنين من المخاوف والمنقِذين من المَهالك ، ورَضِىَ الله عن أصحابه الذين نظَمُوا شَمْل الإيمانِ، وهزَمُوا جَمْع البهتان، بكلِّ باترٍ وفاتِك، صلاةً ورضواناً يُضْحى لقائلهما

(١) أى القريبات الخطا .

فى اليوم العَبُوسِ الوَجْهُ الطَّلْقُ والثغر الضَّاحك ، ويُنْشَر فيُحْشَرُ مع النَّبِيِّين والصدّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُن أُولئِك ، ما ٱبْتَهَل بصالح الدُّعاء ، وناجِح الأستدعاء ، لأيّامنا كُلّ عابِد وناسِك ، وعَوَّل حُسْنُ آرائنا علىٰ تقديم مَن هو لجميل آثارنا سالك ، وأقبل بالإقبال سَنَا شِهابِه المُنير يجلو ماتُثِير من ليل نَقْعِها السَّنابِك ، فحصل للكَرَك والشَّوْبَك بهذا القُدوم فَخَار مَسِيرِك بينهما وبين النجوم الشَّوابِك .

أمّا بعـدُ ، فإن الله تعالىٰ آثرنا بتوفير التوفيق ، ويَسَّرنا من الهُدىٰ إلىٰ أقوم طريق ، ووهبنا فى الملك النَّسبَ العلىَّ العَرِيق ، والحسبَ الذى هو بالتَّقديم والتَّحكيم حَقِيق ، وقلَّدنا من عَهْد بَيْعة السَّلطنة ماحمده فى الآفاق تَطْرِيق ، ولعِقْده فى الأعناق تَطْوِيق ، فَفَيَّأنا من شَجَرة هذا البَيْتِ الشريفِ النَّاصرىِّ المَنْصُورىِّ كُلَّ غُصْنٍ وَرِيق ، وهيّأ للبَرِيَّة تكريمًا عميًّا بتقديم من له المَجْدُ يتعيَّن وبه السُّؤْدُدُ يَلِيق ، وأطْلَع فى أُفُق أعزِّ الممالك علينا من بيتنا شِهابَ عُلًا هو للبدْرِ فى الكمال والجمالِ شَبِيهٌ وشَقِيق ، وأطَعْنا أمْر اللهِ تعالىٰ فى معاملة الوَلَد البارّ معاملة الوالد الشَّفِيق ، وأوْدَعْنا لدَيْه ما أودعه الله تعالىٰ لدينا : مملكةً مرتفعةً متسعةً ليرتَفِع محلُّه ويتَّسِعَ أمَلُه ولا يَضِيق ، وجَمَعْنا له أطْرافَها لتكونَ لكلمته العُلْيا بها الأجتماعُ من غير تفْرِيق .

ولمـا كان الجناب العالى ، الولدىّ ، الشهابىّ ، سليلُ الملوك والسلاطين ، خَليل أمير المؤمنين : هو الذى تُشِير رُتَب الكَفَالة بترقِّيه ، وتَقَرُّ عيونُ الأولياء بتَعَيُّنه لإلقاء أمرنا المُطاع وتَلَقِّيه ، وتلْهَجُ الألْسِنةُ ضارِعةً إلى الله تعالىٰ أنْ يخلِّدَ مُلْكَ بيته الشريف ويُبْقِيه ، وتعرُجُ إلى السمٰوات دَعَواتُ الأتقياء أن يُوَقِّيَه اللهُ مما يتَّقِيه ، وتُمسِكُ فى هذا المقام لِسانَ المَقالِ عن مَدْحِه أدبا ، وتتركُ الأفتخارَ بالمال والعَدِيد إيثارًا لثواب الله وطَلَبا ، ونُدْرِك موعظةَ الله سبحانه فى كتابه قَصْدًا وأرَبا :

﴿والبَاقِيَاتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيْرٌ عُقْبًا﴾(١) . و ببركة هذا القصد يتمّ لنا فيه المراد، ويعمّ هذه المملكة النفعُ بهذا الإفراد ؛ فإنها معهَدُ النصر والفتح، ومشهَدُ الوَفْر والمَنْح ؛ ومَصْعَدُ العزّ الذى لما وطِئْنا صَرْحه تدكدكَ للعدا كلُّ صَرْح، وتملَّك للهدىٰ كلُّ سَرْح ؛ ونَشِقْنا بها لقُرب المزار من طِيب طَيْبة أعْظَم نَفْح، وقد بقينا بِجاه الحالِّ بها فى تيسير التأييد فكان كاللَّمح، وجرىٰ خَلْفُنا السَّمْحُ بعد ذلك علىٰ عادته فى الحِلم والصَّفح، وسرىٰ ذِكْرُنا فى الشَّرق والغَرْب وللحُدَاةِ به أطْرَبُ صَدْح، وآتى اللهُ من فَضْله مُلْكًا نِعمًا تَجِلُّ عن العدّ والشَّرح ؛ فيها مَنْشأُ دولَةِ الدُّول ومنها فَتْح الفتوح ، و بإضافته إلينا تفاؤُلُ خيرٍ مَشْهورٍ مَلْموح ؛ كما قيل قبلها كَرَك نُوح، فبتطهير الأرض من الكُفَّار، عزائمُنا تغدُو وتَرُوح، و بالاستناد بأطْول الأعمار، أمارةٌ باديةُ الوضوح ؛ وآثارُ بركةِ الاسمِ الشَّريف المُحمَّدىّ تظهر علينا فى الحركات والسَّكَنات وتلُوح ، ونَفَارُ هذه المملكة المباركة : لاختصاصها بالحرمَيْن الشَّريفَيْن عليها طَلاوةٌ وسعادةٌ وفيها رُوح ؛ وكنَّا قد سلكْنا بهذا الوَلد النَّبيل، سنَّةَ أبى الأنْبياء إبراهيمَ الخَلِيل، فى ولده إسماعيل، عليهما السلامُ التامُّ فى كلِّ بُكْرة وأصِيل ؛ حيثُ فارقه وأفْرده، وتَفقَّده فى كلِّ حين وتَعهَّده ؛ حتَّى شَدَّ اللهُ تعالىٰ به عَضُدَه و رفع هُو وأبوه قواعدَ البيْتِ وأعانه لمَّا شَيَّده، فأجْمل اللهُ لنا هذا القَصْدَ وأحْمده ، وكمَّل هذا الشُّروع وأسْعده ؛ وأجْزل [له] من فوائِده أوْفرَ هِبَةٍ وأنْجزَ له من عوائده أصْدقَ عِدَه ؛ فأحْللناه فى هذه المدَّة بمملكة الكَرَك فسلَكَ من حُسن السجايا أحْسن مَسْلَك، وملك قلوبَ الرَّعايا وبما وَهَبَ من المنح تَملَّك ؛ و بسُنَّتنا فى التَّواضُع للحقّ مع الخَلْقِ تَمسَّك، و بشِيَمِنا وخُلُقِنا فى الجُودِ تخلَّق فبذَل وما أمْسك .

(١) التلاوة «وخير أملا» أما وخير عقبا فهو فى آية قبلها .

ولما بلغ أشُدَّه وٱستوىٰ، وبزغ شِهابُ عُلاه الذى هو وبَدْرُ السماءِ سَوا، وحاز مكارِمَ الأخلاقِ وحوىٰ، وفازَ سلطاننا فى نجابته بحسن النية : "وإنَّما لِكُلِّ ٱمْرِئٍ ما نوىٰ" ـ حكَّمناه فى هذه النيابة التى ألِفَها ودَرَّبها، وعرف أُمُورَها وجَرَّبها، وٱستمال خواطرَ أهلِها وٱستَجْلَبها، وأدنىٰ لهم لمَّا دَنَا منهم المَيامِنَ ولمَّا قرّبها منهم قرَّبها، وٱستحقَّ كَفالَتَها وٱستوْجَبها، وأظهرَ اللهُ تعالىٰ فيه من الشَّمائِلِ أنجبَها، ومن الخلائق أرْحبَها، ومن الأعراق أطْيبَها، ومن العوارف أنْسبَها، ومن العَواطف أقْربَها، ومن البَسالة أرْهفَها وأرْهبَها، ومن الجلالة أحبَّها إلى القلوب وأعْجبَها، ومن السيادة ما أخذَتْ نفسُه لها أُهبَتَها، ومن الزيادة ما يتعيَّن [له] شكرُ الله الواهبِ الذى وهَبَها، ومن السَّعادة ما رفعتِ الأقْدارُ علىٰ مناكِبِ الكواكِبِ رُتَبَها، وأطْلعتْ لُماتُه سماءُ العَلْياء شُهُبَها، ورقَّتْ علىٰ هَامَةِ الجوزاء مَنْصِبَها، وٱستصحبتْ من العناية لهذا البَيْت مَزِيَّةً فرض اللهُ بها له الطاعةَ وكَتَبها، فاستَخَرْنا الله تعالىٰ الذى يختار لنا ويَخير، وسألْناه التَّأْييدَ والتَّيْسير، وفوَّضْنا إليه وهو الكَفيلُ لنا بالتدبير، فى كلِّ مَبْدَإٍ ومَصِير، واستَعَنَّا به وهو نِعْمَ النَّصِير، وٱقتضىٰ حسنُ الرَّأْيِ الشريف أن نُسْرِج شِهابَه المُنير، ونُنتج للأَوْلياء يمن التَّأْثِيل بحسن هذا التَّأْثِير، ونُنْهِج فى بِرِّه سُبُلاً تقدَّمنا إليها كلُّ ذِى منبرٍ وسرير، ونُثْلِجَ الصُّدورَ ونُقِرَّ العيونَ بسَعيد هذا الإصدار وحَمِيد هذا التَّقْرِير.

فلذلك رسم بالأمْر الشريف ـ لا برح أمْرُه يصيب السَّدادَ فيما إليه يصير، وخَبَرُه يحمل الموافاة فللأَلْسنة عن مكافَاةِ بِرِّه تَقْصير ـ أن تفوَّضَ نيابةُ السَّلطنة الشريفة بالكَرَك المحروسِ والشَّوبك للجناب العالى، الولدىّ، الشهابىّ، وماينضم إلىٰ ذلك وينْضَاف، من جميع الأقْطار والأكْناف، وجمعنا له من هذه المملكة الأطْرَاف، وجعلنا له علىٰ سَهْلها وجبَلِها إشْراف، وصرَّفناه منها فيما هو عن علْمه

الكريم غيرُ خاف ، نيابةً كاملة ، كافلةً شاملة ، عامّة ، تامّة ، وافرة ، سافرة ، يستلزمُ طاعتَه فيها الافتراض ، وتحسم عنه فيها موادُّ الاعتراض ، وتَنفُذ مراسمه من غير توقُّف ولا انتقاض ، وتُبْسَطُ يدُه البيضاءُ من غير انقباض ، ويرتفع رأيه من غير انخفاض .

فلتقدُرْ رعيّةُ هذه البلاد نعمةَ هذا التفويض قدْرَها ، وليسألُوا الله أن يُوزِعَهُمْ لحسْنِ هذا التفويض شُكْرَها ، فقد أنشأ لهم يُسْرَها ، وأفاء لهم بِرَّها ، وألقى إليهم جُودَها وخَيْرَها ، وأبقى عندهم عِزَّها ونَصْرَها . وليتّبِعوا السَّبيلَ القويم ، وليُجْمِعوا على الطاعة التى تُبْقِى عليهم نِعْمَةَ العافية وتُديم ، وليَسْمَعُوا ويُطيعُوا لما يَرِد إليهم من المَراسِيم ، فمن لم يَسْتَقِم كما أُمِر لا يَسْتمِرُّ بهذه البلاد ولا يُقيم ، والعاقلُ لنفسه خَصيم ، والجاهلُ مَن عَدِمَ النِّعمةَ وحُرِم النَّعيم ، وفِراسَتُنا تلمَحُ نتائجَ الخيرِ من هذا التَّقديم ، وسِياسَتُنا تُصْلِحُ ماقرُب منّا وما بَعُد بتعريف أحْكام التَّحكيم ، وكَيْف لا؟ وهو الكَريم بن الكَريم بن الكَريم ، المؤمَّلُ لتمام السُّؤدُد قبل أن يُعقَد عليه التَّميم ، المشتملُ على الخلالِ المُوجِبَة له الفَضْلَ العَميم ، المتوصّلُ بيُمْنِ حركاته إلى أن يكونَ لمثل هذا المُلْكِ العظيم ، وإلى أمانَتِه استيداعٌ وإلى صِيانَتِه تَسْليم ، المقبِلُ وجهدنا الإقبال فتتلو الرِّجال : ﴿ماهذا بَشَرًا إنْ هذا إلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .

ونحن نأمُرك من التَّقوى بما به من الله أُمِرْنا ، ونبصِّرُك من الهدى بما له هُدِينا وبُصِّرْنا ، ونُبْقِى لديك من بدائعها مابه خُصِصْنا وأُوثِرنا ، ونُوصيك اتّباعًا للكِتاب والسُّنّه ، ونُؤتيك من الهداية مالله فى الإرشاد إليه المِنّه : فقد وعَظ ووصَّى لُقمانُ ـ عليه السلام ـ ابنَه ، وأوصى رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم مُعاذَ بنَ جَبَل لمّا بعثه الى اليَمَن فحقّق اللهُ تعالى فى نجاحه رجاءَه وفى فَلاحه ظَنّه ، ونُذكِّر جنابك ، ونرجو أن

تكون ممن تنفعه الذِّكرى، وتُسيِّر شهابك، إلى أُفُق السَّعد ونأمل أن تُيَسَّر لليُسرى، ونُؤمِّرك فتزيدُ علَم عِزِّك رفعًا ولواء مجدِك نشرا، ونأمُرك ثقةً بحسن أخلاقك، فيتلو لسانُ وِفاقك: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. فمثلك من أيَّدته العِصَم، وأصعدته الهِمَم، وحمِدته الأُمَم، وأرشدته إلى الحُكْم ما عهِدته فكرُه من الحِكَم، وسدَّدته أعراقُه وأخلاقُه فلا يُزاد على ما فيه من كرم؛ فلا نُذكِّر منك ناسيا، ولا نُفكِّر لاهيا، ولا نأمُر وننهى إلّا مَن لم يزل بالمعروف آمرًا وعن المُنكر ناهيا.

فاتّقِ الله تعالى: فعلى التّقوى مَرْباك، وراقِب الله تعالى: فالمراقبةُ للملوك من بيتك مِلاك، وجدَّ فى نُصرة الحقِّ ولاتأبَ: فقد أنجد الله تعالى بذلك جدَّك وأباك، واعدل فبالعدل تعمُر الدُّوَل وأقِمْ منارَ الشّرع، فهو الأصل الذى يُرَدُّ إليه من القضايا كلُّ فرع، ومجالُه الرَّحْبُ إذا ضاق الذَّرع؛ فأيِّدْ حاكمه، وشيِّدْ معالمه، وأكِّد الإلزامَ بأحكامه اللّازمه.

والأُمراءُ والجُنْد فهم جَناحُ النّجاح، وصِفَاحُ الصِّفاح؛ فاعتمِدْ أحوالهم بالصَّلاح، وأرِدْ فيهم ما استطعتَ الإصلاح. والخيّالةُ والرجّالةُ الذين يُحمَى بهم مَصُون الحُصون أن يُستباح، فالحظْ أُمورهم بعين فكرك فى كلِّ مساءٍ وصباح، فمَن نهض فى الخدمة تعيَّن من النِّعمة أن يُزاد ومَن قصَّر فى العَزْم قضى الحَزْمُ أن يُزاح. والرعايا فهم للإحسانِ ودائع، وللامتنانِ صنائع؛ فاعذِبْ لهم من المَعدَلة المشارِع، وانصِبْ لهم من إقامة الحُرْمة الزواجرَ والرّوادع؛ وأخصِبْ لهم من النِّعمة مَرْبعًا يُرغِّب الجامحَ ويقرِّبُ الطائع. وأهلُ الذِّمّة فآوِهم إلى كَنَف العَدْل الواسع، واحمِهم أن تمتدَّ إلى أنفسِهم يدُ جانٍ وإلى أموالهم يدُ طامع، وأقِمْ عليهم بأسًا يحِلُّ بهم إذا اعتدَوا

القَواصِمَ والقَوارِع ، وأدِمْ لهم مهابة تَسُدُّ من فساد الذَّرائِـع ، وعاوِدْ آراءَنا الشَّريفَة وراجِع ، وواصِلْ بأنْبائك السارَّةِ وأفْعالك البارَّة وتابِـع ، وبما نتطَلَّع إليه خَواطِرُنا العاطفة من مُتَجَدِّداتك المباركة أتحِفْ وطالع ؛ والله تعالى يَشْنُف بحسْنِ سِيرتك المسامع ، ويشَرِّفُ بحلول عَدْلك المَحافِلَ والمَجامع ، ويُوزِعُك شكْرَ نعمتِه ويجعلُ لك من عِصْمَتِه أعْظَمَ وازِع ، ويمتِّعُـك بأيَّامنا التى فيها الخـيْرُ الشَّامِلُ والبِرُّ الجـامِع ، ويصونُ بخلالك الحُسنَىٰ ما آسْتَطْعْتَ(١) من أسْنى الودائع ، ويُزَيِّنُ سمـاءَ العَلْياء بجلالك فمنهـا لك قمـراها والنجوم الطوالع ، ويوفِّقُ بجميل قصـدك إلىٰ أن تأْخذ من القـلوب بالمجامع ، ويحقِّقُ فى إسْعاد جَنابِك المطالب ويُشْرِق بإصْعادِ شِهابِك المطالع ؛ والعلامة ... .

الصنف الثـانى — أرْباب الوظائف الدِّينيـة . وبهـا قاضٍ واحدٌ شافعىٌّ ، وتوقيعُه فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ» بالياء .

الصنف الثـالث — الوظائف الدِّيوانية . وهى ثلاثُ وظائِفَ ، يُكْتَب لكلٍّ منهـا تَوقيعٌ فى قَطْع العادة . الأُولىٰ كتابة الدَّرج . الثانيـة نَظَر المـال . الثالثـة نَظَر الجَيْش .

القســـم الثـالث

(مما يُكْتَب من الولايات عن الأبْواب السلطانية بالديار المصرية — ما يكتب لأرباب الوظائف بالمملكة الحجازية)

وقد تقدّم أنّهـا تشتمِلُ علىٰ ثلاث قواعد :

---

(١) لعله «ما آستحفظت» .

القاعـــدة الأولىٰ

(مكة المشرّفة ، وبها وظيفتان)

الوظيفـــةُ الأولىٰ

(الإمارة)

وقد تقـدّم أنّ إمارتها فى بنى الحَسَنِ بن علىّ بن أبى طَالِب رضى الله عنهما ، وأنّها كانت تُوَلَّىٰ من أبْواب الخلافة ببغْدَادَ إلىٰ حينِ ٱنْقِرَاضِها ، إلّا ما تغلّب عليه الفاطِميُّون أصْحابُ مِصْر فى خلال ذلك . ثم ٱستقرّت آخرًا من جهة ملوك مِصْر إلى الآن . ويُكْتَب له تقليـدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«ـالمجلس العـالى» بزيادة ألْقاب تَخُصُّه ، وقد تقدّمت ألْقابه فى أوّل هذا الطَّرَف .

وهذه نسخةُ تَقْليد بإمْرةِ مكّة المشرّفة : كُتب بها عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون» لأسَد الدِّين «رميثة» بن أبى نُمَىّ ، بإمرة مكّة المشرّفة ، عِوضًا عن أخِيه «عطيفة» عند قتل الأمِير الدمرجان دار وولَده خليل ، من إنشاء المولىٰ تاج الدين آبن البارنبارى رحمه الله ، فى المحرّم سنة إحدىٰ وثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الحكيم : فالشّريفُ من ٱتبع أوامِرَه ، العظِيم : فالسَّعيدُ من ٱتّقىٰ غَضَبَه بأعْماله الزاكية ونيّاتِه الطاهِرَه ، الكَرِيم : فالفائزُ من سلك مَرَاضِيَه فى الدنيا ليأْمَن فى الآخره ، ومن أخاف عاكِفَ حَرَمِ الله وبادِيَه فقد بَاءَ بالأفعال الخاسره ، ومن عَظَّم شعائرَ الله فقدْ رَفَل فى حُلَلِ الإقبال الفَاخِرَه .

نحمدُه علىٰ ألْطافه الباطنة والظّاهِرَه ، ونشكُره ونرجُوه وما زال يُنْجِحُ راجيَه ويزيدُ شاكرَه ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ من ٱتخذ الحق ناصِرَه ،

وأودع إخلاصها ضمائره ، ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسولُه الذى بعثه اللهُ من الحَرَم فألّف القلوبَ النّافره ، وفتح مكّة فطهّرها من الزُّمْرة الكافره ، وقال فى ذلك اليوم : «مَن أغلق عليه بابَه فقد أمِن» فأمسىٰ أهلُها ونفوسهم بالأمن ظافره ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله بَنِى الزهراء العِتْرة الزاهره ، وعلىٰ صَحْبه النُّجومِ السافره ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ ، فإنّ الحُكْمَ [بالعدل] شعارُنا ، وبالله اقتداؤُنا واقتدارُنا ، وفى الإحسان رَغْبتُنا ، وفى كلّ عُنُق مِنَّتُنا ، نَصْفَح ونَمْنح ، ونَرْعىٰ مَن أمسىٰ قديمَ الهجرة فى ولايتنا وأصبح ، ونُقيمُ من أهل البيْت لحفْظ ذلك البيت الأصْلَحَ فالأصْلَح ، ونُقدِّمُ من لم يزلْ مقـدَّمًا وإلىٰ صَوْب الصـواب يجْنَحُ فيَنْجح ، ونُنْجِى من الهَلَكة مَنْ لاح له مَنْهجُ الخير فسلكه فأفلح .

وكانت مكّةُ المعظمةُ هى أُمَّ القُرىٰ ، والبَلَدُ الامينُ المُجْزَلُ فيه القِرىٰ ، نَشأَ الإسلامُ فى بطْحائها ، وحرّمها اللهُ فلا ينفَّر صَـيْدُها ، ولا يُعْضَـدُ شجرها ، ولا تحِلّ لُقطَتُها إلّا لمُنْشـد تأكيدًا لتشريفها وإعلائها ، وطلعتْ شمسُ النُّبوّة من شِعابها ، وغُسلت الذُنوبُ بوَبْل سَحابها ، فيها زَمْزمُ وَرَكْزةُ جبْرِيل ، وفيها بدأ الوَحْىُ والتّنْزيل ، وإليها أعنقت الرِّكابُ ففى كلّ أبْطح لمَطىّ مَسِيرٌ ومَسِيل ؛ فكَمْ أتىٰ إليها من سائر الناس سائر ، وكم أتىٰ إليها النـاسُ رِجالًا وعلىٰ كلّ ضامِر ؛ فالرَّحمة مُسْـتقِرّة بين نواحيها والعُيونُ تَمَـلّىٰ بأنوار تلك الأستار حتّى تجْتليها ، والشِّفاهُ تتشرّف بتقْبيل ذلك الحَجَر الذى يشهدُ لها فى غدٍ ويقيها ؛ فطُوبىٰ لمتّقيها ، وسُحقًا لمن أخاف وفْدَ اللهِ فيها ؛ ونحنُ قد بصّرنا اللهُ بخِدْمة بيتها المحرّم ، وحَرَمها المعظّم ، وكرّر إليها حجّنا وكرّمه : فللهِ الحمدُ أن كرّر حجّنا وكرّم ، وما برِحْنا نُقيمُ فى إمارتها من العِتْرة النّبويّة كلّ شريف النَّسَب ،

وكلّ من يكْتسب فيها رضَا الله تعالى : وكلُّ امْرِئٍ وما ٱكْتَسب ؛ فمن أصْلح منهم أقْمناه ، ومن حَاد عن الطاعة وجَحد النِّعمة أزلْناه ؛ ومن أخاف فيه السبيلَ لم نجعلْ له إلى الخَيْر سبيلا ، ومن ٱستقام على الطريقة توكَّلْنا على الله ووَلَّيناه : وكَفَىٰ باللهِ وَكِيلا .

وكان فلانٌ هو الذى مازالت خواطِرُنا الشريفةُ تقدِّمُه علىٰ بَنِى أبيه ، وتَخْتارُه أميرًا وتَجْتبِيه ؛ ورُبَّما سلفَتْ من بَيْتِه هَنَاتٌ صفحْنا عنها الصَّفْح الجميل ، وما قابلْناهُم إلا بما يَلِيقُ بمجْدِهم الحَسنِىِّ الحَسَنِ الأَصِيل ؛ والإِمْرةُ وإن كانت بيَدِ غيره هذه المدّة فما كان فى الحقيقة أميرٌ عندنا سواه ، لأنَّه كبيرُ بيْتِه المشكورُ من سائر الأفواه .

والآن قد ٱقتضَتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُقيمه فى بلده أميرًا مُفْرَدًا إليه يشار ، وأنْ نَصْطَفِيَه : وإنَّه عِندنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيار ، وأن نجعلَ الكلمةَ واحدةً ليأْمَن النَّزيلُ والجار ؛ ومَتىٰ تجاذب الأمْرَ كلمتان فَسَدَ نِظامُه ، ومَتىٰ أُفْرِد الحَكَمُ حسُنَتْ أحكامُه ؛ ومتىٰ توَحَّد الأمْرُ زال الٱختلاف ، وزاد الٱئْتِلاف ، وأقبلتْ أيّامُهُ .

فلذلك رسم بالأمْر الشَّريفِ أن تفوّضَ إليه إمْرةُ مكّةَ المشرَّفة ، علىٰ عادة والده . فلْيتقلَّد ما فوّضناه إليه من الإمْرة والنيابة بمكة المعظمة : شاكرًا ما أنعم اللهُ به عليه من مراضينا التى لا نَجاةَ لِمَن لم ينَلْ منها نَصيبًا مَوْفُورا ، ولا فوْزَ لِمَن لم يُدْرِكْ منها حظًّا كبيرا ؛ ولْيشْرَعْ فى تمهيد البلاد من إزالةِ المَظْلمَه ، ولْيُطَهِّرها من كلِّ مُجْترِئٍ على الله تعالى فى البُقْعة المحرَّمه ؛ ولا يُقَرِّبْ مَن فى قَلْبه مرضٌ فيُعْدِيه ، ولا يرجعْ لمن فيه شقاقٌ ظاهرٌ فى صفَحاتِ وجْهه وفَلَتاتِ فِيه ؛ ولْيعلَمْ أن هذا بلدٌ حرامٌ حرّمه اللهُ يوم خَلَق السَّمواتِ والأرْض ، وصيَّر حَجَّ بَيْته علىٰ مستَطيعه من الفَرْض ؛ وجعله للنّاس مَعادًا ومَعاذا ، وقال صلّى الله عليه وسلم يوم

عَرَفَة : « إنَّ دِماءَكم وأموالَكُمْ وأعْراضَكُمْ عليكم حَرامٌ كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هـذا فى شَهْرِكُم هَذا فى بَلَدِكُم هذا » .

فليَمْنعِ الدِّماء من أنْ تُراق ، والأموالَ من أن تُؤخذَ بغير ٱستحقاق ؛ والظُّلمُ فى البَلَد الحرامِ حَرام ، وبنُو حَسَن أحَقُّ بٱتباع سُنَّة الإسلام ؛ وٱتَّق اللهَ لتلقاه بالوجه الأبيض والعَمل الأغَرّ ، وٱتَّبِع سُنَّة جَدِّك : فعلى ٱتِّباعها حثَّ وأمر ؛ وٱلْقَ وفْدَ الله فى البرّ والبَحْر بالحُسْنى فهم أضْيافه ، وأمِّن الحجَّ ليَتِمَّ نُسُكه وطَوافُه .

هذا تَقليدُنا لك أيُّها الشَّريف : فطِبْ نَفْسًا بمَراضِينا ، وصَفْحِنا عما مَضى ومَنْحِنا الرِّضا حقًّا يقينا ، لأنَّا نتحقَّقُ أنَّ الإحسانَ يَحرُسُنا ويَقِينا ، إنْ شاء الله تعالى .

⁂

وهذه نسخةُ تَقْليد شريف لأمير مَكَّةَ المشرَّفة :

الحمدُ لله الذى جعل البَيْتَ مثابَةً للناس وأمْنا ، ونَصَب فيه للقانِتين رُكْنا ، وجعل أرْضَ الحَرم لا تَبِيدُ بركاتُها ولا تَفْنى ، وجعل لشَجَرة النَّسبِ الهـاشمىّ فيها أصْـلاً شريفًا كَمْ أخرج غُصنا ، وآتى بَنِى الحَسَنِ فيها إحسانًا من لَدُنْه وحُسْنا ، وأقام منهم أميرًا فى ذلك المحلّ الأسْنى .

نحمَـدُه فُرادى ومَثْنى ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً كاملةَ اللَّفظ والمَعنى ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسـولُه الذى شيَّد اللهُ به للدِّين خيرَ مَبْنى ، وأضْحتِ الضُّلوع على مَحبَّته تُحْنى ، وثِمارُ الخَيْر مما بين رَوْضَته ومِنْبره تُجْنى ، وخصَّه اللهُ بالشَّرعِ المستقيم والدِّين الأهنى ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً فى الصـدور لهـا سُكْنى ، وسلَّم تسليماً .

وبعـدُ ، فإنَّ أمَّ القرىٰ ، خيرُ البلاد بلا مِرا ، قد جعل الله للناس إليهـا رحلةً وسُرىٰ ، وهجروا فى قصدهم إليها لذيذَ الكرىٰ ، ونصب فيها بيتًا متين العرىٰ ، وأنبع فيها بئرًا ماؤُها يشفى السَّـقيم ويُبْرِئُ الوَرَى(١) ، وجعل فيها للشَّرف بيتًا عالىَ الذُّرىٰ ، فأميرُها المُطاع ، من أهل بيتِ النبُوَّة لا يُخَيَّبُ ولا يُضاع ، ذُو همَّة تخافُها السِّباع ، ويرهبُها البَطَلُ الشُّجاع ، يعُدّ من الآباء أسلافا كراما ، كمصابيح السماء تجلو ظلاما ، وقد طيَّب الله مُقامَهم وأعلىٰ مَقامَهم حين جاوَرُوا مَقاما .

ولمـا كان ... ... هو شريفَ العرَب ، المُعْرِقَ فى النَّسَب ، الطَّيِّبَ الحسب ، المُحْيِىَ من آثار آبائه ما ذهب ، الشَّريفَ النَّفْس : فلا يلْتفتُ إلىٰ العَـرض الأدْنىٰ من الرِّقة وأكّد شكْرَه الحَـرمُ وأهلُه ، وأثنىٰ علىٰ صَـفاءِ سيرته الصَّفا وعلىٰ مروءته المَرْوةُ إذ طاب أصلُهُ ، قد اقتفىٰ فى الكَرَم أباه وجدّه ، وأمَّن سَبِيلَ الحاجِّ من جهـة البرّ ومن جِهَة البَحْر من جُدّه .

فلذلك رُسم أن يفوّضَ إليـه ... ... فليحُلَّ البلَدَ الحرامَ حاكمًا وآمرا ، وليسْتَجْلِبْ له من العاكف والبَـادِ شاكرا ، وليُحسنْ للطَّائفين والعاكفين والرُّكَّعِ السُّجود ، وليتَّبِـع آثارَ آبائه أهـلِ الكَرَم والجود ، وليؤَمِّن الخائفَ فى تلك التهائم والنُّجود ، وليَرْدَع الحائفَ عن حَيْفه فلا يعُود ، وليعلَمْ أنَّه بوادٍ غيرذى زَرْعٍ ولكن فيه للبركات ظلٌّ ممْدُود ، وخير مَشْهود ، وبمكة مولدِ أشرف مَوْلُود ، وجده الحَسن رضى الله عنه فليَكُنْ حسنَ الفعال فكما سَاد يَسُود ، وليُعربْ عن الثَّناء الأبْيض عند ما يتمسك بتلك السُّتورِ السُّود ، وليتَلَقَّ المَحْمَلَ الشريفَ فى كلِّ عام ، بالاحتفال والإكْرام ، والطاعةِ التى يَبْلُغ بهـا المرام ، وليَقِفْ مع أمراء الحـاج مقيما لحُرْمَتِهـم بجميل الاحترام ، وليُكفَّ الأشرارَ من العبيد والمَوالِى ، عن النَّهْب والتَّخَطُّف لوَفْد

(١) الورى اسم للقيح يكون فى الجوف .

الله الذى قطع السُّرىٰ بالأيّام والليالى ؛ ولْيُلازِمْ خدمة المَحْمل الشريف على ما يناسب شرَفَه ، حتّى يقِف بعرَفَه ، ثم يدْفع إلى المُزْدلِفَه ، إلى أنْ يقضِىَ الحَجّ ويرحلَ من مكّة المشرَّفه ، ولْيكُنْ سِياجًا على الحُجّاج ، فى تلك الفِجاج ، حتّى لا يفقد أحَدُهم عِقالا ، ولا يجِدَ ٱختزالا ، ويرحَلُون عن مكّة المعظمَة من الذُّنوب خِفافًا وبمِنّتِه ثِقالا . والوصايا كثيرةٌ وهو غنىٌّ عن أن نُطيلَ له فيها مَقالا ، وتقوى الله فمن تمسَّكَ بها حَسُنَ حالا ، وأنتم أهْلها كرَّمكم اللهُ أهْلًا وآلا ، واللهَ اللهَ فى حِفْظ جانب الصَّحابة رضى الله عنهم فلْيردَعْ عن الخَوْض فيهم جُهّالا ، واللهُ يجعلُه مغمورًا مسرورًا بنِعَم الله تعالىٰ ، بمنّه وكرمه ! .

✥

وهذه وصيّةٌ لأمير مكّة ، أوردها فى "التّعريف" :

وليعْلَمْ أنّه قد وُلّىَ حيثُ وُلِد بمكّة فى سُرَّة[(١)] بَطْحائها ، وأُمِّر عليها ما بين بَطْنِ نَعْمانِها إلىٰ بَحْـوَة رَوْحائها ، وأنّه قد جُعلتْ له ولايةُ هذا البَيْت الذى به تمّ شرفُه ، وعلَتْ غُرَفُه ، وعَرَف حقَّه له أبْطحُه ومُعرَّفُه ، إذ كان أَوْلىٰ وُلاةِ هذا الحَرَم بتعظيم حُرُماته ، وسُرور جوانبه بما يلُوح من البِشْر على قَسَماته ؛ ولأنّه أحقُّ بنى الزَّهْراء بما أبْقته له آباؤُه ، وألْقته إليه من حديث قُصَىٍّ جدّه الأقصىٰ أنباؤُه ؛ وهو أجْدرُ من طهَّر هذا المسْجدَ من أشياءَ يتنزّه أن يَلحَق به فُحْشُ عابِها ، وشَنعاءَ هو يعرف كيف يتتبّعها «وأهلُ مكّةَ أعْرفُ بشِعابها» .

فليتلقّ رايةَ هذه الوِلايةِ باليَمين ، ولْيتوقَّ ما يتخوَّفُ به ذلك البَلدُ الأمين ؛ ولْيعلَمْ أنّه قد أعطى الله عَهْدَه وهو بين رُكْنٍ ومَقام ، وأنّه قد بايَع اللهَ : واللهُ عزيزٌ ذُو ٱنْتقام ؛ ولْيعْمُرْ تلك المَواطِن ، ويغمُرْ ببرّه المارَّ والقاطِن ؛ وليعملْ فى ذلك

(١) فى الأصل «ثمرة» والتصحيح من "التعريف" (ص ١٠٤) .

بما يُنجَث عنه نِجارُه[1] ، ويأمَنُ به سُكَّانُ ذلك الحَرَم الذى لا يُرَوَّعُ حَمامُه فكيف جارُه ، ولْيُنصِتْ إلى ٱسْمِه [عزّ وجلّ] حيث يُعلِنُ به الدَّاعى علىٰ قُبَّة زَمْزَم فى كلِّ مَساء ولْيَعْرِفْ حقَّ هذه النِّعمه ، ولْيُعامِلْ من وُلِّىَ عليهم بما يليق أنْ يعامَلَ به من وقَفَ تحتَ ميزابِ الرَّحْمه ، وقد أكَّد مَوْثِقَه واللهَ اللهَ فى نَقْضه ، ومدَّ يدَه على الحجَر الأسْود يمينِ اللهِ فى أرضه ، ولْيَتبصَّرْ أيْنَ هُو فإنَّ اللهَ قد ٱستأمَنه علىٰ بيْته الذى بَناه ، وسلَّمه إليه بمَشْعَرِه الحَرامِ ومَسْجد خَيْفه ومِناه ، وإنَّه البَيْتُ المقصود : وكلُّ من تَشوَّق حِمىٰ لَيْلىٰ فإنَّما قصدَه او تَعلَّقَ بالعَلَم فإنَّما عَناه ، وفى جَمْعه يجتمِعُ كلُّ شَتيت ، وفى ليالى مِناه يَطيبُ المَبيت ، وبمُحصَّبِه تُقام المواسِم ، وتفترُّ الثُّغور البَواسِم ، وتَهُبُّ من قبل نَعْمانَ الرِّياحُ النَّواسِم ، وفى عَقْوَة دارِه مَحطُّ الرِّحال فى كلِّ عام ، ومقرُّ كلِّ ذات عُود تُجذَبُ بقِلْع وعُودٍ تُقادُ بزِمام ، وإليه تضرِبُ التُّجَّار البَرارِىَّ والبِحار ، وتأْتِيه الوُفودُ علىٰ كلِّ قِطار يُحدَىٰ من الأقطار ، وكلُّ هؤلاء إنَّما يأْتُون فى ذِمَام الله بيتَه الذى مَنْ دخله كان آمِنا ، وإلىٰ مَحلِّ ٱبن بنْت نَبِيِّه الذى يلزمه من طريق برِّ الضيف ما أخذ لهم و إن لم يكُنْ ضَامِنا .

فليأخُذْ بمن أطاع مَن عَصىٰ ، وليَرْدَعْ كلَّ مفسِد ولا سيَّما العبيدُ فإنَّ العبدَ المفسِدَ لا يزْجُره إلا العصا ، ولْيَتلقَّ الحُجَّاجَ بالرُّحْب والسَّعَه ، فهم زُوَّارُه وقد دعاهم إلىٰ بيْتِه و إنَّما دعاهم إلىٰ دَعَه ، وليتلقَّ المَحْمِلَ الشريفَ والعصائب المنصوره ، وليَخْدُمْ علىٰ العادة التى هى من الأدب مع الله تعالىٰ مَعْنًى ومَعَنا صُوره ، ولْيأْخُذْ بخواطر التُّجَّار فإنَّهم سَبَبُ الرِّفْقِ لأهْل هذا البلد وتَوْسِعَةِ ما لَدَيْهم ، والمُسْتَجابُ فيهم دَعْوةُ خليله إبراهيم — صلوات الله عليه — إذ قال : ﴿ وٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ . ولا تَحيَّفْ أمْوالَهم بغرامَةٍ يَقِلُّ بها الغُنْم ، ولا بظُلامَة فإنَّه بإزاء هذا

(١) ينجث يستخرج ونجاره أصله .

البيتِ الذى يُرَدُّ دُونَه من أراد فيه إلحادًا بظُلْم ؛ ولْينظُرْ كيف حُبِس دُونَه الفيل ، وليَكُفَّ عادِيَةَ مَنْ جاوره من الأعراب حتّى لا يخاف ٱبْنُ سَبِيل ؛ ولْيُقِم شعائِرَ الشَّرع المطَهَّر ، وأوامِرَ أحكامه التى قامت بأبويه : بحُكْم جدّه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسَيْفِ أبيه حَيْدر . وليأْمُرْ طوائِفَ الأشْراف وأشْياعَهم وسائرَ أهْلِ موالاتهم وأتباعهم بلزُوم ما كان عليه صالحُ السَّلَف وما عليه الإجْماع ، وتجنُّبِ ما كانت الزَّيْدِيَّةُ زادت فيه وكَفِّ الأطماع ، وليتّق اللهَ فإنّه مسئُولٌ لديْهِ عما ٱسترعاه وقد أصبح وهو له رَاع ، وإيّاه أن يتّكِلَ على شرف بَلَده ، فإن الأرض لا تُقَدِّسُ أحدا ، أو شَرَفِ مَحْتِدِه ، فإنّ فى يوم القيامة لا ينفعُ وَلَدٌ والدًا ولا وَالدٌ ولَدًا .

الوظيفـــة الثانية

(قضاءُ مكّة ، ويكْتَب به توْقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«السامى» بالياء)

وهذه نسخةُ توْقيع بقضاء مكّة المشرّفة :

الحمدُ لله الذى أنفذ الأحكام ، بالبَلَد الحَرَام ؛ وأيّد كلمةَ الشَّرعِ فى بَلَدِه ومَنْشَئِه بين الرُّكْن والمَقَام ، وجعلَ الإنْصافَ الجَزِيل ، حَوْلَ حِجْرِ إسْماعيل ؛ مُتَّسِقَ النِّظام .

نحمدُه حمدًا حَسَنَ الدَّوام ، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ قائمٍ بحقِّها أحْسنَ القيام ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه السّامِي من ولد سَام ، والذى قام لله حتّى ورِمَت منه الأقْدام ؛ وأُسْرِيَ به من مكّةَ إلى السماء مرّتين : فى اليَقَظة والمَنَام ، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه أئِمّة الصَّلاة والصِّيام ؛ وسلّم تسليمًا .

وبعـدُ، فإنَّ وظيفةَ القضـاءِ بمكّة المعظمةِ هي أجلُّ مَنصِبٍ بتلك الأباطِح، ونُورُها في الجَبِينِ لائح؛ فإنَّ الشَّرع نَشأ منهـا والوَحْيَ أُنزل فيها فزُهيت البطائحُ، وظهرتِ النَّصائح، وأطربت الصَّوادح، وأسكتت النَّوائح، وغمرت المَنائح، وانتشرتِ المَصالح، فمن وَلِيَ الحكمَ بها وعدَلَ فذلك هو العَدْلُ الصالح، وكيف لا؟ وماءُ زَمزمَ شرابُه، وأستارُ البَيت تَمَسُّها أثوابُه، وعلى اللهِ أجرُه وثوابُه؛ وفي ذلك الجنابِ الشريف كَرُم جنابُه، وإذا دَعا اللهَ عند المُلتزَم جاءَه من القبول جوابُه.

ولمَّـا كان فلانٌ هو فرعُ الدَّوْحَةِ المثمِره، ومحصِّـل من العلوم الشَّرعية المَـادَّةَ المُوفَّره، وله البُحوثُ التي [هي] عن أحْسن الفوائد وغُرَرِ الفرائد مُسْفِره، ورِضَى أهْلِ الحَرَم، لِمَـا جُبِلَ عليه من خَيْرٍ وكَرَم، [تمسك] بالعروة الوثقى والقوى الأتقى فلا جَرَم.

فلذلك رسم ... ... — لا زال ... ...

فليكن في أُمِّ القُرى، كالوالدِ المُشـفِق على الوَرى، وليَتمسَّكْ من التَّقوى بأوثق العُرا، وليخْشَ رَبَّ هـذا البيتِ أنّه سميعٌ يسـمَعُ ويَرى، ووَفْد اللهِ قطعُوا إليـه المَراحِلَ في السُّرى، ليصافحُوا كفَّه المضمَّخ عنبَرا، وليَقْضِ بين الخصوم بالحقِّ فمِثْلُه من دَرَأَ الباطل: قد جعله اللهُ جارَ بَيْتٍ عَالِي الذُّرا، وفي أرض شرَّف الله جبالهـا وقدَّس غِيرَانها فمنها غَارُ ثَوْرٍ وغَارُ حِرَا، لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلم كان يتعبَّدُ في غَارِ حِرا، وأوى إلى غَارِ ثَوْرٍ لمـا هَاجَرَ مؤيَّدًا مظفَّرا؛ والوصايا كثـيرةٌ وملاكُها تقوى الله فليَتمسَّكْ بها من أمامٍ ووَرا، والله تعالى يجعلُ نهاره منوّرا، وليلَه مقمرا، بمنّه وكرمه!.

القاعدة الثانيـــة

(المدينةُ النبويةُ، وبها ثلاث وظائف)

الوظيفـــة الأولى

(الإمارةُ)

والأمرُ فيها على ما مرّ فى إمارة مكّة المشرّفة .

وقد تقـدّم أن إمارتها فى بَنِى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهـما ، ويكتبُ لهـا تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«المجلس العـالى» أيضا بألقاب مخصوصة ، وقد تقدّم ذكر ألقابه .

وهـذه نسخةُ تَقْليـد شريف بإمارة المدينة النبوية ، كُتب به للأمير بدر الدين «وُدَىّ[1] بن جماز» من إنشاء المقرّ الشهابىّ بن فَضْل الله ، سقى اللهُ عَهْده :

الحمدُ لله الذى صرّف أمْرنا فى أشْرف البِقاع ، وشرّف قَدْرنا بمُلْك ما آنعقد على فَضْله الإجماع ، وعرّف أهلَ طَيْبَةَ الطيِّبةِ كيف طلع البدْرُ عليهم من ثَنِيَّات الوَدَاع ، وأمدّها بُودَىّ صُغِّر للتحبّب وإلا فهو وَاد متدفّق الأجْرَاع .

نحمدُه على نِعمه التى أغنتْ مَهابِطَ الوَحْىِ عن آرتقاب البَرْد اللّمّاع ، وآرتقاء النظر مع بدره المنير إلى كلّ شمس سافرة القِناع ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُخمِد من الضلال ما شاع ، ومن البِدَع ما آستطار له فى كلّ أُفُقٍ شُعاع ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبـدُه ورسولُه أشْرفُ من أنِفَت به حَمِيَّة الآمتناع ، وألِفَت

(١) سبق ضبطه مرارا فى ج ٤ بالتكبير تبعا لضبط النسخة والظاهر ماهنا .

بنا سُنّته أن ترعىٰ لأهلها ولا تُراع، وعصفت ريحُها بمن يمالى دينه فمال إلىٰ الأبتداع ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ليس فى فَضْل أحدٍ منهم نزاع، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإن الأهتمام بكلّ جهة علىٰ قَدْر شرفها، وعلىٰ حَسَب الدُّرّة الثمينة كرامة صَدَفها، والكِمامةُ بثمرها، والغَمامة بمطرها، والهالةُ بما يحلو الدُّجىٰ من قمرها؛ والمدينة الشريفة النبويّة لولا ساكنُها ما عاجتْ إليها الركائب، ولا ناجتْ حدائقَها غُرُّ السَّحائب، ولا وقفت بتأرُّج شذَا الرَّوضة الغَنّاء بها الجنائب، ولا بكى متيّمٌ دمَنَ العقيق بمثله من دم ذائب، ولا هاج إليها البرقُ متألّقًا، ولا هام صَبٌّ فيها بظَبَيات سَلعٍ والنَّقا؛ ولكنّها مَثْوى النُّبوّة تُرابُها، ومَهْوَى الرُّسل جنابُها، ومأوىٰ كتاب الله الفسيحُ رِحابُها، دارُ الهجرة التى تعالتْ شمسُ الشريعة بأُفُقها، وتوالتْ سُحُب الهُدىٰ من بين أُبَيْرِقها، وهى ثانيةُ مكّةَ المعظمة فى فَضْلها إلّا ماذهب إليه فى تَفْضيلها علىٰ مكّة مالكُ بن أنس، ومنها آنبعثتْ للهُدىٰ نوارة كلّ نور وشُعاعُ كلّ قَبَس؛ وكانتْ لنبىّ هذه الأمّة صلّى الله عليه وسلم أبْقىٰ داريْه، وأعلىٰ سماءٍ حوتْ ثلاثةَ أقمارٍ منه ومن جاريْه .

ولما كان بها لبعْض الوُلاة من الشّيعة مُقام، ولهم فيها تحامُلٌ لا يجوز معه من الأنتقاد إلّا الأنتقالُ أو الأنتقام، حتّى إنّه فيما مضىٰ لمّا كثُر منهم علىٰ بُغْض الصاحبَيْن - رضى الله عنهما - الإصرار، وآشرأبّوا فى التّظاهر بسبّهما إلىٰ هتْك الأسْتار، دبّ من النار فى هذا الحَرَم الشريف ما تَعلّق بكلّ جدار، وأبتْ لها حَميّة الغَضب إلّا أنْ يطهّر ما سنّتْه أيدى الرّوافِض بالنّار؛ فلما آتّصل بنا الآن أنّ منهم بقايا وَجدُوا آباءهم علىٰ أُمّه، وآقتدوْا بهم فى مَذْهب الإماميّة بما لاأراده اللهُ تعالىٰ

ولا رسولُه صلَّى الله عليه وسلم ولا أولئك الأئمه ؛ وحضَر المجلسُ العالى الأميرىُّ ، الأصيلىُّ ، الكَبيرىُّ العادلىُّ ، المجاهدىُّ ، المؤيَّدىُّ ، الزَّعيمىُّ ، المقَدَّمىُّ ، الذُّخرىُّ ، الكافلىُّ ، الشَّريفىُّ ، الحَسِيبىُّ ، النَّسيبىُّ ، الأوحدىُّ ، البَدْرىُّ : عزُّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراءِ فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ؛ جمالُ العتْرة الطاهره ، جلالُ الأُسْرة الزَّاهره ؛ طِرازُ العِصابة العَلَويَّه ، كَوْكَبُ الذُّرِّيَّة الدُّرِّيَّه ، خُلاصةُ البقية النَّبويَّه ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، نَسيبُ أمير المؤمنين ؛ وُدَىّ بن جَمَّاز الحسينى ــ أدام الله تعالى نِعْمته ــ بين أيدينا الشريفة بمحضر قُضاة القُضاة الأربعة الحُكَّام ، وتَذَمَّم بأنَّ مع طُلوع بَدْره المنير لا تَبْقَ ظُلامةٌ ولا ظُلّام ؛ وتكفَّل لأهلِ السُّنة بما أشْهدَنا الله به عليه ومَنْ حضر ، وتلقَّ بإظهار فَضْل الترتيب كما هم عليه : النبىُّ صلَّى الله عليه وسلم ثم أبو بكرٍ ثم عُمَر ؛ فما آختصَّهما الله بجواره إلا لِيُثبِتَ لهما على غيرهما إفضالا ، ولِيجْعَلَ قبورَهُما فى معرفة أقربهم منه درجةً مثالا ، لما تواترتْ به الأحاديثُ الشريفةُ فى فضائلهما ممَّا هو شفاءُ الصُّدور ، ووفاءً بعهْده إذ يقولُ : « عليكُم بسُنَّتى وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الراشدين من بَعْدى عَضُّوا عليها بالنَّواجذ وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور » ؛ فلَم يسَعْنا إلا أن نجعلَ له منَّا تقليدًا يمحُو بجِدِّه ما حدث من أحداثِ البِدَع ، ويجدِّدُ من عَهْد جَدِّه نبينا صلَّى الله عليه وسلم فى مَعْرفة حَقِّ أصْحابه رضى الله عنهم ماشَرَع ؛ وُثوقًا بأنَّه من بيْتٍ كان أوَّلُ هذا الدِّين الحنيف من دَلِّه (١) ، ومبدأُ هذا الحقِّ الظاهر ما أثَّلتْه ومثَّلتْه فى سلفه الشريف بأقارب متصِله ؛ وأنَّه هو المورَّثُ من الفَخَار ما وَرِثَه عن آبائه الكرام ، المحدَّثُ عن كرم الجدود بما لا يُخْفَرله جِوارٌ أو يخْفَرُ ذمام ؛ المشْرِقُ من الأُسْرة العَلَويَّة بدْرًا تمامًا ، المحدِقُ به من الكواكب العُلْويَّة ما يظن به (؟) أبا تسمَّى وابْنا

(١) الدالُّ المهدى .

تسامَىٰ ؛ المنتخَبُ من آباء صِدْق أحسن فى ديارهم الصنيع ، وحَفظ من حَسَبِهم الكريم ما أوْشك أنْ يَضيع ؛ وٱستضاء بلامِعَةٍ من هُدَىٰ سَلَفه السابق ، وهامِعَةٍ من نَدَىٰ ما يرْويه السَّحابُ عن الجُودِ والبَرقُ عن المَهارق ؛ تَهتزُّ بمَقْدَمهِ المدينةُ سرورا ، وتَفْتَرُّ رُباها منــه بنَسَب كأنَّ علىٰ نَسَبِـه من شَمس الضُّحىٰ نُورا ؛ ويتبـاشَرُ ما بين لابَتَيْها بمن يحْمِى حِماها ، ويُحْيِى مُحيَّاها ؛ وتتشوّق منه رُبَا كلِّ ثَنِيَّة إلىٰ ٱبن جَلاها ، وطَلّاعِ ثَنايَاها ؛ مع ما لا يُجحَدُ من أنَّ له فيها من أبيه حقَّ الوِراثه ، وأنّه لمـا كان هــذا ثانِىَ المسجِدَيْن ٱحتاج إلى ثانى ٱثنين تعظيما للواحد وفِرارًا من الثَّلاثه ؛ ليكونَ هو ومَن فيها الآن بمنزلة يدَيْن كلتاهُمـا تقْبَل الأُخرىٰ ، وأُذُنين كلتاهما تُوعِى دُرّا ؛ وعَيْنَين مامنهما إلا مايُدرِك أمْرًا بعيدا ، وفَرْقَدَيْن لايصلُح أن يكون أحدُهما فَرِيدا ؛ وقَمرَيْنِ لا يَغلَّبُ أحدُهمـا على الآخر فى التَّسمية بالقَمرَيْن ، وعُمَرَيْن وكفَىٰ شرفًا أن لا يُوجَد فى الفَضْل ثالثٌ للعُمَرَيْن .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولوىِّ ، السلطانىِّ ، المَلَكىِّ ، الفُلانىِّ ـ زاد الله به المواطنَ شرفا ، وزاد به البواطن الشريفةَ حبًّا وشغَفا ـ أن يفوّضَ إليه نِصْف الإمْرة بالمدينة الشريفة علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام ، شريكًا للأمير سَيْف الدين ابن أخيه ، ورَسِيلًا معه فيما يَليه ، ولكلٍّ منهما حقٌّ لا يكاد الآخرُ يُخفيــه ، هذا له بِرُّ الوَلَدِ وهذا له حرمةُ الوالِد لأنَّ ابن الأخ ولدٌ وعمَّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه ؛ فتُقْسَمُ الإمرة بينهما نِصفَيْن ، وتوسَم جِباهُ الكُتب الصادرة عنهما لهما بٱسْمَيْن .

والوصايا تمـدّ من عنانها ، وتعدّ من أعْيانها ؛ فأوّلهـا تَقْوَى الله فإنّها من شـعائر القلوب ، وبشائر الغُيوب ، وأمائر نجاح كلِّ مَطْلوب ؛ والاعتصامُ بالشَّريعة الشريفة : فإنّها الحبْلُ الممدود ، والجَبَل الذى كَمْ دُونَه من عَقَبة كَئُود ؛ والانتهاءُ إلىٰ مانص عليه

الكتابُ والسنةُ والإجماع ، وقصّ جناح مَن مالَ به الهوىٰ إلىٰ مجاذبة الأطماع ، وتَلَقَّ وفد الله الزائر بما ألفه نزيلُ هذا الحِمىٰ من كرامة الملتقَىٰ ، وتوقَّ المَذمَّة فإنّها دنَسٌ لا يجحَدُ مثلَه نقاءُ هذا النقا ، ونعنى بالمَذمَّةِ ما نُسِب إلى الرَّوافِض من البِدَع التى لا تُطَهِّرها غُرُّ السحاب ، ولا يستبيح معها لدخول المَسْجد الطَّاهر من قَنِع بمقامه حَوْله التيممَ بالتراب ، ولا يَدَعْ أحدًا من هٰذه الفِرْقة الضَّالَّة يعلى ولا يعيره بما يكون به مُثْلَه ، ولا يشبِّه قَلْبَه فى محبَّة أهلِ البَيْت — سلام الله عليهم — بإناء آمتلأ ماءً ولم تبق فيه فَضْلَه .

ولا يظنَّ جاهلٌ منهم أنَّ عليًّه — كرَّم الله وجْهه — كان علىٰ أحد من الصاحِبَيْن معاتبا أو عاتِب ، أو أنّه تأوّل فى خِلافتهما معتقِدًا أنَّ أحدًا منهم غاصِب ، فما تأخَّر عن البَيْعةِ الأُولىٰ قليلًا إلّا لاشتغاله بما دَهَمه بموت رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم من المَصائب ، وإلّا فقد آتخذ أمَّ وَلدٍ من سَبْيِ أبى بكرٍ رضى الله عنه لا كما يدّعيه كلُّ كاذب ، وقد تزوّج عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه آبنتَه أمَّ كُلْثوم وأقام بأمْره الحدُودَ وناب عنه وهو غائِب ، فيكُفّ من عادِيَة هؤلاء الروافِض الأشْرارِ ما سيَصْلَوْنَ فى المُوافقة بنارِه ، وسَيصِلُون إلىٰ الموافقة علىٰ ما طار من شَرارِه ، ولا يدَعْ للإمامية إمامًا يقتدى به منهم قومٌ شِرار ، ولا قاضيًا يقضى بينهم : فإنّه إنّما يقطعُ لمن قضىٰ له أو عليه قِطْعةً من نار ، ولا عالمًا يرفَعُ له عَلَم ، ولا يُفْتح لهم بفتوىٰ علىٰ مذاهبهم فم ، حتّى ولا ما يتحرّكُ به فى فَمِ الدواة القلَمْ .

ولْيطَهِّرْ هذا المسجدَ الشريفَ من دَنَسِهم ، ولْيمِطْ مايحمله أدِيمُ مجلَّداتِ التَّصانيف من نَجَسِهم ، وسُكّانُ هذا الحرم الشريف ومن أقام عندهم من المجاورين ، أو خالطَهم من زُمَر المقيمين والسائرين ، يُحسِنُ لأُمورهم الكَفالة ، ولا يتعرضُ لأحدٍ منهم بما يؤذى نفْسَه ولا ينالُه ، فهم فى جوار نبينا صلّى الله عليه وسلم وفى شفاعته ،

وكلٌّ منهم نَزِيلُ حَرَمِه ومكثِّرُ سَوادِ جماعتِه ، وحَقُّهم واجب علىٰ كل مُسْلِم فكيف علىٰ حَامِي ذلك الحِمَىٰ ، بل من له إلىٰ نسبه الشَّرِيف مُنْتَمَىٰ .

واْصْحَبْ رفيقَك بالمعروف فإنّكما مفترقان والسعيد من لا يُذَمّ بعد فِراقِه ، ومُسْتَبِقَان إلىٰ كلِّ مَوْرِدٍ لا يُدْرَىٰ أيُّكما المُجِدّ فى سِباقِه ، ومتَّفِقَان علىٰ فَرْد أمرٍ وأفضَلُكما من داوم صاحبَهُ علىٰ إرفاقه ، وصَحْبَه علىٰ وِفاقِه .

وأمّا ما للمدينة الشريفة من تَهائِمَ ونُجُودٍ مُضافةٍ إليها ، ومُسْتَظِلَّة بجُدُرِها أو متقدِّمة فى الصَّحراء عليها ، فهى ومَن فيها : إما أنْ تُوجَدَ بقلوبهم فهم أعْوان ، وإما أن تَنفِر فهم أشبهُ شَيءٍ بالإبل إذا نَفَرتْ تعلّق بذَنَب كلِّ بَعيرٍ شيطان ، فأقربُهما إلى المصلحة تقريبهم ، وتأليفُهم بما يَقْرُبُ به بعيدُهم ويَزْدادُ قُرْبىٰ قَرِيبُهم ؛ والرُّكبان التى تَتَقد بهم جَمَراتُ الأَصْباح[1] والعَشايا ، ويَعْتَقِدُ كلٌّ منهم فى مَعاجِه إلى المدينة الشريفة أنَّ تمامَ الحَجِّ أن تَقِفَ عليها المَطايا ؛ فهم هُجُودُ سُرىٰ ، ووُفودُ قِرىٰ ، ورُكُودٌ فى أُفُق الرِّحال خَلَعتْ مُقَلُهم على النجوم الكَرىٰ ؛ ومعهم المَحامِلُ الشريفة التى هى مُلْتَفُّ شِعابِهم ، ومحَفُّ رِكابِهم ؛ وهى من أَسِرَّتنا المرفوعه ، ومَبَرَّتنا المَشْروعه ؛ فعَظِّمْ شعائرَ حُرُماتِها ، وقَبِّلْ أمام منابرها المُمثلة مراكزَ راياتِها ؛ وأكرِمْ من جاء فى خِفارَتِها ، ومن جال فى دُجى اللَّيل لا يَسْتضِيءُ إلّا بما يبدو من إشارتِها ، وقد أشهدْنا عليك مَن هو لك يَوم القيامة خَصِيم ، وأنت وشأنَك فيما أنت به عَلِيم .

وباقى الوصايا أنت لها مُتَفَطِّن ، وعليها مُتَوطِّن ، وما ينتفع الشريفُ بحَسَبِه ، إنْ لم يكُنْ عملُه بحَسَبه ؛ ولا يرتفعُ بنَسَبِه ، إن لم يتجنَّب مكان نَشَبه ، والله تعالىٰ يُمتِّعُ بدوام شرفه ، ولا يضيِّع له أجرَ حالِّ عمله الصالح وسَلَفِه ؛ والاعتماد ... .

(١) فى الأصل «الأجناح» .

وهـذه نسخةُ تقليد شريف بإمْرةِ المدينة النبوية ، على ساكنها أفضلُ الصلاة والسـلام :

الحمدُ لله الفَرْدِ بلا شريك، الواحدِ لا من أعداد تقتضى التَّشْريك ، الملِكِ الذى يتناهَى إليه تقليدُ كلِّ مَليك .

نحمَـدُه حمدًا يكمِّل مواهِبَ التمْليك ، ويُحْمِد عواقِبَ التَّسليك ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصدَعُ التَّشْكيك ، وتصدُّ كلَّ أفِيك ، وتَسُدُّ خَلَلَ التَّـدريك ، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسـولُه خيرُ من حُمِى به عرِيك ، وحمى عليه تريك ، وحمل حتّى تأتَّى له التحريرُ فى التَّحْريك ، وتأتَّى وما فاته على أعدائه النّصْر الوَشـيك ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه صـلاة تخلُص كالذَّهب السَّبِيك ، وترفَعُ ما شُيِّدَ وتمنَعُ ماشيك ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمّا بعـدُ ، فلمّـا كانت المدينة الشريفة النبوية ـ على سا كنها أفضل الصـلاة والسلام ـ حرَمًا لا يُسْتَباح ، وحمًى ليس إلّا لمن ٱنتهكه دمٌ مُباح ، وجَنابًا ما على من حَلَّه جُناح ، ومَهْبِطَ وَحْيٍ لا يُمَسَّحُ بأركانه لغير الملائكة جَناح ؛ ولا يُمسَكُ بعِصْمَة من أغضى فيه على قَذًى ، وسكت لسا كِنِيه على أذًى .

ولـمّـا ٱتصل بنا عن الرَّوافِضِ مالا صَبْرَ لمسلم يرجُو اللهَ واليومَ الآخر عليه ، ولا وَجْهَ لمن قَنِـع فيها بإخراج يديه ؛ ولا عُذْرَ لمن لَقِيَ اللهَ مُغْضِبا لما يُنْهَى إليه ، لا مغضبًا لمـا ينال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من التعرّض إلى صاحبيه ، ممـا تقاضى منّا ما يمحو ظَلامه الممتدّ ، وظُلْمه المشْتَدّ ، وبِدَعَهم فسواءٌ من ٱبتدَعها ومن ٱرتدّ ـ فمكَّنَّا بتقليدنا الشريف من أعطى اللهَ وأعطانا على قولِه مَوْثِقا ، وجرَّد عزائِمَ لا تَرُدُّها من

خدعهم الرُّقَى ، وأشهدَ الله عليه ومَن حضر انّه لايَدَعُ هذه الفرقة الضالّة حتى يَدَعَ يَتيمَها ، ويُعِدّ لمقاتِل السُّيوف حطيمَها : ممّا تضمنه نَصُّ ماضى ذلك التّقليد ، وما ضم ذِكْرَى لمن كان له قَلْبٌ أو ألْقَى السَّمعَ وهو شَهِيد ، ونَبَّهنا علىٰ أنّه بَدْرٌ لم يبق مع طلوعه ظُلْمةٌ ولا ظُلامَه ، ولا إضاعةٌ ولا إضامَه (١) ، ولا ما تجنَّبُ به الرّكائبُ تمام الحَجّ فى مواقِفِها ، ولا تُنْكِر ما جهلتْ فى قِباب قُباءٍ من معارفها ، وتَرِدُ أعطانَها ولا يَسُوقُها إلىٰ الأبرقِ بارقٌ على أطْلالِه ، ولا يُعجِبها إن خيل لها فى النخيل مَقيل فى ظِلاله .

وكان المجلس العالى – أدام الله تعالىٰ نِعمتَه هو المتكفِّلَ بتطْهير ذلك الحَرَم الشريف من ألَمِ كلِّ قولٍ يُفْتَرَىٰ ، ولَمِّ كلِّ باطلٍ يُلِمُّ يقظةً أو طيْفَ كَرَىٰ ، وإزالةِ كلِّ شُحٍّ فيها على من أمَّلَ قِرَىٰ أُمِّ القُرىٰ ، وإماتةِ كلِّ بِدْعة تُسْكَبُ على مِثْلها العَبَرات ، وإماطةِ كلِّ أذًى من طريق مِنًى والجَمَرات ، ومَنْعِ شَقاشِقِ شيعةٍ تَغْلِى مَراجِلُها من الزَّفَرات ، وقَطْعِ كلِّ نَجْوَىٰ يُنادُون بها من وراء الحُجُرات ، وقَلْعِ طائفةٍ لولا إقامةُ حُدود الله لكفاهم ما يُقَطِّع أكبادَهم من الحَسَرات ؛ وكان بها من أولاد أخيه ، بل بعضُه منه وبعضُه من بنى أبيه ، من انْتَهىٰ عمَّا تحلَّىٰ به شِيَمُ الشريف الشريفه ، وانتهىٰ إلى ما لا يَعْنِيه ولا يُغْنِيه فى تأخير خَليفة وتقديم خليفه ، وأهْمل حقوقاً عواقبُها مع الله تعالى ورسولِه صلَّى الله عليه وسلم مُخِيفَه ، وأوْهم عقوقا لأصْحابه بل له لقوله : «دَعُوا لى أصْحابى فلو أنفق أحدُكم مِثْلَ أُحُد ذَهبًا ما أدرك مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه» . وبقِىَ يتَّصل بنا فى هذا المعنىٰ مالا يُقالُ ممّا يقالُ عنهم ، ويَصِل أذاهم إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فى صاحِبَيْه وقد قال : «إن أهل الدرجات

(١) مراده اضاعة الحق كله أو نقص شيء منه الا أنا لم نجد فيا بأيدينا من كتب اللغة من هذه المادة فعلا رباعيا ليكون هذا مصدرا له ولعله استعمل اللغة العامية ترويجا للسجع .

العُلَىٰ لَيَراهم مَنْ تحتَهم كما يَرَوْنَ النَّجْمَ الطالع فى أفق السماء، وإنَّ أبا بكرٍ وعُمَر منهم» يطلبون فى التقديم على من قدَّمه الله ردّ فائتِ ماجرىٰ به القدر،[1] ويضربون صَفْحًا عما لا أراده الله ولا رسولُه صلَّى الله عليه وسلم فى قوله : «لا أدرى ما قد بَقِيَ لى فيكم فاقتدُوا باللَّذَيْن من بعدى : أبِى بكرٍ وعُمَر» . مع ما أضيف إلى هذا من قَوادِح نواب، وفواتح أبواب، وحَوادِثَ تُزعِجُ مقرَّ النبوّة أنباؤُها، وتمتدُّ على مشارق الأنواء ظَلْماؤُها ؛ وتُغيِّر عوائد الوفود فى كرامة زائرهم ، وإدامة بشاشة المُلتَقَىٰ لسائرهم ؛ وأمنِ سِرْبِهم أن يُراع ، وشِرْبِهم أن يَتمثَّل به لغير برق شُعاع ، وضمّهم إلىٰ ذلك الحمىٰ الذى لا يُضامُ نَزِيلُه ، ولا يُرام فى طَرِيق المَجرَّة سَبِيلُه ؛ ولا يضلُّ سارٍ إليه ووُجوهُ سكّانِ الحمىٰ دَلِيلُه ، ولا يضيع وقد تلقّاه من النَّسيم بِلَيْلِه بَلِيلُه ، ولا يقِفُ وِقْفَةَ المُرِيبِ وضَوْءُ الصباح من أيْمَنِ النَّقا قِنْدِيلُه ، ولا يَخْشىٰ وشَعْبُ ذلك الحيِّ شَعْبُه وقَبِيلُه قبيله ؛ وإراحة ركابهم التى أزعجها حَادى السرىٰ ، وإمتاعهم بقرب الجوارِ عوضًا من دُموعِهم عمَّا جرىٰ .

فلمَّا لم يَبْقَ لمن أشَرْنا إليه ـ ممَّن أعطانا عَهْدَ مَوْثِقِه ، وسارَ لا يُريد إلا نقاءَ نقاه وبراءة أبْرقه ـ إلَّا أن يحُطَّ بالمدينة الشريفة رِكابَه ، ويُبْعِدَ الشَّكْوىٰ ممَّا لا عَهْدَ من معاهدها اقترابَه ـ أصَرَّ مَن فيها من ذَوِى قرابته علىٰ مَنْعه أن يدْخُلَها إلَّا بقتال يُحِل مَقاعدَ الحَرَم ، ويَحُلُّ معاقد[2] الحُرَم ؛ ويُشْعِلُ نارًا يَصْلىٰ بها من لم تمتدّ له يدٌ إليها إلى وقود ، ويَرُوعُ من الآلِف فيها من يمتدّ له فى غير مراتع غِزْلان النَّقا سِجاف قِيام معقود ، وقدِم إلىٰ أبوابنا العالية مَنْ كان فيها مقيمًا ، وأنعمنا عليه بإبقاء النِّصْف

(١) مراده أنهم يطلبون فى تقديم علىّ رد فائت ما أراده الله من تأخيره عنهما ويتركون أيضا ما ورد فى الحديث من الأمر بالاقتداء بعده بأبى بكر وعمر . الا أن العبارة سطت عليها يد النساخ فزادت فيها ما غير مبناها وشوش معناها . تأمل .

(٢) فى الأصل مقاعد وهو تصحيف .

ففاته الكُلُّ لمـّا لم يقْنَعْ أنْ يكون قسيما؛ فأبَتْ حميَّتنا لله ولرسوله صلَّى الله عليه وسلم ولتلك المواطن المعظمة إلّا أن نُطَهِّرها ممـا أسبلَت علىٰ سريره أذيالَها، وما أطاقت(١) علىٰ مضضه الأليم احتمالَها .

فرُسم بالأمر الشريف ـ لا زال قدْرُه عاليا، و بِرُّه لا يخل بوُدى ولا يخلى مُواليا ـ أن تفوّض إليه إمْرةُ المدينةِ الشريفةِ النبويَّة على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام: مستقِلًّا بأعْبائها، مستهِلًّا سَحابهُ علىٰ أرجائهـا؛ إمْرةً تستوْعِبُ جميعَها، وتستوعى لمراسمه رُباها ورُبوعَها وعاصيَها ومُطيعَها؛ وتِهامِيَها ونُجودَها، وقريبَها وبعيدَها؛ وكلَّ مايدخلُ لهـا فى حدّ، وينتظِمُ لها فى عَدّ؛ وأهْلَ حاضِرَتِها وباديَتِها، وما تقف عليه من السحب(؟) ركائب رواعيها وغاديَتِها؛ ومن تتبسَّم بهم ثناياها، وتتنسَّم لهم أرواح بُكَرِها وعشاياها؛ ومن يضُمُّهم جَناحُها المفضَّـل، ويلمُّهم وِشاحُها المفصَّـل؛ ويجمعهم جَيْشُها السائر، ويلُفُّهم فى شَمْلةِ الدُّجىٰ قمرُها الزّاهر ـ تفويضًا يدخل فيه كلُّ شريف ومَشْروف، ومجهول ومَعْروف؛ ومستوطن من أهْلها، وغريبٍ انتهت [به] إليها مطارح سُبُلِها؛ مافيه تأْويلٌ، ولا تعْليلٌ، ولا استثناءٌ، ولا انْثناء، ولا تخرج منه الأرْض المغبَرّةُ ولا الرَّوْضَة الغنّاء؛ لاشُبْهَةَ فيه لداحِض، ولا حُجّةَ لمعارِض؛ يستقلُّ بها جَميعِها بَدْرُه التمـام، وبَرُّه الغَمام، وبَحْرُه الذى يأبىٰ فَرِيدُه أن يُؤاخىٰ فى نِظام؛ وأمْره الذى يتلَقّىٰ به عن الثقة من سادات بيته مَقاليدَ الأحكام، وتَقاليدَ مايجرى به القلَمُ ويَمْضى السيفُ الحُسام؛ إفرادًا له فى التحكيم، وأنفةً لمِثْله مِن ضرر التَّقْسيم، وفِراراً من الشَّركَة المشتقة من الشِّرْك: ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾. ولايةً تامه، عامه، كامله، شامله؛ لايبقىٰ من أهْل نَجْدٍ من لايدخل فى حُكْمِها، ويَنْضافُ

(١) فى الأصل «وأطفات».

الى قِسْمها، تقابَلُ السَّوابِقُ فى غاياتها، وتُقاتِلُ المحافِلُ تحت راياتها، ويعدُّ مع أهْل بَدْرِ فيها، ويُعِدّ من حقوقها ما يُوَفِّيها .

وقد سبق من الوصايا ما فيه غِنًى، إلَّا ما لا تخل العوائد به مما يُذْكر هنا، وقد حَوَيْتَ بحمد الله فى جميع طباعك، وجميل انْطباعك، من حقّ اعترامك، وصدق الْتزامك، ما هو كالسَّنا للشَّمْس، والمُنىٰ للنَّفس، مما تحسدُ علىٰ شَرَفه النُّجوم، وتنافسُ العَلْياء ما تعلق به الغُيوم .

فكَمِّل بتَقْوى اللهِ شَرفَك، واتَّبِعْ فى الشريعة الشَّريفة سَلَفك، وكتابُ الله المنزَّل، أنتم أهل بَيْت فيكم تنزَّل، وسنةُ جدِّكم سيدنا رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم لا تُهمَلُ، وهى مجدكم المؤثل، ومعرفة حقِّ من مضىٰ عنكم، وإلا فعمَّن تُنقل، ومنكم، وإلا فممَّن تؤمَّل، وإزالةُ البِدَع وإلَّا فلأىّ شَىْءٍ سيوفكم تُصْقَل، و[لماذا] (١) رماحُكم تُعدَّل، والرافضةُ وغلاةُ الشِّيعة هم دنَس من انتمى إلىٰ هذا البَيْتِ الشريف بولائه، وسببُ وقُوف من يقصد الدُّخول تحت لِوائه، فهم وإن حُسِبوا من امداده، لَيْسُوا ـ وحاشىٰ نورُه الساطع ـ إلَّا من المكثِّرين لسواده، أرادُوا حفْظ المودّة فى القُربىٰ فأخلُّوا، وقصدُوا تكثيرَ عدَدِهم نقلُّوا، وأنِفَ من هو برىءٌ من سُوءِ مذْهَبِهم، أن يتظاهَرَ بالوَلاء فيُعَدَّ من أهل البِدَع بسَبَبِهم، مع أنَّهم طمعُوا فى رِضا الله فأخطأتْهم المَطامع، وصحيحٌ أنَّهم زادُوهم عددًا إلَّا أنَّها كزيادة الشَّغْياء (٢) أو كزيادة الأصابِع .

فصَمِّمْ عَزْمَك على ما عاهدْتَ اللهَ عليه من رَفْع أيْدى قُضَاتهم، ومَنْعهم هُم ومَن اتَّبع خُطُواتِ الشَّيطانِ فى سبيل مَرْضاتِهم، وحذِّرْهم ممَّا لا يعودُ معه علىٰ أحد منهم سِتْرٌ يُسْبَل، ولا يبقىٰ بعده لغيرِ السَّيفِ حُكْمٌ يُقْبل، فمَن خاض للسَّلَف الصالح بِمَّ ذمّ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٠٧ .

(٢) فى القاموس : الشغياء السن المخالفة الخارجة عن نبتة الأسنان .

أغرق فى تيّاره، أو قدح فيهم زنادَ عِناد أُحرِق بناره؛ وألزِمْ أهلَ المدينة الشريفة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ بكلمة السنة فإنّها أوّل ما رُفعت بتلك المواطنِ المعظّمة أعلامُها، وسمعت فى تلك الحُجْرة المكرّمة أحكامُها، مع تعفية آثارِ ما ينشأ على هذه البِدْعة من الفتن حتّى لا ينعقد لها نَقْعُ مثار، وتوطئة أكناف الحمى لئلّا يبقى به لمُبطل فى مَدارج نُطقه عِثار؛ والوصية بسُكّان هذا الحرم الشريف ومَن يتزل به من نَزيل، ويُجاوِرُ به مستقرًّا فى مِهادِ إقامة أو مُستوفزًا على جَناح رحيل؛ ومَن يَهْوِى إليهم من ركائب، ويأوى إليهم من رُفْقة مالتْ من نَشواتِ الكرى بهم راقصاتُ النجائب؛ ومن يَصِلُ من رُكْبانِ الآفاق، وإخوانِ نَوًى يتشاكَوْن إليهم مُرَّ الفِراق؛ ومن يتلاقى بهم من طوائفَ كلُّهم فى بيوت هذا الحَىِّ عُشّاق، وأُمَمٍ شَتَّى جُمُوعُهم: من مِصْرٍ وشامٍ ويَمَنٍ وعِراق؛ وما يصل معهم فى مَسيل وُفُودنا، وسَيْلِ جُودِنا؛ ومحاملِنا الشريفة التى يُنْصَب لنا بها فى كلّ أرض سرير، وأعلامنا التى ما سُمّيتْ بالعِقْبانِ إلّا وهى إليها من الأشواق تَطير؛ فمتى شَعَرْتَ بَمقْدَمِ رِكابهم، أو بَرَقَتْ لك عوارِضُ الأقمار من سَماءِ قِبابهم؛ فبادِرْ إلى تلقّيهم، وقبِّل لنا الأرضَ فى آثارِ مَواطيهم، وقُمْ بما يجبُ فى طاعة الله وطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلم وطاعتِنا [وأخرج عنهم كلَّ يد ولا تُخْرِجْهم عن جماعتنا][1].

وأهل البادية هم حِزْبُك الجَيْش اللُّهام، وحَرْبُك إذا كان وُقودها جُثَثٌ وهام؛ وهم قوم لم يؤدِّبهم الحَضَر، ولا يَبِيتُ أحدٌ منهم لأنَفَته على حَذَر؛ فاستَجْلِبْ بمُداراتك قلوبَهم الأشتات، وبادِرْ حِبالَ إبلهم النّافرة قبل البَتات؛ وترقّبْ مراسمنا المُطاعة إذا ذَرَّتْ لك مَشارقُها، وتأهَّبْ لجهادِ أعداء الله متى لمعتْ لك من الحُروب بوارِقُها؛ وأَحسِنْ كما أحسنَ الله إليك، ولولا أنّ السيفَ لا يحتاج إلى حِلْية

(١) الزيادة من الوصية الآتية بعد ومن التعريف (ص ١٠٨).

لأطلْنا حمائل ما نُمليه عليك، فما شَهِد للشّريف بصحّة نَسَبه، أزكىٰ من عمله بحَسَبه، والله تعالى يقوّى أسبابَك المتِينه، ويُمتِّعُ العيونَ بلوامِعك المُبِينه، ويُمسك بك ما طال به إرْجافُ أهل المدينه، والاعتماد ... .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ تقليد بإمْرة المدينة النبوية، وهى :

الحمدُ لله الذى خصّ بالنُّصْرة، دارَ الهِجره، وأطْلع للإيمانِ بخَـيْره، بتلك الحُجْره، وطيَّب طَيْبَةَ وأوْدع فيها سليل الأُسره .

نحمدُه حمدًا نأمن به مكْره ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبد تمسَّكَ بالحجّ وتنسَّك بالعُمْره، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شرَّف الله قَدْره، وأنفذَ أمْره، وأيَّده فى ساعة العُسْره، وكان أكْرمَ الناسِ فى العِشْره، وأسخى العالَمِينَ إذ يبسُطُ بالجُود راحَتَيْه فما أسْمح عَشْره ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً ثبَتَتْ شجرتُها من الأرْض فاتّصلتْ فروعُها بالسِّدْره، وسلَّم تسليما .

وبعدُ ، فإنَّ المدينةَ النبويةَ مَعدِنُ الهُدىٰ والوَقار، ومَسْكَنُ الرِّضوانِ والأنوار، ومَهْبِطُ الملائكة الأبرار، ومنزِلُ الوَحْى فى اللّيل والنهار ، ودارُ الهِجْرةِ للنبىّ المختار، وتُرْبةُ مَدْفَنِـه الزّاكِى المِعْطار، تُشَدُّ الرِّحالُ إليها من أقاصى الأقْطار، ويأتى إليها الظّالمون لأنفسهم بالاسْتغْفار، فيرجعون وقد مُحِيتْ عنهم الأوْزار، فقُلوبُ أهل الاشْتياق مُقِيمةٌ فى فِناءِ تلك الدّار، وإن كانت أجْسامُهم بعيدةً من وراءِ البِحار، وبها من آلِ البَيْت سادةٌ أطْهار، وأُمراءُ كِبار، يُتقرَّبُ إلى اللهِ بحُبِّهم فى الإعْلان والإضْمار، ويُتوسَّلُ بولائهم فى دَعْوة الأسحار، قد ضمُّوا إلىٰ كَرَم الراحه، وسَماحة

الأنفس المُرتاحه ، شجاعةً وبَساله ، وعَلويّةً فعّاله ، وتَمسُّكاً بالمُروءة المعروفة بشَرف الأصاله ؛ وهم يتوارَثون إمْرتها عن آباءٍ سادات ، وكِرام لهم فى الفَضْل عادات .

ولما كان فلان هو بَقيةَ الأُسْرة المتضوِّعه ، وثمرة الشَّجرة المُتفرِّعه ، والمخصوص بالوَصْف الذى رفَعه ، والقول الذى آتّبعه حين سَمِعَه ــ ما زال فى المدينة النبويّة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام مشكورَ الطّريقه ، محفوظ الوَثيقه ، معروفَ الحقيقه ، موصوفَ الآثار الحسَنة بين الخَليقه ، يَجْتنى لكلّ صالحة من تلك الرَّوضة الشريفة المُثْمرة الوَريقه ، ويَحمِى السَّرْح أنْ ينتهب ، ويُطْفِئُ نارَ الفتَن فما تلتهب ، ويُعظِّم المجاورين والواردين والقادمين علىٰ حِمىٰ سيِّدِ العَجَم والعَرَب .

فلذلك رسم أن يستقر ... ...

فليَحُلَّ هذا الرَّبْع المعمورَ بالتُّقىٰ ، وليُباشِرْ هذه الإمْرَةَ الشّريفةَ زادها الله عُلُوّاً وآرْتقا ، وليَسْتعملِ السكينةَ فإنّها جميلة اللّقا ، وليَسْلُكِ الأدبَ مع ساكن النَّقا ، وليعتَمِدْ علىٰ حُسن اليَقينِ فإنّه له وِقَا ، وقد جاورَ العَقيقَ فأصْبح بقلائِده الفاخِرة مُطوّقا ، وليَحْكُمْ بالعَدْل فى بلدٍ نشأ منه العدْلُ والإنصافُ فمُنذُ آجتمعا فيه ما آفترقا ؛ وليصُنْ شَرفَه من الوُلوج فى فِتَنه ، وليغْمِدْ سيفَه ولا يَشْهره فى وقت مِحَنه ؛ ويحقِنِ الدِّماءَ أن تُراق ، ويتَلقَّ الزُّوّارَ بالإرفاق ، فإنّهم جاءوا من أقاصى الآفاق ، رجالاً وعلىٰ النِّياق ، تحثُّهم الصَّبابةُ والأشْواق .

وكلمةُ الشَّرع وشِعارُ السُّنّة فليَكُنْ معظِّماً لها باتفاق بغير شِقَاق ، وشيخَ الحَرم الشَّريف وخدّامَه ومُجاوِريه فليُكرِمْ مُحسنَهم ويعامِلْه بحسن الأخلاق ، ويتجاوَزْ عن مُسيئهم بطِيب أخلاق ، وحواصلَ الحَرَم الشَّريف المخزونةَ فيه فلتَكُنْ محميّةً من التبذير فى وَقْت الإنفاق ، وتلك دارُهم سُكّانُها الطيِّبو الاعراق ، والتَّقوىٰ فمن بيتهم

الشّريف آثارُها الإشراق ، وعليهم نزل الفُرْقانُ والتّحْريم والطّلاق ، فماذا عسَى أن نُوصيه وهو أهل الفضل على الإطلاق ، والله تعالى يجعلُ نِجاره فى الفخر مُجَلِّيه فى السِّباق ، بمنّه وكرمه! .

✣

وهذه وصية لأمير المدينة أوردها فى "التعريف" ، وهى :

فكمِّل بتقوى الله شرفك ، واتّبِعْ فى الشريعة الشريفة سلفك ، وكتابُ الله المنزّلُ أنتم أهلُ بيت فيكم تنزّل ، وسنةُ جدّك سيدنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم لا تُهمل ، وهى مجدُكم المؤثّل ، ومعرفةُ حقّ من مضى ، عمّكم ، و إلا فعمّن تُنقل ، ومنكم ، و إلّا فممّن تُؤمّل ، وإزالةُ البِدَع و إلّا فلأىّ شىءٍ سيوفكم تُصْقَل ، ولماذا رِماحُكم تُعدّل ، والرافضةُ وغُلاةُ الشّيعة هم دَنَس من انتمَى إلى هذا البيْت الشريف بولائه ، وسببُ وقُوف من يقصد الدُّخول تحت لوائه ؛ فهم وإن حُسِبوا من أمداده ، ليسوا ـ وحاشى نوره الساطع ـ إلا من المكثّرين لسواده ؛ أرادُوا حفْظ المودّة فى القربى فأخلُّوا ، وقصدُوا تكْثير عددهم فقلُّوا ؛ وأنِف مَن هو برىءٌ من سُوءِ مذهبهم ، أن يتظاهر بالوَلاءِ فيُعدّ فى أهل البِدَع بسببهم ؛ مع أنّهم طمِعُوا فى رضا الله فأخطأتْهم المطامع ، وصحيحٌ أنّهم زادوهم عددًا إلّا أنّها كزيادة [الشّغياء أو كزيادة](١) الأصابع .

فصمّم عزْمك على ما عاهدت الله عليه من رَفْع أيدى قُضَاتهم ، ومَنْعهم من اتّباع خُطُوات الشيطان فى سبيل مَرْضَاتهم ؛ وحذّرهم مما لا يعود معه على أحد منهم ستر يُسْبل ، ولا يبقى معه لغير السّيف حُكْمٌ يقبل ؛ فمن خاض للسّلَف الصالح بذمّ أغرق فى تيّاره ، أو قدح فيهم زَنْدَ عناد أُحرق بناره ؛ وألزم أهلَ المدينة الشريفة النبويّة

(١) الزيادة من "التعريف" ، (ص ١٠٧) ومن التقليد الذى سبق ، انظر (ص ٢٤٢) .

بكلمة السُّنَّة فإنَّها أوّل ما رُفعتْ بتلك المَواطِنِ المعظمةِ أعْلامُها ، وسُمِعتْ فى تلك الحُجرة المكرَّمةِ أحكامُها ، مع تعْفِيَة [آثار] ما ينشأ علىٰ هذه البِدْعةِ من الفتَن حتّىٰ لاينْعقد لها نَقْعُ مُثار ، وتَوْطِئة أكْناف [ذلك] الحِمىٰ لئلّا يَعْلَق به لمُبْطل فى مدارج نُطْقِه عِثار ؛ والوَصيّةُ بسُكّان هذا الحَرَم الشريف علىٰ الحالِّ به أفضل الصلاة والسلام ومن يترل به من نَزيل ، ويجاوِرُ به مُسْتَقرًّا فى مِهادِ إقامة أو مُسْتَوْفِزًا علىٰ جَناحِ رَحيل ؛ ومن يَهْوِى إليهم من ركائب ، ويأوِى إليهم من رُفْقَة مالتْ من نَشَواتِ الكَرىٰ بهم رَاقصاتُ النَّجائب ؛ وَمن يَصِلُ من رُكْبان الآفاق ، وإخوانِ نَوًى يتَشاكَوْنَ إليهم مُرَّ الفِراق ؛ ومن يتلاقىٰ بها من طوائفَ كُلُّهم فى بُيوتِ هذا الحَىِّ عُشّاق ، وأُمَم شتَّىٰ جُموعُهم من مِصْرٍ وشام [ويَمَن][1] وعِراق ؛ وما يصل معهم فى مَسِيل وُفُودِنا ، وسَبيل جُودِنا ؛ ومَحامِلنا الشريفةِ التى يُنْصَبُ لنا بها فى كلِّ أرضٍ سَرير ، وأعْلامِنا التى ما سُمِّيتْ بالعِقْبان إلّا وهى إليها من الأشْواق تَطير .

فمتىٰ شَعَرْتَ بمَقْدَمِ رِكابِهم ، أو بَرَقتْ [لك][1] عوارِضُ الأقْمار من سَماءِ قِبابِهم ، فبادِرْ إلىٰ تَلَقّيهم ، وقبِّلْ لنا الأرضَ فى آثار مَواطِيهم ، وقُمْ بما يجبُ فى طاعة الله وطاعة رسوله صلّى الله عليه وسلم وطَاعَتِنا ، وأخْرِجْ عنهم كلَّ يَد ولا تُخْرِجْهم عن جماعَتِنا .

وأهْلُ البادية هم حِزْبُك الجيْشُ اللُّهام ، وحَرْبُك إذا كان وَقُودَها جُثَثٌ وهَام ؛ وهم قوم لم يؤدِّبْهم الحَضَر ، ولا يَبِيتُ أحدٌ منهم لأنفَتِه علىٰ حَذَر ؛ فاسْتجلِبْ بمداراتك قُلُوبَهم الأشْتات ، وبادِرْ حِبال إبِلهم النّافِرة قبل الأنْبِتات ، وترَقَّبْ مراسِمَنا المطاعةَ إذا ذَرَّتْ لك مَشارقُها ، وتأهَّبْ لجهادِ أعداء الله متىٰ لَمعتْ لك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٠٨) .

من الحُروب بوَارِقُها ؛ وأحْسِنْ كما أحْسن اللهُ إليك ، ولولا أنّ السَّيف لا يحتاج إلىٰ حِلْيَة لأطَلْنا حَمائِل ما نُمْلِيه عليك ؛ فما شَهِد للشَّريف بِصحَّة نَسَبِه ، أزكىٰ من عَمَله بحَسَبِه ؛ والله تعالىٰ يُقَوِّى أسْبابَك المتِينَه ، ويُمْتِعُ العيونَ بلَوامِعك المُبِينَه ، ويُمْسِك بك ماطال به إرْجاف أهلِ المَدِينَه .

الوظيفة الثانية

(القَضاء)

وكان فى الزَّمن القديم بها قَاض واحدٌ شافعىٌّ ، ثم آستقر بها قاضيان آخران : حَنَفىٌّ ومالِكىٌّ ، يُكتَبُ لكلٍّ منهم توْقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«ـالسامىّ» بالياء .

وهذه نسخةُ تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة النبوية :

الحمدُ لله الذى جعل الشرعَ الشريفَ دافِقَ السُّيول ، وفى طَيْبَةَ له الأُصول ؛ ومنها نَشأ وتفَرَّع فله فى البَسِيطة عُمومٌ وشُمُول ، وكلُّ قُطْر به مَشْمُول ، وكل رَبْع به مَأْهُول ، وتأكّد به المعلومُ وتبدّد به المَجْهول ، وزالَتِ الشرائعُ كلُّها وهو إلىٰ آخر الدُّهور لا يَزُول .

نحمدُه وحمدُه يَطول ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَمرتْ [بها] طُلُول ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ رَسول ، وأكرمُ مَأْمول ، وأفضلُ مَسْئول ، ومُهَنَّد من سيوف الله مَسْلُول ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الطيبى الفُروعِ والأُصول ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ الشرعَ الشريفَ مَعْدِنُه فى أرض ثوىٰ خيرُ الرُّسلِ فيها ، ومنْشأه فى بَلَدٍ ملائكةُ الله تَحْميها ؛ فلا يَلِى أقْضيةَ الناس إلّا مَن طالَتْ ذَوائِبُ عِلْمه ،

وأشرقتْ ثَواقِبُ فَهْمِه ؛ وبُنِيتْ على الأُصول قَواعِدُ حُكْمِه، وتحلَّىٰ بالورع فتجلَّىٰ في سماء النجاة كنَجْمِه .

ولما كان فلانٌ هو الذى جذَبَتْه السعادةُ إلىٰ مَقرِّها، وخَطبَتْه المغْفرَةُ إلىٰ مَوْطِنِ بِرِّها، وأهَّلتْه الأقْدار إلىٰ جوار نَبيٍّ هو خاتَم الأنبياء وفاتِحُ أمْرِها ؛ وأصْبح للحُكْم في المدينه ، مستحقًّا لما فيه من سَكِينَه ، وتَحْصيل للعِلْم ومَن حَصَّلَ العِلْمَ كان الله مُعينَه .

فلذلك رسم أنْ يستقرّ ... ...

فلْيباشِرْ مَنصِباً جَليلًا في مَحَلٍّ جَلِيل ، ولْيَعلَمْ أنَّ سائر الأمْصار تَغْبِطُه وتحْسُدُه وما لمَنصِبِه من مَثِيل ، أينَ يُوجد سواه في كلِّ سبيل ؟ من قاض هو بسيِّد المرسلين نَزِيل ، ومن يُصْبِحُ ويُمْسِى جارًا للمُستجِير في المَحْشَرِ الطَّويل .

فاحْكُمْ بين نَاسِ طَيْبَةَ بورَعٍ وتَأْصِيل ، وتَحْرِيرٍ في تَحْريم وتَحْلِيل ، وٱتَّقِ اللهَ في كلِّ فِعْل وقِيل ، وٱسْتَقِمْ على الحقِّ حِذارَ أن تَمِيل ، فصاحبُ الشَّرعِ أنت منه قريب والنبيُّ من الله قَرِيبٌ وحَبِيبٌ وخَلِيل ، وما ذا عسىٰ أن نُوصِيه وهو بحمد الله تعالىٰ كالنَّهار لا يحتاج إلىٰ دَلِيل .

وأما الخَطَابة : فارْقَ دَرَجَ مِنبَرِها، وشَنِّفِ الأسْماعَ من ألْفاظك بدُرِّها ؛ وحَرِّرْ ما تقوله من المواعظ فإنَّ صاحب العِظَات يسْمَعُك ، وتواضَعْ لله فإنَّ اللهَ يرفعك ؛ وهذا المرْقىٰ فقد قام فيه النبيُّ الأُمِّىُّ سيدُ الثَّقلين ، ومن بعده الخليفَتان قُرَّتا العَيْن، ومن بعدهما عُثْمان ذو النُّورين، وعليٌّ رضى الله عنه أبو الحَسَنَيْن ؛ فاخْشَعْ ، عند المَطْلَعْ ؛ وٱصْدَعْ ، بما يَنفَعْ ؛ وٱنظُرْ لما تقولُه فإنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم

هناك يسمع ، وقاضى المدينة وخطيبها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع ، والله تعالى يحوز له الخير ويجمع ، بمنه وكرمه ! .

الوظيفة الثالثة

(مشيخة الحرم الشريف)

وقد جرت العادة أن يكون له خادم من الخصيان المعبر عنهم بالطواشية ، يعين لذلك من الأبواب السلطانية ، ويكتب له توقيع فى قطع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء مفتتحا بـ«الحمد لله» .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك :

الحمد لله الذى شرف بخدمة سيد الرسل الأقدار ، وفضل بالتأهل للدخول فى عداد كرمه بخدمته من اختاره لذلك من المهاجرين والأنصار ، وجعل الاختصاص بمجاورة حرمه أفضل غاية تهجر لبلوغها الأوطان والأوطار ، وعجل لمن حل بمسجده الشريف تبوأ أشرف روضة تردها البصائر وترودها الأبصار .

نحمده على نعمه التى أكملها خدمة نبيه الكريم ، وأفضلها التوفر على مصالح مجاورى قبر رسوله الهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وأجملها الانتظام فى سلك خدمة حرمه [لأنها] بمنزلة واسطة العقد الكريم النظيم ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة مزلفة لديه ، مقربة إليه ، مدخرة ليوم العرض عليه ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أشرف نبى بعث إلى الأسود والأحمر ، وأكرم من أنار ليل الشرك بالشرع الأقمر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نخرت الحبشة بهجرتهم الأولى ، ونجا النجاشى بما اتخذ عندهم من السابقة الحسنة واليد الطولى ، وأولى

بِلَالْهُم من السَّبْق إلىٰ خِدْمة أشرَف الأنبياء عليه وعليهم أفْضَـلُ الصلاة والسلام أفضلَ مايُولىٰ، صـلاةً لا يزال شهابُها مُرْشِدا، وذِكْرها فى الآفاق مُغِيرا ومُنْجِدا، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعـد، فإنَّ أوْلىٰ ما آعتمد[1] عليه مَنْ أفاء اللهُ عليه من نِعَمِه، وأفاض عليـه من مَلابِس كَرَمِه، وشرَّف قَدْرَه بأن أهَّله لخِدْمةِ سيدِ الرُّسل بل لمَشْيَخة حَرَمِه، وخَصَّه برُتْبة هى أسْنى الرُّتَب الفاخرَه، وأجْمعُ الوَظائفِ لشَرف الدُّنيا والآخره ـ من رجَّحه لذٰلك دِينُه المَتِين، ووَرَعُه المَكِين، وزُهْدُه الذى بَلَغ به إلىٰ هذه الرتبة التى سيكونُ بها ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ وَجِيهاً فى الدُّنيا والآخرَة ومن المُقَرَّبين .

ولـمَّا كان فلانٌ هو الذى ادرك من خدْمة سيِّد الرسل غايةَ سُولِه، وزَكَتْ عند اللهِ هِجْرَتُه التى كانت على الحقيقة إلىٰ الله ورسوله؛ وسلك فى طريقِ خِدْمتِه الشَّريفة أحْسَنَ السُّـلوك، وآنْتهَتْ به[2] السَّعادةُ إلىٰ خِدْمةِ رسول الله صـلَّى الله عليه وسـلم ليُعْرِضَ بجَوْهَرِها الاعْلىٰ عن عَرَضِ خدْمَة الملوك؛ وفَازَ من مُجاوَرَة الحُجْرة الشريفةِ بمـا عَظُمَتْ عليه [به] المِنَّه، وحلَّ به ممـا بين القبْرِ والمنْبَر فى رَوْضَة من رياض الجَنَّه؛ وأقام فى مَقـام جبْرِيل، ومَهْبِطِ الوَحْىِ والتَّـنْزِيل؛ يَتَفَيَّأُ ظلالَ الرَّحمـة الوَارِفَه، ويَتَهَيَّأُ من تلك النِّعمة بالعَارِفَة بعـد العَارِفَه ـ تعـيَّن أن يكونَ هو المحلَّىٰ بعُقُود مَشْيَخةِ ذٰلك الحرَم، والمتولِّىَ لمصالح هـذه الطائفة التى له فى التَّقـدُّم عليهم أثبتُ قَـدَم .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أن تفوّض إليـه المَشْيَخة علىٰ خُدّام الحَرَم الشريف النَّبوى: للعِلْم بأنّه العامِلُ الوَرِع، والكافِلُ الذى يعْرِف أدبَ تلك

(١) لعله "من آعتمد عليه من" الخ .

(٢) فى الأصل "اليه" .

الوظيفة : من خدْمة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ علىٰ ما شُرِع ؛ والزّاهدُ الذى آثَر جَوارَ نَبِيِّه علىٰ ما سواه ، والخاشِعُ الذى نَوىٰ بخِدْمَتِـه الدُّخولَ فى زُمْرة من خدَمه فى حياته : « ولكُلِّ آمْرِئٍ مانَواه » .

فليستقرّ فى هذه الوظيفةِ الكَريمةِ قائمًـا بآدابها ، مشرِّفًا بها نفسَه التى تشبثت من خدمته الشريفة بأهدابها ؛ سالِكًا فى ذٰلك مايَجب ، مُحافِظًا علىٰ قواعد الوَرَع فى كلِّ ما يأْتى وما يَجْتَنِب ؛ قاصِدًا بذٰلك وجهَ الله الذى لايُخَيِّبُ لراجٍ أملا ، ولا يُضَيِّعُ أجْرَ مَنْ أحْسن عَمَلا ؛ مُلزِمًا كلًّا من طائفة الخُدَّام بما يُقَرِّبُه عند الله زُلْفىٰ ، ويُضاعِفُ الحسنةَ الواحدةَ سبعين ضِعْفا ؛ هادِيًا من ضَلَّ فى قوانين الخِدْمة إلىٰ سواء السبيل ، مُبْدِيًا لهم من آداب سُلُوكه ما يغدُو لهم منه أوْضحُ هاد وأنْورُ دَليل ؛ وفيه من آداب دِينِـه مايُغنِى عن تَكْرار الوصايا ، وتَجْـديدِ القَضايا ؛ واللهُ تعالىٰ يسـدِّده فى القَوْل والعَمل ، ويوَفِّقه لِخدْمةِ سيِّد المرسلين صلَّى الله عليه وسلم وقد فَعَل ؛ بمنّه وكرمه .

القاعدة الثالثـــة اليَنْبُع

(وبهـا وظيفـــةٌ واحدةٌ ، وهى النيابة)

وقد تقدّم أنَّ نيابتها فى بَنِى الحَسَن ، من بنى قتادةَ أيضا . وعدل بهـا عن لفظ الإمارة إلىٰ لفظ النيابة تصغيرا لشأْنها عن مكَّة والمدينة . ويُكتَبُ لنائبها مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثلث «بالمجلس السامى» بغير ياء .

وهذه نسخةُ مرسوم شريف بنيابة اليَنْبُع ، كُتب به «لمخذم بن عقيل» فى عاشر رجب الفرد سنة أرْبع وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء المقر الشِّهابىِّ بن فَضْل الله ، وهو :

الحمدُ لله الذى أتمَّ لدولتنا الشريفة أنْعُما، وأحْسن فى تقديم شريفِ كلِّ قوم تقدُّما، وأمْضىٰ فى كفِّ كفِّ الأعداء رُمْحًا سَمْهريًّا وسيفًا مِخْذَما .

نحمدُه حمدًا يكاثرُ عددَ القَطْر إذا هَمىٰ، ونشهدُ أن لاإله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادة تؤمِّن بالإدمان عليها مُنْجِدًا ومُتْهِما ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرُف من إليه ٱنْتمىٰ ، وعلىٰ نَسَبِه الشريفِ ٱرْتمىٰ ، وبجوارِه المَنيعِ ٱحْتمىٰ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين طَلَعوا فى صباح كلِّ نَهارٍ شُموسًا وفى عَشِيَّة كلِّ لَيل أنجما ، وسلَّم تسليمًا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ من أعدْنا له سعادة جَدِّه ، وعُدْنا إلىٰ عوائدِه الحُسنىٰ لأبيه وجَدِّه ، ورَعَتْ صدقاتُنا الشريفةُ له قَصْدَه الجَميل ، وشَرَفه الذى سما به من أصْلِه إلى النَّجْم فَرْع لايُنالُ طَويل ، وأُقِرَّت عينُه بسَكَنِه ، وٱستقرَّتْ به مراسمنا العالية فى مَسْكَنِه ، وأغنَتْه عِنايتُنا الشريفةُ عن ٱنتظار كلِّ نَجم سعادة يَطْلُع ، وبعثتْ إليه كلَّ خير إلىٰ وَطَنِه وهو «يَنْبُع» ، منزلةُ نسبه الصَّميم ، والحسَبِ الذى يتمسَّكُ به فى قومه كلُّ كَريم ، والشَّرف الذى أنارت كَواكبُه ، والوَصْف الذى ينظم الدُّرَّ ثاقبُه (١) .

ولمَّا كان المجلسُ السَّامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الشريفُ ، الحَسيبُ ، النَّسيبُ ، الأوحدُ ، العضُدُ ، النصيرُ ، الأصيلُ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، زين الأنام ، شرفُ الأُمراء الأشْراف ، فَخْرُ العِتْرة الطَّاهره ، جمالُ الأُسرة الزاهره ، نَسِيبُ الخلافة ، عَضُدُ الملوك والسلاطين «مِخْذَم بن عقيل» أيده الله تعالى ـ هو الذى تقدّمت إليه كلُّ إشاره ، وحَسُنَتْ به كلُّ شارَه ، وتعجَّلَتْ له بمراضينا الشريفة من مُخَلَّق الشَّفَق كلُّ بِشارَه ، وحصل فى اليَنْبُع ما حصل من الاعتداء ، وٱمتدَّتِ الأيْدى به إلىٰ ما كان لحُجَّاج بيْتِ الله من وَديعَه ، وظنَّ أنَّه لا يشيع خبره

(١) لم يذكر خبرا لإن وهو معلوم من نظائره وكثيرا ماورد كذلك ونبهنا عليه .

فى البَيْداءِ ، نخالف الوَاجِبَ وتعدَّى الشَّرِيعَــه ؛ فاقتضت آراؤنا الشريفة تَفْوِيضَها إلى العارف منها بمـا يجب ، العَالِمِ من طريق سَلَفِه الصَّالح بمـا يأْتى فيها ويجْتَنِب ؛ العاملِ فى طاعتنا الشريفةِ بمـا هو به و بمِثْلِه من أهلِ الشَّرف يَلِيق ، المَـاشِى فى خِدْمتنا الشريفة وفى خِدْمَةِ الوُفود إلىٰ بَيْت الله الحرام على الطَّرِيق .

فرُسِم بالأمرِ الشريف ــ أعلاه الله تعالى وشَرَّفه ، وأنفــذه وصَرَّفه ــ أن تُفوَّضَ إليه النيابة باليَنْبُع على عادة من تقــدّمه وقاعدَتِه إلىٰ آخر وَقْت :

فليُقَدِّمْ تقوى اللهِ فى كلِّ ماتقدَّم ، ويَقِفْ مع حُكْمِ الشرعِ الشريفِ فإنَّه المُهِمُّ المقدم ؛ وَلَيسْتَوْصِ بالحُجَّاج خيْرًا فإنَّهم وَفْدُاللهِ وهوعليه سَيَقْدَم ، وليُؤَمِّنِ الطَّريق فإنَّه بين حَرَمين : بَيْتِ اللهِ ومَسْجدِ رسوله صلَّى الله عليه وسـلم ؛ وليحفَظْ أمانةَ اللهِ فيما يَخَلَّى ويُخلف عنده الحجاجُ كتب الله سلامتهم من وِدَاعه(١) ، وليأْخُذْ بقلوب الجَلَّابَةِ فإنَّهم فى تَوسيعهم علىٰ أهْلِ الحرمين كالمُتَصدِّقين و إن كانوا تُجَّارًا بِبِضَاعَه ؛ وليُوصِّلْ من تأخَّر من أبْناء السبيل إلىٰ مأْمَنِهم ، وليخُصَّ بالعَدْل أهْلَ بلَدِه ليستقرُّوا آمنين فى مَوْطِنهم ، والرِّفْق فهو الذى بحُلَله يُزيَّن ، وبحَلْيِه يُسْتحسن ، والتَّأنِّى فى معرفة الحقِّ من الباطل فإنَّ به الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسْودِ من الباطل يُبيَّن ؛ ولزُوم الطاعة ، التى أوْجبها اللهُ لنا علىٰ عباده وندَب إليها ، ومُلازَمة الجماعةِ ، التى يكفيه من بركاتها أنَّ يَدَ اللهِ عليها ؛ و إقامة الخِدْمة فيما قِبَلَه من البــلاد ، وكلِّ حاضر وباد ، وكلِّ من كادَ أو كَاد ، أو تعرَّض لعنادِ العبــاد ؛ فمن أقدم علىٰ محْــذُور ، أو تقدّم إلىٰ محظُور ، أو آرْتكب فى الخــلاف أمْرًا من الأمور ، بجُرِّه بالبَغْيِ إلىٰ مَصْرَعِه ، وحَرِّك السيفَ لمضْجعِه ، ودَعِ الرُّمْحَ الذى آعتقــله للشِّقاق يبكى للإشــفاق عليه بأدْمُعِه ؛ وقد رأيتَ كيف

---

(١) مراده «وديعة» ولكن اضطره السجع الى موافقة اللغة العامية . فتنبه .

طَرِيقَتُنا المُثْلَىٰ، وسِيرتُنا التى لا تجد لها مِثْلا ، فاسْلُكْ هذه المحجَّه ، وحَسْبُكَ أن تَتَّخِذَ بينك وبين الله حُجَّه ؛ وفى هـذا عن بقية الوصايا غِنَى ، والله يُزِيل عنك الخَوْفَ فى الخَيْف ويُبَلِّغك المُنَىٰ فى مِنىً ؛ والاعتماد ... .

القســـم الرابع (١)

(مما يُكْتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ـ مايقَعُ علىٰ سبيل النُّدور ، وهو الذى يقع فى حين من الأحيان من غير أن يسبق له نظير)

قال الشَّيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحَلَبِىُّ فى "حُسْن التوسل" : ويحتاج الكاتبُ فيه إلىٰ حُسْن التَّصرُّف على ما يقتضيه الحال .

[فمن ذلك] ما يُكْتَبُ به للنيابة الخارجة عن المملكة إذا رغب فيها مُتَوَلِّيها .

وهذه نسخةُ تَقْلِيد شريف من ذلك ، كَتَب به المولىَ الفاضلُ شِهابُ الدين محمود الحلبي لمتملِّك سِيسَ ، بإقراره على ما هو قاطع النَّهر من بلاده ، وهى :

الحمـدُ لله الذى خصَّ أيَّامنا الزاهرة ، باصْطناع مُلوك المِلَل ، وفضَّلَ دولتَنا القاهرة ، بإجابة من سألَ بعضَ ماأحْرَزَتْه لها البِيضُ والأَسَل ، وجعل من خصائص مُلْكنا إطْلاقَ الممـالك و إعْطاءَ الدُّوَل ، والمَنَّ بالنُّفوس التى جعلها النَّصرلنا من جُملة الخَوَل ، وأغْرىٰ عَواطِفَنا بتحقيق رَجاءِ مَن مَدَّ إلىٰ عَوارِفنا كَفَّ الأمَل ، وأفاض بمواهِبِ نَعْمائنا ، علىٰ من أناب إلى الطاعة حُلَل الأمْنِ بعد الوَجَل ؛ وانتزع بآلائنا ،

(١) تقدم له تقسيمه الى ثلاثة أقسام فقط كما ورد فى الصفحة ١٣٤ من ج ١١ من هذه الطبعة فيكون هذا زائدا على الأقسام .

لمن تمسَّك بولائنا ، أرْواحَ رعاياه من قَبْضـةِ الأجَل ، وجعل بَرْدَ العَفْوِ عنه وعنهم بالطاعة نَتِيجَةَ ما أذاقَهم العِصْيانُ من حَرارَةِ الغَضَب : إذ « رُبَّمـا صَحَّتِ الأجْسامُ بالعِلَـلِ » .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت عَفْوَنا ممَّن رَجَاه قَرِيبـا ، وكَرَمنا لمن دعاه بإخْلاص الطاعة مُجِيبا ، وبِرَّنا لمن أقبـل إليه مثيبًا بوجه الأمَلِ مُنِيبا ، وبَأْسَـنا مصيبا لمنْ لم يجعَل اللهُ له فى التَّمسك براحمنا نَصِيبا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَعْصِم دَمَ من تمسَّك بذمامِها ، وتَحْسِمُ موادَّ مَن عانَدها بانتقام حُسَامِها ، وتَفْصِم عُرَا الأعْناق ممَّن أطْمعه الغُرور فى انْفصال أحْكامِها وانْفصامِها ، وتَقْصِمُ مَن قَصد إطْفاءَ ما أظْهره اللهُ من نُورِها واقْتِطاعَ ما قضاه من دَوامِها ، وتجعلُ كلمَةَ حَمَلتِها هى العُليا ولا تزالُ أعناقُ جاحدِيها فى قَبْضة أوْليائها وتحت أقْدمِها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه و رسولُه المبعوثُ بالهُدىٰ ودِينِ الحَقِّ إلىٰ كلِّ أُمَّه ، المنْعوتُ فى الكُتُب المنَزَّلة بالرأْفَة والرَّحْمه ، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخَمْس : منها الرُّعْبُ الذى كان يتقدّمه إلىٰ من قَصَـده ويَسْبِقُه مَسِـيرَةَ شَهْرٍ إلىٰ من أمَّه ، المنصوصُ فى الكُتُب المحكَمَة علىٰ جِهادِ أُمَّته الذين لا حَياةَ لمن لم يتمسَّكْ من طاعتهم بذِمَّه ؛ صلَّى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فَتَحُوا بدَعْوتِه المـمالك ، وأوضَحُوا بشِرْعَتِه إلى الله المَسالكَ ، وجلَوْا بنُور سنَّتِه عن وَجْه الزَمن كلَّ حالٍ حَالِك ، وأوْرَدُوا من كَفَر بِرَبِّه ورُسُلِه مَوارِدَ المَهالِك ، ووَثِقُوا بمـا وعد اللهُ نَبِيَّه حين زَوَىٰ له ذلك ؛ صلاةً لا تزال الأرْض لهـا مَسْجِدا ، ولا يَبْرحُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجِدا ، ما اسْتَفْتَحتْ ألْسنَة الأسِـنَّة النَّصْرَ بإقامتها ، وأبادتْ أعداءَها باستِدامَتِها ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّه لمـا آتانا اللهُ مُلْكَ البَسِيطَه ، وجعل دَعْوتَنا بأعِنَّة مَمـالك الأقْطار مُحِيطَه ، ومكَّن لنا فى الأرْض ، وأنْهضَـنا من الجِهاد فى سبيله بالسُّـنَّة والفَرْض ،

وجعل كلَّ يوم تُعرَض فيه جيوشُنا من أمثلة يومِ العَرْض، وأظلّتنا بوادرُ الفتوح، وأطلّتْ على الأعداءِ سيوفُنا التى هى على من كفر بالله وكفر النّعمة دعوةُ نوح؛ وأيّدنا بالملائكة والرُّوح، على من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً: فانتصر بالأب والابن والرُّوح؛ وألقتْ إلينا ملوكُ الأقطار السَّلام، وبذلتْ كرائمَ بلادها وتلادها رغبةً فى الالتجاء إلى ظلٍّ أعلى من الأعلام؛ وتوسّل من كان منهم يُظهِر الغِلْظة بالذِّلّة والخُضوع، وتوصّل من كان منهم يُبْدى القُوّة بالإخلاص الذى رأوه لهم أقوى الجُنَن وأوقى الدُّروع — عاهدْنا الله تعالى أن لا نَرُدَّ منهم آملا، ولا نَصُدَّ عن مَشارِع كَرمنا ناهِلا، ولا نُخيِّبَ من إحساننا راجيا، ولا نُحلِّئَ عن ظلّ برّنا لاجيا؛ عِلْمًا أنّ ذلك شكرٌ للقُدْرة التى جعلها الله لنا على ذلك الآمل، ووُثوقًا بأنه حيثُ كان فى قبضتنا متى نشاءُ نجمع عليه الأنامل؛ اللّهمَّ إلّا أن يكونَ ذلك اللّاجئُ للغلّ مُسِرًّا، وعلى عَداوةِ الإسلام مُصِرًّا؛ فيكونُ هو الجانىَ على نَفْسه، والحانىَ على مَوْضع رَمْسه، والمُفْرِطَ فى مَصْلحة يومِه وغده بتذكير عَداوةِ أمْسه.

ولمّا كان من تقدّم بالمملكة الفلانيـة قد زَيّن له الشيطانُ أعمالَه، وعقَد بحِبال الغُرورِ آمالَه؛ وحسَّن له التّمسّـكُ بالتّتار الذين هم بمهابتنا محصورون فى ديارهم، مأسُورُون فى حبائل إدْبارِهم؛ عاجِزُون عن حِفْظ ما لَدَيْهم، قاصِرُون عن ضَبْط ما استلَبَتْه السَّرايا المنصورةُ من يَدَيْهم؛ ليس منهم إلّا مَن له عند سُيوفنا ثار، ولها فى عُنُقه آثار، ومن يعلَمُ أنّه لابدَّ له عندنا من خُطّتَىْ خَسْف: إمّا القتلُ أو الإسار.

وحينَ تمادَى المذكورُ فى غيّه، وحمله الغُرورُ على ركوب جَوادِ بَغْيه، أمرْنا جُيوشَنا المنصورةَ فجاسَتْ خِلالَ تلك الممالك، وداسَتْ حوافرُ خيلها ما هُنالك، وساوتْ فى عُموم القتل والأسْرِ بين العَبْد والحُرّ والمملوك والمالك، وألحقتْ رواسى

جبالهم بالصعيد ، وجعلت حماتهم كزروع فلاتهم منها قائم وحصيد ، فأسلمهم الشيطان ومر ، وتركهم وفر ، وما كرهم وما كر ، وأعلمهم أن موعدهم الساعة والساعة أدهى وامر ، وأخلفهم ما ضمن لهم من العون ، وقال لهم : ﴿إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون﴾ .

وكان الملك فلان ممن تدبر طرق النجاة فلم ير إليها سوى الطاعة سبيلا ، وتأمل أسباب النجاح فلم يجد عليها غير صدق الانتماء دليلا ، فأبصر بالخدمة موضع رشده ، وأدرك بسعيه نافر سعده ، وأراه الإقبال كيف ثبتت قدمه فى الملك الذى زلت عنه قدم من سلف ، وأظهر له الإشفاق على رعاياه مصارع من أورده سوء تدبير أخيه موارد التلف ، وعرفه التمسك بإحساننا كيف احتوت يده على مالم يبق غضبنا فى يد أخيه منه إلا الأسى والأسف ، وحسنت له الثقة بكرمنا كيف يجمل الطلب ، وعلمته الطاعة كيف يستنزل عوارفنا عن بعض ماغلبت عليه سيوفنا : وإنما الدنيا لمن غلب ، وانتمى إلينا فصار من خدم أيامنا ، وصنائع إنعامنا ، وقطع علائقه من غيرنا ، فلجا منا إلى ركن شديد ، وظل مديد ، ونصر عتيد ، وحرم تأوى الملة إليه ، وكرم تقر نضارته ناظريه ، وإحسان يمتعه بما أقره عطاؤنا فى يديه ، وامتنان يضع عنه إصره والأغلال التى كانت عليه ـ اقتضى إحساننا أن نغضى له عن بعض ما حلت جيوشنا ذراه ، وحلت سطوات عساكرنا عراه ، وأضعفت عزمات سرايانا قواه ، ونشرت طلائع جنودنا ما كان ستره صفحنا عنهم من عورات بلادهم وطواه ، وأن نخوله بعض ما وردت خيولنا مناهله ، ووطئت جيادنا غاربه وكاهله ، وسلكت كماتنا فملكت دارسه وآهله ، وأن يبقى ملك هذا البيت الذى مضى سلفه فى الطاعة عليه ، ويستمر ملك الأرمن الذى أجمل السعى فى مصالحه

بيديه ؛ لِتَتَيَمَّن رعاياه به ، ويعلموا أنهم أمِنُوا على أرواحهم وأولادهم بسَبَبِه ، عن طوية مخلصة ونفس مطيعة ، ولا تخشى عليه يدٌ جائرة ، ولا سريّةٌ فى طلَب الغِرَّة سائرة ، ولا تَطْرُق كِنَاسه أُسْدُ جيوش مفترِسه ، ولا سِباعُ نِهاب مُخْتَلِسه ؛ بل تستمرُّ بِلادُه المذكورةُ فى ذِمام رعايتنا ، وحَضانَة عنايتنا ، وكَنَف إحْساننا ، ووَديعَة بِرِّنا وآمْتناننا ؛ لا تَطمَحُ إليها عينُ مُعاند ، ولا يمتدُّ إليها إلَّا ساعدُ مُساعِد وعَضُد مُعاضد .

فليُقابِلْ هذه النِّعمة بشُكْرِ الله الذى هداه إلى الطاعه ، وصانَ بإخلاص وَلائه نَفْسَه ونَفائِسَ بلاده من الإضَاعه ؛ وليَقْرُنْ ذلك بإصْفاء مَوارد المَوَدَّه ، وإضْفاء ملابس الطاعة التى لا تَزدادُ بحسْنِ الوفاء إلا جِدَّه ؛ وآستمرارِ المُناصَحة فى السِّرِّ والعَلَن ، وآجتنابِ المُخادَعة ما ظَهر منها وما بَطَن ؛ وأداءِ الأمانَة فيما آستقرَّ معه الحَلف عليه ، ومُبايَنَة ما يُخْشىٰ أن يَتوجَّه بسببه وجْهُ عَتْب إليه ؛ وآستدامَة هذه النِّعمة بحِفْظ أسْبابها ، وآسْتِمامَة أحْوالِ هذه المِنَّة برَفْضِ مُوجِبات الكَدَرِ وآجْتنابها ، وإخْلاص النِّيَّة التى لا تُعتبر ظواهرُ الأحْوالِ الصالحة إلَّا بها .

✣

ومن ذلك ما يكتب به لحكم رُماة البُنْدق

قد جَرت العادةُ أنه إذا كان للسلطان عنايةٌ برَمْيِ البُنْدق ، أقام لرُماته حاكماً من الأمراء الذين لهم عنايةٌ برَمْيِ البُندق .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من ذلك :

الحمدُ لله الذى خصَّ أيَّامنا الزاهرةَ ، باستكمالِ المحاسنِ فى كلِّ مَرام ، وجعل [من] أوْلياءِ دَوْلتنا القاهرةِ ، من أصاب من كلِّ مَرْمًى بعيد شاكلَةَ الصَّوابِ حتَّىٰ أصبح

حاكمًا فيه بين كلّ رام ، وجمع لخواصّنا من أشتات المفاخر ما إذا برزوا فيه للرياضة ليلًا [أغنت] قسيّهم عن الأهلّة ورجومها عن رجوم الظّلام ، وسدّد مقاصد أصفيائنا فى كلّ أمر فما شغلوا بمسرّة سرّ إلا وكانت من أقوى أسباب التمرّن على خوض الغمرات العظام ، واقتحام الحرب اللّهام ، واشتمال جلابيب الدّجى فى مصالح الإسلام .

نحمده على نعمه الوسام ، وأياديه الجسام ، وآلائه التى ما برحت بها ثغور المسارّ دائمة الابتسام ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً تعصم من الزّلل ، وتؤمّن من الزّيغ والخلل ، وتلبس المتمسّك بها من أنوار الجلالة أبهى الحلل ، ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله المنزّه عن الهوى ، المخصوص بالوحى الذى علّمه شديد القوى ، الدّالّ على اعتبار الأعمال بصحّة القصد بقوله صلّى الله عليه وسلم : «إنّما الأعمال بالنّيّات وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى» . صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وفّق الإخلاص مساعيهم ، ووفّر الإيمان دواعيهم ، صلاةً دائمة الاتّصال ، مستمرّة الإقامة بالغدوّ والآصال ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فإنّه لمّا كان رمى البندق من أحسن ما لهت به الكماة ، فى حال سلمها ، ومن أبهج ما جفظت به الرّماة ، حياة نفوسها وعزّة عزمها ، على ما فيه من اطّراح الراحة واجتنابها ، واستدعاء الرّياضة واجتنائها ، وخوض الظّلمات فى الظّلام ، وتوخّى الإصابة فى غمرات الدّجى التى تخفى فيها المقاتل على حدق السّهام ، وارتقاب ظفر ، يسفر عنه وجه سفر ، ومهاجمة خطر ، تفضى إلى بلوغ وطر — وله شرائط تقتضى التقدّم بين أربابه ، وقواعد لا يخالفها[1] من كان مبرّزًا فى أصحابه ، وأدوات

(١) فى الأصل «فى مخالفها» ولا معنى له . تأمل .

كمال، لابُدّ للتحلّي بهذه الرُّتبة منها، وحُسْن خِلال، تُهدَرُ أعمالُ من بَعُد عليه مَرامُها وقَصُرتْ مَساعِيه عَنْها، وعوائدُ معلومةٌ، بين أرْباب هذا الشّأْن وكبرائِه، ومقاصِدُ مَفْهومةٌ، فيما يتميز به المُصيبُ الحاذقُ علىٰ نُظَرائه .

ولمّا كان الجنابُ العالى الفلانىُّ ممّن يشارُ إليه فى هذه الرتبة بِبَنان التَّرجيح، ويُرجَع إلىٰ أقواله فيما اقتضَى التَّعديلَ فيما بين أرْبابها والتَّجْريح ، ويُعملُ فيها بإشارَته الخالصةِ من الهوىٰ والأغْراض ، ويُعوّلُ فيها علىٰ قدَم مَعْرفَتِه المميزة بين أقْدار الرُّماة مع تَساوِى إصابة الأغْراض، لاحْتِوائِه علىٰ غايات الكمال فيها، وسَبْقه منها إلىٰ مقاماتٍ حِسان لايُعْطِيها حَقَّها[الا]مِثْلُه ولا يُوفّيها ـ اقتضىٰ رأْيُنا الشريفُ أن نَعدِق به أحكامَها، ونَرُدَّ إلىٰ أمْرِه ونَهْيِه كُبراءَها وحُكّامَها .

فرُسم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُنْدق لما يتعين من اختِصاصِها بجَنابِه، ويتبين من أولَويَّته بالحُكْم فى هذا الفنّ علىٰ سائر أرْبابِه .

فَلْيَلِ ذلك حاكمًا بشروطه اللّازمة بين أهْلِه ، المعتبَرة بها خِلالُ الكمال فى قَوْل كلِّ أحد منهم وفعْلِه ، المُميِّزة بين تَفاوُتِ الرُّماة بحسب كيفيةِ الرَّمْيِ وإتْقانه، المرجِّحة فى كَثْرة الطَّير بإمكانه له فى وَقْتِ البروز ومكانه ، المُهْدِرَة مايجب بين أهْلِ هذا الفَنِّ إهْدارُه، المُثْبِتة مايتعيّن فى كمال الأدوات إثْباتُه فى قِدَم الكُبراء وإقْرارُه، ولْيَعْمَلْ فى ذلك جميعه بما تقتضيه مَعْرفَتُه المجمَعُ فى فَنّه عليها ، ويتقدّم فيه بما تدله عليه خبْرتُه التى مابَرِح وجْهُ الاختيار مصروفًا إليها، والله تعالىٰ يسدِّده فى القوْل والعمَل، ويبلِّغه مراتبَ الرِّفعة فى خلاله الجميلة وقد فعل، والخيرُ يكون، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : ورُبّما كان المرسومُ المكْتَتَب لمن هو دُون من تقدّم من أمير عشرة أو مَنْ فى معناه، فيفتتح بـ«أما بعد» ويكمل علىٰ نحو ماتقدّم .

وهذه نسخةٌ ثانيةٌ لحاكم البُنْدق، مفتتحةٌ بـ«أما بعدُ» وهى :

أمَّا بعدَ حَمْدِ اللهِ الذى لا مُعَقِّب لحُكْمِه، ولا يَعْزُب شَىْءٌ عن عِلْمِه، ولا قُنُوطَ من رَحْمته وَسَعةِ حِلْمِه، مُلْهِم أهل محاربة أعداء دِينه بالرِّياضة لها فى أيَّام سِلْمِه، ومُنْجِز وُعُود السُّعود لمن كان النَّجم مَبْدأ هِمَّتِـه، والصِّدْقُ حُلَّةَ سَجِيَّته، والعزُّ حلْيَةَ ٱسْمِه ؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى هدَى اللهُ بنُورِ مِلَّتِه العادلة من تَردَّىٰ فى ظُلُمات ظُلْمِـه، ورَفَعَ منارَ النُّبُوَّة بمـا خصه به من ٱفتتاح التقدم فى رتبتها وخَتْمِه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سَرىٰ كلٌّ منهم إلىٰ غاية الكمال علىٰ نَجائِبِ هِمَّتِـه وجِيادِ عَزْمِه ـ فإنَّ أوْلىٰ من رُعِيَتْ له أسْباب قِدَمِه وتَقَدُّمه، وفُتِحتْ له أبْواب حُكْمِه فى رُتْبته وتَحَكُّمه، وأُعِيدَ إلىٰ مكانته التى رَقَاها باسْتِحقاقِه قَدِيما، ورُفِعَ إلىٰ منزلته التى لم يَزَلْ بقواعدها خَبيرًا وبأوْضاعها عَلِيما ـ مَن ارتقىٰ فى رتبته إلىٰ نَجْم أُفُقِها، وٱقتدىٰ فى مَناهِجِه بدَليـل مسالكها وطُرُقها ؛ فأتَىٰ فى مصالحها بيوتَ الإصابَةِ من أبوابها، ونقَل فيهـا أوْضاعَ الإجادة عمَّن كان أدْرىٰ بها ؛ وتقـدَّم فيها تقدُّمَ هِجْرته وسَبْق قِدَمِه، وبلَغ فى مقاماتها الغايةَ بين وَثَبات سَاعِده وثَبـاتِ قَدَمِه ؛ وجمع من أشـتات الطَّير ما ٱفترق فى غيره، وحَوىٰ من السَّبْق إلىٰ أنْواعها ما حكم بسَعْد نَجْمِـه ويُمْن طَيْره ؛ فكَمْ ليلةٍ أسْفر فيها أبْرزُوه عن صباح نَجاحِه، وكَمْ طائِرٍ زاحم النَّسْرينِ بقوادمه أصْبح لدَيْه محمولًا بجَناحِه ؛ وكَمْ أنزلت أهِلَّةُ قِسِـيِّه الطَّيْرَ علىٰ حُكْمِها، وكم حكَتْ بَنادقُه فى رُجوم الطَّيْرِ المُحلِّقَـةِ إلى السماء ٱنقضاضَ نَجْمِها ؛ وكَمْ أبصَرَ مقاتِلَ الطَّيْر وهى من اللَّيل فى ظُلُماتٍ بعْضُها فوقَ بَعْض، وكَمْ ٱشتغل من الطير الواجب بنَدْب رَمْيٍ لم يشْغَلْه من إعداد الأُهبـة للجِهاد عن الفَرْض ؛ حتَّىٰ كاد النَّسْر الطائر إذا تَوهَّم أنَّ الهِلالَ قَوْسُه يَغدو كأخِيه واقعا، والمِرْزَم المحلِّقُ فى الأُفُقِ يُمْسِى لإشارة

بنادقه الصُّمّ متتبعا ، حتى أصبح وهو الكبير فى فنّه بآداب التعريف ، وأضحى وهو الخبيرُ بنَوْعِه بطريق النَّقل والتَّوْقيف .

ولمَّا كان فلانٌ هو كبيرَ هـذا الفنّ وخبيرَه ، ومُقَـدَّمَ هذا النَّوع الذى لم يزل بَجَلائه عَظِيمَ كلِّ عَصر وأميره ، وقديمَ هذا المَرْمَى الذى جُلُّ المراد به الجِدُّ لا اللَّعب ، وأليفَ هذا المَرامِ الذى يَنْشَطُ إليـه اللاَّعِبُ ويستَرْوِحُ إليه التَّعب ـ اقتضى الرأىُ الشريف أن نجعلَه حاكماً فى هـذه الرتبة الجليـلة بمـا علم أو عُلِّم منها ، فَاصِلاً بين أهْلِها بمعرفتـه التى ما برِحَتْ يُؤْخذ بهـا فى قواعدها وينقَلُ عنهـا ـ فرُسِم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكماً فى البُندق .

فليَسْتقرَّ فى هذه الرتبة التى تلقَّاها ، بيمين كِفَايَتِه ويُمْنِه ، وآرتقاها ، بتَفَرُّده فى نَوْعه وتَقَـدُّمه فى فنّه ؛ وليَعتَمِدِ الإنصافَ فى أحكام قَواعِدِها ، و إجْراءِ أمْر أربابها على أحوالهـا المعروفة وعَوائِدِها . ويُنافِس المعْروفين بها على التَّحلّى بآدابها ، والتَّمسُّـك من المُروءَة والأُخُوَّة بأفضـل أهْدابِها ؛ ويُنْصِف بينهم فيما يُعْتَـدُّ به من وَاجبِها ، ويُلْزِم الداخلَ فيها بالمَشْى على المألُوف من طُرُقها والمعروفِ من مَراتِبِها ؛ ولا يَحكُمْ فى التقديم والتأخير بهوَى نَفْسه ، ولا يَقْبَلْ من لم يَتَحَرَّ الصِّدْقَ فى يومه أنّه قُبِل منه فى أمْسِه ؛ فإنَّ آسْتِدامةَ شروطها أمانٌ من السُّـقوط عن دَرَجِها ، و إذا حَكَّمتْ نفوسُ أهْلِها الصِّدْقَ فى أقوالها وأفعالها فقد خَرَجَتْ من خطِّ حَرَجِها ؛ وليَرْعَ لذَوِى التقدُّم فيها قِدَم هِجْرَتِهم ، وآشْتِهارَ سيرتِهم الحسنة بين أُسْرتِهم ؛ وقد خُبِرَ من أوْصافه الحَسَنه ، وسَابِقِ رُتْبته التى لم تكن عَيْنُ العِناية عنها وَسِنَه ؛ ما آقتضى آستقرارَ رُتْبته على مكانتها ومكانهـا ، وآكتُفِى له من مَبْسوط الوصايا بعُنْوانها ؛ فلْيَتَّقِ الله فى قوله وعمله ، ويجعلِ الاعتماد على تَوْفيقه غايةَ أمَلِه ؛ والخيرُ يكون : إن شاء الله تعالى .

✢

ومن ذلك ما يُكْتَبُ به فى إلْبَاس الفُتُوَّة .

اِعلم أنّ طائفةً كبيرةً من الناس يذهبون إلىٰ إلباس لِباس الفُتُوَّة، ويقيمون لذلك شروطًا وآدابًا جاريةً بينهم . ينْسُبون ذلك فى الأصل إلىٰ أنه مأخوذٌ عن الإمام علىّ كَرَّم اللهُ وجهَه .

والطريقُ الجارى عليه أمْرُهم الآنَ أنّه إذا أراد أحدُهم أخْذَ الطَّريق عن كَبيرٍ من كبراء هذه الطائفة، اجتمع من أهْلها من تَيَسَّر جَمْعُه، وتقدم ذلك الكبيرُ فيُلْبِسُ ذلك (١) ثيابًا، ثم يجعلُ فى كُوز أو نحوه ماءً ويخلِطُ به بعْضَ ملح، ويقومُ كلٌّ منهم فيشربُ من ذلك الماء وينْسُبه إلىٰ كبيره . وربّما اعتنىٰ بذلك بعضُ الملوك . وقد جَرتِ العادةُ فى ذلك أنه إذا ألْبس السلطانُ واحدًا من الأُمَراء أن يكتبَ له بذلك تَوْقيعًا .

وهذه نسخةُ توقيع بفتوَة، من إنشاء القاضى مُحيِي الدِّين بن عبدالظاهر، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل أنسابَ الفُتُوَّه، متصلةً بأشْرف أسْبابِ النُّبوّه، وأفْضلِ من أمدّه منه بكلّ حَيْل وقُوَّه، وأسْعد من سَما فكان عليًّا علىٰ كلّ من سام عُلُوَّه .

نحمدُه حمدًا تغْدُو الأفواه به مَمْلُوَّه، ونشكُره علىٰ مواهبه بآيات الشُّكْر المَتْلُوَّه؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ من جعل إلىٰ مَنْهَج التوحيد رَوَاحه وغُدُوَّه، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شدَّ اللهُ أزْرَه بخير من أفْتَىٰ وفتًىٰ فنال كلُّ فَتوىٍّ من الفِتْيانِ به شَرفَ الأُبُوَّة والبُنُوَّه، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين نصروا وَلِيَّه وخذَلُوا عَدُوَّه، صلاةً موصِّلةً إلىٰ نَيْل الأمانىِّ المَرْجُوَّه .

---

(١) بياض بالأصول، ولعله : المريد أو نحوه .

وبعدُ، فإنَّ خيرَ من ٱتَّصل به رجاءُ الرجال الأجْواد، وطَوَى البعيدُ إلىٰ تحْصيل مَرامه كلَّ طَوْد من الأطْواد، وأماط به عن مكارم الأخلاق لِثَامَ كلِّ جُود وٱمْتطىٰ ظهرَ خيرِ جَوَاد، وٱسْتمسكَ من ملابس الشَّرف بما يؤمِّن ويؤمِّل وما يشدّ به من كلِّ خيرٍ لباسَ التَّقْوىٰ، وما تُؤَيَّد به عزيمته فتقوىٰ، وما يتقيد به علىٰ رءوس الأحزاب، وما يتنزل به عليه أحْسنُ آيةٍ من هذا الكتاب - من ٱشْتهر بالشَّجاعة التى تَقَدَّم بها علىٰ قوْمه، وحَمِدَ أمْسَها فى يَوْمه، وبالشَّهامة التى لها ماللسِّهام من تَفْويق، ولِزُرْق الأسِنَّة من تَحْذيق، ولِبيض الصِّفاح من حِدَّة مُتُون، وللسَّمْهَرِيَّة من ٱزْدحامٍ إذا ٱزْدَحَمتِ المَنُون، ومن صِدْق العَزِيمَه، مايشهد به كَرمُ الشِّيمَه، ومن شِدَّة الباس، مايجتمع [به] علىٰ طاعته كثيرٌ من الناس، ومن صِدْق اللَّهْجَة واللِّسان، ما ٱتَّصف عَفافُه منهما بأشْرف مايتَّصِفُ به الإنسان، ومن طَهارَةِ النَّفْس مايتنافَسُ علىٰ مِثْله المُتَنافِسُون، ويَسْتضىءُ بأنوارِه القابِسُون، ويَرْفُلُ فى حُلَلِ نَعْمائه اللَّابِسُون، و[كان] من الذين أبانُوا عن حُسْن الطاعة وأنابُوا، وإذا دُعُوا إلىٰ ٱسْتِنفارِ جهادٍ وٱجتهادٍ لَبَّوْا وأجابُوا، والذين لايَلْوُون أَلْسِنَتَهم عن الصِّدْق، ولا يُوَلُّون وُجُوهَهُم عن الحَقّ، والذين لايُقْعِدهُم عن بلوغ الأوطار مع إيمانهم حُبُّ الأوْطان، وإذا نَفَذُوا فى حَرْبِ حِزْبِ الأعْداء لا يَنْفُذُون إلا بسُلْطان .

ولما كان فلانٌ ذُو المَفاخِر، والمآثِر، أميرُ الفِتْيانِ، مُمَيَّزُ الإخْوان والأعْيان، هو صاحِبَ هذا المَحْفِلِ المَعْقود، والممدُوحَ بهذا المَقالِ المحمُود، والممنوحَ بهذا المقام المَشْهُود، والثَّناءِ الذى سَرَّ بالَهُ بما سَرْبَلَه أثوابَ العِزَّة والفَخار، والٱعتناءِ الذى ٱستخير اللهُ فى ٱصْطفائه وٱخْتيارِه فى ذلك نَخار - ٱقتضىٰ حُسْنُ الرأْيِ الشريف - كَرَّم اللهُ أنصارَه، وأعلىٰ مَنارَه - أن نُجيبَ وَسائِلَ مَن وقَفَ فى هذا القَصْد وَقْفَةَ سائل، لِيَنَال بذلك كلَّ إحسان وإحْسانَ كلِّ نائِل، ودعا إلى الكريم العامِّ بالإنعام،

والدعاء لسُلْطان يُدعَىٰ له ويدعو كلُّ الأنَام ، فقال : أسْألُ اللهَ وأسْألُ سُلطانَ الأرض ، مَلِكَ البَسِيطَةِ إمامَ العَصْر ، رَافعَ لِواءِ النَّصْر ، ناصرَ المِلَّة المُحَمَّديَّة ، مُحْيي الدَّولة العَبَّاسيَّة ، فاتحَ البلادِ والقلاعِ والأمصار ، قاهرَ الكُفَّار مُبيد الفرنج والأرْمَن والتَّتار ، سُلطانَ الزَّمان ، خُسْرُوانَ إيران ، شَاهنْشَاه القان ، سُلطانَ العالَمِ وارثَ المُلْك ، سُلطانَ العَرَبِ والعَجَم والتُّرْك ، الذى انتهىٰ إليه عن أمير المؤمنين الإمام الأوَّاب ، المِغْوار ، علىّ بن أبى طالب ذِى الفَخَار ، شَرفُ الفُتُوَّة واتّصالُ الأنْساب .

قلتُ : هذا ما وقفتُ عليه من نُسْخة هذا التَّوْقيع . وقد ذكر الشيخُ شِهابُ الدِّين محمودٌ الحلبىُّ فى كتابه "حسن التوسل" نسخةَ تَقْليد أنشأه فى الفُتُوَّة ، أسقط منه أوّل الخُطبة وهو : — وابتدأ منه بقوله :

نحمَدُه علىٰ ما مَنَحنا من نِعَم شتَّىٰ ، ووَهَبنا من عِلْم وحِلْم غَدَوْنا بهما أشْرف من أفتىٰ ، وآتانا ملك خِلال الشَّرَف الذى لاينبغى لغيرِ ما اختصنا به من الكمال ولايتأتَّىٰ ، وخَصَّنا به من رَفْع أهْلِ الطاعة إلىٰ سماء النِّعَم يتبوّءُون من جِنانِ الكَرَم حيثُ شاءُوا : وغيرُهم لاتُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماءِ ولا يدخلون الجنَّةَ حتَّىٰ ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ من انتمىٰ فى فخار أُبُوَّةِ التُّقَىٰ إلىٰ حَسَب علىّ ، وانتهىٰ فى بأوة البُنُوَّةِ إلىٰ سَبَبٍ قوىّ ونَسَبٍ زكىّ ، وارتدىٰ حُلَلَ الوَقار بواسطة الفُتُوَّة عن خيرِ وَصِىٍّ عن أشرف نبىّ ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى نورُ شريعته جَلِىّ ، وجَاهُ شفاعته مَلِىّ ، وبسَيْفه وبه حاز النَّصْر من انتمىٰ وفاء إليه : فلا سَيْفَ إلّا ذُو الفَقَار ولا فتَى إلّا علِىّ .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ من لبَّىٰ إحْساننا نداءَ وُدّه ، وربَّى امْتناننا نِتاجَ وَلائه المورُوث عن أبيه وجدّه ، ورقّاه كَرَمُنا إلىٰ رُتبة عَلاءٍ يَقفُ جوادُ الأمل عن بلوغها عند حَدّه ،

وتلقّتْ كرائمنا وَفْدَ قَصْدِه بالتّرحيب، وأنزلت جَارَ رَجائه من مصر نَصْرِها بالحَرَم الآمِن والرَّبْع الخَصِيب؛ وأدْنَتْ لأمَلِه ما نأىٰ من الأغراض حتى بلّغَهُ بفَضْلِها سَهْمُ آجْتهاده المُصِيب، وأعدّتْ له من حُلَل الجلالة ما هو أبهىٰ من رِداء السماء الذى تَزْدادُ على الأبَد جِدّةً بُرده القَشِيب؛ وخَصّتْه لأبْناء المَجْد بأجَلّ بُنُوّة جعلتْ له فى إرْث خِلالِ الشَّرف أوْفرَ حظٍّ وأوْفىٰ نَصِيب — من سَمَتْ مَنابِرُ المجْد بذِكْره، وآبْتسمتْ أسِرَّةُ الحَمْد بشُكْرِ أوصافه ووَصْفِ شُكْره؛ وآختالَتْ موادُّ الثناء بحسن خِلالِه، وآختارتْ كواكبُ السَّناء إقبالَ طوالِعه بطوالع إقْباله؛ وتمسَّكَ من طاعتنا بأمْثل أسْباب الهُدىٰ، وآعتصم بعُرْوَةِ بُنُوّة الأبناء فأوْطاه التَّوثُّق بها رِقابَ العِدا، وآتّصف بمحاسن الشِّيَم فى مَوَدّتنا فأضحىٰ فَتِيَّ السِّنّ كَهْلَ الحِلْمِ يهتزُّ للنّدىٰ؛ وآنْتمىٰ إلينا فأصْبح لدينا مَلِكًا مقرّبًا، وأوْجب من حُقوق الطاعة علينا ما أمْسىٰ به لدينا — مع جَلالَةِ الأبْناء — آبْنًا وغَدَوْنا له — مع شَرَف الآباء — فى نَسَبِ الفَخْرِ العَرِيق أبًا؛ ونَشأ فى مهاد المُلْك فسَما به للعِلْمِ والعَلَم، بالسَّيف والقَلَم، والبأس والكَرَم، وآعتزىٰ إلىٰ أُبُوّة حُنُوّنا بِبُنُوّة رجائه فتَشبّه بعَدْل أيّامنا : «ومَنْ يُشْبِهْ أبَاه فما ظَلَم»؛ وتَحلّى بصِدْق الوَلاء وهو أوّلُ ما يطلب فى سرِّ هذا النَّسب ويُعْتبر، وتَخَلّىٰ لنكاية عدوّ الإسلام بلُطْف مُكايَدة : السيوف تجُزُّ الرِّقاب «وتَعْجز عما تنال الإبَر» .

ولمّا كان فلانٌ هو الذى زَانَ بمُوالاتنا عُقُودَ مَجْده، وزادَ فى طاعتنا علىٰ ما وَرِثَ من مكارم أبِيه وجَدّه؛ وزانَ المُلوكَ فى إقبال شَبَابِه، وصانَ مُلْكَ أبِيه عن عوارض أوْصابِه بآتّباع ما أوْصَىٰ به، وأنِفَتْ صَوارِمُه أنْ تكونَ لغير جهاد أعْداء الله مُعَدّه، وعَزائمُه أن تَتّخذَ عَدُوَّ الله وعدوّه اولياءَ تُلْقِي إليهم بالمَوَدّه؛ وسِهامُه أن تُسَدّد [الا] إلىٰ مَقاتِل العِدا، وأسِنّتُه أن يُبَلّ لها من غير مَناهِل صُدُورِ الكُفْر صَدَىٰ؛ مع آجْتماع خلال الشَّرف لشَرف خلاله، وآفتراق أسْباب السِّرار عن هَالَة كَماله ؛

وسُؤالِه ما ليس لغيره أنْ يمدّ إليه يدا ، والْتِماسه من كَرمِنا العميم أجلّ ما نَحَل والدٌ ولَدا ، وأنّه وقف علىٰ قَدم الرَّجاءِ الثَّابت ، ومتّ بقِدَمِ غُروسِ الوَلاءِ التى أصْلها فى رَوْضِ المَوَدّةِ نابت ؛ وقال : أسْألُ اللهَ وأسْألُ سُلطان الأرض ، القائمَ لجهادِ أعْداء الله بالسُّـنّة والفَرْض ، فاتِحَ الأمْصار ، الذى لم تَزلْ سُيوفُه تُهاجِرُ فى سبيل الله عن غُمودِها إلىٰ أن صار له من الملائكة الكِرامِ أنْصار ؛ الذى كرّم الله شرَفَ الفُتُوّة بآنْتمائها إليه ، وأعلىٰ قَدْرَ بُنُوّة المُروءَة بآتّصالها به عن الخلفاء الراشدين عن أب أوّاب عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رِضْوانُ الله عليه ؛ وأورثه من خُلُقِه الكَرَم والبَأْسَ فتحلّيا منه بأجلّ مُوافٍ مُوافِق ، ومنَحه بحِفْظ العَهْد من خصائِصه ما عَهِدَ به إليه النّبىّ الأُمّىّ من أنّه ما يُحِبُّه إلا مُؤمنٌ ولا يُبْغضه إلا مُنافِق ؛ أعزّ الله سلطانه ، وأوْطأ جِيادَه مَعاقِلَ الكُفْر وأوْطانَه ، أن يتقبّـلَ قَصْدِى بقَبُولٍ حَسَن ، ويُقْبِـلَ بوَجْه كَرمِه علىٰ أمَلِى الذى لم يَقْعُدْ به عن فُروضِ الطاعات وسُنَنِها وَسَن ؛ ويَنْظِمَنى فى سلك عقود الفُتُوّة مُلتزِمًا بأسْبابها ، مقْتديا بطاعته التى هى أكْمَلُ أنْسابِها ؛ متّصِفًا بموالاته التى لا يَثْبُت لهـا حُكْمٌ إلّا بها ، آتيًا بشروط خِدْمَتِه التى من لم يأْت بها علىٰ ما يجب فمـا أتَى البيوت من أبْوابها .

فاستخرنا اللهَ تعالىٰ فى عَقْدِ لِواءِ هذا الفَخار لمجْده نخّار ، ونظمْناه لعقْد هذا المقام الكريم واسطةً لمثْله كان يَزِينُها الآدّخار .

فرُسِم بالأمرِ الشريف ـ لا زال جُودُه يُعْلِى الجُدُود ، ويُوطّدُ لأبْناء ملوك الزّمن من رُتَب الشرف فوقَ ما وطّدَتِ الآباءُ والجُدُود ـ أن نَصِلَ سَبَبه بهذا السَّبَب الكريم ، ونعْقِدَ حَسَبه فى الفُتُوّة بأواخى هذا الحَسَب الصَّميم ، ونعْدِقَ نَسَبه بأصالة هٰذه الأُبُوّة التى هى إلا عن مثْله عَقِيم ، ويُفاضَ عليه شِعارُ هذا الخُلُق المتّصل عن أكرم وَصىٍّ بمن قال الله تعالىٰ فى حَقّه : ﴿ إنّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيم ﴾ .

فليحُلَّ هذه الهَضْبَةَ التى أخَذَتْ من مرافق العِزِّ بالمَعاقِل، ويُحَلِّ هذه الرتبَةَ التى دُونَ بلوغها من نوع الفَراقِد ألفُ رَاقِد، ويَجُرَّ رِداءَ الفَخْرِ علىٰ أهداب الكواكب، ويُزَاحِمْ بمواكب مَجْدِه النجومَ علىٰ وُرُود نَهْر المَجَرَّة بالمناكب؛ وليَصِل شرف هذه النسبة من جِهَته بمن رآه أهْلًا لذلك، ولْيُفْتِ فى الفُتُوَّة بما عَلِم من مذهبنا الذى آنتهىٰ فيه منَّا إلىٰ مالك؛ وليُطِلّ علىٰ مُلوك الأقْطار، بهذه الرتبة التى تَفَانَى الرِّجالُ علىٰ حُبِّها، ويَصُلْ علىٰ صُروف الأقْدار، بهذه العناية التى جعلَته ـ وهى حِلْيَةُ حِزْبِ الله ـ من حِزْبِها؛ وليصِلْ سِرَّ هذا الفَضْل العميم بإيداعه إلىٰ أهْله، وآنتزاعِه ممن لم يَرَه أهْلًا لحَمله.

قلتُ: وما تقدّم مما يُكتب عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية والممالك الشامية، لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وغيرهم: من التَّقاليد، والتَّفاويض، والتَّواقيع، والمراسيم: المُكبَّرة والمصَغَّرة، ليس هو علىٰ سبيل الآستيعاب، بل علىٰ سبيل التَّمثيل والتَّذكير، لِيُنْسَجَ علىٰ مِنْواله، ويُنْهَجَ علىٰ نَهْجه. فإنَّ آستيفاءَ ما يكتب فى ذلك مما يَشُقُّ، ويقِفُ القَصدُ دونه. بلْ لا بدّ من حوادثَ تَحدُث لم يسبق لها مثال يقتفىٰ أثَرُه. فيحتاج الكاتب إلىٰ حُسْن التَّصرُّف فى إيراد ما يلائم ذلك ويُناسبُه. وكلُّ كاتب ينفقُ من كَسْبه، علىٰ قَدْر سَعَتِه، والله تعالىٰ هو الموفق إلىٰ نَهْج الصواب، والهادى إلىٰ طريق الحقّ فى الأمور كلِّها، بمنّه وكَرَمه.

الفصـــــل الثالث

من البـاب الرابـــع من المقـالة الخامســـة

(فيما يكتب من الولايات عن نوّاب السـلطنة ؛ وفيه طرفان)

الطـــرفُ الأوّل

(فى مقدّمات هذه الولايات ، ويتعلق بها مقاصدُ)

المقصـــد الأَوّل

(فى بيان مَن تصدُر عنه الولايات : من نوّاب السلطنة)

اِعلم أنّ نوّاب السلطنة بالديار المصرية لا تصدُر عنهم ولايةٌ فى جَليل ولا حَقير، بل التولية والعَزْل مَنُوطانِ بالسُّلطان ، والكِتابةُ فى ذلك مَعْدُوقةٌ به ، سواءٌ فى ذلك النائبُ الكافلُ ، ونائبُ الإسكندرية ، ونائِبَا الوَجْهين : القبلىّ والبحرىّ ، إلا مايكتبُ عليه النائبُ الكافلُ من القِصَص فى صغائر الولايات : من نَظَر الأوقاف وغيرها ، ثم تُعَيَّنُ ويُكْتب بها تواقيعُ سلطانية .

أمّا نوّاب السلطنة بالممالك الشامية : وهم نائبُ السَّلطنة بالشام، ونائبُ السَّلطنة بحَلَب ، ونائبُ السلطنة بطرَابُلُس ، ونائبُ السلطنة بحَمَاة ، ونائبُ السَّلطنة بصَفَد، ونائبُ السلطنة بغَزَّة، إذا كانت نيابةً لا تَقدِمَةَ عَسكر[1] .

---

(١) يظهر أن هنا سقطا ولعله «فتصدر عنهم الولاية» أخذا مما تقدّم .

المقصد الثانى

(فى بيان الولايات التى تصدر عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية بالممالك الشامية ، أنّ نوّاب هذه الممالك يَسْتَبِدُّون بتَوْلِية وُلاة الأعمال، وقد يَسْتَبِدُّون أيضا بتولية صِغار النُّوّاب ، كالقِلاع والبُلْدان التى تكون نيابتها إمْرة عَشَرة . ورُبّما آستبدُّوا بتولية بعض النيابات التى تكون نيابتها إمْرَةَ طَبْلخاناه ، إلّا أنّ تولية العشرات عن النوّاب أكْثرُ، وتوليةَ الطبلخاناه عن السُّلطان أكثر . أمّا النيابات التى تكون نيابتُها تقدمَةَ ألف ، فإنّها مختصةٌ بالسلطان . والنياباتُ التى يكون مُتولِّيها جُنْديًا أو مقدّمَ حَلْقة فإنّها مختصةٌ بالنوّاب . وأنّ تولية أكابر أرْباب الأقلام : ككاتبِ السِّرّ، والوزيرِ بالشّام، حيث جعلت وزارةً، وناظرِ النُّظار، حيث جعلت نَظرا ، وأصحاب دواوين المكاتبات ، ونُظّارِ المال بسائر الممالك ، ونُظّارِ الجَيْش ، وقُضاةِ القُضاة بها ـ فإنّ[1] التوليةَ فى ذلك تختص بالسلطان دون النوّاب . وما عدا ذلك يولّى فيه السلطانُ تارةً، والنوّابُ أخرى . ورُبّما حصلتِ الولايةُ فى بعض ذلك من بعض النوّاب ثم يُكْتب من الأبواب السلطانية بالحَمْل عليها، على ما تقدم بَسْطُ القول فيه هناك، فليُراجَعْ منه .

---

(١) أعاد هذه الكلمة لطول الفصل .

المقصـــد الثالث

[فى افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات]

تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبْواب السلطانية أنّه يراعىٰ فيها بَراعةُ الاَسْتهلال فى الافْتتاح وأنّ الافْتتاح فيها بـ«الحمد لله» أعلىٰ من الافْتتاح بـ«أمّا بعدُ» والافْتتاحَ بـ«أمّا بعدُ» أعلىٰ من الافْتتاح بـ«رُسِم بالأمْر الشريف» وأنّ لفظَ «أمّا بعدُ» أعلىٰ من لفظ «وبعدُ» وأنه يراعىٰ فى الولايات وصفُ المتولِّى والولاية، ويُؤْتىٰ لكلٍّ أحد من ذلك بما يناسبه من صفات المدح، ثم يقال: "ولما كان فلان هو المشارَ إليه بالصفات المتقدّمة، اقتضىٰ حسنُ الرَّأى أن يستقرّ فى كذا ونحو ذلك". ثم يؤْتىٰ من الوصايا بما يناسبُ مقام الولاية والمتولِّى لها، ثم يؤْتىٰ بالاختتام: من المَشيئَة والتَّاريخ، والحَمْدَلَة، والتَّصْلية، والحَسْبَلَة.

والأمرُ فيما يكتب عن النوّاب جارٍ علىٰ هذا المَنْهج إلّا فى أُمور قليلة:

منها - أنّ جميعَ ما يُكْتب عن النوّاب بالشّام يقال فيه «تَوْقيعٌ» ولا يقال فيه «تَقْليدٌ» ولا «تفويضٌ» وربما قيل «مَرْسُومٌ» فى أُمورٍ خاصّة.

ومنها - أن التّوقيع يوصف بـ«الكَرِيم» لا بـ«الشّريف» فيقال: «توقيعٌ كريمٌ أنْ يستقرّ فلانٌ فى كذا» أو «مرسومٌ كريمٌ لفلان بكذا» بخلاف ما يكتب عن الأبواب السلطانية، فإنّه يوصف بكونه «شَريفًا» فيقال: «تقليدٌ شريفٌ» و«تَفْويضٌ شريفٌ» و«مَرْسومٌ شريفٌ» و«تَوْقيعٌ شريفٌ» علىٰ ما تقدّم ذكره.

ومنها - أنّ(١) الكاتبَ يأْتِى بنون الجمع [جاريا](٢) فى ذلك علىٰ من تصدر عنه الولاية، كما أنّ الولايات عن الأبواب السلطانية [يجرى فيها على](٢) العادة فى الكتابة

(١) ذكر هذا فى المخالف سهو فانه موافق لما يكتب عن السلطان أو الملك كما لا يخفى. (٢) بياض بالأصل.

عن الملوك . وكأنّهم رَاعَوْا فى ذلك أنّ المكتوبَ عنه هو السلطانُ فى الحقيقة ، وفعلُ النائبِ كأنّه فعلُه نفسه ، كما يقال : هَزَم الأميرُ الجيْشَ ، وفتح السلطانُ المدينةَ ، والذى هَزَم وفَتح إنّما هم جُنْدُه لا هو فى نفْسِ الأمر .

ومنها — أنّه إذا آفتتح التوقيع بـ«رُسِم بالأمر» — لا يوصف بـ«الشّريف» بل بـ«العالى» علىٰ ما تقدّم . فيقال : «رُسِم بالأمر العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، الملكِىّ ، الفُلانى الفلانىّ» . وكذلك إذا أُتِى بذكر «رسم» بعد الآفتتاح بـ«الحمد لله وأما بعد» فإنّه يقال فيه : «العالى» دون «الشريف» .

قلتُ : هذا ما كان الأمرُ عليه فى الزّمن المتقدّم كما أشار إليه المقرّ الشّهابىّ آبن فَضْل الله فى "التعريف" . ثم آستقرّ الحال علىٰ وَصْف الأمر بـ«الشريف» فيقال : «رسم بالأمر الشريف العالى» إلىٰ آخره ، كما يكتب عن السلطان .

ومنها — أنّه يقال فى آخر التوقيع : «والآعتمادُ على الخط الكريم أعْلاه» ولا يقال : «على الخط الشريف» ، كما فى السلطان .

ومنها — أنّه لا يذكر فى تواقيع النّوّاب مستندُ كتابتها ، كما يُكْتب فيما يُكْتب عن السلطان .

المقصد الرابع

(فى بيان الالقاب)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة ، فى الكلام على الولايات الصادِرَة عن الأبْواب السلطانية أنّ أعلىٰ ما يكتب لأرباب السيوف «المقرّ الكريم» ثم «الجناب الكريم» ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» ثم «المجلس السامىّ» بالياء ، ثم «المجلس السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس الأمير» ثم «الأمير» .

وأن أعلىٰ ما يكتب لارباب الوظـائف الديوانيـة : « الجناب العـالى » ثم « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء، ثم «مجلس القاضى» ثم «القاضى» .

وأن أعلىٰ ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية : «المجلس العالى» . ثم آستقر أعلىٰ ما يكتب لهم : «الجناب العالى» و «المجلس العالى» بعده، ثم «السامىّ» بالياء، ثم «السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس القاضى» ثم « القـاضى» علىٰ ما تقدّم فى أرباب الوظائف الديوانية ، إلّا فيما يقَعُ الآختـلاف فيه من الألقـاب والنُّعوت الخاصَّة بكلٍّ منهما .

وأنّ أعلىٰ ما يُكْتب لأرباب الوظائف الصُّوفيَّـة : « المجلس العـالى » ثم « المجلس السامىّ » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس الشيخ » ثم « الشيخ » .

وأنّه يُكتب لأرباب الوظائف العادية : «المجلس السامى ، الصـدر الأجل » أو «مجلس الصدر» أو «الصدر» .

وأنّه يُكْتب لزعمـاء أهـل الذِّمة ألقابُهـم المتعارَفةُ . فيُكتب لرئيس اليهود : «الرئيس» ولبطاركة النَّصارىٰ : «البَطْرك» ونحو ذلك .

فأمّا ما يُكتب عن نوّاب الشام، فعلى أصْناف، كما تقدّم فى الألْقاب التى تكتب عن الأبواب السـلطانية ، مع آختلافٍ فى بعض الألقـاب بزيادة ونقص ، وعلو وهُبُوط .

الصـــنف الأوّل

(أرباب السـيوف، ولألقابهم مراتِبُ)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف . وبذلك يُكْتب للطبقة الأُولىٰ من مقدّمى الألوف بالشّام، وحَلَب، وطَرابُلُس، إذا وُلّى أحدٌ منهم نَظَر وقف، أو نحو ذلك . أمّا غير هذه الممالك الثلاث ، فقد تقدّم أنّه ليس فى شيء منها تقدمةُ ألف، ويقال فيه عندهم : « المقرُّ الشريفُ، العالى، المولوِىّ، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العـالمىّ، العادِلىّ، العَوْنىّ، الغِياثىّ، الزَّعيمىّ، الظَّهِيرىّ، المَخْدومىّ، الفُلانىّ، عزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد الأُمراء فى العالَمين ، ناصِر الغُزَاةِ والمجاهـدين ، زَعِيم جُيوش الموَحّدين ، عَوْن الأُمّة، كَهْف الملّة ، ظَهِير الملوك والسـلاطين ، فلان الفلانى : أعزّ الله تعالىٰ أنصاره » .

المرتبة الثانية — المقرُّ الكريم . وبذلك يكتب للطبقة الثانية من مقدّمى الألوف ، ويقال فيـه : « المَقرُّ الكريم ، العـالى ، المَولَوىّ » . بنحو الألقاب المتقدّمة .

المرتبة الثالثة — المقرّ العالى . وبه يكتب للطبقة الثالثة من مقدّمى الألوف، ويقال فيه : « المقَرُّ العالى ، المولوىّ » بنحو الألقاب المتقدّمة أيضا [كما][1] يكتبُ لنقيب الأشراف بحَلَب ، وهى : « المَقرُّ العـالى، الأميرِىّ، الكَبِيرىّ، النَّقيبىّ، الحَسِيبىّ، النَّسِيبىّ ، العَرِيقىّ، الأصيلىّ، الفَاضِلىّ ، العلَّامىّ، العـارِفىّ، الحُجّىّ، القُـدْوىّ، النَّاسِكىّ، الزَّاهدىّ، العَابِدىّ، الفُلانىّ، جَلال الإسـلام والمسلمين ، جمال الفُضَلاء البارعين، فَخْر الأُمراء الحاكمين ، زَيْن العِتْرة الطاهره، شَرَف الأُسرة

(١) بياض بالأصول .

الفاخره، حُجّة العِصابة الهاشميه، قُدْوَة الطائفة العَلَويّه، نُخْبة الفِرْقَة الناجية الحَسَنيّه، شَرَف أُولى المراتب، نَقيب ذوى المناقب، مَلاذ الطُّلّاب الدّاعين، بركة الملوك والسلاطين، فلان : أسبغ الله عليه ظلاله » .

المرتبة الرابعة — الجَناب الكريم . وبه يُكْتب للأُمراء الطّبلخاناه، ويُقال فيه : « الجناب الكريم، العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكَبِيرِىّ، العَضُدىّ، النّصيرىّ، المجاهدىّ، المُؤيَّدىّ، الذُّخْرِىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانىّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزاة والمُجاهدين، ظَهير الملوك والسلاطين، فلان : أعزّ الله تعالى نُصْرته » .

المرتبة الخامسة — الجناب العالى . وبه يُكْتب لأُمراء العِشْرينات، ويُقال فيه : « الجناب العالى، الأميرىّ، الكَبِيرى، الذُّخْرِىّ، النّصيرىّ، المجاهِدىّ، المؤيَّدىّ، الأوْحَدىّ، الأكْملىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانى، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، ظَهير الملوك والسلاطين، فلان أدام الله تعالى نِعْمته » .

المرتبة السادسة — المجلس العالى . وبه يُكْتب لأُمراء العَشَرات، ويُقال فيه : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، الأجَلّىّ، المُجاهِدىّ، العَضُدىّ، النّصيرىّ، الهُمامىّ، الأوحدىّ، الذُّخْرىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رِفْعته » .

المرتبة السابعة — المجلس السامىّ بالياء . وبه يُكْتب لمقدّمى الحَلْقة، وأعْيان جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « المجلسُ السامىّ، الأميرىّ، الأجَلّىّ، الكَبِيرىّ،

المُجاهدى، الأعَزّى، الأخَصّى، الأكْملى، الأوْحدى، الفُلانى، مَجْد الأُمراء، زَيْن الأكابر، ذُخْر المجاهدين، فلان : أدام الله تَوْفيقه » .

المرتبة الثامنة — المجلس السامى بغير ياء . وبه يُكْتب للطَّبقة الثانيــة من جُنْد الحَلْقة ، ويقال فيــه : « المجلسُ السامِى، الأمير، الأجلّ، الكَبِير، الغَازى، المُجاهد، المرْتَضىٰ، المُخْتار، فلان الدِّين، مَجْد الإسلام، بَهاءُ الأنام، زَيْن الأُمراء، فَخْر المجاهِدين، عُمْدة الملوك والسلاطين، فُلان : أعَزّه الله تعالىٰ » .

المرتبة التاسعة — مجلس الأمير . وبه يُكْتب للطَّبقة الثالثة من جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « مجلس الأمِير، الكبير» . بنَحْو ألقاب السَّامى بغير ياء .

المرتبة العاشرة — الأمير . وبه يُكْتب لجُنْد الأُمراء ونَحْوهم ، ويقال فيه : «الأمِير الأجلّ» .

الصــــنف الثــانى

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ أرباب الوظائف الديوانيـــة ، وفيهم مراتِب)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف. وبه يُكْتب لكَاتِب السِّرّ بالشَّام، وصاحِب ديوان الرسائل بحَلَب، ومَنْ فى معناهما .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لكاتِب السِّرّ بِدمَشْق بوِلاية مَشْيَخة الشُّيوخ، وبُولِغَ فيها جِدَّ المبالغــة، إلَّا أنَّها ليستْ حَسَنةَ التَّأْليف، ولَا رائِقــة التَّرتِيب؛ وهى : « المقرُّ الشَّريفُ ، العالى ، المَوْلَوِىُّ، القاضَوِى، الكَبِيرى، العَالِمى، العامِلى، العَــلَّامى، الإمامى، الفريدى، المُفيــدى، القُدْوى، الحُجِّى، الأجَلِّى، الحَــبْرى، المُحقِّقى،

المُدقّقِىّ، الزاهدِىّ، العارفِىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، المُسَلّكِىّ، العابدىّ، المُرْشدىّ، الرّبّانىّ، الورَعىّ، المهدِىّ، المشيِّدىّ، المُشِيرِىّ، السّفيرِىّ، اليَمِينِىّ، المَلاذِىّ، الشّيْخِىّ، الفُلانىّ، جلالُ الإسلام والمسلمين، سيّد الأكابِر والرُّؤساء فى العالمين، عَوْن الأُمّه، صلاحُ المِلّه، جمالُ المملكة، نِظام الدّوْلة، عِزّ المُلك، لِسانُ المَمالك، زَيْن الأوْلِيـاء، مُظْهِر أنباء الشّريعـة وناصِرُها، مُؤيِّد الحقّ والمُعِينُ علىٰ إظهاره، قَامِعُ البِـدَع ومُخْفِى أهلِها، رُحْلَة الحُفَّاظ، عَلَم المُفَسّرين، حُجّة الطالبين، سَيْف المناظِرين، قُدْوة العُبّاد والزُّهّاد، مَلْجأُ الصُّلَحاء والعارِفين، حَسَـنةُ الأيّام، فَرْد الزّمان، غُرّة وَجْه الأوان، شيخُ المشايخ، مُفِيد كلّ غَادٍ ورَائِح، مُوَصِّل السّالكين، مُرَبِّى الأتْقياء والمُرِيدين، كَنْز السّالِكين والمُرْشِدين، مُمَهِّد الدُّوَل، مُشَيّد المَمالك، مُجَمِّلُ الأمصار، مُدبِّر أُمورِ سُلْطانه فى اللّيل والنّهار، مُجْهِدُ نَفْسه فى رِضا مولاه، مُعِين الخلائق علىٰ حُقُوقِهـم، مُذِلّ حِزْب الشّـيْطان، مَلاذُ البُلَغاء والمُتكلّمين، خُلاصَة سَلَف القَوْم المُبارَكين، بَرَكَةُ الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ: أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظلاله».

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم. وبه يُكْتب للطبقة الثانية من أرْباب الوظائف الديوانية. ويقال فيه: «المقرّ الكريمُ، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوِىّ». بنحْو الألقاب السابقة مع «المقرّ الشريف».

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم. وبه يُكْتب للطبقة الثالثة من أرْباب الوظائف الديوانية. وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض الكُتّاب بكتابة الإنشاء والجَيْش بحلَب، وهى: «الجناب الكريمُ، العالى، المَوْلَوِىّ، القضائىّ، الكبيرىُّ، العالِمىّ، الفاضِلىُّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الماجدىّ، الأوْحدىّ، الأثِيرىّ، الأثِيلىّ، الأصيلىّ، القوامىّ،

النّظامىّ، الفُلانىّ، ضياء الإسلام والمسلمين، أوْحد الفُضلاء فى العالَمين، خالِصَـةُ الملوك والسلاطين، فلان : ضاعف الله تعالىٰ نعمته » .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى. وبه يُكْتب لكُتّاب الدَّسْت ونحوهم. وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض كُتّاب الدَّسْت بالشّام، وهى : «الجناب العالى، القضائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأكْملىّ، البارعىّ، الأوْحدىّ، القوامىّ، النّظامىّ، المُفَوَّهىُّ، الرَّئِيسىّ، الماجدىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شرف الرُّؤساء فى العالَمين، أوحد الفضلاء الماجدين، قُدْوة البُلَغاء، جمال الكُتّاب، زَيْن المُنْشِئين، خالِصَة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ نِعْمته » .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى. وهـذه ألقاب كُتب بهـا لكاتب دَرْج بالشام جَليل القَـدْر، وهى : « المجلسُ العالى، القضائىّ، الأجَلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الرَّئيسىّ، الأوْحدىّ، الأثِيرىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، الفلانىّ، مَجْد الإسـلام، شَرَف الرُّؤَساء فى الأنام، حُجّة البُلَغاء، قُدْوة الفضلاء، أوْحد الأُمناء، زَيْن الكُتّاب، رَضِىُّ الدَّولة، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام اللهُ علوّه » .

المرتبة السادسة — المجلس السامىّ باليـاء. وهذه ألقابٌ كتب بها لبعض كُتّاب دِمَشق بنَظَر الرِّباع وهى : «المجلسُ السامىُّ، القَضائىّ، الأجلىّ، الكبيرىّ، الرَّئيسىّ، الأوْحدىّ، الأكْملىّ، الماجِدىّ، الأثيرىّ، الأثيلىّ، الأصِيلىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام، شَرَف الرُّؤساء، أوْحد الفُضلاء، صَفْوة الملوك والسلاطين، أدام الله تعـالىٰ علوّه » .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامِى بغير ياء. وهذه ألقابُ كُتب بها لكُتّاب دَرْج بالشام، وهى : « المجلسُ السامى، القاضى، الأجلّ، الكبيرُ، الفاضلُ، الأوحدُ،

الأثيرُ، الرئيسُ، البليغ، الأصيل، فلان الدِّين، مجدُ الإسلام، بهاء الأنام، شرفُ الرؤساء، أوحد الفُضلاء، زَيْنُ الأعيان، فَخْرُ الصدور، نَجْلُ الأكابر، سَلِيلُ العلماء، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعته » .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضِى، الاجلُّ، الكبيرُ» والباقى من نسبة ألقاب السامى بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . ويقال فيها : «القاضى، الأجلُّ» . ورُبَّما زيد علىٰ ذلك قليلا ، كما تقدّم فى السلطانيات .

الصنف الثالث

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ أرباب الوظائف الدِّينية ، وفيه مراتب)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف . وبذلك يُكتب لقُضاة القضاة ومن فى معناهم .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لقاضى القضاة المالكىّ بِدِمَشْق بتصديرٍ، وهى : «المقرُّ الشريفُ ، العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، الإمامىّ ، العالمِىّ ، العلَّامىّ ، الفريدىّ ، المُفيدىّ ، الخاشعىّ ، النَّاسكىّ ، الرُّحْلِىّ ، القُدْوِىّ ، المَلَاذِىُّ ، العابدىّ ، المحقِّقِىّ ، المدقِّقِىّ ، المحسنىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ، جلالُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ العلماء فى العالَمين ، قُدْوة البارِعين ، سيِّدُ المناظرين ، لسانُ المتكلِّمين ، مَلاذُ الطالبين ، كَنْزُ المتفقهين ، إمام الأئمه ، حجة الأُمّه ، ناصِرُ الشريعة ، فَرْدُ الزمان ، أوحد الوَقْت والأوان ، رُحْلة القاصدين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، فُلان : أسبغ الله ظلاله » .

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم . وبه يُكْتب لمن دُونه من هذه الرتبة .

وهذه ألْقاب كُتب بها لقاضى القُضاة بحَلَب بوظيفة دِينيّة ، وهى : « المقرّ الكريم ، العالى ، المَوْلوىّ ، القاضَوىّ ، الكَبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، الأصِيلىّ ، العَريقىّ ، القوَامِىّ ، النِّظامىّ ، الإمامىّ ، العلّامىّ ، القُدْوىّ ، المُفيدىّ ، الشّيخىّ ، الرُّكنىّ ، الصاحبىّ ، الحاكمىّ ، المحسنىّ ، الفُلانىّ ، فلانُ الإسلام والمسلمين ، شَرَف الفُضَلاء فى العالَمين ، قُدْوة العلماء العاملين ، لسانُ المتكلمين ، بُرْهان المناظرين ، صَدْر المدرِّسين ، رُحْلَة الطالبين ، بَقيّة السلف الكرام الدارجين ، بَرَكَةُ الملوك والسلاطين ، خالِصةُ أمير المؤمنين ، فلان : أعزّ الله تعالى أحكامه » .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم . وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض المشايخ بتَدْرِيس بالشّام ، وهى : « الجنابُ الكريمُ ، العالى ، المَوْلوِىّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، المُفيدىّ ، الفريدىّ ، المحقِّقىّ ، المدقِّقىّ ، الأوْحدىّ ، الأكْملىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ العلماء فى العالَمين ، جمالُ الفُضَلاء المدرِّسين ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، فلان : أسْبغ الله تعالى ظِلّه » .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى . وهذه ألقابٌ من ذلك كُتب بها لقاض من قضاة العسكر بالشام ، وهى : « الجنابُ العالى ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الرئيسىّ ، الأكملىّ ، الإمامىّ ، العلّامى ، المفِيدىّ ، المحقّقىّ ، الفرِيدىّ ، البارعىّ ، المدقِّقىّ ، الأوحدىّ ، القُدْوىّ ، الخَيْرىّ ، الحافظىّ ، الأصِيلىّ ، الأثيرىّ ، النّاسِكىّ ، الورَعىّ ، العلّامىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرفُ العلماء العاملين ، زَيْن الحُكّام فى العالمين ، حُجّةُ المذهب ، إمام البلغاء ، مُفْتى المسلمين ، مفِيد الطالبين ، قُطْب الزُّهّاد ، مَلاذُ العُبّاد ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالى نعمته » .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهى : « المجلسُ العالى ، القضائىُّ ، الأجلُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الرّئيسىّ ، الأوحدىّ ، الأثيرىّ ، الأثيلىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام ، شَرفُ الرُّؤَساء فى الأنام ، حُجّة الفُضَلاء ، صَدْر المدرّسين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالىٰ عُلوّه » .

المرتبة السادسة — المجلس السامىّ بالياء . وهى : «المجلسُ السامىُّ ، القضائىُّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الأوحدىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، المحقّقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء فى العالَمين ، صَدْر المدرّسين ، أوحد المُفيدين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلانٌ : أدام اللهُ سعادتَه » .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامِى بغيرِ ياء . وهى : «المجلس السامى ، القاضى ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الأحد ، المرتضىٰ ، الأكملُ ، فلانُ الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، زَيْن الفُضَلاء ، أوحدُ العلماء ، رَضِىُّ الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله عِزّه» .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضِى ، الأجلُّ » بنحوِ الألقاب المذكورة فى «السامى» بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . وهى : «القَاضِى الأجلُّ» علىٰ ما تقدّم .

الصــــنف الرابع

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ مشايخُ الصوفية)

ولم أقِفْ علىٰ شَىْءٍ من ألْقاب ماكُتِب من هـذا الباب . سوىٰ [ماكُتِب] فى مَشْيخة الشيوخ بالشام لكاتب السّرّ ، وقد تقدّم ذكْرُه فى أوّل الألقاب الديوانية

هناك . وألقابِ الجناب العالى فيما كُتِب به فى مشيخة الزاوية الأمِينيّة بِدمَشْق ، وهى : « الجنابُ العالى ، الشيخىُّ ، العالِمىّ ، العامِلىُّ العَلّامىّ ، الأوحدىّ ، القُدْوىّ ، العابِدىّ ، الزاهدىّ ، الوَرِعىّ ، الناسِكىّ ، الخاشعىّ ، المُسَلِّكىّ ، المُرَقِّىّ ، الربانىّ ، الأصِيلىّ ، الفلانىّ ، مجدُ الإسلام ، حَسَنةُ الأيام ، قُدْوة الزُّهّاد ، ملاذ العُبّاد ، جمالُ الوَرِعِين ، مُرَبِّى المريدين ، أوْحد السالكين ، خلفُ الأولياء ، بَركة السلاطين ، فلانٌ : أعاد الله تعالى من بَركته » .

ومن هذا يُؤْخذ ما حدث كتابته ممّا هو فوق ذلك أو دُونه .

الصنف الخامس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ أُمراء العُرْبان)

ولم أَقِفْ على شىء ممّا كُتِب به من ألقابهم ، سِوَى ألقابِ « السّامى » بغير ياء لبعض أُمَراء بنى مَهْدِىّ ، وهى : « المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، المجاهدُ ، الأصيلُ ، العَرِيقُ ، الأوْحد ، فلانُ الدين ، مَجْدُ الإسلام ، بهاءُ الأنَام ، شرفُ العُرْبان ، زَيْنُ القبائل ، عُمْدة الملوك والسلاطين ، فلانٌ : أعزّه الله تعالى » . وعليه يُقاسُ ما عساه يُكْتب من هذا النَّمَط .

الصنف السادس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ أربابُ الوظائف العادية ، كَرَآسة الطِّبّ ونحوها)

وألقاب رئيس الطِّبّ : « المجلسُ العالى ، القضائىُّ » على نَحْو ما تقدّم فى الدِّيوانيات .

الصــــنف السـابع

(من أرْباب الولايات بالنيابات الشامية ــ زعماءُ أهلِ الذِّمَّة)

وهى رآسة اليهود، وبَطْرَكِيَّة النَّصارَىٰ .

أما رئيسُ اليَهُود، فالذى رأيْتُــه لهم من ألقــابِه فى عَهْدٍ قديمٍ، كَتَبه ٱبن الزكىّ فى الدولة الأيُّوبية . قال فى ألْقابه : «الرئيسُ، الأوحدُ، الأجلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكَبير، شَرَفُ الداوودِيين، فُلانٌ» .

وأما بَطْرَكَ النَّصارَىٰ ، فرأيتُ لهم فيه طريقتين :

الطريقة الأُولىٰ : «البَطْرَكُ المحتَشِمُ ، المبَجَّلُ ، فلانٌ ، العالِمُ بأُمور دِينِه ، المُعَلِّمُ أهْل مِلَّته ، ذُخْر المِلَّة المسيحيَّة، كبيرُ الطائفة العِيسَوِيَّه، المشكورُ بعَقْله عند الملوك والسلاطين، وفقه الله تعالىٰ» .

الطريقة الثـانية : «مجلسُ القِسِّيسِ ، الجليل، الرُّوحانِىّ، الخطير، المتبتل، ابن المِطْران، النَّاصِب، الخاشِع، المبجَّل ، قُدْوةُ دِين النَّصرانيَّه، فَخْرُ الملة العِيسَوِيَّه، عمـاد بنى المَعْمُودِيَّه، جمالُ الطائفة الفُلانيه، صَفْوة الملوك والسـلاطين ، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ بَهْجَته» .

المقصــــد الخامس

(فى بيان مقادير قَطْع الوَرَق المستعمل فيما يُكْتب

عن نوّاب الممالك الشامية)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة ، فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الوَرَق، أنَّ الورقَ المستعملَ فى دواوين الممـالك الشامية علىٰ ثلاثة مقادير : قطع الطلحية الشامية الكاملة، وهو

فى عَرْض الطَّلحية المعبر عنها بالفَرْخة وطُولها. وقطع نصف الحَموى، وهو فى نصف عَرْض الطلحية التى فى قَطْع الحموى وطُولها، ورُبَّما نقصتْ فى الطول . وقَطْع العادة، وهو علىٰ نحوٍ من قَطْع العادة البلدى . وقد تقدّم ذكره .

فما كان منها فى طول الشامىّ الكامل كُتب بقلم الثلث . وما كان فى قَطْع نِصْف الحموىّ كُتب بقَلَم التوقيعات . وما كان فى قَطْع العادة كُتب بقَلم الرِّقاع . ثم ما كان فى قَطْع الطلحية، آفتتح ما يكتب فيه بـ«الحمدُ لله» . وما كان فى قَطْع نِصْف الحَمَوِىّ، آفتتح ما يكتب فيه بـ«أمَّا بعد حمد الله» . وما كان فى قطع العادة، آفتتح ما يُكتب فيه بـ«رُسِم بالأمرِ الشريف» سواء فى ذلك علتِ الألقابُ أو آنحطَّتْ، حتّىٰ إنه رُبَّما كتب بـ«المقرّ» فى قَطْع العادة، آعتباراً بحال الوَظِيفة .

المقصد السادس

(فى بيان ما يكتب فى طُرَّة التواقيع)

اعلم أنّ النوّابَ بالممالك الشاميَّة عادتُهم فى العلامة كتابة اسم النائب، كما أنّ السلطان فيما يُكتب عنه من الولاية يكتب فى العلامة اسمه . وحينئذٍ فيحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أنْ يكتُبَ فى أعلى الدَّرْج فى الوسط ما صورته : « الآسم الكريم » ثم يكتبَ من أوّل عَرْض الدَّرْج ما صورته : «توقيعٌ كريم باستقرارِ المقرِّ الشريف أو الكريم، أو الجناب الكريم أو العالى، أو المجلس العالى أو السامى، أو مجلس الأمير أو القاضى، أو الشيخ، ونحو ذلك، فى كذا وكذا إلىٰ آخره» . فإن كان فيه معلومٌ كتب آخرا : « بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور، أو الشاهد به كتابُ الوَقْف » ونحو ذلك ثم يكتب : «حَسَب ما رُسِم به علىٰ ما شُرِح فيه» . ولفظ :

«حَسَب ما رُسم به» مما جرَتْ به عادة كُتّابهم، بخلاف ما يكتب به من الأبواب السلطانية على ما تقدم ذِكْرُه .

وهذه طُرَّة تَوْقيع بنقابة الأشراف بحَلَب المحروسة ، كُتب به للشريف «غياث الدين احمد» بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن الممدوح ، وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بآستقرار المقرّ العالى ، الأميرىّ ، الكَبيرى ، الشَّريفى ، النَّقيبى ، الحسيبى ، الأصيلى ، العِزّى ، بَرَكة الملوك والسلاطين ، أحمد آبن المقرّ العالى ، الشَّريفى ، النَّقيبى ، الشِّهابى ، أحمد الحسينى ، أسبغ الله ظلالهما ، فى وظيفة نقابة السَّادة الأشراف ، ونظر أَوْقافها ، والحكم فى طوائفهم على آختلافهم أجمعين ، عِوَضًا عن والده المشار إليه برِضاه ، على عادته فى ذلك ومُسْتقرّ قاعِدَته ، وتعاليمه المستمرة إلى آخر وَقْت ، حسَب مارُسم به بمقتضَى الخَطّ الكريم ، على ما شُرح فيه .

✣

وهذه نسخة طرة توقيع بكشف الصفقة القبلية بالشام ، مما كُتِب به لـ«غرس الدين خليل الناصرى» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ الجنابُ الكريمُ ، العالى ، المَوْلوِى ، الأميرى ، الكَبيرى ، الغَرْسى ، ظهير الملوك والسلاطين ، خليل الناصرى ، ادام الله تعالى نعمته ، فى كَشْف البلاد القبلية المحروسة بالشام المحروس ، على عادة من تقدّمه فى ذلك ومُسْتَقرّ قاعدته ، حسب مارُسم به ، على ما شرح فيه .

✣

وهذه نسخة طُرَّة تَوْقيع بالمِهْمَنْدارِيَّة بالشام المحروس ، كُتب به لـ«غرس الدين خليل الطناحى» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ باستقرار الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الغَرْسِىّ، عَضُد الملوك والسلاطين، خليل الطناحى، أدام الله تعالىٰ نعمته، فى وظيفة المِهْمِنْدارِيّة الثانية بالشام المحروس، عِوضًا عن حُسام الدِّين حَسَن بن صارُوجا، بحُكم شُغُورها عنه، لما آتفق من الغَضَب الشّريف عليه، وآعتقاله بالقَلْعة المنصورة بحلَب المحروسة، علىٰ أجمل عادة، وأكْمل قاعدة، حسب ما رُسِم به، علىٰ ما شُرِح فيه.

✣

وهذه نسخةُ طرَّة توقيع بتَصْدير الجامع الأُمَوىّ بالشام، كُتِب به للقاضى «ناصر الدين» بن أبى الطَّيِّب كاتب السِّرّ بالشام، وهى:

توقيعٌ كريمٌ بأن يستقرَّ المقرُّ الشريف، الناصرىُّ، محمدُ بن أبى الطيب العمرىّ، العثمانىّ، الشافعىّ، صاحبُ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشاميّة المحروسة، عظَّم اللهُ تعالىٰ شأْنَه، فى وظيفة التَّصدير بالجامع الأُموىّ المعمور بذِكْر اللهِ تعالىٰ، عِوَضًا عن القاضى صَدْر الدِّين عبد الرحمن الكَفْرىّ الشافعىّ، بحُكْم وفَاته إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، بماله من المعلوم الذى يشهدُ به دِيوان الوقف المبرور، حسب ما رُسِم به، علىٰ ما شرح فيه.

✣

وهذه نسخةُ طُرَّة تَوْقيع بإعادة مَشْيخة الشُّيوخ بالشام إلى القاضى «ناصر الدين ابن أبى الطَّيِّب» المذكور أعلاه، وهى:

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن تُفوَّضَ إلى المقرّ الشريف العالى، المَوْلَوىّ، القاضوىّ، النّاصرىّ، محمد بن أبى الطيب العمرىّ، العثمانىّ الشافعىّ، صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، أعاد اللهُ تعالىٰ من بركاته، وأسْبغ

ظلاله ، مشيخةُ الشُّيوخ بالشام المحروس ، وَظِيفتُه التى خرجتْ عنه ، المرْسُومُ الآن إعادتها إليه ، عوضًا عمن هى بيده ، بمعلومه فى النظر والمشيخة ، الشاهِدِ بهما ديوانُ الوَقْف المبرور ، إلىٰ آخر وقت ، علىٰ أجْمل العوائد ، وأكْمل القواعد ، حسب ما رسم به ، علىٰ ما شرح فيه .

⁂

وهذه طُرَّةُ توقيعٍ بالحَمْل على النُّزُول والتقرير الشَّرعىّ ، بالزاوية الأمِينيَّة ، بالقُدس ، كُتب به للشيخ «برهان الدين المَوْصِلىّ» وهى :

توقيعٌ كريمٌ بأن يُحْمَل الجناب العالى ، الشيخىّ ، البرهانىّ ، إبراهيم آبن سيدنا المرحوم الشيخ القطب ، تقىّ الدِّين أبى بكر المَوْصِلىّ ، رضى الله عنه وأعاد من بركاتهما ، فى وظيفتى النظر والمشيخة ، بالزاوية الأمِينية بالقُدس الشريف ، علىٰ حُكْم النزول الشَّرعىّ ، وآستمرار ذلك بمقتضاهما ، ومَنْع المنازع بغير حُكْم الشَّرع الشَّريف ، حسب ما رُسم به ، علىٰ ما شُرح فيه .

⁂

وهذه طُرَّة مَرْسومٍ برُبْع تَقْدمة إمْرة بنى مَهْدِىّ ، كُتب به لـ«عيسى بن حناس» وهى :

مَرْسومٌ كريمٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامى ، الأميرُ ، شرفُ الدِّين ، عيسى بن حناس(؟) ، أعزّه الله تعالىٰ ، فى رُبْع تَقْدمة بنى مَهْدِىّ ، علىٰ عادة من تقدّمه ، حملا علىٰ ما بيده من التَّوقيع الكريم ، علىٰ ما شُرِح فيه .

⁂

وهذه طُرَّةُ توقيع ببَطْرَكية النَّصارىٰ المَلَكِيَّة بالشام ، كُتب به لـ«داوُد الخورى» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ البطريرك ، المحتَشِمُ ، المبجَّل ، داود الخُورى ، المشكور بعقله لدى الملوك والسلاطين ، وفّقه الله تعالىٰ ، بطريركَ الملكيّة بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ، حسَب ما اختاره أهلُ ملّتِه المقِيمُون بالشام المحروس ، ورَغِبوا فيه ، وكتبوا خُطُوطَهم به ، وسألُونا تقريرَه دون غيره ، حسب ما رُسِم به ، علىٰ ما شُرِح فيه .

المقصــــد السابع

(فى بيان كيفية ترتيب هــذه التواقيع)

قَدْ جرتْ عادةُ كُتّاب هــذه النيابات أنْ تُكتب الطُّرّةُ بأعلى الدَّرج كما تقــدّم . ثم يترك وَصْلان بياضًا بمــا فى ذلك من وَصْــل الطُّرة ، ثم تُكتب البسملة فى أوّلِ الوَصْــل الثالث ، ثم يُكتب تحت البَسْمَلة علىٰ سمت الجلالة : «المَلَكِىُّ الفلانىُّ» ثم يخلّىٰ بيت العلامة نحو ستة أصابع معترضة ، ثم يُكتب السطر الثانى ويوافى كتابة السَّطر ، ويكون ما بينهما بقَدْر أصبعين ، والباقى علىٰ نحو ما تقدّم فى السلطانيات .

الطـــرف الثانى

(فى نُسَخ التواقيع المكتتبة عن نُوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقــدّم فى المقالة الثانية أنّ بالبلاد الشامية سَبْعَ نيابات : دِمَشْق ، وحَلَب ، وطَرَابُلُس ، وحَمَاة ، وصَفَد ، وغَزّة إن كانتْ نيابة ، والكَرَك . وأنّ اعلاها دمَشْق ، ثم حَلَب ، ثم طَرَابُلُس . وفى معنىٰ طَرَابُلُس حَمَاةُ وصَفَدُ .

وقد اقتصرت فى نسخ التواقيع علىٰ ما يكتب فى ثلاث نيابات [تقديما لهـا](١) علىٰ ما عداها .

---

(١) بياض بالأصل .

النيابة الأولى الشام

(والتواقيع التى تُكتب بها على خمسة أصناف)

الصنف الأوّل

(ما يُكتب بوظائف أرباب السيوف، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(ماهو بحاضرة دِمَشْق، وهو على مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ«الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة تَوْقيع بولاية دِمَشْق :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الأيَّامَ الزاهرةَ تنقُلُ أوْلياءَ آلائه الشريفة إلى أعْلى المراتب، وتُجْزل لهم من مِنَنِه الجمَّةِ المواهب، وتُضاعف لهم النِّعمةَ بكرمها الذى إذا انْهمَلَ كان كالغَيْث السَّاكب .

نحمدُه على أنْ جعل نَظَرنا يلْمَحُ أهلَ الهِمَم ويُراقب، ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَبْلُغ قائلُها ببركتها المُنىٰ والمآرب، وتَهُونُ عليه كلُّ المَصاعب ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ بِبِعْثَتِه الحقَّ فى المشارق والمغارب، وأنار به ظُلَمَ الغَياهِب؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين شيَّدُوا مَنَارَ الإسلام وأقاموه بالسيوف القَوَاضب ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ المناصب بمُتولّيها ، والمَعالِىَ بمُعلّيها ، والعُقودَ ليستْ بمن تُحَلّيه بل بمن يُحَلّيها ؛ وأطْيَب البِقاع جنابًا ماطاب أرجًا وثمـارا ، وبُحُر خلالَه كلُّ نَهْرٍ «يروع حَصاه حَالِيَـةَ العَذارَىٰ» ورنّحتْ مَعاطفَ غُصُونه سُلافُ النَّسيم فتراها سُكارَىٰ ، وتمتدُّ ظلال الغُصون فيخال أنّها علىٰ وجَنات الأنْهار عذارا .

ولـمّا كانت دمَشْقُ المحروسة لهـا هـذه الصفات ، وعلىٰ ضَـفّاتها تَهُبُّ نَسماتُ [هذه] السِّمات ، لم يتّصِفْ غيرُها بهذه الصفه ، [ولا اتفق أولو الألباب إلا علىٰ محاسـنها المختلفه] (١) وكان الجنـابُ الكريمُ هو من أعيان الدَّولة وأماثِلِهم ، ووُجُوه رُؤَسائهم وأفاضلهم ؛ وله فى طاعتها آسترسالُ الأمْنِ من سُوء مَواطِن المَخاوف ، ووَصل فى وَلائها القـديمَ بالحديث والتّالدَ بالطّارِف ؛ وتَولّىٰ مُهمّاتِ الخِـدَم فأبانَ فى جميعها عن مَضاءِ عَزْمه ، وكان من حُسْنِ آثاره فيهـا ما شَهَرَ غُفْلَها بوَسْمه ؛ فمن نَاوَاه من أقْرانه أرْبىٰ عليه وزاد ، ومن بَاراه من أنْظاره أنسىٰ ذِكْرَه أوكاد .

فلذلك رُسم بالأمر الشّريف أنْ يستقرَّ فى ولاية مدينة دِمَشْق المحروسة .

فليُباشِرْ هـذه الولاية : عامِلًا بتقوى الله تعالىٰ التى أمَرَ بهـا فى مُحْكَم الكِتاب ، حيثُ يقولُ : ﴿وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ وَآتَّقُونِ يا أُولِى الأَلْبابِ﴾ . ولْيَشْمَلْ كافّةَ الرَّعايا بالحِفْظ والرِّعايه ، ويُجْزِلْ حَظَّهم من الملاحظة والعِنايَه ؛ ولْيُساوِ فى الحَقّ بين ضَعيفهم وقَوِيِّهِم ، وفَقيرِهم وغَنِيِّهم ؛ ولْيُلْزِمْ أتباعَه بحِفْظِ الشوارع والحارات ، وحِراسَتها فى جميع الأزْمِنَة والأوْقات ؛ مع مُواصَلة التَّطْواف كلَّ ليلة بنَفْسه فى أوْفىٰ عِدّه ، وأظْهرِ عُدّه ، مُنْتهيا فى ذلك وفيما يُجاريه إلىٰ مايَشْهد باجتهاده ، ويُعْرِبُ عن سَـدَاده ، ويُعْلَم منه صَوابُ قَصْده وآعْتِماده ، وبَذْلُ مُناصَحَته فى إصْداره وإيراده ؛ واللهُ تعالىٰ يُعِينُه علىٰ ماوَلّاه ، ويَحْفَظُ عليه مانَوّله وأوْلاه ؛ بمنّه وكَرمه .

---

(١) الزيادة مما تقدّم فى الصنف الثالث فى تواقيع أرباب الوظائف فى حاضرة دمشق ليستقيم الكلام .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بنَظَرِ الجامع الأَمويّ، لصاحب سَيْف: كُتِب به فى الدَّولة الظَّاهِرِيَّة «برقوق» لناصر الدين «محمد» ابن الأمير جمال الدين، عبد الله ابن الحاجب، عند مُصَاهَرَته الأمير بطا الدوادار، وهى:

الحمدُ لله الذى قدَّم أعْظَمَ الأُمراءِ لِيَعُمَّ مَواطِنَ الذِّكر بنَظَرِه السَّعيد، وأقام لتَعْظِيم بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ، [أميرا] فى الاكْتساب للأُجور أسْرَعَ من البَرِيد، وأطْرب المَسامِعَ بِسيرَته فى أحْسن مَعْبَدٍ جُلِيَتْ فيه عَرُوسٌ مَهْرُها كتابُ الله تعالىٰ والنُّورُ من زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّة ومَزِيَّة(١) عليه من مكانٍ بَعِيد.

نحمدُه علىٰ أنْ أحلَّ ناصرَ الدين بجَمَاله الأسْنىٰ أشْرفَ المراتب، وبوَّأه المحلَّ الرَّفيعَ الذى بَلَغ به الأُمَّة المحمدية المآرب، وسارَ خبرُ سيرَته فى المشارق والمغارب، وبَلَّغ بمُشارَفَةِ نَظَره السعيدِ الشّاهِدَ والغَائب؛ حمدًا نرفعُه على النَّسر الطائر، ونتمثَّلُ بقول القائل: كَمْ تَرَكَ الأوَّلُ للآخِر؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى خلق العباد لعبادته، وفضَّلَ بعضَ المساجد علىٰ بعضٍ لِمَا سبق فى عِلْمه من إرَادَته؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمّدا خيرَ الخلائق عبدُه ورسولُه الذى سنَّ الجُمعة والجَماعه، وعَمَر المساجِدَ بالرُّكوع والسُّجود إلىٰ قيام السَّاعه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبه الذين اتَّبعُوه فى قيام الليل إلّا قليلا، ولا زَمُوا المساجِدَ بُكْرَةً وأصيلا، وحضُّوا على الجماعة إلىٰ يومِ تَكُونُ الجبالُ فيه كَثِيبًا مَهِيلا؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا.

وبعدُ، فلمَّا كان جامعُ دِمَشْقَ المحروسةِ رابِعَ المساجد، ومَوْطِنَ كلِّ راكعٍ وساجد؛ وتَقْصِدُه الأُمَمُ من الأقطار، ولم يَخْلُ من العبادة فى اللَّيل والنهار، ورَواتِبُ حُكَّام الشريعة عليه، والعُلَماءُ الأعْلام تَبُثُّ فيه العلومَ وتَأْوِى إليه؛ وغالبُ المساجد

(١) فى الاصل «ومزية» ولم نفهم معناه.

إلىٰ سِمَاط وقْفه مُضافَه، وخَطابَتُـه تُضاهِى مَرْتبـةَ الخلافه ؛ وهو أجلُّ عجائب الدُّنيا التى وُضِعت علىٰ غير مِثال، وبه يَفْتخِرُ أهلُ الهُدىٰ علىٰ أهلِ الضَّلال ـ تَعيَّن أنْ يكونَ الناظِرُ فى أمْرِه مَن عَظُم قَدْرا، وطاب ذِكْرا ؛ وفَتح لوَقْفه بابَ الزِّيادَة علىٰ مُضِىِّ الساعات، وجَمع أمْوالَه بعـد الشَّتات ؛ ووصَل الحُقُوقَ لأربابِهـا الذين كأنَّهم جَرادٌ منْتَشِر، ولم يُضِعْ من ماله مثْقالَ حَبَّـةٍ ومن قال : إنَّه صدَقةٌ فيومُه يومٌ عَسِر ؛ وعمّ جميعَ المساجد المضافةِ إليـه بالفَرْش والتَّنْوير، وبَدَأ الأئمَّـة والمُؤَذِّنين والخَدَمةَ بعد العمارة على الكبير والصَّغير .

وكان الجنابُ الكريم ـ ضاعف الله تعالىٰ نِعْمَته ـ هو الذى يقوم فى هذا الأمرِ أحسن مَقام، ويَصْلُحُ له فى مَصْلَحَته الكَلام .

رُسِم بالأمر العالى، المَوْلَوِىِّ، السُّلْطانِىِّ، المَلَكِىِّ، الظَّاهِرِىِّ، السَّيْفِىِّ ـ لازال هـذا الدِّين القَيِّمُ قائمًا بحُمَّدِه ، والمساجِدُ المعمورةُ [معمورةً] بإكرام مسْجِده ـ أنْ يستقرَّ الجنابُ الناصِرىُّ المشار إليه فى النَّظر السعيدِ على الجامع الأُمَوِىِّ المعمور بذِكْر الله تعالىٰ، وأوْقافه المبرورة ، علىٰ أجْملِ العوائد ، وأكْمل القواعد ؛ بالمعـلومِ الشاهِد به ديوانُ الوقْف المبرور، إلىٰ آخر وقت .

فلْيُباشِرْ ذلك : لِمَـا يُعْرفُ من فِعالِه الحَسَـنَه، وخِبْرته التى نَطقَتْ بها من المحابِر الأفْواهُ ومن الأقْلام الألْسِنَه ؛ ولِمَـا حازه من فَضيلتَىِ السَّيْف والقَلَم ، وأعمالٍ التى بَدَتْ للمُهْتدى بها كنُورٍ لا نارٍ علىٰ عَلَم ؛ ولْيُعَمِّرْ مادَثَر من الأوقاف ولْيُوصِّل الحقُوقَ إلىٰ أرْبابها ، ولْيَـدْفَع الأموالَ إلىٰ مَن هو أوْلىٰ بهـا ؛ ويَكُفَّ كَفَّ الظُّلْم ولْيُبلِّغ المستَحِقَّ المآرِب ، وليُحْجُبِ الخَوَنَةَ عن التَّوصُّـلِ إلىٰ مثْقال ذَرَّةٍ بجِدِّه فهو بَحَدِّه حاجِب ؛ ولْيَبْـدَأ بالعمارة والفَرْش والتَّنْوير فى جميـع الأوقات ، وأرْباب الصَّـلاة

والصِّلات . والوَصايا كثيرةٌ وهو بها أدْرَى، وتقوى الله عزّ وجلّ مِلاكُها ولا زال يُفِيدُها كما يُعلّمُ الشّجاعَةَ زيدًا وعَمْرا، والله تعالى يجعَلُه أبدًا للدّين ناصرا، ويُصْلِحُ عمَله أوّلا وآخرا ، والاعتماد فى معناه، على الخطّ الكريم أعلاه .

المرتبـــة الثـانية

(ما يُفتتح بـ«أما بعـــدَ حمدِ الله » وفيها وظائف)

وهذه نسخة توقيع ... ... الزكاة(1)، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة، وهى:

أمّا بعدَ حمدِ الله مُسْعِدِ من زَكّاه عَمَلُه، ووَفّاه وعْدَ الخيرِ أمَلُه ، ومُصْعِدِ من وَفّتْ فى تدبير الوظائف تَفاصيلُ أمْرِه ووَفُرَتْ فى تثمير الأموال جُمَلُه ؛ والصّلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه الذى أمَرنا بالصّلاة والزّكاه، وشفَى جانبَ الدّين القَيّم من الشّكاه، وعلى آله وصَحْبِه الذين سارَ على نَهْجِه القَويم سائِرُهم، وتزكّى ـ وإنّما يتزكّى لنفسه ـ مُنْجِدُهم وغائرُهم ـ فإنّ أحقّ الوظائف أنْ يُنـدَبَ لحمايتها الحُسام، ويَترتّبَ لكفايتها من تحلّت بالمحامد شِيَمُه الجِسام ـ وَظيفةُ الزّكاة التى وصلت سبب مكانها بإمكانها، وبُنيتْ شريعة الإسلام على أحدِ أركانها، ومُدِحَت المملكةُ بمعالِى البِرّ والإحسان المُنَظّمَة من دِيوانها .

ولمـا كان فلانٌ ممّن زكَتْ صِـفاتُه ، وسَمَتْ بالجميـل سِماتُه ، ووَضَحتْ كَفاءَتُه ودرايتُه، وصَلَحتْ حِمايَتُه الحُساميّة ووقايَتُه ، وكان اليُمْنُ فى قَبضة مَضائِه، وتَجْريدِه وانْتِضائه ، وكان نُفُوذ أمْرِه واقفًا عند حدّه واقعًا على وَفْقِ ارْتِضائه ـ تعيّن أنْ يُوصَلَ سَبَبُ الشّدّ بأسْبابِه، ويُرْجَعَ إليه فى الزكاة المستحَقّ نِصابُها حتّى يقال : رَجَعَ الحقّ بالحُسام إلى نِصابِه .

(1) بياض بالأصل ولعله : بتولية وظيفة الزكاة الخ .

فلذلك رُسِمَ أن يرتب ... ... عِلْمًا بأنّه الكافِى الذى إذا شَدّ سَدّ، وإذا قصر رَأْيه علىٰ الصُّنْع الجميل مَدّ، والخبيرُ الذى إذا جمع مالًا وعَدّده كان مَشْكُورا، وإذا فَرَّقه فى مُسْتَحِقّيه كان خِلافَ الغَيْرِ بالخَيْرِ مَذْكُورا؛ والنَّاهِضُ الذى ما تبرّم بمَضايِقِ المُهِمّات ولا شَكاها، والمَهِيبُ الذى قد أمَّن مَن سار بالبضاعة إليه وقد أفْلَح من زَكّاها .

فلْيستَقِرّ فى هذه الجهة آستقرارًا يَزِيدُ مكانه وإمْكانه، ويُثَمِّرُ عمله وديوانه، ولْيُوَصِّلْ كلّ ذى حقّ إلىٰ حَقّه فإنّما بُسِطتْ أيْدِى وُلاةِ الأُمورِ ليَبْسُطَ عَدْلَه مُتولّيها وإحْسانَه . وتقوى الله تعالىٰ هى العُمْدة : فلْيُحَقِّقْ باعتمادها فيه ظُنونَ الرّاجين، ولْيَسْتَعِنْ بها علىٰ رِضا المستنْهِضين له وعلىٰ رِضا المحتاجين، والله تعالىٰ يُلْهِمُه الخير فى ذَوِى الصادِرِ والوَارِدِ حتّى يكونُوا إلىٰ خيرِ «لاچين» خيرَ لاجين .

✦✦✦

وهذه نسخةُ توقيعٍ بشَدّ الحوطات بدِمَشْق . كُتب به لشَرف الدين يحيى بن العفيف، [باجرائه] علىٰ عادته، وحمله علىٰ مابيده من التَّوْقيع الشَّريف، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى سهّل الخيْراتِ بأسْبابها، وأقرّ فى الوظائف السَّنية كُفاةَ أرْبابِها، وكَّلَ أدواتٍ من حنّكتْه التَّجارِبُ فى المُباشرات حتّى دخل المَناصبَ العَلِيّةَ من أبوابها؛ والصلاةِ والسلامِ الأتمّين الأكْمَلين علىٰ سيدنا محمد الذى جاء برشد الشريعة وصَوابِها، وعَرّف بحسْنِ الصَّنِيعة وثوابِها؛ وعلىٰ آله وصَحْبه وعِتْرته الطاهرين ــ فإنّ أوْلىٰ من لَفَتْنا إليه جِيدَ الإحْسان، وألْقَينا إليه طَرَفَ التَّكْرِيم فبلغ الأمانِىّ والأمان، ولَحَظْناه بعَيْنِ عِنايَتِنا فنال من فَضْلِنا ما أخْجل الغَيْثَ الهَتّان، ومَنَحْناه من بِرّنا ما شَرح له صَدْرا، وآستَصْحَبْنا له ما ألِفه من كَرَمِنا وجعلْنا له بعد

عُسْرٍ يُسْرا، وأيْقَظْنا حَظَّه وقد كاد أن يَغْفَى، وأطْلَعْنا كوكَبَ سَعْدِه بعد أن كاد يَخْفَى — من ألِفَتْ مُهِمّاتُنا منه الهِمَمَ العَلِيَّه، وسلك بين أيدينا المَسالكَ المَرْضِيَّة، وأُتْمِنَ على أموال الحَوْطات الدِّيوانية فنَمَتْ بحُسْنِ أمانَتِه، وشكرتِ الدولةُ جميلَ تَدْبيره ودِرايَتِه .

وكان المجلس العالى فلانٌ — أدام الله عِزَّه — هو الذى أخْبَر عنه الوَصْفُ بما أثْبته العِيان ، وأظْهر الاخْتبارُ منه حُسْنَ السِّيرَة والسَّريرة والسَّجايا الحِسان .

فلذلك رُسم بالأمر العالى — أعْلاه الله تعالى ، وضاعف إحْسانَه على أهلِ الهِمَم ووَالَى — أنْ يَستمرَّ المشارُ إليه فى شَدِّ الحَوْطات الديوانية بِدمَشْق المحروسة، على عادته، ومُسْتقِرِّ قاعدته، وحَمْله على مابيده من التَّوقيع الشريف المسْتَمِرِّ حُكْمُه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ على أجْمل عوائده، ولْيعُدْ إليها على أكْمل قَواعده ؛ إلّا أنَّ التَّذْكِرة بتَقْوَى الله تعالى لابُدَّ من اقْتباس ضِياها، والتَّنبيه على سُلوك سبيل هُداها ؛ فلْتكُنْ قاعِدةَ أمله ، وخاتِمةَ عَمَلِه . والاعْتمادُ فى معناه ، على الخطِّ الكريم أعلاه ؛ إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة

(من تواقيع وظائف أرباب السُّيوف بِدمَشْق — ما يُفْتتح بـ«رُسِم بالأمْر العالى» وفيه وظائف)

وهذه نسخُ تواقيعَ من ذلك :

نسخةُ تَوْقيعٍ بشَدِّ مراكز البريد ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب بها لمن لقبه «بدر الدين» فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وهى :

رُسم بالأمر العالى ـ لا زالت البُرُدُ سائرةً بأوامر عدله المديد، وهوامرِ جُوده المجيد، وسوائر الأخبار عن بأسه ونداه المروىّ سندُهما عن ثابتٍ ويزيد، ولا برحت جوامعُ عطاياه وقضاياه: هذه فاتحةً لمصالح الآمال بابَ الزيادة وهذه فاتحةً لمصالح الإسلام بابَ البريد ـ أن يستقرّ المجلس على عادته الأولى، وقاعدته التى ما برحت قدمُ مساعيه فيها المقدّمةَ ويدُ أماناته الطُّولى؛ علمًا بكفاءته التى شهدتْ بها حتّى الخيل الماثلاتُ خُرسا فأفصحتْ، المواصلاتُ سَعْيًا فأنجحتْ، المُورياتُ قدحًا إلا أنّ ألسنةَ الأحوالِ فى شهادتها ماقدحتْ، المُغيراتُ على السُّرى صُبْحًا مادار عليها شفقُ العشىّ فاغتبقتْ، حتّى دار عليها شفقُ الفجر فاصطبحتْ. ومراكزُ الطُّرق التى حمتْها مهابتُه فكأنّها مراكزُ الأسَل، ومراكضُ السُّبل، كلُّ وادٍ منها وما حمل وكل حدَبٍ وما نَسَل؛ واعتمادًا على سَدادِ عزمه الذى وافق خُبْرُه الخبرَ، ورشادِ سعيه الذى كلُّ أوقاته من وُجوه الإجادة ووُجُوهُ الجيادِ غُرَر؛ وركُونًا إلى أنّه الكافى فيما يعتمدُه ويراه، السّارى فى المهمّات لايَمَلُّ وهيهاتَ أنْ يَمَلَّ البَدْرُ من سُراه؛ كَمْ أعان الإسلامَ على ما اتّخذه من قوّةٍ ومن رباطِ الخَيْل، وكَمْ جاد على الجياد على الغيث(١) حتّى سارتْ بين يديه كالسَّيْل، وكم حفظ عليها قُوتَها وقُوّتَها فبعدَ ما كانت تموتُ بالعَدَد صارت تعيشُ بالكَيْل.

فليباشرْ ما عُوِّل فيه عليه، وأُعيد من حقّه وإن كان خرج عنه إليه، وليُطلقْ يدَ أمره ونهيه بما يسرّه أنْ يُقدّمه بين يديه؛ حريصًا على أنْ تَنْطق هذه الدّوابُّ الخُرْسُ غدًا بثنائه، مُجْريا لقوائمها وللإقامة بها على عادة إجرائه؛ متخيرًا لها كلَّ حسنِ الإمْرة والسِّياسة عند رحيلها وقُدُومها، ومن إذا عُرضتْ عليه بالعشىّ الصّافناتُ الجيادُ طفق مَسْحًا ولكنْ بإماطة الأذىٰ عن جُسُومها؛ مُوسّعًا عليها من

(١) لعله زائد من قلم الناسخ.

المبانى والأحوال كلَّ مَضيق، آمِرًا بما يحتاج إليه نوْعُها البديعُ من صِناعَتَىْ تَرشيح وتَطْبيق؛ مُسْتأمِنًا من الأيْدى من يردُّ عنها الأيادِىَ الضَّائمه، ومن يُساوى بينها فى الأقوات حتَّى لا تكونَ كما قال الأوَّلُ: «خَيْلٌ صِيامٌ وخَيْلٌ غيرُ صائمه»؛ مُتحرِّيًا فى تَكْفيتها أجْمل الطُّرق والطَّرائق، مُسْتَجْلِبًا صُنوف العليق فلا تَنْقطع من برِّه العلائق؛ واللهُ تعالىٰ يمدُّه بعَوْنه ورَشَده، ويجعلُ عَزْمه سابِقًا إلى التوفيق «سَبْق الجَوادِ إذا ٱسْتَولىٰ علىٰ أمَده»؛ بمنّه وكرمه.

✣

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنقابة النُّقباء، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا، كُتِب بها لشهاب الدين «بولاق» عوضا عن أبيه، فى سنة أربع وثمانمائة، وهى:

رُسم بالأمر العالى ـ لازال بإنْعامِه يُسْفِرُ عن وَجْهِ الأملِ نِقابَه، ويَحْفَظُ لكافى الخدْمة أعْقابَه، ويلوى بٱستمرار النِّعم أدْوارَ الزَّمان وأحْقابَه، ويُطْلِعُ فى آفاق دَوْلَته شهابَ كلِّ عَزْمٍ تحمَدُ عساكِرُه المنصورةُ ٱرْتقاءَه وٱرْتقابَه ـ أن يرتَّب المجلس السامى، الأمير: ... ... علمًا بأوصافه الحَسَنه، وأوْضاعِه التى لا يحتاجُ الحكْمُ بفَضْلها إلىٰ إقامة بَيِّنه، وكَفاءَته التى تَنْطق بها ألْسنةُ الأحوال المُؤْمِنة وقُلوبُ العَساكِر المُؤْمنه، وهِمَّته التى إذا وَقَفَت المواقفُ علىٰ الأعْداءِ عرَّفَتْه أصحابَ المَيْمنة ما أصْحابُ المَيْمَنه، وتَصْديقًا لدلالة عَزْمه الوَاعد، وتحْقيقًا لحماية شِهابِه الوَاقِد، ورُكونًا إلىٰ قيامه مَقام أبيه رحمه الله فى الخِدْمة حتَّىٰ كأن لم يَفْقِدْه من الجَيْش فاقِد؛ وأنَّه لدرجات الٱستحقاق رَاقِى، وأنَّه العِوَضُ عن أبٍ لاقىٰ مَنِيَّته وكلُّ ٱمرئٍ لاقِى المَنِيَّة وٱبْنُ لاقِى؛ وأنَّه كُفْءُ هذه المنزلة كما حكم الرأْىُ وٱقْتضىٰ، وكما شَهِد(؟) لغرّته بغُرَرِ الفوائد وكيف لا وهو ٱبن النَّقيب المُرْتَضىٰ!.

فليتلقّ بشهابه المضيء هذا المطلعَ الأسنى، وليقم في هذه الوظيفة على قدم الخدمة صورةً ومعنى، مقدَّمًا على النقباء تقديم إمامهم، معلّمًا لجند الإسلام معلوم مقامهم، مالئًا بإتقان معرفة الحلى سمع من استملاه، محظيًا للجندى معينًا له على حصول الخير حتى يشكره شكر من أطعمه وحلّاه، ناظمًا للمواكب عقد مجتمعها الثمين، مصاحبًا لها صحبةً يثنى بها عليه وحسبه أن يكون من أصحاب اليمين، مرتّبًا لها أحسن ترتيب، منقّبًا عن محاسن تجمّلها : فإنّ اسم النقيب مشتقّ من التنقيب . وليكاثر حملةَ السيوف فإنّه حاملُ سيفٍ وعصا، وإنّه بهذه مخلّص حقوق من أطاع وبهذا موبقُ نفس من عصى ؛ وليحرص على أن يقوم بوعد الاجتهاد المنجز، وعلى أن يكون سيفَ تحريض على حرَجى الأعداء مجهز ، وعلى أن يحصل في مواطن الجهاد على الأجرين : أجر المقاتل وأجر المجهّز، والله تعالى يحمد في الخير طرائقه، ويؤيّد عزمه الجيشىّ حتى تلهج بشكره ألسنة الأعلام الخافقه، والاعتماد ... .

✢

وهذه نسخة توقيع بشدّ خزائن السلاح، من إنشاء ابن نباتة أيضا، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ــ لا زالت أسنّة نجوم السّعد من سلاحه، وصواعقها من أعوان صفاحه، وسماكُها الرّامح من أنصار رماحه، ولا برح يُعمل معادنَ الأرض حتّى يفنى ذهبها وحديدُها على يدى بأسه وسماحه ــ أن يرتّب ... ... لأنّه الناهض الذى تتزيّنُ الوظائف بسمته وباسمه ، وتتعيّنُ المصالحُ والمناجح بعزمه وحزمه ؛ والمسدّدُ من آرائه سهاما، والمجرّدُ من اهتمامه كلّ ماضى الحدّ إذا كان بعض الاهتمام كهاما؛ والوفىّ فى شدّ الجهات قولًا وعملا، والملىّ بحمل السلاح واستعماله على رغم القائل : «أصبحتُ لا أحملُ السّلاحَ ولا» ؛ والخبيرُ بمحاسن الاقتراح، والكافى ولا

عَجَبَ إذا سَلَّمت له ذَوُو الوظائف وألقت عليه السلاح ! ؛ ذُو العَزْم الأشدّ، والرَّأْيِ الأَسَدّ ، والذَّكىّ الذى إذا تَناولَ بعضَ الأَسْلحة وٱنتسبت شَجاعَتُـه رأيتَ القَوْس فى يَدِ عُطارِدٍ فى بَيْتِ الأسد .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ المُبـاركةَ بعزْمٍ أقطعَ من حُسام، وأمانةٍ أقْومَ من أَلِفٍ وصِيانةٍ أحْصَنَ من لَام؛ مُعْتبِرًا لأحوالهـا، مُقرِّرًا لمطالب مآلها من مالهـا؛ مُوَفِّرًا من أَسْلحتها التى تتوفَّر بها من الخَيْرِ سِهامُه، مُنْصِفًا لصُنَّاعها الذين يُحْمَدُ عند ٱستعمالهم صَنِيعُه وٱهْتِمامُه، مُكثِرًا لخزائنها من ذخائر العُدَد ، مُجهِّزًا لجيوش الإسلام من مادّة عَمَلِها بأنفع مَدَد : من قِسِىّ تقضى أهلها بقَطْع أعمـار العدا ، وسُيوفٍ صَقِيلَةٍ إذا نادَتْ دِيارُ النّاكثين أجابت النـدا ، ودُرُوعٍ تموّجت غُدْرانُها إلا أنها فى مَهالكِ الحرب لا تَغُور ، ورِماحٍ ٱطَّردَتْ كُعُوبُها فكلُّها علىٰ عَدوّ الإسـلام كَعْبٌ مدوّر ؛ إلىٰ غير ذلك ممـا يدُلّ علىٰ عَزْمِه الحميـد، ويَقْضى للنِّعمة عليه بالمَزِيد ؛ والله تعالىٰ يثَقِّفُ عَزْمه ، ويُوفِّرُ من السِّلاح والنَّجاح سَهْمَه .

✦

وهذه نسخةُ تَوقيعٍ بشَدّ الجَوالى، من إنشاء ابن نُباتة أيضا، وهى :

رسم بالأمر الشريف ــ لا زالَتْ سُعودُ أوامِرِه واضحةَ الأدلَّه ، نافذةَ الحُكم علىٰ كلِّ مِلّه ، قائمةً لخصبِ البِلاد بالعَدْل مَقام السُّحب المُسْتَهِلَّه ــ أن يرتَّب فلانٌ فى شَدّ الجوالى بدِمَشْق المحروسةِ : لمـا ظَهر من نَجابَتِه ، وٱشْتهر من حَزْمِه ومَهابتِه ، وبَدا من هِمَمِه العَوالى، وعَزائِمِه التى تَجْلُو صَـدأَ الهَمّ بالجوالى، وإذا قيل لحاسده : له ولأبِيه إمْرَةُ الخَيْل قال : والجَوىٰ لى، وأنّه الكَافى الذى إذا ٱسْتُنْهِضَ كانت عَزائمُه شَبابَه، ونَفَحاتُ ذِكْرِه الجميلِ هَبابَه ، ونَجْلُ الهُمامِ الذى أشهد على كَفاءَتِه النَّهارَ وعلى

تَعَبُّدِه اللَّيل ، وأعدّ لمصالح الإسلام ما ٱستطاعَ من قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ؛ وأنَّ مَرْباه جَميل ، ومَنْشَاه فى منازل الخير دَليل .

فَلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ بعَزْمٍ يُثَمِّر مالها ، ويقرِّرُ على السَّداد أحْوالها ؛ ويَسْتَخلِصُ الحقَّ من أهلِ الاعتقاد الباطل ، ويَسْتَخرِجُ الوَفْر من أهْل الجَلَد المَاطل ؛ فلا نَصْرانِىَّ إلَّا وهو يتضرَّع تحت الزُّرْقاء من بَاسِه ، ولا يَهُودِىَّ إلا وهو يشْكُو الصَّفْراء فى رَاسِه ، ولا سَامِرِىَّ إلَّا والنارُ الحَمْراءُ مُطِلَّةٌ علىٰ أنْفاسِه ، حتَّىٰ تكون أوْصافُ شدِّه مَتْلُوه ، وعَزائمُه فى الجَوالى مَجْلُوه ؛ وهِمَمُه جاريةٌ علىٰ إيلافها ومأْلُوفِها ، مُجَزِّئَةٌ لأقْلام الحساب والدَّراهم علىٰ حُرُوفها ؛ صَحِيحةَ الوَزْن غير مَنْهُوك ، آخِذَةَ الدِّينار من وَازِنِه وهو كالمَأْخُوذِ منه مَصْكُوك ؛ شَدًّا تنعقِدُ علىٰ ٱختياره الخناصِر ، وكما أنَّ للإسلام منه قُوَّةً فليكُنْ للوظائف الدينية منه ناصر .

الضـــرب الثانى

(ممن يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب السيوف ـ من هو بأعمال دمشق ، ومَواضِعُهم علىٰ ثلاثِ مراتبَ أيضا)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يُفتتح بـ«الحمـدُ لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ تَوْقيع بنيابة بَعْلَبَكَّ كُتب بها لركن الدين «عمر بن الطحان» وهى :

الحمدُ لله الذى جَمَّلَ بمحاسِن زَيْنِه من ٱستحقَّ الصُّعودَ إلىٰ أعْلَى المنازل ، وجَعل نَجْمَ سَعْده بارتقائه إلىٰ سماء المناصب طالِعًا غير آفِل ، وصانَ بعَقْلِه الراجِحِ أحْصنَ المَعاقل .

نحمده على إحسانه الواصل ، وغيث جوده الذى هو على الدوام هاطل ، حمدًا ينطق بمدح معدلته كلّ لسانٍ قائل ، ويزيد خيره على كلّ عامٍ قابل ؛ ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له الذى ألحق جيادَ الأواخر بالأوائل ، وجعل أجمل الأمراء يفوق البدورَ الكوامل ؛ ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى جعله لديه أعظم الوسائل ، وتلازم هو وجبريل فى علوّ المنازل ، والتقدّم فى المحافل ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه سادات العشائر والقبائل ، والمجاهدين فى سبيل الله بالبيض البواتر والسُّمْر الذّوابل ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فلمّا كانت بعلبكّ المحروسة من أعزّ بلاد الإسلام ، وأبهج مُدُن الشام — تعيّن أن نعيّن لها حاكمًا دينًا خبيرا ، أمينًا أميرا ، شجاعًا مُهتابا[(١)] ، بطلًا برمحه وسيفه فى صدور الأعداء ورقابهم طعّانًا ضرّابا ؛ وكان الجنابُ الكريم فلان : — ضاعف الله تعالى نعمته ، وحرس من الغِيَر مُهْجته — من بيتٍ كان على التقوى أساسه ، وعُدّت لدفع المعضلات أناسه ، واشتهرت همّتهم فلا يُردّ لهم سهمٌ ولا يُطاق باسه ؛ طالما نفوا عن الدّين الحنيفى خبثَ الكفر بعد ما تمكنت أدناسه ، وشمّروا عن ساعد الاجتهاد فمحى بسيوفهم ضلالُ الشرك وأرجاسه ؛ وهو أعزّه الله تعالى ممّن نجّى بشجاعته ، حُلوقَ الكتائب ، ووفّى بعدله وحُسْن سياسته ، حقوقَ المناصب ؛ وقام فى خدمة الدّولة الشريفة أحسن قيام ، وهذّبته بمرورها اللّيالى والأيام ؛ وتأهّل لحلول الرتب العليّه ، وتعين لارتقاء المراتب السنيّه ؛ فأردنا أن نختبره فيما نولّيه ، ونخبُر عزمه فيما نوليه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى — لا زال أمره مستمرّ الإحسان ، مجزلًا لذوى الاستحقاق عوارفَ النّعم الحسان — أن يستقرّ الجنابُ الكريمُ المشار إليه — ضاعف

(١) فى الأصل «مهابا» ولم يجئ من هذه المادة فعل رباعىّ بهذا المعنى بل الوارد هابه واهتابه .

اللهُ تعالىٰ نِعْمتَه ــ فى نيابة السَّلطنة الشريفة ببعلَبَكَّ المحروسة والبِقاعين المعمورَيْن، علىٰ عادة من تَقدّمه فى ذلك ، ومُسْتَقَرِّ قاعدته ، بالمعلوم الذى يشهدُ به الديوان المعمورُ، إلى آخر وَقْتِ .

فلْيباشِرْ هذه النيابةَ الشريفةَ بخاطرٍ مُنْفَسِح حاضر،وقلبٍ مُنْشَرِح على الخيْرات مُثابِر، ولْيَتَّخِذِ الشرعَ الشريفَ إماما ، ولْيَتوخَّ أوامِرَه ونَواهيَه نَقْضًا وإبْراما ، وليقفْ عند حُدوده المشروعه ، ولا يتَعدَّها ومن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فيَدُه من الإيمان مَنْزُوعَه ، ولْيُلِنْ جانبَه للرَّعيَّه ، ولْيَحْمِلْهم من العَدْل والإنصاف على المَحَجَّة الواضِحَة الجَلِيَّه ، فإنَّهم الرعية الضعفاء(١) الصالحون الذين أنعم اللهُ عليهم بتَفْويض أمورهم إليه ، ولْيعرِّفْهم قولَ النبي صلَّى الله عليه وسلم : « اللّهُمَّ من وَلِيَ من [أمور](٢) أُمّتي شيئًا فرفَقَ بهم فَارْفُقْ به ومن شَقَّ عليهم فَاشْقُقْ عليه» ؛ وليعَمِّر البلاد، وليقْمَع أهلَ الفساد، وليمَهِّدْ البِقاع ، ولْيُحْيِ مواتَ الضِّياع ، ولْيُقِمْ على القَلْعة المنصورة الحَرَس ، ولا يغْفُلْ عن حِفْظِها بمعرفته التى أكَّدتْ له من السَّعادة سَبَبا ، واللهُ تعالىٰ يبلِّغه من إحساننا أرَبا ، ويُنْجِحُ له من فَضْلنا طَلَبا ، ويَحرُسُه بسورتَيْ فاطِرٍ وسَبا ؛ والاعتمادُ فى معناه، على الخط الكريم أعلاه .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ تَوْقيع بكَشْف البلاد القبلية ، كُتب به لغَرْس الدين خليل الناصرى فى الدولة الظاهرية «برقوق» وهى :

الحمْدُ لله الذى جرَّد من أوْلياءِ هذه الدَّولة الشَّريفة سُيوفًا تَحْسِمُ موادَّ الفَساد ، وتُبيدُ أهلَ الزَّيْغ والعِناد ، وتَعُمُّ ببأْسِها و بعَدْلها البِلاد . حمدًا مستمرًّا على الآباد ،

(١) فى الأصل : العلماء ، والتصحيح من الرسالة الآتية بعد .

(٢) الزيادة من الرسالة الآتية بعد .

مُزَوِّدًا غَرْسَها النافعَ ونعمِ الزَّاد ، ونشهدُ أنْ لَا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له رَبُّ العِباد، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بما كسَبَتْ والمُجازِى لها بما عَمِلَتْ يوم يَقُوم الأشْهاد، ونَشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمَّدًا خيرَ الخلائقِ عبدُه ورسولُه الذى بلَّغه فى الدنيا والآخرة أقصى المُراد، وفَضَّلَه على الخلائق : الآلافِ والمِئِينَ والعَشَراتِ والآحاد، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فتَحُوا البلاد، بسيوفهم الحِداد ، ومَزَّقَتْ رِماحُهم من مُخالِفِى دينهِم القَويم القُلوبَ والأكْباد، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم التَّناد .

وبعدُ ، فلمَّا كانت المملكةُ القِبْلِيَّةُ جُلَّ البلادِ الشاميه ، وبها أرْزاقُ العساكرِ الإسلاميه ، وطَرِيقَ الحاجِّ إلىٰ بَيْت اللهِ الحَرام ، وزِيارةِ نَبِيِّه عليه أفضلُ الصَّلاة والسلام ، وإلى الأرْضِ المُقَدَّسه ، التى هى على الخَيْراتِ مُؤسَّسَه ، وإلى الأبْواب الشريفة السلطانيه ، ومَمَرَّ التُّجَّار قاصِدِين الدِّيارَ المِصْرِيَّةَ ، ومَنازِلَ العُرْبان ، ومَواطِن العشران (١) ـ وجب أن يُفَوَّضَ حُكْمُها إلىٰ من عُرِف بالشَّهامَة والشجاعه ، واليَقَظَة التى لا يَغْفُلُ بها عن مَصْلَحة المُسْلمين ساعَه ، من أثْمر غَرْسُه وما يَفوه ، وأيْنَع بالمُروءَة والفُتُوَّه ، وتقدَّم فى الكمال علىٰ زَيْدٍ وعَمْرو ، وأضْرَمَ فى قُلوب الأعداء نارًا أحَرَّ من الجَمْر .

وكان الجنابُ الكريمُ ـ أدام اللهُ نِعْمته ـ هو المشهورَ بهذه الصِّفات ، والمَنْعوتَ بالشَّجاعَةِ والإقْدامِ وحُسْنِ الأدَوات .

فلذلك رُسِم بالأمْر العالى ـ لا زَال إحْسانُه يُثْمِرُ غَرْسا ، وجُودُه يَسُرُّ نَفْسا ـ أنْ يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه فى كَشْف البِلاد القِبْلِيَّة المحروسةِ على مِنْوال من تَقَدَّمه وعادَته ، وحُدوده فى ذلك ومُسْتقرِّ قاعدَته .

(١) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة ولعله ارتكب القياس فى اللغة بجعله كرغيف ورغفان وقطيع وقطعان .

فليباشر ذلك بهمّته العليّه، وشجاعته الأحزميّه، ونفسه الأبيّـه، وليبيّض وجهه في هـذه النّوبة حتّى يطرب الناس بالنّوبة الخليليّه، وليعدل في الكبير والصـغير، وليقمع رءوس عشـير اتخذوا رأسهم مولىً : فلبئس المولىٰ ولبئس العشير، وليدفع أذىٰ العرب، وليحذّرهم شرًّا اقترب، وليكثر الركوب إلى المعـاملات، ولا يخش من كثرة الحركات، وليعلم أنّ كلّ ما هو آتٍ آت، وليتخذ الشّرع الشريف إماما، وليتوخّ أوامره ونواهيه نقضًا و إبراما، وليقف عند حدوده المشروعه، ولا يتعدّها : ومن يتعدّ حدود الله فيدُه من الإيمـان منزوعه، وليلن جانبه للرّعيّه، وليحملهم من العـدل والإنصاف على المحجّة الواضحة الجليّه، فإنّهم الرعيّة الضّعفاء الذين أنعم الله عليهم بتفويض أمورهم إليه، وليعتمد قول النبيّ صلّى الله عليه وسلم : « اللّهمّ من ولى من أمور أمّتي شيئًا فرفق بهم فارفق به ومن شقّ عليهم فاشقق عليه » ؛ والوصايا كثيرةٌ وتقوى الله عزّ وجلّ نظامُها وقوامها، واتّبـاعُ سُنّة نبيّه سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلّم قيادُها وزمامُها ، والاعتمادُ في معناه ، على الخطّ الكريم أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بكشف الرّملة، كُتب به لأبي بكر «أمير علم» ، في الدولة الظاهرية «برقوق» وهي :

الحمدُ لله الذي قلّد أجياد المجاهدين، سـيف نصره ، وأكّد بعزائم أهل اليقين ، حماية حوزة الإسلام وصيانة ثغره؛ وجعل ألسنة أسنّة المرابطين في فم الثغر زينًا إذا ازدان بغرّة بدره، وأنزل بأعداء الدّين قوادح نقمه وقوارع قهره .

أحمده أن حمىٰ بأولي النّجدة والبأس للسلمين حمىٰ، وأشكره على ما همع من صيّب نعمائه وهمىٰ ؛ وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً أتخذها عنـد الله

ذُخرا ، وأرْجو بهـا فى العُقْبىٰ أجْرا ، وأشهدُ أنَّ محمَّدا عبـدُه ورسولُه الذى آيدَ يَدَه بالسَّيف وأمدَّه أيدا ، وعلىٰ آله الذين حَلَّوْا بهم للإسلام جِيدا ، وصَحْبِـه الذين جَلَا ببَوارِق صِفاحِهم ، وخوارِق رِماحِهم ، غُمَمَ المجال ، وغَمَم القتـال ، فلم يُهمِل الأعداءَ ولم يُمْهِلْهم رُوَيْدا .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ مَن جُعِل فى نَحْر البَحْر هُماماً صارِمْ[١] ، وأشدَّ من قاطع أعداء الدين وصارَمْ ، من تُضرَبُ بشجاعته الأمثـال ، ويُورِدُ فى صـدور الأبْطال صُمَّ الأَسَل النِّهال ، ويَحْمِى حِمَى الثَّغر فلا يَدَعُ عدوًّا ولا يَرْهَبُ نَهْبا ، ويَرْقىٰ رِقابَ الكُفْر فيُؤْمنون وإن كان وراءَهم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ سَفِينة غَصْبا .

ولمـا كان الجناب الكريم فلانٌ ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمته ـ هو الذى أخلص فى الطّاعه ، ونصح سُلْطانَه حسب الطاقة والاسْتِطاعه ـ رُسِم بالأمر الشريف العالى ـ لازال سيفُ عدله ماضيا ، وكُلٌّ بحُكْمه راضيا ـ أن يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه كاشفًا بالرَّملة المعمورة ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك .

فلْيُباشِرْ ذلك مُعَمِّرًا تلك البـلادَ بعَدْلِه ، مُجتهدًا علىٰ إيصال الحقِّ إلىٰ أهـله ؛ وليتخذِ الشَّرعَ الشريفَ إماما ، ولْيَتَوخَّ أوامِرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبْراما ؛ ولْيقِفْ عند حدوده المشروعه ، ولا يتعدَّها : ومن يتعَدَّ حُدودَ الله فيدُه من بِرِّ الإيمان منْزُوعه ؛ ولْيُلِنْ جانبَه للرَّعيّـه ، وليحملهم من العَدْل والإنصاف على المَحجّة الواضحة الجليّه ؛ [فإنَّهم الرعيةُ الضُّعفاء الذين أنْعم اللهُ عليهم بتَفْويض أُمورهم إليه][٢] ولْيعتمدْ فيهم قولَ النَّبى صلَّى الله عليه وسـلم : «اللّهمَّ من وَلِىَ من أُمورِ أُمتى شيئًا فرَفَق بِهم فَارْفُق به ومن شَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليـه» . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التَّقوىٰ فليلازمْ عليها فإنَّهـا

(١) وقف عليه بلغة ربيعة .

(٢) الزيادة مأخوذة مما تقدم .

تحفَظُه ، وبالسيادة والسعادة تلحظُه ، والله تعالىٰ يكمّل توفيقه ، ويسهّل إلىٰ نُجح المقاصد طَريقَه ، والاعتماد فى معناه ، على الخط الكريم أعلاه .

قلتُ : ومن تأمّل وصايا هذه التواقيع الثلاثة المتقدّمة الذكر ، علم ما كان عليه كُتّاب الزمان ، من انتزاع الفقرات من تَوْقيع ، وتَرصيعها فى تَوْقيع آخر ، من غير تغيير لفظ فى أكثرها .

المرتبة الثانية

(من تواقيع أرباب السيوف ممّن بأعمال دِمَشْق ـ مايُفتتح بـ«أما بعدَ حمد الله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنيابة بعلَبَكَّ لمن دون من تقدم فى المرتبة الأولىٰ ، من إنشاء الشيخ جمال الدّين بن نُباتة ، كُتب به لمن لقبه «ناصر الدين» : وهى

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى لم يُخلِ مملكةً إسلاميةً من قُوَّةٍ ولا ناصر ، ولم يحلّ أمرَها على ذِى عَزْمٍ قاصر ، ولم يُحلّ وَجْهَها إلا بمن نُبِىَ به القديمُ وشَهِد له المُعاصر ، ولم يُلْقِ مقاليدَها إلا لمن وَضَح برأيه الإبهامُ وثَبتتْ بفَضْله الشهادةُ وعُقِدَتْ علىٰ ذِكْره الخَناصر . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى شيَّد معالمَ الدّين وأركانَه ، وجدّد مكان الحقّ وإمْكانه ، وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين تابعوا فى الخلق عَدْلَه وإحْسانَه ، وشايَعُوا فى النّصر نَصْلَه وسِنانَه ، ماآستناب الوَدْقُ فى سُقْيا الرِّياض غُدْرانَه ، وخَلَع على الغُصونِ خِلعًا خَطَر فيها الزَّهر بأكْمامِه وعَقَد من الثمرِ تيجانَه ـ فإنَّ شرفَ الأماكِن بساكِنيها ، وجُسُومَ الديار بنُفُوس قاطِنيها ، والمَنازلَ بكواكِبها ، والمناصب

بنَصيبها من الكفاءة ونائبها ، و إنَّ مدينةَ بَعْلَبَكَّ عَلَمٌ فى المدائن مَرْفُوعُ الخطّه ، وجِسْمٌ من جُسوم الديار قد آتاه اللهُ بَسْطَه ، بِنْيَةُ سليمانَ عليه السلام فهى بالملك قديمة الاختصاص ، ومُبْتَنَى الجانّ المنسوبةُ عُقودُها العليةُ والدُّرّية إلىٰ كلّ بنّاء وغوّاص ، وشامُ الشّام المُعْجِبه ، وروضةُ نَداه المُعْشِبَه ، وثَنِيّةُ ثَغره الباسم ، وعَرْفُ أعْراق حياه النّاسم ، ومأْوىٰ صُلَحائه أحْياءً بين أوْطانها ، وأمْواتًا بين صَفيح لُبْنانها ، لو عُرِضَتِ البلادُ سُحُبًا لقيل لسَحابها : يا كَثيرَ المِنَن ، ولو صُوِّرَتْ أناسِيَّ لقيل لإنسانها : ياطَيِّبَ النَّجْرِ واللَّبَن ، لا يُمْنع مَاعُونُها ، ولا يَنْقطِعُ عَوْنُها عن البلاد وما أدراك ماعَوْنُها ، ولا تَليق من النوّاب إلّا بكُلِّ سَرِىِّ العَزْمِ والهِمَّه ، عَلِىِّ الآراءِ فى المُلِمَّة المُدْلَهِمَّه ، ناجح القَوْل والعمل ، صالح لأن يُثْنِى علىٰ نيابته البَعْلَبَكِّيّة صالحُو المدينة والجَبَل ، مُكَمَّل لسلوك الحقّ الأنْجىٰ والعزم الأنْجد ، مُؤَهَّلٍ لارْتقاء الرُّتب التى تماجَدْنا(١) ولها الأمجد .

وكان فلانٌ هو جُملةَ هذا التّفصيل ، وجمالَ هذا التّفْضيل ، وكُفْءَ هذه العَقيلَه ، وسَعْدَ هذه المنزلة التى مَدّتْ بالسّيف والقلمِ ذِراعَه ونَظّمَتْ من البناء إكْليلَه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف – لا زالتِ الممالكُ بمحاسنِ أيّامه إرَمَ ذاتَ العِماد ، والبلادُ ذاتَ الخصْبِ السَّنِىِّ لا ذاتَ السَّنة الجَماد – أن يرتَّبَ فى نيابة بعلبكّ المحروسة : مُجَدِّدًا بهِمّته العالية عُلُوَّ صَرْحِها ، وحِمايةَ سَرْحِها ، ورِعايةَ جَبَلها وسَفْحها ، مُورِيًا فى مصالحها زِنادَ فِكْره التى لا تمكّنُ أقوالُ العُداةِ من قَدْحها ، مُصَرِّفًا أوامرَه كيف شاءتْ ، مُنْصِفًا للأحوال المَنُوطَة برِعايتِه إن دَنَتْ أو تَناءَتْ ، باسطًا لعَدْل قلمه على المُجيدين ، وسَطَواتِ سَيْفه على المعتدين ، وَازِعًا بمهابته مَن جاوَر جبال

(١) لعله "التى إذا خلت من ماجد تناولها" الخ .

العَمَل من الضَّالِّين، ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المُهْتَدين﴾ وليَنبوا منها مَعْقِلاً يحمُده المُناصر والمُهاجر، وليَحُطْ منها ثَغْرًا مَساوِيكه الأسَلُ والمَسْعَى إليه على المَحاجِر، وليُجْرِ أمور الديوان على سَنَنِ التَّمْيِيز والتَّشْمِير، وليدَبِّرِ الأوقافَ المبرورةَ بمحاسن التَّدبير، وليُشارِكْ أهلَها فى الأجرِ الأوّل بالأجرِ الأخير، والأسْوار هى وقلوبُ الرِّجال من أهمِّ ما يُعَمِّرُه، ووُفورُ الحَواصِل والسِّلاح ممَّا للوَلِيِّ ولِقاءِ العَدُوِّ يدَّخِره، وتقْوَى الله عزَّ وجلَّ مما لا يزال لِسانُه يَسْتَحْلِي القولَ فيه فيُكَرِّره، واللهُ تعالى يمدُّه بإعانته ولُطْفِه، ويكْفيه ما أهَمَّ من الأُمور فما كُفِيَ مَن لم يَكْفِه .

✦
✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيع بولاية الولاة بالشَّام المحروس لمن لقبُه «عزّ الدِّين» من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا، وهى :

أمَّا بعدَ حمد الله الذى جعل للوُلاة فى هذه الدَّولة عِزًّا يتجدَّد، وعَزْمًا يتشدَّد، وعلاءً يتعدَّى إذا حكم وزيدًا لا يتعدَّد (١)، وكافِيَ وُلاةٍ يتلذَّذُ الواصفُ بذكر آهتمامه الذى إذا آهتمّ لا يتلدَّد، وإذا آعتُبِر عَزْمُه وحَزْمُه فهذا فَضْلٌ يتجدَّد، وهذا وصف لا يتحدَّد . والصلاة والسلامِ على سيد الخلقِ محمد، وعلى آله وصَحْبِه ذوى العِزِّ المؤبَّد، والعَزْم المؤيَّد، ما كَتَب قلمُ الغيْث الجائد على طِرْس الرَّوْض بخَوَّد - فإنَّه لما كانت الوُلاة فى خدمة البلاد جَيْشًا يَحْمُون سَرْحَها، ويعْمُرون صَرْحَها، ويُخْصِبُون بالعَدْل قبل العِمارة سَفْحَها، ويَحْكُمون فى رعاياها، ويتحكَّمون فى قَضاياها، ويقْرَعون ثُغُورها ويفْرَعُون ثَناياها - تَعيَّن أن نقدِّمَ على هذا الجَيْش المذكور أميرًا يُقرِّر أمرها، ويُنسِّق من مَيْمنته ومَيْسرته يُمْنَها ويُسْرَها، ويُجرِّد من الرَّأْى سِلاحَه، ويَسُرُّ قلبَه بالتَّدبير ويَريشُ جَناحَه .

(١) كذا فى الاصل بالاهمال ولعل صوابه «وفعلا اذا حكم لايتعدّى ورأيا لايتعدد» .

وكان المجلسُ السامي هو الأميرَ الدّالّ عليه هذه الإماره ، المَعْنِيّ بهذه الشّارَة والاشاره، المُسْتَحِقّ بشريف نَفْسه مَدارجَ الارتقاء ، ومَباهِجَ الانْتِقاد والانْتِقاء ، المُسْبِلَ أذيالَ مَفاخِره أيَّ إسْبال، المَرْقُومَ بٱسمه ورَسْمه على أرجاء الوِلايات : «عِزٌّ يَدُومُ وإقْبال» ، المُقيمَ من أمانَته ومَهابَته بين حِرْزَيْن، الشَّهمَ الذى لا يَذِلّ وهو من نَعْته ومُنْتَسِبه بين عِزّيْن، الصَّمْصَامَ الذى تُسَرّ [به] يدُ من ٱرتضاه وٱنتضاه، والمَاشِيَ على الحقّ الظّاهِر حتّى يقال : أهَذا وَالِي الوُلاةِ أمْ قاضِي القُضَاه ؟ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ شرّفه الله وعظّمه ــ أن يَستقرّ ... ... ٱعتمادًا على شَهامَتِه التى بمِثْلها تُمَهّدُ البِلاد ، وكَفَاءته التى تُفْصِحُ بالخيرات السَّنِيّة ألْسِنَةَ الجَماد ، وصَرامَتِه التى تَشُدُّ على أيْدى الوُلاة فيَردُّون الحُقوقَ من أيْدى الاغْتِصاب، ودِرايَتِه التى يَنْتَسِبُون إليها فيُنْشِدُون :

وكُنّا كالسِّهامِ إذا أصابتْ * مَرامِيها فَرامِيها أصاب.(١)

فليُباشِرْ هذه الرُّتْبَةَ بكُفْئها : من العَزْمِ العالى، والقَدْرِ الغالى، والمَعْدِلَة التى تَتمسَّكُ منها الأحوالُ بأوْثَقِ العُرا ، وتَتلو سَيّارتُها المرفقة : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ﴾ . مُراعِيًا لجميع الأحْوال ، مُثَمِّرًا لمَرْبع الأمْوال، وَالِيًا على وُلاةٍ إن شَكُوا فى صُنْعِ الله فما لهم من اللهِ من وَال ، ماشِيًا من تَقْوى الله تعالى فى كلّ أمرٍ على أقْوى وأقْوَمِ مِنْوال ، والله تعالى يُخْصِب البِلادَ بغَمامِ رأيه الصَّيِّب ، ويُطَيِّبُ الأماكن المُنْبِتَةَ بمِثْله : « وكُلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب» .

* * *

وهذه نُسخةُ توقيع بولاية البَلْقاء والصَّلْت ، من إنشاء ٱبن نُباتة، وهى :

(١) الرواية : أصابا بألف الإطلاق ، وحذفت هنا لمراعاة الفاصلة .

أمّا بعد حمد الله مُضاعِف النِّعمه، ومُرادِف رُتَب الإحسان لمن أخلص في الخدمه، ومُجدِّد منازِل العزّ لمن طلعتْ كواكبُ اهتمامه في آفاق الأُمور المُهمَّة، ومؤكِّد سِهام الخَيْر المقتسمه، لمن سدَّد في شرف الأغراض رأيَه بل سَهْمَه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأُمِّيّ هادِي الأُمّه، وعلى آله وصَحْبه حُماةِ الدِّين من العوارض المُلمّة، صلاةً تكونُ بين أرواحِهم الزّكيّة مَوَدّةً ورحْمه - فإنّ أحقَّ الأولياءِ بمزيد الآلاء المتّصله، وتجْديد النِّعَم المقبِلَة وتقْديم المساعى التى لا تلبَسُ حُلَلَ الفخار إلا مُكْتَمِلَه - من وَضحتْ في صفات الفَضْل آياتُه، وتقابلَتْ في حالَتَيِ التّدبير سطَاهُ وأناتُه، وروَى غُلّةَ البَلَد الخائف ففاض على المُعْتدِينَ جَدْوَلُ سيفه وجرَتْ بالدَّم قَناتُه، وقام على قَدَم الاجْتهاد، وقَسَّم بين جَفْنه وجَفْن سَيْفه السُّهاد.

ولما كان المجلسُ هو المقصودَ بهذه الكِنايه، والمشهودَ له في طَلَق هذه الغَايَه، والعالِيَ بهِمّه على ذَوِى الارتقاء، والوَالِيَ الذى إذا رَكِبَ الوُلاةُ لاشْتهار ذِكْرٍ كان من بينهم فَارِسَ البَلْقاء، والنّاهِضَ بتَثْمير الأموال غَمامُ رأيه الصَّيِّب، والطَّيِّبَ بسياسته مَحلُّ الولاية: «وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العزَّ طَيِّب» - تعين أن تتزيَّدَ مَنْصِبَه إذا تزيَّدتِ المناصب، وأن تستمرَّ مَرتبتُه إذا مَرّتْ لذهابِها المَراتِب، وأن يشتملَ في استمرارها عليه، وأن يكون في إعْراب الدّولة القاهرة مُضافًا ومُضافًا إليه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - أعلى الله تعالى أبدًا عِمادَه، وجعل لوُلاة أيّامه الحُسنى وزِيادَه - أنْ يستمرَّ على ولاية البَلْقاء على عادته، وأنْ تُضاف إليه وِلايةُ الصَّلْتِ (١): جمعا له بين الأُخْتين حَلالا، والذِّرْوتين مَنَالا، والرّايتين نُهوضًا بهما

(١) لم يذكرها القاموس ولا ياقوت وفي تقويم البلدان هي بليدة وقلعة من جند الأردن .

وٱستقلالا، وعلمًا بوفاءِ عزمه الذى أَمَرَ أَمْرُه، ورَفعًا لقَدْرِه الذى حَسُن أن يقولَ لمَنصب البَلْقاء : « لنا الأبلَقُ الفَرْدُ الذى سارَ ذِكْرُه »، وتيمُّنًا بغرّة الصَّلْتِ فإنّ الصَّلْتَ هو الجبينُ الواضحُ بِشْره ؛ وكَيْف لا ؟ وهو الكافِى الذى جمعَ مالَ الجهاتِ فأَوْعىٰ، وقسَم فُنُونَ المصالح جِنسًا ونوعا ، وحَسَم أدْواءَها بحُسامِ رِفْقِه كَرْهًا وطَوْعا .

فليباشِرْ بالعزّ واليُمنِ جهتَيْه، وليأْخُذْهما بكلْتَا يَدَيْه، وليُفض وَجْه عزمه فى أرض الدّولة حتّىٰ يكون شبه البلْقاءِ اللازم لإحدى ولايتيه؛ محصّنًا بساكِنَىْ سَيْفه وقَلَمه فنِعْمَ البَلْدتان، مُثَمِّرًا بسَدادِ قَوْله وفِعْله ومن دُونِهما جَنّتان؛ مُوفِيًا للحقوق، مُعْفِيًا لاَعتراف النِّعمة من العقوق، راَقِيًا بهمته ـ إن شاء الله تعالى ـ إلىٰ رُتَبٍ لو رامَها نَجْمُ الأُفقِ لعاقَهُ العَيُّوق ، عامِلًا بتَقْوَى الله عزّ وجلّ فإنّ خيرَ الدنيا والآخرةِ بتَقْوَى الله مَعْذُوق؛ والله تعالى يُوضِّح لرأيه أجمَلَ الطرائق، ويُنْجِحُ على البَلْقاءِ وغيرِها سَعْيَه السّائِق، وفِكْرَه السابق؛ بمنه وكرمه! .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية نَابُلُس، من إنشاء ٱبن نباتةَ أيضا، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله علىٰ ماهنّأ من المواهب ، وهَيّأ من علِيِّ المراتب ، وأنجز من وُعُود السُّعود بعد مِطَالِ المَطَالب ، وزَيّن من سماء الوظائف عند إزهائها بزينَةِ الكواكب ، وعَمَّر من صُدُور الوُلاة والولاية بعَلِيٍّ تُثْنِي عليه الرعيّةُ «ولو سكتُوا أثْنَتْ عليه الحقائِبُ» . والصلاة علىٰ سيدنا محمد عبده ورسوله الذى جرّد لنصر الإيمان حَدّه القاضب، وحِزْبَه الغالب، ونَدَب لإحْياءِ الحقّ عَلِيَّه بعد ماهمّت به النَّوادب؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين هم فى المَمَات جمالُ الكُتُب كما كانوا فى الحياةِ

جَمالَ الكتائِب، صلاةً تتعطر بنفحاتها الصَّبا وتتقطَّر من خلف سُراها الجنائب — فإنَّ عقائلَ الولايات أولى بخِطبة أكفائها، ورغبة السَّراة من ذوى اصطفائها، ونِسبة من يقوم للأمور المعَلَّلة بقانونها وشفائها .

ولما كانت بَلَدُ نابُلُس المحروسةِ من أعلىٰ عقائِل البلاد قدرا ، وأمرإ الجهات أمرا، وأسرى الولايات محلًّا وذكرا، وأوفى النَّواحى من زمان بنى أيُّوبَ علىٰ تكاليف المُلْك صبرا ، وأنزه البقاع التى لو رآها المَلِكُ المصرىّ لما استغلىٰ غُوطةَ الشَّام بشِبْرين من شبرا؛ بلدٌ أعارتْه الحمامةُ طوقَها وحمَّلتِ الثَّناء فوقَ طوقِه ، ونجَم نبات واديها الزَّهَر حتَّى تساوى النَّجْمان من تحته ومن فوقه — تعيَّن أن يُختار لولايتها من تعيَّن ولاؤه، وتمكن فى الرُّتب علاؤه، وتبيَّن فى مصالح الولاياتِ احتفالُه واحتفاؤه، وشُهِر وَفاؤه بالخدمة فلا شرفَ بسعى إلا له منه شينُه وراؤه وفاؤه ؛ من شهدت السَّواحلُ الشاميَّةُ فى مُباشرته أنَّه أجرى منها المالَ بحرا، وأفاض الوصفَ دُرًّا، وشهدت الزَّكاة — وديوانُها المادحُ — أنَّه أفلحُ من زكَّاها خبرًا وخُبرًا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يُرتَّب فلانٌ ... ... عِلمًا بأنَّه الأوحدُ الذى جمع الأوصافَ المتقدِّمه، وأسمع من المحامد نتيجةً لها من كلا قولِه وفعلِه مُقدِّمه، وأطلع فى آفاقِ الوظائف كنجوم الجوزاءِ الثلاثةِ رأيَه وسيفَه وقلمَه، واطَّلع علىٰ محاسنِ التَّدبير فكان فى رعايا بلدِه ممَّن تواصَوْا بالصَّبر وتواصَوْا بالمرحمه، وأنَّه الكافى الذى إذا ولِى ثمَّر، وإذا صال على المُفسدين دمَّر، وإذا شامت المُهِمَّاتُ بارقَ عزمٍ، أسبل وإذا سامتْ قُواهُ شمَّر؛ وأنَّه الأمينُ إذا تصرَّف ، والمأمونُ إذا تعرَّف ، والشُّجاعُ إذا تحصَّنتِ البلادُ بنسبه الحصنىّ: فسواءٌ فى شمولِ الأمن ماتوسَّط منها وما تطرَّف.

فليباشرْ هذه الولايةَ المباركةَ بعزمٍ يُوضِّح بِشْرَها، ويُنجِح أمرَها، ويُقيم فى خِطبة عُلاه عُذْرَها، وحزمٍ يُثمِّر مالها وغِلالَها، ويَنْقَعُ غُلَّتَها ويضعُ أغلالَها، وبأسٍ يَدَعُ

المُفسدَ من سَيفه أو قَيْده فى طَوْقٍ أو حِجْل ، ويَذَرُ السَّارِقَ والمَـارِقَ يَسْيرُ بلا كَفٍّ ويَسْعىٰ بلا رِجْل ، مُشيِّدًا لنواحيها بالتَّرغيب والتَّرهيب علىٰ أوْثَقِ المبانِى ، مُصْلِحًا بين أهْلِ الأهْواءِ حتّىٰ لا يَضُرَّ قولُ القائل : «رَفِيقُكَ قَيْسِىٌّ وأنت يمـانِى» ، مُتَفَقِّدًا من الأحوالِ كُلَّ جَلِيلٍ وحَقِـير ، ناهِضًا فى تلْقِ المهمات علىٰ قدم التقـدم بالعَزْمِ الأثِير ، جاعِلًا من لَدَى مَحَجَّةِ عَمَـلِه لصلاح العشِيرةِ نِعْمَ العَشِـير ، عامِلًا بتَقْوى اللهِ تعـالىٰ فى كلِّ أمرٍ وإليها بالحديث يُشير .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بشـد الدَّواوين بغَزَّةَ ، من إنشاء ابن نُبـاتة ، كُتب به لـ«عَلاء الدّين بن الحصنى» المقدَّم ذِكْره فى التَّوقيع قَبْله ، وهى :

أمَّا بعـدَ حمدِ اللهِ علىٰ كلِّ نعمةٍ جَلَّتْ ، ونَعْمةٍ فى أهْلهـا حَلَّتْ وحَلَّتْ ، ورتبة بانتساب كافيها وباسمه تحصنت على الحقيقة وتَعَلَّت ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ خيرِ من سَلَّمتْ عليه الألْسِنةُ وصلّتْ ، وسُلَّت به سُيوفُ النَّصْرِ وصَلَّت ، صلاةً دائمةً ما أُمْلِيَتْ على الأسماع فمَلَّتْ ، ولا قَابَلَتْها وُجوهُ الملائكة إلّا تهلَّلَتْ ولا سُحُبُ الرِّضْوان إلّا انْهَلَّتْ ـ فإنَّ منزلةً يُسْتَقَى [من] مُهِمَّات الدَّولة خَبَرُها ، ويُسْتَدعَى من جانبَيْ مِصرَ والشَّام سَـبْرُها ، ويُحْمَدُ إليها من ناحِيتَىِ الساحلِ والجَبَلِ سُراها وسَيْرُها ، وتلك وظيفةُ شدِّ الدَّواوين المعمورة بغَزَّةَ المحروسة التى تُلْتَقَطُ من ساحِلِ بَحْرِها دُرَرُ الخير المقتَبَـل ، وتقولُ المهمَّات الشريفةُ لسَراةِ آستنهاضِها : ياسارِيَةُ الجَبَـلَ ـ حَقِيقَةٌ أن يُتَخَيَّرَ لها من الشاكرين من يُحْمَدُ آجتهادُه وجِدُّه ، ومن السَّابقين إلى المقاصد من يُحْسِنُ ـ كما يقال ـ تَقْرِيبُه وشَدُّه ، ومن شُكِرَتْ فى الولايات آلاؤُه ، ومَن إذا علا نَظَرُ رأيِه فى المصالح قيـل : دَام عَلاؤُه ، ومَن إذا دَبَّر جهةً قالت بلسان الحـال : لقد زاد فى المصالح حُسْنًا ، ولقد تَحَصَّنتُ بانتساب ذِكْرِه فلا عَدِمتُ منه حصْنًا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقر ... ... لما عُرف من حَزْمه وعَزْمه، ولما جُدّد فى مقدمات القَدْر من رَفْعه و فى إعلاء المهمّات من جَزْمه؛ ولما عُهد من هِمَمه فى جِهاتٍ دبَّرها، وفى وِلَاياتٍ ثمَّرها؛ وفى وَظائف شدَّها: أمّا على العُتاة فشدَّدها وأمّا على المُسْتَحقِّين فيسَّرها؛ ولما اشتهر من ذِكْره الذى لا بَرِحَ عَلِيًا، ولما ظهر من دِرَايته التى جعلتْ كوكبَ سَعْده وسَعْيه دُرِّيًا، ولما بَهَر من تَميُّزه الذى إذا هزّ عصاه بيَدٍ تُساقِطُ على المقاصد رُطَباً جَنِيّاً .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ مباشرةً تُبَيِّضُ لها وَجْهًا وعِرْضًا، و إذا أثنَى عليه المُثْنِي تبرّعًا كافَاه حتّى يكونَ قَرْضا؛ مجتهدًا فى تَثمير الأموال والغلال، ضَابِطًا لأُمور الدِّيوان حتّى لايشكُو الخَلّةَ ولا الاختِلال؛ قائمًا بحقوق الخِدْمه، مُسْتزيدًا - بشُكْر الأقوال والأفعال - لما يرسَخُ له من أقسام النِّعْمه، عَلِيًّا على كلِّ حالٍ إذا وَقَّت الفِكْرُ قَدْرَه و إذا ذكر اللّسانُ اسْمَه .

المرتبـــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب السيوف بأعمال دِمَشْق ما يفتتح بـ«رُسم» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة القُدْس ، من إنشاء الشيخ جمال الدّين بن نُباتة ، كُتب بها لشرف الدين «موسى الرّدادى» وهى :

رُسم ... ... - لا زالتْ وُلَاة أيّامه عالِيةَ الشَّرَف، سامِيةَ المُسْتَشْرَف آوِيةً من جَنّات خَير الدُّنيا والآخرة إلى غُرَف من فَوْقها غُرَف - أن يستقرَّ المجلسُ السامى ... ... عِلْمًا باهتمامه الوَفى ، واعتزامه المتيقِّظ إذا نام حَدُّ المَشْرَفى ؛ واستنادًا إلى رأيه الذى

يقولُ نَجْمُه الطَّالِعُ : «مَا أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصانَ من شَرَفِى» ! ! ؛ وإرْشادِ سَعْيِه إلىٰ أن آتَّخذَ من الأرض المُقَدَّسةِ دارا ، ومن حَرَمِهِ الشَّريفِ جارا ، وآتِّقادِ ذِهْنِه وشجاعَتِه اللَّذَيْنِ آنس بهما من جَانِبِ الطُّورِ نَارا ؛ وكَيْف لا ؟ وقد قالت هِمَّتُه : يا مُوسَىٰ أقْبِل ولا تَخَفْ ، وأخْرِجْ يَدَكَ البيضاءَ فى النِّيابة تكُنْ أحقَّ من آعْتَرف بها الإحسانَ وآعْتَرف .

فلْيُباشِرْ ما فُوِّض إليـه مُبَاشرةً يَعْلُو بهـا شَرَفُ آسْمِه ومُسَمّاه ، ويَبْـدُو للاختيار والاختبار فضلُ التقدّم الذى إذا بدا له كفاه ؛ ولْيُجْرِ بهذه الرُّتبة رَأْياً حسَنَ الإحكام ، ولْيُواظِبْ علىٰ حِفْظِ هذه القَلْعة التى فُتِحَ بهـا عليه فإنَّها من أعْظَمِ فُتوحِ الإسلام ؛ ولْيمُـدَّ عليها من كِفايَتِه سُورًا حَوْلَ سُورِها ، وليتفَقَّدْ رجالَها وعُدَدَها تفقُّدَ الشُّهُب فى دَيْجُورِها ، وليرُدَّ عنها بعَزْمِه الرَّدّادِىِّ عُيونَ الأعادِى الزُّرقَ حتّى لا يراعَ فى أرْضِ الحَرَم ولا حَمامَاتُ طُيورِها . ولْيَشْكُرْ نِعْمَةً أوَتْه إلىٰ هذه المنازل الطّاهِره ، وليقرِّبْ لِيَدِ آمِله طَلَبَ خيرِ الدنيا والآخِره . ولْيقَدِّمْ من الوصايا تقْوى الله التى عن أصْلها تتفرَّعُ نِعَمُه البـاطِنَةُ والظَّاهِره ، حتَّى يجعلَ له فى الوَادِى المُقَـدَّسِ رَبْعًا مأنوسا ، وجَمْعا محْروسا ، وأحاديثَ حَسَنَةً تقولُ لمُسْتَمِع مِثْلها فى الآفاق : ﴿هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ . والله تعالىٰ يمدّه بإعانته ، ويُلْهِمُه شكْرَ مارُزِقَ من فَضْلِ مكانِه ومكانَتِه ؛ بمنّه وكَرَمه !

✣

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة قَلْعة صَرْخَد لمن لقبُهُ «جمال الدين» وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يَتَخيَّرُ لقِلاعِه النَّابِّ ويَتحَيَّزُ (١) من النَّائِبَه ، ويُمِدُّها بسَحائِب بِرِّه وفِكَرِه الصَّائِبه ، ويندُب لخدمتها كلَّ سَيْفٍ يُرضِى النَّادبَ ويُقِيم علىٰ غيرها النَّادِبَه ـ

(١) أى يتنحى .

أن يُرتَّب مجلسُ الأمير ... ... لأنّه الكافي الذى تُسَرُّ الحصونُ بأمثاله، وتبتسِمُ شُرُفات القِلاع لإقباله، وتنشرحُ منازلُها بتنقُّلِ نجوم الهداية من أفعاله وأقواله؛ والمَلِىُّ بأداء الخِدَمه، والمرَشَّحُ لما هو أوفى وأوفرُ من الأمور المُهِمَّه.

فليُباشِرْ نيابةَ هذه القَلْعة القديم أثرُها، والشَّهير خَيرُها وخَبَرُها؛ بعَزْمة سَيف قاطعه، وحِدَّةِ بأسٍ ذائعه، ومَهابةِ ذِكرٍ لشياطين النِّفاق عنها رادعه؛ فإنّها من بناء المَرَدة: فلْيَرُدَّ عنها آفةَ جِنْسِها، ولْيَحُطْ بُرُقَى عَزائمه حَوْلَ نَفاستِها ونَفْسِها، ولْيُجرِ أمرَها على السَّدَد[1]، وليَبْنِها بلُزومه المَهْدى أوثقَ ممّا بناها أولئك بالصُّفَّاح والعَمَد، وليَرُض الآثار السُّلَيمانيَّة بسَلْمانِ بيتِ الملازمة على طُولِ الأبد، ولْيَجتهِدْ فيما هو بصَدَدِه حتى تُدَمِّرَ بتَدْمُرَ جوانحُ الحَسَدَة بالكَمَد، مُكَثِّراً بذِكرَى مَهابته لعَدَدِها، مُوَفِّراً لعُدَدِها، مُسْتَوجِباً لاستجلاب الإنعام عليه باستجلاب مَدَدِها.

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة الصُّبَيْبة، وهى:

رُسِم بالأمر العالى — لا زال إحسانُه يُعيدُ إلى الحصون ناصرَها وزَيْنَها، ويُفيدُ أصحابَ الهِمَم صَوْنَها، ويحرُسُها بمن إذا نَظَر فيها وحَماها كان عَوْنَها وعَيْنَها — أن يستقرّ المجلسُ الساميُّ الأميرىُّ ... ... لما أَلِفَتْه هذه القلعةُ المنصورةُ من تحصينه وتحسينه، وعرَفَتْه من ترتيبه فى عمارتها وتزيينه؛ ولأنّه الأدرَى بالمصالح العائد نَفْعُها، والأدرَبُ بمناجِحها الحميدِ وَقْعُها؛ الذى باشرها من قبلُ فأحسنَ السُّلوك، ونَصَح هذه الدولةَ القاهرةَ فأثنَى على سِيرته مُلوكُ الحُصونِ وحُصونُ المُلوك.

فليَعُدْ إلى هذا المَعْقِل المَنيع عَوْدَ الماء إلى مَشارِبه، ولْيَسِرْ فى أرجاء أبراجها مَسيرَ القَمَر بين كَواكبه، ولْيَتفقَّدْ أمورَ رجالها المستخدَمين، ولْيَستجلِبْ قلوبَ

(١) السدد [بالتحريك] الاستقامة كالسداد.

حَفَظَتها الأقدمين، مُتَحاشيًا من رأْىِ القاصرِ الغبِيّ، قائمًا بالمُهِمَّات التى تُزاحِمُ منه بشَيْخ لا تُزاحِمُ بصَبِيّ، مُقيمًا على رَفْعِ الأدْعِيةِ لهذه الدولة القاهره، مُسْتَزِيدًا بالشُّكر لنِعَم الله الباطنة والظَّاهره، مُجْتهدًا مُعْتمدًا على تقوى الله تعالى التى جعلت له مكانًا مَكِينًا فى الدُّنيا وطَرِيقًا سَهْلًا إلى الآخره، والله تعالى يُنْجِحُ قَصْدَه، ويتقبلُ جِهادَه وجُهْدَه، بمنّه وكَرَمه! .

قلتُ : هـذا كان شأنُها حين كان يُولَّى بهـا مقدَّمُ حَلْقةٍ أو جُنْدىٌّ من الشَّام . لكن قد تقدّم فى الكلام على ترتيب الممالك الشَّاميَّة فى المقالة الثالثة أنَّها آستقرّتْ فى الدولة الناصرية «فَرَج» فى سنة أربع عشرة وثمـانِمائة [ولاية](1) .

وحينئذٍ فتكونُ ولايتها من الأبْواب السلطانية . فإن عادت إلى ما كانت عليـه أوّلًا، عاد الحكْمُ كذلك .

✦

وهـذه نُسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة حِمْصَ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، وهى :

رسم بالأمر - لا زال يَنْدُبُ لخدْمة قِلاعِه كلَّ سَيْفٍ مُخْتَبَر، ومُجَرَّبٍ عَبرتْ عليه العِبَر، ومُؤَدٍّ لفرائض الخِدْمة : إمَّا بقِيامٍ عنـد الصِّبا وإمَّا بقُعود عند الكِبَر - أن يُرَتَّب فلانٌ فى نيابة قَلْعـة حِمْصَ المنصورة إجابةً لسُؤاله فيما سأله : من التَّوفُّر على مواصلة الصَّلوات ، ورَفْع الدَّعوات ، وجمع ثَوابِ الجِهاد والخَلَوات ، وتَقَضِّى باقى العُمْر وادعا ، متَنَسِّكًا طائعا ، إذا بكى بجوارِه حتّى النَّهرُ العاصِى رَقّ عليه فما يَعْدَم منـه بُكا .

---

(1) بياض بالأصل والتصحيح من بقية الكلام ومما تقدّم .

فليباشر نيابة هذه القلعة العلىّ خبرُها ومخبرُها ، الملىّ سماعُها ومنظرُها ؛ المطلّة علىٰ مراكز الرماح المشهوره ، ومهابّ الرياح : إمّا بغيث السهام مُمطِرةٌ وإمّا بسهام الغيث ممطوره ، المجاورة لسيف الله «خالد» فهى بإعراب المجاورة منصورةٌ غير مكسوره ؛ معتبرًا لأحوالها ، مستدعيًا لما تحتاج إليه من عُددها وعدد رجالها ، محصّنًا باستدعاء السلاح وسلاح الأدعية الجديرَيْن بأمثالها .

⁂

وهذه نسخة توقيع بنيابة قلعة جعبر ، قبل أن تنقل إلىٰ حلب ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ أعلى الله تعالى فى سماء الملك كواكبه ، ونصر فى أقطار الأرض كتبه وكتائبه ، وصرّف بأوامره العالية كلّ نائب وفرّق بها كلّ نائبه ـ أن يُرتّب ... ... علمًا بأنه الكافى الذى تُعقد علىٰ همّته الخناصر ، ويُثنى علىٰ تقديم عزائمه القديمُ والمعاصر ، وتقوى الجهاتُ وتُنصر باسمه بعد أن كانت بغير قوّة ولا ناصر ؛ واعتمادًا علىٰ كفاءته النافعه ، وشهامته الرائقة الرائعه ، ودرايته التى تُضىء بها القلعةُ وتسمو حتّى يقولَ الأستيقان : ماهذه شُميس[1] هذه شمسٌ طالعه .

فليباشر هذه القلعةَ القديمَ أثرُها ، الحميدَ خُبرُها وخبرُها ، المُصغّر[2] تصغيرَ التحبيب والتحسين اسمُها ومنظرُها ؛ المنفردَ سهلُها بذيل الآفاق فتمسك[3] بسحبها ، المنشدةَ لارتقاب نهضة حال من علم ابن منصور بها ؛ راقيًا صرحَها ، راعيًا بالمصالح

(١) كذا فى الأصل وصوابه شميسة .

(٢) هذا الوصف يناسب قلعة الصبيبه فانها هى المصغرة .

(٣) فى الأصل «متمسكا» .

سَرْحَها ، مُجْتَهِدًا فيما يقضى لقَدْره بالرِّفعه ، ولِرَائد أمَلِه بخِصْبِ النُّجْعه ، جاعِلًا هذه المنزلةَ أوّلَ دَرَجاته : وحَسْبُه بمنزلة يكونُ أوّلُ درجاتِها قُبَّةَ قَلْعَــه ، واللهُ تعالىٰ يُسَدِّدُ عَزْمَه وحَزمه ، ويُحْمِدُ فى الكُفَاة خَبَره كما أحمدَ فيهم ٱسْمَه ، بمنّه وكرمه ! .

✣

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة مَغَارَة زَلّايا ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يَزِيد قِلاعَ الإسلامِ عَلاءً فى السِّـمَةِ والاسْم ، وفى القُوّةِ والجِسْم ، وفى ٱعْتناء يجمع لعقيلتها بين الحُسْن والقِسْم ـ أن يُرَتَّب مجلسُ الأمير... ... ... لقيامه بواجب الخِدْمه ، ومُلازَمة فَرائِضِها المُهِمَّه ، وعَزْمَته الوفِيَّة فى النَّفْس ، الزّائد وَصْفُها على الأمْس ، العَلِيِّ نَسَبُها وحَسَبُها : فتارةً إلى العُلَىٰ وتارةً إلىٰ الشَّمْس .

فليباشِرْ هــذه القَلْعةَ التى عَلَتْ بنَفْسِها محلًّا وسَكَنًا ، وقال سَاكِنُ مَغارِها لثَـانى ٱثنين من حَزمه وعَزمه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، وٱسْتَعلىٰ ثَنِيَّتَها فأنشــد :
"أنا ٱبْنُ جَلا وطَلّاع الثَّنايا" ، ونادىٰ بُقْعَتَها : هذا عَزْمى وحَزْمى لا يقال ولا يازَلّايا ، مُجْتَهِدًا فى سَداد أُمورها ، وتَحْصِينِها بالمهابة القائمـةِ مقام سُورِها ، مُسْتَجْلِبًا ما يحتاج إليـه وما يُرتَّب من عُدَده ، مُلازِمًا لُزومَ الخَمْس لأوقات مُباشَرتِهـا لا يُوصف بالزَّوال بل بطُول المُدَّه .

✣

وهذه نسخةُ توقيع بولاية القُدس ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهى :

رُسِم بالأمر ... ... لازال يشمَلُ بظلّه وفَضْله ، ويُجمِّلُ بإحسانه وعَدْله ، ويُنَقِّلُ شمس الوُلاة من البُرْج الظّاهر إلىٰ مِثْله ـ أن يُنْقَلَ فلانٌ من كذا إلىٰ وِلاية

القُدس الشريف : عِلمًا بِكفايته التى تقدّمتْ ، وشَهامتِه التى تحكّمتْ ، و إمامتِه التى سَلِمت فيما سَلّمت ، وهِمَّتِه التى وَضَحتْ شمسًا فلا تُنفَس ، وقالتْ لِقيامه فى المصالح : ﴿ آخلَعْ نَعْلَيْكَ إنّكَ بالوادِ المُقَدّس ﴾ .

فلْيباشِرْ هذه الولايةَ مباشرةً تَمحُو بِضياء شَمْسِه ظُلَمًا وظَلاما ، وتقولُ لنارِ الحوادث فى المَشاهِدِ الجليلةِ : ﴿ يانَارُ كُونِى بَرْدًا وسَلَاما ﴾ ؛ مُجتهدًا فيما هو بصَـدَدِه ، عارفًا بوُجُوه المصالح حتَّى يكونَ السَّكَنُ أعْرَفَ بشَمْسِ بَلَدِه ؛ ناهضًا بأُمور الدِّيوان جَليِّها وخَفيِّها ، وعبْءِ المهمات حَافلِها وحَفيِّها ؛ مستزيدًا بالشكر لمبادئ النِّعَم ، قائلًا فى محلِّ البَلَدين المُبارَكَين : ماسِرْتُ مِن حَرَمٍ إلَّا إلى حَرَم .

✦✦✦

وهذه نسخةُ توقيعٍ بولاية غَزَّةَ ، وهى :

رُسم بالأمر ــ لا زال يُنْشِئُ فى رِياض الإحْسانِ غَرْسا ، ويُحقِّق فى آستحقاق الكُفاةِ حَدْسا ، ويُقـدِّمُ من لا تزال الوِلاياتُ تَحمَـد له يَوْمًا وتَذْكر لقَوْمه أمْسا ــ أن يُرتَّب ... ... لِمـا عُرِفَ من عَزْمه الذى جَرَّد منه الآختيار والآختبار جَميلا ، وكَمالِ شَخْصه الذى آتّخذه التوفيق فلم يقل : ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلًا ﴾ ؛ وآعتماده الذى يُصْبِحُ فى المحامد ويُمْسى ، ويُنافسُ مَرْباهُ فهذا يقول : تَمرى وهذا يقولُ : غَرْسى .

فلْيباشِرْ هـذه الولايةَ بعَزْمٍ مقتَبِل الشَّبِيبَه ، وحَزْمٍ لايُقْعِدُ الرأىُ المحيـلُ تَجْرِيدَه فى المصالح وتَجْريبَـه ؛ ونَفْعٍ فى المهمَّاتِ ورَدْعٍ للمفسدين تُحمَـدُ مَوارِدُه ومصادرُه ، وذِكْرٍ له حَسَنٍ تُلْتقطُ من ساحل الشام جَواهرُه ؛ مُسْتزيدًا لمـا رَسَخ له من درجات

الأُمور المُهِـمّه ، مُنَزَّهَ العِرْض عن كلّ لائمَـة مُرَجِّحًا تقْوى الله تعالىٰ فى كلّ مُلِمّه ، والله تعـالىٰ يُحْمِد فى الخِـدْمة آثارَه ، ويُعزُّ فى ولاية حربه السافَةَ إذا هانت الحرب على النُّظّاره .

✣

وهذه نسخةُ تَوقيع بولايةِ لُدّ ، لمن آسمه «نجم الدين أيوب» وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زالتْ نُجومُ أوامرِه سَعيدَه ، وظِلالُ عوارِفه مَديدَه ، ومَنازِل الولايات حامِدةً لمن يُقَدِّمه وطَوالِـعُ أُفقِها حَميدَه ـ أن يُرَتَّب ... ... آعتِمادًا علىٰ كَفاءَته التى تُشَيِّدُ له مَجْدا ، وتُعقِبُ مَسْعاه حَمْدا ، وتَكْفِى من هذه الجهة وَأهلها بَلَدًا وقَومًا لُدًّا : لمـا آحتَوىٰ عليه من مُوجبات الأصطناع ودَواعيه ، وفاتَ باستقلالِه أمَدَ مُساجِله ومُنَـاوِيه ، وآشتَمَلَ على الخِـلال التى قَضَتْ بتَقْديمه ، والأفعالِ التى آستَدْعَتِ المبالغة فى تَفْخِيمه وتَكْرِيمه ، وسَلَكَ من المخالصة ما يُوجب الأستِحقاقَ والآستِيجاب ، ويُوصِّلُ حَميدَ مَسْعاه إلىٰ بُلوغ الآمال وإدْراكِ المَحابّ .

فلْيباشِرْ هـذه الوِلايَةَ : عامِلًا بتَقْوى الله تعـالىٰ فيما يُسِرُّه ويُعلِنُه ، مُعْتَمِدًا فيها غايةَ ما يَسْتَطيعُه المُكلَّفُ ونِهايةَ ما يُمْكِنُه ، ولْيُسوِّ بين القَوِىّ من أهلِ هذه الولاية والضَّعيف ، ولا يَجعلْ فى الحقّ فرْقًا بين المَشْروف والشَّريف ، ويَمُـدّ علىٰ كافَّتِهم رِواقَ السُّكون والأمَنَـه ، ولْيُجْرِهم فى المَعْدِلة على العادة الجميلة الحَسَـنَه ، ولْيأْخُذْ فى الأُمور الدِّيوانيّة بالأجْتِهـاد مُراعيًا فى ذلك حال العِمارَه ، آتِيًا من الإحْسان إلى الرَّعِية ما يكون للعَدْل شارَه ، وافِيًا فى ذلك كلِّه بالمَطْلوب ، صابِرًا علىٰ تكاليف المُهِمّات ولا يُنْكَرُ الصَّبْرُ لأيوب .

وهـذه نسخةُ توقيع بولاية بَيْسانَ ، لمن لقبـه « شِهاب الدين » من إنشاء آبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ــ لا زالتْ شُهُبُ أوقاتِه سَـعيده ، وسُحُب هِباتِه ساحِبَـةَ الجُود مَديدَه ، وبحورُ نَعْمائه الحقيقيَّةُ كبُحورِ الأعارِيض المجازيَّة : كاملةً مُنْسَرِحَةً مَديدَه ــ أن يستقرَّ... ... آعتمادًا علىٰ عَزْمِه المُنيرِ شِهابُه ، الكثيرِ توقُّدُه فى أوقات المهمات وآلتهابُه ، وآستنادًا إلىٰ كَفاءَتِه التى يشهدُ بها وَلاؤُه فى الخِدْمة ووِلَايَتُه ، وشَهامتِـه التى يُحْزِمُ بهـا فى الأمرِ رَأْيَه وترفع فى الخِدْمةِ ولايتَـه ومهابتَه ؛ وعِلْمًـا بسياستِه التى يقمعُ بها أهْـلَ الفساد ، وتكادُ تفخَرَ بَيْسانُ بفَضْـلها كما فَخَرتْ بـ«فاضِلِها» على البلاد .

فليَقُمْ فى وظيفته علىٰ قَدَمِ آجتهاده ، وكَرَم آرْتيادِه وآعْتيادِه ، شَافيًا لأحوال أهل ناحيته من الوَصَب ، مُثمِّرًا الغِلالَ والأموالَ بعزْمٍ قد آرتفعَ وآنتصب ، ظاهرًا فى الخدمة مَجْهودُه ، مُلَيِّنًا لحَـديد من عَصى عليـه فى عمله كما أورثه داوُدُه ، والله تعالىٰ يوفِّقه .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَيْدا ، لمن لقبـه « شجاع الدين » بـ«المجلس العالى» وهى :

رسم بالأمر العالى ــ أنفذه الله فى الأقطار ، ونَجَّم بولاته أيَّام الأوطان والأوْطار ، وأجرىٰ بشُكْره سُفُنَ الركائب ورَكائب السُّفن إذا سَـفَّ وإذا طار ــ ان يسـتقرَّ فلانٌ : ... ... رُكونًا إلىٰ عَزْمه وحَزْمه ، وسُكونًا إلى آهتمامه الذى حكَمَ فيه الآختبار

بعلمه، وعلمًا أنّ للولايات به الانتفاع، ولحصونها الامتناع والارتفاع، وأنّه إذا وَلِىَ رَعىٰ وإذا أقوىٰ[1] كان أعصم راع، وإذا فكّر فى الرأى ووقب فى المهمّ كان نعم الشجاع.

فليباشر ولاية عمله ناهضًا بأعبائه، رافعًا بالعدل لأرجائه ورجائه، حريصًا على طيب الأخبار المنتشرة من كافور صبحه ومسك مسائه. وليتفقّد أحوال برّه وبحره، ويتيقّظ لذلك البرّ وجهره، وذلك البحر وسرّه؛ حتّىٰ يتحدّث البحر عن عزمه ولا حرج، ويسير ذكره كنسيم الرّوض لاضائع الصّنع ولكن ضائع الأرج؛ ويعتمد مصالح النواحى وسكّانها، والأموال ودواوينها، والجهات وضمّانها، ونجوم التقسيطات فى البلدة وتحرير ميزانها، ويجمع بين اللّين والشّدّة بسياسة لا يخرج بها الرّأى عن إبّانها، وتقوى الله تعالىٰ هى العمدة فعليها يعتمد، وعلىٰ ركنها يستند؛ حتّىٰ تجعل له على المصالح أيدا، وحتّى تثنى نحو الثناء عليه عمرًا وزيدا، وحتّىٰ تجعل له بأسًا فى الأعداء يكيد كيدا، وحسن ذكر فى البلد يصيد «صيدا».

✥

وهذه نسخة توقيع بولاية قاقون، من إنشاء ابن نباتة، وهى :

رُسم بالأمر - لا زال ينْدُب لمصالح الولايات سُيوفا، ويقدّم ظنًّا فى الكُفاة يعلم أنّه سيُوفىٰ، ويُدنى من ثمرات الإنعام والإرغام لأيدى المجتنين قطوفا - أن يستقرّ ... ... آعتمادًا علىٰ همّته السّائده، ودرايته السّائده، وأمانته الشّاهده، وصفات عزمه التى هى فى الولايات «معنّ» وهى «زائده»؛ مجتهدًا علىٰ أن يثمر عمل ولايته فتزكو أعماله، وترد عليه المهمّات فتتلقّاها بالكفاءة أفعاله المعروفة وأقواله، وتشهد منه الأحوال معنًى بل معانى يثبت بها فى الأذهان قبوله وإقباله.

---

(١) أقوى . نزل بالقفر — أعصم — أمنع وأحفظ لرعيته من الاغتيال .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَرْخَد، من إنشائه، لمن لَقَبُه «جمال الدين» وهى :

رُسم بالأمر أعلاه الله تعالىٰ، وبلّغ بأيّامه الرُّتبَ وأهْلَها آمالا، وزانَ الولايات بما يُنْتِج من مُقدّمة فِعْله وقَوْله جمالا - أن يُرتَّب مجلسُ الأمير ... ... لأنّه الكافِى الذى عُرِفتْ فى المهِمّات هِمّتُـه، وأُلِفتْ عَزْمَته، وأُديرتْ أوصافُه عُقارًا صَرْخَدِيّةً ولا عجب أن سرَتْ بالنَّواحِى خدمتُه؛ والنّاهضُ الذى وَفَّى الوِلايةَ حقَّها، وأدّى الأمانةَ وسلَكَ طُرُقَها، وأطلعَ فى سَماء الولاياتِ شُهُبَ رأْيه فحمَىٰ وزان أُفُقَها.

فلْيباشِر هذه الولايةَ بعَزْمٍ سَنِىٍّ، وحَزْمٍ سَرِىٍّ، ومَهابةٍ تأْخذ للضّعيف من القوىّ، ودِيانةٍ تَمْشى من الكفاءة والأمانة على صِراطٍ سَوِىٍّ، مُثمِرًا للمال والغلال، راقِمًا لحُلَلِ الذِّكْر بحُسْن الخلال، مُحَسِّنًا لذِكْرِ وِلايَتِه حتّىٰ يجمعَ لها بالوَصْفِ والنَّعت بين الحُسن والجمال، وإيّاه والجُبْنَ عن المهِمّات فما كل جُبْنٍ صَرْخَدِىٍّ مَحْمودُ العاقبة والمآل.

* * *

وهـذه نسخةُ توقيع بولاية سَلَمِيَّةَ، من إنشائه، كُتب به لـ«شهاب الدين الحجازىّ» وهى :

رُسم ... ... - لا زال يُطْلِعُ شُهبَ الوُلاة مُشْرِقَه، ويُنْشِئُ سُحُبَ الإحسانِ مُغْدِقَه، ولا بَرِحتْ أقلامُ علائِمِـه كالغُصون بأحْسن ثمراتِ الدَّوْح مُثمِرةً مُورِقَه - أن يُرتَّب ... ... عِلمًا أنّه الناهضُ الذى إذا وَلِىَ كَفَىٰ، وإذا طَبَّ الولايةَ المعتلّةَ بتقديم المعرفة شَفَىٰ؛ ورُكونًا إلىٰ عَزْمه الذى أبَىٰ لِشهابِه أن يَخْمُد، وكفاءَتِه التى

[قضتْ لاسْمه بالعَوْد : فإنَّ العَوْد أحمد، وآعتمادًا على سِيرته الحَسَنة السُّمْعه، الحقيقة بالرِّفعه ، وعلى سَطْوَته بالمُفْسدين التى حَسَّنتْ أن يُقال فيه : «لقد أوْقع الجحّـاف بالبِشْر وَقْعه»(١) .

فلْيباشِرْ هـذه الولاية بعزْمه المُتوالِى، وآجْتهادِ رأْيه الذى يُطْرِبُ بارِقُه المُتَعالِى ؛ جارِيًا على عادة سَـدَده، مُجتهدًا فيما هو بصَدَدِه ؛ مُسَدَّدًا ـ إن شاء الله ـ فى القَوْل والعَمَل ، مانعًا لناحِيته الأعْرابِيَّة من تَطرُّقِ الخَلَل وتَطرُّف الخَلَل ؛ مُصْلِحًا بالتَّدْبير عمل مايشهدُ بعزائمه الوَفِيّه، وهِممه الجَليلَة الجَلِيَّه، و إذا سأل عن شَدِّ الوُلاةِ واحدٌ قيل : سَلْ مَيَّةَ عن سَلَمِيَّه .

✤ ✤ ✤

وهذه نسخةُ توقيع بشَدِّ مُتَحصِّل قُمامة، من إنشاء ابن نُباتة، وهى :

رُسِم بالأمر ـ بسط الله تعالى على الأُمَم مهابتَـه وظِلَّه ، و بَأْسَه وفَضْلَه ، ووجَّه إليـه آمالَ الخَلْق من كلِّ قِبْله ، وأعلى آراءَه التى يقال لعَدْلها : «لقد جُدْتَ حتَّى جُزْتَ فى كلِّ مِلَّه» ـ أن يُرتَّب... ... ... مضافًا لما بيَده ، وآستنادًا إلى صحيح خَبَره فى الكفاءة وعُلُوِّ سَنَده، وآرْتيادًا لهِمَمه التى إن رواها مُسلمٌ عن طَوْعه رواها نَصْرانِىٌّ عن تَجلُّده؛ وسُكونًا إلى حَرَكته التى تُحصِّلُ مَالا، وتَصِلُ إلى مالا؛ وتستخرِجُ الوَفْرَ من مَكْمَنه، وتأْخذُ الحقَّ [من] قُدّام يَدَىِ المائل ومن خَلْف أُذُنه ؛ وعِلْمًا أنَّ مالمتحصل قُـمَامَةَ مِثْلُ عَزْمه المختـار ، و رِفْقِه الذى يستنزل دَرَّ القصـد المِدْرار ، وآجْتهادِه الذى زَرَعه المستنهِضُونَ فآستوى على سُوقه يُعْجِبُ الزُّرّاعَ ليَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّار .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ بشِـدَّةٍ ولِينٍ يجعـلُ كلَّ واحدٍ منهما فى مَوْضعه ومَقامه ، وحَقٍّ مُنيرٍ يجعل سَبْتَ نُورٍ كلَّ لياليه وأيامه ؛ وأمانةٍ مُدِلَّه ، وكَفاءَةٍ مُظِلَّه ؛ وصِيانةٍ

(١) صدر بيت للأخطل وتمامه «الى الله منها المشتكى والمعوّل» والجحاف اسم رجل والبشر اسم جبل .

تُوجِبُ مَزِيدَ الخير إذًا له، ومَهابَةٍ إذا أُدخلَتْ مُسْتَخْرَجَ قُمامَةَ أَصْلحَتْه وجَعلتْ أعِزَّةَ أهْلِها أذلَّه، لا يَثْنِي هِمَمَه النَّفِيسَه، ولا يَلْتفِت - كما يقال - لتَبْخير الكَنِيسَه؛ بل يستعملُ فِراسَةً تَرُوعُ من حَمَلَ عن أداءِ الحقِّ بُهتانا، ومناقَشَةً تكْشِفُ عن جبال التَّجَلُّد أكْنانا، ورَأْفَةً مع ذلك بالظَّاهِري العَجْزِ : ذٰلِكَ بِأَنَّ منهم قِسِّيسِينَ ورُهْبانا، ومتابعةً للضَّرائِبِ القديمة لا يُصْرف عنها، وآستخلاصَ ماعلى الرَّأْس حتّىٰ يقال : «ليس تَحْتَ الزَّرْقاءِ أخْضَع منها» ؛ عامِلًا بتَقْوى الله تعالىٰ فإنَّ أهلَ معاملَته أهلُ ذِمَّه، مُجتهدًا فى آستحقاق مايترشح له من ولايات الأمور المهمَّه .

الصنف الثانى

(ممَّا يكتب لأرباب الوظائف بدمَشْق - تواقيعُ أرباب الوظائف الدِّينية، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مايكتب لمن هو بحاضرة دِمَشْق، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ

(مايُفتتح بـ«الحمدُ لله»)

وهذه نسخ تواقيعَ من ذلك :

تَوْقِيعٌ بنَظَر الحِسْبَة بالشَّام، كُتب به للقاضى «نور الدين علىّ بن أبى الفرج» بـ«الجناب الكريم» وهو :

الحمدُ لله الذى جعل مقامَ الأولياءِ عليًّا، ورَقَى بهم إلى طَوْرِ العناية فأشرق نُورُهم سَنِيًّا، ووفَّقهم للأمْر بالمعْرُوف فلم يَزَلْ غَيْثُ النَّدَى بهم وَلِيًّا، وزَنْدُ سُبُل الرَّشاد والحِكْمة وَرِيًّا.

نحمَده حمدًا كثيرًا طيِّبًا زَكِيًّا، ونشكره شُكْرًا لا يزال غُصْنُه بالزِّيادة جَنِيًّا؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُكَرِّرها بُكْرةً وعَشِيًّا، ونسلُك بها صراطًا سَوِيًّا؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه الذى آختاره صَفِيًّا، وقَرَّبه نَجِيًّا، ورسولُه الذى قام به الحقُّ وأصبح به الباطلُ خَفِيًّا؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً ينال بها المُؤْمنُ يوم العَطَشِ رِيًّا، ويحوزُ بها فى جَنَّةِ المأْوَى حُلَلًا وحُلِيًّا، وسلَّم تسليمًا كثيرا.

أما بعدُ، فإنَّ أولى ما يَلزمُ الفِكْرُ [فيه] ويتعيَّن، ويتمُّ النُّجْحُ بحسْنِ النَّظَر فيه ويتبيَّن ـ أمْرُ الحِسْبة الشريفة: فإنَّها المَنْصب الذى به صَلاحُ أحوال الرَّعِيَّه، وقِوَامُ إقامَة الحُدود الشَّرعِيَّه؛ تَسْلُكُ العامَّةُ لمُسْتَولِيه سُبُلَ صَنائعه ذُلُلًا، وتكْسُو بإتقانها أنْواع بضائعها حُلَلًا؛ وينْتَفِعُ بمعرفته الآمِرُ والمأْمور، وتُحاطُ المَعايِشُ عن غِشْيانِ الغِشِّ من حُرْمته بسُور؛ وتطمئنُّ القلوبُ بإصلاح المطاعم وتَهْنَى، وتقولُ الألْسِنَةُ: شُكْرًا لمن سنَّ هذه السُّنَّة الشَّريفةَ وسَنَّى، وردَع ذَوِى الغِشِّ عن غَوَايَتِهم: فَمَنْ غَشَّنا ليس مِنَّا؛ لا سِيَّما بدِمَشْق فإنَّها شامةُ البلاد المحروسه، ومَوْطِنُ البركة المأْثورَةِ والبَهْجةِ المأْنُوسه؛ بلدٌ شاعَ ذِكْرُها فى المغارب والمشارق، وإنَّ مَحاسِنَها لن تُقاسَ بغيرها: والجامعُ الفَارِق.

وكان فلانٌ ممن تَحلَّى من عُقود المحامد بجواهِرِها، وآرْتدَى من حُلَلِ المآثر بمفاخرِها؛ وعُرِف بالنَّهْضة والعَفَاف، وآتَّصف بجميل المَعْرِفة والإنْصاف؛ وحَسُنَتْ سِيرتُه فى أحكامه، وحُمِدَت قواعد تعدّده (١) ونَضَارةُ نِظامه.

(١) لعله "تعهده".

فلذلك رُسم بالأمر العالى ـ لا زال يُولِى جميلا ، ويُوَلِّى فى الوظائف السَّنِيَّة جليلا ـ أنْ يستقرّ المشارُ إليه فى نَظَر الحِسْبة الشريفة بالشّام المحروس، على عادة مَن تقدّمه فى ذلك، والقاعدة المستمرّة، بالمعلوم المستمرّ للوظيفة المذكورة، إلى آخر وقت : وضعًا للشّىء فى مَحلّه ، وتفويضًا لجميل النَّظرِ إلى أهْلِه .

فليباشِرْ ذلك آمِرًا بالمعروف وناهيًا عن المُنكَر، سالِكًا من حُسْن الطريقة ما يُحمد به ويُشكَر، ويَسُرُّه حين تُتلَى سُوَرُ محاسِنه وتُذْكر ، متفقّدًا أحوالَ العامَّة ومَعايِشها فى كلّ آن ، ملتفتًا فى أمر ما يُكال أو يُوزَنُ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ . مُشَمِّرًا عن ساعده فى الإجراء على العوائد المُسْتَحبَّة ، مُحترزًا فيما يأمر به : فإنّ الله تعالى لا يَخفَى عليه مِثقالُ حبَّة ، ولْيَنظُرْ فى الدَّقيق والجَليل ، والكثيرِ والقليل ، ولْيَستكثِرِ الأخبار ، ولْيَستعْلِمِ الأسعار ، ولا يَغفُلْ عن تعاهد السُّوقةِ آناءَ الليل وأطرافَ النّهار ، ولْيُلاحِظْ أمر السّكَّة السلطانية بإصلاح العِيار ، وضَبْط أحوالِ النُّقودِ بِمقْدار ، ولْيُقِمْ من خَدَمَتِه رقيبًا على من آتّهم فى صَنْعته أو آسْترَاب . ولْيُبالِغ فى النَّظر فى أمر المآكل والمشارب فإنَّ أكثرَ الدّاء من الطعام والشّراب ، وليزْجُرْ بتأديبه مَن آفترَى ، أو تَلَقَّى الرُّكبانَ أو غدا فى الأقوات مُحتكرا ، ولْيَعلَمْ أنّه قُلِّد أمْرَ هذه الوظيفةِ المباركةِ : فلْيَختَرْ من يَستَنِيب ، ولْيُبصِرْ كيف يسلُكُ بِرعايتِه مَن حكم عليه فما يَلفِظُ من قَولٍ إلّا لَدَيْه رَقيب ، والوصايا كثيرةٌ وأصْلُها التقوَى التى هى أجلُّ ما يَقتَنِى المؤمنُ ويَكتَسِب ، وأجْدرُ بالزِّيادة : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب﴾ . والله تعالى يُديم علاه، ويتولاه فيما تَولّاه .

✣

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الجامع الأُموى، من إنشاء الشيخ جمال الدّين بن نُباتة، كُتب به للقاضى «عماد الدين بن الشيرازى» فى الدولة الصالحية «صالح بن الناصر محمد» بـ«ـالجناب الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى أَذِنَ لبُيوتِه أنْ تُرفَعَ فرفَع عِمادَها، وأعاد أحْسنَها إلى نظر من صَرَّف أُمُورَها بما حَسُن وصَرَفَها عمّا دَهى، وأحيا الآثارَ الأُمَويّةَ حتّى غدتْ كالهاشمية تدعو أجْوادَها وسُجّادَها، وأنجزَ وعدَ أهْلِها بمن أشارتْ إلى مُباشَرتِه أعلامُ أعلامِ المنابرِ بالأصابع ونَصّت المآذِنُ أجْيادَها.

نحمَدُه على ماهَيّأ من الفوائد، وهَنّأ من العوائد، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا الله وحده لا شريكَ له شهادةً يقومُ بها الخطابُ شاهدًا ويقومُ بها الخُطباءُ فى المَشاهِد، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ الجَوامعَ من الكَلِم وجُعلتْ له الأرضُ من المساجد، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين عَمَرُوا بُيوتَ العبادات بهِدَايَتِه، وظَهَرُوا فى مَجالِ الجَمْع ومِجَال الجموع تحت رَايَتِه، صلاةً متصلة السَّير كالسَّيْل، مُسْبَلَةَ الغَمام كالذَّيل، واضحةً كَرَدْعِ الخَلُوقِ لدُلُوكِ الشَّمْس فائحةً كفَتِيتِ المِسْك إلى غَسَقِ اللَّيل.

وبعدُ، فإنّ أَوْلَى الأُمور الدِّينية بتَقْديم الاهْتِمام، وتَقرِيرِ الاعتِزاء إلى الاعتِزام، وتَشْميرِ ساعِدِ الرَّأى وزَهَراتُه على الأكمام - أمرٌ تكونُ إقامةُ الصَّلَوات أحدَ أرْكانِه، وتَدْبيرُ المصالح مُشيرًا إلى عُلُوّ شانِه، وأرْزاقُ العُلماءِ والصُّلحاءِ تُسْتَدَرُّ من هَطّاله وهَتّانه.

وكان الجامعُ الأُموِىّ بدِمَشْق المحروسة لهذه الأرْكانِ بمنزلة الأُسّ الرَّاسخ تمكينُه، والفَرْع الشَّامخ فى وَجْه السَّحاب عِرْنِينُه؛ وبُنْيَة زمان بنى أُميــة الذين عفَا شَرَفُ مَفاخِرِهم وما عَفَا شرفُه وفَخْرُه، ووَكْرَ الإسلام الذى مَضَىٰ لُبَدُ أمثاله وما بَقِىَ إلَّا نَسْرُ السماء ونَسْرُه؛ ذُو المَرْأَى الشارح والفَضْــل المَشْرُوح، والحُسْنِ الذى إن تغَالَىٰ فى وصــف الجوامع قَوْمٌ قيــل: بابُ الزِّيادَة مفتوح؛ تَفْخَرُ به دمشــقُ وحُقّ لهــا علىٰ كلِّ مِصْرٍ أن تفْخَر، وتَبعَثُ نظراتُ حُسْنِه الفَخْرَ من حَمَلة فُصوص التَّرخيم إلى الأسْوَد والأحمر؛ يَحْمَــدُ المُجاوِرُ به مَغْنــاه وغَنَاه، ويَسَعُ أربابَ العِــلْم والمَقاصِــدِ نَادِيه ونَدَاه، ويُطالِــعُ المِسْكُ سُطورَ مِياهِه المتَجعِّدة فأوّلُ ما يُقْرَأُ من تنْبِيــه عَزْمِه بابُ المِيَاه؛ وقد عُهِــد أنْ يتولَّىٰ نظَرَه كلُّ سَــنِىّ المفاخر، سَرِىّ المآثِر؛ كَرِيمِ الفَرْعِ والأصْل، ماضِى العَزْمِ كالنَّصْل، حائزٍ من أقلامه أمَدَ العَلْياء وقَصَبَ الخَصْل.

ولذلك رُسِم بالأمر الشَّريف - لا زال وجْهُ الفَضْــل بدَوْلته الشريفــة وَاضحا، وميزانُ العَــدْل والإحسان رَاجِحا، ولا زال فى كَنَف مَن منّ به على الدِّين والدنيا وآتاهما صَالِحــا - أن يُفوَّض إلىٰ فلان نظَرُ الجامع الأُموِىّ المذكور: لِمَــا عُرِف من أنَّه الرئيسُ الذى ماسَاد سُدَىً، والكاملُ الذى إذا آنس [سَارٍ] نارَ فِكْرته وجَدَ على النارهُدَىً؛ وأنَّه باشَرَ نظَرَ هذا الجامــع قديمًا بَجمَّله، ورَصَد سَناه فكمَّله، واَسْتشْهَدَ فى مَحْضَرِ ديوانه على النَّزاهَة أقلامَه المُعَــدَّلَه، وتَدْبيرَه المُعَدّ له؛ وكَثَّر أوقافَه وكانت قد اَضْمَحَلَّتْ، وشَــيَّد عمائرَه وكانت قد اَسْتقَلَّتْ، وملأ حَواصِــلَه وكانت أقلامُ المُكْتَسِبَة تُنشِدُ: «أسائلُها أىّ المَواطِنِ حَلَّتْ»؛ ولَمَــا أَلِفَ هذا الجامعُ المعمورُ من عَواطِفِه، وعَرَف من عَوارِفِه، وشَهِدَ من جُلوســه لمصالح وَقْفِه أحْسَنَ الله مكافأةَ جَالِســه وواقِفِه؛ فأثْبَتَ فى صَدْرِ المحافِلِ أنَّ الله تعالىٰ قد رزَقَه من الفَضْل جَسِيمًا،

وكَتَب له من شَرَف الاكتساب والانتساب حَديثًا وقديما ؛ وألقَى إلى يده قلَم كفاءةٍ وأمانةٍ كان كَرَمُها للآملين حَصينًا وكان قلمُها للخائنين خَصيما ؛ كَمْ وفَّر به المصالحَ فَوَفَّى ، وكَمْ جمع بِهِمَّته المحاولة مالًا جُهِّز به من جُنْد الدُّعاء صَفًّا ؛ كَمْ سَرَّ بمناقِبه سَراةَ سَلَف مامنهم إلَّا جوادٌ لا يَرضَى في سَبْق المكارم بخاتِمه ، وكاتبٌ يكبُرُ عن قول الواصف : إنَّ ياقُوتًا في فَصِّ خاتَمِه ؛ ورئيسٌ هو أجلُّ ما أهدتْ شيرازُ إلى دِمَشْق من عالى طراز الفضْل وعالِمه .

فلْيباشرْ مافُوِّض إليه بعزْمٍ لاتُفَلُّ مَضارِبُه ، ورأيٍ لاتأفُل كَواكِبُه ، ومَعْدِنِ وفاءٍ بالمَنْصِب لا تبرح لجُناةِ الخيانة مَهالِكُه و لجُناةِ الجِنانِ مَطالِبُه ، ناظرًا فى حُسْن وظيفتها باجتهاد لا يَمَلُّ من النَّظَر ، مُثمِرًا لأوقافِها بغُصْنِ قلَمِه الذى لاينكر لأصْله الصَّائبِ أطايبُ الثَّمَر ، مُلاحِظًا لمَبانى هـذا الجامع بسعادته : وإنَّ السَّعادةَ لتَلحَظُ الحجَر ، صارفًا لذوى الاستحقاق مُستَحَقَّهم كما عَهِدُوا من إمام بَراعَتِه المُنتَظَر ، مجتهدًا على أن يُرضِىَ الوَظِيفةَ والقَوْم ، مُعِينا عَدْوَى أنامله الخَمْس على عَدَدِها من فريضة اللَّيلة واليَوْم ؛ عالمًا أنَّ الله تعالى قد أحيا هـذا الدِّيوانَ فإنَّه كما عَلِم أصْلٌ فى بابه ، آمرًا بما يقترح لنِظامِ هذا الدِّيوانِ وكُتَّابِه ، منتقِدًا حال من إذا عَمَّر دواةً فى وَقْف كانت سَبَبًا لعُمْرانه أو سَبَبًا ــ والعياذ بالله تعالى ــ لخرابِه ، مُطالِبًا مَن ظَنَّ أنَّ حسابَه يُهمَلُ فى دَهْرِ هذه المباشرة «فكان حِسابُ الدَّهرِ غيرَ حِسابِه» ؛ مُتخيِّرًا من الكُفاةِ كلَّ مأثُور الفضِيلَه ، ومن الأُمَناءِ كلَّ مأمُون الرَّذيلَه ، ومن القُوَّامِ كلَّ مَن لايقْعُد عن الواجب ، ومن الوَقَّادينَ كلَّ مَن لايُعابُ بطُول الفَتيله ، جاعلًا تقْوى الله تعالَى فى كلِّ ما يأتى ويَذَرُ سائِقَه إلى الفوز ودليلَه ؛ والله تعالى يُمِدُّه بالسداد ، ويَصِلُ مَفاخِرَه بالسَّنَد ويحرُس شَرفَ بَيْته من السِّناد ، ويجعلُ كلَّ مَنْصِب كريم باسْمه وقلَمِه كما قال الأوَّلُ : «رَفيعَ العِمادِ طَوِيلَ النِّجاد» .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر مدرسة الشيخ أبى عمر، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين» بالجناب العالى، وهى :

الحمدُ لله الذى عَمر عَهْد التُّقَىٰ بتقيِّه، وأقرّ نظرَه بمشاهدة أبيض العِرْض نقيِّه، وأخصب مَنازلَ الأولياءِ بمن ينُوب تثْميرُه وتدْبيرُه عن الغيْث مَنابَ وليِّه، ومَن إذا شَهِد مقامُ الزُّهّاد بمعْرُوفه شَهِد سَدادُ العَزْم بسَرِيِّه .

نحمَـدُه علىٰ جَلِيِّ اللُّطْفِ وخَفِيِّه ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ وافِى الحقّ و فيِّه، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه أكرِمْ بعَبْده ونَبِيِّه ، ورَسوله وصَفِيِّه، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً يمزُجُ أرَجُها كافُورَ صباح النهار بمِسْكِ عَشـيِّه .

وبعدُ ، فخيرُ النظر ما كان به الثّوابُ مأْمُولا ، والعمَلُ مَقْبولا ، والآخرةُ للناهِض فيه خيرا من الأُولىٰ، وتخيُّرُ الأكْفاءِ لمناصبِ الدِّينية سَبَبًا لخير الدّارَيْن مَوْصُولا .

ولمّـا كانت المدرسة الصالحية بجَبَل الصالحية المعروفة بالشيخ العارف أبى عمر: رضى الله عنه وأرضاه، وسَقىٰ سَبَلُ الغيث آثارَه الطاهِرَةَ وثَرَاه، مما يتعيَّن فى مصالحها حُسْنُ النّظر، ويتبيَّن فى القيام بأمْرها فَضْـلُ الآراء والفِكَر، إذْ هى زاوية الخـير النافِعه ، ومدرسـةُ الذكر الجامعه ، وعُشُّ القُرآن المترنّمـةُ أطْيارُه بخفقانِ القُلُوب الخاشعه، وصُفّةُ الفقراءِ الذين لا يسألُون النّاس إلْحافا، والأصْفياءِ من الطَّمع الذين لا يتقاضَوْن الدهرَ إنْصافا وإن صَافىٰ، ومُرتكَضُ سوابق الأعمال والأقوال، ومَقرُّ

القُرَّاء والقِراءَةِ علىٰ ممرِّ الليالى الطوال ، ومَعْدِنُ التِّلاوَةِ المأثور غَناؤُها فى ذلك الجَبَل وماكُلُّ المعادِنِ ولا كلُّ الجبال ، والبِنْيَةُ لله وتحتاجُ مَن ينظرُ بنُور الله فى وَقْفِها ، ويحفظُ مَسالِكَ جَمْعِها وصَرْفِها ، وينمّى حالَ دِرْهَمِها بتَدْبِيرِه الوافِى : فرُبَّما أبقَتْها الأحوالُ منه علىٰ نِصْفِها .

وكان فلانٌ ممَّن لحَظَ أُمورَها علىٰ بُعْـدٍ فشُغِفَ المَلْحُوظُ باللّاحِظ ، وحَفِظَها علىٰ نَأْيٍ فكأنّما رَوَتْ بالإجَازَةِ عن الحافظ ، وأدارَ عليها من رَشَفَاتِ قلمه نَغْبَةَ السَّاقِى ، وأنْهلَها شَرْبةً مضىٰ بهـا ما مضىٰ مِن تَعَدُّدِ المـال : وفى الجرائد باقٍ يطلبُ البَاقِى ، وسأل أهْلُها بعد ذٰلك ملازَمَته للنَّظر فلَزِمُوا ، ورَفَعُوا قِصَصَهم فى طَلَبه لهذه الوظيفة فجَزَمُوا ، وكَيْف لا ؟ وهو نِعْمَ الناظِرُ والإنسان ، وفى مصالح القَوْل والعَمَل ذُو اليَدَيْنِ واللِّسان ، وذُو العزائم التى تَقَيَّدَتْ فى حُبِّه الرُّتَبُ : "ومَنْ وَجدَ الإحْسَان" ، والمتقدِّمُ فِعْلُه ورَأْيُه فى العاجل والآجل ، والمأْمُون الذى يُعزىٰ إلىٰ عقيلة نسبة الرشيد ولا عَجَب أنْ يُعزَى المأمونُ إلىٰ مَرَاجل[1] ، كَمْ جرتْ ألْسِنَةُ الأوْقاف بأوصافه ، وكَمْ رَوى الجامعُ الصحيحُ خبرًا عن مُسَلَّمِ عَفافِه ، وكَمْ جدَّد لِبنائه زُخْرُفًا بعدَ ماكاد تَادِبُ الرُّسومِ يَقِفُ علىٰ أحْقافِه ، كَمْ وَفَّر على الأيْتام مِيراثَ وَفْرِها ، وكَمْ قال آختبارُ الملوك البَاقِيـة : «لأشكرنَّك ماحَيِيتُ» فقال مَاضِى الملوك ذَوى الأوْقاف : «ولتَشْكُرنَّك أعْظُمِى فى قَبْرِها» ـ فاقتضى الرأْىُ أنْ يجابَ فى طَلَبه المُهِمِّ سؤالُ القَوْم ، وأن يتَّصلَ أمْسُ الإقبال باليَوْم ، وأن تَبْلُغَ هذه الوظيفةُ أمَلَها فيه بعد مامَضتْ عليها من الدَّهر مَلَاوَه ، وهذه المدرسةُ التى لولا تَدارُكُه لكانتْ كما قال الخُزَاعىُّ : «مَدارِسُ آيات خَلَتْ من تِلاوَه» .

(١) يشير الى المأمون بن هرون الرشيد العباسى وأمه مراجل .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يُراعى مصالح المؤمنين ـ أن يفوَّض إليه النَّظرُ علىٰ هذه المدرسة المعموره، وأوْقافها المبروره، إجابةً لسؤال مَن فيها من جماعة الفُقَراء ورَغْبَتِهم فيه، وآرْتقابِهم لعزْمه الذى إذا نَظَر حالَها الأوّل تَلا فيه تلافيه، علىٰ أنْ يتَّبِعَ فى أمْرِها شَرْطَ الواقِفِ بَرأْيٍ غيرِ قاعِد، وإن كان لايزيد فيها علىٰ أرْبعمائةِ نَفَرٍ إلَّا أن يَزِيدَ رَيْعُ الوَقْفِ وهو ـ إن شاء الله ـ ببركَتِه وهِمَّتِه زائد.

فلْيباشِرْ ما فُوِّض إليه مباشرةَ مَن إذا بَدَأ أعاد، وإذا دُعِىَ لمثل هذا الحال الضَّعِيف طَبَّ وعاد، مثمرا لمالها ـ علىٰ عادة غُصْنِ قلَمه الأخْضَر ـ أثمارا، مُسْتخلِصًا للبَواقى من أرْبابها التى تَنْهَبُ العيْنَ وتَدَّعى لفَتَراتها آنْكسارا، قائلًا فى حال هذه المدرسة بالعَطْف، مُساوِيًا فى المُواسَاةِ بين فُقَرائها عند المِيزانِ والصَّرْف، نازلًا بنُورِ بِشْرِه وُدِّه بينهم منازِلَ القَلْبِ والطَّرْف، مُجهِّزًا لجَيْش عُسْرَتِهم فإنهم جمع للتِّلاوة والصلوات، مُتَطَلِّعًا لخبرِهم فإنَّهم أجْنادُ صُفوفِ الأسْحارِ وسلاحُهم الدَّعَوات؛ وتقْوى الله تعالىٰ مُشْتَقٌّ منها آسْمُه فلْتكُنْ شَقِيقَةَ نفْسِه فى الخَلَوات، والله تعالىٰ يحفظُ عليه حَظًّا نفيسا، وقَدْرًا للنجوم جَليسا، ويُحْيِى به مَيْتَ الوظائفِ حتّىٰ يقالَ: أسُلَيمانُ أنت أَمْ عِيسىٰ؟.

✣

وهذه نسخةُ توقيعٍ بخَطابة الجامِع الأُمَوِىّ، من إنشاء آبن نُباتة، كُتِب به باستمرار القاضى تاج الدين بـ«الجناب العالى» وهى:

الحمدُ لله الذى رفع للمنابِرِ رأْسًا باسْتِقرار تاجِها، وجمع لصُدُور المحاريبِ شَمْلًا بعوائد آبْتهاجِها، وزَيَّنَ مواقعَ النِّعَم بالتَّكْرارِ كما تُزانُ لآلِئُ النِّظامِ بازْدِواجِها، وبيَّن مطالِعَ الفَرَجِ بعدَ الغَمّ: وما الدَّهْرُ إلَّا ليلُ غُمَّةٍ ثم صُبْحُ آنْفراجِها.

نحمده على معاد الآمال ومعاجها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تمشى البصائر إلى الحق بسراجها ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله القائم على المنابر لمداواة الفهوم وعلاجها ، ومداراة الخصوم وحجاجها ، القائل له تأديب ربه : (واصبر وما صبرك إلا بالله) آية يسرى الفطن على منهاجها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه بحور النعم والنقم عذبها وأجاجها ، وبدور مساجد التقى ومشاهد الوغى عند عجاج ليلها وليل عجاجها ، صلاة كصلاتهم آمنة من خداجها ، ما مدت نفحات الروض إلى مخالطة سيرهم يد احتجاجها ، ومازجت معاليهم النجوم فحسن بكأس الثريا شرف امتزاجها .

وبعد ، فإن أولى الناس باستقرار مناصب الدين العريقه ، واستمرار علو الدرجات : إما من المراتب مجازا وإما من المنابر حقيقه ، واستمطار الوظائف بعيادة فضله ولا سيما أعواد الخطابه ، واستبصارها بلفظه ولا سيما إذا سلمت الراية العباسية من نطقه لعرابه — من درج من عش فروعها خافقا عليه جناحا علميه ، وصعد إلى عرشها مقبلة بنظرات الجفون المتسامية آثار قدميه ، وأعرق نسبه فى موطن مكانها المكين ، وبلغ مقامه مقام سلفه أربعين سنة فى الطلوع بأفقها المبين ، وقال استحقاق ميراثه : "وماذا تدرى الخطباء منى"[1] * "وقد جاوزت" بمقام السلف "حد الأربعين" ، ومن إذا سمعت خطابته قال الحفل : لافض فوه ، ولا عدم البيت ولا بنوه ، ومن إذا طلع درج المنبر قال المستجلون لسناه : أهل البدر؟ قيل لهم : أخوه ، ومن إذا قام فريدا عد بألف من فرائد الرجال تنظم ، وإذا أقبل فى سواد طيلسانه واحدا قيل : جاء السواد الأعظم .

(١) الرواية الشعراء، وهو تر بيت لسحيم الرياحى .

ولما كان فلانٌ هو معنىٰ هذه الإشاره ، وفحوىٰ هذه العباره ، وصَدْر هذا التَّصْدير : ومَن سِواهُ أحقُّ بصفات الصَّداره؟ ، ومن إذا ضُرب المَثَلُ بالخطابةِ النُّباتيَّة فى حَلَب قال لخطابته بدِمَشْق : «إيَّاكِ أعْنِى فاسمَعِى ياجاره» ؛ ومن نَشَأ فى محلِّ فخار طيب المَعاقِد ، ومَن وَضع رِجْلَه على المنابر ومَدَّ عزمه إلى الفراقِد ؛ ومن شَمَّر فى أوائلِ عُمْره إلىٰ العَلْياءِ وَحِيدًا وخَلَّف دُونَها من أنداده ألفَ راقد ؛ ومَن إذا صَعِد للخطابة أنشد الحَفَدَةُ :

ولما رأيتُ الناسَ دُون مَحلِّه * تيقَّنْتُ أنَّ الدَّهْرَ للنَّاس ناقِد

وكانت خطابةُ[1] الجامع الأُمَوىِّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدِمَشْق المحروسة هو الذى كلُّ بَنانٍ إلىٰ حُسْنه يُشير ، وكلُّ ذِى مَذْهَب إذا عايَن تَصْنيفَ وَضْعه قال هذا لفِقْهِ المحاسِن هو الجامعُ الكبير ؛ ميزابُه (؟) المسلم لرشده ، المُعْلَم بطرازَى نَسَبِه و رشده ، المقدّم لِيَد نصرته سَيْف خطابة لايخرجُ بيَد الاسْتِحقاق عن حَدِّه ؛ تكاد المنابرُ تَعُود للنَّشْأةِ الأولىٰ طَرَبًا لسَجْع بيانِه ، يُسْهِب ويقولُ الناس لَيْته لا ٱخْتَصر ، ويَوَدُّون لو لَبِس كلَّ يومٍ سَوادَ أُهْبته و زِيدَ فيه منهم سَوادُ القَلْب والبَصر ؛ وعارَضَهُ من العظماءِ الكُفاة مَن نَوىٰ بَدلًا فأبىٰ حُنُوُّ الدَّولة إلا عَطْفا ، ونازَلَه واردٌ من القَضاء ولكن أنزل اللهُ عليه مع القَضاء لُطْفا .

ولذلك رُسِم بالأمر الشريف أنْ يستقرَّ علىٰ عادته فى خَطابةِ الجامع المذكور ، وما يتعلق بذلك : من تَدْريس وتَصْدير ، وتَقْرير وتَقْدير ، وتأثِيل وتأثير ؛ ومحكومٍ بالتفويض إليه ومُحَكَّم ، ومَرْسومٍ لا يُغَيَّر عليه ما رُسِم به وما يُرْسَم ؛ وأن يُمنَع دليلُ

---

(١) الكلام هنا غير مستقيم ولعل الصواب «ولما كان فلان هو معنى الخ وكان الجامع الأموى هو الذى الخ تعين أنه المسلم ليده .

الاعتراض ويُدْفع ، ويُكَفَّ حتّىٰ تتصل العنايةُ بهذا البَيْت الذى هو من بُيوتٍ أذِن الله أن تُرفَع ؛ وحتّىٰ يُعلَم أنّ قوماً أحْسنوا صُحْبة الدُّوَل فسَعِدُوا ، ونَبَّهوا عهود الخِدْمة لأعْقابهم وهَجَدُوا ، وحتّىٰ يقولَ هـذا النَّجْلُ الظافِرُ بعد آبائه وأخيه : لَيْتَ أشياخى بِبَدْرٍ شَهِدُوا .

فليُعِدْ حديثَ مَنْصِبِه القديم ، وليَقُمْ إلىٰ تَشْنِيف الأسماع من نَثِير لَفْظه بأبهىٰ من العقْد النظيم ، وليُفُكَّ أَسْرَى القُلوبِ برواتب إشارَته : فإنّه « الفاضل عبدُ الرَّحيم » ؛ وليُبْكِ العُيونَ بوعْظه وإنْ أقرَّها بمُشاهَدَتِه ، وليَحْرِص علىٰ فَخْر الدولة الشريفة به كما فَخَر سَيْفُ الدَّولَة بآبن نُباتَه .

ووصايا هذه الرُّتبة مُتَشعِّبةٌ وهو علىٰ كلِّ حالٍ أدْربُ وأدْرىٰ بهـا ، وما آستقرّت علىٰ قَبْض سـيوفها يَدُه إلّا ورجَعتِ الحُقوقُ إلىٰ نِصابها ؛ وكذلك ما هو مَعْـدوقٌ بوظائفه : من مَدارس عُلُوم ، ومجالِس نَظَرٍ طالمـا نظر فى كُتُبها وهو الصَّحيحُ نَظْرةً فى النُّجوم ـ لا يَحْتاجُ فيها إلىٰ مُطالعة الوصايا فإنّه من كلّ أبوابها دَخَل ، ولا يُمِرُّها علىٰ أُذُنه فَمُ المُبلِّغ فإنّها من فَمِه أحلىٰ ومن تَسْويغ فَمِه أحَل ؛ ولكنّ التَّذْكارَ بتقوى الله تعالىٰ فيما يأتى ويَذَرُ أُسُّ جَليل ، ووَجْهٌ تتفاضَلُ وُجُوه الألفاظ من ذِكْره علىٰ لَفْظٍ جَميل ، وألفاظُ الخَطيبِ المُتّقِى إذا وصلتْ من القَلْب إلى القَلْب وفَتْ بِرىِّ الغَليل ؛ والله تعالى يُمِدُّه بألطافه ، ويُجْرِيه علىٰ عوائد إسْعاده وإسْعافه ، ويُرْوِى بصَواب كَلِمه الأسْماعَ وبصَوْب الغَمام عُهُودَ أسْلافه .

✢
✢ ✢

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْرِيس المَدْرَسة المسرورية بدمَشْق ، من إنشاء الشّيخ صلاح الدين الصَّفَدىّ ، كُتب به للشيخ « تقِيّ الدين السُّبْكى » بـ « بالمقرّ الكريم » وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تَقِيَّ الدِّينِ عَلِيًّا، وأوْجده فردًا فى هـذا المَلإ فكان بكلِّ عِلْمٍ مَلِيًّا، وأظهر فَضْلَه الجليلَ فكان كالصَّباح جَلِيًّا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى تكاثرتْ فأخجلَت الغمائِم، وتوفّرتِ الألْسِنَةُ علىٰ حَمْدِه فتعلّمتْ أسْجاعَها الحَمائِم، وتأثّرت بمُوافِقِها الأحْوالُ فانْحَلت زَهْرَ الخمائِل فى الكمائِم . ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا شُبْهةَ تعكّر ما صَفَا من لُجّتِها، ولا رِيبةَ تُوعّر ما تَسهّلَ من مَحَجّتِها ، ولا ظُلْمـةَ باطِلٍ تُكدِّر ما أنار من حُجّتِها . ونشهدُ أنّ سـيدَنا محمدًا عبدُه ورسـولُه الذى جُمعتْ فيه مكارِمُ الأخلاق ، وتفرّد بمزايا مِنهـا أنّه حَبيبُ الخَـلَّاق ، وشارَكَ الأنبياءَ فى مُعْجزاتِهـم وزاد عليهـم بمـا أُتيحَ له من خَمْسٍ لم يُعطَهُنَّ غيرُه منهم على الإطْلاق . صـلّى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تفقّهوا فى الدِّين ، وحازُوا الأُجورَ لمـّا جرَوْا إلى جَرّ الغَلاصِم من المُلحدين، وأنْزلُوا لمـّا نازلُوا أبْطالَ الباطلِ والمُعْتَلِين من المُعْتَدين ؛ صلاةً يفُوحُ نَسِيمُ رَيّاها المتأرّج ، ويلُوحُ وَسِيمُ مُحيّاها المتضرّج ؛ ما فرّجَ العلماءُ مَضايِقَ الجدالِ فى الدُّروس ، وقبّلَتْ ثُغورُ الأقلامِ وَجَناتِ الطُّروس ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين .

وبعـدُ ، فإنّ المـدارِسَ ـ عَمَرها اللهُ تعالىٰ بالعلماء ـ لوَاقِفِيها شُروط ، ولأهْلِها هِمَمٌ أنزلُهـا بالنجوم مَنُوط ؛ يَغُوصُونَ بُحورَ البُحوثِ فى طَلَبِ اللآلِى ، ويقْطَعُون ظُلَلَ الظَّلامِ بالسَّهرَ فى حُبِّ المَعالى ؛ سِيّما المدرسةُ المَسْرُورِيّة : فإنّ واقفَها ـ أثابه اللهُ تعالى ـ شَرَطَ فى المُدَرّس بها شُروطًا قلّ من يَقِلُّها ، أو يَتحلّىٰ بعُقُودها أو يَحُلّها ؛ وكان مَفْرِقُها قد تحلّىٰ بتَاجٍ تَجوْهَر ، ومُغْلَقُها قد ضَمّ منه فَاضِلًا تمهّدتْ به قواعدُ المَذْهَبِ لمـّا تمهّر ؛ فأعرضَ عنها ، ونَفضَ يَدَه منها ؛ رَغْبةً فى الإقبال علىٰ شأنِه ، وانْقطاعًا إلىٰ مَالكِ الأمْرِ ودَيّانِه ؛ فخَلا رَبْعُها من أُنْسِه ، وكادتْ تكون طَلَلًا بعدَ دَرْسه .

وكان فلانٌ ـ أسبغ اللهُ ظِلَّه ـ قد وافق بعضَ ما فيه شرطُ الواقف ، وشهِد بنَشْرِ علُومِه البَادِى والعاكِف ، وطاف بكَعْبةِ فَوائِدِه كلُّ طائِف ، ينصَرِف عنه باللَّطائِف ؛ أمّا "التَّفسير" فإنَّه فيه آيَه ، وأمّا "الحديث" فإنّه الرُّحْلَة فى الرِّوايةِ والدِّرايَه ؛ وأمّا "الأُصول" فإنّه زار بـ«ـالرّازىّ» حتّىٰ اختفىٰ ، وأمّا "الفِقْه" فلو شاء أملىٰ فى كلِّ مَسْألةٍ منه مُصَنَّفا ، وأمّا "الخِلاف" فقد وقَع الاتِّفاقُ علىٰ أنّه شيخُ المذاهب ، وأمّا "العربية" فـ«ـالفارِسىُّ» يعتَرِفُ له فيها بالغرائب ؛ إلىٰ غير ذلك من العلوم التى هو لها حَامِلُ الرَّايَه ، وله بالتَّدْقِيق فيها أتمُّ عِنايَه ، وإذا كان أهل كُلِّ عِلمٍ فى المَبادِى كان هو فى الغَايَه .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى ـ أعلاه الله تعالىٰ ـ أن يفوَّضَ إليه كذا وكذا : وَضْعًا للشَّىءِ فى مَحَلِّه ، ومنعًا لتاريخ وِلايةِ غيره أن يَفْجَأ فى غير مُسْتَهَلِّه ؛ فالآنَ أمسىٰ الواقفُ مَسْرورًا علىٰ الحَقِيقه ، والآنَ جَرىٰ الخلافُ فيها على أحْسنِ طَرِيقه ؛ وهو ـ أسْبغ الله تعالىٰ ظِلّه ـ أجلُّ خَطرًا من أن يذْكَّر بشَىْءٍ من الوصايا ، وأعظمُ قَدْرًا من أن تَدُلَّ ألْمعِيَّتُه علىٰ نُكَتِها الخَفَايا ؛ لأنّه بَرَكَةُ الإسلام ، وعَلّامةُ الأعلام ، وأوحد المجتهِدين والسَّلام ؛ واللهُ تعالىٰ يمتِّع المسلمين ببَقائه ، ويُعْلى درجاتِ ارْتِقائه ؛ والخَطُّ الكريم أعلاه الله تعالىٰ أعلاه ، حجةٌ فى ثبوت العمل بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✧

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الناصرية الجوّانية ، من إنشاء الصَّلاح الصَّفَدِى أيضا ، كُتب به للقاضى ناصر الدين «محمد بن يعقوب» كاتب السِّرِّ يومئذ بالشام ، حين عاد إلىٰ تَدْرِيسها بعد انْفصاله عنه ، بـ«ـالمقرّ الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى بَدأ النِّعم وأعادها ، وأفاءَ المِنَن وأفادها ، وزان المناصبَ السَّنِيَّة بمن يَلِيها وزادَها ، وشادَ عمادَ المَعالى بأربابِها وصانَها عمَّا دهىٰ .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى بدأتْ بالمعروف وتَمَّتْ ، وخَصَّصتْ بالإحسان وعَمَّمتْ ، وبَرَّأتْ من النَّقائِص وسَلَّمَتْ ، وفَلَّتْ بالألطاف الخَفِيَّة صَوارِمَ الحوادث وثَلَّمتْ . ونشهـدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُضيءُ بهـا الحَنادِس ، وتَزْكو بأنوائِها مَنابِتُ الإيمـان والمَغارِس ، وتَسْـمُو بآقتنائِها إلىٰ عِلِّيِّينَ النفوسُ النَّفائس ، ويُرْغِمُ المؤمنون بإعلائِها من الكُفَّار المَعاطِس ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى تَمَّم للناس مكارِمَ الأخلاق ، وأخجل بجُودِ كَفِّه الفيَّاضِ صَوْبَ الغَيْثِ الدَّفَّاق ، وفَضَح البَدْرَ اللَّيَاحَ فى الدُّجىٰ بنُورِ جَبِينِه البَرَّاق ، وتَقَدَّم النَّبيين والمُرْسَـلين فى حَلْبَة الشَّرف علىٰ جَوَادِ فَضْـله السَّبَّاق ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه أعلىٰ مَن نَصَبُوا للهُدىٰ أعلاما ، وأرقىٰ من أصْبح العِلْمُ لفَضْلِهم البَاهِرِ رَقَّاما ، وأحْلىٰ من كان الزمانُ بوُجودِهم وجُودِهم للعُفَاة أحْلاما ، وأقوىٰ من كان الإيمـان بهم إذا آستَنْجَدَ على الكُفْر أقْداما ؛ صلاةً لا ينْفَد لهـا أمَد ، ولا يَفْنىٰ لهـا مَدَد ، ما شَبَّ بارِقٌ وخَمَد ، وشَفىٰ الغَمامُ طَرْفَ زَهْرٍ من الرَّمد ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين .

وبعدُ ، فإنَّ مدارِسَ العِلْمِ الشريفِ لها الذِّكْرُ الخالد ، والشَّرفُ الطَّارِفُ والتَّالِد ؛ بها تَتَبيَّنُ فَوَارِسُ الجِلادِ فى مَضايِقِ الجِدَال ، وتَتجلَّىٰ بُدُورُ الكلام فى مَطالِع الكَمَال ، وتَبْدُو شُموسُ الجمال فيما لها من فَسِيح المجال ؛ والمَدْرسةُ الناصرية ـ أثاب اللهُ تعالىٰ وَاقِفَها ـ هى الواسـطةُ فى عُقودِها ، والدُّرَّةُ الثَّمِينة بلا كُفْـءٍ لهـا بين قِيَمِ نُقُودِها ؛ قد تَدَبَّجَ فيهـا البِناء ، وتأرَّج عليها الثَّناء ، وتَخَـرَّج عنهـا الحُسْنُ فإنَّ له بها مَزيدَ آعتِناء .

وكان المقرُّ الفلانىُّ قد نَفَض يَدَه من عِنَانِها، ورَفَض عن آختيار بهاء جِنانِها؛ وثَنَىٰ طَلِبَتَه عن مُحاوَرتِها، ورَمىٰ أُمْنِيَّته من مُجاوَرتها؛ فساءَ مَن بها من أهلِ العِلْمِ فِرَاقُه، وأوحَشَهم وَجْهُه الذى أخجَلَ البُدورَ رَوْنَقُه والبَحْرَ آندفاقُه، وفَقَدوا مكارِمه التى ما سمِع «السَّمْعانِىُّ» بمثلِها ولا وصلت إلى «الصُّولِىّ» ولا ضَمَّتها أوْراقُه .

فلذٰلك رُسِم بالأمْر العالى أن يُعاد إلىٰ تَدْريسها : لأنَّ العَوْدَ أمْدَحُ وأحْمد، والرُّجوعَ إلى الحَقّ أسْعَفُ وأسْعد .

فلْيباشِرْ ما فُوِّض إليه مباشرةً أَلِفَتْ من كمال أدواته، وعُرِفَتْ من جمال ذاته؛ ناشِرًا أعلامَ عُلومه المتنوِّعه، وفضائله التى تَقْصُرُ عن الثَّناء عليها أنفاسُ الرِّياض المتضوِّعه؛ فلو عاصَرَه «آبن عَطِيَّة» أمسك عنه فى تَفْسيره[1]، أو «صاحِبُ الكَشَّاف» لغطَّىٰ رأسَه من تَقْصيره؛ أو «الرَّافِعىّ» لأصْبحَتْ رايةُ رَأْيِه فى الفِقْه خافِضةً رافِعه، أو «النَّوَوِىّ» رحمه الله لآستعار منه زَهَراتِ رَوْضَته اليانِعه؛ أو «الآمِدِىّ» لما آمتدَّتْ له معه فى أصولِه خَطْوَه، أو «آبنُ الحاجِب» لما كان له مع آبن الحاجب حُظْوه؛ أو «آبنُ يَعيش» لمات ذِكْرُه فى النَّحْوِ فكان فَقيدا، أو «آبنُ مالك» لأمسىٰ «تَسْهِيلُه» تَعْقِيدا؛ أو «الشِّبْلِىّ» لعلِم أنَّه ما شبَّ له فى التَّصرُّف مثلُ شِبْلِه، أو «آبنُ عَرَبىّ» لأعرب عن عُجْمَةٍ وما تمسَّكَ صُوفِىٌّ بحَبْلِه، إلىٰ غير ذلك من إنْشاءِ إنْشاءٍ ساد فيه العَبْدَين : «عَبْدَ الحميد» و «عَبْدَ الرَّحيم»، ونَظْمٍ كُلَّما نَظْمأُ إلىٰ رَشْفه طافَتْ علينا قَوافِيه بكأْسٍ مِزاجُها من تَسْنيم؛ وعلى الجُمْلة فتَفْصيلُ مَعارِفه يَضيقُ عن فَضِّها فَضاءُ هذا التَّوقيعِ الكريم، وسَرْدُ محاسِنه لا تَتَّسِعُ له حَواشِى هذا البُرْدِ الرَّقيم؛ ولكِنْ أشارتْ أُنْمُلَةُ القَلَمِ منها إلى نُبْذَه، وعلِمْنا أنَّ القلوبَ تَشْتاقُ إلى أوْصافِه فقلَّدْنا لها من ذلك فِلْذَه .

---

(١) لعله «عن تفسيره» .

وأما الوصايا فمثلُه لا يذكَّرُ بشىءٍ منها ، ولا يقالُ له : دَعْ هذه الوَدْعةَ وهذه الدُّرَّةَ صُنْها ؛ لأنَّ الأمرَ والنَّهْىَ له فى ذلك ، وإذا أطلع بُدُورَ وَصِيَّةٍ ضَوَّأ أحْوالَ الدَّياجِى الحَوَالِك ؛ ولكن تقوى الله عزَّ وجلَّ ذِكْرُها فى كلِّ توقيعٍ طِرازُه المُعْلَمَ ، ونُكتَتُه التى طَوْدُها لا يُثَلُّ وحَدُّها لا يُثْلم ، فليكُنْ مُسْتَصْحِبَ حالها الحالى ، مُسْتَصْعِبَ فِراقِها الذى يُهَوِّنه البالُ البالى ؛ واللهُ تعالى لايُخْلى رُبوعَ العِلْمِ من أُنْسه ، ويجعلُ سَعْدَه فى غدٍ زائدًا كما زاد فى يَوْمِه علىٰ أمْسِه ، والخطُ الكريم أعلاه ، حجَّةٌ فى ثُبوت العَمَل بمُقْتضاه .

✢

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتَدْرِيس المدرسة النُّورِيَّة ، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُباتة ، كُتب به لقاضى القضاة «نجم الدين الحنفىّ» بنزول والده عنها بـ«ـالجناب الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى أنمىٰ أهِلَّةَ العِلْمِ فأبْدرتْ ، وفُرُوعه فأثمرتْ ، ونُجُومَه فاستقلَّت مَطالِعُها النُّورِيَّةُ وتنوَّرتْ ، ولآلِئَه فى بِحارِ اللَّفظ والفَضْلِ فتجَوْهَرتْ ، وأنْهارَه التى أخذت فى المدِّ مآخِذَ تلك البِحارِ فاسْتَرْحَبت وآسْتَبْحَرَتْ .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى قَرَّتْ وقَرَتْ ، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً إذا خَصَّلها اليقِينُ وفرتْ ، وإذا نَصَّلها الإخلاصُ مَضَتْ فى أوْداجِ الباطل وفَرَتْ ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الحاكمُ فى فَصْل الأقْضية لمَّا شَجَرتْ ، والنَّاظمُ دُرَرَ الإيمانِ حتَّىٰ زَهَتْ فى أعناقِ العَقائد وزَهَرتْ ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه فِئَةِ الحقِّ التى ظَهَرتْ وطَهُرتْ ، وعِصابةِ الإسْلامِ التى سَرتْ خَلْفَها

(١) مستعار من نصل السيف والرمح والسهم ركب فيه النصال وهو حديد .

سَرايا الذين نهاجرتْ فى الله ونَصرتْ، صَلاةً طيّبةً تحلو إذا تكرّرتْ، وتحيّةً باقيةً تُشرِقُ شمسُها إذا الشّمسُ كُوِّرت، وتَعبَق نَفحاتُ نَشرِها إذا الصُّحُفُ نُشِرتْ .

أما بعدُ، فإنّ منازلَ العلم من خيرِ ما أبقى الآباءُ للأعقاب، وأكملِ ما ذُخِر لنُجباءِ الأبناءِ على مَدى الأحقاب، وأعدل ما شَهِد بلسانِ حاله المتمثّلِ أنّ وكْرَ العُقاب لابنِ العُقاب ؛ وكانت المدرسةُ النُّوريّةُ الكُبرى بدمَشْقَ المحروسةِ هى الواسطةَ والمدارسُ دُرَر، والصُّبحُ وأوطانُ العلم غُرَر؛ ومنزلةُ الحكم الأمنع، وبيتُ القضاء الذى أذِنَ اللهُ لقَدْرِه أن يُرفَع، ومكانُ ذى اليدِ الماضى سَيفُ حكمه إذا قُرِعَت العَصا لذى الإصْبَع ؛ وذاتُ العِمادِ التى آدّخرها لنَجْله، وأعدّ فضلَها فى العِباد والبلاد لفَضْله ؛ وكان ذلك[1] قد نزلَ لولده فلانٍ عن الحُكْم على هذا الحُكْم، ونطق بمزيّة الاستحقاقِ وقُلوبُ بعضِ الأعداء صُمٌّ بُكْم ؛ ورغِبَ - أجلّه اللهُ - فيما يرغبُ فيه من الانقطاع ذو السِّن[2] العالى، والقَدْر الغالى، وانتظم تقليدَه الشريفَ فكان أجودَ حِلْيةٍ على أحسنِ جيدٍ حالى ؛ ثم التّوقيعَ بتَدْريس هذه المدرسة التى زُكّىَ فى أهلِ الفَضْل شهيدُها، ونَظَرِها الذى خَلَفَ فى حُكْمه ولىُّ عَهْده عن أبيه : فلله أمينُ هذه الخلافة ورَشيدُها .

ولذلك رُسِم بالأمر الشريف أنْ يفوَّضَ إلى فلانٍ تَدْريسُ المدرسة النُّوريّة ونَظَرُها : لاستحقاقه لها بشُفْعةِ مَنْصب الحُكْم العزيز، ومَنْشإ الفَضْل الحَريز، ووجيزِ النزول المكتتَب، وقَبُول هِبةِ والده الذى يعتادُ أن يَهَبَ الجليلَ لمن يَهَب ؛ وتَشريفِه بإنعامها النَّفيس، وإجلاسِه بها على مَرْتبةِ حُكْمٍ وبِساطِ نَظَرٍ وسجّادةِ تَدْريس ؛ وعلمًا بأنّ نجمَ ذلك النّيّر أولى بهذه المنازل، وشِبْلَ ذلك الأسَدِ أحقُّ

(١) لعله «وكان ذلك الامام الموصوف» أى والد نجم الدين .

(٢) نص أهل اللغة على أن السن بمعنى العمر مؤنثة .

بهذا الغَاب المائل، وأنّه كوكبُ هذا المَذْهَبِ المُنير، وإمامُ جامِعيّة المعروفين: كبيرِ وصَغِيرِ، وصاحبُ شَيْبَة العَزْم المقْتَبل، والرَّأْيِ المُوفِي على قياس الأمل، وتجنيس الجُود والإجادَه، وتَكْمِيل بحْرَي العِلْم والبِرّ واجتهاد الزِّياده، وأنّه ممّن آتاه اللهُ رفْعةً في القَدْر والاسم، وزاده بَسْطَةً في العِلْم والجِسْم، وأحكم بَدِيهَةَ علْمه فما تَسْتوقِفُ الأسماعَ روِيَّته، وأعْلاه وعَظَّمه فما هو النَّجْم الذي تَسْتصغِرُ الأبصار رُؤْيَته.

فليباشِرْ تَدْرِيسَ هذه المدرسة ونَظَرها بعَزْمِه الباهِر وَصْفا، التَّالِي بلسان الحَمْد: ﴿وإبراهيمَ الَّذِي وفَّى﴾، جاريًا على أعْراقِ نَسَبِه المشهور، فائِضَ اللَّفْظ والفَضْل فإنّه بَحْرٌ من البحور، مظهِرًا من مَباحثِه التي تقلّدَ العُقولَ بأبْهى مما تُقلَّد النُّحور، مهْتَدِيًا من رَأْيِه ومن بركَةِ الواقِفِ ـ رضِيَ اللهُ عنه ـ بنُورٍ على نُور، واللهُ تعالى يَزِينُ بنَجْمِه أُفُقَ السِّياده، ويَزِيدُ فيما وَهَبَه من الفَضْل إن كان التَّمامُ يقبلُ زِيادَه.

✢

توقيع بتَدْرِيس المدرسة الرِّيحانية الحَنَفِيَّة، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به للقاضي «عماد الدين الحنفي» بـ«الجناب الكريم» وهو:

الحمدُ لله الذي جمَّل مدارِسَ العِلْمِ بذَاتِ عِمادِها، وصاحِبِ نَقْلِها واجْتِهادِها، ومُنْشِر عَهْدِها ومُنْشِئ عِهادِها، وواصِلِ مَناسِبِها التي لو ادّعاها دُونَه زَيْدٌ لكانت دَعْوى زِيادِها، ومُفْصِح فتاويها على مِنْبرٍ فلَم اهتزّ عُودُه ونَفَحَ وأطْرَب: فناهيك بثلاثة أعْوادِها!.

نحمدُه على نِعَمِه التي قضَى الحمدُ بازْدِيادِها، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُعِدُّها النفس لمَعادِها، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه هادى الأمّة

إلىٰ سبيل رَشادِها ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه بِحارِ العِلْمِ وأطْوادِها ، ما قامت الطُّروسُ والسُّطورُ لعُيونِ الألفاظِ مَقام بياضها وسَوادِها .

أمّا بعدُ ، فإنّ لمذاهِبِ العِلْمِ رِجالًا يوضِّحونَ طُرُقَها ، ويمدّون فى المباحث طَلَقَها ، ويعَمِّرونَ مدارِسَها : فيالَها من ذاتِ دُروسٍ يكون العُمْرانُ مُتَعلِّقَها ومُعْتَنِقَها ! .

ولمّا كانت المدرسةُ الرَّيحانية بدِمَشْق فى أيدى العُلَماءِ نُخْبةً رَيحانيه ، وشَقيقةَ نَفْسٍ نُعمانيّه ؛ مأْهُولةَ المَنازِهِ والمنازِلِ بكلِّ ذى فَضْلٍ جَلِىّ ، وعِلْمٍ مَلِىّ ، ووَصْفٍ كريم ، ونفسٍ نفيس يتلقّاه منها رَوْحٌ ورَيحانٌ وجَنّةُ نَعيم ؛ وخَلَتِ الآنَ من إمامٍ كَرُمَتْ خِلالُه ، وعظُمَتْ خِصالُه ، ومَضَى وتمضّى وما يَبْقَىٰ إلا اللهُ جلّ عن الحوادث جَلالُه — فتعيّن أن نختارَ لتَدْريس مكانها من يفتخر به المكانُ والزّمان ، ويتَشَيَّدُ بزيادةِ عِلْمِه لصاحبِ مذهبها أضعافُ ما شاده زِياد للنُّعمان ؛ من شيَّد الشريعةَ الشريفةَ مَقالُه ومَقامُه ، وعلا عِمادُه إلىٰ عُقودِ الشُّهُب فلله مُرادُه ومَرامُه ، من لو عاصره «ٱبن الحسين» لحَسُن أن يعترفَ بقَدْرِه الجليل ، وقال عند محاضرة بَحْثِه كما قال «أبو يوسف» : فصَبْرٌ جَميل ؛ وٱستزاد «شمس الشريعة» فكيف «السراج» من لمعه البريقه ، وقال «ٱبن الساعاتى» : ما رأيتُ أرفعَ من هذا القَدْرِ درجةً ولا أبدعَ من هذا الذِّهْنِ دقيقه .

ولذلك رُسِم بالأمرِ الشريف — لازال عاليًا بأمْرِه كلُّ عِماد ، زاهيًا بمحامد مُلْكِه كلُّ ناطقٍ وجَماد ، أن يفوَّضَ لفلان ... ... لأنّه المَعْنِىُّ بما تقدم من الأوصاف الحُلْوةِ إذا تكرَّرتْ ، والمقصودُ بألفاظها إذا تعَنْوَنت الأفهام وتيَسَّرت ؛ والمعوَّذةُ فرائدُ مباحِثِه المفترَقةُ بـ «إذا الكواكبُ ٱنتثرتْ وإذا البِحارُ فُجِّرتْ» ؛ وإمامُ المَذْهبِ الحنفىّ والحُكْمِ الأَحْنَفىّ ، وحَصاةُ القَلْبِ التى تَنْسِف بإشارتها جبال «النَّسَفىّ» ، ولسانُ النَّظَرِ الذى أشرف علىٰ بُعْدِه فٱختفَىٰ فى قُرْبِه المَشْرَفىّ ؛ وصاحِبُ الفُنون وما

وسَقَتْ ، وأفنانِ الحُكْمِ والحِكَمِ وما بَسَقَتْ ، ونُعوتِ الفَضْلِ والفضائِلِ وما عطَفتْ من البيان ونَسَقَتْ .

فلْيَتَوَلَّ تَدْرِيسَ هـذه المدرسـة المعمورةِ مُؤَيَّدَ الولايه ، مُجَـدِّدَ البداية لحنيفيَّتها والنهايه ، سـاجِدًا قَلَمُ الفتاوىٰ والفُتُوَّة كلَّما تلا كَرَمُه وكَلِمُه آيةً بعدَ آيه ؛ مُنْفِقًا من ألْفاظه حتَّىٰ يَسْتغنى عن "الكَنْز" وصاحِبِه ، ويُرَدَّ فَرعَ المقال على الأصْل وطَالِبِه ؛ ويُعْرِضَ عن أعارِيضِ "البسيط"، ويُغْرِقَ فى أفكار وَارِدِه "المحيط" . ويمدَّ سماط العِلْمِ الذى وَفَىٰ بعد «القُدُورِىِّ» وما خَان ، وتَفْخر بقَاضِيها أعظمُ مَدِينةٍ فما يضُرُّها فقـدُ « قاضى خان» ، وتتذكَّر المقَدَّميةُ من طَلَبَتِـه فوائد الحَلْقَه ، ويتقل الجناب الكريم من تقدِمَتِها إلىٰ ما هو أوفىٰ فى الغَرَضِ وأوفَرُ فى النَّفَقَه ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُ رُتَبَ العِلْمِ به سرورا ، ويجعلُ له باستطلاعها كتَابَ حُكْمٍ وحِكَمٍ يلقاه مَنْشُورًا .

✦
✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتَصْديرٍ بالجامع الأُمَوِىِّ ، كُتب به لقاضى القضاة «علم الدين ابن القَفْصى» قاضى قضاة دِمَشْـقَ بـ «المقرّ الشريف» وهى من تَلْفِيـقِ كُتَّاب الزمان . علىٰ أنها بالمدرِّس أَلْيَقُ منها بالمصدِّر ، وهى :

الحمدُ لله الذى أعلىٰ عَلَمَ أئمّة الدِّين إلىٰ أعلى الغُرَف ، وميَّزهم بالعِلْمِ الشَّرِيفِ الذى يَسْمُو شرفُه علىٰ كلِّ شَرف ، وأوضَحَ بهـم مَنْهجَ الحقِّ القويم فعلَا بإرْشادِهم سـبِيلُ الهُدىٰ وٱنْكشف .

نحمـدُه علىٰ ما أفاض من نِعَمِه المتواترة كلَّ حِين ، ونشكره علىٰ إحْيـاءِ مَعاهِدِ المعابِد بمن حَذَا حَذْوَ الأولِيـاء المتَّقِين ، حمـدًا يُظْهِرُ الآياتِ المحمَّديَّةَ والبراهين ، ويَبْسُط ظلَّ مَن هو عن الحقِّ لا يَمِين . ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له

رَبِّ العالمين ، الذى عَلَّم الإنسانَ ما لم يَعْلَم وهو العالم بما تُخْفِى الصُّدُورُ ويَعْلَمُ عبادَه المؤمنين ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِى عِلْمَ الأوّلِين والآخِرِين ، وكان من دعائه لشَبْبَة : « اللّهمَّ فقِّهْهُ فى الدِّين » . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمِلُوا بما علِموا فكانوا أَئِمَّةَ المسلمين ، والعُمْدَةُ علىٰ أقوالهم التى نقلوها عن خَاتَم النبيين ، علىٰ تَوالِى الأيَّام والجُمَع والأشْهر والسِّنين ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

أما بعدُ ، فلمَّا كانت أعلامُ العُلماءِ فى الآفاق مَنْشورَه ، ورُبُوعُ الفوائد بطريقتهم المُثْلىٰ معْمُورَه ، وصُدُورُ المعابِد الشَّريفة محتاجة إلىٰ صِلَتِها بكُفْئها الفَرْد مَسْرُورَه ؛ وكان فلانٌ ــ أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظِلَالَه ، وضاعف جَلالَه ــ هو الذى مَلأَتْ مُباشرتُه العُيونَ والأسماع ، وانعقدتْ علىٰ تَفَرُّدِه فى عَصْرِه كَلِمةُ الإجْماع ، واشتهر ذِكْرُه الجميلُ بأنواع المَكْرُمات وأطاعَهُ من مُشكل المَذْهَبِ ما هو علىٰ غيره شديدُ الامْتِناع ؛ وأضْحَتْ فضائلُه "المدَوَّنَة" ولفظُه الجلَّاب ، وكَنَفُه "المُوطَّأ" للطَلَبة يغْنيهم عن مَعاهِد « عبد الوهاب » ؛ وعزيمته لا يُلْحقُ غُبارُها فى المعارك ، ولا يَظُنُّ خُدَّامُ العلوم الشرعية والأدبية إلا أنَّه مالك وابن مالك .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لازال يجمعُ لَمن بَرَعَ فى العلوم من ألْوانِ المناصب المختلفه ، ويَرفعُ قَدْرَ القَومِ الذين قُلوبُهم على التقوىٰ مُؤْتَلِفه ــ أنْ يستقِرَّ المشارُ إليه فى وظيفة التَّصْدير بالجامع الأُمَوِىّ بدِمَشْق المحروسة ــ عمَرَه اللهُ تعالىٰ بذِكْرِه ــ عِوَضًا عن فلانٍ بحُكْمِ نزوله عنه برضاه ، حَمْلًا علىٰ ما بيده من النُّزولِ الشَّرعىِّ ، بالمعلوم الذى يشهدُ به ديوان الوَقْف المبرور ، علىٰ أجْمل عاده ، وصرفه إليه مُهَنَّأً مُيَسَّرًا أُسوة أمثاله .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ علىٰ عادة مُباشراته التى حُفَّت بالعُلُوم ، وافتخرتْ بحُسْنِ المَنْطوق الدَّالِّ على المعنَى المفْهُوم ؛ ويمُدَّ مَوائدَ علْمه المحتويةَ علىٰ أنواع الفَضائِل ،

ولُيبيِّنْ ما يَخْفَى على الطَّلَبَـةِ بأوْضحِ الدلائل ، وليؤدِّ الفوائدَ الواصلةَ إلى الأذهان على أحْسنِ أسْلوب ، وليُقرِّرِ الأُصولَ التى آمتدَّتْ فُروعُها بقواعِدِ السُّـنَّةِ المحمَّديةَ وفى ثمرها الجَنىّ تقْويةُ القُلوب ، وليُكْرِمْ منهم من يَضِحُ فضله لَدَيْه ويَبِين ، ولْيَبْسُطْ هَمَمَهم بقوله صلّى الله عليه وسلم : "مَن يُرِدِ اللهُ به خيْرًا يُفقِّهْهُ فى الدِّين" . ولْيُوضِّحْ طريقَ إرْشادِه ليَسْهُلَ سُلُوكُها عليهم ، ولْيجعَلْ وُفُودَ فوائده فى كلِّ وقتٍ واصِـلَةً إليهم ، وليتَّبِعْ «إمامَ دارِ الهِجْرَة» فى مَذْهَبه المُذْهَب ، وليخلِّدْ مِن صفاته الجميلة ما يَذْهَب الزَّمانُ ولا يَذْهَب ، ولْيَسْمَحْ للفقهاء بمواصلة فَضْلِه الأعَم ، فإنَّه أنْ يُهدَى به واحِدٌ خيرٌ من حُمْرِ النَّعَم .

والوصايا كثيرةٌ ومنه يُطلَبُ بيانُها ، وبه تَقْوَى أسْـبابُها ويَعلُو بُنْيانُها ؛ ولكن الذِّكْرَى تنفعُ المُؤْمنين ، ويَظْهَرُ [بها] سِرُّ خبرهم ويَسْتَبِين ؛ وتقوى الله تعالى هى العُرْوة الوُثْقَى ، والخَصْلةُ التى بها يعظم كلُّ واحدٍ ويَرْقَى ؛ فلْيُواظِبْ عليها ، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ العناية إليها ؛ واللهُ تعـالى المسْئُولُ أن يجعلَ علَمَ عِلْمِه دائمًا فى الآفاق مَنْشُورا ، وذكْرَه الطَّيِّبَ على ألْسنَة الخلائق كلَّ أوانٍ مَذْكورا .

المرتبـــة الثانية

(من تواقيع أربابِ الوظائف الدِّينيـة بحاضرة دِمَشْق ــ ما يفتتح بـ«أما بعدَ حمدِ الله» وفيها عدّةُ وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك .

توقيعٌ بقضاء العَسْكر بدمَشْـق ، كُتب به للقاضى شَمْس الدِّين «محمد الإخنائى» الشافعىّ ، بـ«ـالجناب العالى» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله تعالىٰ مضاعِفِ النِّعمه، ومُرادِفِ رُتَبِ الإحسان لمن أخلَصَ فى الخدمه، ومُجدِّدِ منازِلِ السَّعْدِ لمن أطْلَعتْ كواكبُ آهتمامِه فى آفاقِ الأمورِ المُهِمَّه؛ والصلاةِ والسلامِ الأَتَمَّينِ الأكملَينِ علىٰ سيدنا محمدٍ وآلِه الذى بُشِّرَ بنصْرِ هذه الأُمَّه، ووُعِدَ بأنْ سيكشِفُ به غمامَ كلِّ غُمَّه، وأنَّه يتجاوزُ عن أهلِها بشفاعته وكيف لا؟ وقد أُرسِلَ للعالمَين رَحْمَه، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً تُجزِلُ لقائلها نَصيبَه من الأجرِ وتُوَفِّرُ قِسْمَه — فإنَّ أحقَّ الأولياءِ مَن تأكَّدتْ له أسبابُ السعاده، وكافَأْناه بالحُسْنىٰ وزيادَه، وبَلَّغناه من إقبالِنا غايةَ مآرِبِه ومَطالِبِه؛ وعُرِفَتْ منه العلومُ التى لا يُشَكُّ فيها، والنَّباهةُ التى لا يَقْدِرُ أحدٌ من أقرانِه يُوفِّيها؛ والخِبْرةُ الوافيةُ الوافِره، والدِّيانةُ الباطنةُ والظّاهِره؛ وسار بعُلومه المَثَل، وسلك مَسْلَكَ الأولياءِ فى العِلْمِ والعَمَل؛ وآعتُبِرت أحوالُه التى تُوجِبُ التقديم، وآختُبِرت فِعالُه التى ضاعفَتْ له مزيدَ التكريم.

وكان فلانٌ — أدام الله تعالىٰ نِعْمَتَه — هو الذى أتقن العُلومَ بَحْثًا وتَهْذيبا، وبَرْهَنَ عن المسائل الشَّرعيةِ بأفهامٍ تَزيدُها إلىٰ الطّالِبين تَقْريبا؛ وأوضحَ عَويصَ مُشْكِلاتِها، وصَحَّحَ من ألْسُنِ العَربِ لُغاتِها.

فلذلك رُسِم بالأمرِ العالى — لا زالت شَمْسُه بالعناية مُشْرِقَه، وأنواءُ فضائلِ أوليائِه مُغْدِقَه — أن يستقرَّ فلانٌ فى وظيفة قَضاءِ العساكرِ المنصورةِ الشاميَّة: حَمْلًا علىٰ ما بيَدِه من النُّزولِ الشَّرعىِّ، علىٰ عادةِ من تَقَدَّمه فى ذلك وقاعدَتِه، ومَعْلُومِه الذى يَشْهَدُ به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخرِ وقتٍ. فهو الحاكمُ الذى لم يَزَلْ للعساكرِ المنصورةِ نِعْمَ الصَّاحِب، والمُورِدُ علىٰ سَمْعِهم من الأحكامِ الشَّرعيةِ ما يَقْتَدى به الحاضِرُ والغائب؛ والقائمُ بأعباءِ العساكرِ المنصوره، والحافِظُ لِنظامِ المُلْكِ الشريفِ علىٰ أحسنِ صُوره.

فليباشر هذه الوظيفة المباركة وليَحُلّ فى قضاء العساكر المنصورة بطلْعته السَّنيه، وليفصِلْ بينهم فى الأسفار كلَّ قضيّه، وليُعَرِّفْهم طُرُقَ القواعد الشَّرْعيَّه؛ وليحترِز فى كلّ ما يأتيه ويَذَرُه، ويقصدُه ويَحْذَره، ويُورِده ويُصْدِره .

والوصايا كثيرةٌ ومنه تُستفاد، وإليه يَرجِعُ أمرُها ويُعاد، ولكن لا بُدَّ للقلم من المَرَح فى مَيْدان التَّذْكار، والتَّنْبيه على مِنهاجِ التَّقْوى التى هى أجملُ شِعار؛ واللهُ تعالى يَمنحُه من إحسانِنا جزيلَ العَطاءِ والإيثار، ويُسْمِعُه من أنباء كَرَمِنا كلَّ آونةٍ أطيبَ الأخبار؛ بمنّه وكرمه ! .

⁂

تَوْقيعُ بنَظَر جامع يلبغا اليحياوى، كُتب به للامير جمال الدين «يوسف شاه» العُمَرى الظاهرى بـ«ـالجناب الكريم» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أظهر جمالَ الأتقياءِ فى كلّ مَشْهَدٍ وجامع، وقدّمه بما أوْلاه على كلّ ساجدٍ وراكع، وخصَّه من فَضْله بما قصُرتْ عنه الآمالُ والمَطامع؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّين الأكْمَلَين على سيدِنا محمدٍ عبده ورسولِه مُولِى الخيرِ الواسِع، والإحسانِ المُتَتابِع، ومَن أحيَا جَوْدُ جُودِه النُّفوسَ وسرَّ القلوبَ وأطربَ ذِكْرُ عِظَاتِه المَسامع؛ وعلى آله وصَحْبِه النُّجومِ الطَّوالِع، والذين أودَعهم العِلْمَ الذى آتاه لإقامةِ دِينِه من لا تَخيبُ لَدَيْه الوَدائع، والتَّشريفِ و[الإكرام]، والتَّبجيلِ والإعظام ـ فإنَّ أوْلى من رعَيْنا له حقَّ الخِدَم، ووُقُوفَه فى الطاعةِ الشريفةِ على أثبتِ قَدَم، مَنْ قام بما لم يَقُمْ به غَيرُه، وحسُنَتْ سِيرتُه وسَيْرُه .

وكانَ فلانٌ أدام اللهُ تعالى نِعْمته، وحرَسَ من الغِيَرِ مُهْجَته، ممّن جمّل الممالكَ ودبَّرها، وضبَطَ أموالَ الأوقاف وحرَّرها؛ وآرتفع على الرءُوس، وحصَّلَ أموالَ

الأوقاف التى فَطَر تَحْصِيلُها أكبادَ الخَوَنة وسَرَّ من مُسْتَحِقِّيها النُّفُوس ـ تعيَّن أن نَعْرِفَ له مِقْدارَه الذى لا يَخْفَى، ونُوَفِّيَه بعضَ حقّه فإنّه الذى بالإحسان قد أَوْفَى .

فلذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لا زال يُقْبِلُ على فَضْل وَلِيِّه ، ويضاعِفُ له البِرَّ المُسْتَمْطَرَ من غَيْثِ جُودِه ووَلِيِّه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، على عادة من تقدّمه فى ذلك ومُسْتَقِرِّ قاعدته ، بالمعلومِ الشاهِدِ به دِيوانُ الوَقْفِ المَبْرور إلى آخر وَقْت .

فلْيباشِرْ هذه الأوقاف ، ولْيَسْلُكْ فيها طُرُقَ العَدْل والإنْصاف ، وليَتَّبِعْ شرطَ وَاقِفِها ـ رحمه الله تعالى ـ المُجْمَعَ على صِحَّتِه من غير خِلاف ؛ ولْيُحْيِ ما تَشَعَّثَ وتَخَرَّبَ فى الجامع المُشار إليه وأوْقافه بعَيْنِ بَصِيرَتِه ، ولْيَقُمْ بالمعروف من مَعْرِفَتِه ؛ وهو أعزّه الله تعالى أَوْلَى مَن باشَرَه ، وعَمَر دائِرَه ، وأحْرَى مَن تَحَرَّى مَبارَّه ومآثِرَه ، ومَيَّزَ أوقافَه ، وتدارَكَ بتَلافِيه تَلافَه . وهو غَنِيٌّ عن شَرْح الوصايا فإنّها من آدابِه تُعْرَف ، ومن بَحْرِ أدواتِه تُغْرَف ؛ ومِلاكُها تقوى الله تعالى الرَّءُوف ، فلْيَكُنْ على مُسْتَحِقِّ هذا الوقف عَطُوف ؛ والله تعالى يُجْزِلُ له أجْرا ، ويجعلُ له ما يفعلُه من الخير ذُخْرا .

✣

توقيعٌ بنظر تُرْبة أرغون شاه ، كُتِب به « لقجا السيفى بوطا » بـ« الجناب العالى » وهو :

أمّا بعدَ حَمْدِ الله الذى بَلَّغَ الأولياءَ من مَبَرّاته الأمَلَ والإراده ، وألْقَى مَقالِيدَ الأمورِ إلى مَن اسْتَحقّ بحُسْنِ مُباشرته الزِّياده ؛ والصّلاةِ والسلامِ الأتَمَّيْنِ الأكْمَلَيْن على سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه صاحبِ لِواءِ الحَمْدِ والنَّصْر ، ومَن جاءتْ آياتُ تَفْضِيله كفَلَقِ الصُّبْحِ وجَمَّلَتْ مَحاسِنُه كلَّ عَصْر ؛ وعلى آله وصَحْبه الذين نَصَروه فنَصَرهم

الله ، وحَجَبُوه بأنفُسِهم عن البَاس ولم يَحْجُبُوه عن النَّاس لخفض جَناحه لمولاه ، والتَّشريف والتَّكْريم ، والتَّبجيل والتَّعْظيم .

ولمَّا كان فلانٌ ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمَته ـ هو المعروفَ بالأوْصاف الجميلَه ، والمَنْعُوتَ بالنُّعوتِ التى أتَتْ فى وَصْفِه بكلِّ فَضِيلَه .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى ـ لازال إحْسانُه عَميما ، وفَضْلُه لذَوى الاسْتِحقاق أبدًا مُقِيما ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، علىٰ عادة من تَقَدَّمه فى ذلك ومُسْتَقر قاعدَته ، بالمعلوم الذى يشهدُ به دِيوانُ الوَقْف المبرور إلىٰ آخِر وَقْتٍ .

فلْيباشِرْ ذلك بهِمَّته العَلِيَّه ، ونَفْسه الأبيَّه ؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التَّقوىٰ : فليلازِمْ عليها فإنَّها تحفظُه ، وبالسِّيادة تَلْحَظُه ؛ والله تعالىٰ يكَمِّلُ تَوْفِيقَه ، ويُسهِّلُ إلىٰ نُجْح المَقاصِد طَريقَه ، بمحمَّدٍ وآله ! .

تَوْقيعٌ بتَدْرِيس الجامع الأُمَوىّ عَوْدًا إليه ، من إنشاء جمال الدين بن نُباتَه ، كُتب به للقاضى «فخر الدين المصرىّ» وهو :

أمَّا بعدَ حَمْدِ الله مُعيدِ الحقِّ إلىٰ نِصابِه ، والغَيْثِ إلىٰ مَصابِه ، واللَّيْثِ ـ وإن غَاب ـ إلىٰ مُسْتَقرِّ غَابِه ، وشَرَف المكانِ إلىٰ مَن هُو أحقُّ وأَوْلىٰ بِه ، وبَحْرِ العلومِ إلىٰ دَوائِر مَحافِله فى الدُّروس وإلىٰ قَوِىِّ أسْبابِه ؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى هاجر فرَجَع بغَنيمَته وإيابِه ، وطَلَع من ثَنِيَّاتِ الوَداعِ طُلُوعَ البَدْرِ المُشْرِق فى أثْناءِ سَحابِه ، وعلىٰ آله وصَحْبه الشائمين سَبَلَ صَوْبِه السَّالكين سَبِيلَ صَوابِه ، ما قُطِفَ من غُصُون أقلامِ العلماء ثَمَرُ "البيان والتَّبْيين" مُتَشابِهًا وغيرَ مُتَشابِه ـ

فإنّ شَرَفَ الكواكِبِ فى سيرِها ورُجُوعِها ، ونُمُوّ تَشَعُّلِها ما بين فَتْرةِ مَغيبِها وطُلُوعِها ، لا سيَّما العلماءُ الذين يُهتدَىٰ بأنوارِهم ، ويُقتدَىٰ بآثارِهم ، ومَصابيحُ الحقّ التى تُقْدَحُ ولا يُقْدَحُ فى أزْندة أفكارِهم .

وكان من قُصِدَ بهذا التَّلْويح ذِكْرُه ، وعُرِفَ من هذا المَعْنىٰ المَفْهومِ فَخْرُه ، قد حُمِد بمجالس التَّصدير بالجامع الأُمَوِىّ ماذكره من سلف أعْيانه ، وقام بوُجُودِ الدَّليل علىٰ وُجُود مَاضِى بُرْهانه ، وجادل لِسانُه وقَلَمُ يَدِه عن الشَّريعة : وغَيْرُه من العِىِّ لا من يَدِه ولا من لِسانِه ؛ ثم هَجَر مكانَه هِجْرَةً على العُذْرِ مَحْمُولَه ، وهاجَر إلىٰ حَرَمِ الله تعالىٰ وحَرَم رَسُولِه صلّى الله عليه وسلم هِجْرَةً مَقْبُولَه ؛ ورَامَ بعضُ الصِّبيانِ التقدُّمَ إلىٰ رتبة الشيخ فقالت : إليك عنِّى ، فأنا من مَخْطُوبات الأكابر فما أنا منك ولا أنت منِّى ؛ ثم حضر إلىٰ محلّه الكريم من غاب ، ورجع إلىٰ مُسْتقرّه الأمثل به : وما كلُّ حَمْزَةَ أَسَدُ اللهِ فليسكُنْ فى ذلك الغَاب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالت صلاتُ مَراسِمه جميلة العوائد ، جليلةَ الفوائد ، وأقلامُها أغصانُها ممدودٌ بها الرِّزقُ فهى على الوصْفَين موائد ـ أن يستمرّ علىٰ عادته فى كذا وكذا ، وإبطالُ ما كُتِب به لغيره : عملًا باختبار الحاضر ، وآختيار نَظَرِ الناظر ؛ وعِلْمًا بأنّ هذه المرتبةَ لمن له إتْقانُ عقلها ونقلها ، وتلاوةً فى موضع الوقف : ﴿ إنّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلىٰ أهْلِهَا ﴾ .

فقولا للممنوع : ما كلُّ عِزٍّ بدائم ، ولا كلُّ ذى طَلَبٍ بكمال الوُجوبِ قائم ؛ ومن أين لهذه الرتبة مثلُ هذا الكُفْءِ الذى آشتهر فخره ، وزهَتْ به على الأمْصار شامه ومصره ؟ ؛ وهذا الإمام ، وكلُّ مُضاهٍ مَأْمُوم ، وهذا المِقْدام ، تحت عَلَمِ العِلْمِ وكلُّ مُباهٍ مهزوم ؛ وهذا الثَّابِتُ وكلُّ نِدٍّ مُشَرَّد ، وهذا الكامل وكل ضد مُبَرَّد .

فليستمرّ على عادته الجميلة مُجمّلا لزمانه ومكانه ، مُكمّلا فى وشائع العلم ما يَشِى «ابن الصَّباغ» من ألوانه ، مالكاً لما حرّره «الشافعى» ، جازما بفعل ما نصبه «الرافعى» ، سامياً عن وفاء الواصف : فسواء فى ذكره إسْراف بيانٍ أو إسْراف عىّ ، شاملاً للطلبة المعتادين بعطفه ، مُقابِلاً للمستفتين بلطائفه ولُطفه ، باحثاً عن دُرَر الجدال بفكره إذا بحث قلم بعض المجادلين عن حَتْفه بظِلْفه ، داعياً لهذا الملك الصالحىّ فإنّ دُعاء العالم الصالح سُورٌ من بين يديه ومن خَلْفه ؛ والله تعالى يُجريه على خير العوائد ، ويمدّه بإقبال النعم الزوائد ، بمنّه وكَرَمه ! .

***

توقيعٌ بتدريس المدرسة الدماغية بدمشق ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به للقاضى جمال الدين «أبى الطَّيب ، الحسن بن على» الشافعىّ ، وهو :

أمّا بعدَ حمدِ اللهِ رافعِ مُنادَى العلم بمُفْرده ، ومُثبِّتِ التقى بقافية سُؤدده ، ونظم المفاخر بمن إذا قيل : «أبو الطَّيب» أصغى الحَفْلُ لمُنشِده ، ومشهد الفضل بإمامه : وحَسْبُك من يكون «الحسن بن على» إمامَ مَشْهده ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله سيد الخلق وسَنَده ، وعلى آله وصحبه السائرين فى العلم والحِلْم على جَدَده ، ما سحب نسيمُ الرَّوْض بُرْدَه وافترّ لَعَسُ السحاب عن ثغر بَرَده ـ فإنّ للعلم أبناءً ينشئُون فى ظلاله ، ويسكنون فى حلاله ، ويفرقون للخلق بين حرام المشتبه وحَلاله ، ويُجمّلون وَجْهَ الزمان : فلا عدم الزمانُ منهم جمال وَجْهه ولا وَجْهَ جماله ؛ ترتشفُ شِفاهُ المدارس من كَلِمهم كلَّ عَذْبِ المَساغ ، وتُشافهُ منهم كلَّ ذى فضلٍ ما هو عند البلاغ بَلاغ ، وتُشاهد ما خُصُّوا به من الشَّرف والرِّآسة فلا عَجَبَ أنّ محلّهم منهما محلُّ الدماغ ! .

وكانت المدرسة الشافعية الدماغية بدمشق المحروسة رأسا فى مدارس العلم، وهامة فى أعضاء منازل ذوى الحكم والحلم، لا تسمو همتها إلا بكل سامى العمامه، هامى الفضل كالغمامه، ساجع اللفظ إلا أنه أبهى وأزهى من طوق الحمامه، كائد للملحد مكرم للطالب ولا كيد لابن الخطيب ولا كرامه - واسطة بين العادلية والأشرفية تليق بمن يكون عقد كلامه المثمن، ونظامه الأمكن، وبيانه المنشد "أجارة بيتينا" يعنى بيت النسب و بيت المسكن .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يجدد لوجوه العلم جمالا، ولوجوب الحمد توالا، ولوجود الفضل كرما ما قال قط ولا نوى: لا - أن يفوض إلى فلان - أيد الله مجده، وحرس للسلمين أباه وأعلى بالسعادة جده - تدريس المدرسة الدماغية المذكورة: لأنه جمال العلم المعقودة على خطبته الآمال، المعدوقة بمقدمات فضله وفضله نتائج الأقوال الصالحة والأعمال؛ المحبوبة إلى الله والخلق سيماه وشيمه ولا نكر: فإن الله جميل يحب الجمال؛ ولأنه العالم الذى إذا قال لم يترك مقالا لقائل، وإذا شرح على قياسه أتى بما لم تستطعه الأوائل؛ وإذا جارى العلماء كاد «إمام الحرمين» يقول: أنا المصلى وأنت السابق؛ «والغزالى»: من لى أن أنسج على منوال هذا اللفظ الرائق؟؛ «وابن دقيق العيد»: ليت لى من هذه الدقائق بلغه؟، و «ابن الصباغ»: هذا الذى صبغه الله من المهد عالما! ومن أحسن من الله صبغه؟؛ ولأنه العالم الذى أحيا ذكر «ابن نقطة» بعد مادارت عليه الدوائر، وأغنى وحده دمشق عمن أتى فى النسب «بعساكر»، ولأنه فى البيان ذو الانتقاد والانتقاء، والعربى الذى إن كان لرقاب الفضلاء «ابن مالك» فإن قرينه «أبو البقاء»؛ والكامل حسبا، ومثل جده المنقود لا يبهرج، والواصل نسبا، ومثل فرعه بعد أصله: «ولله أوس آخرون وخزرج» .

فليباشِرْ هذا التَّدريسَ بعزائِمَ سَرِيَّه، ومَباحِثَ تُستنار منها مَعارِفُ القَوْل التَّبْرِيَه، وطَرائِفَ لا تُحْبَس بدِمَشْق على نقداتها المِصْرِيه ؛ ولْيَنصُرْ مذهبَ الإمام الشافعي رضى الله عنه فإنَّ قومَه الأنصار، وليَخْفِضْ جَناحَه للطَّلَبة فطالما خَفَضَت الملائكةُ أجْنِحَتَها لِيَصير فلا عَجَبَ أنْ صار ! ؛ وليُفِدْ وَافِدِيه وهو قاعدٌ أضْعافَ ما أفادَهم صاحِبُ المكان وهو وَاقِف، وتَقْوى الله عزَّ وجلَّ أوْلىٰ ما طالعه فى سِرِّه وجَهْرِه من "عوارف المعارف" والله تعالىٰ يمدُّه بإسعاده ولُطْفه، ويَحُوطُه بمُعَقِّباتٍ من بين يديه ومن خَلْفه ؛ ويُضِيءُ بارقَ كَلِمِه الصَّيِّب، ويُطْرِب أسماعَ الطَّلَبة بالطِّيب من معانى « أبى الطَّيِّب » .

⁂

توقيعٌ بتَدْريس المدرسة الرُّكْنية الحَنَفِيَّة بظاهر دِمَشْق، كُتب به للقاضى بدر الدين « محمد بن أبى المنصور » الحنفىِّ بـ«المقرّ العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى أطْلَع بَدْرَ الدِّينِ مُشْرِقًا فى منازل السُّعود، وحَرَسَ سماءَ مَجْده فلا يُطيقُ مَنْ رام جنابَها الاستطراقَ إليها ولا الصُّعود، وجعل رُكْنَه الشديد فى أيَّامنا الزاهرةِ المَشِيد وظِلَّه الممدود، والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّين الأكْمَلَين علىٰ سيدنا محمدٍ ذى الحَوْض المَوْرُود، والكَرَم والجُود ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه نجومِ الهُدَىٰ وأعْيان الوُجود، ما أوْرق عُود، وحُمِدتْ عُقْبَى الصُّدورِ والوُرُود ؛ صلاةً دائمةً إلى اليوم الموعود — فإنَّ أعلامَ الهُدَىٰ لم تزلْ مَنْشورةً بمعالِم العُلَماء، وأقطارَ الأرض ما بَرِحتْ مُشْرِقَةً بمن تَسْتغفِرُ لهم الحِيتانُ فى البَحْرِ والملائكةُ فى السماء، وطُولُ الأرض إلىٰ فضائلهم أشدَّ اضطرارًا وأحوجَ إلى القرب إليهم والانْتِماء ؛ وكان فلانٌ — أدام الله تعالىٰ تأييدَه — من بَيْتٍ شهدت الأيامُ مَفاخِرَه، وحَمِدَ الأنامُ أوائلَه وأواخِرَه،

وأضحتْ عيونُ الزمان إلىٰ مآثره ناظره، وغصونُ الفُنون بفرائده ناضره، وأوصافُه الجليلةُ للأبصار والبَصائر باهره، وأصنافُ الفَضائل من إملائه واردةً صادره .

فلذلك رُسم بالأمر العالى - زاده اللهُ تعالىٰ على العلماء إقْبالا، وضاعف إحْسانَه إليهم ووَالىٰ - أنْ يستمرَّ المشارُ إليه فيما هو مستمِرٌّ فيه : من تَدْريس المدرسة الرُّكْنية الحَنَفيَّة، بظاهر دِمَشْق المحروسة، حمْلًا علىٰ ما بيده من الوِلاية الشَّرعية والتوقيع الشريف: رِعايةً لجانبه وتَوْقِيرا، وإجابة لقَصْده الجميل وتَوْفيرا، وآستمرارًا بالأحَقّ وتَقْرِيرا .

فليُباشِرْ ذلك مباشرةً أُلِفتْ منه، وآشتهر وَصْفُها الزَّكىُّ عنه؛ وليُوضِّحْ للطَّلَبة سُبُلَ الهدايه، وليُوصِّلْهم من مقاصِدهم الجميلة إلى الغايه؛ وليَسْلُكْ طريقةَ والده، فإنَّها الطريقةُ المُثلىٰ، وليتحلَّ من جواهر فَرائِده، فإنَّها أعلىٰ قِيمةً وأغلىٰ، وليُمْلِ على الأسماع فضائلَه التى لا تُمَلُّ حين تُملىٰ .

✦✦✦

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتَدْرِيس المدرسة الخاتونية البَرَّانية الحَنَفيَّة بدمَشْق، كُتب بها للشيخ صدر الدين «علىّ بن الآدمىّ» الحَنَفىّ بـ«الجناب الكريم» . وكأنَّه فى الأصل لمن لَقبُه . «بدر الدين» لأنَّ البَدْرَ هو المناسب لهذا الآفتتاح؛ فنقله بعضُ جَهَلة الكُتَّاب إلىٰ «صدر الدين» كما تراه . وهذه نسخته :

أمَّا بعدَ حمد الله الذى زان أهْلَ العِلْم الشريف بصَدْرٍ أخْفىٰ نُورُه الشُّموس، وأعْلاه - لِمَا حازه من الشَّرف الأعلىٰ - على الرُّءوس، وجعل كلَّ قَلْبٍ يَأْوى إلىٰ تِبْيان بَيانه يوم الدُّروس؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّين الأكْملين علىٰ سيدنا محمد الذى أذهب اللهُ ببركته عن هٰذه الأمَّة كلَّ مَكْرٍ وبُوس، وخصَّهم فى الدُّنيا بِطِيب

الحياة وفى الآخرة بسرور النفوس، وعلى آله وصحبه صلاة مثمرة الغروس ـ فإنّ أولى من تنصرف إليه الهمم، من تبدو دلائل علمه كنور لا نار على علم؛ وتسير فضائله فى الآفاق سير الشموس والأقمار، وتبرز إذا يبديها صدره من حجب وأستار.

وكان فلانٌ ـ ضاعف الله تعالى نعمته، وحرس من الغير مهجته ـ هو الذى أشير إلى ما حواه صدره الكريم من الفضائل، وآشتهر فى دروسه بإقامة الحجج وإيضاح الدلائل؛ وبرع فى العلوم الدينيه، وفاق أبناء عصره فى الصناعة الأدبيه، وأنفق كنزه على الطلاب، فأصبح "عمدة المحدثين" وأمسى "مختار الأصحاب"، «أبو يعلى» يتزلف ببابه، و «ابن عقيل» يرتد على أعقابه؛ و «ابن الحاجب» يرفعه على عينه، و «الرازى» يدخر كسبه لوفاء دينه؛ و «ابن بطة» يطير من مواقع سهامه، و «مقاتل» مجروح بحد كلامه؛ و «ابن قدامة» متأخر عن مجاراته، و «الأثرم» يخرس عند سماع عباراته.

فلذلك رسم بالأمر العالى ـ لازال يجمع لمن برع فى العلوم من ألوان المناصب المختلفه، ويرفع قدر القوم الذين قلوبهم على التقوى مؤتلفه ـ أن يستمر الجناب الكريم المشار إليه بالمدرسة الخاتونية البرانية الحنفيه، حملًا على مابيده من النزول الشرعى والولاية الشرعيه: لأنه الخلاصة التى صفت من الأقذار، والعدة ليوم الجدال إذا ولى غيره الأدبار؛ والمختار الذى جنحت المناصب السنية إلى آختياره دون من سواه، رغبة فيما آدخره من الفضائل وحواه؛ "بدايته" "نهاية الطلاب"، وعلومه "تحفة الأصحاب"؛ إن حدث «فابن معين» بصحة نقله يحيا، أو فسر «فمجاهد» عن مجاراته يعيا؛ و «الزمخشرى» يبعد عن الجوار، و «البغوى» يبتغى الوقوف على الآثار؛ و «سيبويه» عند ما ينحو يقصد "التسهيل" من لفظه المغرب المعرب، و «ابن عصفور» يكاد يطير طربًا لما يبديه من "المرقص المطرب"؛

و « أبو يوسف » أصبح بصُحْبته مَنْصورا ، و « محمد بن الحَسَن » أضحى بِرفعته مَشْرُورا ؛ هو فى القَدْر « علىّ » وفى الطريقة « محمود » وفى العلوم « محمد » ، وفى النطق والحركة « سعيد » وفى النظر « أسعد » ؛ وفى النَّضارة « النعمان » و « طاوس » يتحلَّى جزءا من كمال خصاله ، و « الحَسَنُ » يقتدى بحسن فعاله ؛ نَشَأ فى العِفَّة والصِّيانة ، وكَفَله التوفيقُ وزانَتْه الأمانة ؛ فهو بَحْر العلوم ، ومُسْتخلِص دُرِّها المَكْنونِ ومُظْهِرُ سِرِّها المَكْتوم ؛ لو رآه «الإمام» لقاس عُلاه بالشَّمس المُنيره ، ولو عاصر الأصحابَ لَغَدَتْ أعينهم به قَرِيره .

فليُباشِرْ هاتَيْنِ الوَظِيفَتَيْنِ اللَّتين اكْتَسَتا به بعد نُورِ الشَّمسِ جَلالا ، ولْيُلْقِ عُلومَه التى يقولُ القائلُ عند سَماعها : هكذا هكذا وإلَّا فلا لا ؛ ولْيُعلِّمِ الطَّلَبة إذا أدْهشتهم كثرةُ عُلومه أنَّ فوق كلِّ ذِى عِلْمٍ عليم ، ولْيتكرَّم عليهم بكَثْرةِ الإفادة فإنَّ عَلِيًّا هو الكريم ؛ ولْيَفُقْ فى مباشرة النَّظر كلَّ مَثِيلٍ ونظير ، ولا يُنَبِّئْك مِثْلُ خَبِير ؛ ولْيجتهِدْ على عِمارةِ معاهدها بذكر الله تعالى ، وأداءِ الوظائف بحُسْنِ مُلاحظته : ليزداد عند الخليقة جَلالا ؛ وفيه — بحمد الله — ما يُغْنِى عن تأْكيد الوصايا ، ويُعينُ على السَّداد وفَصْلِ القضايا ؛ وكيف لا؟ وهو الخَبِيرُ بما يأْتى ويَذَر ، والصَّدْرُ الذى لا يَعْدُو الصَّوابَ فى وِرْدٍ ولا صَدَر ؛ والله تعالى يَسُرُّ القلوبَ بعُلُوِّ مَراتِبِه ، ويُقِرُّ العُيونَ ببُلُوغ مَقاصِدِه ومآربه ، بمنِّه وكرمه! .

✣

توقيعٌ بخَطابة جامع جراح ، من إنشاءِ ابن نُباتة ، كُتب به لـ«شرف الدين بن عمرون» بـ«المجلس العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى قَسَم للمنابر شَرَفًا يتجدَّد ، وعَطْفًا من الفُصَحاءِ يتأكَّد ، وعَلَمًا مَرفوعًا لا يتعدَّى وعَلَمًا منصوبًا لا يتعدَّد ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيد الثَّقلَيْنِ

وصاحبِ القِبْلتين محمد، وعلى آله وصحبه القانتين القائمين الرُّكَّعِ السُّجَّد، ما عَظُم خَطِيبٌ ومَجّد، وبدا فى حِلْيَةِ سيادةٍ وأُهْبةِ خَطابةٍ وهو على الحالين مُسَوَّد ـ فإنّ لَصَهواتِ المنابر فُرْسانا، ولصُدُور المحاريب أعيانا، ولعيونِ المشاهد أناسِيَّ يُراعى منها الاستحقاقُ لكلِّ عَيْنٍ إنسانا .

ولمّا كان جامعُ جراح المعمورُ بذكر الله تعالى ممّا أُسِّس على التَّقوى، ووُسِم بأهلِ الزُّهْد سِمَةً إذا ضَعُفَتْ السِّماتُ تَقوى؛ مجمعَ الصُّلحاءِ من كلِّ ناحيه، ومُنْتَجعَ الفُقَراء: فنِعْمَ الجامعُ لهم ونِعْمتِ الزّاوِيه! ؛ ومَفْزَعَ العُظَماءِ عنـد استدفاع حَرْبٍ وكَرْب، ومَطْلَعٌ لنُور الهُداة الذى أغرب فأطلع نجومهم من الغَرْب ـ تعيَّن أن نختارَ له الخطباءَ والأئمّه، وننتخب لمنصبه من أفاضل الأُمّه، وتتناسبَ حُضّار منبره بصاحب علومهم وأعلامهم وإمامهم، المسرورين به يوم يأتى كلُّ أُناسٍ بإمامِهم .

فرُسم بالأمر ـ لا زالت أعوادُ المنابِرِ بذكره أرِجَه، وأعلامُها كالألسنة بحمده لَهِجَه ـ أن يفوّض لفلان ... ... عِلْمًا باستحقاق شَرفه لهذه الرُّتبه، وصُعودِ هذه الذِّرْوة والهَضْبَه؛ ولأنّه الأولى بدرجات الرُّتب النَّفائس، والأجْدَر بجنَى فروعها المَوائس؛ والإمامُ على الحـالَيْنِ إذا قامت صُفوف المساجِد وإذا قعـدت صُفُوف المَدارِس، والعربىُّ الذى إذا رَقى ذِرْوةَ مِنْبرٍ أُطْلِقتْ عليـه لفظةُ فارس؛ والوَرِعُ الذى آثر فى مناصبه الباقِيَةَ على الفانيه، ومنابِرَ الحِكَم المُضِيئةَ على مراتب الحُكْم الماضيه؛ وعلى مَجالِسِ الدَّعاوى مجالِسَ الدَّعوات، وعلى مَقامِ الصِّلاتِ مقـام الصلوات؛ وعلى القَضاءِ الفَرْض، وعلى الرَّحْبَـةِ[1] ولو كَفَحْص القطاة من الأرض؛ وعلى عَرَض الدُّنيـا القليلِ جَوْهَرَ الفَضْلِ الكثير، وعلى "كتابِ أدب القاضى" "كتابَ الجامع الصغير".

(١) لعله وعلى الرحبة المحل الأرقى ولو الخ

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ : خطيبا تَدْرَأُ مواعِظُه الخُطُوب ، وَاعِظًا من قَلْبٍ تَقِيٍّ تَصِلُ هدايا تُقاه إلى القلوب ؛ فَصِيحًا تكاد المنابرُ تهتَزُّ طَرَبًا ببيانه ، نَجِيحا تكاد أَجْنحَةُ أعلامها تَطِيرُ فَرَحًا بمكانه ؛ شاملًا بنفحات فضله النَّواسِم ، كامِلًا ! لو تقدّم زَمانُه لم يُقَلْ : « فلا الكَرَجُ الدُّنْيا ولا النَّـاسُ قَاسِم » ؛ والله تعـالىٰ يسدِّدُ أقوالَه وأفعالَه ، ويرفَعُ على المنابر والرُّتَب والمراتب مقامَه ومقالَه ، ويُمتِّعه بهـذه الرُّتبة التى أشبهتْ معنًى فى الخلافة : «فلم يكن يصلُحُ إلّا لهـا ولم تكن تصلح إلا له» .

المرتبـــــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دِمَشْقَ ـ
ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بالتَّدْريس بالجامع الأُمَوِىّ والإفتاء به ، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُباتة ، كتب بها للشيخ «فخر الدين المصرىّ» آستمراراً ، بـ«المجلس العالى» وهى :

رُسِم بالأمر الشَّريف ـ لا زال لدَوْلَتِه الفَخْر على الإطلاق ، والمَنُّ على الأعناق ، والكَرَم لطالِبِي الإرْفاد والإرْفاق ، والتَّكْرِيمُ والتَّقْديمُ لذَوِى التَّاهيل والاَسْتِحْقاق ؛ ولا بَرِحتِ النِّعَمُ الثابتةُ للسَّاجعين بمَدْحه المُطْرِب قائمـةً مقام الأطْواق ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ... ... نفع الله بِبقائه ، ورَفَع عُيونَ الأنْجُمِ لدرجات آرْتِقائِه ؛ لفوائده التى شَمِلَتِ الوَرَىٰ ، وعلَتِ الذُّرا ، وحَمِدَتِ الأفهامُ عند صَباحها السُّرىٰ ، وقعد بها مُسْبِلُ ذَيْل الحَيـاء وسار بِذِكْره من لا يَسِيرُ مُشَمِّرا ؛ ومَنْزِلَتِـه التى نَصَبت للهُدىٰ عَلَمًا ، وألفاظه التى أغْربت عن بَدائِـعَ بَهرتْ فما فَتح بمثلها العلماءُ فَمـا ؛ وآسْتِنباطه

الذى يقول للأول : قال وقلتم ، وأقام وزُلتم ، واحتياطه الذى يقول للسائلين : اهبطوا من انتساب حَلْقته مِصْرًا فإنَّ لكم ما سألتُم ، وأنَّه الفاضـلُ الذى ما استنار بعلمه فَتًى فتاه ، والنَّافعُ الذى ما استَطَبَّ بكلماته سَقِيمُ ذِهْنٍ فلمَّا تحرَّكَتْ شفتاه شَفَتاه ، كَمْ جلس للأشغال فثَنىٰ أنفُسَ المـارَّةِ عن أشغالها ! ، ونصر العلْمَ فى حَلْقَتِه المجَنَّدَة فكان من أمرائها المنصور ولم يكن للأنداد من رجالها ! ، كَمْ سُلَّمٌ لبيان بَحْثِه الحَقِيقِىِّ والمجازى ! ، وكَمْ سُـطِّرَتْ لمُناظَرَته المحمدية مع أهْلِ الزَّيْغِ سِيَرٌ ومَغازى ! ، وكَمْ خَلَصَ دِينارُ فَهْمِه المِصْرِىّ على النَّقْدِ فهَيْهاتَ أنْ يُروزَ مِثْلَه «الرَّازى» ! ، كَمْ فخرت مِصْرُ بانتسابه ! ، ودِمَشْقُ بسُـقْيا سَحابه ! ، وكَمْ قال الرازى : لَيْتَ لِى هـذا الفَخْرَ فأرْوِى فى الأوَّلِ بفتىٰ خطيبه وفى الآخر بفتىّ خِطابه .

فليستَمِرَّ ـ نَفع اللهُ به ـ علىٰ وظيفته المأثوره ، وحَلْقَتِه التى نُصبتْ علىٰ مَصايِدِ كَلِماتِه المَشْهُوره ، ومائِدَةِ عِلْمِـه المَنْصوبةِ وذُيُولُ منـافعها فى الآفاق مَجْروره ، ولْيُواظِبْ على جُلُوسِه بالجامع المُنْشرِح المشروح ، ودَرْسِه المُتَضَمِّنِ فَتْحَ أبوابِ العُلوم وغَيْرِه كما يقال : على المفتوح ، سالِكًا من نَهْجِ الإفادةِ مَسالِكَه ، مُكاثِرًا بأجْنِحَةِ فَتاويه الطَّيارَةِ ما يُبْسَطُ لديه من أجْنِحَةِ الملائكه ، مُتَصَرِّفًا علىٰ عادة عبادته فى مَواطِنِ العِلْمِ والعَمَلِ ، مُسْتَنِدًا فى جِلْسَتِه إلىٰ سارِيَةٍ يقولُ لهـا وقارُه وحِلْمُـه : يا سارِيةُ الجبَلَ الجَبَـلَ ، داعِيًا لهذه الدَّولة الشريفة : فإنَّ دعاء العالِمِ مِثْـلِه طائرٌ لآفاقِ القَبُول من أوْكارِ القِبَلِ ، والله تعالىٰ يُمِدّه بعَوْنِه ولُطْفِه ، ويَحوطُ مجالِسَ علمه بالملائكة المقَرَّبين من بين يديه ومن خَلْفِه ، بمنّه وكَرَمه ! .

***

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بتَدْريس مَدرسة القَصَّاعين ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به لفخر الدين «أحمد بن الفصيح» الحَنَفىّ المُقْرِى بـ«المجلس السامى» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يقدِّمُ من العلماء أنْخَرهم ذِكْرا، وأحمدهم أمْرا، وأفصحَهم نَسَبَ قضائلَ وفضائلَ نَسبٍ يقولُ الاستحقاق : كِلاهُما وتَمْرا ـ أنْ يرتَّب فلانٌ ... ... : لما شُهِر من علومه السَّنيَّه، وفوائده السَّريَّه ؛ ووجوه فضائِله الحَسَنه ، وعيونِ كلماتِه المتيقِّظةِ إذا كانت بعضُ العُيونِ مستوْسِنَه ؛ ولأنَّه غريبٌ فى الوَصْف والمكان، وصاحِبُ عِلْمٍ لا يكاد يُوجَد له شَقِيقٌ وإن كان منسوبًا إلى « النُّعمان » ؛ وإمامُ قِراءاتٍ ثَبتَتْ له فيها على «أبى علىّ» الحُجَّه ، وتوضَّحتْ ببيانه المَحَجَّه ؛ وتعينَّ محلُّه الأثير ، وروَى الطالِبُ من عِلْمِـه عن « نافع » ومن ذِهْنِه فى الفوائد عن « ابن كثير » ؛ وأنَّه نَخْرُ الحنفيّةِ القائمُ فى السُّمْعة مقام « رازِيها » ، المُطِلُّ بِمَنْسِرِ قَلَمِه على المعانى إطْلالَ بَازِيها ؛ « الأكْمَلُ » الذى له من علوم صَـدْرِه خِزانه ، « الصَّدْرُ » الذى كلُّ صَدْرٍ يشهدُ له بعلوِّ المَكانه .

فلْيباشِرْ تَدْريس هـذه المدرسة المباركة : حقيقًا بجلوس صَدْرِها ، خَليقًا بتَجْديد شرفها وذِكْرها ؛ مُظْهِرًا لخبايا النُّكَت فى زَواياهـا ، جَديرًا بأنْ يكونَ فى خفايا المسائل ابنَ جَلَاها وطَلَّاعَ ثَنايَاها ؛ يَمْلأُ ببيان بُحُوثِه فِكْرَ الواعى وسَمْعَه ، ويُسَيِّرُ ببنَانِ قَلَمِ فُتْياه ما يتجدَّدُ له من رِفْعه ، ويَبْسُط إدْلالَ الطَّلَبة حتَّى يأْكُلوا فى القَصَّاعية معه فى القَصْعه ؛ والله تعالى يَسُرُّه من مدارس الحنفيَّة بهذه البدايه ، ويُقِرُّه بما يتجدّد من وظائفها التالية : ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَة﴾ بمنه وكرمه ! .

✥

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الطَّرْخانية ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به للقاضى جمال الدين «يوسف الحنفىّ» بنزولٍ من والده ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف – لازالتْ مَواطِنُ العِلْمِ مُكَمَّلةً بذِكْره ، مُبَجَّلةً بأمْرِه ، مُؤَهَّلةً(١) لكلّ يوسُفيّ الجمال يذكّر عزيزُ شامه عزيزَ مِصْره – أن يستقرّ فلانٌ فى كذا ، بحكم ما قرّره مجلسُ الحكم العزيز الشافعيّ ، ونعم المَسالكُ لمذهب شافع ، واتّباعاً لِما حرّره الجناب الشريف التّقوِيّ ذُو النَّسب الصَّحابيّ الذى كلُّ أمرٍ لأمْرِه تابِع ، وعملاً بما رآه رَأْيُهُ الكريمُ الذى إذا كان الجمالُ شافِعاً كان هو للجمال شافِع ؛ وإذا أنشأ من أبناء العلماء فُروعاً [لا] تميل عليهم الأيام ميله ، وإذا وقفت فى طريقهم الأنداد قال اقتصار نسبه الأنصاريّ : يأْبَى الله ذاك وبنو قيلة(٢) ؛ وقبولا لنزول هذا الوالِدِ الذى أعْرقَتْ فى آفاقِ العِلْمِ مَطالِعُه ، وإقبالاً على هذا الوَلَدِ الذى نَجحتْ فى استحقاق التّقديم مَطامِعُه ؛ وعِلْماً بنجابة هذا الفاضل الذى طاب أصْلاً وفَرْعا ، وقدّم نَفْسَه ووالِدَه وَتْراً وشَفْعا ؛ وهذا البادى الشَّيبَةِ الذى يَأْمُر بفضائله على الشَّيبِ ويَنْهَى ، وهذا الوَاضِحُ الدَّلالَةِ على مَفاخِرِ قَوْمِه : فحَبَّذا الدَّعْوَى وبيّنتُها منها ؛ وهذا النَّجيبُ الذى قدّمه أبُوه مُنْجبا ، وذكاؤُه معجبا ، وقلمُه فى الأوراق مُعْشبا ، واشْتِغالُه : إذْ قال يُوسُفُ لأبيه يا أبَتِ إنى رأيتُ من محفوظات كُتُبِي ما يقارب أحَدَ عَشَر كَوْكَبا ؛ وإذا دَرَّس كان لطَلَبتِه مَلاذا ، وإذا عانَدَه مُعانِدٌ قال برفيع هِمّته : يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هٰذَا ؛ وإذا قرأ كُتُبَ فَصاحتِه أذْهل ذوى الألباب ، وإذا فتح لتفسير كتاب الله فاتِحةً ، عُوِّذَ بفضل : ﴿الۤمۤ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ وإذا رَوَى الأحاديثَ أطربتْ حَقيقَتُه السماع ، وإذا أخذ فى دَقائِقِ النَّقْلِ والعَقْلِ عُلِم وعُقِل أنَّ الفِكْرةَ صَنَاع .

---

(١) فى القاموس «أهله لذلك رآه له أهلا» .

(٢) هى قيلة بنت كاهل أم الأوس والخزرج .

فلْيباشِرْ هذه المدرسةَ المباركَةَ ببيان عَرَبِىٍّ وإن كان نَسَبُها طَرْخانِيًّا، وعِلْمٍ رَوْضِىٍّ لا يَعْرِفُ العلماءُ شقِيقَه وإن كان مَذْهبُه نُعمانِيًّا ، ومَباحِثَ تُذْكِى نارَ قَرِيحَتِه : فكَمْ طبَخَ لأنْداده من أصْحاب «القُدُورِىّ» قِدْرا ، ولُزُومِ دَرْسٍ يسُرُّ أباه بمذهبه : فإنَّه القاضى «أبو يُوسف» خَبَرًا فى الحقيقة وخُبْرا، واللهُ تعالى يصُونُ شبِيبَتَه المقبلَةَ من طَوارِقِ الحَدَثان، وينفعُ بعلوم بيْتِه التى من شَكَّ منها فى الحَقّ فكأنه من الحُدْثان.

وهــذه نسخةُ توقيع بتَصْدير بالجامع الأُمَوِىّ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به لـ«شمس الدين بن الخطيب» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ نِعَمُه ظاهِرةَ الفَضْل كالشَّمْس ، طَاهِرة الوُضُوح من دَنَسِ اللَّبْس، وَافرةَ النُّموّ فيَوْمُها قاصِرٌ عن الغَدِ زائدٌ على الأَمْس ـ أنْ يرتَّب فلانٌ فى كذا ويرتَّب له كذا على المصالح، فكم للسلمين فى جامع عِلْمِه مَصالح، وفى مَنافِع قَصْده مَناجِح ؛ وفى فَوائده نَصِيب، وفى طُرُق هُداه مَعالِم : ولا تُنْكر "المَعَالم" لآبن الخَطيب ؛ ليتناوَلَ هـذا الرَّاتِبَ المُسْتَقرَّ من أحَلّ الجهات وأجَلِّها، وتكونَ شَمْسُــه المباركَةُ خيرَ شَمْسٍ تجْرِى لمُسْتَقَرٍّ لَهَا ؛ عِوَضًا عما نزل عنه من تَدْرِيس الحَلْقَة المعدوقَةِ بصاحب حِمْص وتصديرًا بالجامع الأُمَوِىّ يبسط به أنواره الشَّمْسِيَّة ، وينقلُ آسمــه إلى إمْرة العِلْم بِدِمَشْق عوَضًا عن الحَلْقَةِ الحِمْصِيَّة ؛ فلْيعتمد ما رُسم به ، ولا يَتحوَّلْ عما قَضَى العدلُ والإحسانُ بمُوجَبِه .

الضـــرب الثـانى

(من تواقيع أربابِ الوظائف الدِّينية بالشام ـ
ما يُكتَب به لمن هو بأعمال دِمَشْق ، وهو على مرتبتين)

المرتبـــة الأُولى

(ما يُفْتتح بـ « أما بعدَ حمد الله » وفيها وظائف)

توقيعٌ بتَدْرِيس المدرسة النُّورِيَّة بِدِمَشْق(١) ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة ، كُتب به للقاضى زين الدين «عمر البلفيانى» بـ«المجلس العالى» وهو :

أمَّا بعـدَ حمدِ الله الذى جعل لوُجوه العِلْمِ زَيْنًا وأىَّ زَيْن ، وأقرّ لأماكنِها عَيْنًا بمَن يكونُ التَّنْبيهُ على فَضْل مكانته فَرْضَ عَيْن ، ونَشَر أحاديثَها بمَن إذا حدَّث عن يَدِ تَمَكُّنِه فى العَقْل والنَّقْل قيل : صدق «ذُو اليدين» ، وأحْيا مذاهِبَها بمَن إذا عُقِدتْ الخَنـاصِرُ على أمْثاله العُلمـاءِ كان أوّلَ العِقْدِ وثانِىَ الغَيْث وثالثَ « العُمَرَيْن » ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ عبـده ورسولِه الذى أوْضح تَبْيِينَ الهُـدى وسَنّه ، وأرهف شَبَا الحَقِّ وسَـنَّه ، وعلى آله وصَحْبه الذين منهم « عَلِيٌّ » مفتاحُ مَدِينةِ العِلْم و« عُمَرُ » سراجُ أهـلِ الجَنَّه ، ما جَرتْ أقلامُ العِلْمِ والجُودِ فى هذه الأيَّام الصَّالِحَةِ طَلْقَةَ العِنانِ مُطْلَقةَ الأعِنَّة ـ فإنَّ أوْلَى العلماءِ بمدارس عِلْمٍ لا خَلَتْ ، ومَجالِس فَهْمٍ عَزَّتْ بأهْلِها فلا تَعزَّلَتْ ، ومَشاهِدِ عَقْلٍ ونَقْلٍ لاعُقِلتْ ألسِنَتُها بعد مُسْتَحِقِّيها ولا انْتَقلتْ ـ من أضاءتْ مِشْكاتُها النُّوريَّةُ بمصابيح كَلِمه ، وفَتَّحت كمائمُها النَّوْريَّةُ عن زَهراتِ الهُدَى بقَطراتِ قلَمِه ، وتذكَّرت بأوْقاتِه الأخيرة عُهُودَ أهْلِها من هُدَاة الاسلام وأوْقات ذِى سَلَمِه .

---

(١) صوابه بحمص ، كما يؤخذ من التوقيع .

ولمّا كان فلانٌ هو المقصودَ بخلاصة هذا المعنىٰ، والممدودَ إليه نَظَرُ هذا الوَصْفِ الأسْنىٰ؛ والعالِمَ الذى تشبث بأسباب محاسِنه بلَدُ «الحَرَمَيْن»، والسابقَ وإن خَلا وقْتُه الطاهرُ خلف وقت «إمام الحرمين»؛ كَمْ اجْتَنَىٰ ثمرَ الفوائدِ من أصْلٍ وفرْع!، وكَمْ بات قَلَمُه من وَرَقِ فَتاويه وإسكاتِ مُناويه بين وَصْلٍ وقَطْع!؛ كَمْ صَدَق بَرْقُ بَدِيهَتِه الأفكارَ حين شامَتْ!، وكَمْ نَبَّهتْ عند ليالى المُشْكِلات «عمر»(١) ثم نامَتْ!؛ وكم تهادت نَظَره كُتبُ العِلْم حتىٰ قال "كتاب الأم": نِعْم الولَدُ النَّجيب، وقال "كتاب الروضة": نِعْم أخُو الغائث الصَّائب علىٰ رِياضِ القَوْل المُصيب؛ وقال "الشامل" من فضله: هذا لطلبته "نهاية المطْلَب"، وقال "التنبيه" علىٰ محاسِنه: لَيْتَ «النَّابِغةَ» رآه فدرَىٰ أىُّ الرِّجال «المُهذَّب» وكانت المدرسة الشَّهيدية النُّورِيَّة بحِمْص المحروسةِ قد شَهِدتْ مع مَن شَهِد بفَضْلِه، وسَعِدَتْ بنُبْلِه، ووُسِمتْ بعَلَمِ عِلْمِه، وسَمَتْ سُمُوَّ الشهباء: هذه بمقرِّ تَدْريسه وهذه بمجلس حكمه؛ ثم زار دِمَشْقَ زَوْرَةً تشوَّقتْ [إليه] بعدها تلك المشاهد، وتَشَوَّفتْ إلىٰ العَوْدِ هاتِيكَ المَعاهِد؛ وقضَى الوفاءُ أن يُعادَ إليها أحْسنَ إعادَه، وأن يَرجِعَ إلى الأماكن الشهيدية الشاهدة ببِرِّه فتكون منه عادةً ومنها شَهادَه، واقْتضَىٰ الاستحقاق أن يَرِدَها بالمعلوم المسْتَقِرِّ وزيادة وأحْسنُ ما وُرِدَ البَحْرُ فى الزِّيادَه.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف - أعلاه الله وشرَّفه، وحَلَّىٰ بسِيَرِه الصالحةِ سَمْعَ الدَّهرِ وشَنَّفه - أن يستقرَّ فلانٌ فى تَدْرِيس المدرسة النُّورية بحِمْص المحروسة علىٰ

(١) يشير الى بيت بشار فى مدح عمر بن العلاء أحد عمال المهدى:

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبه لها عمرًا ثم نم

وبعده

فتى لا ينام على غـرة * ولا يشرب الماء إلا بدم

عادته ، وعلى نَهج إفاءته وإفادته ، بالمعلوم المقرّر له بمجلس الحكم العزيز الشافعىّ بدِمَشق المحروسة : رِعايةً لتلك المعاهد النُّوريّة التى تتأرّجُ بها الآصالُ والبُكَر، وأنوارِ القبول القائلةِ لوَفْدها الطارق : «عَلَيك سلامُ اللهِ يا عُمَر» .

فليَعُدْ إلى هذه الوظيفة عَوْدَ الحُلِىّ إلى العاطِل ، وليُقبِل على رُتبته المرتقبة إقبال الغَيث على الماحِل، وليُقل بلسان تقدُّمه لمعانِديه : إن كان أعجبكم عامُكم فعُودُوا إلى حِمص فى قابِل، ولينصُرْ بِقاعَها الحِمْصِيّةَ بجِلادِ جِداله فإنّها من أوّل جُندِ الإسلام ، وليَقُم الآنَ فى هذه الأوقات الشّاميّة فإنّه بَرَكةُ الوقت والبركةُ فى الشّام، مُثمِرًا من أقلام علومه أزكى الغُروس، مُظهِرًا من مَباحثه النّفائسَ مُبهِجًا من طَلَبته النُّفوس، عامِرًا لمعاهدها بدُرُوسه : ويا عَجبًا لمعاهِدَ تُعْمَرُ بالدُّروس! ؛ ذاكرًا للوصايا الحسنة التى لا تُقَصُّ عليه فهو أخبرُ بها، والتى من أوّلها وأوْلاها تقوى الله تعالى وهى بأفعاله أمسكُ من تفاعيل العَروض بسَبَبِها؛ والله تعالى يُعضّده فى رِحلته ومُقامه، ويمتع الرُّتَب تارةً بمجالس دُروسه وتارةً بمجالس أحكامه ، ويُروِى صَدَى مِصرَ والشّامِ من موارد عِلمه : هذه بأوفى من نيلها وهذا بأوفرَ من غَمامه .

المرتبــــة الثـانيـة

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بأعمال دِمَشْق ـ ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» ، وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بحِسْبة بَعْلَبَكّ : من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب بها لـ«شهاب الدين بن أبى النور» ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ شُهُب أوامره عالية السَّنا والسَّناء، وفِيَّةً لذَوِى الاستحقاق بمَزِيد الاعْتناء والاغْتِناء، جليَّةَ البرّ بمن شهد بحُسْن حِسْبته حتّى لسانُ الميزان وفَمُ الكَيْل وشَفَةُ الإناء ـ أن يستمرَّ فلانٌ ... ... لِمَا ذكر من أوصافه التى ضاعَفتْ فيه الرَّغْبه، وحالفَتْ به سُمُوَّ الرُّتبه، وشَهِدتْ بها حِسْبَتُه تِلْو الشُّهود : وحَسْبُك من اجتمعَتْ على فضله شهادةُ الفَرْض وشهادة الحِسْبَه؛ ولِمَا صحَّ من كَفَاءته وتَجْرِيبه، ووَضَح فى هذه الوظيفة من تَدْرِيبه التى تَدْرِى به؛ ولِمَا تعيَّن من استمرار شِهابه فى المنزلة التى تَكْتَسِى من أضْوائه وتَكْتَسِب، وهذه الرتبة التى تعلو بمعرفته : وكفاه أنَّه يرزق من حَيثُ يَحْتَسِب ومن حَيثُ لا يَحْتَسِب! ؛ وأنَّه فيها ذُو الرَّأْى الرَّائد، والنَّفْع الوارد، والشِّهابُ الذى نُورُ هُداه فى وجه المريد وأثَرُ كَىِّ حِسْبته فى وَجْه المارد؛ وأنَّه وَلِيَها ولايةً لا تزال تُذْكر وتُشْكر، وعُرِف بوفائها وكان أوْفَى من أمَر بمعروف أو نَهى عن منْكَر؛ وأنَّه قام حقَّ القيام حتَّى قال البلد : رَعَى اللهُ زمانك، واجْتَهد حتَّى قال الاعْتبار للميزان : لا تَذْكُر الزَّيْغَ ولا تُحَرِّكْ به لِسانَك .

فلْيَسْتَمِرَّ فى حِسْبته المباركة استمرارًا يُسْتَحلَى ذِكْرُه، ويُسْتَجْلَى فى الأُمَم شِهابهُ وفى السَّمة بَدْرُه، ولْيَحتَسِبْ فى نَفْع المسلمين حِسْبَةً يَحْتسبُ بها عند المملكة ثَناءه وعند الملائكة أجْره؛ سالكًا على نَهْج العَزْم الجميل، جاعلًا أوَّل نَظَره من أقْوات الرَّعيَّة فى الدَّقيق والجليل؛ مُسْتَبِينًا لما الْتَبس من غِشّ المطاعم والمشارب فلم يَسْتَبِن، حاكمًا ـ ولا سيَّما فى قاعات بعلبك ـ بِرَأْىٍ يُفرِّقُ بين الماء واللَّبَن؛ حاثًّا على بَيْع المآكلِ بِخبْرةٍ من مَلْإ بصَره، حَريصًا على أن لا يُنْشِدَ لسانُ الدَّاخل فيه «ومَن لم يَمُتْ بالسَّيف مات بغَيْره»؛ دافعًا ضَرر المجْترِى البائع عن المُشْتَرِى المسكين، ذكيًّا فيما يُذَكَّى فيذْبَح بسكّين ويذبح مُتَناوِلَه بغير سكّين؛ قاضِياً بالحقّ فى كلّ ما يُشْتَرَى

وبياع ، متكلمًا فى أنواع الملابس وغيرها بالباع والذِّراع ، وَازِنًا بالعَدْل فى كلِّ مَوْزون ومَكِيُول ، رَادِعًا لكلِّ عَمَّـالٍ مُداهِنٍ فى كلِّ مَدْهون ومَعْمول ، حامِلًا على الحال المستقيم كلَّ حَيٍّ لديه وكلَّ من هو علىٰ آلةٍ حَدْباءَ محْمول ؛ ومن زاد فى الإضْرارِ فلْيَمنَعْ زائده ، ومن زاد فى الأشتطاط وتجبير الشراء فلْيقطَعْ بالنَّكال زائده ؛ ومن دَنَّس فى الأشرِبة فلا يلبث أن يُغلِّظ التأْدِيبَ وأن يُرِيقه ، ومن سَقَى الضُّعفاءَ منها كما يقال : سَـقيةً فلْيَسْقه من السَّوْط ما يكاد يَنْثُر جِسْمَه على الحقيقـه ؛ ومن عانَىٰ صِـناعةً ليس له فيها يَدٌ فلْيَلْزِمْه بما بَسط فى إفْسادِه اليَدَيْن ، ومن حكم فى صِناعَةِ الطِّبِّ بما لم يَسُغْ فى المسائل فلْيَصْرِفْه منهـا بخُفَّىْ حُنَيْن ؛ ومن تمرَّد فى مُعامَلَته فليردَّه بالقَهْرِ إلىٰ صالح مَرَدِّه ، ومن عَدا وعَتَا فلْيُعامِلْه بمـا يخرجه من التَّرح لا من القَرَح من جِلْدِه ؛ مِقْدامًا فى الأمرِ بالمعروف والنَّهْيِ عن المُنْكر ولا جَزَع ، مُسْـتَعينًا بالديوان فيما أهَمَّ : فإنَّ الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَع ؛ مجتهدًا فيما يزيد تَقَدُّم سَـعْيِه المشكور ، وصُـنْعه المبرور ، مُنيرًا لآفاقِ مَنْصِـبه وكيف لا وهو الشِّهـاب بن أبي النُّور ؟ ؛ وتَقْوى الله تعـالىٰ هى السبيلُ الأقوم فلْيكُنْ لها مِنْهاجا ، ولْيواظِبْ علىٰ طريقة الحقِّ : فكَمْ شَرَّ عنها حاد وكَمْ خيرٍ منها جَا ! .

⁂

توقيعٌ بنظر السبيل بدرب الحجاز ، بالركب الشامىّ ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به للقاضى «قطب الدين السبكىّ» وهو :

رُسم بالأمرِ ـ لا زال يُقِرُّ بالوظائف الدِّينيـة من يُحِبُّها وتُحِبُّه ، ومَن يتواردُ علىٰ ذِكْره بادِى الشُّكر وركْبُه ، ومن إذا بَدَتْ مطالِـعُ الخَيْرِ فهو نَيِّره وإذا دار فَلَكُ الثناء فهو قُطْبُه ـ أن يستقرَّ ... ... : لمـا ذُكر من وَصْفه الجميل ، وآستحقاقه الذى دلَّ عليه

البرهانُ فى مَحْفِله و برهَن فى موكبه الدليل ؛ ودِيانَته التى هى لمبانى الأوصاف الرفيعة أساس ، وكفاءته التى لها من نفسه نصٌّ ومن نفس قومه قِياس ، ومَرْباه فى بيْتِ تقىٍّ صحّت تجاربُ معْدنه على السَّبْك ، و[دلت] مَناقبه على ٱستحقاق الرُّتب التى يقول بَشيرُها : قِفَا نَبْتَسِمْ ! ويقولُ حاسدُها : قِفَا نَبْك ؛ ولمّا تقدّم من تَشوُّفه لهذه العَزْمة الناجحه ، وتَشوُّقه من هذه المبرَّة الشريفة الصالحيّة بسُلوك تلك الفِجاج الصَّالحه ؛ ولأنّ الضَّعْف عاقه عن الماضى فأطْلقته الآنَ هذه القُوَّه ، وجعلتْ له بأوْقَى القادرين على الحسنات والإحسان أُسْوَه ، ومكّنته فى هذه الشُّقّة الطويلة علىٰ سَحْب أذيال المعروف من منزل الكُسوة إلىٰ منازل ذات الكُسْوه .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ المبرورةَ بعَزْمٍ يُبير من الوَجْد ماكِنَه[(١)]، وحَزْمٍ يُثير من المَدْح المشكور كامِنَه ، وسُمعة علىٰ ألْسنة التذكار يَمضى وتَبْقىٰ حتّى تكاد تكون للكواكب السبعة ثامِنَه ؛ مُتصرِّفًا فى الإرفاد والإرفاق ، بآراء يؤيد الله [بها] الذين هم رِفاقٌ وأىُّ رِفاق ؛ مُنفِقًا فى سبيل الله علىٰ يده أعْدلَ إنْفاق ، حاميا عَدْله من لَفْظة نِفاق ؛ مُخْصبا بإنعام الدّولة الشريفة فى القَفْر الماحل ، حاملًا للمنقطع علىٰ أنهض وأبرك الرواحل ؛ مُواصِلًا لنَقْل الأزْواد إقامَته ومَسيرَه ، و بالماء والشّراب الطّيبين الطّهورين ضَعيفَه وفَقيرَه ، وبأنواع الأدْوية والعقاقير التى تعُمّ متابع الرَّكْب [و] عقيره ، ويَجبُر على الحالين كَسيرَه ، و بوَفاء جميع المستحقّين تاليًا عن لسان الدولة الشريفة : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ داعيا بخُلود مُلْكها فى تلك المشاهد التى هى بقَبُول مَصاعِد الدّعوات ونُزُول مواعد البركات جَديرَه ؛ والله تعالىٰ يتقبّل دعاءه وسعيه ، ويُحْسن كِلاءَته ورَعْيَه ، بمنه وكرمه ! .

---

(١) يريد مكينه ولكنه اضطره السجع الى موافقة العامة .

الصنف الثالث

(من التواقيع التى تُكتب لأرباب الوظائف بدِمَشْق - مايكتب لأرباب الوظائف الدِّيوانية، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يكتب لمن بحاضرة دِمَشْق منهم ، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ

(ما يفتتح بـ«الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيعٍ بكتابة الدَّسْت بدِمَشْق ، كُتب به لتاج الدين « عبد الوهاب » ابن المنجا التنوخىّ ، عِوضًا عن شمس الدين «محمد بن حميد» بالوفاة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تاجَ الأولياء أيْمًا حلّ حلّى المراتبَ وزانَها ، وغدا على التّحقيق كُفْأَهَا وزِانَهَا ، وألبسها من براعَتِه ويَراعَتِه عقودًا تَزُرُّ دُرَرها وجُمانَها ، ومَنَح دَسْتَها العلىَّ من ألفاظها المَجيدَة بيانَها ، وزادها بأصالَتِه فخارًا يستصحبُ وقتَها وزَمانَها ، وآرتقىٰ ذِرْوتَها التى طالَمَا زاد بالمعالى أركانَها ، فتبوَّأ بمزيد المَجْد مكانَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أجزلَتْ إحسانَها ، وأجْملتِ آمْتِنانَها ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تشهدُ القلوبُ إيمانَها ، ويدّخرُ القائلُ إلىٰ يوم المَخاف أمانَها ، ويَتبوّأُ بها فى الدّار الآخرة من يُخلص فيها جَنانُه جِنانَها ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ تعالىٰ به الشريعةَ المطهرةَ وأبانَها ، وشرَّف هذه الأُمّةَ ورفع علىٰ جميع الأمم شانَها ، وبعثه رحمةً إلىٰ كافّة الخلقِ فأقام بمعجزاته دليلَ

الهداية وبرهانها ، وأطفأ بنور إرشاده شرر الضلالة ونيرانها ؛ وأنحمد بدينه القويم وصراطه المستقيم معتقدات [طوائف] الشرك وأديانها ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من نزّه نفسه النفيسة وصانها ، وسلك فى خدمته وصحبته الطريقة المثلى فأحسن إسرار أموره وإعلانها ، صلاةً دائمةً باقيةً تحمد بالأجور اقترانها ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فإنّ أولى من جدّدنا رفعة تاجه ، وسدّدنا قوله فى مجلس عدلٍ ينشر فيه بكلمة الحقّ ما انطوى من أدراجه ، وحدّدنا له محلّ سفارة يلحظ فيه حوائج السائل فيغنيه عن إلحاحه ولجاجه - من هو فى السؤدد عريق ، ولسانه فى الفضائل طليق ، وقلمه حلّى الطروس بما يفوق زهر الرياض وهو لها شقيق ؛ وكان فلانٌ هو الذى علا تاجه مفرق الرآسه ، وجلا وصفه صور المحاسن والنفاسه .

فرسم بالأمر العالى - لا زال يولى جميلا ، ويولّى المناصب الجليلة جليلا - أن يستقرّ المشار إليه فى وظيفة توقيع الدست الشريف بالشام المحروس ، عوضًا عن فلانٍ بحكم وفاته إلى رحمة الله تعالى ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت .

فليباشر ذلك مباشرةً تشكر مدى الزمان ، وتحمد كلّ وقتٍ وأوان ، وتملأ بالأجور لنا صحفًا بما يؤدّيه عنّا من خيرٍ وإحسان ؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمّها التقوى ، فليلازم عليها فى السرّ والنجوى ، والله تعالى يحرسه ويرعاه ، ويتولّاه فيمن تولاه ، والاعتماد ... ...

[وهذه نسخةُ] توقيع بنظر الخاصّ ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به للقاضى «بهاء الدين بن ريان» ، وهى :

الحمد لله مُعلى رُتَبِ الأعيان ، ومبقِى أحبَاء السِّيادة علىٰ ممرّ الأحيان ، ومُبْدِى "بهاءِ" المناصب ، بمن فضلُه الواضح والصُّبح سِيَّان ، ومُنْشى ثمرات المَناقب ، فى مَنابِتِ أهلِها حيثُ الفرْعُ باسِقٌ والأصل "رَيَّان" .

نحمدُه علىٰ أنْ يسَّر البَيْتَ المعلَّىٰ بحسَنِه ، وأيقظ جَفْنَ الآمال من وَسَنِه ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تجمع لنا من خيرى الدُّنيا والآخرة كَرَم المَطْلَبين ، وشَرَف المَنْصِبَين ، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه المشْرِقُ فضلُه علىٰ أهل المَشْرِقَين والمَغْرِبَين ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أصبح الثناءُ عليهم وقفا ، واشتمالُ الذِّكر عليهم عَطْفا ، صلاةً تُضِىءُ آفاقَ القَبُول بشَمْعة صُبْح لا تُقَطُّ ولا تُطْفَىٰ ؛ وسلَّم .

أما بعدُ ، فإنَّ للمناصب الدينية نِسْبةً ببيوت أهْلِ الدِّيانه ، ولخاصِّ الرُّتَب تَعلقًا بالخاصِّ من ذوى الكَفَاءة والأمانَه ؛ والمنازلُ بكواكبِها المتألِّقَه ، والحدائقُ بمغارِسِها المتأنِّقه ، ونفوسُ الدِّيار بسُكَّان معاهدها المُتَشَوِّفة المتشوِّقه .

ولمَّا كان الخاصُّ الشريفُ والوقف المنصورىُّ لوجْهِ المناصب الشامية بمنزلة حُسْنِ الشامَتَيْن ، ولرائد الخصْبِ من جِهَتَى الدنيا والآخرة بمحلِّ نَفْعِ الغمامتين ؛ هـذا علىٰ صُنْعِ البِرِّ الممدودِ مَقْصور ، وهذا لسَحابِ الخَيْرِ سَفَّاحٌ لأنهرِ جِهَةٍ لـ«المنصور» ؛ يعْلُو هـذا بالنَّاظر فى دقائقه إلىٰ أعْلَى الدَّرج ، ويَتْلُو هـذا بلِسانِ ميزانه المُنْفِق على المارستان : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلَا عَلَى المَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ - لايليق الجمْعُ بين رتبتيهما إلّا لمن يجمع بسَعْيِه فضلَ الدَّارَيْن ، ومن يُجِيدُ بَنانُ قلمه الحَلْبَ حَلْبَ ضَرْعَيْهما الدَّارَّيْن ؛ ومَن نَشا فى بَيْتِ سعادةٍ أذِنَ اللهُ لقَدْره أنْ يُرفع ، وأقْلامِ بيته أن تَنفع ، ولمحاسِنِ ذَوِيه أن تَشْفَع بجمالها إلىٰ قلوب الأولياء فتُشَفَّع ؛ ومَن يَسُرُّ بروايةِ فَضْله وبرُؤْيته السَّمْعَ والعَيْن ، ومَن يفْتَرِض شَرَفُه وشرف

إخائه حُبّ «الحَسَن» و «الحُسَين» ؛ ومن تبتهج جوانحُ المحاريب بتعبُّده ، وتلهج أَلْسنةُ مصابيح المساجد بالثناء على تردُّده وتودُّده ، وتستبق جيادُ عزمه : فبينما الكُميتُ فى الشَّهباء تابعُ أدبه إذا بآبن أدهمَ رسيلُ تزهُّده ؛ ومن تقولُ مناصبُ حلَب : لله درُّ بهائه المقتبَل ! ؛ ومن ينشدُ ثباتُ وقاره مع لطافة خُلُقه : «ياحبَّذا جبلُ الريَّانِ من جبَل» ! ؛ ومن تنفَحُ أخبارُه منافحَ الأزهار ، ومن يشهدُ بفضله جيشُ المحراب فى اللَّيلِ و بمباشرته جيشُ الحَرْب فى النهار؛ ومن تأسى بلدةٌ فارقها فراقَ العيْن للوَسَن ، ومن يروى صامتُ دِمشْق وغيرها من تدبيره عن «عامرٍ» وعن «حسَن» .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال من ألقابه الشريفة صالحُ المؤمنين ، وعمادُ الدَّاعِينَ لدولته القاهرة والمؤمِّنين ــ أنْ يفوّضَ للجناب العالى .... فإنَّه المَعْنىُّ بهذه الأوصاف المتقدِّمه ، والمقصودُ بإفاضة حُلَلها المُعْلَمه ؛ والموصوفُ الذى يحلُو وصْفُه إذا كُرِّر ، ويَستعْبِدُ الأوصافَ والأسماعَ إذا حُرِّر ، والأحقُّ برتبةِ عزٍّ فى النُّظار مَضَىٰ وأبقىٰ ثناءَه ، ومكانَ نَظَرٍ إن لم يقُلِ الدعاءُ اليوم : أدام اللهُ عزَّه ! قال : أدام اللهُ بهاءَه ؛ واللَّائقُ بتقرير منْصِبٍ تقصُرُ دونَه المطامع ، وتَصْدير ديوانٍ إن آنقطعَتْ روايتُه عن «حمْزة» فقد آتَّصلتْ روايتُه عن «نافع» .

فليباشرْ هٰذيْن المَنْصِبين المُنْجِبَين ، مجتهدًا فى مصالح الخاصِّ الشريف ، والوَقْف الذى لا تحتاج هِمَّته فيه إلىٰ توْقيف ؛ حتَّىٰ يكونَ خيرُ الخاصِّ عامًا ، وأمْرُ الوقف تامًا ؛ وريْعُهما بالبركات خيرَ محفوف ، والمنصورىُّ من جهة المعاضدة قد أضحىٰ وهو بالعَضُدَيْن موصوف .

والوصايا متعدِّدةٌ وهو أدرىٰ وأدْربُ بها ، وتقوى الله تعالىٰ أوْلىٰ وصيَّةٍ تمسَّكَ المرءُ بسَبَبِها ، وشكرُ النعمة أدلُّ علىٰ نَبيهِ هِممِ الرجال وعلىٰ فضل مُهذَّبِها ؛ واللهُ تعالىٰ يسدِّدُ قلمه ، ويثبِّتُ فى مطالع العزِّ قدَمه ؛ بمنِّه وكرمه ! .

توقيعٌ بنظر الخزانة العاليـة، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين ابن أبى الطّيّب» بـ«ـالجناب العالى» وهو :

الحمدُ لله الذى له خزائنُ السموات والأرْض، وبحكمته يهَبُ منها مايشاءُ لمن يشاءُ رَضِىَ المُعاندُ أمْ لم يَرْضَ، وبِمنّته فُضّلتْ مراتبُ أهلِ التّقىٰ على الرّتب كما فُضّلَ على النافلة الفَرْض، وبعنايته بُنيتْ بيوتُ أهـلِ السّيادة على الطُّولِ وبَقِىَ صالحُ عملهم إلى العَرْض، وبهدايَتِه سمـا إلى أعْلىَ الخزائنِ من تُقْرِضُها أوصافُ قلَمـه وقلمِ أبيه أحْسنَ القرْض .

نحمدُه علىٰ مامنح من خزائن فضْله، ونشكُره والشُّكرُ ضامنُ المَزيدِ لأهْله ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً يدّخرُها الإنسان لنيّته وقوْله وفعْله ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى جمع بفَيْئه وفرّق ببذْله ، وأعطىٰ مالم تنْطَوِ ضمـائرُ الأكياس فى صُـدُور الخزائن علىٰ مِثْـلِه ، صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه السّالكين سَنَنَ فضيلته وفَضْله ، التابعين فى الكَرَم والبأْس قِياسَ بيانِه ونَصّ نَصْله ؛ ماأطْلعَتْ خِزانةُ الوَسْمىّ آثارَ نُقَطِ الغَيْث كالدّراهِم، وخلَعَتْ على الدنيا خِلَعَ الرّوض مُتقلِّبَةً بمُسْتديرِ الظّلال مَزْرُورَةً بمعقودِ الكمائم ؛ وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ الرّتبَ ذخائرُ قومٍ فى خزائن الآختيار، وأخايِرُ أهْلٍ تزكو نقودُ شيَمِهم علىٰ محكّ الآعتناء والآعتبار، وفروعُ خلَفٍ تظهر مَظاهرُ نُصولها الزكيّة سابغةَ الظّلّ رائقةَ الزّهر فائقةَ الثّمار، إذا آحتيج منهم إلىٰ ذخيرة نفَعَتْ، وإلىٰ أخير وقتٍ أرْبىٰ علىٰ عزائم الأُوَلِ وما صنَعَتْ، وإلىٰ فُروعِ شجرةٍ سرَتْ محامِدُها الضّائعةُ : لا ممّا ضاعَتْ بل ممّا تضَوّعت.

ولما كانت رتبةُ نَظَر الخزانة العالية بدمشق المحروسة أحقَّ بمن هذا وَصْفُه ، وهذا نَعْته فى مُقدِّمة الذِّكر الجميل وهذا إليه عَطْفُه ، إذْ هى مرتبةُ العَلْياء ومكانُها ، وزُهَرة سَماءِ المملكة ومِيزانُها ، ومَنْشأُ غُيوثِ صِلاتِها الهَامِره ، ومَنْبِتُ رياض خِلَعِها الزَّاهِره ، وأُفُق السعادة ومَطْلَع نجمها المُنير ، وجَنَّة أولياء الدَّولة ولِباسُهُم فيها حَرير ، ومَغْنىٰ شَرَف الاكْتِساء والاكْتِساب ، ومأْوَى الفاضِل ـ والحمد لله ـ الذى يَحْفظها التحصيلُ بحساب ويُعْطيها الجُودُ بغير حساب .

وكان الجناب ... ...[1] ممن تضم أعطافه أنوار السَّعاده ، وتَحفُّ أطرافه و ... ...[1] السِّياده ، وتَتْقل جِلْسته : إمَّا من تنفيذ الديوان لمَرْتَبة و إمَّا من تَدْريس العِلْم لسَجَّادَه ، ذُو الفَضْل والفضائل حَسَنُ التَّجْنيس والتَّطْبيق ، والكِتابةُ : من حساب وإنْشاء زاكيةُ النَّثْر على التَّعليق ، ونفحات البِر من نفحات العيش أجود ، والشبيبة فيها النهىٰ فمكانه كما قال البحترىّ : نسبٌ أسْوَد ، والهِمَم التى حاولَتْ مَنال الشُّهُب المتنعة وَلاتَ حِينَ مَناص ، والكلمة التى لو عَايَنَ « البَصْرِىُّ » فرائد نَحْرِها لقال : كلُّ هذه دُرَّة الغَوَّاص ، والعَزائِم التى رامَتِ المناصبَ فما قَبِلَتْ من خِزانَتِها سوى الرَّفيع وما رَضِيَتْ من دِيوانِها سِوَى الخاص ، كَمْ نَبَّهَتْ منه المَقاصِدُ « عُمَر »[2] ثم نَامَتْ ! ، وكَمْ أجلسَتْه كواكِبُ اليُمْن فى صَدْرِ مَحْفِل ثم قَامَتْ ! ، كَمْ حَوىٰ من الحَمْد سَنِيًا ! ، وملأ الرِّباعَ خيراً وَفيًا ! ، وقَيَّض اللهُ للفقراء والأيْتام حَناناً من لَدُنْه وزَكاةً وكان تَقيًا .

---

(١) بياض بالأصل فى الموضعين .

(٢) أخذه من بيت بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا ✱ فنبــه لها عُمَــرا ثم نم

يريد عمر بن العلاء أحد عمال المهدىّ وكان على طبرستان .

فلذلك رُسم بالأمر الشّريف – لا برِح صَالحُ الدهر كالزَّهْر، مالكٌ نُفُوس الأولياء والأعداء : هاتيكَ بالإنعامِ وهاتيك بالقَهْر – أنْ يفوّضَ إليه نظرُ الخزانة العالية مُضافًا إلىٰ ما بيدِه من نظر الخاصّ الشريف : لأنّ مثلَه لا يُصْرف عن وظيفة بَسَناه تُعترَف، ومن نَداهُ تُغترَف، وأنّ اجتماعَ العَدْلِ والمَعْرفة قاضٍ بأنّ «عُمَـر» لا ينْصرِف ؛ وأنّ الخاصَّ لخاصِّ الأولياءِ أمسُّ مكانَه، وأنّ الخزانَةَ أنسبُ بمن عُرِف بالصِّيانَه ؛ وأنّ خزائنَ الأرضِ وهى مِصْرُ لو نَطق نَظيرُها لقال : ليسَ لى مِثْلُ هـذه الخزانَه ؛ وأنّ عينَ الأعيانِ أوْلىٰ بالنَّظَر، وأنّ الأنْظار لا بل الصَّحابَةُ أحقُّ بـ«عُمَر» ؛ لِمَا عُلِمَ من سيرَتِه النَّقيَّه، وسَريرَتِه التقيه، وصِفاتِه التى يمتدُّ فيها نَفَسُ القَوْلِ حتّى ينقطِعَ وفى الأوْصافِ بعدُ بَقيّةٌ وبَقيَّه .

فلْيباشِرْ مافُوِّضَ إليه من أعلَى المراتِبِ المُنْجبات، والوظائفِ المُعْجباتِ المُعْشِبات، والجهاتِ التى مالَهـا كَنيتِه الطَّيِّبِ : والطَّيِّبون للطَّيِّبات ؛ مُسْتجدًّا من نَظر هـذه الخزانة ثوبَ سَعْده الجديد، مُعْمِلًا فى مصارف الذَّهَب والفضّة بَصَرَ آرائه الحديد ؛ مُنبِّهًا لهـا عَزْمَه العُمَرِيَّ ونعم من يُنَبِّه، مُشْبِهًا فى الكَفاءة أباهُ المَرْحومَ وما ظَلَم من أشْبَه ؛ مُقرِّرًا من أحوالها أحسنَ مُقرَّر، مُحرِّرًا من أمورها أوْلىٰ ما اعْتُمِدَ والخـزانةُ أوْلىٰ بالمُحرَّر ؛ حافِظًا لما لها بقَلَمِ التّحصيلِ حتّى ينفَدَ قَلَمُ الإطلاق، صائنًا لوفرِها حتّى يُنْفِقَه الـكرَمُ خَشْيةَ الإمْساكِ بعد ما أمْسكه الصَّوْنُ خَشْيةَ الإنفاق ؛ مُستَدْعِيًا من أصنافِها كلَّ ماتنوّعَ وتَصنّف، وتَوشّعَ وتَفوّف، مُثْبِتًا كلَّ ماخُلِـع من ديوانها العَزيزِ وتَخلَّف ؛ مُؤَلِّفًا للكَساوِىْ(١) فى رِحْلَةِ كلِّ صَيْفٍ وشَتْوَه، مُواصِلًا للأحمال من دِمَشْق علىٰ كلِّ حال من جهة الكُسْوَه ؛ مُنْهِيًا لإنعامها بقَلَمِ الإطلاقِ التّام، مُتلقّفًا بعصًا قلمه فى يَدِه البيضاءِ ماتأْفِكُ عِصَا الأقلام، حَرِيصًا على أن يكونَ بابُها فى الكَرَم كما يقال :

(١) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة . والظاهر أنه جارى العامة فى استعمالهم .

«سَهْلُ الحِجاب مُؤَدِّبُ الخُدَّام» ، عاملًا بتقوى الله تعالى التى بها يُبْدأُ الذِّكْر الجميلُ ويُخْتم ، ويُلْبَس بها فى الدُّنيا والآخرة رِداءُ الخير المُعْـلَم ، غَنيًّا عن تبيين بقايا الوَصايا التى هو فيها بَحْرٌ ، وابْنُ بَحْرٍ بكتاب "البيان والتبيين" أعْلم ؛ والله تعالى يمدّه بفضْله ، ويحفظُ عليـه الفَضْلَ الذى هو من أهْلِه ، ويملأُ آمالَه بغَمامِ الخيْرِ الصَّيِّب . ويُديمُ سعادةَ بَيْتِه الذى لا يَرْفع الشُّكْرَ لطيبه إلا الكَلِمُ الطَّيِّب .

المرتبـــة الثـانية

(من تَواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضرة دِمَشْق ـ مايُفتتح بـ«أمّا بعدَ حمدِ الله»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

[نسخة] توقيع بنَظَر الأَسْرىٰ ونَظَرِ الأَسْوار، كُتب بها لدوادار الأمير «سودون الطرنطاى» كافِلِ الشَّام، وإن كانت هى فى الأصْل ديوانية أو دِينيّة، وهى :

أمّا بعـدَ حمدِ الله الذى خصَّ أولياءَه بفضْلِه الوَافِر، وعمَّهم بحُسْن نَظَرِه فأشْرق صُبْحُ صَباحِهم السَّافِر، وٱنْتَضىٰ من عَزائمهم لنُصْرة الدِّين سَيْفًا يسرُّ المؤْمن ويَغيظ الكافِر، واجْتَبىٰ من الكُفَاةِ من يشَيِّدُ معاقِلَ الإسلامِ بفَضْله المتظَافِر؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّين الأكْملين علىٰ سـيِّدنا محمد الذى أضاء برسالته الوُجُود ، وخصَّه الله تعالىٰ بالصِّفات الفائِقَة والمآثرِ الحسَنة والجُود ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حَرَسُوا المِلَّةَ الحَنيفيَّة من جهادهم بأمْنع سُور، وأوْهَنوا جانبَ الكُفْر وأنقذُوا الأَسِير وجَبَرُوا المكسور ؛ صلاةً دائمـةً مَدَى الأيّام والشُّهور ، مُعْلِيَةً للأولياءِ عَلَم النَّصرِ المَنْشُور ـ فإنّ أوْلىٰ من عَدَقْنا به المناصبَ السَّنِيَّة ، وفوّضْنا إليـه جَليلَ الوظائف الدِّينيّـه ؛

ونُطْنَا به فكَّ رقبة المُسْلم من أسْره ، وخلاصهُ من عَدُوِّه الذى لا يَرْثِى لمسْكنته ولا يرقّ لكَسْره، وأجرينا قلمه ببذْل الفِداء، وجعلنا مِدادَه دِرْياقًا لمرض الأسْر الذى يعدِلُ ألف داء، وأقمناه للعانى من شَرَك الشِّرْك مُنْقِذا، وللدافع فى بَيْداء العِدا بحُسْن إعانته مُنجِدا ، وللأسْوار المُمنَّعة بجميل نظره مُتفقِّدا — من أضحىٰ فَضْلُه ظاهِرا، وجلالُه باهِرا، وخِلالُه مَوْصوفةً بالمحاسن أوّلًا وآخرا .

وكان فلانٌ هو الذى بهرتْ مآثِرُه الأبصارَ وملأت الأسْماع ، وانعقدتْ علىٰ تفرُّدِه فى عَصْره بالمفاخر كلمةُ الإجْماع ، وسارتِ الرُّكبان بذِكْره الذى طاب وجُودِه الذى شاع، وصَفَتْ سَرِيرتُه، فأضحىٰ جميلَ الإعلان، وحُمِدتْ سِفارتُه، فكانتْ عاقِبةُ كلِّ صَعْبٍ ببركتها أنْ لان .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى — لازال يُولِى جميلا، ويُوَلِّى فى الوظائف جليلا — أن يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفتَىْ نَظَرِ الأسْرىٰ والأسْوار بدِمَشْق المحروسة ، علىٰ أجملِ عادة ، وأكمل قاعدة ، بالمعلوم الشاهد به دِيوان الوقْف المبرورِ إلىٰ آخر وَقْت : وضْعًا للشىء فى محلِّه، وتفويضًا لجميل النَّظَر إلىٰ أهْلِه .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً تَسُرُّ النفوس، وتَزِيدُ بها الغِلالُ وتَزْكو بها الغُروس، ولْيُجْرِ أحوالَ الوَقْف المبرورِ علىٰ مقتضىٰ شَرْط الواقف والشَّرع الشريف ، ولْيَتصرَّفْ فى تحصيل المال وإنْفاقه أحسنَ تَصْريف، ولْيَجْتَهِدْ علىٰ تخليص المأْسُور، وإغاثة مَن ضُرِب بينه وبينه بسُور، وليُسارعْ إلىٰ تَشْييد الأسْوار المُمنَّعه، وإتقان تحصينها : ليَتضاعَفَ لمن حَوَتْه منّا الأمْنُ والدَّعه، والوصايا كثيرةٌ وملاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ وسُلُوكُ صِراطِ الحَقِّ المستقيم : فلْيُواظِبْ عليها ، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ عنايته إليها ؛ والله تعالىٰ يُديم عُلاه ، ويتولَّاه فيما تولاه ؛ بمنّه وكرمه .

توقيعٌ بصحابة ديوان الأسرى ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به للقاضى شرف الدين «سالم بن القلاقسى» ، وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى جدّد بطالع الشّرف قواعدَ بيْتِ السّياده، ومَشاهدَ حوْلِك السّعادَه ، ومَصاعدَ ذُرا الأقلامِ التى قسَّمتْ مجانِىَ قصَبِها للإفاعةِ والإفاده ، ومَعاهدَ القَوْم الذين سلكوا مَسالِكَ سَلَفِهم الحُسْنَى : ولو كان التمَامُ يقبلُ هنا مَزيدًا قيل : وزِيادَه . والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ الذى شدّ اللهُ برسالتِه أزْرَ الحقِّ وشادَه ، وعلى آله وصحْبِه ذَوِى الأقدارِ المُستزادَة المُستجادَه ، ما اتّصلَ بحديث الفضْل سَنَدُه وأمِن بيْتُ التقوى سِنادَه ــ فإنّ البيُوتَ المُنتظِمَ فَخارُها ، المأمُونَ من عَروض الأيّام زِحافُها وانْكِسارُها ، أوْلى بأنْ تنتخَب لهم المناصبُ كما تُنتخَبُ للبيُوت المعانى ، وتُستقرَى الوظائفُ العليَّةُ كما تُستقرَى لمواضع كَلِمِها المَبانى ، وتختار لنجل الأصحاب(؟) بينهم كلّ جِهةٍ مأمُونَة الصَّحابَه ، موْفُورَة السَّحابَه ، مجْرورَةَ ذيْل الخيراتِ السَّحّابَه ، مَصُونةٍ عن غير الأكفاء كما يُصَان للجهات حُجُبا ، لائقةٍ بالأفاضل لأنّ لأوقاف الأسرى بالفاضل نَسَبا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يرتّب فى كذا : علمًا بأنّه الرئيسُ الذى إذا ولِىَ وظيفةً كفاها ، وإذا وعَدها بصلاح التّدبير وَفَاهُ وفاها ، وإذا وصل نَسَبها بنَسَبِه كان من إخْوانِ صَفَائِها لا من إخْوانِ صَفَاهَا ، والخبيرُ الذى استوضح بيُمْن الرّأى مَذاهِبَه ومَسالِكَه ، والعالِمُ الذى إذا مشَّى الأُمورَ بسط جَناحَ الرِّفْقِ وإذا مشَى بسطتْ له أجْنحَتَها الملائكه ، والجليلُ الذى إذا نظر ذِهْنُهُ فى المشكلات دقّق ، والكاتِب الذى تعينَتْ أقلامُ عِلْمِه وكفاءته إلّا أنّ كلّها فى الفَضْل مُحقّق ؛ هذا وخطُّ عِذارِه ما كَتَب فى الخَدِّ حواشيه ، وليلُ صِباهُ ما اكتمل ! فكيف إذا أطلعتْ كواكِب

المَشيبِ دَياجيـه، وكيف لا؟ وأبوه - أعلَى اللهُ تعالى جَدّه - صاحِبُ المَجدِ الأثيل، والفَضل الأصِـيل، ووكيلُ السلطنة الذى إذا تأمَّلت محاسِـنه قالتْ: حَسْبُنا الله ونِعم الوكيل .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ برأيٍ يُسَهِّلُ - بمشيئة الله - عَسِيرَها، ويفُكُّ - بعَوْن الله - أسِـيرَها، واجتهادٍ سَنيٍّ يحسنُ قلمُه فى الأُمور مَسْرَى، واعتمادٍ سَرِيٍّ لا يرى ديوانُ أَسرى منه أَسْرى، مُشْـبِهًا أباه فى عَدْله ومن أشْبه أباه فما ظلم، وتوقُّد رأيه لَدَى طَوْدِ حِلْمٍ وعِلم «فيالك من نارٍ على عَلَم!» ،حتّى يأْمَن دِيوانُ مباشرته من ظُلْم الظالم، ويُشْعِل ذكاءه حتّى يقال: عجبا لمُشْعِل نارًا وهو سالم!، ويُثَمِّر مالَ الجهَة بتَدْبيره، ويشْتَرِك لفظُ إطلاقِ الديوان فى مالِه وأسيرِه، وتَنْتقِلُ الأسْرى من رُكُوب الأداهِم إلى رُكوب الشُّهْب والحُمْرِ من دَراهِمه ودَنانيرِه، ويُحمد على الإطلاق، وينفِقُ خَشْيَةَ الإمساك إذا أمْسك [غيره] خَشْيةَ الإنفاق، ويمشى بتَقْوَى الله - عزّ وجلّ - فى الطّريق اللّاحب، ويُنْسَب إلى ديوانه وقَوْمه فيقال: صَاحِبٌ طَالَما آنتسب من سَلَفه لصاحب، والله تعالى يُنْجِح لكواكب رَأْيه مَسِيرا، ويَجْبُر به من ضَعْف الحال كَسِيرا، ويكافِئُ ساداتِ بَيْتِه الذين ﴿يُطْعِمون الطعامَ على حُبِّه مِسْكينًا ويَتيمًا وأسِيرا﴾ .

المرتبـــة الثـالثة

(من تَواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضرة دمشْق -
ما يُفتتح بـ«رُسِم بالأمْر الشريف»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع ... ... (١) من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به للقاضى «علاءالدين بن شرف الدين بن الشهاب محمود» عند موت أبيه وهو صغير، وهى :

(١) بياض فى الأصل ولعله « توقيع بكتابة السر » .

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يَجْبُرُ بِرِّه مُصابَ الأبناءِ بآبائهم، ويَسُرُّهم بما يتجدّد فى كواكب الشَّرف من علائهم، ويُعْتِق قُلوبَهم من إسارِ الحُزْن حتّىٰ يَنشَئوا من الصِّغر علىٰ أنساب عِقّتهم وولائهم ـ أنْ يستقرَّ ... ... آعتمادًا علىٰ نجابته الشاهده، ومَخايِل هِمّته السائده ؛ وآستنادًا إلىٰ أصالتـه التى لا يُبْدِى فرعُها إلّا زكىَّ الثمَـر ، ولا يهـدى بَحْرُها إلّا أنفسَ الدُّرر ، ولا يخلُف أفقُها إلّا كبيرًا تَسـتصغِرُ الأبصارُ رُؤْيته : والذّنْبُ للطَّرْف لا للكوكَب فى الصِّغَر؛ وعِلْمًا أنّه من أُسْرةٍ شهابيّةٍ لايهتدىٰ فى الإنشـاء إلّا بنُورِهم، ولا يُـ ـدّثُ بالعجائب إلّا عن بُحُورِهم ؛ ولا يَنبتُ أقلامَ البلاغة إلّا عُشْبُهم ، ولا تُعشِب روضاتِ الصحائف إلا سُحُبُهم ، ولا تُثْبِت أفلاكَ الكتابة إلا كُتُبُهم ؛ صَغيرُهم فى صـدور الإنشاء كبير ، ومُلقّن آيات فضْلهم يَرْوِى أعْداد الفوائد عن « آبن كثير » ، وعليهم بعد « أبى بكر » تقول المحـامد لسَلَفه وخَلَفه : منّا أميرٌ ومنكم أمير ؛ وأنّه اليومَ لا سَيْفَ إلّا « ذو الفقار » من أذهانهم ، ولا فتًى إلّا « علىٌّ » من وِلْدانِهم ؛ وأنّ فَرْخ البطّ سابح ، وسَعْد القوم للأنْداد ذابح ؛ وخواتم صُحُف الجمع الظاهر أشْبَهُ بالفواتح ، والبلاغةُ فى الدنيا كنوزٌ والأقلام فى أيديهم مفاتح ؛ وأنّ الكلام حليته وسِمَته (1) ، وأنّه إذا خدم دَوْلةً بعد مُخلّفه قيل للذاهب : لقد أوحشْتنا وجهُه وللقادم : لقد آنسْتنا خِدْمتُه .

فلْيأْخُذْ فى هـذه الوظيفـة بقُوّةِ كتابةٍ ، ولْيتناولْ باليُمْن واليمين قلم جَدّه كما تناول رايةَ مجْده عَرابَه ؛ ولْيتقلّدْ بقلائد هذه النِّعَم عقيبَ ما نَزَع التمائم ، ولْيَجْهَدْ فى إمْرارِ كَلِمه الحُلْو الذى أوّلُ سمائه قَطْرٌ ثم صَوْبُ الغمائم ؛ مُجوِّدًا خطَّه ولفظَه حتّىٰ تتناسب عُقَدُه ، ناشئًا علىٰ كَتْمِ السِّرِّ حتّىٰ كأنّ الفؤادَ قبرُه والجَنْبَ لَحْدُه ، مُهْتديًا بالعَلَم الشِّهابى فى بِرِّ أخيه الأكبر فإنّه من بوارق المزن ، مُبْتديًا مع أخيه الآخرِ السُّرورَ إذْ يَنزع

(1) فى الأصل هكذا "وأن الكلا محلهم" .

عنهما لباسهما من الحزن، والله تعالى يزيد فى فضله، ويتم عليه النعمة كما أتمها على أبيه من قبله، ويفقهه فى السيادة حتى يحسن فى الفخار رد الفرع إلى أصله.

⁂

توقيع بنظر مطابخ السكر، من إنشاء ابن نباتة، كتب به للقاضى «شرف الدين ابن عمرون» وهو:

رسم ... ... – لا زالت سمة المناصب فى دولته الشريفة مشرفه، وأقلام الكفاة مصرفه، وألفاظ الشكر ثابتة عند ذوى الاستحقاق ومصتفه، والنعماء المنصفة لأمثالهم حلوة المذاقين من نوع ومن صفه – أن يستقر ... ... لما عرف من شيمه المستجاده، وهممه المستزاده، وكفاءته اللائق بها حسن النظر الثابت بفضلها رقم الشهاده، وأصالته التى نهض أولها بمهمات الدول فلو رآه معاوية – رضى الله عنه – لقال: يا عمرون أنت عمرو وزياده؛ ولما ألف من مباشرته المنيفة خبرا وخبرا، وأنظاره السامية إلى معالى الأمور نظرا؛ ووظائفه التى لا يكاد يبلغ العشر منهاذو والهمم العليه، وجهاته التى عرف بها سلفه وخلفه فلا غرو أن لبس عمامة مفاخره بيضاء وسكريه.

فليباشر هذه الوظيفة الحلوة معنى ومذاقا، الحلية عقدا ونطاقا، المحسوبة على مطالع الشرف وفقا وآفاقا، جاعلا شكر النعمة من أوفى وأوفر مزاياه، وصلف الهمة من أولى وأول وصاياه، حافظا للطابخ وإن كان عادة آبائه بذلها، مدخرا للجفان وإن كانت سمة قراهم إزالتها ونقلها، حريصا على أن لا يجعل لأيدى الأقلام الخائنة مطمحا، وعلى أن ينشد كل يوم للتدبير لا للتبذير.

* [لنا] الجفنات الغر يلمعن فى الضحى *

مُحَرِّرًا لحساب دِرْهَمِها ومَحْمُولِها، ومَصْروفِها ومَحْصُولِها؛ مُحْتَرِزًا علىٰ مُباشَرتِه من الخَلَلِ فى هذين المكانين، حَذِرًا من كِفَّتِها وقَبَّانِها فإنّهما تتكلّمُ فى الحَمْد أو فى الذّم بلسانَين؛ بل تُعْلِنُ - إن شاء الله - بحمده المُقَرَّر، وتُكَرِّر الأحاديثَ الحلوةَ عنه فمن عندها خرج حَديثُ الحُلْوِ المكرَّر؛ والله تعالىٰ يُمِدّ مَساعِيَه بالنُّجْح الوَفِى، ويُلْهِم هِمَّتَه أن تُنْشِد: «ما أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصانَ من شَرَفِى!».

توقيعٌ بنَظَر دار الطِّراز، من إنشاء ٱبن نُباتة، وهو:

رُسِم بالأمر - لازالتْ سِيَرُه بمرقُومِ المحامد مُطَرَّزَه، ودَوْلتُه بمحاسن التّأْييد والتّأْبيد مُعَزَّزَه، ونِعَمُه ونِقَمُه: هذه على الأعْداء مُجْهِزَة وهذه إلى الأولياء مُجَهَّزَه - أنْ يرتّب فلانٌ: لكِتابَتِه التى رقَمَتِ الطُّروس، وطرّزَتْ بالظَّلْماءِ أرْدِيَةَ الشُّموس، وأثْمَرتْ أقْلامُه بمحاسن التّدْبير فكانت فى جهات الدُّوَل نِعْمَ الغُرُوس؛ وحِسابِه الذى ناقَشَ ونَقَش، ورَقَمَ الأوراقَ ورَقَش؛ وٱعْتِزامِه الذى عَلَّمَ رَشَدا، وسَلَكَ طَرِيقًا فى الخِدْمة جَدَدا، وقَوِىَ ٱسْمُه وتكاثرتْ أوصافُه فما كان من أنْداده أضْعَفَ ناصِرًا وأقلَّ عَدَدا؛ وأنّه الكافى الذى إذا قُدِّم نَهَض، وإذا سدّد سَهْمَ قَلَمِه أصاب الغَرَض؛ والسّامى إلىٰ سماء رُتَبِه بالقَلْب والطَّرْف، والمنزِّهُ لقلمه الحُرِّ من أنْ يستعبدَ علىٰ حَرْف.

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ بكَفاءةٍ عليها المُعَوَّل، وأقلامٍ إذا تَمشَّتْ فى دار الطِّرازِ على الوَرَق قيل: «شُمّ الأُنُوف من الطِّرازِ الأوّل»؛ مُسْتَدْعِيًا لأصْنافها ومالِها، عادِلًا فى قِسْمة رَجائها ورِجالِها؛ مُعْمِلًا راحَتَه بالقلَم فإنّ كتابتها مُتْعِبَه، مُهْتدِيًا فى طُرُق حِسابِها فإنّها طرقٌ متشعِّبَه؛ ماشِيًا علىٰ نَهْج الاحتراز، ساعِيًا إلى الرُّتَب بإرْهاف عَزْمٍ كالسَّيف الجُرازِ، سَعِيدَ السَّعْيِ - إن شاء الله تعالىٰ - حتّىٰ يقولَ سَناءُ الملك

المُسْتَنهِض له : هٰذا القاضى السَّعيدُ وهٰـذه دَارُ الطِّراز ؛ والله تعالىٰ يوفِّقُه فى جميع أحْواله ، ويؤيِّدُ مساعِىَ قَلَمِه الذى تَنْسِجُ أقْلامُ الكُفَاةِ علىٰ منْوالِه .

✣

توقيعٌ بنظر الرِّباع ، من إنشاء الشيخ صلاح الدِّين الصَّفَدِىّ ، باسم القاضى نجم الدين «أحمد بن نجم الدين محمد بن أبى الطَّيِّب» ، وهو :

رُسم بالأمر العالى ـ لا زال نَجْمُ أوليائه (١) يتَّقِدُ نُورا ، وخاطِرُ أوليائه يَتَّحِـدُ بالآمال سُرورا ـ أنْ يرتَّب المجلس السامىّ القضائىّ ـ أدام الله تعالىٰ عُلُوَّه ـ فى نَظَر الرِّباع الدِّيوانية ، ومباشرة الأيْتام ـ حرسهم الله تعالىٰ ـ علىٰ عادة من تقدمه وقاعدته ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : لأنَّه النَّجْمُ الذى بَزَغ فى أُفُق الرِّئاسه ، وحَمَّل ما آثَره قَبِيلُه وأنَاسَه ؛ والأصيلُ الذى شاد الفَضْلُ مَجْدَه ، وأحكم الفَخْرُ عَقْدَه ؛ والرَّئِيسُ الذى يَصْـدُق التَّفَرُّسُ فى شمائله ، ويَحْكُم الظن الصائبُ فى أثْناء مَخايِله .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً هى معروفةٌ من هـذا البَيْت ، مَأْلُوفَةٌ من كبيرهم وصغيرهم : فإنَّهم لا لَوَفيهم ولا لَيْت ، مُعْتَمِدًا علىٰ سُلوك طريقة أخِيه وأبِيه ، مُجْتَهِدًا على اتِّباع اعتمادهما فى تَوَخِّيه الصَّوابَ أو تأبِّيه ، حتَّى يقال : هذا صِنْوُ ذلك الغُصْن الناضِر ، وهذا شِبْل ذلك اللَّيْث الخادر ؛ وتُصْبِح الرِّباعُ بحُسْن نظره آهِلَةً بالأهِلَّه ، كامِلَةً بالمحاسن التى تُمْسِى الأقْمارُ منها مُسْتَهِلَّه ؛ وتعود الأيْتام بمشارفته كأنَّهم لم يفْقِدُوا بِرَّ والدهم ، ولم يحتاجُوا مع تَدْبيره إلىٰ مُساعِدِهم . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها تقْوى الله عزَّ وجلَّ فإنَّها الحِصْنُ الأوقَىٰ ، والمَعْقِلُ المَنِيعُ المَرْقَىٰ ؛ فلْيتَّخِذْها لعَيْنَيه نُصُبا ، ولْيشْغَل

(١) كذا بالأصل ، ولعله : آلائه .

بها ضَميره حتَّى يكون بها صَبًا ؛ والله تعالىٰ يُنمى غُصْنَه الناضر، ويُقرُّ بكماله القلْب والنّاظر ! والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه، حُجَّةٌ فى ثُبوت العمل بما اقتضاه؛ والله الموفِّق بمنّه وكَرَمه ! .

✥

تَوْقيعٌ باستيفاء المقابلة واستيفاء الجَيْش، وهو :

رُسم بالأمر ـ لازالت المناقبُ فى دَوْلته الشريفة شَمْسيَّةَ الأنوار، قُرَشيَّةَ الفخار، مُشْتَقَّةَ المحامد من الأسماء والآثار، مُحَصَّلةً بأقلام اليمين ما يَبْذُله الكرم من أقسام اليسار ـ أنْ يستقرّ ... ... حَسَب الاستحقاق المُقتضىٰ ،والاختيار المُرْتَضَىٰ ؛ وعَيْنِ الرَّأْى الذى ما بينه وبين الرَّائى حاجب، وتَقَدُّمِ السُّنَّة القديمة فإنَّ التقديمَ لقُرَيْش وَاجب؛ ولأنَّ الصفاتِ الشَّمْسيَّةَ أَوْلىٰ بشَرَف آفاقها، ومَنازِل إشْرافها و إشْراقها، ومطالع سَعْدِها المُتَنَزِّهة عن اللَّبْس ، وجلائل قَلَمها العُطارِدىِّ فى يَدِ الشَّمْس ؛ ولأنَّ المشارَ إليه أحقُّ بمصاعِدِ المُرْتَقين ، ولأنه تَرَبَّى فى بَيْتِ التُّقىٰ فكان الله معه إنَّ الله مع المُتَّقين .

فلْيباشِرْ هاتَيْنِ الوظيفتَيْنِ على العادة المعروفة بعَزْمه السديد، ومَدَّات قَلَمه التى بَحْرُها فى السبع بَسيطٌ وظِلُّها فى النَّفْع مَديد، ولْيَتَمَثَّلْ بديوان مُقابلة فريدًا لا يُرْهَب مُماثِلُه، ولْيَجْبُرْ أحوالَها بضَبْطه حتَّى يجمعَ بين الجَبْر والمُقابَلة ؛ ولْيُمِدَّ الجيوشَ المنصورة من أَوْراقه بأعْلامه ، ومن قَصَباتِ السَّبْق برماحٍ تُعرَف بأقْلامه ؛ ولْيَسْتَرْفِعْ من الحُسْبانات مايمحو بإيضاحه وتكميله من مُقَدَّماتِ ظُلْمٍ و إظلام، وليجمَعْ بين ضَرَّتَى الدنيا والآخرة فى شريعة الإسلام؛ والله تعالىٰ يُمِدُّ قُرَشيَّتَه بأنصار من العزْم، وتابعين بإحسانٍ من نوافذ نوافل الحَزْم .

✦
✦ ✦

توقيعٌ بصحابة ديوان الأسواق ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالت أسواقُ نِعمه قائمـه ، وأجلابُ كرمه دائمه ، ولا برحت المناصبُ مُكمَّلةً بكُفاةِ أيامه الذين يُحققون ظنونها السامية ويرعَوْن أحوالها السائمه ـ أنْ يرتَّب فلانٌ... ... ... : عِلمًا بكتابته التى وَسَمت الدَّفاترَ أحسنَ سِمه ، واستبقتْ إلى صُنع الخير المسوَّمه ؛ وكفاءته التى لا تزالُ تَنمو لديه وتَنْتمى ، ويراعته التى إذا سُئل عنها السُّوقُ قال : هِىَ عَصاىَ أتوكَّأُ عليها وأهُشُّ بها على غَنَمى ؛ ودرايته التى تُعينُ المملكة على المَيْر ، ويَشهدُ يُمنُها أنَّ الخيْـلَ فى نواصيها الخيْرُ ؛ وتُحقق فيه الظَّنَّ والأمل ، وتحوطُ السُّوقَ عن الخائن حتَّىٰ يقولَ : لاناقَةَ لى فى هَذا ولا جَمَل ؛ وأنَّه الكافى الذى إن قال أو فعل كان مُسدَّدا ، وإن ضَبط ديوانَ الشَّدِّ السعيد كان على الزَّائغين من الكَتَبة حَرَقًا مُشدَّدا .

فليباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركة مُتمكِّنَ الأسباب ، مالكَ الحزمِ والرِّفق حتَّى تكثُر لديه الجُلَّاب ، مُعيناً لبيتِ المال على الإنفاق ، قائمًا بحقوق ذوى الاستحقاق ، عالمًا أنَّه [متولى] أكثرَ جهات الخير المُطْلَق فليكُنْ بها مشكورًا على الإطلاق ، مجتهدًا فى رضا المطالبين حتَّى يتَّبِعوا سَنَنَ المُرسلين فى هذه [الصفة] يأكُلون الطَّعامَ ويمشُون فى الأسواق ، مُواظبًا على الديوان الذى هو بصحابته معْذوق ، سالكًا سُبُلَ الصِّيانة والكفاءة فكلاهما نِعمَ السَّبيلُ المَطْروق ، مُحترزًا من ذى خيانةٍ إن غفل عنه طَفِقَ مَسْحًا بالسُّوق ؛ والله تعالىٰ يُوفِّق عزائمه التى هى أشهر من عَلَم ، وهِمَّته التى قاسمت « أبا الطَّيِّب » : « والخيلُ تَشْهدُ والقِرْطاسُ والقَلَم » .

نسخةُ توقيعٍ بشهادة الخزانة العالية، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتِبَ به لجمال الدين «عبد الله بن العماد الشيرازى» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ سِمَةُ المناصب فى دَوْلته بأسماء الكُفَاة مُجَمَّلَه، وخِلَعُ المَفَاخِرِ علىٰ بُيُوت السيادة مُكَمَّلَه، وخَزائِنُ المُلْك بين نَقِيضَيْنِ من جِنْسٍ واحدٍ: فبينما هى بأقلام الكُفاةِ مُحْتَفَظَةٌ إذا هى بأقْلام الكُفَاةِ مُبَدَّلَه ـ أن يستقرّ المجلس السامى ... ... : علما بمحاسنه التى وَضَح جَمالُها، وتَفَسَّح فى العَلْيَاء مَجالُها، ونَجع فى مَنابِتِ الفَضْل أصْلُها، وشَرُف بكواكب اليُمْن ٱتّصالُها؛ ومَعالِيهِ التى تهلّل بها وَجْهُ الأصالَه، وكمل بيْت الرِّآسَـةِ والجَلالَه، ومَساعِيهِ التى ٱستوفىٰ بها أجناسَ الفَضْلِ وتَوْرِيثَه فما أخذها عن كَلالٍ ولا وَرِثَها عن كَلالَه؛ وسِـيرَتِه التى تَطْوى فَخَارَ الأقرانِ حينَ تُنْشَر، وهِمَّتِه التى أنشدتِ السَّعادةُ فَرْعَها الكَرِيمَ : «مَبادِيكَ فى العَلْياءِ غَايَةُ مَعْشَر»؛ ومَكانَتِه من بَيْت السيادة الرَّفيعِ عِمادُه، البَدِيعِ سَنَدُه المَنِيعِ سِنادُه، المَدِيد من تلقاء المَجَرَّة طُنُبُه الثّابِتَةِ من حَيِّز النُّجوم أوْتادُه؛ وأنّه نَجْل السَّراةِ الذين أخذُوا من الفَضْل فى كلّ وَاد، وٱسْتَشْهدوا علىٰ مَنَاقِبِهم كلَّ عَدُوٍّ وكلَّ وَادّ؛ وحَمَلُوا من صناعاتهم رَاياتٍ عَبَّاسِـيَّةً سارتْ بهـا رِماحُ أقلامِهم تحت أبْدع سَواد، ومَلَكُوا قَدِيمَ الأوطان بشَرَف الأخير : فسواءٌ علىٰ شِيرازَ مَحاسِنُ « ٱبن العميد » ومحاسن « ٱبن العِماد » ؛ وتَبَيَّنتْ مناقِبهم بهـذا النَّجْلِ السَّعيدِ طُرُقَ المراتِبِ كيفَ تُسْلَك، وإحْرازَ المناصب كيف يكونُ لهـا يَدُ أرباب البُيُوت أمْلَك، ودَرجاتِ الوظائف كيف تَسُرُّ الوالِدَ بالوَلَد حتّىٰ يقولَ : لا أُبالِى هى اليَـوْمَ لِى أمْ لَكَ ؟ ؛ كم ٱستُنْهِضَ والدُه لجليل فكَفَىٰ، وجَميلِ قَصْدٍ فَوَفىٰ ؛ وأوقاتٍ عَلَتْ حتى أضحت

إلىٰ عُلاه تنتسب ، ومناصب رُزق - بتقواه فيها - من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب ، وجاء هذا الوَلَدُ ذخيرةَ والدِه فحسُنت للخزانة الذخيره ، وعُضِّدت الأوّلَةُ من السيادة بالأخيره .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً هى أعلىٰ منها وأشرفُ سيره ، مجتهدًا فيما يبيّض وجهَ علمِه ونسبِه ، عارفًا قدْرَ هذه الرُّتبة من أوائل رُتَبِه ، متيقِّظَ الأفكار والطَّرْف ، متأرِّجَ المَعْرِفة إذا ذكَرُوا العَرْف ، زاكيًا تبرُ شهادته على التَّعليق فلا يُنْتقَدُ عليه فى مُتحصَّل ولا صَرْف ، حتّىٰ تقولَ الخزانةُ : نِعْم العَزْم الشاهد ! وحتّىٰ يشهدَ بوفاء فَضْلِه المَضْمُون ، وحتّىٰ يُعْلَم بأمانته أنّ عبد الله هو «المأمون» ؛ وتقوى الله تعالىٰ فى الوصايا أوّل وأولىٰ ما تمسَّك به ، واستقام علىٰ شرف مذهبِه ، والله تعالىٰ يسرُّ الإسلامَ بتنبيه قَدْرِه ويُقِرُّ الأوصافَ بمهذَّبه ! .

❖

توقيعٌ بشهادة الأسوار ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال يَمُدُّ على الإسلام من عنايته سُورا ، ويُجدِّدُ للأولياء بِرًّا مَيْسُورا ، ويُسْعدهم بكلّ توقيع يكونُ بالحساب يوم القيامة كتابًا يلقاهُ مَنْشُورا - أن يرتَّب المجلسُ ... ... : عِلمًا بعزْمه الساهد ، وحزْمِه الشاهد ؛ وكفاءتِه وأمانتِه التى ما كان وَصْفُهما حديثًا يُفْتَرىٰ ، ونظرًا لحاله وحالِ الأسوارِ : فيالها شهادةٌ كان أصْلُها نظرا .

فليباشرْ هذه الرتبةَ المباركةَ كما عُهِد منه مباشرةً حسنةَ الآثار ، مُشرِقةَ الأنوار ، جاعلةً تلك العمائرَ حِلْيةً لدِمَشْق : فبينما هى سُورٌ إذا هى سِوار ، ضابطًا لمتحصّلها ومَصْرُوفها ، محرِّرًا لوقفها مُحترزًا من وُقوفها ، جاريًا علىٰ جميل عادته ، زاكيًا بكرم الله

تعالى على التّوفيق يَبرُّ شهادته ، حتّى تشهدَ هذه الوظيفةُ بهمّته المتمكّنة الأسباب ، ويُضْرَبَ بين المَدينة وبين من كادَها بسُورٍ باطِنُه فيه الرّحمةُ وظاهِرُه من قِبَلِه العَذاب ؛ واللهُ تعالى يسدِّدُه فى كلّ أمرٍ ، ويحفظُ هِمّتَه وبركته «ليوم كَريهةٍ وسِدادِ ثَغْر» .

✥

توقيعٌ بمشارفةِ خزائن السّلاح ، لمن لقبُه «جمال الدين إبراهيم» وهو :

رُسم بالأمر العالى ـ أعلى اللهُ تعالى أعلامَ حَمْدِه ، وجعل أحكام المَقادير من جُنْده ، ولا زالتْ أفلاكُ الشُّهبِ من خزائن سلاح سَعْدِه ـ أن يُرتَّب ... ... : حَمْلا على حكم النّزول الشّرْعىّ ، والطُّلوعِ إلى رُتَبِ الاستحقاق المَرْعىّ ؛ وعِلْمًا بكفايته التى بَلّغتْه آمالا ، وجعلتْ للوظائف بذكْرِه جمالا ، وثمّرتْ بقلمِه للجهات مالا ، وأوصلتْه على رَغْمِ الأنْداد لِمَا لا ؛ واعتمادًا على أمانته التى أعدّها مَلاذا ، واكتفى بها سِلاحُ عَزْمه نَفاذا ؛ وصيانتِه التى طالَمَا اعترض [لها] عَرَضُ الدُّنيا فقالتْ : يا إبْراهِيمُ أعْرِضْ عن هٰذا ؛ واستِنادًا إلى نَشْأتِه فى بَيْتٍ عَلَتْ فى المناصب أعلامُه ، وصَدقَتْ فى المراتب حُلومه وأحْلامُه ، وتناسَبتِ الآنَ تصرُّفاتُه السعيدةُ : فإمّا فى تَدْبِير الجيوش وإمّا فى تَثْمِيرِ السلاح أقلامُه .

فلْيباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ بعزْمٍ بَادِى النَّجا[1] والنَّجاح ، وقلمٍ على حالتَىْ وَظِيفته وهمّته مَاضِى عزمِ السّلاح ؛ مقرِّرًا لعَمَلِها ومَعْمولها ، ضابِطًا لواصلها ومَحْمولها ؛ حتّى يَذْهبَ لسانُ سَيْفِها بشُكْرِه ، وتَطْلَعَ أهِلَّةُ قِسِيِّها بميامِنِ ذِكْرِه ، وتكون كُعُوبُ رِماحها كُلُّهـا كَعْبٌ مُبارَكٌ بمباشرته وبِشْرِه ؛ واللهُ تعـالى يسدِّدُ قلمـه فى وظيفته تَسْديدَ سهامِها ، ويُوفِّر له من أنْصباءِ المَراشِد وسِهامِها .

(١) هو مصدر نجا نجاءً بالمدّ وقد يقصر .

قلتُ : وهذا تَوْقيعٌ بوظيفةِ بكتابة دِيوانيَّـة لسامِرىّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبـاتَةَ ، وهو :

رُسِم بالأمر — لا زال قـلمُ أوامرِه الفِضّىّ يُظْهِرُ ثَمَـره ، مُسْمِعاً حديثَ الإنْعام الشامل حتّىٰ سَمَره — أن يرتَّب فلانٌ فى كذا : علماً بكفايته التى يُعْذَر بها فى قَوْمِه علىٰ سُلُوك التِّيه ، وحِذْقِ حسابِه الذى هو ألَذُّ من السَّلْوَىٰ لمُجْتَنيه ومُجْتَبِيه ؛ وقَريحَته التى إذا آختارها آختيارَ قَوْمِ مُوسىٰ فَازَ من العمـل بمَطْلُوبِه ، وإذا قيـلَ : يا سامِرِىُّ ما قَدّمك على القُرَناءِ فى الحساب ؟ قال : بَصُرْتُ بِمـا لَمْ يَبْصُرُوا بِه ؛ وأمانَتِـه التى حاطَت حِياطَةَ الصَّعْدَةِ السَّمْراء ، ورفعتْ رايتَه على الأنداد قائلةً : ماحاطَ البَيْضاءَ والصَّفْراءَ كصاحب الحَمْراء ! ؛ وآعتمادًا علىٰ كتابتِه التى شَهِدَتْ بها من حُسْباناتِه الأسْفار المُبَيَّنَه ، وإقراءا لصناعاته التى سَحَرت الفِكْرَ حتّىٰ قِيلَ : هـذا من شَعْبِ القَرَّايِين والكَهَنَه .

فلْيباشِرْ هـذا الآستيفاءَ لأوفىٰ منـه مُترقِّيا ، ولكلماتِ الآختيار مُتَلقِّيا ، ناهضًا بالخِدْمه ، مجدّدا باعترامه الإسرائيلىّ ذِكْرَ النِّعْمه ، عارفًا قَدْرَ الإنعام الذى رَعىٰ وشَمِلَ كلَّ ذِمَّه ، سالِكًا من الآجتهاد فى خِدْمَةِ حِسابه كلَّ طريقه ، غائظا للحُسَّاد من أهْل مِلَّتِه : فيَعْبُدُون العِجْلَ مَجازًا وحَقيقه ، مجتهدًا فى آستِنْزال المَنِّ لا المَنْع ، مُعَوِّذًا آلافَ الحواصل بعَشْرِكلماتٍ راتبةٍ منه فى السَّمْع ، مُعَلِّقًا علىٰ جميعها هَيْكلًا من أمانتِه فهو أدْرَىٰ فى الهَيْكلِ بشَرْط الجَمْع ؛ صائنًا لنَفْسـه من عُدْوانِ الخيـانة حتّىٰ لا يَعْدُو فى سَبْتٍ ولا فى أحد ، مُتنزِّهًا عن أكْلِ المـال مع الخَوَنَة حتّىٰ يقال : نِعْمَ السَّامِرِىُّ الذى لا يأْكُلُ مع أحد .

الضـــرب الثـانى

(من الوظائف الديوانية بالشام ـ ما هو خارجٌ عن حاضرة دِمَشْق .
وغالبُ مايكتب فيها من التواقيع مفتتح بـ«رُسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنظر غَزَّة، وهى :

رُسم بالأمر ـ لازال النَّصْرُ المكرَّر، يَحْلُو بذِكْرِه، والسَّعْد المقرّر، يَجْلُو وُجوهَ الآمالِ بدَهْره، ولا بَرِحَ سِراجُ الخِدَم مُضِـيئاً عنـد ليالى نَهْيه الحالكِ وأمْرِه ـ أن يستقرّ فلانٌ... ... : لِمَا عُرِف فى المناصب من نُهوضِه الذى رَاق وراج، وفى المهمَّات من رَأْيِه الذى يمشّى أحوالَ الجهات المستقيمة بِسِراج ؛ ولِمَا شُهِر له فى الأنْظار المتعدّدة من عُلُوّ الهِمَم ، وفى الوظائف المتردّدة من العَزَماتِ التى يقول السَّـدادُ : نَبِّهْ [لها] عُمَراً[(1)] ثم نَم؛ ولِمَا وُصِف من أمانَتِه ودِرايَته وهما المراد [تان] من مِثْله ، ورآسـة خَلْقِه وخُلُقِه المُشِيدَيْنِ عن حُسْنِ الثناء وسَهْله ، وآثاره الحميـدة المنتقِلات وكيف لا ؟ وهو المنتسب إلىٰ سلفٍ يحمَد لسانُ الإسلام أثرَ عَقْلِه ونَقْله .

فلْيباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ على العادة مباشرةً يُحمد أثرُها ، ويُسْنَد عن صحيح عزمه خُبْرُها وخَبَرُها، ويُورق بغُصون الأقْلام وَرَقُ حِسابِها ويَرُوق ثَمَرُها؛ مُجْتهِـدًا فهو من نَسْل المجتهِدين فى عوائد التَّحْصين والتَّحْصيل ، والتَّأْثير والتَّأثيل ، مَلِيًّا بمـا يجبُر كَسْر هذه البلاد بالصِّحَّة ويَأْسُو جُرْحَها بعد التَّعْديل ، حَرِيصًا علىٰ أن يُحْيِيَ ـ بمشيئة الله تعالىٰ وتدبيره ـ عَمَلَها الذى لم يُبْقِ الموتُ من ذَمائه غيرَ القَليـل ؛ سالكًا

(١) أُنظر حاشية ٢ ص ٣٨٨ من هذا الجزء .

من النَّزاهة والصِّيانة طريقته المُثلى، ومن الكفاءة والأمانة عادته التي ترفع درجته - إن شاء الله - إلى ما هو أعلى وأغلى؛ مُسترفِعًا للحساب ولقدره في الخدمه، شاكرًا: فإنَّ الشُّكرَ ضمينٌ لازدياد النِّعمة بعد النِّعمه، سراجًا وهّاج الذَّكاء على المَنار ولا ظُلْمَ مع وُجوده ولا ظُلْمه؛ والله تعالى يُعلى قدره، ولا يُطفئ ذِكره.

✤

توقيعٌ بصحابة ديوان الحرمين، من إنشاء ابن نُباتة، لمن لقبه «شمس الدين» وهو:

رُسم بالأمر - لا زالت أوامره نافذةً في الآفاق، عاطفةً عطف النَّسق على ذوى الاستحقاق، مُطلعةً شمس التُّقى والعلم في منازل الإشراق - أن يستقرّ المجلس ... ...: علمًا باستحقاقه لما هو أكثر وأكبر، وأوفى وأوفر، وإطلاعًا لشمسه وإن اعترضها غمّ غيم في مطالع شرفها الأنور؛ وإعلامًا بأنّه غيمٌ يزورُ ويزول، ونقصٌ لا يقيم إلا كما يذهبُ عارضٌ من أُفول؛ واعتمادًا على ما عُرف من وفاء صحابته، وألف من سناء درايته ودرابته، ووُصف من أيام ديونته (1) بعد أيام حُكمه بعد أيام خطابته!؛ واستنادًا إلى نشأته في بيت العِلْم المستفاد، والحُكْم المُستجاد، والفضل المُستزاد، وتربية الوالد الذي كان الاختيار يحلف بالفخر أنه ما يرى أظهر من ذات العماد.

فليباشر صحابة ديوان هذين الحرمين الشريفين بأمل مبسوط، وحال بينما هو منحوسُ حظّ إذا هو - إن شاء الله - مغبوط؛ واجتهادٍ مضمونٍ لجدواه فضلُ الزياده، وسيرٍ لا يزال بشمسه حتى تجرى لمستقرّ لها من منازل السَّعاده، ومباشرةٍ لأوقافها تُعان وتُعاد أجمل إعانة وأكمل إعاده، وصحابة يتنوّع في نفعها ويتعين حتى تكون [منه] عادةً ومنها شهاده.

(1) أيام كان بديوانه. وهو لفظ تخيف ليس بعربي.

✤

تَوْقيعٌ بنظر الشّعْرا و بانياس ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، لمن لقبه «صَدْر الدِّين» وٱسمه «أَحْمد» بالعَوْد ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ صُدُور الكُفاة مُنْشرحةً فى أيّامه ، مُنْسرِحَةَ الآمال فى إنعامه ، ولا بَرِح عَوْدُه أحمدَ إلى المناصب فى ظلال سُيُوفه وأقْلامه .

ومنـه : فلْيباشرْ هـذه الوظيفة الشاكِرَة له أوّلًا وآخِرا ، ولْيجتَهِدْ فيما يَزِيدُه من الاعْتناء والاْعْتناء باطِنًا وظاهِرا ، وليستَزِدْ بشُكْره من النِّعمة فما أخلفَ وعْدُ المَزِيد شاكِرا ، ولْيَحْرِصْ علىٰ أن يُرىٰ أبدًا فى المراتب صَدْرًا ولا يُرىٰ عن وُرُود الإحسان صادرا .

✤

تَوْقيعٌ بنظر حِمْص ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، كُتب به لاْبن البَدْر ناظِر حِمْص بالنُّزول من أبيه عند ما أَسَنَّ ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال حسنُ النَّظر من مواهِبِه ، ويُمْنُ الظَّفَر من مَراكبه ، وسَقْىُ البلاد صَوْبَ العَدْل من سحائِبِـهِ ، ولا بَرِح سنا البَدْرِ من خَدَمه فإذا أحَسَّ بالسِّرار ألْقَى الخِدْمة إلىٰ أزْهَرِ كواكبه ـ أنْ يستقرَّ المجلسُ ... ... : لِمـا عُلِم من رَأْيه الأسَدّ ، وعَزْمه الأشَدّ ، ومَرْبىٰ والده حتّى يَبِين عِظَمُ الهَناء بالشِّبْل عند ماوَهَن عَظْمُ الأسَد ، ورُكونا إلىٰ نَجابتِه التى سَمَتْ أصلًا وفرْعا ، وقَدُمتْ غَناءً ونَفْعا ، وتبَسَّمتْ كمائمُ أصْلِها المستأْنَفَة حيثُ كاد الزمانُ يَنْعَىٰ منه يَنْعا ؛ وٱستنادًا إلىٰ أنَّ الصِّناعة شابَّة ، ونَسماتِ التَّمكينِ هَابَّه ؛ وإلىٰ أنَّ أغصانَ العزائم نَضِرَه ، وإلىٰ أنَّ مع القُدْرة قُدْره ، وإلىٰ أنَّ كوكَبَ العِزِّ فى المنزلة قد خَلَف بَدْره ؛ وٱعتمادًا علىٰ سِهام تَنْفيذه الصائبه ،

وأحكام هِمَمِه الواجبه ، وأقلام يَدِه التى تُحسِنُ إخراج الأمل فيه وكيف لا ؟ وهى الحاسبةُ الكاتبه .

فليُباشرْ هـذا النَّظَر المفوَّضَ إليـه سامياً نَظَرُه ، زاكياً فى الخِدْمة خُبْره وخَبَرُه ، شاكراً هـذا الإنعامَ الذى بَرَّأباه وأسْـعد جَدّه ومَزِيدُ(١) الإنعام مضمونُ المزيد لمن شَكَرَه ، عالماً أنَّ هـذه المملكة الحِمْصيَّة من أقْـدم ذخائر الأيام ، وأكْرَم ما أفاءَ اللهُ من غَنِيمَتِهـا وظِلِّها على جُنْدِ الإسـلام ، وأنَّهـا من مراكز الرِّماح كما شُهِر فلْيُمِدَّهـا من تَدْبيره برماح الأقْـلام ؛ ولْيواظِبْ بحُسْنِ نَظَرِه على تَقْرِير أحْوالهـا ، وتَقْريب آمالهـا ، وتأْثير المصالح فى أعْمالها ، ولا يمحِّص أمرها فى التَّضْييق فكفى ماحَمَّصَتْها الأيامُ على تعاقُب أحْوالهـا ؛ بلْ يجتهدُ فى إزاحَةِ أعْذارها بسَـدادِ الرَّأْى الرابح ، وإشاعة الذِّكر الحَسَن مع كلِّ غادٍ ورائح ، ورَفْعِ الأيْدِى بالأدْعيةِ الصالحة فى تلك المشاهد للمَلِك «الظاهر» فى هـذا الوقت والملك «الصالح» ؛ حتَّى يشهـدَ سَيفُ الله «خالد» بمضاءِ سَيفِ حَزْمِه وعَزْمه ، وحتَّى يتوفَّر من غَرَضِ الخَيْر والحَمْد نَصِيبُ سَهْمِه ، وتقوى الله تعالى أوَّلُ الوصايا وآخرها فلْتكُن أبدًا فى هِمَّة فَهْمِه .

✥

تَوْقيعُ بنَظَر الرَّحْبة ، من إنشاء ابن نُباتة لمن لقبه «تاج الدين» وهو :

رُسِم بالأمر ــ لا زالَ مَلِيءَ السَّحاب ، بسُقْيا الآمال الوارده ، مَمْلوءَ الرِّحاب ، بكُفاة الأعمال السَّائده ، مَخْدوم الممالك والأيَّام بأقلام الدواوين الحاسبة وأقلامِ الدواوين الحامِدَه ــ أنْ يستقرّ ... ... : لكفاءته التى وافق خُبْرُها الخَبَر ، ونَشْر ذِكْرُها نَشْرَ الحِبْر ، وصناعة حِسابِه التى لو عاش «أبو القاسم المعرّى» لم يكن له فيها قَسِيماً ،

(١) لعل هذه الكلمة زائدة من قلم الناسخ .

ولو عاصرها «ٱبْن الجَرَّاح» بقـدمه وإقـدامه لا تقلب عنها جريح الفكر هزيما ، بل لو ناوأه الشَّديد المـاعِز لَذُبِحَ بغير سِكِّين ، والتَّاج الطويلُ لرَجع عن هذا التَّاج الطائل رُجوعَ المِسْكِين .

فليباشِرْ ما فُوِّض من هذه الوظيفة إليه ، ونَبَّه الأختبار فيها نَظَره الجميلَ وناظِرَيْه ؛ جارِياً علىٰ عوائد هِمَمه الوثيقه ، ماشِياً علىٰ أنجح طريق من آرائه وأوْضَح طَرِيقَه ، نازِلًا منزلةَ العَيْن من هذه الجهة التى لو صُوِّرَتْ بَشَرًا لكان ناظِرَها على الحقيقـه ؛ مُفَرِّجًا لَمَضايقها حتَّىٰ تكون كما يقال رَحْبه ، مُفْتَحِمًا من حُزُون أحوالهـا العَقَبة وما أدْراكَ ما العَقَبه ؟ ؛ فَكَّ من رقابِ السُّـفَّار المعَوَّقِين رَقَبـه ، وأطْعم أرباب الأستحقاقات فى يومٍ ذى مَسْغَبه ، وساعَفَ بتَيْسير المعلوم كلَّ كاتبٍ ذى مَتْرَبه ؛ حَرِيصًا علىٰ أن يُغْنِيَ الديوان بوَفْره ، وتُغَنِّي حُداةُ التُّجَّار بشُـكْره ، وعلىٰ أنْ يقومَ رجالُ الأستخدام فى المُهِمَّات بنَصْره ؛ وعلىٰ أن تُساقَ بفِضِّيِّ قلَمِه الأموالُ أحْسنَ سَـوْق ، وعلىٰ أنْ يكونَ لأهلِ الرَّحبـة من إحسانه «مَالِكٌ» ومن جَدْوَىٰ تَدْبيره «طَوْق» ؛ واللهُ تعالىٰ يُوضِّح فى المصالح مِنْهاجَه ، ويُعلِي علىٰ رُءُوس الأوصاف تاجَه .

✣

توقيعٌ بنَظَر جَعْبَر قبل أن تُنْقل إلىٰ عمل حَلَب ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، كُتب به «لِهَبة الله بن النفيس» ، وهو :

رُسم بالأمر – لا زالتِ المناصِبُ فى دولته الشريفة تَسْتقبِلُ هِبَةَ الله بشُـكْرِها ، وَنَتائِجَ الذِّكْرِ النَّفيس بمقدِّمات نَشْرها وبِشْرِها – أنْ يرتَّب ... ... : لكفاءته التى ٱشتهرتْ ، وأمانتـه التى طَهُرت فظَهرتْ ، ومُباشَرته التى ضاهتْ نُجوم السماء إذا زَهرتْ ، ونُجُومَ الأرضِ إذا أزْهرتْ ؛ وأنَّه الذى جُرِّب عَزْمُه فزكا على

التَّجْرِيب، ورَقِيَ فى مطالع التَّدْرِيج والتَّدْرِيب، ونَصَّ حَدِيثُ آجتهاده المقرّب فكان سابِقًا على النَّصّ والتَّقْرِيب؛ وأنَّ هـذه البُقْعة المباركة مِمّن أطاب التَّارِيخُ خَبَرها، وقَصَّ سِيَرَها، وحَمِدَ صاحِبُها العقيلىّ من قَدِيمِ أثرَها، وعَرف بركَتَها لمـّا آستسقىٰ بها من السَّماءِ علىٰ لسان بَعْض الحيوان مَطَرَها .

فلْيباشِرْ هذا الثَّغْر المحروس بكفاءة باسِمَه، وعَزْمةٍ كالحُسام لأدْواءِ الأمور حاسِمَه؛ ورأيٍ للنَّجاح حَسَنِ الآستِصحاب، وتثْمِيرٍ كما مَلأَ الرَّحبةَ فلْيَمْلأْ بمضاعفَتِه الرِّحاب؛ مُوفِّرًا العَدَدَ للحواصِل وحَواصِل العِدَاد، فاتِحًا لأفواه القُفُول بذكره الجميل فى التِّهائم والنِّجاد، ماشيًا فيما يأتى ويَذَر علىٰ سَداد الطُّرُق وطُرُق السَّداد .

✤

تَوْقِيعٌ بنَظَرِ البِقاع، من إنشاء آبن نُباتة، وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يُهَنِّئُ للكُفَاة رِزْقا، ويُهَيِّئُ لتَجْدِيد المناصب مُسْتَحِقًّا، ولا بَرِحَتِ البِقاع بأيّامه الكريمة تَسْعَد كما تَسْعَد الرِّجالُ ولا تَشْقىٰ ـ أن يرتّب ... ... حَسَبَ ما تضمنته مُكاتَبة الجناب الفلانى: مُنَبِّهًا علىٰ قَدْر هذا الناظر المُهَذَّب وصْفُه، المرتَّب علىٰ نَحْوِ الثناء نَعْتُه وعَطْفُه؛ المشهورِ بمباشرته آنتفاعُ الوظائف وآرتفاعُها، الشاهِدِ بكفاءته وأمانته مَسالِكُ الأعمال وبِقاعُها؛ وآعتمادًا علىٰ مباشرته الزكيه، وكتابته التى لا يُداهِنها المداهِنُون وهى نِعْمَ البَعْلَبَكِّيَّه (١) .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المُتَيَمِّنَةَ بمطالع رَشَده، ومَطَالب سَدَدِه، عالِمًا أنَّ البِقاعَ كالرِّجال تَسْعَد وتَشْقىٰ : فلْيَكُنْ سَعْدُها علىٰ قَلَمِه ويَدِه؛ مجتهدًا فيما يُبَيِّض وَجْهَ

(١) نسبة الى بعلبك عند من يجعله اسما واحدا ويمنعه من الصرف فأما من يضيف الأوّل الى الثانى ويجرى الأول بوجوه الاعراب فالنسبة عنده بعلىّ .

شاكِرِه، حَرِيصًا على آزدياد الصفات التى كانت فى عقد حساب العمل مَحَلّ بَنَانه بجعلته الآن مَحَلّ نَاظِرِه، مُثَمِّرا لأموال النواحى وغِلالِها، واضِعًا عن أرباب الأستحقاقات ما عليها من سُوءِ التدبير: من إصْرِها وأغلالِها، محتاطًا لنفْسه فى الحوطات حتّى لا يُذْكَر إلا بخَيْر، ولا يُعرف قَلَمُه إلا بمَيْر، ناثرا حَبَّ حُبِّه حتّى تَهْوِى إليه ألفاظُ الثَّناء هُوِىَّ الطَّير، جاعِلًا تقوى الله مَقْصَدَه: فإنّها السبيلُ إلى فَوْز الدارين لا غَيْر.

الصنف الرابع

(مما يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تواقيعُ مشايخ الخَوَانق،

وهى على ضربين)

الضرب الأول

(ما هو بحاضرة دِمَشْق، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ«الحمد لله»)

وهو توقيعُ شَيخ الشيوخ بِدمشق: وهى مَشْيَخةُ الخانقاه الصلاحية المعروفة بالشُّمَيصاتية. وقد تقدّم أنها يكتب بها أيضا من الأبواب السلطانية. ثم هى تُفْرد تارةً عن كتابة السِّر بالشام، وتارة تُضافُ إليها.

تَوْقِيعٌ بمَشْيَخةِ الشُّيوخ بالشام، من إنشاء الشَّيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتب به للشيخ «علاء الدين علىّ» مفردة عن كتابة السِّرّ، وهو:

الحمدُ لله الذى جعل شرف أوليائه عليا، وفضله الجليل جليا، واتصال علائهم كاتصال كوكب الشرف بإيلاء الخيرات مليا، وحاضر أفقهم كغائبه إذا سطرت دعواته واستمطرت هباته كان على كلا الحالين وليا .

نحمده على توالى النعم الأنيقه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تستمر بأصلها فروع الحقيقه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أجدر الخلق بكرم الخليقه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكوا بهداه أحسن طريق وسلكوا فى أحسن طريقه، صلاة دائمة لا تزال بها عقائد الإخلاص موثقة وألسنة الذكر طليقه ، وتحية إذا بدت فى حضرة الأذكار كانت للأعين من النور نهاره وكانت للأنجم من القدر شقيقه .

أما بعد، فإن أولى المراتب الدينية بتقديم العنايه، وتفخيم الرعايه، وتكريم التولية ولا سيما إذا كانت منتسبة إلى أهل الولايه ـ مرتبة مشيخة الشيوخ التى يجمع عباد الله الصالحين نطاقها، ويضمهم رواقها، وتطلعهم مطالع كواكب الهدى آفاقها المنيرة وأوفاتها .

ولما خلت الآن هذه الرتبة بالشام المحروس من شيخ تدور هذه الطائفة على قطبه ، وتجتمع على مائدة قرباته وقربه ، وتمشى على قدمه وتناجى صلاح أحوالها عن قلبه ـ تعين أن نختار لها من كملت بالله أداته ، وصفت فى مشاهد الحق ذاته ، وزكت فى علمى الإبانة والأمانة شهادته المفصحة ومشاهداته ، وأجمع الناس على فوائد تسليكه واسلاك قلمه حيث بدت فى وجوه الحسن حسناته ، ووجوه الشام شاماته ؛ لما شهر من معرفته وعرفانه ، ولما دعى له ببقاء نوح لما فاض

فى العِلْم من طُوفانِه ، ولمّا قام فى الأذهان من طبقة قَدْرِه الموصوف ، ولما سار من رِسالة أخباره فإذا قالت الآثارُ : «هذا السِّرِيُّ» قال الإيثار : «وفَضْلُه مَعْروف» .

فليباشرْ هـذه المشيخةَ المباركةَ بصَدْرٍ للسّالكين رَحِيب ، وبِرٍّ للسائلين مُجِيب ، وفَضْلٍ يقولُ الرائدُ والمريدُ بدار إقامَتِه : قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَىٰ مَنْزِلٍ وحَبِيب ، و بِشْر وبُشْرىٰ يملآن عَيْنَ المُجتَلِى ويَدَ المُجْتَدِى ، وعَطْفٍ ولُطْفٍ إذا قال الذّاكر لمن مَضَىٰ : راح مَالِكى ! قال المُعاينُ : وجاء سَيِّدِى ، وليُراعِ أمور الخَوانِقِ الشاميَّة ما غاب منها وما حَضَر ، وما سَمِع منها وما نَظَر ، وليُهذِّبْ قُلوبَ ساكِنِيها حتّىٰ يَعودَ كإخْوان الصَّفاءِ من المَوَدَّةِ قَومٌ كانُوا إخوانَ الصَّفَا من الحَجَر ، قائمًا بحقوق الرُّتبة قيام مِثْلِه من أئمّة العِلْم والعَمَل ، داعيًا لهذه الدَّولة العادلَة فإنّه أقصىٰ دَواعى الأمل ، مُعْرِبًا ـ لأنّ العَرَبِيَّة من عُلومه ـ عن الإيضاح غَنِيًّا عن تَفْصيل الجُمَل ، وهو المسلّك فما يحتاج لتَسْليك دُرَرِ الوصايا ، المَخْبُوءُ لِمثْل هـذه الزّوايا المبرورة : فنِعْم الزَّوايا المَخْبُوة بنِعْم الخَبايا ، واللهُ تعالىٰ يُعيد على الأُمّة بركاتِه ، ويُمتّعهم باسْتِسْقاء الغُيُوث : إمّا بِبَسْطِها عند بِرِّه ! و إمّا بِبَسْطِها عند دَعَواته .

✢

وهذه نسخةُ تَوْقيع بمشيخة الشيوخ بالشام أيضا ، مضافةٌ إلىٰ كِتابة السِّرِّ به ، كُتب بها للقاضى ناصر الدين « محمد بن أبى الطَّيِّب » كاتِبِ السِّرِّ بالشام بـ«المَقَرّ الشريف» وهى :

الحمدُ لله الذى شَرح صُدور أوليائه بمعرفة الحقّ واتّباعه ، وجعلهم خَواصّه الذين غَدَوْا من أتْباع الحَبِيب وأشياعه ، ورفَع ذِكْرَهم علىٰ رُءُوس الأشهاد وآواهم إلىٰ مَقام الأُنْس فى محلّ القرب بالتّسْليك المُحَمَّدِىّ الذى أوْصل إليه مَزِيدَه بانْقطاعه ، وخَصَّهم

ببركات من حضّهم على الأعمال الصالحة بقصده الجميل وعلمه الغزير واتّضاعه ، ومنحهم بمن أوضح لهم الطّريق المستقيم بإبدائه الحقّ وإبدار إبداعه ، وغذاهم بالحكمة فنشئوا بالمعرفة وصار لهم العقل السّليم بالتّحفّظ من الأهوية الرّديّة فسلمت لهم الطّيبة على قانون الصّحّة بحُسْن تركيبه وأوضاعه ، وأفاض عليهم من بحر علمه مانالوا به الرُّشْد فصاروا أولياءَ بملازمة أوراده ومُتابعة أوزاعه .

نحمده على ما ألهمنا من وضع الشّىء فى محلّه ، وإيصال الحقّ إلى أهله ، وإجابة سُؤال الفُقراء وإعانتهم بمن أغناهم عن السُّؤال بفضائله وفضله ، حمدًا يعيد كشّاف الكُرَب على مُريديه وطَلَبته ، ويرفع مقام من قام بشعار الدّين بتعظيم قدْره وعلوّ درجته ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى من تقرّب منه ذراعا ، تقرّب منه باعا ، ومن أتاه يمشى أتاه هرولة وإذا تقرّب إليه عبده بالنوافل أحبّه ، ﴿وعنده مفاتحُ الغيْبِ لا يعلمها إلاّ هو ويعلم ما فى البرّ والبحْرِ وما تسقطُ من ورقةٍ إلّا يعلمُها ولا حبّة﴾. ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى أضاءت الأكوانُ من نورِ هَدْيه فاهتدت به أصحاب المعارف المُسلّمون لموجدهم الأمر والإراده ، ومن هو روحُ الوجود الذى أحيا كلّ موْجُود وسلك طريق سنّته المُوصّلة إلى عالم الغيب والشّهاده ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين صفت قلوبهم من الأكدار وإلى التّقوى سبقوا ، وصدقوا فى المحبّة فاستحقّوا ثناء مولاهم : ﴿مِن المؤمنين رِجالٌ صدقوا﴾ ؛ فمنهم من شُمّت من فيه رائحةُ كَبِدٍ مشويّة من خشْية الله ، ومنهم من حدّث بما شاهده ببَصَره وبَصيرته على البُعْد ورآه ؛ ومنهم من أحيا ليله واستحيت منه ملائكةُ السماء ، ومنهم من اتّخذه أخًا إذ هو بابُ مدينة العلْم وركن العلماء ؛ صلاةً دائمةً تُطيّبُ أوقات المحبّين ، وتُطرِبُ بسماعها قُلوبَ المتقين أهل اليقين ؛ وسلّم تسليما .

أمّا بعدُ، فإنّ أولىٰ من قدمناه، إلىٰ أهل الصلاح، ورفعناه، إلىٰ محلّ القُرب ورُوح الأرواح؛ وحكّمناه، علىٰ أهل الخير، ومكّنّاه فى حزب الله الذى غلب لمّا آجتهدوا علىٰ إخراج حزب الشّيطان من قلوبهم وزحفوا علىٰ قراره بجَيش التّقوىٰ وسَمْتهم الزُّهد وحُسْن السِّير؛ وولّيناه أجلّ المناصب الذى تجتمعُ فيه قلوبُ الأولياء على الطّاعه، وأحللناه أرفعَ المراتِب الذى خطبه منهم خِيارُ الجَمْع لجَلْوةِ عَرُوس الجمال فى الخلْوة بعَقْد ميثاق سُـنّةِ المحبّةِ وشهادة قُلوب الجماعَه ـ من جمّلَه صورةً ومعنىٰ ، وآفتخَرَ به أحاد ومَثْنىٰ؛ وباشره علىٰ أحسنِ الوُجوه، وبلّغ كلًّا من مُريديه وطَلَبتِه من فضائله وفضْـله ما يُؤمّلُه ويَرجوه؛ ومَدّ موائدَ عُلومه المحتَوِيَةَ علىٰ أنواع الفضائل المُغـذّيةَ للقـلوب، وجلس فى حُلَل الرِّضا فكَسَا القَوْمَ الذين لا يَشْـقىٰ بهم الجَليسُ ملابِسَ التّقوى المطهرةَ من العُيوب؛ وظهر فى مَحْفِلِهـم للهِدايَةِ كالبَـدْرِ وهم حولَه هالَه، وكان دَليلَهم إلى الحقّ فغَـدَوْا بتَسْليكه من مشايخ الرِّساله؛ وجاهـد فى بيان معانى القرآن العَظِيم حتّىٰ قيل لمّـا فَسَّره : هذا «مُجاهِد»، وآستدلّ علىٰ تنزيه من تكلم به ـ سبحانه ـ عن التشبيه والتعليل "وفى كلّ شىْءٍ له آيةٌ تدلُّ علىٰ أنّه واحِد"؛ ونقَل الحديثَ المحمّديَّ الذى هو "مُوطّأ" لتفهيم "الغريب" منه وميز "صحيحه" لكلّ "مُسْلِم" فأطرب بسماعه الوُفود، وأفاد العِباد "تنبيه الغافلين" فقاموا فى الخِـدْمة فأصبحوا تَعرِفُهم بسِيماهُم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾؛ وخَفَض جَناحَه الذى عَبَر به الشِّعْرى العَبُورَ والنَّسْر الطائر، وسار إحْسانُه إلىٰ طوائف الفُقَراء فصار مَثَلًا فحبّذا "المَثَلُ السّائر".

وكان فلانٌ ـ أعاد الله تعالىٰ من بركاته وأسْبغ ظِلالَه ـ هو الذى أقامه اللهُ تعالى لهذه الطائفة المباركة مَرّةً بعد مَرّه، وذُكِرتْ صفاتُه الجميلة فكان مَثَله للعيون قُرّه؛

واتّصف بهذه الصِّفاتِ التى ملأت الأفواهَ والمَسامعَ كما ملأتْ مرءآته المُقل، وحصل البِشْر بمعروفه الذى يَتبعه السرىُّ أبو يَزِيدَ بجرى على عادة القَوْم الكرام ووصل؛ ونَبعتْ عناصرُ فضائله فكانت شرابَ الذين صَفَتْ قلوبُهم من كَدَرِها، وأمْطرتْ سَحائبُ علومِه الإلهيّةِ الدائرةُ من سماء الحقيقة فسالَتْ أوْدِيةٌ بقَدَرِها، وظهرتْ لُمْعَةُ أنوارِ شَمْسِ معارفه عند التَّجلّى على المُريد، وسَاق نُفوسَ القائمين لمَّا عزّ مَطْلبهم بأصْلِه الذى شرح طَلاسِمَ قَلْبِ الفَانِى بذِكْرِ الباقِى فغرِقوا فى بحار المحبّة (وجاءَتْ كلُّ نَفْسٍ معها سَائِقٌ وشَهِيد) .

فلذلك رُسم بالأمر العالى - لا زال يرفَعُ أهلَ العِلْمِ والعَمَل إلى أعلى مَقام، ويَبْنِى لهم فى جَنّاتِ القُرْب قُصُورَ الرِّضا: (لهم ما يشاءُون فيها) ومَزِيدُهم الإكرام - أن تُفوّضَ إليه مشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس: وَظِيفَتُه التى خرجتْ عنه، المرسومُ الآنَ إعادتُها عليه، عوضًا عمَّن كانتْ بيده، بمعلُومَىِ النَّظر والمشيخةِ الشاهدِ بهما ديوان الوَقْف المبرور إلى آخر وقْت، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد؛ تفويضًا نُظِمتْ بالقَبول عُقُودُه، ودامَتْ فى دار السعادة سُعُودُه، وفى دَرَج المعالى صُعُودُه .

فليَتَلَقَّ ذلك بالقبول، ولْيَبلُغ الفقراءَ من إقْبالِه الجَمَّ الذى أَلْجم عَدُوَّه المُنَى والسُّول؛ وليُعامِلِ المُرِيدِينَ بالشَّفَقَةِ المعروفَةِ من رَحْمة دِينه وإفضاله، وليَشْمَلْ كلًّا منهم بعنايته ولُطْفه فإنَّ الخَلْق عِيالُ الله وأَحَبُّهم إليه أشْفَقُهم على عِيالِه؛ وليأمُرْهم بملازمة إقامة الصَّلاة طَرَفَى النهار وزُلَفًا من اللَّيل، وإذا مالوا - والعياذُ بالله تعالى - يومًا إلى مُنافَسَةٍ بينهم فليَقُل: اتّقوا اللهَ ما استطعتم وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْوانًا ولا تَميلُوا كلَّ المَيْل؛ وليَفْسَحْ لهم حَرَمَ الخَيْر الذى وقَفُوا فيه تُجاه قَصْر تعبّده الذى عَلا بالجَوْهر

الفَرْدِ وقُوّةِ الإخلاص ، ولِيُدْخِلَهم منه جَنَّـةَ إقبال فوائده التى فيها من أبْكار معانيه حُورٌ مقصوراتٌ فى خِيامِ أداتِه لم يَطْمِثْهُنّ إنْسٌ قبلهـم ولا جَانٌّ وأعْجز قَصْرُه العالى وجَوْهَرُه الغالى كُلَّ بَنّاءٍ وغَوّاص ، ولِيَجعلَهُم له علىٰ جَبَـل آعْتِياده ومَرْوَة مُرُوءَتِه إخْوانَ الصَّفا ، ولِيُقِمْهُم فى رُكْنِ مقام المُناجَاة اذا زَمْزم مُطْرِبُ حَيِّهم تِلْقاءَ أهل الوفا ، ولِيُقَـدِّم السابِقِينَ بمعرفة حَقِّهم ونجدتهم بالوَرَع الذى يَغْلبون به الشيطانَ فإنّ حِزْبَ الله هم الغالبون ، ولِيُـداوِ قُلوبهم المَرْضَىٰ بشراب المَحبّة وتَرْكيب أدْوِيَة الآمْتلاء من الدنيا ليغتذُوا وقتَ السَّحَرِ [بحديث] (هلْ من تائِب) ولا يَسْقِهم كاساتٍ تَضْعُفُ عنها قوّتُهُم حتّىٰ يُنَقّوا من بَرَدَةِ الهَوَى المُضِرّة ويَغْتَسلوا بحَارّ مجارِى دُمُوعِ الخُشوع ويَلْبسوا جَديدَ ملابِسِ التُّقىٰ ويغدوا من الحَبايِب . ومنه تُعرف الوصايا ، وعنه تُنْقل المزايا ، وكَرَمُ الأخلاق والسَّجايا ، ولْيأمُرِ السالكينَ بمداومة الأعمـال التى قامت بحُسْن العقائد وآسْتَقلّتْ ، ولْيَحُضَّ المُرِيدينَ أوائلَ التَّسْليك علىٰ ذلك فإنَّ أحبَّ الأعمـال إلى الله تعالىٰ أدْومُها و إنْ قَلّتْ ، وليعرِّفْهم المحبةَ بذكرِ الله لئلّا يقُومُوا علىٰ قَدَم الهُيام ، وليبيِّنْ لهم المَعْنىٰ إذا لم يعرفوا المَعْنىٰ ليقطعُوا الهَواجِرَ فى طلب الصِّيام ، وليفرِّقْ بين الواردات بملازمة الأوْرادِ لئلّا يقعُوا من الآشْتباه فى حَيْرِه ، ولْيأْمُرهم بادِّخار العَمَلِ الصالح لتكونَ التقوىٰ لقلوبهم قُوتاً والزُّهـدُ مِيره ، وليَقْمَعْ أهلَ البِـدَع ، وليَرفَعْ مَنِ آتّضع ، ولينتفقـد أحوالَ أوقافِهم بجميع الخوانق والرُّبُط والزوايا بالجميل من النَّظَر ، ولِيَزِدْ فى الأجور بما يؤثِّر فيها نظرُه الذى مازال لهم منه أوْفَرُ نصيبٍ فحبَّذا العَيْنُ والأثَر ، والوصايا و إنْ كثرتْ فهو مُفِيدُها وعنده منبعُها ، وتَقْوى الله الذى هو شَيْخُها ومُرِيدُها فى بيتـه المبارك حَلاوَةُ ذَوْقِها ومَجْمَعُها ، والله تعـالىٰ يَكْلَؤُه فى اللّيل والنهار بآياته البيّنات ، ويرفَعُه بها ويُرَقِّيه إلىٰ أعلى الدَّرجات .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع مشايخ الأمكنة بحاضرة دِمَشْق ـ ما يفتتح بـ«أمّا بعد حمـــد الله» وفيها وظائف)

نسخةُ توقيعٍ بمشيخة إقْراء القرآن ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ شهاب الدين «أحمد بن النقيب» بـ«المجلس العالى» وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله رَافعِ شُهُبِ الهدىٰ أعْلاما، وجاعِلِ رُتَبِ أفضلها أعلىٰ ما، ومُحِلِّ أحمدها من مَدارِس الآياتِ منازِلَ بَدْرٍ إذا محا المحاقُ من هذا آسمًا أثبت من سُمُوِّ هذا قمرًا تَمَاما، ومُسْكِنِه من مواطن الذكر جنّاتِ قَوْمٍ بارتقائهم وبَقَاءِ ذِكْرهم خالدين فيها حَسُنَتْ مستقرًا ومُقَاما، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ أرفعِ من آتّخذ القرآنَ إماما، وأنْفعِ من عَقَد آستحقاقَ النُّبوّة علىٰ حَمْدِه خِنْصَرًا وجَلَا الحقَّ بهداه إبهاما، وعلىٰ آله وَصَحْبِه أمنعِ من لَبِسَ بسَرْدِ الآياتِ دِرْعًا وآقتسم من بركتها سِهاما ـ فإنّ وظيفـة يكونُ القرآنُ الكريمُ، رَبيعَ فَصْلِها وفَضْلِها، ورُتْبةً يكون الذِّكر الحكيمُ، مُداوِىَ قلوبِ جَفْلها، ومَشْيخةً يكون مُرِيد الآيات البيِّناتِ وارِدَ زوايا أهْلِها ـ لأحقُّ أن تتخيّر لها الأكفاءُ من ذَوِى الفَضْلِ الأثير، والأدِلّاءُ علىٰ أشرفِ نِتاجِ الهداية من ذَوِى الحِلْمِ الساكِنِ والعَزْمِ المُثير .

ولمـا كانتْ مشيخةُ إقراءِ القُرآن بالتُّربة المعروفة بأُم الصالح بدِمَشْق المحروسـة : هى كما يقال : أُمُّ العِلْمِ وأبوه، وأخوه وحَمُوه، وصاحِبَتُه وأهْلُ الكتابِ والسُّنة بنُوه؛ وخلَتِ الآنَ من شيخ [كان] يحمِى حِماها، وتُقْسِمُ الخلواتُ والآياتُ من بركته وتلاوتِه بـ«الشَّمْسِ وضُحاها والقَمَرِ إذا تلاها» وكان فلانٌ هو الذخيرةُ المخبوءةُ لهذا الأمر، وذو السِّيرة المَحْبُوّة بهذا الشّرفِ الغَمْر، وصاحِبُ القراءة والبيان الذى لا يُعْوِزُ زمانَ

طَلَبَتِه [أبو] عُمَر[(١)] ولا أبو عَمْرو، والجامعُ لعلوم كتاب الله تعالىٰ جَمْع سلامةٍ فى فَنّه، وصحّةٍ فى شَرَف ذِهْنه، وجَوازُ أمْرٍ يشهد أنّ البَحْرَ يَخْرج [لدى] المشكلاتِ من صَدْره ويدخل عند عَقْد الحُبا فى رُدْنه، والقارِئُ الذى إذا قال مُبيّناً قال الذى عنده عِلْمُ الكتاب، والتّالى الذى اذا قصر أو مدّ، مدّ إلىٰ سموات العُلىٰ بأسْباب، والمُشيرُ إلىٰ علمه المرسوم بمُصْحَفِه فلا عدِمَ إشارتَه ومَرْسومَه أُولُو الألْباب، والمُجلِّى و إن سَمّاه العُرْفُ تالِيا، والمُنَقِّب عن غوامض التّفْسير: و «آبنُ النقيب» أولىٰ بسند التّفْسير عاليا، والإمام السُّنِّى و إن سَمّاه الشرعُ الإمامَ الحاكمَ دهرا وأقام له فى أُفق كلّ فضل داعيا، والسّامى الذى يَسْلُكُ بفَخْرِه على "العِراقِىّ" أوْضح مَحَجّه، والعَرَبِىُّ الذى ما "للفارِسِىّ" دخولٌ فى باب تَيَقُّنه و إن جاء بحُجّه، وذو الرِّوايات المَرْوِيةِ سحائبُه، وخَلَفُ العلماءِ الأبيضُ فما «خَلَفُ الأحْمر» مما يُقارِبُه، ولا «ثَعلَبٌ» مما تَضِجُّ لديه ثَعالِبُه، ولا «آبن خَرُوف» مما يُدانيه وهو «اللّيْث» ومن الأقْلام مَخالِبُه، وبقيّةُ السادةِ القُرّاءِ المنشدُ قَولَ الحَماسِىّ.

وَإنّى من القَوْم الّذين هُمُ هُمُ * إذا ماتَ منهم سَيّدٌ قام صَاحِبُه!
بُدُورُ سماءٍ، كلّما غابَ كَوْكَبٌ، * بَدا كَوكَبٌ، تأْوِى إليْه كواكِبُه!

تَعيّن أن يُخْطَبَ لهذه المَشْيخة خِطْبَةَ الفتىٰ لاقْتبال مَجْده والشّيْخ لتَوْقيره، ويُطْلَبَ لهذه الرتبة طلبا يَقْضِى الأملُ فيه بعنوان تَيْسيره.

فرُسِم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ... ...: وضْعًا للأشياء فى مَحلّها، ورفعًا لأقْدار الأفاضِلِ إلىٰ أعلىٰ رُتَب الفضْل وأجلّها؛ وعِلْمًا بمقدار هذا العالم السابِق فى أُفُق الهُدىٰ شهابا، المُدَقِّق علىٰ رِياض العِلْم سَحابا، النّاقِل إلىٰ مجالس الاشْتغال خُطًا يقولُ لها المؤمنُ بالإكرام والكافِرُ بالإرغام: ﴿يا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابا﴾.

(١) هو حفص بن عمر الدُّورى.

فليباشر هـذه الوظيفة مباشرةَ مِثْله من ذوى الأناة والإفادَه ، وكُفاة المناصب الذين على سَعْيهم الحُسْنىٰ وعلى الدَّولة تَصلُ الزِّياده ، ولْيَسلُكْ فى الأشغال عادة نُطْقه الأَحسن ، ولْيعامِلْ طَلَبَته فى المباحث بغير ما أَلِفُوا من الخُلُق الأَخْشَن ، ولْيعلَمْ أنّه قد جُمِع بين بِرِّه وتُرْبة الأُمّ كى تَقَرَّ عينُها ولا تحزن ، فلْيسُرَّها بنُبْله ، ولْيبَرَّها بفَضْله ، ولْيُوفِّرِ السَّعْىَ إليها كلَّ وقتٍ فى المَسير ، ولْيُفسِّرْ أحلامَ أمانيها فيه فِنُّ مُفردات علومه التَّفْسير ، ولْيُحسِنْ لتلامذَته الجَمْع ، ولْيَحْمِ حِمىٰ رواياتِهم من الخطإ ولا عجَب أنْ يُحْمىٰ حِمَى السَّبْع ! ، تاليًا كلام ربِّه كما أُنْزِل وحَسْبه ، داعيًا بنَسَب قراءته إلى آبْن كَعْب فحبذا نَسَبُه المباركُ وكَعْبُه ، ناصِبًا بمنظرٍ تَشخَصه أشخاص أمثاله الأُوَل بعد ما ضمهم صَفِيح اللَّحْد وتُرْبُه ، حتّىٰ يَميس «الكِسائىُّ» فى بُرْد مَسَرَّته الفاخر ، ويفتح عيونَ «حَمْزَة» علىٰ زَهراتِ رَوْض عَبِق المباخر ، ويترنَّم وَرَشانُ «وَرْش» فى الأوراق علىٰ بَحْره الزّاخر ، ويظهر بفَضْله ذِكْر «الشّاطِبىّ» فيكون «القاضى الفاضل» رحمه الله قد أظهره فى الزمن الأوَّل و«القاضى الفاضل» أجلَّه الله قد أظهره فى الزمن الآخر ، وتقوى الله تعالىٰ كما عُلِم خِتامُ الوصايا البِيض فلْيتناولْ مِسْكَها الذى هو بشَذَا المِسْك سَاخر ، والله تعالىٰ ينفع بعلوم صَدْرِه الذى ما ضاقَ عن السُّؤال فَمَلَّه ، ويمتعُ بعلوّ قَدْرِه الذى إن لم يكُنْ هو لفَضْل الثناء فَمَنْ لَه .

المرتبـــة الثالثـــة

(من تواقيع مشايخ الأماكن بحاضرة دِمَشْق ـ ما يُفتتح بـ«رُسِم بالأمر»)

تَوْقيعٌ بمشيخة الجَوالِقية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ؛ وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال حُسْن آعتقاده يَسْتَنزِلُ النَّصر فيُنْصَر ، ويَسْتَبْصِرُ مطالع الفَوْز فيُبَصَّر ، ويَسْتَجْلِبُ الأدْعِيةَ الصالحةَ من كلِّ زاهِدٍ إذا حام فى أُفُق العبادة

حلّق وما قصّر ـ أنْ يستقرّ ... ... : حملًا على الوصية التامّة الحكم والأساس، وعِلمًا بأنّه ممّن حلّ فى مشيخته لباسُ بَلاس(١) ، ونزع فى الزُّهد عما عُدّ زينةً فى النّاس ؛ وسرح شَعْره حقيقة التّسريح فأطْلقه ، ومحا رِقّ سَواده وبَياضه فأعْتقه ؛ ولازَم طريقَ مشايخه فما ، وشكر الحالَ بجعل فى مَنْبِتِ كلّ شَعْرةٍ لسانًا للشُّكر وفما ؛ وسَرّ طائفةً وردُوا على آثاره مَناهِلَ الوفا ، وصَفَتْ قلوبُهم ووجوهُهم فدارت عليهم كُئُوسُ إخْوان الصَّفا ، حتّىٰ مَشَوْا إلىٰ مطالب الخير مَشْىَ الرِّخاخ ، وفاخرُوا أقوامًا دنّسُوا عِزّة رُتْبتهم فلولا أدبُهم لأنشدُوهم : «عُقولُ مُرْدٍ ولِحَىٰ أشْياخ» .

فليَقُمْ فى مَشْيخَتِه قيامًا يُحْيِي القومَ بأنفاسِه ، ويُبْهجُهم بكرامة الكَشْف من قلبِه وتكريم الكَشْفِ من رَأسه ؛ سالِكًا بهم فى طرائق الخير مُسْتبشرين ، آمِرًا بتقْصِير الملابس وَرَعًا حتّىٰ يدخل بهم إلى النُّسُك مُحلِّقين ومُقَصِّرين ؛ والله تعالىٰ ينفعُ به ، ويُغْنِى حالَه بمُذْهَبِ مَذْهَبِه .

الضـــــرب الثـانى

(من تواقيع مَشْيخة الأماكن ـ ماهو بأعمال دِمَشْق ، وفيه مرتبة واحدة ، وهى الافتتاح بـ«ـرسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توْقيعٍ بمشْيخة الحَرَم الخَلِيلىّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ «شمس الدّين بن البرهان» الجعبرىّ بـ«ـالمجلس» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ أعلاه الله تعالىٰ ، وبَسَط عدْلَه الذى لا يبلغه الوَاصِفُ ولو تَغالىٰ ، وسَرىٰ لأولياء بنى الأولياءِ برّه الذى تَسَنّن بسُنّة الغَيْث ثم توالىٰ ـ أن

(١) البلاس كسحاب المِسْح فارسىّ معرب .

يستقرّ ... ... ـ أدام الله تعالى ببركته الانتفاع، وباقتداء سَلَفه الارتفاع، وأعاد من بَركات بَيْته الذى قام البُرهانُ بفَضْله وقال بوُضُوح شَمْسه الإجماع ـ فى مَشْيخة حَرَم سيدنا الخَليل صلوات الله عليه وسلامه، علىٰ عادته القديمة المقدّمه، ومستقرّ قاعدته المعلومة المعلمه، بعْد إبطال ما كُتب به لغيره فإنّ هذا الولِىّ أولىٰ، ولأنّ الحقّ معه وبَاعُ الحقّ أطْوَلُ على المُعَنّيْن إطالةً وطَوْلا[1]، ووضْعًا للشّىء فى محلّه الفاخر، وحملًا علىٰ ما بيده من تواقيعَ شريفة توارثَ بركَتَها مُلوكُ البسيطة فى الأوّل والآخر، وعِلْمًا أنّه بقيّةُ العلْم المَشِيد، والزُّهْد العَتِيد، وخَلِيفَةَ السَّلَف الصالح وما منهم إلّا مَن هو «أمِين» العَزْم «رَشِيد»، وأنّه الشيخُ وكلُّ مَن عرفه فى بَقائه ولِقائه مُرِيد، والقائمُ بالمَقام الخليلىّ ـ صلوات الله تعالىٰ علىٰ سَاكِنِه ـ مقامًا مُجْتَبىٰ، والمُنْتَسِبُ إلىٰ خِدْمة الحَرَم الإبراهيمىّ مَخْدوما صلى الله عليه ونسبا، والقَدِيمُ الهِجْرة فلا تتركه الأوْطان ولا تَهْجُره، والمُقِيمُ بالبَلَد الخَلِيلىّ علىٰ إقامة الخَيْر: فما ضَرَّه أنّ العَدُوّ يشْكُوه إذا كان «الخَلِيلُ» يشْكُره، وقد سبقتْ له مباشراتٌ فى هذا الحرم الشريف فكان عَزْمُها تماما، وشُكْرُها لزاما، وكانتْ على الصَّادِرِينَ والوَارِدِين كتلْكَ النَّار النبويّة بَرْدًا وسَلَاما.

فلْيَعُدْ إلىٰ مباشرة وظائفه المذكورة فى التواقيع الشريفة التى بيَده، ولْيكُنْ يومُه فى الفضل زائدًا علىٰ أمْسِه مُقَصِّرًا عن غَده، بثناء يتلَقّ أضيافَ أبى الأضْياف، بألِيف أحْوالِ الداخلين إليه شِتاءً وصَيْفًا وإن لم تكُن رِحلةَ إيلَاف، جارِيًا فى بركة التّدْبير والتثمير علىٰ عادته وعادة سَلَفه فنِعْمَ الخَلَفُ ونِعْمَ الأسْلاف، مُواظبًا علىٰ عادة تَقْواه ورفْع الأدعية لهذه الدّولة الشريفه، جاعلًا ذلك منه أوّلَ وآخِرَ كلّ وَظِيفَه، والله تعالىٰ ينفع ببركات سَلَفه وبه، ويكافِئُ عن الأضياف بَسْط راحَتِه بالخيرات وفَضْلَ تَعَبه.

(١) الأنسب «طُولا وطَوْلا».

توقيعٌ بمشيخة الزاوية الأمينية بالقُدْس ونظرها، كُتب به للقاضى «برهان الدين» ابن المَوْصلى بـ«ـالجناب العالى» وهو :

رُسم ... ـ لازال يُجْرى الأولياءَ فى مقاصدهم على أجمل عادَه، ويَختار منهم لمَواطِن الخَيْر مَنْ يرعاها بنَظَرٍ يُثمِّرُ لها السعادَه ـ أن يُحمَل فلانٌ فى وظيفَتَى النظر والمشْيَخة بالزاوية الأمينيَّة بالقُدْس الشريف ، على حكم النُّزول والتقرير الشرعيَّين المستمرِّ حُكْمُهما إلى آخر وقت ، واستمراره فى الوظيفتين المذكورتين بمقتضاهما ، ومَنْع المنازِع بغير حكم الشرع الشريف .

فلْيباشرْ ذلك بما يُقتدَى به من تَسْليكه وتأديبه ، وتَسرُّع رَغْبته فى هذا المقام ومن عناية تَهْذيبه ، والوصايا كثيرةٌ ولكن لا تُقال لمِثْله إذ هو مُعلِّمُها ، وتَقوى الله سبحانه أهمُّها وأعظمُها ، والله تعالى المسئُولُ أن يرشِدَنا إليها ، وأنْ يجعلَ فى كلِّ الأُمور اعتمادنا عليها ، بمنّه وكرمه ! .

الصنف الخامس

(ممّا يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تَواقيع العُرْبان)

والذى وقفت عليه من ذلك مَرسومٌ مُكْتَتَب برُبْع تَقْدِمَة بنى مَهْدِىّ بـ«ـالمجلس السامى» بغير ياء، كتب به لـ«ـموسى بن حناس» مفتتحا بـ«ـأمّا بعد» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله تعالى الذى جمع على الطاعة الشريفة كُلَّ قَبيلَه ، و بسطَ على ذوى الإخلاص ... ... الظَّليلَه (١) ، والشهادةِ بأنّه الذى لا إله إلّا هو وحدَه لا شريكَ له

(١) بياض فى الأصل ولعله «ظلال نعمه الظليلة» .

شهادة أتخذُها للتوحيد دَليلَه، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد عبده ورسوله الذى آتخذه الله تعالىٰ حَبيبَه وخَليلَه ، وآتاه الدَّرجة الرفيعةَ والوَسيلَه ، وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً مباركةً أصيلَه ـ فإن الأولىٰ لتزكيـة القوم تُرعىٰ[(١)] ، وذا الإخلاص ينجح له كلُّ مَسْعىٰ ، والجديرَ بالنِّعم من يُجيبُ بالطَّاعة حينَ يُدْعىٰ ؛ مَن سَلكَ فى الخِدْمة الشريفة مَسْلَكَ الأسْلاف ، وتجنَّب ما يُفْضِى إلى الشِّقاق والخِلاف ؛ فعند ذلك رَفَعْنا مَراتِبَه ، وضاعفْنا مَواهِبَه ، وأنرْنا بالإقبال الشَّريف كواكِبَه ، وأجْملنا مكاسِبَه ؛ وبَسطْنا فى رُبْع تَقْدِمة بنى مَهْدىٍّ كلامَه ، ونَفَّذْنا أمره علىٰ طائِفَته : قولَه وإبرامَه ؛ مَن أضحىٰ مَشْكورًا من كلِّ جانب ، مُجتهدًا فى المصالح وبلوغ المآرِب ؛ مَن عُرِف بالأمانَة فسلَكَها ، وآشْتَهر بالصِّيانَة فملَكَها ؛ وحاز أوصافًا حَسَنه ، وسيرةً نطقَتْ بها الألْسِنَه ؛ وكان فلانٌ هو الذى أضحىٰ علىٰ عُرْبانِه مقدَّما ، ومن أكابِرهم معظَّما .

فلذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لا زالتْ مراسِمُه الشريفةُ عاليةً نافِذَه ، وأوامِرُه بصلة الأرزاق عائذه ـ أنْ يستقرَّ ... علىٰ عادته وقاعدته : حمْلًا علىٰ ما بيده من التوقيع الكريم .

فلْيباشِرْ هـذه الإمْرةَ مع شُركائه مُباشَرةً حَسَنه ، ولْيَسِرْ فيها سيرًا تشكُره عليه الألْسِنَه ؛ ولْيُظْهِرِ السَّداد ، ولْيبذُلِ الطَّاعةَ والآجْتهاد ؛ ولْيَسْلُكْ المسالكَ الحَسنَه ، والله تعالىٰ يجعـله من الذين يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه ؛ والوصايا كثيرةٌ وملاكُها تقوى الله تعالىٰ ، والله تعالىٰ يجعلُ إحساننا إليه يتوالىٰ .

قلتُ : وقد تقدّم أنّه يُكتب بإمْرة بنى مَهْدىّ من الأبواب السلطانية أيضا .

علىٰ أنَّ هذا التوقيعَ من التواقيع الملفَّقةِ ، ليس فيه مطابقـة للتواقيع ، وليس برائق اللفظ ، ولا مُؤْنِق المعنىٰ .

(١) هذا الكلام كما نبه عليه المؤلف بعد غير منسجم بل غير مستقيم .

الصنف السادس

(مما يكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تواقيع زعماء أهل الذمّة : من اليهود والنصارىٰ)

وهذه نُسخة تَوْقيع لبطرك النصارىٰ مفتتحًا بـ « أمّا بعد » كُتب به للبطرك « ميخائيل » وهى :

أمّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى جعلنا نَشْمَلُ كلَّ طائفةٍ بمزيد الإحسان، ونُفِيضُ من دولتنا الشريفة علىٰ كلِّ بَلَدٍ ٱطمئنانًا لكلِّ مِلَّةٍ وأمان ، ونُقِرُّ عليهم من ٱختاروه ونُراعيهم بمزايا الفَضْل والآمْتِنان ، والشَّهادةِ بأنّه اللهُ الذى لا إلٰه إلّا هو الواحدُ الذى ليس فى وحدانيته قَوْلان ، والفَرْد المنزّه عن الجَوْهر والأقنوم والوالد والولد والحُلول والحَدَثان ، [شهادةً] أظهر إقرارَها اللّسان ، وعَمِلَتْ بها الجوارحُ والأركان ؛ والصّلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه المبعوث إلىٰ كافّة المِلَل والإنس والجانّ ، الذى بشّر به عيسىٰ وآمن به موسىٰ وأنزل عُمومَ رسالته فى التَّوْراة والإنجيل والزَّبور والفُرقان ، فصَحَّ النَّقل بنبوّته وآدمُ فى الماء والطّين وأوْضح ذلك البُرْهان ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سادوا بإخلاص الوحدانيه ، وشادُوا أركان الملة المحمَّديَّه ، وأعزُّوا الإيمان وأذلُّوا الطُّغيان ، صلاةً ينفَحُ طِيبُها ، ويُفصِحُ خَطِيبُها ، ويَفرح بها الرحْمٰن ـ فإنّ أوْلىٰ من أقمْناه بِطْريكا علىٰ طائفة النصارىٰ الملْكيّه ، علىٰ ما يقتضيه دِينُ النصرانية والمِلّة العِيسَويّه ، حاكمًا لهم فى أمورهم ، مُفْصِحًا عما كَمَن فى صُدُورهم ـ من هو أهلٌ لهذه البِطْريكيه ، وعارف بالمِلّة المسيحيّه ، أخَذَه[1] لها أهلُ طائفته ، لما يعلمون من خِبْرته ومعرفته ، وكِفَايته ودُرْبَتِه ؛ ونُدِب إلىٰ وِلايةٍ يستحقُّها علىٰ أبناء جِنْسه ، ورَغِب فى سلوكه لها مع إطَابة نَفْسه ، مع ماله من مَعْرفةٍ سَرَتْ

(١) يريد اختاره لها .

أخبارُها ، وظهرتْ بين النَّصارىٰ آثارُها ؛ وكان فلانٌ ــ أدام اللهُ تعالىٰ بهجته ــ هو من النصارىٰ الملكيَّة بالمعرفة مذكور ، وسيرُه بينهم مشكور ، القائم فيهم بالسِّيرة الحسنه ، والسَّالك فى مذاهبهم سيرًا تشكره عليها الألسنه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال إحسانهُ العميمُ لكلِّ طائفة شاملا ، وبرُّه الجسيمُ لسائر الملك بالفضل مُتواصلا ــ أنْ يستقرَّ بطركا على النصارى الملكيَّة بالشام وأعماله ، علىٰ عادة من تقدمه فى ذلك ، وتقوية يده علىٰ أهل مِلَّته ، من تقادم السنين بحُكْم رضاهم ، ومنع من يعارضه فى ذلك : حملًا علىٰ ما بيده من التوقيع الكريم المستمر حكمه إلىٰ آخر وقت .

فليباشرْ هذه البطْركيَةَ مباشرةً محمودةَ العواقب ، مشكورةً لِمَا تحلَّتْ به من جميل المناقب ؛ وليحكُمْ بينهم بمقتضىٰ مذهبه ، وليسرْ فيهم سيرًا جميلًا ليحصلَ لهم غايةُ قصده ومأربه ؛ ولينظر فى أحوالهم بالرحمه ، وليعملْ فى تعلُّقاتهم بصدق القصد والهمَّه ؛ وليسلكِ الطرقَ الواضحةَ الجليَّه ، وليتخلَّق بالأخلاق المرضيَّه ، وليفصلْ بينهم بحُكْم مذهبه فى مواريثهم وأنكحتهم ، وليعتمِدِ الزُّهدَ فى أموالهم ومُتعتهم ؛ حتَّىٰ يكون كلُّ كبيرٍ منهم وصغير ممتثلًا لأمْرِه ، واقفًا عندما يُقدِم به إليه فى سِرِّه وجَهْرِه ؛ مُنتصبين لإقامة حُرْمته ، وتنفيذ أمْره وكلمته ؛ وليُحْسِن النظرَ فيمن عنده من الرُّهبان ، وليرفق بذوى الحاجات والضُّعفاء : من النِّساء والصِّبيان ، والأساقفة والمطارنة والقِسِّيسين زيادةً للإحسان ؛ إحسانًا جاريًا فى المساء والصَّباح ، والغُدُوِّ والرَّواح .

فليمتثلوا أمْره بالطَّاعة والإذعان ، وليُجيبُوا نَهيه من غير خلاف ولا توان ؛ ولا يُمكِّن النَّصارىٰ فى الكنائس من دقِّ الناقوس ، ورفع أصواتهم بالضَّجيج ولا سيما عند أوقات الأذان لإقامة النَّاموس ؛ وليتقدَّمْ إلىٰ جميع النصارىٰ بأنَّ كلًّا منهم يلزم

زِيِّه، وماجاءت به الشروط العُمَرِيَّةُ ـ عمرُ بن الخطّاب رضىَ الله عنه ـ لتكونَ أحوالُهم فى جميع البلاد مَرْعِيَّــه، ولْيَخْشَ عالِمَ الخفيّات، ولْيستَعْمِل الأناةَ والصَّبْرَ فى جميع الحالات؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها عارف، والله تعالىٰ يلْهِمُه الرُّشْد والمعارف .

قلتُ : وهــذا التوقيع فيه ألفاظٌ ومعانٍ غيرُ مستَحْسَنة، وألفاظٌ ومعانٍ مُنْكرةٌ، أفْحَشُها قولُه : مُفْصِحًا عمــا كَمَن فى صُدُورِهم . فإنّه لا يعلم ماتُخْفِى الصدورُ وتُكِنّه إلّا الله تعــالىٰ .

واعلم أنّه ربمــا ٱفتتح تَوقيعُ البطريرك عندهم بـ«رُسم بالأمر» .

توقيــع لبَطْرك النصارىٰ بالشام أيضــا، كُتب به للبطريرك «داود الخُــورى» بـ«ـالبَطْرك المحتشم» وهو :

رُسم بالأمر ـ لازال يَعِزّ بالالْتِجاءِ إلىٰ حَرَمِهِ من يأْوِى إليه، ويَقْصِد عَدْلَه من أهل المِلَل ويعتمدُ عليه ـ أن يستقرَّ فلانٌ ـ وفّقه الله تعالىٰ ـ بطريركَ المَلَكية، بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، حَسَب ما ٱختاره أهلُ ملّتِــه المقيمون بالشام المحروس ورَغِبوا فيه، وكَتَبُوا خطُوطهم به ، وسألُوا تقريره فى ذلك دونَ غيره ؛ إذْ هو كبير أهل مِلّته، والحاكِمُ عليهم ما ٱمتدّ فى مدّته ؛ وإليه مَرْجِعُهم فى التّحريم والتّحليل، وفى الحكم بينهم بمــا أنزل اللهُ تعالىٰ فى التّوراةِ ولم يُنْسخْ فى الإنجيل؛ وشِرعَته مبنيّة على المسامحة والاحتمال، والصّبر على الأذىٰ وعَدَم الاكتراث [به] والاحتفال .

نَخُــذْ نفسَكَ فى الأوّل بهذه الآداب ، وٱعلَمْ بأنّ لك فى المَــدْخل إلىٰ شريعتك طَرِيقًا إلى البــاب؛ فتخلّقْ من الأخلاق بكلّ جميل ، ولا تَسْتكثِرْ من متاع الدنيا

فإنه قليل ، وقدّم المصالحة بين المتحاكمين إليك قبل الفصل البتّ فإنّ الصُّلح كما قيل : سيّد الأحكام، وهوقاعدة دِينك المسيحىّ ولم تخالف فيه المحمديّةُ الغرّاءُ دِينُ الإسلام ، ونَظِّف صُدُور إخوانك من الغِلّ ولا تَقْنع بما يُنَظِّفه ماءُ المعمودية من الأجْسام، وإليك الأمرُ فى البِيَع ، وأنت رأس جماعتك والكلّ لك تَبَع ، فإيّاك أن تتخذها لك تجارةً مُرْبِحه ، أو تَقْتطِعَ بها مالَ نصْرانىٍّ تقرّبه فإنّه ما يكونُ قد قرّبه إلى المَذْبَح وإنّما ذَبَحه ، وكذلك الديارات والقَلاَلى ، [يتعين عليه أن يتفقّد فيها كل أمر فى] الأيام والليالى ، وليجْتهِدْ فى إجراءِ أمُورها علىٰ ما فيه رَفْع الشبهات ، وليَعلَمْ أنّهم إنّما آعتزلُوا فيها للتّعبُّد فلا يَدَعْها تُتّخَذُ متنزّهات ، فهُم إنّما أحدثُوا هذه الرّهبانية للتّقلّل فى هذه الدنيا والتّعفُّف عن الفُرُوج ، وحَبَسُوا فيها أنفُسهم حتّىٰ إنّ أكثرهم إذا دخل إليها ما يعودُ يبْقىٰ له خُروج ، فليُحَذّرْهم من عَمَلها مَصْيَدةً للمال ، أو خَلْوةً له وللكنْ بالنّساء حرامًا ويكونُ إنّما تنزّه عن الحلال ، وإيّاه ثم إيّاه أن يُؤْوِى إليه من الغُرَباءِ القادمين عليه من يُريب ، أو يَكْتُم عن الإنْهاء إلينا مُشْكِلَ أمْرٍ ورد عليه من بَعِيدٍ أو قريب ، ثم الحَذَر الحَذَر من إخْفاء كتابٍ يرد [إليه] من أحَدٍ من الملوك ، ثم الحَذَر الحَذَر من الكتابة إليهم أو المشى علىٰ مثل هذا السُّلوك ، وليتجنَّب البَحْر وإيّاه من آقتحامه فإنّه يَغْرَق ، أو تَلَقّ ما يُلْقِيه إليه جَناح غُرابٍ منه فإنّه بالبَيْن ينْعق ، والتّقوىٰ مأمور بها أهلُ كلّ مِلّة ، وكلّ مُوافِقٍ ومُخالِف فى القِبْلَة ، فليَكُنْ عملُه بها وفى الكناية ما يُغْنى عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المَسِيح .

✣

تَوْقيعٌ برآسة اليهود بالشام، مفتتحا بـ «رسم» من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتة، وهو :

---

(١) مأخوذ من «التعريف ص ١٤٥» .

رُسم بالأمر ـ لا زال جُودُه فى كلّ مِلّه ، وعَمَامُ كرمه على الخَلْق كأنه ظُلّه ، وذِمامُ نِعَمه يُبَلِّغ المُسْلِمَ والذِّمِّىَّ من الاستحقاق محلَّه ، أن يستقرّ الحكيم (١) ... ...

ومنـه : ـ وأن يعامِلَهم علىٰ ما أَلِفُوه من الأحكام ، ويُنْصِف صاحبَ حقِّهم من مُتَظَلِّمِهم : حتّىٰ لا يَعْدُوَ أحدٌ فى سَبْتٍ ولا فى سائر الأيّام ، ويُهَذِّبَ وَحْشِىّ جاهلهم بإيناسه ، ويعالجَ سَقَم كاهِلِهم حتّى تطلُعَ الصَّفْراءُ من رأسه .

فلْيَقُمْ مقامًا فى هذه الطائفة القديمه ، ولْيُعَبِّر من أَسْفارٍ عبرانيّة عن عوائد قضاياهم النظيمه ؛ مُفَرِّحًا بمعرفته كلَّ حَرَّان ، جامعًا كلَّ شَعَثٍ علىٰ عَدْلٍ عنـده وإحْسان ؛ شاكِرًا لظِلالِ النِّعمه ، عارفًا بالعوارف التى تَرْعىٰ يمينَها كلَّ ذِمَّه .

النيابة الثانيـــة

(من النيابات التى يُكتب عن نوابها بالولايات ـ نيابة حَلَب)

وهى علىٰ نَحْوٍ من نَمَط دِمَشْق فيما يكتب عن نائبها . فيكتب عن نائبها أيضا بالتواقيع لأرباب الوظائف بحاضرة حَلَب وأعمالها : من أرباب السُّيوف ، وأرباب الأقلام الدِّينية ، وأرباب الأقلام الديوانية ، ومشايخ الأماكِنِ وغيرهم ، مُرَتَّبةً علىٰ المراتب الثلاث : من الافتتاح بـ«الحمد لله» ، والافتتاح بـ«أمّا بعد حمد الله» ، والافتتاح بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نسخُ تَواقيعَ ممّا كتب به لأرباب السيوف بحاضرة حَلَب وأعمالها ، يُستضاءُ بها فى ذلك :

(١) بياض بالأصول .

توقيعٌ بنقابة الأشراف، كُتب به للشريف عِزّ الدّين «أحمد بن أحمد الحُسَيْنى» بـ«المقرّ العالى» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى خلّد السيادةَ فى بيوت الشّريف أحمدَ تخليد، وقلّد تقاليد السّعادة، لأهْلِ الإفادة، أسْعد تقليد، وجدّد الوِفادة، لحَرم العِبادة، بعِزّ العِصابة المحمدية آكدَ تجديد، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِ الخلقِ الذى عقد العَهْدَيْن لأمّته، بالثّقلَيْن: من كتاب الله وعِترته، وسرّ النفوسَ المُؤْمنةَ هُداه بكلّ أبيٍّ من أسْرته، وأقرّ العيونَ المراقبةَ بكلِّ سَرِيٍّ من أهلِ بيْتِه تَبرُق أنوارُ النبوة من أسِرَّته، وعلىٰ آله حَبْلِ النَّجاةِ للمُتمسِّك، وسُبُل الهُداة للمتَنسِّك، وصَحْبِه نجومِ الهُدىٰ، ورُجومِ العِدا، وأئمّةِ الخَيرِ لمن بهم اقْتدىٰ، صلاةً وسلاما، يتعاقبان دَواما، ويتلازمان على الألْسنة مدى المَـدىٰ لِزاما، ما حَلا بعين وَطَف، وما علا علَوِىٌّ ذُرا شَرف ـ فإنّ أهمَّ ما اعْتنىٰ به وُلاةُ أُمورِ الإسلام، وأعمَّ ما اقْتنىٰ منـه رُعاةُ أجورَ الحكّام ـ رِعايةُ مصالح أهْل البَيْت، وانتهازُ الفُرْصة فى مُوالاتِهم حتّىٰ لا يقالَ لفواتِها: لَيْت؛ وتَعْظيمُ ما عَظّم الله تعالىٰ من حُقوقِهم، وتكْريمُ ما كرّم رسولُه من بِرِّهم واجْتنابِ عُقوقِهم، وتقْـديمُ أحقِّهم بالتقـديم لاحق سَـبّاقِهم إلىٰ غايات الغَلوات وسَبُوقِهم؛ والتّعبدُ بالتّعبِ والاجتهـاد فى نَفْعِهـم، ونَصْبُ النفوس للنَّصَبِ لتجُرَّ ذُيولَ الفَخْر بمُوالاتِهـم، وإعْلائهـم على الرءُوس ورفْعِهم؛ اختيارًا لرأْىِ مَن زاد فى العِناية بالعِتْرةِ الطاهرة وأرْبىٰ، وأْتمارا بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ خصوصًا نِقابةَ الأشراف، والنّظرَ فيما لهم من الأوقاف؛ فهى شاملةُ جمْعِهم، وجامعةُ شمْلِهم، وواصِلةُ نَفْعِهم، ونافعةُ كلِّهم؛ وبفضْلِ مباشرِها تُسْبَغُ عليهم النِّعمه، وتُسْتدرُّ ببركة إجماعهم عليه سُحُبُ الرّحمه؛ وبكَفالته تُجمع المِنّة لمراتبهم وأحْسابهم، وبإيالته تُدفعُ الظِّنّةُ عن مَناقبِهم وأنْسابِهم؛ وهو القائمُ عن وُلاة الأمو ر من خدَمهم

بفروض الكفايه ، والدائمُ الدأْبِ لمرآة أدبهم لتَحْسُن لهم الرِّعايه ، فوجب الاحتفال باختيار من يُحلِّى هـذا المَنْصِبَ الشريف ، وتعيَّن الابتهالُ فى امتياز مَن يُسبِغُ عليه هـذا الظِّلَّ الوريف ، ممَّن قدُم فى هذه السيادةَ بيْتُه ، وارتفع بخفض العَيْش لقرابته بعَفَافه وديانته صِيتُه ، وتنزَّه عن كلّ ما يَشِـينُ وتبرَّأ ، واكتسىٰ حُلَلَ الفَخار العليـة ومن أعْراضِ الدنيا الدَّنِيَّة تعرّىٰ .

وكان فلانُ بن فلانٍ ــ أسبغ الله تعالىٰ ظِلالَهم ، وضاعف بمعـالى الشَّرف جَلالَهم ــ ممَّن حازَ فى هـذه الخلال المَنَازِع ، وجاز نهايةَ هذه الخِصال بلا مُنازِع ، وورد من حِياض المناقب الجميلة أعْذَبَ المَشَارِع ، ودرَى المراقِيَ إلى المَجْد ودَرِب ، وبلغتْ نفوس مُحِبِّيه من مخايل سُعُوده الأرَب ، وقرَّتْ عيونُ أقاربه بما حصل له من القُرْب ، ونَشَأ فى حِجْر السَّعاده ، وارتضع لِبَان الإفادَه ، ولَحِقَ بالسابِقين الأوّلين من أهْـل بيْته فى الزَّهاده ، وتبتَّلَ بالإخلاصِ فظهرتْ علىٰ وَجْهِـه أنوارُ العِباده ، وانقطع على العمل ، وبلغ من العـلوم الأمل : فقوم تشبث بالمجـرَّة وهو شـامة فى شامه المنسوب :

وَرِثَ السِّيادَةَ كابرًا عن كابِرٍ ! * كالرُّمْحِ أُنْبوبٌ علىٰ أُنْبُـوب .

أَصْلُ نَخارٍ سَما ، وفَرْعُ نِجارٍ نَما ، وغَيْثُ فَضْلٍ همىٰ ؛ أثبتَ فى أعلَى المعالى قَدَما ، وناسب قَدْرَه سَعْيُه كَرَما ؛ وجلَّتْ صفاتُ محاسـنِه اللّائقه ، وحلَّتِ الأفواهَ مدائحُ سجاياه الرَّائقه ، وتملَّت الألسنُ وما ملَّتْ ما تُملِى عنه بالخير كلُّ ناطقَه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ أوامِرُه ببِرِّ آل مُوالاتِه ماضِيَه ، ونَواهيه بقَهْر أهلِ مُعادَاتِه قاضِيَه ــ أن يستقر ... ... استقرارًا يُقِرُّ عينَ العُلا ، ويسرُّ نفوسَ أهلِ الوَلا ، ويَضعُ الأشياءَ فى محالّها ، ويُسنِدُ الأمور إلىٰ أهْلها ، ويَستجلِبُ الأدعيه ،

ويحملُ بالوَلاءِ الجميـل ألوِيَه ، ويشرَحُ خواطر الأشرافِ ويُطيِّب نفوسَهم ، ويرفعُ بعد سُجودِ الشُّكر بالدعاء رُءوسَهم .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً يقفُو بها آثارَ بيتِه الطاهر ، بعزْمٍ كَرِيم : لكلِّ مُصلح بالخير غامِر ، ولكلِّ مُفسِدٍ بالضَّير قاهِر ؛ وحَزمٍ حَليم : لكلِّ حقٍّ ناصر ، ولكلِّ كَسْرٍ جابِر ، وليَصِـلْ بالبِرِّ رحِمَه ، وليُلِنْ للضعيف كَلِمَـه ، وليَقُمْ بأعباء هذه الوظيفة قيامَ عمِّه الشَّريفِ وأبِيـه ، وليَصُمْ عن أموال الأوقافِ صِـياماً يُقرِّبُه الله تعالىٰ به ويَجتَبِيه ، ليَحْمَدَ ، هـذا المنصبُ الجليل ، فى بيتِـه الأصيل ، عودَه علىٰ أحمد ؛ ولْينفعْ قرابَته بتثمير أموالهم ، وليُشفِعِ النهضة بالمعرفة فى تثميرِ غلالهم ؛ : لتُدِرَّ بركتُه أخلافَ أرزاقِهـم ، وتَقِرَّ خواطِرُهم بمضاعفة أرزاقهم وإطْلاقِهـم ؛ ويُخْصِبَ فى جَنابِه مَرْعاهم ، ويُقرِّب فى بابه مَسْعاهُم ؛ وتَنطِقَ بشكره ألسِنَتُهم الشريفه ، وتَنطِقَ علىٰ صُحبته ظِلالُ بيوتهم الوريفه ؛ وليَعتَبِرْ ويَختَبِرْ أشغالهم ويَمنعْ شُبَّانَهم من الاحتراف بحِرَفِ الأدنياء ، وليأمُرِ الآباءَ بتعهُّد تربيةِ الأبناء ؛ وليأمُرْهم من العَمَل بما يناسب مَعاليَهم ، وليَجبُرْهم بتدبيره السَّـدِيد جبراً يُميِّزهم بحُسْنِ السَّمْت من أوليائهم : وكلُّنا من مَواليهِـم .

والوصايا كثيره ، وعَين عُلومِه بتَعْدادها بَصيره ؛ وتقوى الله تعالىٰ لا يُهمَلُ النَّصُّ عليها ، والإشارةُ بحُسْـن البيان وحَسَـنِ البَنان إليها ؛ فلْتكُنْ رُكْنَ ٱستِناده ، ورأسَ مال ٱعتِماده ؛ والله تعالىٰ يُديمُه فى صُعود دَرَجِ السُّعودِ مُدَّة حياته ، ويجمع له خيرى الدنيا والآخرة برَفْعِ دَرجاته .

✤ ✤ ✤

وهذه نسخةُ توقيع بنقابة الجيوش بحَلَب ، كُتب به لـ«ناصر الدين بن ايتبك» بـ«بالسامى» بغير ياء ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال أمْرُه الشريفُ يَعضُد الجيوشَ بأعْضَـدِ ناصر، ويُرشِـدُ أولياءَ الخِدْمة إلى آرتقاء رُتَبِ المعالى فكلُّ إنسانٍ عن إدراك محلِّها قاصر ـ أن يستقرَّ فلانٌ ـ أدام الله توفيقَه، وجعل اليُمْنَ والسَّعْد قرينَه ورفيقَه ـ... آستقرارًا يُظْهِر مالم يَخْفَ من نَهْضَتِه وكِفَايته، ويُشْهِر مُعْلَن سرِّ يَقَظَتِه ودرايَتِه؛ لأنّه الفارسُ الذى أعزَّ كلَّ راجِلٍ بشَجاعته، والمُمـارِسُ الذى خَبَر الوقائعَ بحُسْن دُرْبَتِه ودراية صِناعَتِه؛ والدارِفُ الذى آتّصف بالخِبْرة وحُسْن الصِّفه، وعُرِف فى أموره بالعَدْل والمَعرفه؛ والهمامُ الذى عَلَتْ هِمَّته فوقَ كلِّ هِمَّه، وكَشف بجزيلِ مُروءَتِه من الكُرُبات كلَّ غُمَّه؛ وسار فى الجيوش سيرَةَ والِده، فشَهِد كلٌّ بما حواه من طَارِف الفضل وتَالِده.

فليُباشِرْ ذلك: سائرًا فى الجنود أحسنَ سيره، مُراقِبًا الله تعالى فيما يُبْدِيه من القَوْل والفِعْل والعَلانيَة والسَّريره، مُلازِمًا مايلزمه من حُقوق هذه الوظيفه، قائمًا بما يجب من أداءِ الخِدْمة الشَّريفه؛ ولْيُنفِّذْ ما يُؤْمَر به من الأوامر، عالمًا بما يتعيَّن من حقوق المأمُور والآمِر؛ [وليجتهد] فى جَمْع العساكر وإعلامِهم بالمُهِمَّات، ولْيتفقَّدْ أحوالَ الجُنْـد فى سائر الأوقات؛ ولْيُسْفِرِ النِّقابَ عن الوُجوه بالحِلْيَة يوم العَرْض، ولْيُسبِلْ حِجابَ السَّتْرِ على من أدركه العَجْزُ عن أداء الفَرْض؛ والوَصايا كثيرةٌ لاتحتاج إلى التَّعداد، وتَقْوَى الله تعالى هى العُمْدة فى كلِّ الأُمور وعليها الآعْتماد.

✤

تَوقيعٌ بالمِهْمَنْداريَّة بحَلَب، كُتب به لـ«غَرَس الدين الطناحى» بـ«الجناب العالى» وهو:

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عزائمُه تَنـدُب للمهِمَّات من غُرِسَتْ برياض ولِيِّه أدْواحُ الهِمَم فزكا غَرْسا، وتُقرِّرُ لهـا من شاب تَوَدُّده فى إفادة الوُفُود فأجاب

قَصْدًا وأطاب نَفْسًا، ولا بَرِحت عنايته تشمل من أولياء خِدَمها كلَّ شَهْم اذا سل عضبا أزال نفسا وأسال نَفْسا ، وتُعيِّن من أعيانهم كلَّ جميلٍ يودُّ المُنافِسُ لو شاهده ولا تَبْخَس يَدُ الرُّقِيّ منه نَفْسا ـ أن يستقرّ... ... ... لأنّه ذُو الهِمَم التى لا تُلْحَق جيادُها، ولا تُسْبَقُ جَوْدةَ جِيادُها[1] ، لا مُنْتَهىٰ لِصغار هِمَمِه فأنّىٰ تُدرك كِبارُها، ولا تُدْرَك سوابِقُه فأنّىٰ تُقتفىٰ آثارُها، له قَدَمُ إقدامٍ فى الثّرىٰ لا يزال[2] راسخا، وهامةُ هِمّةٍ لم يَزُل شرفُها على الثُّريّا بَاذِخا ؛ ولأنّه الفارسُ الذى تُفُرِّسَتْ فى مَخايِله الشَّجاعه ، وتَبضّعَ الشّهامةَ فى الحروب فكانتْ أربحَ بِضاعه ؛ كَمْ أَزْرتْ سُمْرُ رماحه بِهِيفِ القُدود ، وأخجلتْ بِيضُ صِفاحه كلَّ خَوْدٍ أُمْلود ، وكَمْ جُرِّدت من مُطْرِبات قِسِيِّه الأوتارُ فتراقصتِ الرُّءوس ، وشَرِبتِ الرِّماحُ خَمْرَ الدِّماء فعَرْبدتْ على النُّفوس :

له هِمَمٌ تعلُو السَّحائبَ رِفْعَةً ، * وكَمْ جاد منها بالنَّفائس والنَّفْس !

وتُجْنىٰ ثمارُ الفَضْلِ من دَوْح غَرْسِه ! * ولا غَرْوَ أن تُجْنَى الثّمارُ من الغَرْس !

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً تَحْمَده فيها الوُرّاد ، وتَشْكره بالقَصْد ألْسنةُ القُصّاد ، وتَذْكُره البَرِيديّةُ بالخير فى كلِّ وَاد ؛ ولْيُهيِّئْ لهم [من القرىٰ ما يهيِّئُه[3]] المَضِيف ، وليُحصِّل لهم التّالدَ منه والطَّرِيف ، وليتلقّهم بوَجْه الإقبال ، وليبدأهم بالخير ليحْسُن له المآل ، وليَجْعلِ التّقْوىٰ إمامه فى كلِّ أمرٍ ذِى بَال ، وليتّصِفْ بالإنصاف فهو أحْمدُ الأوصاف فى جميع الأحوال .

توقيعٌ بتقدمة البَرِيديّة بحَلَب ، كُتب به لعماد الدين « إسماعيل » بـ«المجلس العالى» وهو :

(١) كذا فى الأصل مشيرا إليه بعلامة التوقف ولا توقف لان الأولى جمع جيِّد نقيض الردىء والثانية جمع جواد للفرس الرائع السابق .

(٢) ذكر القدم وهى أنثى مجاراة للعامة . (٣) زيادة تطلبها صحة المعنى .

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عِنايتُـه الكريمةُ تقدِّمُ إلى الرُّتَب العليَّة مَنْ بَنىٰ أُسَّ إقْدامه من المروءة علىٰ أشرف عِمـاد ، وتُعيِّن للمهمّات الشَّريفة من آمْتطىٰ من جِياد العَزْم أسْبق جَواد ، وتَنْدُب لها من أولياء خَدَمه كلَّ نَدْبٍ لم يزَلْ ساعِدُ سَعْده مَبنيًّا على السَّـداد ، وتُصْعِد إلىٰ أُفقها من ذَوِى الشَّهامة من فاقَتْ بيَمينه الصِّعاد ـ أن يسـتقرَّ ... ... : لأنّه ذُو الهِمَم التى سامىٰ بهـا الفَراقِد ، والكُفْءُ الذى نَشِط إلى القِيام بالعزائم إذا قَعد عنهـا من ذَوِى الهِمَم أَلْفُ راقِد ؛ والمقـدَّمُ الذى قدَّمه الإقدامُ علىٰ قَضاء الأمور المُعْضِـلات ، وحَلّىٰ أجْيادَ ذَوِى المآرب إذْ حَلَّ لهم منها بيُمْنِ عَزْمِه المُشْكلات ؛ ماعَلا جَوادَ بَرِيدٍ إلّا وسابَقَ الطَّرْفَ بل الطَّرْفَ إلى المُراد ، ولا نُدِب إلىٰ مُهِمٍّ للحكم فيه نيلًا لأمَلٍ إلّا قدح من رأيه فى قضائه أَوْرَى زِناد ؛ والفارسُ الذى تمـايلتْ بكَفّه العوامِلُ عُجْبًا فأخجلت الأغصان ، وحَلَتْ إذْ حَلَّتْ بقـلوب الأعداء وإن كانت من المُرّان ؛ والشَّهْمُ الذى سـبق السَّهمَ إلى الغَرَض ، والشُّجاعُ الذى ما أَعْرَض عن مُحارَبة الأقْران : فصفَّىٰ جَوْهَرَ شجاعته من العَرَض ؛ واليَقِظُ الذى لم يكن يناظره إنْسان ، ولا آنطبق علىٰ أسيافه المُسهَّدة بيَمينه أجْفان .

فلْيباشِرْ هذه التَّقْدِمَة مباشرةً يَشهدُ الحاسِدُ له فيها بالتقديم ، ويُقِرُّ الجاحِدُ أنّه أُهْدِى لمـا أُسْدِى إليه إلىٰ صراط عَزْمٍ مُسْتقيم ؛ ولْيَطِرْ إلىٰ قَضاءِ المُهِمّات الشريفة بأجْنحة السَّداد ، ولْيمتَطِ من جَوادِ الجُوادِّ أسبقَ جواد ؛ ولْيُسَوِّ بين البريدية فى الأشغال ، ولْيُقبِل عليهم فيما يرومونه من حُسْن السِّفارة بوَجْه الإقبال ؛ ولْيسْلُكْ سَنَن الصِّدْق والتَّقوىٰ ولْيَجْعلْهما له أحْسنَ سُنَّه ، ولْيلْبَس سَوابِغَ الإنصاف فإنّها من سهام الخَلَل جُنَّه .

✢ ✢ ✢

نسخةُ توقيعٍ بنيابة عينتاب ، كُتب به لناصر الدين « محمد بن شعبان » بـ« المجلس العالى » عوضًا عمن كان بها ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال إحسانُه العميمُ، يرفَعُ لناصر الدين قدرا، وامْتِنانُه الجسيمُ، ينفِّذُ له فى حِفْظ الممالِكِ المنصورة أمرا، ويُوَلّى أمرَ الرّعِيةِ من حَسُنَتْ سيرته سِرًّا وجَهْرا - أن يستقرّ ... ... : لأنه شَهْمٌ سَهْمُ عِرْفانِه مُصيب، وفارسٌ رَبْع خَبَرِه وخُبْرِه خَصيب؛ له مَناقِبُ جَليلَه؛ وسيرةٌ محمودةٌ جَميلَه؛ تَنقَّلَ فى المراتب تَنقُّلَ البَـدْر فى سُعُوده، وٱرْتَقىٰ ذِرْوَةَ السيادة ٱرتقاءَ الكوكب فى منازِلِ صُعُوده؛ ماباشَر مُباشَرةً إلّا ونُشِرتْ له بها أعْلامُ شُكْرِه، ولا علا مَنْزِلةً إلّا تُلِيتْ بها سُوَرُ حَمْدِه وذِكْرِه؛ لم يزلْ متَّبِعًا للحقّ فى أحكامه، سالِكًا سُبُلَ الصّوابِ فى نَقْضه وإبْرامه؛ فَتح له إقْبالُنا الكريمُ بابَه، فلِذلك قُدِّم علىٰ غيره فى هذه النِّيابه .

فلْيباشِرْها مُقْتفِيًا آثار العَفاف، مُرْتَدِيًا أرْدِيةَ العَـدل والإنصاف، مُقِيمًا مَنَـار الشرع الشريف، مُنْصِـفًا من القَوِىِّ الضَّعيف؛ واللهُ تعـالىٰ يوفِّقه للصواب فيما تَوَلّاه، والخطُّ الكريمُ شاهد أعْلاه .

قلتُ : وعلىٰ نيابة عينتاب هذه يُقاس ما فى معناها من نيابات العَشَرات، فيَجْرِى الحكم فى تواقيعها كذلك . أمّا الطبلخانات فقد تقـدّم أنّ الأصلَ أنّه لا يولّىٰ فيها إلّا من الأبواب السلطانية .

✣

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ بإمارة الرَّكْبِ الحَلَبِىّ المتوجِّه إلى الحجاز الشريف، كُتب به لشهاب الدين «أحمد بن الطنبغا» بـ«ـالجناب الكريم» . والبياض فيه وصـلٌ واحد، وهى :

رُسم بالأمر العالى - لا زال يمنحُ وَفْدَ الله تعالى بمَن لم يزلْ شِهابُ هِمَمِه فى أُفُق الصيانة مُنيرا، ويُسْنِدُ أمرَهم إلىٰ كلّ نَدْبٍ لايزالُ على الحقّ ظاهرًا وعلىٰ ذَوِى الباطل

ظَهيرا ـ أنْ يستقرّ فلان من أعْيان المَوالى الأمراءِ الطبلخانات بحلَب المحروسة ـ أعزّ اللهُ تعالىٰ نُصْرتَه ـ أميرًا علىٰ رَكْب الحاجّ الحلَبىّ فى هذا العام المقبل، علىٰ أجْمل العوائد، وأكْمل القواعد، حَسَب ما رُسم به. ٱستقرارًا يحمَدُ به الوَفْدُ عند صَباح هِممِه السُّرىٰ، ويَبْلُغ بهم قِرىٰ الغُفْران بأُمّ القُرىٰ، ويَنالُ به طِيبَ العَيْش بطَيْبَة وطَابَه، ويُدرِكُ بجِياد فَضْلِه آرابَه، ويُمْنَح به زِيارةَ سَيّد البَشَر عليه أفضل الصلاة والسلام، ويُفَوّق به سَهْم إصابته من البِشْر إلىٰ مَرامى المَرام، ويشهُد به بين قَبره ومنْبره رَوْضَةً من رِياض الجَنّة، ويلبَسُ به سَوابِغَ القَبُولِ لتكون له من سِهام الذُّنوب أوْقىٰ جُنّة، ويتردّىٰ [به] بُرودَ التُّقىٰ حِين يَنْزِعُ مُحرَّماتِ الإحْرام، ويُقْبِلُ به علىٰ ذِكْر الله تعالىٰ فى الوِهَادِ والبِقاعِ والآكام، ويَسْتقبلُ به حَرَمَ بَيْتِ اللهِ الحرام، ويشُبُّ له الهنا حِينَ دخوله المسجدَ من باب بنى شَيْبَه، ويتَعاطىٰ به أسباب التَّوبة، لينالَ من العَفْو من الله الكريم سَيْبَه؛ ولا يقتصر به عن التّطاول إلى الدعاء إلى الله تعالىٰ لتَعُمّه الرحمةُ بفضلِه وطَوْله، ويدخل به حرمًا آمِنًا يُتَخطّفُ الناسُ من حَوْله، ويَفْتح به إلى المقام بابًا من الأمْن إلىٰ يومِ القيامة مُقِيم، ويذْكُر بوقُوفه بعرفاتٍ وُقُوفَه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

فلْيباشرْ هذه الإمْرةَ المباركةَ مباشرةً يتيقظُ منها لهَجْرِ المنام، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ سهامه إليها فى المَسير والمُقام، ولْيُنفِقْ علىٰ الحاجّ من كُنوزِ مَعْدِلته، ولْيجعَلِ القيام بمصالحهم من أكبر هِمّته، ولْيَسْعَ بالصّفا فى حِراسَتِهم من أهلِ الفساد، ولْيعتَمِدْ صَوْنَهم من ذَوِى العِناد، ولْيعامِلْهم بالإرْفادِ والإرْفاق، ولْيَقْطَعْ من بينهم شُقّةَ الشِّقاق، ولْيجعَلْ تقوى الله إمامه فى القول والعمل.

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الوظائف الدينية بحلب :

توقيعٌ بقضاء القُضاة، كُتب به لقاضي القضاة جمال الدّين «إبراهيم بن أبي جَرادة» قاضي قضاة حلب المحروسة الشهير بـ«ابن العديم» من إنشاء ... ...(١) الحنفي بـ«المقرّ الكريم» وهو .

الحمدُ لله الذى رَفع مَراتبَ المناصب العَليّة وكساها من مَلابس أهلها حُلَل الجمال، وجمع شَملها فاقترنت بإلفها اقترانَ النَّيِّرين: شمسِ الضُّحىٰ وبَيْتِ الكمال، ورَفع عنها يَد المُتطاوِل والمُتناوِل فأصبح رَقْمُ طِرازِها المُوشَّىٰ مَتَسِجًا علىٰ أحسنِ مِنوال، وقطع الأطماعَ عن إدراك شأوِها فلا يَصلُ إليها إلّا كُلُّ فَحْلٍ من الرجال .

نحمدُه علىٰ نِعمه التى اعترف من اغترف من بَحرِها الوافِر بالخيرِ الكامل والفَضلِ المَديد، واقترف من اقتطف ثِمارَ جُودِها جميلَ النَّوالِ المُفيد، وجَزيلَ الإحسان العَديد؛ حمدًا يُوافِي نِعَمه ويُكافِي مَزيدَه، ويعُمُّ بالإنعام الشّامِلِ نائلَه ومُريدَه؛ ونَشكُره علىٰ مِننه التى يقصُر لِسانُ الإطناب عن حَصْرِها وتَعدادِها، وتَعجِزُ بَناتُ الفكْرِ عن إدراك وَصْفِها وتَرْدادِها، شُكرًا ينالُ به العَبْدُ رِضا المَعْبود، ويبلغ به من مقاصد الكَرَم والجُود غايةَ المقصود؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا ضِدّ، ولا والِدَ له ولا وَلَد ولا نِدّ، شهادةً تُبيِّضُ وَجْهَ قائِلها عند العَرْض، ويَنْطِقُ بها لِسانُ التوحيد يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرْض؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ به الحقَّ وأعْلنه، وبَهَرَ بحقائقِ مُعجزاته العُقولَ فاعترف

(١) بياض فى الأصل .

كلٌّ بصحّةِ ما عَرَّفه وبيّنه ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين نَصَرَ اللهُ بهم الإسلامَ وأبّدَ أحْكامه ، وأحْكَمَ بهم مَبانِىَ الإيمان المُنيرةَ وأيد إحْكامه ؛ صلاةً تتعطّرُ بنفحَات عَرْفِها أرْجاءُ المدارِس ، ويُنادى لسانُ فَضْلها لرَائد فرائد المَعَالى علىٰ طُول المَدَا . رِسْ[1] ؛ وسلّمَ ومجّدَ وكرّم ، وشرّف وبجّل وعظّم .

وبعـدُ : فإنَّ أوْلىٰ من لحَظتْه عَينُ العِنايَةِ والقَبُول ، وأجْدرَ من بَلَغ من مقاصد المناصب العلية غايةَ القَصْدِ والسُّول ، وأعزَّ مَن رَقِىَ ذُرا المَعَالى وٱرْتقىٰ ، وأجَلَّ مَن وُصف بالأوصاف الجميلةِ ونُعِتَ بالدِّيانة والتُّقىٰ - مَن سَارتْ سيرةُ فَضْله فى الآفاق ، ودَلَّ علىٰ صَفاءِ السريرة منـه حُسْنُ الأخلاق ؛ وٱشتهر بالعـلوم الجزيلَه ، والمناقِب الجَليله ، وعُرِف فى الإنصاف بالأوْصاف المحمودة والخِصالِ الجميـلَه ؛ وأظهر من العلوم الشريفة ، ماحَيَّرَ العقول ، وحقّق من المسائل اللّطيفَة ، ما جمع فيه بين المَنْقُول والمعقول ؛ ودقّق المباحِثَ حتّىٰ ٱعترف بفَضْله الخاصُّ والعام ، وفَرّق بين الحقيقة والمجازِ فلا يحتاجُ إلى ٱستعارة إذا تَشَبَّه الأخصام ؛ وحكَمَ بمـا أراهُ اللهُ فأحكامُه مَرْضيَّه ، وقضاياهُ فى الجملة قد أنْتجت فهى مُقَدَّمةٌ فى كلِّ قَضِيَّه ؛ وثابَرَ علىٰ إلقـاء الدُّروس فى وقْتِها وأوانِهـا ، وقرّر كلَّ مَسْألةٍ فى محلّها ومكانِها ؛ وأفاد طُلّاب العلْم الشريف من فوائده الجَمّـه ، وكَشَف لهم عن غَوامِض المباحث بجَـلَا عن القلوب كلَّ غُمّه ؛ وجَال فى ميادينِ الدُّروس مُخيِّرَ الأبطال ، وحاز قَصَبَ السَّبْقِ فى حَلْبـة اللّقـاءِ فَرَدَّ مُتأسِّفًا كلَّ بطّـال ؛ ونظر فى أُمور الأوقاف بمـا أراهُ اللهُ فأتْقن بحُسْن النظر وجْهَ ضَبْطها ، وأجْرىٰ أُمورَ الواقفينَ على القواعد المرْضِـيَّة فوافق المَشْروطَ فى شَرْطها ؛ وجَمع ما تفرّق من شَمْلها فأجْمَل وفَصَّل ، وحَفِظ أموالَهـا لحَصَّل

(١) مراده ارس من رسا يرسو .

وأصَّل ؛ فهو الحاكم المشهورُ بالعَدْل والمَعرِفه ، والناظرُ الذى حَمِدت الأُمُورُ تَصرُّفَه ، والإمامُ الذى ائتمَّ الأنامُ بأقوالِه وأفعاله ، والعالِمُ الذى يَحمَدُ الطالبُ إليه شَدَّ رِحالِه ، والمدرِّسُ الذى أفاد بفِقْهِه المُفيدَ النافع ، وترقَّى فى البِداية والنِّهاية فهو المختارُ فى المنافع ، وسلَكَ مِنهاجَ الهِدايَه ، فنال من العلومِ الغايَه ؛ فبدائعُ ألفاظِه لعقائد الدِّين منظومه ، وكنزُ عِرفانه عَزيزُ المَطْلَب ومحاسنُه المشتملةُ على الكمال مَعْلُومه .

ولما كان فلانٌ ـ أعزَّ الله تعالى أحكامَه ، وقرنَ بالتوفيق والسَّدادِ نَقْضَه وإبْرامَه ؛ هو المشارُ إليه بالأوصاف والنُّعوت ، والمعوَّلُ عليه إذا نَطَق بالفضائل والحاضِرونَ سُكُوت ؛ والمشكورُ أثرُ بَيْتِه المشهور ، والمنْشُورُ عَلَمُ عِلْمِه من السَّنَة والشُّهور ؛ ياله من بَيْتٍ لم يزلْ معمورًا بالتَّقوىٰ والصَّلاح ، مَحْمِيًّا بأسْلِحة أهْلِه : فمِن أحْكامِهم السُّيوفُ ومن أقلامهم الرِّماح ؛ فهو العديمُ المِثْل وبَيْتُه العديم ، وحَرَمُ فَضْلٍ يحُجُّ إليه الرَّاحلُ والمُقيم ؛ فاستحقَّ أنْ تقابَلَ مقاصِدُه بالإقبال ، ويُقابَل بما يُؤَمِّله مُقابَلَةَ مِثْلِه ولا كسائر الأمْثال .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لازالتْ مراسِمُه المُطاعة تُقِرُّ الحقَّ فى يَدِ مُسْتحِقِّه ، وتَرُدُّ الأمرَ إلىٰ وَلِيِّه ومالكِ رِقِّه ؛ وتَسُوق هَدْىَ الإحْسانِ إلىٰ مَحِلِّه ، وتَضعُ الاسْتِحقاقَ فى يَدِ مُسْتَحِقِّه والحقُّ وَضْعُ الشَّىْءِ فى مَحَلِّه ـ أن يستقِرَّ ... ... بحكم ظُهورِ الحقِّ بيده المباركه ، وخَفاءِ الباطِلِ الذى ليس له فى الحقِّ مُشارَكه ؛ استقرارًا مباركًا مَيْمُونًا ، بالخيرِ والسَّعد مَقْرونا ؛ لأنَّه الأحقُّ بأمرِ وظائفه ، والطائف حول حَرَمِها الممنوع طائفه ، وأَوْلىٰ من عُقِلَتْ عليه عَقيلَتُه ، ورُدَّتْ إليه فَرِيدَتُه ؛ وباشر بنفسه الكريمةِ ما عَهِد إليه سَلَفُه ، وانفرد به فلا ينالُه ـ إن شاء الله ـ إلَّا خَلَفُه ؛

طالما ألِفَتْ منه الأوقافُ مَزَّ الشّفقة والخَيْر، وحَفِظ جِهاتِها المَحْمِيَّةَ عن تطاوُلِ يدِ الغَيْر، ونَعِمَ بحُسْن نَظَرِه من المدارس كلُّ دارِس، وفازتْ منه الدُّروسُ بالعالِمِ العارِفِ والبَطَل المُمارِس .

فليباشِرْ ذلك علىٰ ما تقدّم له من حُسْن المباشره ، وليَجْتَهِدْ - علىٰ عوائده - فى تحصيل رَيْعه مُثابِرًا على الأُجُور أشدَّ مُثابَره ؛ ولْيَصْرِفْ أموال الأوقاف فى مَصارِفها، بعد العِمارة والتَّثْمير المَبْدَأيْن فى شَرْط واقِفها ؛ ولْيَسْوِ - علىٰ مُقتضىٰ مَعْدِلته - بين القَوِىّ والضعيف ، والشابِّ الصَّغير والشَّيخ النَّحِيف ، على قَدْر تفاوُتِهم فى العِلْم الشريف ؛ ولْيُطْلِقْ لسانه فى إلقاء الدُّروس علىٰ عادته ، ولْيُمَهِّدْ للمشتغلين طَريقَ الفَهْم لِينالوا القَصْدَ من إفادته ؛ وهو بحمد الله تعالىٰ أوْلىٰ من أدَّى الأُمور علىٰ الوَجْه المستقيم ، ووَفَّى المناصِبَ حَقَّها فإنَّ الوفاءَ جَدِيرٌ بـ«إبراهيم»(١) .

والوصايا كثيرةٌ وإليه مَرْجوعُها ، ومن بِحارِ عِلْمه ودِينه المتين ينْبُوعُها ؛ والله تعالىٰ يُؤَيِّد به المناصِب ، ويرفعُ بعلُوِّ رُتبته المَراتِب .

✣

نسخةُ تَوْقيعٍ بخَطابَة جامع ، كُتب به لقاضى القُضاة «كمال الدين عمر» ابن قاضى القضاة جمال الدين إبراهيم بن أبى جرادة الحَنَفِىّ ، الشهير بابن العديم بـ«المَقَرّ الشريف» وهى :

رُسم بالأمر الشريف - لا زالتْ عِنايَتُه تُرَقِّى فى مَنازل المَجْد من تَأثَّل بفَضْلِه بَهْجةً وكمالا ، وتُذَلِّل جِيادَها لفُرسانِ الفضائل فَتُجِيدُ لهم فى مَيْدانِ البلاغة مجالا ،

---

(١) يشير الى قوله تعالى : (وإبراهيم الذى وفى) .

وتُسلِّم رايتها [إلى من صدق بارق سعده ، ووُهب من العلم](١) ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ـ أن يستقرّ... ... لأنّه الإمامُ الذى [لو] تقدّم عصره لكان أحد أئمة الاجتهاد، والعارفُ الذى بلغ بولايته مُريدُ الفضل غايةَ المُراد، والعالِمُ الذى وجدتْ أخبارُ علومه نسبة يطابقها فى الخارج صالحُ العمل ، واتبع سنن الكتاب والسُّنَّة فلم يتخلّل طريقته المُثلى خَلَل ؛ والمُحقِّقُ الذى وجد إلى كُنْه الحقيقة أكمل مجاز ، والمُفَوَّهُ الذى بلغ من البلاغة فى كلام البشر حدَّ الإعجاز ؛ إنْ خطب شنّف بدُرر مواعظه الأسماع ، وشرّف بغُرر فرائده الأسجاع ؛ واهتزّتْ أعواد المنابر طربًا لكَلِمه الطّيّب ، وروّى أُوامَ(٢) القلوب سحُّ فضله الصَّيّب ؛ وإن قرأ فى محرابه أقرّ بفضله الجمعُ الجامع ، واستقلّ «ابن كثير» حين وجد «الكسائى» عاريًا مما لديه وفضلُه الجمّ أكمل «نافع» :

خطيبٌ إذا الصّادِى تَصدَّى لفضلِه : * ليَرْوَى، فأنواءُ العُلومِ تُغيثُه !

وإنْ يَرْوِ للجُلّاسِ أخبارَ أحمدٍ، * فخيرُ جليسٍ لا يُمَلُّ حديثُه !

وهو الكامل الذى أدرك درجاتِ الكمال فى البداية فأمن فى النّهاية وهو قاصٍ من النقص، وسارت عِيسُ الطُّلّاب إلى حضرته الكريمة واخدةً ولكن بالنّص ؛ والصّاحبُ الذى استصحب يَسار العُفاة باليمين، وأزال ظنّ قاصده فى بِرّه الشامل باليقين؛ كم أطلق بأقلامه المُفيدة مكرمةً بصِلةِ الأرزاق، ونسخ بمُحقّق فضلِه رقاعَ الأُول بالعطاءِ على الإطلاق ؛ ولو نظر المَلَكانِ : هارُوتُ ومارُوتُ ما ملكه من

(١) الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) الأوام بالضم العطش .

كتابته السَّاحِرة لأقرّا أنّه السِّحْر الحلال ، ولو قابله «ابْن هلال» لانْخسف بدْر فضْله عند الكمال :

فَفِى كَفِّـه الأقلامُ تَهْزأُ بالقَنـا ، * وتَخْشَى سِطَاهَا الأُسْدُ فى غابِ غابِها!
يَرُوعُ سُيوفَ الهِنْـدُوَرِىْ(١) يَراعه، * وقَدْ طارَ مِن خَوْفٍ حَديدُ ذُبابِها!

فلْيباشِرْ هذه الخَطابةَ مُباشرةً تَرشُف منها كُئُوسَ كَلِمه الأسْماع ، ولْيكْشِفْ لها عن وُجوه فضائله القِناع ، ولْيَنْـثُرْ عليهم من دُرَرِ بلاغته ما تَلْتقطُه أفواهُ المسامع ، ولْيَنْشُرْ من طَىِّ لسانه عَلَمَ عِلْمه الذى لا يقاس عليـه غيره أبى الله والفَارقُ الجامع ؛ ولْيُطرِبْ بمواصيل أسْجاعه القاطعة بفضَائله المكمَّلة، ولْيُظهِرْ ما جمعه من محاسِنه التى هى الجَمْع الذى لا نَظيرَ له ، ولْيُنفِقْ على الجَمْع يوم الجُمعة ممـا آتاه الله تعالى من كُنوز الفضائل ، ولْيبلِّغْهم من بلاغته التى أخملتْ ذِكْرَ «قُسٍّ» و «سَحْبانِ وائِل» ، وأنْت - أسْبغ الله تعالى ظِلالَك - مَعدِنُ الفضائل فأنَّى تُهدى إليك الوصايا؟ ، والمُتَّصِفُ بصفات الكمال فكيْف تُعرَضُ عليك المزايا؟ ، ولكنَّ الوصيةَ بتَقْوى الله تعـالى من شعائر الإسلام ، والله تعالى يُديمُك غُرَّةً فى جَبْهة الأيّام .

✣

وهـذه نسخةُ تَوْقيعٍ بتَدْريس بالجـامع المذكور ، كُتِب به للقاضى علاء الدين «علىّ الصَّرْخَدِىّ» الشافعىّ ، نائب الحكم العزيز بحَلَب بـ«المقرِّ العالى» وهى :

رُسِم بالأمر - لا زالتْ صَدَقاتُه تَمنحُ دروسَ العِلْم الشريف بعَلِىِّ العلوم، وتَنْدُب لهـا من ذَوى الاجتهاد من سايَرَ بهِمَمه البَرْقَ وسائرَ النُّجوم، وتُقرِّرُ للطَّلبـة من

(١) فى الأصل «دورىّ» بتشديد الياء وهو تحريف .

أُولِى العناية من حَقَّق الفضائِلَ وٱطَّلع علىٰ سِرِّها المكتوم، وتُدِيرُ عليهم من مَشْرَب فوائده مايُخالُ أنّه الرَّحيقُ المختُوم ـ أن يستقرّ فلانٌ ... ... آستقرارًا تَقَرُّ به أعيُنُ الطُّلَّاب، وتُلمَحُ من صَوْبِ فَضْله عَيْنُ الصَّوَاب؛ ويُشَيَّدُ به دَارِسُ الدروس، ويَطْلُعُ به فى سماء الفضائل أنْوَرُ شُموس؛ وتُنْشَر به أعلامُ العلوم من طَىِّ الألْسِنَة، ويُذْهِبُ من كلِّ الطَّلَبَة فى تحصيل العِلْم الشريف وَسَنَه؛ لأنّه الحَبْرُ الذى شَهِدت بِفَضْله الأسفار، ورَحَلَتْ إلىٰ فوائده الجَمَّة السُّفَّار؛ والبَحْرُ الذى جَرتْ سُفُنُ الأذهان به فلم تُدْرِكْ غاية قَرارِه، وعَجِزت الأمثالُ عن خَوْض تَيَّاره؛ والعالِمُ الذى أقرَّ بعلْمه الأعلام، وشَهِدَت بإحكامِ أحْكامِه الأحكام؛ مابَرَزَ فى مَوْطِنِ بَحْث إلّا وبَرَّز على الأقْران، ولا جاراه مُجتهِدٌ إلّا وكانا كفَرَسَىْ رِهَان، ولا نَطق بمَنْطِقٍ إلّا وأنتجتْ مُقَـدِّماتُ هِمَمِه العليَّـة وآجتهاده عَلىٰ فَضْله أكمَلَ بُرهان، ولا أجْرىٰ جِيادَ عُلُومه إلىٰ غايةٍ إلّا مُطلقةَ العِنان، ولا رآه من أخبر عن فَضْـله إلّا تمثّل له : ليس الخَبَرُ كالعِيان؛ إنْ تصدّر للفوائد آلتقطتِ الأسماعُ دُرَّ عِلْمِـه النفيس، وإنْ دَرَّس تَخالُ الطَّلَبةُ أنّه «آبنُ إدْرِيس»؛ فهو طَوْدُ فَضْلٍ لايُسامىٰ عُلوًّا ورِفْعه، ولايَنْوِى مُناوأته مُناوِئٌ ولو كان «آبنَ رِفْعه» :

إمامٌ غدا للسَّالكينَ مُسَلِّكًا، * عَليمٌ، وكَمْ أوْلَى الفَضائِلَ مَنْ وَلِى!
عَلَا فأسال البَحْرَ من فَيْضِ عِلْمِه! * وذلك سَيْلٌ جاء بالفَضْل من عَلِى!

فَلْيباشِرْ هـذا التّدريسَ المبـارَكَ مباشرةً يُثْبِتُ بها فوائِدَه، ويَنْـثُرُ بها فرائِدَه؛ ويُطرِبُ الطُّلَّابَ بطَرِيفِ العلْمِ وتالِدِه، ويَجمَعُ لهم من صِلَة الفَضْل وعائِده؛ ولْيلازِمِ المباشرةَ ملازمةً لايَنْفكُّ عنها أيّامَ الدُّروس، ولْيُنِرِ القلوبَ بمَصابيح الكِتَاب والسُّنة ويَسُرّ النفوس .

وأنت ـ أمتع الله بفوائدك ـ من نُورِك الوصايا تُقتبس، وكم آنس الطَّالبُ نارَ فَضلِها فأتَى منها بأنورِ قبَس؛ والله تعالىٰ يُبقيك للعلوم كنزًا لاتفنىٰ مَواهبُه، ويُديمك للطُّلَّاب بَحرًا لا تنقضِى عَجائبُه .

✦✦✦

وهذه نسخةُ تَوْقيع بتَدْريس بالجامع المذكور لحَنفىّ، كُتب به للشَّيخ شمس الدين «محمد القرمىّ» الحنفىّ، بـ«الجناب العالى»، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ عِنايتُه الكريمةُ تُطلِعُ شمسَ الدِّين للهداية فى أُفق المدارس، وتُشيِّد بالعلماء الأعْلام من رُبوعها كلَّ دارس، وتمنحُ الفُقهاءَ بمَن إذا تصدَّىٰ للإفادة جادتْ نَفسُه بالدُّرر النَّفائس، وتَندُب لها من أولِى البلاغة مَن إذا ألَّف فَضْلًا وُجدتْ غُصون أقلامه فى رَوْضاتِ الطُّروس أحْسَنَ موائس ـ أن يستقرَّ فلانٌ : آستقرارًا تُجمَّل به الدُّروسُ بالفوائد، وتمنحُ الطَّلبة منها بالصِّلة والعائد، ويمدُّ لهم من مَوادِّ العلوم أشرفَ مَوائد، ويُورِدُهم من مَناهِلها أعذبَ مَوارِد؛ لأنَّه شمسُ العلومِ ومِصْباحُها، وقمرُ لَيْلِ المُشْكلاتِ وصَباحُها؛ وساعدُ الفَتاوىٰ الطائرةِ بفضائله فى الآفاق وجَناحُها، ورُوحُ كُئُوس العلوم ورَاحُها؛ وطَليعةُ الحقائق وعُنوانُها، وعَيْنُ الدقائق وإنسانُها؛ والإمامُ الذى آئتمَّ به الطُّلَّابُ فاستحقَّ الإمامَه، والعالِمُ الذى آجتهد علىٰ فَضْل العُلوم فآستوجب أنْ يُنعَتَ بالعَلَّامه؛ والفاضِلُ الذى ضُبِطتْ أقواله : للآطِّلاع علىٰ سِرِّها المكْتُوم، فآختصَّ فِعْلُ عِلْمه المُتعدِّى باللُّزوم لآتِّصافه بالعُموم؛ كَمْ آلتقطتْ من دُروسه الجَواهر، وتمثلَ لأبكار فوائده : كَمْ تركَ الأوَّلُ للآخر؛ قابلتْه الأسْفارُ عن وجُوه فوائدها بالإسْفار، وأظهرتْ لذُكاء ذَكائه ما ضمَّنته أحْشاؤُها من الإضمار؛ فهو المُختارُ لهذا التَّدريس : إذْ دُررُ فوائده منْظُومه، والمُجتبىٰ للإفَادة بسُلُوكه طُرقَ الهداية إلىٰ دقائقها المكْتُومه؛ وكَم آستنارتِ الطَّلَبة

من سَمِرِ فَضْله حتّىٰ كاد أنْ يكون ثالثَ القمَرَيْن، وجمع فى صَـدْرِه بَحْرَى المنقولِ والمَعْقول حتّىٰ قيل : هذا "مَجمع البَحْرَيْن" :

هُو البَحْرُ، إلّا أنّ فيه عَجائِبًـا، * وَوافِرَ فَضْلٍ ليس يُوجَدُ فى البَحْرِ!
بلاغتُه السِّـحْرُ الحَلالُ، وإنّما * بَديـعُ معانيها يَجِلُّ عن السِّـحْرِ!

فلْيباشِرْ هذا التَّدْرِيسَ ناثِرًا دُرَرَ فَرائده، ناشِرًا غُرَرَ فوائده، جائدًا بجِياد فَضائِلِه السّابقة إلى الغايات، عائدًا بصِلات حقائِقِه لتَكْمُلَ للطَّلَبة به المَسَرّات؛ ولْيلازِمْ أيّامَ الدُّروس ما أُسْدِىَ إليه من هـذه الوظيفه، ولْيَرْتَقِ من دَرَجِ التَّقوىٰ لغُرَفِ المعارف الشَّرِيفه .

✣

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بإمامةٍ وتَصْـديرٍ بجامع منكلى بغا الشَّمْسى بحَلَب ، كُتب به للشيخ شمس الدين «محمد الإمام»، بـ«الجناب العالى»، وهى :

رُسم بالأمرِ ـ لا زالتْ صَدَقاتُه العميمةُ تُطلِعُ شَمْسَ الدِّينِ فى أُفُقِ المعالِى، وتَرفَعُ من أوليائه خِدْمةَ مَن جِيدُه بالفَضْلِ حَالِى، وتَمنحُ بِرَّها مَن أعربَتْ عن لحَنْه الطَّيِّب وتَشَنَّفتْ من فيه باللآلِى، وتَسْفَحُ غَيْثَ جُودِها علىٰ من أجمع علىٰ طِيبِ مُسامَرتِه ورَفْعِ أدْعيتِه الأسْماعُ واللَّيالى ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ ضياءَ شَمْسه، وبَنىٰ له رَبْعَ السَّـعد من جُودِه علىٰ أُسِّـه ـ ... لأنّه الإمامُ الذى شهدتْ بحُسْنِ قِراءَته المَحاريب، والآتِى من فَضْلِ فضائله بالأغاريب، والفاضِلُ الذى سلك طُرقَ الفَضائل أحْسن سُلوك، وشَهِد بسَبْقِ جِياد جُوده فى حَلْبة الاختبار كلٌّ حتّى المُلوك؛ والكامِلُ الذى كَمُلتْ أوصافُه المحمودةُ فأمِن النَّقائِص، واخْتصَّ بجميل الشِّيَم وحُسْنِ الخصائص؛ ما أمَّ إلّا وشَهِد بفَضْلِه كلُّ مأموم، وأقرّوا أنّ أسماعَهم ارْتَشفتْ رَحيقَ فضائله من

كأسِها المختوم ، وما سامَر الخواصّ إلّا وشهِد العوامّ بحُسْن صفاته ، ولا حدّث إلّا وكانت الملوكُ من رُواته .

فليباشِرْ هذه الوظائفَ المباركةَ مباشرةً تقرُّ بها النّواظر ، وتجتمعُ الألسنةُ على أنه أكرمُ إنسان وخيْر ناظر ، وليتصدّرْ لإلقاء الفوائد ، وليُكسِبِ الأسماعَ من علمه بالطّريف والتّالد ، وليتناولْ معلومَه أوان الوُجود والاستحقاق ، هنيئاً ميسّراً من غير تقييد على الإطلاق ، وليتّقِ اللهَ فيما أُسْدِىَ إليه من ذلك ، وليسْلُكْ من سَنن التّقوى ــ بقدَم الصّدْق ــ أحسنَ المسالك .

* * *

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الأقلام الديوانية بحلَب وما معها :

توقيعٌ بكتابة الدّست بحلَب ، كُتب به لـ«بهاء الدين بن الفرفور» ونظر بيْت المال بحلَب ، بـ«الجناب العالى» ، وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زال ينْظِم عقودَ الإحسان فى أجْيادِ أوليائه ، ويُجزِلُ لهم بوافر نظَره وافىَ عطائه ، ويُجرى بهاءَ الدّينِ على أحْسنِ نظام فيُنجِزُ له عِدةَ وفائه ــ أنْ يستقرّ ... ... آستقراراً يبلُغ به وُجوه الآمال ، ويكْسُو الدّواوينَ ملابِسَ البهاءِ والكمال ، ويَزيدُها رِفعةً بما يفضلُه من ذلك الجمال ؛ لأنّه الفاضلُ الذى إذا قَصد المَعانيَ أصاب ، وإذا سُئِل عن كلّ معنًى لطيف أجاد وأجاب ؛ والفصيحُ الذى إذا تكلّم أجْزل وأوْجز ، وأسْكتَ كلّ ذى لَسَنٍ بفصاحته وأعْجز ؛ والبليغُ الذى أبْدع فى مكاتَباته بمنْثوره ومنْظومه ، واللّبيبُ الذى أطلَع من أزْهار كَلِمه المسموعةِ فى رياض الطُّروس مايُخجِلُ الرّوضَ إذا آفتخرتْ بمشْمُومه ؛ والكاتبُ الذى قطعتْ بمعرفتِه الأقلام ، والحاسبُ الذى عُقِدت على خِبرته خناصرُ الأنام ؛ والأديبُ الذى

جمع بين قلم الإنشاء الشّريف(؟)، وحاز مافى ذلك من تالدٍ وطريف؛ فلله درّه من كاتبٍ زيّن الطّروس بحُسنِ كتابته، وجمّل الألفاظ والمعانىَ بجميل درايته وفصاحته.

فليباشر ما عُدِق به من ذلك مُباشرةً مقرونةً بالسّداد، مشكورةَ المساعى والاعتماد؛ مُظهرًا براعة يراعه، باسطًا يدَ إبداعه الجميلِ وإبداعه؛ مُفوِّفًا حواشىَ القِصص بتوقيعاته، مُوشّيًا بُرودَ الطُّروسِ بترصيعاته وتوشيعاته؛ ناظرًا على اعتماد مصالح بيْت المال المعمور، وتحصيل حواصله على الوجْه المشهور والطّريق المشكُور؛ عاملًا بتقوى الله عزّ وجلّ فى ضبْط مصالح ديوان الجُيوش المنْصوره، سالكًا من حُسْن الاعتماد طُرقًا على السّداد والتّوفيق مقْصُوره؛ والوصايا كثيرةٌ وتقوى الله تعالىٰ عِمادُها، فليجعلها عُمْدَته فيما يتمُّ به للنفس المطمئنة مُرادُها؛ وليتناوَل معْلومَه المستقرّ لذلك أوانَ وجُوبِه، والله تعالىٰ يبلّغه غاية قصْده ومطلُوبه.

⁂

توقيعٌ بصحابة ديوان الأموال بحلَب، من إنشاء ابن الشّهاب محمود، كُتب به للقاضى شمس الدّين «محمد بن محمد»، أحدِ كُتّاب الدَّست بحلَب، بـ«المجلس العالى»، وهو:

رُسم بالأمر ـ لازالتْ صَدقاتُه العَميمةُ تَسُرُّ نفوسا، وتُطْلِعُ فى هالاتِ الوظائف السَّنيَّة عِوضَ الشَّمْس شُموسا؛ وتَسْقِى غرْسَ نَعْمائها الهِبَاتِ الهَنيَّةَ فتُزْهِى أغْصانًا يانِعةً وغُروسا ـ أنْ يستقرّ ....: لأنّه الأوْحدُ الكامل، والرئيسُ الفاضل؛ ولأنّه حاز قصَب السَّبْق فى المُباشرات، والمَناصب الجَليلة والمراتب السَّنيَّات؛ طالما بَذَل جُهدَه فى خِدْمة الدُّوَل، وسلك بجميل مُباشرته طَرِيقَ السَّلَف وسَبِيلَ الأُوَل؛ فأدرك بحُسْن سيرَته ويُمْنِ طَرِيقَته نِهايةَ السُّؤْل وغاية الأمَل، وأتَى الأُمور علىٰ

قَدَرٍ ولا يقال : علىٰ عَجَل ؛ ولأنّه الأمينُ فى صَنْعة الإنشاء ، والبارعُ فى فنّه فُنونَ الأدباء ؛ إنْ رقَم الطُّروسَ طرّز ، وإنْ بارز الأقران فى مَواطن الافتخار برّز ؛ وإن بَسط الجرائد ، تَغارُ من حُسْنِهنّ الخرائد ؛ طالما نَطق بالحِكَم ، واشتهر بين أصحابه مِثل اشتهار النّار علىٰ علَم ؛ نَظم المحاسنَ فى نثره البَديع ، وجَمع بين الأضْداد فيما يُبْديه من الإنشاء ويُحَلّيه من التّصْريع ؛ قَدُمت هِجْرتُه فى الخِدْمة الشريفه ، واقتطف من زَهَر الصَّدَقات الشريفة أحسنَ مَنْصب وأجْمَلَ وَظيفه ؛ وتَحلّىٰ جِيدُه بالقلائد ، وحَصَّل بسَعْيه مجموعَ الفرائد ، فعادتْ عليه الصَّدَقاتُ الشريفةُ بأجْمل العوائد ؛ قد استحقَّ التقديم ، واستوجَبَ من الصَّدَقات العميمةِ نِهايةَ التَّكريم .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنةَ الآثار ، جميلةَ الإيراد والإصْدار ؛ ناظمًا بقلمه الحِسابَ علىٰ أنواعه ، مُحكمًا له علىٰ سداد أوْضاعه ؛ وليُطْلِعْ شمسَه فى سماء هذه الوظيفه ، وليَجْنِ من رَوْضها الأريضِ كلَّ يانِعةٍ لَطيفَه ؛ وليَعلمْ أنّ هذه بَوادرُ خيْرٍ سَرتْ إليه ، وسَوابِغُ نِعَمٍ خُلِعتْ عليه ؛ وأنَّ الصدقاتِ العميمةَ لا بُدَّ أنْ تُولِيَه بعد ذلك بِرًّا ، وتَترادَفَ عليه تَتْرىٰ ، وتُعْلى له بين رِفَاقه المرفقين قَدْرا ؛ ومِثْلُه لا يُنَبَّهُ علىٰ وَصيّة ، لا دَانِيةٍ ولا قَصِيَّه ؛ لكن التقوىٰ لا بُدَّ منها ، ولا يجوز أنْ يُغْفل عنها ؛ فليَجْعلْها اعتمادَه فى كلِّ الأُمور ، وليَتناوَلْ معلومَه المقرَّر له على الوظيفة المذكورة فى غُرَر الشهور ؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له بمضاعفة الصدقات عليه أوقاتَ السُّرور ، ويَقيه بلُطْفه كلَّ محذور .

✣

توقيع بنظر بهسْنَىٰ ، من عمل حَلَب ، كُتب به لفتح الدين «صَدَقة بن زين الدين ، عبد الرحيم المصرىّ» ، بـ«المجلس السامى» ، وهو :

رُسم بالأمر – لا زالتْ صدَقاتُه العميمةُ تفتح لأولياء خِدْمته أبوابَ الخيْرات ، ولا بَرِحتْ تُهْدى إليهم أنواعَ المَسرَّات – أنْ يستقرّ... ... في وظيفة النظر بمدينة بَهَسْنىٰ المحروسة عِوضًا عمَّن بها ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلىٰ آخر وقت ، على العادة فى ذلك والقاعدة ، آستقرارًا يَسُرُّ خاطِرَه ، ويُقِرُّ ناظِرَه ؛ لأنه الماهرُ فى صناعته ، والرَّابحُ فى مَتاجِرِ بضاعته .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنه ، لتُصْبِح الألْسنة بشُكْرِها مُعْلِنه ؛ ولْيُصرِّف قَلَمه فيما يعود نَفْعُه عليه ، ولْيجتهِدْ فيما يستجلِب الأثْنية إليه ؛ وليقْبِضْ معلومه أوانَ وُجوبِه هَنِيًّا ، ولْيتناوَلْه بيَدِ آستحقاقه مَرِيًّا ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو – بحمد الله تعالىٰ – غيرُ محتاجٍ إليها ، لأنَّه الفاعلُ لها والدَّالُّ عليها ؛ وتقوى الله تعالىٰ عِمادُها ، وبه قِوامُها وسِنادُها ؛ فلْيَتَمسَّكْ بسَبَبِها فى الحركات والسَّكَنات ، واللهُ تعالىٰ يُهيِّئُ له أسْباب المَسرَّات .

✣

توقيع بكتابة الإنشاء ونظر الجيش بدَبْرَكى ، كُتب به للقاضى شهاب الدين «أحمد آبن أبى الطيِّب العُمَرىّ العُثمانى» ، بـ«الجناب الكريم» ، وهو :

رُسم بالأمر – لازال يجمِّلُ الثغورَ بمَن تَزْهو برَحيق كَلِمه الطيب [المناصب] ، ويُكمِّلُ محاسِنَها بمَن لم تزَلِ الصُّحفُ تقودُ من جيادِ فَضْلِه أجملَ جنائِب ، وحَباها بشِهابٍ يُهتدىٰ إلى المقاصِد بنَجْمِ رَأْيه الثَّاقِب ؛ وسرَّها بكلِّ نَدْبٍ لم تزلْ كُتبه تَرُدُّ من الدُّعَّار الكتائب – أن يستقرّ... ... فى وظيفتى كتابة الإنشاءِ الشريف والجيْش المنصور بدَوْرَكِي[1] المحروسة ، عوضًا عن فلان ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخرَ

(١) لغة فى دبركى كما سلف قريبا وتقدّم فى ج ٤ ص ١٣٢ من هذا المطبوع .

وقتٍ . لأنه من بَيْتٍ رُفع علَمُ قَدْره على السحائب ، وآنتصبَتْ رايَةُ آرائِهِم بالتمييز فى مَواكِبِ العزة عن المواكب ، وأُضيفَ إلى مجْدِهم شرفُ الكمال فانجَرَّ بالإضافة ذَيْلُ مَجْدِهم على الكواكب ، وجَزم أُولُو الفضل بنسبتهم إلى المعالى فحازُوا قَصبها آستحقاقًا وما زاحَمُوا عليها بالمَناكب ، وأُسِّسَ أَصْلُه علىٰ عماد شرف «الفاروق» و«ذى النُّورَيْن» فتفرّع علىٰ أكمَلِ تناسُل بتناسب .

النيابة الثالثة

(مما يكتب من التواقيع بالولايات عن نوّاب السلطنة بها ـ نيابةُ طرابُلُس)

وهى علىٰ ماتقدّم فى دمَشْق : من تقسيمها إلىٰ تواقيع أرباب السيوف، وتواقيع وظائف أرْباب الأقلام الدينيـة ، وتواقيع أرْباب الوظائف الديوانية ، وأرباب الوظائف بمشيخة الأماكن وغيرهم ،وتقسيم ذلك إلىٰ مايفتتح بـ«الحمدلله» ،ومايفتتح بـ«أما بعد حمد الله» ، وما يفتتح بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بشدّ الدواوين بطرابُلُس ، كُتب به لصلاح الدّين «صلاح الحافظى» ، بـ«الجناب الكريم» ، وهى :

الحمدُلله الذى أيّدَ هذه الدولةَ وسدّدها بأنواع الصَّلاح ، وعَمَر العالَمَ بعدْلِ سُلطانها وجعل أيَّامَه مقرونةً بالنَّجاح ، وأقام لتَدْبير المملكة [كل] كُفْء كافٍ مشهور باليُمْن والفَــلاح .

نحمدُه علىٰ نِعَمه الغامرةِ فى المَساء والصَّباح ، ونشكُره علىٰ آلائه فى كلِّ غُدُوٍّ و رواح ، ونشـهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالصةً ضَوْئيَّةً كالمِصْـباح ،

وأنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من اصطفاه وأرسله بالدين الحنيفىّ فبشر وأنذر وحلّل وحرّم ... ...(١) وأباح ، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمةً مستمرةً ما حيعل الدّاعى إلى الفلاح .

وبعدُ، فإنّ أولى الأولياء بمُضاعفة الإحسان، وأن يعلى له فى المكان والإمكان — مَن عُرِف بأجلّ المباشرات فى الفُتوحات ، واشتهر فيها بالكفاية والصّيانة وجميل التّدبير وحُسْن الصّفات .

ولمّا كان فلانٌ هو المُنفرِدَ بهذه الصّفات الحسنه، واتّفقت على نُعوته الجميلة الألسنه ، والوَحيدَ بهذه السّجايا ، الفَريدَ بشَرف المَزايا ، عُقِدت الخناصرُ عليه ، واقتضت الآراء أنْ يسندَ تَدبيرُ المملكة إليه : فإنّها لم تجدْ لها كُفْأً غيرَه ، ولا من يجمع شَمْلَ شَتاتِ أقوالها ولم يفَرِّطْ مثقالَ ذرّه .

فلذلك رُسِم بالأمر — لازال ينْدُب لتَدْبير الممالك كلّ كُفْءٍ كاف، ويُورِدُ أولياءه من موارِد إحْسانه مَوْرداً عَذْباً صاف — أنْ يفوَّضَ إلى الجناب الكريم — أدام اللهُ عُلوَّ قدرِه ، وأيده بالمَعُونة فى أمْره — شدُّ الدّواوينِ المعمورة بالمملكة الطّرابُلُسيَّة، بالمعلوم المستقرّ، الشاهد به الديوانُ المعمور إلى آخر وقت، على عادة من تقدّمه .

✣

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بالاستمرار فى شدّ الدّواوين :

الحمدُ لله الذى قَرن الشّدّة بالفَرَج وجَبرَ بعد الانكسار ، وامتحن عِبادَه بأنواعٍ من المِحَنِ ليعلمَ الصادقين فى الاصْطِبار ، وأطلع فى أُفُق العُلا سَعْدَ السُّعودِ ساطعاً

(١) بياض بالأصل ولعله : وحظر وأباح، الخ .

بالنُّور بعد ما غَار، وجمع لمن آنقطع به حَبْلُ الرَّجاءِ من الخَلْق فتوكَّل عليه بين نَيْل المَطْلوب وتَمْحِيص الأَوْزار .

نحمُده وفى محامِده تَطِيبُ الآثار، ونَشكُره علىٰ ما أسْبل من النِّعم الغِزَار؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ كشف الغَمّ بعــد ما غَمَّ القلوبَ وغَطَّىٰ على الأبصار، وفَرَّج الهَمّ، وقد كان آدْلَهَمّ، وأَظْلمتْ منه النَّواحِى والأقْطار؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه المصطفىٰ المُختار، سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ فى الدُّنيـا وسيدُهم فى دار القَرار، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الأطهار، وصَحَابَتِه الأخيار، ما أظلم لَيلٌ وأضاءَ نهار .

وبعدُ، فإنَّ الله تعـالى لَطَف بهذه الدَّولة المعظَّمة فى المُقام والسَّيْر، فما مضىٰ لأحدٍ معها يومُ سُرورٍ إلَّا والذى من بعــده خَيْر؛ ونَصب خِيامَ عَدْلِهـا على الخَلق وشرع أطنابها، ورَغَّب العِبادَ فى فَضْلِها العميم وفَتح لهم بابَها؛ وجعلها كاشِــفَةً للكُروب المُوجِبَــة للحَزَن والضِّيق، رَاشِــفةً من خزائن مُلْكه ومعادن نَصْره كأْسَ رَحِيق؛ تصِــلُ بقُوّته وتَقْطع، وتُفرِّق بإرادته وتَجْمع؛ ثم جعل المــالَ نِظامَ مُلْكها القويم، وقِوامَ سِلْكها النَّظِيم؛ به تَمْضى أوامِرُه ونَواهِيــه، وتجرى على السَّداد بمـا يُحبُّه ويُرضيه؛ فتعيَّن إعدادُ مَن يُقيم بعزمه عَمَده، ويُقْعِد من أخذ منه بغير آستحقاق ممن أقعــد الدِّينُ زنده؛ وقدَّر الله تعالىٰ فى هــذا الوقت ما قضاه، ونَفَّذ حُكْمَه فيمن خرج عن طاعتــه وأمضاه؛ فلم تَبْقَ مملكةٌ إلَّا ومَسَّها وأهْلَها الإضْرار، ولا بُقْعــةٌ إلَّا ولَحِق أهْلَها بأْسُ أولئك الفُجَّار؛ فأدرك اللُّطفُ الإلٰهىُّ ممـالكَ الإسلام، وحلَّ الرِّكاب الشريف بأرْض الشام، فكان بَرْدًا وسلام، ونجا المخلصُ وهلك النا كِثُ النَّاكِلُ بقدوم سلطان الإسلام؛ خلَّد الله ملكه [ليقذف] بالحقِّ على الباطل، وأيد اللهُ دَوْلَتَه الشريفَةَ بعَوْنه المُتواصل .

وكان فلانٌ له مباشراتٌ عديدَه ، وتأثيراتٌ حميدَه ؛ وآخر ما كان في وظيفة شدّ الدواوين بطرابلس : فباشرها مباشرةً جميلةَ الأثر، مشكورةَ السِّيَر عند من وَرَد وصَدَر ، ودبَّر مهماتٍ يَعجِز عن حصرها أولُو العقول والفِكَر ؛ وحصَّل للديوان المعمور أموالًا كالطُّوفان ولكن بلا غَرَق ، واَستُعجِب منها كيف حَصَرتْها الأقلامُ أو وَسِعَها الوَرَق ! ؟ ؛ والذى كان بوظيفة الشَّدّ الآن زاهدٌ عنها ، ليس له رغبةٌ فيها ولا فى شيْء منها .

فتعين إعادة الجناب الفلانىّ إليها . ورسم بالأمر - لا زالتْ أيّام دَولتِه الشريفة تُصْلح الشان ، وتُعيد الخير إلى ما كان - أنْ يستقرّ ... .

فليَعُدْ إليها عَوْد الحُسام إلى غِمْده ، والماءِ إلى مَنْهَل وِرْده ؛ وليُباشرْها بمباشرته المعروفه ، وعزائمه المألوفه ، وهِمَمه الموْصوفه ، مُسْترفعًا المتحصل ومصروفَه ؛ وليتحقَّق أنّ الله تعالى سَيصِلُ رزْقه فلا يُوجِسْ فى نفْسه خِيفَه ، وليْجعَلْ تقوى الله تعالى دأْبَه فى كلّ قضيّة ثقيلةً كانت أو خفيفه ، والله تعالى يُمِدّه بألطافه المُطيفه ، بمنّه وكرمه .

✥

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنقابة العساكر بطرابُلُس :

الحمدُ لله الأول بلا آخِر ، الغنيِّ فى مُلْكه عن النّاصِر ، المنزّه فى سُلْطانه عن المُؤازِر ، المتوحِّد بعدم الأشباه والنَّظائر ، المُبِيد لكلّ مُظاهِرٍ بالعِناد مُجاهِر ، العليم بما تُكِنُّه الأفكارُ وتُجِنُّه الضَّمائر ، الرَّقِيب على كلّ ماتردّدَ من الأحوالِ بين سَوادَى القَلْب والناظِر .

وأشهدُ أنْ لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالصةً يُرغَم بها كلُّ جاحِدٍ وكافر ، وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ والشِّركُ مُدْلَهِمّ الدَّياجِر ، والرُّشْدُ

قد خيّم عليه الضّلالُ فما له من قُوّة ولا ناصر، فأقام به الدّينَ الحنيفىّ النّيّرَ الزّاهر، ورفع ذكرَه فى سائر الأقطار والأمصار على رُءُوس المنابر، صلّى الله عليه وعلى آله أهلِ المكارم والمآثر، ما حمِد السُّرى عند الصّباح سائر، ونَمّ سَحَرُ السَّحَر بكلّ مُناضِلٍ ومناظر، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولى من سِيقتْ إليه وُفُود النِّعَم، ومُنِحَ من الخيرات أجزلَ القِسَم، وعُدِقَت الأمورُ بعزائمه، وآعتُمِد على هِمَّتِه التى هى فى المَضاء كأسنّته وصَوارِمه، ورُعِيتْ عُهودُ وَلائه التى لا تُنْكر، ووُصِفتْ مَساعِيه التى آستحقّ أنْ يُحمد بها ويُشكر — مَن إذا عُوِّل عليه فى المُهمّات كَفاها، وإذا آستُطِبَّت المُعضلاتُ به شفاها، وسارت أنباءُ مهابته غَورًا ونَجدا، وآتّصف بحُسْن التدبير الذى عليه من الإقبال أكملُ إجْدا .

ولمّا كان فلانٌ هو الذى تناقلتْ تَباشيرَ أخبارِه الرُّكْبان، وأثنى على شهامَتِه السّيفُ والسِّنان، وشَرُفَتْ بمحاسِنه الأقلام، وآرتفع ذِكْرُه بالشجاعة على رُءُوس الأعْلام .

فلذلك رُسم ... ... — لا زال للدّين الحنيفىّ ناصِرا، وللأعْداء قامِعًا قاهِرا، وللحقّ مُؤيِّدًا باطِنًا وظاهِرا — أنْ يستقرّ الجنابُ العالى المشارُ إليه أميرَ نُقَباءِ العساكرِ المنصورةِ الطَّرابُلُسِيّة، عِوَضًا عمّن كان بها، على عادته وقاعدته : لأنّه الحَبْر الذى عُقِدتْ على خِبرته الخناصر، ووَرِثَ الشّهامَةَ كابِرًا عن كابِر، وأضحى بتَدْبيره واضحَ الغُرَر، شاهِدًا له به العَيْنُ والبَصر؛ إنْ جال بين صُفُوف العساكر كان أَسدا، وإن رَتّب جُيوشَها أحْصاها حِلْيَةً وعَددا .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ محرِّرًا أحوالَ العساكر المنصوره، مقرِّرًا لهم فى منازِلهم على أكْمَلِ عادةٍ وأجْمل صُورَه، بمُناصَحةٍ ضُمِّخ بمِسْكها، ومُخالَصةٍ قام مَقامَ واسطةِ جَوْهر

سِلْكِها، ومُلازَمة خِدْمَةٍ تأزَّرتْ بها أعْطافُه ، وصَفاءِ طَوِيّةٍ شَرُفت بها أوْصافُه ؛ ومَحَبّةِ عَدْلٍ جمع فيها بين قوْله وفِعْله ، وإخْلاصٍ يَحْسُن بالمرْءِ أن يكونَ مُلتحِقًا بظلِّه : لِكَيْ يُتِمَّ الله النِّعَمَ عليه كما أتَمَّها علىٰ أبيه من قَبْله ؛ ولْيَقصِدْ رضا الله تعالىٰ فى هذا الأمر، لا رِضَا زَيْدٍ ولا عَمْرو ؛ والله تعالىٰ يتولّاه فيما تَوَلّاه ، والاعتماد فى ذلك على الخط الكريم أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيعٍ بنقابة الأشراف بطرابُلُس بـ«المجلس السامِىِّ» بالياء ، وكُتِب فيه «القضائىّ» علىٰ خلاف الأصل، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال يَرفعُ لذَوِى الأصالة الشَّريفة قَدْرًا ، وينقُلهم إلى الرُّتَب السَّنِيَّة ويُعْلِى لهم ذِكْرًا ، ويشْمَلُهم من إحْسانه بما يسُرُّ لهم قَلْبًا ويَشْرَحُ صَدْرا ، ويُبلِّغهم من المآرب أوْفاها، ومن ملابس القَبُول أجْمَلَها وأسْناها ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ـ أدام الله نِعْمته ـ فى نقابة السَّادَة الأشْراف بالمملكة الطرابُلُسِيَّة ، علىٰ ما تقدّم من عادته فى ذلك : آستقرارًا جاريًا فيه علىٰ أجْمَلِ العادات، وآعتمادًا علىٰ ما عُهِد من سَلَفِه الشَّريف الذَّات ، ورِعايةً له فى تَجْديد المَسارّ ، وتَرجيحًا لما آشتمل عليه من حُسْنِ الكِفاية فى كلِّ إيرادٍ وإصْدار ، ورِفْعةً لِيَده الباسطة علىٰ أبْناءِ جِنْسه، وتَقْوِيةً يَجِدُ أثرها فى معناه وحِسِّه ، رَسْمًا يستوجب به النِّعَمَ الجزيله ، ووِلايةً تُولِيه من الكَرَم سُولَه ، وعِنايةً تُصْبِحُ بها رُبوعُ أُنْسِه مأْهُولَه ، لأنّه أوْلىٰ أن يُقَرَّ فى هذه الوظيفة ويُزاد ، وأحَقُّ أن يُرعىٰ لما سَبق له من السَّداد ، وأجْدرُ أن لا يُضاعَ حَقُّه حيث له إلىٰ رُكْنِ الشَّرف المُنِيف آسْتِناد .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المُباركة مبسوطًا أملُه فى المَزِيد ، مَنُوطًا رجاؤُه فى نِعَمنا باستئنافٍ وتَجْديد ، محوطًا ما بيده من كَرمنا العديد؛ وهو غنىٌّ أن نُثْنَى له الوصايا

ونُعيد، مَلِئٌّ بحسن السجايا التى جُبِلَتْ على التَّحْقيق والتَّوفيق والتَّسْديد؛ والله تعالىٰ يُطوِّقُ بمِنَنِ جُودنا منه الجِيد، ويُغْدِقُ له سحائبَ رِفْدِنا التى تُجْريه على ما أَلِف من فضلها العديد؛ والعلامة الشريفة ـ أعلاها الله تعالىٰ ـ أعْلاه، حُجَّةٌ بمقتضاه .

✣

وهذه نسخةُ توْقيعٍ بشدّ الشوانى بطرابلس، كُتب به لعلاء الدين «أيد غمش» وهى :

رُسم ... ـ لازالتْ أيامُه، قائمةً بالجهاد فى سبيل الله عزَّ وجلّ، وأعلامُه، حائمةً على ٱلْتِقاط مُهَج العِدَا فى البرِّ والبَحْر بما يُقَرِّبُ لهم الأجل ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ فى شَدِّ الشَّوانى المعمورة المنصورة على العادة فى ذلك، بهمَّته العليه، وعَزْمَته التى هى ببلوغ المقاصد مَليَّه؛ وشَهامتِه التى تُرهِبُ العِدا، وشجاعتِه التى تُلْبِسُهم أرْدِيَةَ الرَّدىٰ؛ وبَسالَتِه التى تُبْسِلُهم فى البَحْر فتصيِّرهم كالأسماك لا يُسامُ لهم صدىٰ .

فلْيَجْتَهِدْ فى ذلك جِدَّ الأجتهاد، ولْيعمِدْ فيه السَّداد والسَّداد؛ ولْيُوقِظْ أجْفانَ سيوفه من الغَمْض، ولْيُرهِبْ العِدا بشِدّةِ وَطْأتِه التى لها الثَّباتُ فى الأرْض؛ ولْيلازِمْ مُواظَبَةَ الشوانى ليْلًا ونهارا، ولْيكُنْ هو ومَن حَوْلَه لمن بها أنْصارا؛ واللهُ تعالىٰ يُجزلُ له مَبارا، ويَرْفعُ له مِقْدارا، بمنّه وكَرَمه .

✣

وهذه نسخةُ توْقيعٍ بشَدِّ دار الضَّرْب، كُتب به لـ«علاء الدين الدَّوَادار»، وهى :

رُسم ... ـ لا زال إحْسانُه يجُود غَماما، وفَضْلُه الشاملُ على الأولياءِ المتَّقين إماما، وسَحائبُ بِرِّ كَرَمه هامِيةً على أوْليائه، هامِلَةً على أصْفيائه، فتَراهُمْ يخِرُّونَ للأذْقان سُجَّدًا ويَنْتصِبُون قِياما ـ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى شدِّ دار الضَّرْب : إعانةً له على الخدمة الشَّريفه، وإرْفادًا له بمَعْلومها إذ هى ليستْ له بوظيفه؛ لأنّه أكبرُ من ذلك قَدْرا،

وأحقُّ بكلّ منزلة عليّة وأحرىٰ ؛ ولكنْ هـذه الجهةُ هى قانونُ المُعامله ، وسكّتُها بشعار المُلْك مُتّصلَة وبين الحقّ والباطل فاصلَه ؛ ومنها النُّقوشُ التى هى رُسْتاق الأرزاق ، وصَدْرُ كلّ إطْلاق وقنداق ؛ حكيمٌ ما أُرسل فى حاجة إلّا وأُذِنَ لها بالنَّجاح ، ولا آستؤمن عليه آمْرؤٌ باذن الإمام إلا وحقّ له [الاتصاف] بالصلاح والفلاح ؛ هذا وهو فى الأصل مذموم ، وطالبه محروم : لأنه مقسوم ، والأجل محتوم ؛ ولكن تطهيره من الدنس واجب ، والحسبة فى عياره حتى يغدو وبودَقُ صفائه من الغِشّ ناضب .

فلْيعتمدِ المشارُ إليه فى شَدّ هذه الجهة حُسْنَ التقوىٰ ويُلاحظْ بعزْمه أُمورَها لتكونَ على السَّداد، ويَعْتمدْ على السَّيد النّاظر فإنّه نِعْم العِماد، ويُفوِّضْ إليه كَشْفَ الرُّوباص وحكَّ العِيار فهو به أدرىٰ وأحرىٰ وأدْربُ بادْحاض غشّ الفَساد، ولْيتناولْ معْلومه المُقرَّر له عند الوجوب والاستحقاق ، هَنِيًّا مُيسَّرًا خالصًا من التّنازُع والشّقاق ، ومثْلُه فلا يُدَلُّ علىٰ [صواب] : إذْ تقْوى الله تعالىٰ كلمةُ الفَصْل وفَصْلُ الخطاب ، واللهُ تعالىٰ يجعلُها لنا وله زادًا وحِرْزًا ، وذُخْرًا يوم المَعاد ورِكْزًا(١) .

✤

وهذه نسخة تَوْقيع بشَدّ البَحْر بمينا طَرابُلُس ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال سَيفُه قاطعًا من الأعداءِ نحْرا ، وأمْرُه نافِذًا برًّا وبَحْرا ، وفِعْلُه صالحًا دنيا وأُخرىٰ ـ أنْ يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه فى شَدّ مِينا البَحْر بطرابُلُس .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ شارحًا لها صَدْرا ، فاتحًا لها بحُسْن مُباشرَته الجميلة بَصَرًا وفِكْرا ؛ باعثًا لها فى الآفاق بمباشرته ذِكْرًا جميلا ، باحثًا عمّا يتعلق بمتحصلِ المِينا

(١) يريد ركزة واحدة الركاز المال المدفون . وذكّر مراعاة للسجع .

المعمورةِ بُكْرةً وأصيلا، مُسَوِّيًا بين الناس فيما رَزَق اللهُ وفتح، وبعَث من فضله ومَنح، بحيثُ لا يقدِّم عزيزًا ولا يُؤَخِّر ذليلا، ولا يُراعِى فى ذلك صديقًا ولا خليلا.

وليُقَدِّمْ خَوْفَ الله تعالىٰ علىٰ خَوْفِ خَلْقه، وليُسوِّ بين الضَّعيف والقوىِّ فيما بَسَط اللهُ من رزقه؛ وآكدُ ما نُوصيه به تقوى الله تعالىٰ فيما هو بصَدَده، فليَجْعلها فى أُموره الباطنَة والظاهِرة من عُدَده؛ واللهُ تعالىٰ يقدِّمُه فى مباشرته لاقتناء محاسن المعروف وزُبَده، ويرزُقُه من الأجر على ما يَعْمله من الخيْر مع تُجَّار هذا البَحْر بما هو أكثر من زَبَده.

توقيعٌ كريمٌ بنيابة اللَّاذقيَّة، من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى، كتب به لـ«شمس الدين» ابن القاضى، بـ«الجناب العالى»، وهو:

الحمدُ لله الذى زاد «شمس» الأولياءِ إشراقا، ومَنَحه فى هذه الدَّوْلة الشريفة إرْفادًا وإرْفاقا، وصَانَ الثُّغورَ المحروسةَ بعزَماته التى سَرَّتْ قُلوبًا وأقرَّتْ أحداقا، وجدَّدتْ لأوليائها من مَواهِبها عَطاءً وِفَاقا.

نحمدُه علىٰ حُكْمِه وفعْلِه، ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تمنحُ قائلَها مَزِيدَ فَضْلِه؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده اللهُ بملائكته المُقرَّبين، وشدَّ أَزْرَهُ من أصحابه بالآباء والبنِين؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمَّة الدِّين، صلاةً تمنحُ قائلَها غُرَفَ الجِنَانِ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وسلَّم تسليمًا كثيرا.

وبعدُ، فإنَّ من شِيَمِ هذه الدَّوْلة إذا بَدأتْ تَعُود، وإذا نَظَرتْ تَجُود، وإذا قَدَّمتْ وَلِيًّا لحظَتْه بأعيُن السُّعود.

وكان الجنابُ العالى ـ أدام الله نعمته ـ عَيْنَ القلاده ، وبَيْتَ السِّياده ، ومعدِنَ السَّعاده ، وأهْلاً أن يُدبِّر الأُمور ، ويَسُدّ الثغور ، ونيابةُ اللاذقيّـة مجاورةُ البُحور ، وجَزيرةُ العَدُوّ بينها وبينها نهارٌ فهى فى أمرها له قاعدة فى النُّحور ، وقد رأيناه أهْلاً أنْ يَصُونَ نَحْرها ، ويتقلّد أمْرها ، ويحفَظ بَرّها ، ويَدْفع شرَّها .

فلذلك رُسم بالأمر ـ أعْلى الله تعالى شرفه ـ أنْ تُفوَّضَ إليه نيابةُ اللاذقية المحروسة ، على عادة من تقدّمه .

فليَسِرْ إليها سيْرَ الشَّمْس فى أبراج شرَفها ، وليُقْبِل عليها إقبالَ الدُّرّة على التَّرائب بعد مُفارقة صدَفها ، وأوّلُ ما نأمُرُه [به] : إرْهابُ العَدُوّ بالعُدّة والعَديد ، وإظْهارُ المَهابة فى القريب والبعيد ، وتفقُّدُ الأَيزاك بنَفْسه من غير اتّكالٍ على سِواه كما يفعلُ البَطَلُ الصِّنْديد ، وليُخْلَعْ عنه مَلابِسَ الوَشْى ويَلْبَس الحَديد ، وليَهْجُرِ المضاجعَ ويتّخذْ ظَهْر جَوادِه مستقرَّه العَتيد ، حتّى ينتشرَ له صِيتٌ بين أهْلِ التَّثْليث كما انتشر صيتُه بين أهْل التَّوحيد .

وابْسُطْ بِساطَ العَدْلِ لِطأه المَوالى والعبيد ، واحْكُمْ بالحقّ فالحقُّ مُفيدٌ والباطِلُ مُبيد ، ومتى تسامعَ التُّجّارُ بعدْلك جاءُوا بالأصناف والمَتْجَرِ الجَديد ، وارْكَنْ إلى حُكم الشَّرع الشريف فإنّه يأوى إلى رُكْنٍ شَديد ، واتّقِ اللهَ تَجِدْه أمامك فيما تَرُوم وتُريد ، وتمسّـكْ بالسِّيرة الحسـنة يزِدْك اللهُ رِفْعةً وأنت أحقُّ بالمزيد ، وعقِبها نَسْتَنْجِزُ لك تَشْريفًا شَرِيفًا مَقرونًا بتَقْليد أعْظَمَ من هذا التقليد ، والخطُّ الكريم أعلاه حجةٌ به ، إن شاء الله تعالى .

✥

توقيعٌ بنيابة قلْعـة حصْن الأكراد ، كُتِب به لشهاب الدين «أحمد الناصرى» ، وهو :

الحمدُ لله الذى أطْلع فى سماء الدِّين شهابا، وفتح لمن خافه واتّقاه إلى الخيرات أبوابا، وحَبَاه من إفْضاله وألْبسه من حُلَل إنعامه ونَعْمائه أثوابا .

نحمَدُه على نعمه التى أجزل لنا بمَزِيد حَمْدها أنعماً وثوابا، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نتّخذُها من النار حِجابا، ونَعْتَدُّ بها فى الآخرة مَفازاً حدائقَ وأعْنابا، وكَواعبَ أتْرابا، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شرّفه على الأنبياء مَنْصباً ونِصابا، وسَبَى بطَلْعته وطَلِيعَته قُلوبًا وأحزابا، وقرّبه إلى أنْ كان قابَ قوسَيْنِ وأسمعه من لَذيذِ كلامه خِطَابا، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه : أكْرِمْ به وبِهِمْ آلًا وأصحابا ! ، وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولى من انْتُدِبَ، لحِفْظ المعاقل الإسْلاميّة وانْتُخِبَ، وأحْرَى من لحَظْتُه عَيْنُ عنايتِنا فكان إليها من العَيْن أقرب، وأحقّ من اعْتُمِد على بَسالته وإيالَتِه بما سَبَرَ من الأنام والأيام وجَرَّب ــ مَن عُرِفَ بشجاعة أيْنَ منها عَمْرُو بن مَعْدِى، وأمانةٍ كَفّتْ حين كَفّتْ كَفّ التَّعدّى، وعِفّةٍ جعلها فى أحواله كلّها نُصْبَ العَيْن، وسياسَةٍ ما زال يُصْلِحُ بها بين ذَوِى المُشاقَقة ذاتَ البَيْن، وكان فلانٌ هو الموصول المُقدّم، المَوْصوفَ بهذه الصفات التى سُرَّ السّاحِلُ بها فتبسّم .

فلذلك رُسِم بالأمر ــ لا زال يُطْلِعُ فى آفاق الحُصونِ المَصُونَة شهابا، ويرْفَعُ الأوْلياءَ بإحْسانه الذى يُؤكّد لهم فى جُوده أسبابا ــ أن يستقرّ (١) نائبا بقلعة حصنِ الأكراد المحروس وأعمالها، على عادة من تقدّمه ومُسْتَقَرّ قاعدته .

فليباشِرْ ما ولّيناه وأوْليناه : مُباشرةً تُسْفِرُ عن حُسن فِطْنَتِه وذكائه، وتُضِىءُ الآفاقَ بنُور شِهابِها وسنائه، وتُظْهِر مَعْروفَها المعروفَ بعدم غَيْبته وخَفائه، مُعْتمدًا

(١) بياض بأصله ومراده الجناب العالى . أو المجلس العالى .

على الله تعالى فى إبدائه و إنهائه ، شارحًا لكلّ قلب ألانه إحسانُه بعد غِلْظته وجفائه ، مانحًا من بحرِ جوده وعدله بالدُّرّ لا بجُفائه ، مكرِّمًا لمن بهذا المعقل : من أمرائه وأجناده وأغنيائه وفقرائه ، مقيمًا لمنارِ الشَّرعِ الشريف الذى لا تستقيم الأمورُ إلّا بمتابعته و إبدائه ؛ وليُظْهِرْ من شجاعته وبسالته ما لا فائدة فى خفائه ، وليُشْهِرْ سيفَه ، فى وجه من أظهر حيفَه ، وعدم خوفه ، من سطوة ربّه وكُرمائه .

وأعظمُ ما نُوصيه به التقوى ، فإنّه بملازمتها يقوى ، على دفع الشَّرِّ وفعل الخير و إسْدائه ، والوصايا كثيرةٌ وهو المجرّب بالعملِ بها لمن يرغب فى آستيلائه ، والله تعالى يُحرِقُ بشِهاب عدلِه كلَّ متمرّد ... ...

وآعلم أنّه ربّما كُتب توقيع نائبِ حِصْنِ الأكراد مفتتحًا بـ«أمّا بعدَ حمدِ الله» .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بنيابة حِصْنِ الأكراد ، كُتب به باسم «شِهابِ الدين الحاكى» بـ«الجناب العالى» ، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى جعل شِهابَ الدِّين يتنقَّلُ فى مطالِع سَعْده ، وجدَّد أثواب النَّعماء لمن قَدُمَتْ هِجْرتُه وظهر خَيْرُه فأنجزله الإقبالُ صادِقَ وَعْده ؛ وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُبلِّغ قائلَها إنالةَ قَصْده ، وأشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيّده اللهُ بنَصْرٍ من عِنْده ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين كانوا من أنصاره وجُنْده ، صلاةً دائمةً يبلغُ المؤمنُ بها غايةَ رُشْدِه ؛ وسلّم تسليماً كثيرا — فإنّ أَوْلى مَن شمِله إحسانُ هذه الدَّوْلة الشريفة ونوّلَه مُرادَه ، وأجْزل عليه النِّعَم فكان أحقَّ بها لحُسنِ طويّته فأجْراه اللهُ على أحسنِ عادَه ، و بلّغه غايةَ القَصْد ومَعْدِنَ السعاده — من سلَكَ مسالكَ الأُمناءِ الثِّقات ، وآشتهرتْ عنه العِفّةُ وحُسْنُ الصِّفات ، فتعيّن تقديمُه وتقريبُه إلى أجلّ ولايات الفتوحات .

ولمّا كان فلانٌ ـ أدام الله عِزّه، وأنجح قَصْدَه ـ هو المنعُوتَ بصفات السَّداد، المشهورَ بالنَّهضة والشَّجاعة فى هذه البلاد ؛ الذى حَوىٰ المكارمَ والإفضال، ووَافق خُبْرُه خَبَرَه فى سائر الأحوال .

فلذلك رُسم بالأمر ـ لا زال شِهابُ فَضْلِه سَاطعا ، ونُورُ إحسانه لَامِعا ـ أنْ يستقرّ المجلسُ العالى الشّهابىُّ المشارُ إليه فى وِلَاية الأعمال الحِصْنِيَّة والمناصف عِوَضًا عمَّن بها، علىٰ عادته وقاعدته : لأنَّا وجَدْناه شَمْسَ أعيان الأماثِل، وألْفَيْناه قَلِيلَ النَّظير والمُضاهى والمُماثِل؛ وعليه عُقِدَت الخَنَاصِر، واتَّفقَت الآراءُ الثاقِبَةُ فى الباطن والظاهر ؛ ولمَّا جَمَع من كَرَم الشِّيَم وجَميل الخِلَال ، وحازَ من النَّباهةِ الرفيعةِ الذُّرا المَديدةِ الظِّلَال .

فلْيَتوجَّهْ إلىٰ محلّ وِلَايته ، ولْيُظْهِرْ ما أكَنّه من العَدْل والإنصاف فى ضمائره بحُسْنِ سياسَته، ولْيُنْصِف المَظْلُومَ ممّن جارَ عليه واعتدىٰ، ويتّبِعْ فى ذلك ما يُوضّح له من طريق مَنَار الهُدىٰ ؛ ولْيبْسُط المَعْدِلَة ويُمدّ باعَه ، ولْيبِدِ الظُّلْمَ ويَقْصِمْ ذِراعَه؛ ولْيَصْرِفْ هِمّته فى عِمارة البلاد، وتأمينِ العِباد، وسُلُوكِ سُبُل الرَّشاد؛ ولْيجْتهِدْ فى سَدّ الخِلال، وإصْلاح ما فَسَد بغَيْره من الأحوال؛ وليجْعَلْ تَقْوى الله مَحَجَّتَه ، واتّباعَ العَدْلِ حُجّته، وسُلُوكَ الحَقِّ عُدّتَه؛ فقد جاءت التَّقْوىٰ فى التنزيل مُؤكّده، ووردَتْ فى كثيرٍ من السُّوَر مُرَدَّده؛ والله تعالىٰ يُعِينُه علىٰ ما وَلّاه ، ويحْرُسُه ويتوَلّاه، بعد الخط الكريم أعلاه .

وهذه نسخةُ توقيع بنِيابة قَلْعة المَرْقَب والولاية بها، كُتب به لصلاح الدين «خليل» ، بـ«الجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الدَّولةَ الشريفةَ مقرونةً بالتَّأييد والنَّجاح، ووفَّق أولياءَها إلى سُلُوك سُبُل السعادة وشيَّدها بالصَّلاح، وخوَّلهم فى أيَّامها المراتبَ العلية ليبتهلُوا بأدعيَتِهم وبدوامها فى المَساءِ والصَّباح.

نحمدُه على نِعَمِه التى لا يبرح مُخلِصُها فى آزديادٍ وآرتياح، ونشكُرُه على آلائه شُكْرًا نستحقُّ به المَزِيدَ كما أوضح فى القُرآن أكملَ إيضاح، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا الله وحده لا شريكَ له شهادةً مُعْلِنَةً بالفَلاح، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أنزل عليه فى مُحْكَم كتابه العزيز: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الغُرِّ الكِرامِ الأشباح، ما ترنَّم طائرٌ على غُصْنٍ وحَيْعَل الدَّاعى الى الفَلاح، وسلَّم تسليمًا كثيرا.

وبعـد، فإن أَوْلى من عُدِقت به نيابةُ أجَلِّ المعاقِلِ والثُّغور وفُوِّضت إليه، وعُوِّل فى حفْظِها ومباشرتها الحَسَنة الجميلة عليه ـ مَن عُقِدَتْ على حَزْمِه الخَناصر، ووَرِثَ الشجاعةَ والشَّهامَةَ كابِرًا عن كابِر، وهو الذى نَما فَرْعًا وزكا [أصْلا]، وفاقَ فى المكارم على نُظَرائِه قَوْلا وفِعْلا، فأضحى وافِرَ الثَّناءِ واضحَ الغُرَر، شاهِدًا له به العَيْنُ والبَصَر.

ولمـا كان فلانٌ هو المَنْعوتَ بهـذه الصِّفات، والمَوْصُوفَ فى مَواقِف الحروب بما لَدَيْه من الثَّبات والوَثَبات، المَشْكُورةَ خِدْمَتُه، شامًا ومِصْرا، المَشْهورةَ بين الهِمَم هِمَّتُه، بَرًّا وبَحْرا.

فلذلك رُسِم ... ـ لازالتْ مراسيمُه الشريفةُ مبْثوثةً بالعَدْل والإحْسان، ومَعْدلَتُه تَسْتَدْعِى بدوام دولته الشريفـة لِسانَ كلِّ إنْسان ـ أنْ تفوَّضَ إليـه نيابةُ قَلْعـة المَرْقَب المحروس، والولايةُ بالأعْمال الشَّرْقيَّـة، وما هو منسوب إليها، على العادة فى ذلك ومستقرِّ القاعدة: إذْ هو أحقُّ بها وأهْلها، وأكْمَلُ [من] يجمَعُ شَتاتَ شَمْلِها.

فليباشِرْ ما نُدب إليـه من هـذه الجهات مُباشَرةً تَقصُر الأفكارُ عن توهُّمها ، والأبصارُ عن توسُّمِها ، والخواطِرُ عن تخيُّلِ مَبْناها ، و [الأذهانُ] عن تمثُّلِ صُورتِها ومعناها ، وليكن لمصالحها مُتلَمِّحا ، ولأحوالِ رجالها مُتصفِّحا ، ولأقدار جهاتها مُرْبِحا ، ولخواطر بأداء أحوالها على السَّداد مُرِيحا ، ولوظائِفها مُقِيما ، وللنظر فى الكبير والصَّغير من مصالحها مُدِيما ، ولحُرْمَتِها مُضاعِفا ، وعلىٰ كلِّ ما يتعيَّن الاحتفالُ به من مُهمَّاتها واقفا ، ويُعِدَّ للعدُوِّ المخذولِ عند تحرُّكه العزْمَ الشديد ، ويَهْجُرْ لِبْسَ الوَشْيِ ويتألَّف لِبْسَ الحَديد ، ويتَّخذْ ظَهْر جوادِه مُسْتقرّه العَتِيد ، ويُشَمِّرْ للجهاد ذَيْلا ، ومعاذَ الله أنْ يَمِيلَ عنه مَيْلا ، ويَبْسُطِ العَدْلَ للرَّعِيَّـه ، ويُعامِلْهم المعاملةَ المَرْضيَّه ، ويُحْسِنْ إلى الأُمَراء البَحْريَّه ، ويُلاحِظْ مصالِحَهم فى كلِّ قَضِيَّه ، ويتفقَّد الرِّجال ، وأرْبابَ الأدراكِ والشَّوانى ويُحذِّرْهم من الإهْمَـال ، ويأمُرْهم باليَقَظة والاحتراز فى اللَّيـل والنهـار وسائر الأحوال ، وليعمَلْ ما يحتاج إليه من آلات الجهاد وليَكُنْ علىٰ حَذَر ممـا يتجدّد كلَّ يوم ، وليُوقِعِ الرَّهْبَةَ فى قلوب الأعداء بخَيْله فى اليَقَظَة وخَياله فى النَّوْم ، ويتفقَّد الموانى فى سائر الأوقات فى اللَّيل والنهار ، وليُحذِّرْ أُمَراء الأَيْزاك من الغَفْلَة فإنَّ الغافِلَ لا يزال علىٰ شَفَا جُرُفٍ هَار .

وليتَّقِ اللهَ فى أقواله وأفعاله . والوصايا كثيرةٌ وهو أدْرَبُ بهـا وأدْرَىٰ ، وأبوابُ الخيرات واسعةٌ وهو إليها أسْرعُ وأجْرىٰ ، وليشكر الله تعالىٰ علىٰ ما ولَّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

✣

وهـذه نسخةُ توْقيع بنِيابة حِصْن عكَّار ، كُتب به لـ « ناصر الدين الكُردى » ، بـ « بالجناب العالى » ، وهى :

الحمدُ لله الذى نَصر هذا الدِّينَ الحنيفىَّ بسيِّد البَشَر، وخصَّ هذه الدولةَ الشريفةَ بالتأييد والظَّفَر، ووافى الأولياءَ بجُودها الذى لم يزلْ من ذِمَّة الوَفَاء يُنْتَظر .

نحمَدُه علىٰ مَنِّه الذى طالما بدا فى جَبهات الأولياء بِشْرُه وظَهر، ونشكره علىٰ جُوده الذى أغنىٰ عن التَّحْجيل والغُرَر، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادة تُنْجِى قائِلَها يوم الفَزَع الأكبر، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أقام اللهُ بسَيْفه الإيمانَ فاشْتَهر، وكَفَّ به يَدَ الطُّغيان وزَجَر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله ما اتَّصلتْ عَيْنٌ بنَظَر وأُذُنٌ بخَبَر، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من رُعِيتْ[1] له خِدَمٌ عَديدَه، وعُرِفَتْ له فى أجَلِّ الثُّغور مباشراتٌ سَعِيدَه، واشْتَهرتْ شَهامتُه وكفايتُه فى الآفاق، وظهرتْ أمانتُه ظُهورَ الشَّمس فى الإشراق، وتقدّم بذلك علىٰ نُظَرائه وفَاق .

ولمَّا كان الجنابُ العالى هو المنعوتَ بهذه الصفات الجميله، والمُحْتَوِى علىٰ هذه المزايا الجليله؛ الذى شاعتْ شجاعتُه مع طهارة يَد، ولا عَجَبَ فانَّ هذا الشِّبْلَ من ذاك الأسَد! ؛ وسارتِ الرُّكْبانُ فى الممالك بنَهْضَتِهما فى المباشرات، وسَدَّ الخَلَل فى المُهِمَّات المُعْضِلات .

فلذلك رُسِم ... ـ لازالتْ أيَّامُه مَبْثُوثةً بالعَوارِف والإحْسان، ومَعْدِلَتُه تستدعى بدوام دَوْلته الشريفةِ لِسانَ كلِّ إنسانٍ ـ أنْ تفوّض إليه نيابة قَلْعة حِصْنِ عَكّار المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته، بالمرتَّب الشاهد به الديوانُ المعمورُ .

فلْيُقَدِّمْ خِيرَةَ اللهِ تعالىٰ ويَتوجَّهْ إليها، ويَصْرِفْ وَجْهَ الإقبال عليها، ويَنظُرْ فى عمارتها ومصالحها، ويَسْتَدْرِكْ ما اسْتَهْدَم من بيوت حَواصِلها؛ لِيُصْبِحَ وَجْهُ هذا الثَّغر

(١) لعل الصواب «فان أولى الأولياء بالمناصب من رعيت» الخ ليستقيم الكلام .

بحُلُوله به بَاسِما ، ويَنْشُرَ له من حُسْن تدبيره وجميل تأثيره عَلَما ؛ وليُحْسِنْ إلى الأمراء البَحْرِيَّه ، ويُنْزِلْهم منازلَهم على العادات المَرْضِيَّه ؛ وليَعدِلْ فى الرَّعيَّـه ، ويُنْصِف المظلومَ من الظالم فى كلِّ قَضِيَّه ؛ ويُلْزِمْ أربابَ الوظائف من المقـدَّمين والرَّجَّالة بالخدْمة بالنَّوْبة على العاده ، ويُوَصِّلْ إليهم معْلُومَهم من جهاتهم المعتاده ؛ ويَتَّبِع الحقَّ المَحْضَ فى كلِّ أمْر ، لا يَقْتدى برَأْيِ زيد ولا عَمْرو؛ وليَعلَمْ أنَّه مُطالَبٌ بالعَدْل فى وظيفته ، فإنَّ كلَّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِه ؛ والوصايا كثيرةٌ ومُعْظمها تقوى الله فى سائر الأُمور : فلْيَتَمسَّكْ بها يقوىٰ ، فإنَّها السَّبَبُ الأقوىٰ ، والله تعالىٰ يتولاه فى السِّرّ والنَّجْوىٰ ؛ بعد الخطِّ الكريم أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ تَوقيعٍ بنيابة بَلاطُنُس بـ«بالجناب العالى» ، وهى :

الحمـدُ لله الذى أسْبَغ نِعَمَه علىٰ أوْليائه ، وأجْزَلَ كَرَمه علىٰ أصْفِيائه ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُنْجِى قائلَها من وَبِيلِ العذاب ، وتُجَدِّدُ له أسْـبابَ السعادة فى الدُّنيا ويومَ الحساب ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالنُّور المُبِين ، المخصوصُ بالدِّين المَتين ؛ صلَّى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وأصْحابه ، وأهْله وأصْفيائه وأتْرابِه .

وبعـدُ ، فإنَّ القِلاعَ المنصورةَ ممَّـا يتعـيَّنُ الاحتفالُ بأمْرِها ، والاهْتمامُ بحفظ رجالها فى سِرِّها وجَهْرِها ؛ ومن أجَلِّ قِلاعِ الساحل المحروس ، وأجْمَلِ مساكنِ البَحْر المأْنوس ، قلعة بَلاطُنُس .

فلذلك رُسم ... ـ لا زالتْ صَدَقاتُه تشملُ كلَّ أوْحد ، وتَجْبُرُ كلَّ وَلِيِّ أمْجد ـ أنْ يستقرَّ ... ... إذْ هو الخبيرُ ، الذى ليس لمَعْرِفَتِه نَظِير ، والضَّابِطُ الذى يُحاقِقُ على

الجليل والحقير، والنقير والقطمير، والشجاع الذى هو فى يوم النضال على أخذ العدو لقدير، والضرغام الذى أعطاه الله القوة والمعرفة التامة فهو بهما جدير .

فليسر إلى الثغر المحروس، ويعتمد فى أموره ما هو فيه من الخبرة مغروس .

✣

وهذه نسخة توقيع بتقدمة العسكر بجبلة ، كتب به لـ«صلاح الدين الحافظى» ، بـ«الجناب العالى» ، وهى :

الحمد لله الذى جعل هذه الدولة الشريفة تنقل كل ولى إلى درجات سعده، وتؤكد أسباب الارتقاء لمن حمدت مآثره وحسنت سيرته فى اليوم والذى من بعده، وتجدد أثواب النعماء لمن ظهر خيره وخبرته فأنجز له الإقبال صادق وعده .

نحمده على نعمه التى أجزلت لمستحقها مواهب رفده ، ونشكره على مننه التى خصت كل كاف بتأثيل مجده ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يبلغ بها قائلها غاية قصده ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أيده الله تعالى بنصر من عنده، وآمنه على وحى الرسالة فنصح الأمة غاية جهده، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا من أنصاره وجنده، صلاة دائمة باقية يبلغ بها المؤمن غاية رشده ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن الجناب العالى لما تقدمت له مباشرات ، فى أجل الولايات وأحسن النيابات ، وهو يسير فى كل منها أجمل سير، ويحسن إلى رعيتها فلا غرو أن يذكروه بكل خير ، كم قام بمهمات من غير عسف أهل البلاد ، وكم أعان الديوان المعمور من غير ضرر للعباد ، وكم ميز أموالا فكانت أيام مباشراته أعياد ، وكم له من خدم سار بها الركاب وبلغ بها المراد ، وكم أثنى عليه لسان القلم حتى نفد المداد ،

وكَمْ وُصِفَتْ هِمَمُه وحُسنُ تأتِّيه فى كلِّ توقيع وتقليد على أنَّ الكاتب ما زاغ عن الحقِّ ولا مالَ عن الصِّدقِ فيها ولا حاد .

فاقتضى محمودُ رأينا الذى ما برِحَ بعَوْن الله يُصيب، وجميلُ فِكرِنا الذى ما دعَوْناه لأمرٍ إلّا و بالإصابة بحمد الله يُجيب، أنْ نُعيِّن له وظيفةً نُريحُه فيها من التَّعَب، ونُوَفِّره من تَبِعاتِ الطَّلَب ، وكان مَن فى تقدِمة العسكر بجبلة يَعْتريه ألمٌ يَعوقُه عن الرُّكوب فى الخِدَم الشريفة والنزول، سيَّما فى هذا الوقت الذى فيه يتحرَّكُ العدُوُّ المخذُول .

فلذلك رسم ... ـ لا زالتْ أيامُه الشَّريفةُ تُيَسِّر أسبابَ النَّجاح، وعوارِفُه تُطوى لها أرضَ البُعْد عن أوليائها كما تُطوى لِذى الصَّلاح ـ أنْ يستقرّ الجناب ... ... فى تقدمة العَسْكر المنصور بجبلَة ، على عادة مَن تقدّمه وقاعدته .

فليباشِرْها مباشَرةً تليقُ بشجاعته، وتُعْهَدُ من حُسْن سياسته، ولْيُكرِم الشَّرْعَ الشريف، ولْيردَعْ من يَحيدُ عن الحقِّ أو يَحيف، ولْيَجمَع الأمراءَ المقدَّمين والحلقة المنصورة على الركوب فى الخِدْمة الشَّريفه، وليشكرْ نِعْمةَ الله تعالى المُطيفَه، ولْيَتيقَّظْ لِرَدْع العدُوِّ المخذول ، ولْيَعْلَمْ أنَّنا آسترعيناه أمرَ ذلك وكلُّ راعٍ مسْئُول ، ولْيَتحقَّقْ أنَّ العدُوَّ المخذولَ طالِبٌ للهالكين منهم بالثّار، وهم قاصدون جبَلَة فلْتكُنْ عنده يَقَظَةٌ وآستبصار، وليرتِّب الأيزاك ولْيُعمِّر الموانى بالرجال، و يتفقَّدْهم فى الليل أكثر من النهار ، ولْيَهجُرِ النَّومَ فى طَلَب الظَّفَر والمُنَى فمن سَهِر لذلك ما خَاب ، ولا يأمَنْ مَكِيدَتَهم و يَغْتَرّ بهم فيقولُ : قد ضُرِبُ بينهم و بينها بِسُورٍ له بَاب ، و باقى الوصايا فهو بها أعْلم ، ولم يبرحْ مُتلفِّعًا بثَوْبها المُعْلَم ، ومِلاكُها تقوى الله تعالى فمن لم يعمل بها يأثَم ، ومن تركها يندَم ، ومن لَزِمها فهو فى الدارين مُقدَّم ، والله تعالى يتولاه ، والاعتماد على الخطِّ الكريم أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

واعلمْ أنه ربما افتتح توقيعُ مقدّم العسكر بجبلة بـ«أمّا بعد حمد الله» .

توقيعٌ بتقدمة العسكر بجبلة ، ممّا كُتب به لحسام الدين العلائى بـ«الجناب العالى» وهو :

أمّا بعد حمد الله علىٰ نعمه التى تُجزِلُ لكلّ ولىّ من موادّ فضلها إنعامًا ، وتَمنح من عوارفها أقساما ، وتُبلّغ من النُّجح لذوى الاستحقاق آمالا وتجعلُ فى نُحُورِ الباغين حُساما ، والشّهادةِ له بالوحدانية التى لم تزلْ للأولياء المُتّقين لِزاما ، وترفعُ لهم فى الجنّاتِ مَقاما ، والصّلاةِ علىٰ سيّدنا محمد الذى محا الله بنبوّته عن الأمة المحمديّة آثاما ، وشرّفه علىٰ سائرِ خَلْقه وجعله للأنبياء خِتاما ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين ظافَرُوه وبايَعُوه دُهُورا وأعواما ، صلاةً دائمةً تزيدُ مُردّدَها عزًّا وإكراما ـ فإنّ الاهتمام بكلّ جِهَةٍ هو علىٰ قَدْرِها ، والعناية بقُطْرِها .

ولما كانت مدينةُ جبلةَ المحروسة مخصوصةً بمقام بر (1) السّند، الزّاهد الذى ترك الدُّنيا والأهْلَ والوَلد، والوَلىّ المبرّز فى عِبادة الخالق ، والمتوكّلِ الذى لم يدّخرْ قُوتَ ساعةٍ لساعةٍ اعتمادًا على الرّازق ـ تعيّن النظرُ فى أمْرها وحِفْظِها من العدُوّ المخذول ، وإن كان بهذا السّيّد السّند قد تبين حفظها ؛ وكان فلانٌ ممّن باشرها فأحسنَ فيها المُباشره، وكلأَ حِفْظَها بيَقَظَتِه وعَيْنِه السّاهِره ـ اقتضىٰ رأيُنا أن نُعيده إليها ، ونُسْبِغَ ظِلَّه عليها .

فلذلك رُسم بالأمر ـ لا زال حُسامُه قاطعًا من الأعداءِ نَحْرا ، وفعلُه صالحًا دُنيا وأُخرىٰ ـ أنْ يُعادَ المشارُ إليه إلىٰ تَقْدِمة العَسْكر المنصور بجبلَةَ المحروسة ، عوضًا عمّن بها، وعلىٰ عادته وقاعدته .

(1) بياض بالأصول ولعله بركات السيد السند .

فَلْيَعُدْ إليها عَوْد الحُسام إلى غِمْدِه، والماءِ إلى مَنْهَلِ وِرْدِه ؛ ولْيُقدِّم خيرةَ الله فى المَسير إليها، ولْيَبْسُطِ العَدْلَ ليأْمَنَ أهلُها بقدومه عليها؛ ولْيُكْرِمْ من بها من العسكر المنصور، ويُحْسِنْ إلى الرَّعيَّة بها ليُصْبِحَ خيرَ مَشْكُور، ولْيُنصِف المظلوم ممَّن ظَلَمه، ويَنْشُر للشَّرع الشريف عَلَمه ؛ ولْيُخَلِّص الحقَّ من القوىِّ والضَّعيف، والدَّنِىِّ والشريف؛ ولْيَلْزَمْ من بهذا الثَّغر بعمل اليزك المعتاد، والتَّيقُّظ لأمرِ العَدُوِّ المخذول ومضاعفة الاجتهاد، ولْيُلازِمْ تقوى الله تعالى فى الأقوال والأفعال ، واللهُ تعالى يَمْنَحُه من فَضْلِه ما يرجو من الآمال .

وهذه نُسَخُ تواقيعَ لأرباب الوظائف الدينية بطَرَابُلُس .

توقيعٌ بنظر الحِسْبة بِطَرَابُلُس، كُتب به للقاضى «ناصر الدين بن شيصة» وهو :

الحمدُ لله مُبَشِّرِ الصابرين، ومُوَصِّل الأرزاق على يَدِ أصْفيائه من العالَمين، ومُعيد كلِّ ولِىٍّ إلى مَنْصِبه ولو بعد حين .

نحمَدُه على فَضْـلِه المُبين، ونشكُره على أنْ جعلَنا من عباده المؤمنين، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَدَّخِرُها ليَوْمِ الدِّين ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الصادقُ الوَعْدِ الأمين ، الذى أرسله بواضح الحُجَجِ ومُحْكَمِ البراهين، وأنزل عليه كتابًا عربيًّا مبين ، صلَّى الله عليـه وعلى آله وصحبه الغُرِّ المُحَجَّلين ، صلاةً مستمِرّةً على ممرِّ الأيام والشُّهور والسِّنين ، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلى من عَزَّزْنا موادَّ رِفْده ، وأجْزَلْنا له حُظُوظَ سَعْده ، وبلَّغْناه من إقبالنا غايةَ قَصْده ، وحَمِدْنا تصرُّفَه من قبلُ عند مارَسَم لما جُدِّد [من] بعدِه، وأعَدْناه إلى رُتْبةٍ ألِفَتْ منه حُسْنَ السياسة والتَّدْبير، وعُرِفَ فيها بالكِفاية والصِّيانة

ويُمْنِ التأثير - مَن له ولسلفه فى المباشرات الجليلة يَدٌ طُولَىٰ ، فكان بوظيفته أحقَّ وأَوْلَىٰ .

ولما كان المجلسُ العالى هو المُتَّصِف بصفات الكمال، المَشْكُورَ فى سائر الأحوال؛ فلذلك رُسم بالأمر - أنْفذه الله فى الآفاق ، وأجراه بصِلَةِ الأرْزاق - أن يُعادَ فلانٌ - أدام الله نِعمته - إلىٰ نَظَرِ الحِسْبة الشريفة بالمملكة الطَّرابُلُسِيَّة علىٰ عادته وقاعدته، مُضافًا إلىٰ ما بيده من بَيْت المال المَعْمور : لأنَّه الفاضِلُ الذى لا يُجارَىٰ ، والعالِمُ بأحْوال الرَّعِيَّة فلا يُناظَرُ فى ذلك ولا يُمارَىٰ ؛ والفَيْلَسُوفُ الذى يُظْهِر زَيْفَ كلِّ مُرِيب ، والنِّحْرِيرُ الذى بخبْرته يَسِيرُ كلُّ حَبِيبٍ ولَبِيب .

فلْينظُرْ فى الدَّقِيق والجَليل ، والكَثِير والقليل، وما يُحْصَر بالمقادير وما لا يُحْصَر ، وما يُؤْمَر فيه بمعروفٍ أو يُنهىٰ عن مُنكَر، وما يُشْترىٰ ويُباع ، وما يُقَرِّبُ بتَحْريه إلى الجنَّة ويُبْعِدُ عن النار ولو لم يَكُنْ قد بَقِىَ بينه وبينها إلا قَدْرُ باعٍ أو ذِراع ؛ وكلِّ ما يُعمل من المَعايِش فى نَهارٍ أو لَيْل ، وما لا يُعْرَف قَدْرُه إلا إذا نطق لِسانُ الميزانِ أو تكلَّم فَمُ الكَيْل ؛ وليَعْمل لَديْه مُعَدَّلًا لكلِّ عَمَل ، وعِيارًا إذا عُرِضَتْ عليه المعايير يَعْرِفُ من جَار ومن عَدَل ، ولْيَتَفَقَّدْ أكْثرَ هذه الأسْباب ، ويُحَذِّرْ من الغِشّ : فإنَّ الدَّاءَ أكثَرُه من الطعام والشَّراب ؛ وليتعرَّفِ الأسْعار ، ويَسْتَعْلِمْ الأخبارَ من كلِّ سُوقٍ من غير إعلام لأهْلِه ولا إشْعار ؛ ولْيُقِمْ عليهم من الأمَناءِ من يَنُوب عنه فى النَّظَر، ويَطْمَئِنُّ به إن غاب أو حضَر ؛ ودارَ النُّقود والضرب التى منها تَنْبَث ، وقد يكون فيها من الزَّيْف ما لا يظهر إلا بعد طُول اللَّبْث ؛ فلْيَتَصَدَّ لمُهِمِّها بصَدْره الذى لا يَحْرَج ، ولْيَعْرِضْ منها على المَحَكِّ [من رأيه] ما لا يجوز عليه بَهْرَج ، وما يعلق من الذهب المكسور ويروبص من الفضة ويخرج ؛ ولْيُقِم الضُّمَّانَ على العَطَّارِين والطُّرُقِيَّة

فى بيع غرائب العقاقير إلّا ممن لايُستراب فيه وهو معروف ، وبخطّ طبيبٍ ماهرٍ لمريض مُعيّنٍ فى دواء موصوف ، والطُّرقيّة وأهلَ التجامة وسائرُ الطوائف المنسوبة إلىٰ ساسان ، ومن يأخذُ أموالَ الرِّجالِ بالحيلةِ ويأكلُهم باللّسان ، وكلّ إنسان سُوءٍ من هذا القبيل هو فى الحقيقة شيطانٌ لا إنسان ، فامنعْهُم كلَّ المنع ، وٱصْدَعْهُم مثْلَ الزُّجاج حتّىٰ لاينجبر لهم صَدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلّا فما تُجدى فى تأديبهم ذاتُ التأديبِ والصَّفع ؛ ومن وَجَدتَه قد غَشَّ مُسْلِماً ، أو أكَل بباطلٍ درْهما ، أو أخبرَ مُشتريًا بزائد ، أو خرج عن مَعْهُود العوائد ، اشْهِره بالبَلَد ، وأرْكبْ تلك الآلَةَ قفاهُ حتّىٰ يَضْعُف منه الجَلَد ، وغير هٰؤُلاء [من فقهاء المكاتب ، وعالمات النساء وغيرهما من الأنواع[1]] ممن يُخَاف من ذئبه العائث فى سِرْب الظباء والجآذر ، ومن يُقْدِمُ علىٰ ذلك أو مِثْلِه وما يُحاذِر ، أرْشُقْهُم بسِهامك ، وزَلْزِلْ أقدامَهُم بإقدامك ، ولا تَدَعْ منهم إلّا مَن ٱخْتَرتَ أمانَتَه ، وٱختبرت صِيانَتَه ؛ والنوابُ لا تَرْضَ منهم إلا من يُحْسِن نَفاذا ، ويُحْتسب لك أجْرُ ٱسْتنابَتِه إذا قيل لك : مَن ٱسْتَنبْتَ ؟ فقلت : هذا ؛ وتَقْوى الله هى نِعْم المسالك ، وما لك فى كلّ ما ذكرناه بل أكثره إلّا إذا عَمِلْت فيه بمذْهَبِ مَالِك ، والله تعالىٰ يُسدِّدُك ويُرْشدُك ويوفّقك إلىٰ أحْسنِ المسالك .

⁂

توقيعٌ بالخَطابَةِ والإمامة بالجامع المَنْصوريّ بطَرابُلس ، كُتِب به للخطيب «جمال الدين إبراهيم» ، بـ«المجلس السامى» بغير ياء ، وهو :

رُسِم بالأمر الشّريف ــ لا زالَ عُودُ مَنابِرِ الإسلام بمَاءِ إحْسانه رَطِيبا ، وبُرُدُ شعائر الدين الحَنيفىّ فى أيّامه الزاهرة قَشِيبًا ، ومَواهبُه ومَناقِبُه تُقيم لمَادِحِه فى كلّ

(١) الزيادة من «التعريف صفحة ١٢٦» وهى لازمة لاستقامة الكلام .

وَادٍ شَاعِرًا ولمحامده فى كلِّ نَادٍ خَطِيبا ـ أنْ يُرتَّب المجلسُ السامى، الإمام، العامل: ـ رَحِم الله تعالىٰ السَّلَف، وزاد مجْدَ الخلَف ـ خَطِيبًا و إمَامًا بالمَسْجد الجامع المعمور المَنْصوريّ بطرابلس المحروسة، عِوَضًا عن فلان، وعلىٰ عادته وقاعدته، و بمَعْلومه الشاهدِ به الديوان المعمور المستَقرّ باسمه، إلىٰ آخر وقْت: رعاية لأهْليَّتِه الواضِحة الدلائل، وفَضِيلَته الناطقَة الشَّواهد الصَّادِقَة المَخايِل، وأوْصَافه الجميلةِ التى بها تُعْرَفُ من أبِيه الشَّمائل، ولأنَّه الصَّدْر ابن الصدرِ النَّجيب، والخَطِيبُ الإمامُ ابن الإمَامِ الخطيب، والوَلَدُ النَّجِيبُ الذى حَذَا حَذْوَ والدِه فى الصَّلاح ما خَابَ ولا يخِيب، والنَّجْلُ النَّبِيهُ المُهَذَّبُ الذى أشْبَهَ أباهُ فى الدِّينِ والورَع: ومَن أشْبَهَ أبَاهُ فما ظَلَمَ فى النَّباهَةِ والتَّهذِيب.

فلْيباشِرْ هذه الخَطابَةَ والإمَامَةَ التى هو ابْنُ جَلَاها، وطَلَّاعُ ثَنَايَاها؛ زَائِنًا حِلاها، زائِدًا عُلَاها؛ وليَرْقَ ذِرْوَةَ هذا المَنْصِبِ الذى هو أعلىٰ المناصِبِ الدِّينيَّه، وليتلَقَّ نِعَمَ اللهِ عزَّ وجلَّ بالشُّكْرِ الذى يُوجِبُ المَزِيدَ ويُكْسِبُ المَزِيَّه؛ وليقُمْ مقامَ والده فى هذه الرُّتْبَةِ السَّنِيَّه، بإخلاص العَمَل وصِدْقِ النِّيَّه؛ مُجَلِّيًا فى مِضْمارِ البيان الذى سُلِّمَتْ إليه أعِنَّتُه، وأُلْقِيَتْ إليه أزِمَّتُه؛ مُحَلِّيًا بقلائدِ المَواعِظ وفرائِدِ الأمْثال أعْوادَ المِنبر الذى لو أمْكنه لسَعىٰ إليه، مُشَنِّفًا الأسْماعَ بجَواهِرِ الأوامِرِ وزَواهرِ الزَّواجِرِ التى يَصْدَعُ بها عليه.

ولْيسِرْ كسِيْرَةِ والده فى الطَّرِيقة المُثْلىٰ وسُلُوكِ المَنْهج الأسَدِّ، ولْيَجْتَهِدْ فى إحْياءِ رسُومِه فى العبادة واقْتِفاءِ آثاره فى العِلْمِ والزَّهادَة حتّىٰ يقولَ الناسُ: هذا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأسَد، جارِيًا علىٰ أفْضَل العوائد فى دِيانَتِه، سارِيًا بأجْمَلِ القَواعِد من صِيانَتِه؛ ولْيُوصَّلْ إليه مَعْلُومُه الشاهدُ به الدِّيوانُ المعمورُ المستقرّ إلىٰ آخر وَقْتٍ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته: لاسْتِقْبال مُباشرته أحْيان الوُجوب وأزْمان الاسْتِحْقاق،

رِزْقًا دارًا ، سَارًا ، هَنِيًا ، مَرضِيًّا ، من غير تَنْغيص ، ولا تَنْقيص ، والاعتماد على العلامة الكريمة أعلاه ، وثبوته إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة تَوْقيعٍ بخطابةٍ ، كُتب به للشيخ «صدر الدين الخابورى» ، بـ«المجلس السامىّ» بالياء ، وهى :

رُسم ... ... ــ لا زالَتْ أيّامُه الشَّريفَةُ تَضَعُ الأشْياءَ فى محلّها ، وتُفوِّضُ المَناصِبَ المُنيفَةَ إلىٰ أهْلِها ، وتُشَرِّفُ صُدُورَ المحافل بصَدْرِ العلماء فى حَزْنِها وسَهْلِها ــ أن تُفَوَّضَ إلىٰ فلان الخَطابَةُ بالجامع الناصرىّ المَعْروفِ "بجامع التوبة" بطرابُلُس المحروسةِ وُجوبًا وتَعيُّنًا ، ٱقْتَضىٰ فى تَقَدُّم الفاضل على المَفْضول تَيقُّنًا وتَبيُّنا ؛ لأنّه الحَبْرُ الذى لا يُجارَىٰ فى فضائله ، والبَحْر الذى يَجُود فيُجِيدُ بفواضِله ، والصَّدْرُ الذى مُلِئَتْ بفَوائده وفَرائده بزمانه محافِل صُدُوره وصُدُورُ محافِله ؛ كم نطقَتْ ألْسُنُ الأقْلام بأفْواهِ المحابر بفَضْلِه فى الأقاليم والآفاق ، وكَمْ من عبارة بفَصاحَةٍ وبَلاغَةٍ حقَّقَتْ أنّه بها فاتَ الفُصحاءَ والبُلَغاءَ وفاق ؛ لقد أصْبح شَمْلُ هذا الجامِع بهذا الفاضِل الذى طال ٱرْتقابُه له جامِعا ، وأمْسَىٰ وقد ظَفرت يُمْناهُ من اليُمْنِ به والبركَة بما لم يكن بشَىْءٍ منه فى مِثل هذه الأيّام طامِعا ، فلذلك بادرَ مِنْبرُه المُنِيفُ وحلَّ له حَقْوَتَه مُسارِعا ؛ ووطَّأَ ــ لاْمتطائه إيّاه ــ صَهْوَته ، وغَفَر للدَّهْرِ بهذه الحَسَنَة الجميلةِ فيما سَلَف منه هَفْوَتَه ؛ وعَلِم أنّه الخطيبُ الذى استقرَّ بطالع المَنابِر من خُطْبَتِه بما يُفجِّر من العُيون مَنابِعَ المَدامع ، ويُشوِّق إلىٰ الآخرة : من ألْفاظٍ يُشَنِّفُ بها المَسامِع ؛ وأنّ قُسًّا لا يُقاسُ به فى خُطَبِه وعِظاتِه ، وأنّ سَحْبانَ يَوَدُّ من خَجلِه أنْ يَسْحَبَ ذَيْلَه علىٰ مآثِره المأْثُورة عنه لِيُعفّىَ آثارَ فَلَتاتِ كَلماته ولَفَتاتِ لَفَظاته .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ باللهِ تعالىٰ مُذَكِّرا، ولِما أمر عِبادَه ونَهاهُم عنه علىٰ أسْماعِهِم مُكَرِّرا، ويَعْلَمْ أنَّه فى المِحْراب مناجٍ لربه، واقفٌ بين يَدَىْ من يَحُول بين المَرْءِ وقَلْبِه، فلْيَعْتَصِمْ بالله عزَّ وجلَّ فى قَوْله وفِعْله، ويَتَيَقَّنْ أنَّ الكلمة إذا خرجت من قَلْبٍ لا تَقَعُ إلا فى مِثْلِه.

وفى إحاطة عِلْمِه المَشْهور، وفَضْلِه المَشْهُود المَشْكُور، ما يُغْنِى عن وَصِيَّةٍ بها يَتَذَكَّر، وتَذْكِرَة فى صَحِيفَةِ فِكْرِه تُرْقَم وتُسَطَّر، ولْيُوصَلْ إليه مَعْلُومُه علىٰ هذه الوَظِيفة الشاهدُ به الديوانُ المعمورُ. ولْيوفِّرْ خاطِرُه من التَّبَذُّلِ فى تَحْصِيل مَعْلومِه الجارى له وطَلَبِه، ولْيُعامَلْ بما يَلِيقُ من الإجْلال والإعْظام بوَظِيفته الشَّرِيفَة والمَحَلِّ العالى الرَّفِيع من مَنْصِبِه، والعلامةُ الكريمةُ أعْلاه، حُجَّةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

✦ ✦ ✦

وهذه نسخُ تواقيعَ لأرباب الوظائف الديوانية بطرابلس:

نُسخةُ توْقيع بشهادة الجيوش بطرَابُلُس، كُتِب به للقاضى بَدْر الدين «محمد آبن الفرفور»، ووالدُه يومئذ ناظر الجيوش بها، بـ«المجلس العالى»، وهى:

أما بعدَ حمدِ الله الذى زَيَّن سماءَ المَعالى بِبَدْرِها، وأنبت فى رِياض السَّعادة يانِعَ زَهْرِها، ورفَع المناصبَ السَّنِيَّةَ إلىٰ شَرَف مَحلِّها ومَحَلِّ شرفها، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالِصَةً فى قولِها وفعلِها، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أرْسله بالمِلَّة الحَنِيفِيَّة قائمًا بفَرْضِها ونَفْلِها، آمرًا بالمَعْروف ناهيًا عن المُنْكَر مُبلِّغًا لرسالاتِ ربِّه كُلِّها، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ينحصرُ عَدَدُها، ولا ينقضى أمَدُها، وسلَّم تسليمًا كثيرا — فإنَّ أولىٰ من خَطَبتْه المَناصبُ من هو أحقُّ بها وأهْلُها (1) فيها

(1) بياض بالأصل ولعله: وله فيها، إلخ.

نِسْبَةٌ لا يُنْكر فضلُها، ومُباشراتٌ فى المَمالك الإسلامية مَشْهورات بالكِفَاية والعِفَّة فى بَرِّها وبَحْرِها .

ولمَّا كان فلانٌ ــ حرس الله جَنابَه وأَسْبغ ظِلَّ والده ــ هو المَعْنِيّ بهذه الإشارَه، وشَمْسَ هذه الهَالَةِ وبَدْرَ هذه الدَّارَه .

فلذلك رسم ... ... ــ زاده الله تعالىٰ عَظَمةً وشَرفا، ومنحه فى الجنَان قُصُورًا وغُرَفا ــ أن يستقر ... ... : اقرارا لعَيْن والده، وجمْعًا له بين طَرِيف السَّعْد وتالِده، لأنَّه النَّبْعةُ التى نشأتْ فى رِيَاش السِّياده، والزَّهْرةُ التى بَرَزَتْ فى كِمَامِ السَّعاده، فلا يزالُ فَرْعُه ــ إن شاء الله ــ بسعادة هذه الدَّولة الشريفة يَنْمِى إلىٰ أنْ يتأصَّل، وزهَرَتُه تَزْهىٰ إلىٰ أنْ تبلُغَ الإثْمارَ وتتوصَّل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ مُباشَرةً تَظْهرُ فيها كِفايتُه عند الانتقاد، وتحمدُ فيها عُقْبىٰ الاختيار والاختبار والرَّشاد، ولْيَسْلُكْ فى أمانَتِه سنن أبِيه ــ أسبغ الله ظلَّه ــ التى أحكمها فى كل ما أبْدَىٰ وأعاد، ويتَّبِعْ طُرُقَه الهادِيةَ إلىٰ سبيل السعادة والإرْشاد، ويُسْنِد ما اكتسبه من والِده عن سَلَفِه من هذه الصِّناعَة وهو أحقُّ بهذا السَّنَد، ولا يَخْرُجْ عن رَأْىِ أبيه ــ أيَّده الله ــ حتَّىٰ يقولَ الناسُ : هذا الشِّبْل من ذاكَ الأَسَد، ولْيُشَمِّرْ فى تحصيل الفضائل التى تُبْلَغ بها الآمال، وتَصلُحُ الأحوال، ولْيَتَلَقَّ هذه المباشرَةَ بعَزْمه الشديد، بنَفْسه لا بالتَّقْليد، فإنَّه شاهِدٌ ومَسْئُول، بقوله يوفَّق فى الاستحقاق وفى النُّقود والكُيول، وتقْوى الله هى السَّبَبُ الأقْوىٰ، فلْيَتَمَسَّكْ بحَبْلِها يَقْوىٰ، والوصايا كثيرةٌ فى ذلك ووالِدُه بها أعْلم، والله تعالىٰ يُسَلِّكه سَبِيلَ الهدىٰ فإنَّه أنجحُ الطُّرُق وأسْلم، والله تعالىٰ يتولىٰ عَوْنَه، ويُدِيم صَوْنَه، والاعتماد ... .

توقيعٌ بكتابة الدَّرج بطرابُلُس ، كُتب به بـ« المجلس السامى » بالياء ، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زالت مَراسِمُه العاليَةُ تُطْلِع فى أفلاك المعالى بَدْرًا مُنيرا هاديًا إلى الفضائل مأمُونًا من السِّرار ، ومكارِمُه الوافِيَةُ تَرفَعُ من أعْلام المعانى صَدْرًا كبيرًا رَشِيدًا فى البيان أمينًا على الأسْرار ، ومَراحِمُه الكافيةُ تُقِرُّ عيونَ الأعيان والأخْيار ـ أنْ يُرتَّب فلانٌ ـ ضاعف الله تعالى أنوارَ فضائله التى يأتَمُّ بها المُستَضِىءُ والمُهْتدى ، ويَعْشُو إلى قِراهَا المُستَعِينُ والمُقْتدى ـ فى كتابة الدَّرْج السعيد بطرابُلُس المحروسة بما قُرِّرَ له من المعلوم الوارد فى الآستِئمار الشَّرِيف على ما يتَعيَّنُ بقلَمِ الآستيفاء جِهتَه ، ويُبيِّنُ تفصيلَه وجُمْلته ؛ نَظرًا إلى آستحقاقه الظَّاهر ، وفَضْله الباهر ، وبَلاغَتِه التى أفْصحتْ عن بيان البَليغ القادر ، وفَصاحَته التى بلغت الكمالَ بعَوْن الملك القادر ، وإطْرابِه ، فى إطْنابِه ، وإعْجازِه ، فى إيجازِه ؛ فله فى الدلائل قُدْرة «المَنْصور» وفى الفضائل قُوَّةُ «الناصِر» ؛ طالما أزْهر بقلمه «المَهْدىّ» للصواب ، «السَّفَّاح» كالسَّحاب ، رَوْضَ العُلومِ والآداب ؛ وأظهر ببيانه «المُنْتَصِر» فى الخطاب ، «المُقْتَدِر» على الآقتِضاب ، طُرُقَ الفُنون ، وَاضِحةَ العيون ، مُحْكَمةَ الأسباب ، وسُبُلَ الحِكَم مُفتَّحةَ الأبواب ؛ فهو بالسنا والسناء بَدْر «المُستَرْشِد» ، وبالحَدا والحَذاء «مُعِزٌّ» «المُستَنجِد» ؛ وبفَرْط الحَيا والحَياء سَحابُ المُستَمْطِر و«المُستَظهِر» ، وبغَرْب الذَّكا والذَّكاء برق «المُسْتَبْصِر» و«المُسْتَنصِر» .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركة «مُعتَصِمًا» بحَبْل التَّقوى ، «مُستعصِمًا» من المُراقبة بالسَّبَب الأقْوَم الأقوى ، مُجَدِّدًا رُسُومَ هذه الصناعة التى رَبْعُها قد دَرَس ومَحَلُّها قد أقْوَى ؛ فإن «المُتَّقِى لله» «الرَّاضِى» به هو «الرَّاشِدُ» «القَائِزُ» بالسَّعادة ،

و «المُتوكِّل» عليه «المُطيعَ» له هو «الوَاثِقُ» ببلُوغِ القَصْد الحائز للاراده ، ولْيطرِّزْ حُلَلَ البيان بوَشْيِ بنَانِه الذى أصبح دِيباجُ الطِّرْسِ به «مُعْتَزًّا» ، ولْيقوِّمْ معانِيَ البَدِيع بعامل قلَمِه الخَطِّيِّ- الذى أمسَى الفضْلُ به كالسَّمْهَرِيِّ قائمًا مُهْتَزًّا ، «مُسْتكفيا» بما يصَرِّعُه ويُرصِّعه نَظْمًا ونثرًا من البدائع ، «مُستعليا» لما يرَقِّعه ويفرِّعه من غُرَرِ الفِقَر، ودُرَرِ الفِكَر ، بخاطره الوَقَّادِ النَّقَّادِ المنقاد الطائع ، «مُقْتفِيا» فيما يُنْشِئُه آثارَ ما يصْدُرُ عن «الحاكم» و «الآمر» ، «مكتفيا» فيما يُبْديه بمقدار ما تبرُز به المراسيمُ والأوامر ، «حافظا» للسِّرِّ «العزيز» كاتبًا كاتمًا فلا يعْضُده فيه «عاضد» ولا يظفَر به «ظافر» ؛ «معتمدا» على الكِتْمان فى جميع ما يُورِدُه ويُصْدِرُه ، مقتصدًا بالتَّوفيق فى سائر ما يُخْفيه ويظهره .

والوَصايا فمن آدابه تُسْتفاد ، والنَّصائح فلها منه المَبْدأ و إليه المَعاد ، فلْيَتسَنَّمْ ذِرْوَةَ أعلاها ، ولْيتنَسَّمْ نَفْحةَ رَيَّاها ... .

✢

توقيعٌ بشهادة دَارِ الضَّرب بطرابُلُس ، وهو :

رُسِم بالأمر - لا زال رَأْيُه الشريف يقَرِّبُ من الأمور صَوَابا ، ولا برِحَ أُفُقُ سماء مملكته الشريفة يُطْلِع بفلَكِه بدْرًا مُنيرًا وشِهابا - أنْ يُرَتَّبَ فلانٌ ... ... : لأنه العَدْلُ الذى آشتهرتْ عدالَتُه ، والأمينُ الذى بَهرتْ فظهرتْ أمانَتُه ، والرَّئيسُ الذى ما برِحَ صَدْرَ المحافل ، والفاضلُ الذى فاق بفَضْلِه على الأقران والأماثل ، وشَهِدتْ بنَزاهته المشهورةِ الأواخِرُ والأوائل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً مطابِقَةً لعدالَتِه المشهوره ، مُعْرِبَةً عن أصالَتِه المَخْبوره ، مُوَضِّحةً عن ديانَتِه التى غَدَتْ فى العالَمِين معروفةً غير منْكُوره ، لِيُصْبِحَ هذا المَنْصب

مُشْرِقًا بنُوره ، سَنِيَّ الأرْجاءِ بِسَاطِعِ ضياءِ شِهابِه ونُورِ بُدُورِه ؛ وهو - أعزّه الله - غَنِيٌّ عن وَصِيَّةٍ منه تُسْتفاد، أو تَنْبِيه علىٰ أمْرٍ منه يُبْدأ وإليه يُعاد؛ ولْيَتَناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المَعْمور هَنِيًّا مُيَسَّرا ، ولا يَقِفْ أملُهُ عنده : فإنا لَنَرْجُو فوق ذلك مَظْهرا .

✦✦✦

تَوْقيعٌ بنَظَر اللّاذِقِيَّة ، كُتب به للقاضى «بُرْهان الدين» الأذرعى ، وهو :

رُسم بالأمر - أنْفذه اللهُ فى الآفاق ، وطَوَّقَ بمِنّهِ وفَواضِل بِرّه الأعناق - أنْ يستقرَّ المجلسُ السامى - حرس الله مُهْجَتَه ، وأهْلَكَ حَسَدَتَه - فى نظر اللّاذقية المحروسة، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته، بالمَعْلومِ الشاهدبه الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخِرِ وَقْتٍ : عِلْمًا بأمانتِه المَشْهوره ، وكِتابتِه التى هى بين أهْل الصِّناعةِ مَشْكُوره ، وخِبْرتِه التى هى فى المُباشَرات مَعْروفةٌ غير مَنْكُوره ، وكِفَايتِه المألُوفة الموْفوره؛ فإنّه باشَر الحِسْبةَ الشَّرِيفةَ ونَهىٰ وأمَر، واتّبع فى أحْكامِه ما أمَر به «أميرُ المؤمنين عُمَر» ؛ وضَبَط أموالَ بَيْتِ المالِ بحُسْنِ نَظَره ومَيَّزَ وثَمَّر .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ المُبارَكةَ مُباشَرةً علىٰ أجْمل العادات، ويَسْترفِعْ مالها من الحُسْبانات، ويُوَصِّلْ إلىٰ أرباب الاستحقاق ما لهم من الحُقُوقات، علىٰ مايشهدُ به الديوانُ المعمورُ فى سائر الأوقات ؛ فإنّ هذه الوظيفةَ من أجَلّ المُباشَرات، ولْيتناولْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المعمورُ هَنِيًّا مُيَسَّرا علىٰ جارِى العَادة لمن تَقَدّمه فى الفُروع وسائر الجهات ، ولْيَعْتَمِدْ علىٰ تَقْوى الله تعالىٰ فى سائر الحركات والسَّكَنات ؛ والله تعالىٰ يتولّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

توقيع أيضا فى المعنىٰ .

لا زالتْ صَدَقاتُه الشريفةُ تُقيمُ لأتباع الحقِّ بُرْهانا، وتُسْدى إلىٰ كلِّ أحَدٍ خَيْرا وإحْسانا ـ أن يرتَّبَ فلانٌ ناظِرًا باللَّاذِقيَّة المحروسةِ وما هو مضافٌ إليها، علىٰ عادة من تقدَّمه وقاعدَته ومعلومِه الشاهدِ به الديوانُ المعمور : لأنَّه طالما باشَر نَظَر بَيْت المال فوفَّر الأموال ، وأصْلح ما فَسد من الأحْوال ، وسَدَّد بحُسْنِ تَدْبيره الأقوال والأفعال، وأظْهر من الأمانة ماتميَّز به فى مباشراته، وفاقَ به على قُرَنائه وأهْلِ زَمانه وأوْقاته ، ثم باشَر الحِسْبَة فسَلَك فيها مَسْلَكَ السِّرِّ والجَهْر وصِدْقِ الخَبَر ، وسلك مَسْلك أمِير المؤمنين عُمَر .

فليباشِرْ هذا النَّظر بقَلْبٍ مُنْشرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ، ولْيُظْهِرْ فيه ماجُرِّب به من الأمانَه ، وتجنُّبِ الخِيانَه ، ولْيجتَهِدْ فى تحْصِيل أموال الدِّيوانِ المعمور ، ويَبْسُطْ قَلَمَه فى إصلاح الأمور، ولْيُوصِّلْ إلىٰ أرباب المُرَتَّبات ماهو لهم مُسْتَحَق ، فإنَّهم به أوْلىٰ وأحَق ، ولْيوصِّل إليه معْلومُه أوانَ وُجوبه واَسْتِحْقاقِه ....

توقيعٌ بمشارفة حِصْن الأكْراد ، كُتب به للقاضى « بَدْر الدين » بـ«المجلس العالى» ، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زالتْ مراسِمُه العاليةُ تُولِى الأنامَ بِرًّا، وتُجدِّدُ بإسْباغ الإنعام بِشْرا، وتُضَوِّعُ فى كلِّ نادٍ من أنْدية الثَّناء والدعاء نَشْرا، وتُطْلِع فى كلِّ أُفُق من آفاق السِّيادة من صُدُور الأعيان وأعْيان الصُّدُورِ بَدْرا ـ أن يُرتَّبَ فلانٌ فى مُشارَفة حِصْن الأكْراد المحروس : لما هو عليه من العِفَّة والصَّلَف ، والنَّزاهة

التى عُرِف بها وآتّصف ، والرّآسَة التى آنتقلتْ إلى الخَلَف عن السَّلَف ، والعَدالة التى لا يتكَلَّفُ لسُلوك نَهجها : ومن العَجَبِ خُلُوُّ البَدْرِ عن الكَلَف ! ؛ كَمْ حُفِظَتْ بمباشرته الأموال ، وصَلحتْ بمُلاحَظَتِه الأحوال ؛ وعُقِدَت الخَناصِرُ علىٰ سيرتِه وحُسْن سَيْرِه ، وآشْتهر بجميل تَدْبيرٍ أوْجب تَقْديمَه علىٰ غيْره .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى هى من أجَلّ الوظائف ، ولْيشكُرْ ما أُولِى من المعروف وأُسْدِىَ إليه من العوارف ؛ ولْيبذُلْ جُهْدَه فى صلاح الأحوال ، وتَثْمير الأموال ، وتَقْرير القواعد على السَّداد ، وإجْراءِ العَوائد علىٰ وَفْقِ المُراد ؛ فانّه مِمَّن دَلَّت خِبْرَتُه علىٰ جَميل آثاره ، ولاحَتِ الغِبْطَةُ فى آختياره الذى أغْنىٰ عن تَقْديم آخْتِباره ؛ كَيْفَ لا ؟ وهو ممَّن نَشَأَ فى خُدُورِ فُنُون الكِتَابه ، وآشْتَهر فى مَواطِن النِّضال مع وُفُور الآنْتقال بحُسْنِ الإصَابَه ؛ فهو إن شاء الإنْشاءَ بَلَغ منه المَرام ، وإن بَسَط الجرائدَ للتَّصرُّف قيل : هذا الكَاتِبُ النَّظّام ؛ كَمْ له من يَدٍ بَيْضاءَ فى التَّبْيِيض والتَّسْوِيد ، وهِمَّةٍ عَلْياءَ بلغ بها من السِّيادة ما كان يُرِيد .

فلْيقدِّمْ خِيرَةَ الله تعالىٰ فى هذا الأمرِ ويجعلْها إمامه ، ولْيتَمَسَّكْ بها مُقْتدِيًا بمن قدمها أمامَه ، ولْيكُنْ عند حُسْنِ الظَّنِّ به ليبلُغَ من سعادة الدّارَيْنِ مَرامَه .

والوَصايا التى يعمُّ نفعُها ، ويتعيَّنُ علىٰ تناسُبِ الأعْمال جَمْعُها ؛ به تُسْلَكُ سُبلُها ، وعنه تُؤْخَذ تَفاصِيلُها وجُمَلُها ؛ فلْيسْلُكْ منها الأقْوَمَ الأرْشَد ، ولْيتَمسَّكْ بالأفودِ الأحْمد ؛ بحَزْمٍ وافرٍ ، وعَزْمٍ غير قاصِر ؛ ولْيتناوَلْ مَعْلومَه الشاهدَ به الديوانُ المعمورُ أحْيانَ الوُجوب والآستحقاق رِزْقًا دارًا ، هَنِيئًا مُيسَّرًا سارًا ؛ من غير تَقْتير ولا تكْدير ، ولا تَنْغِيص ولا تأْخير .

توقيعٌ بمشيخة المقـام الأدهمِىّ ، كُتِب به باسم الشـيخ « عبد الله السطوحى » بـ«المجلس العالى» ، وهو :

أما بعـدَ حمدِ الله الذى سَقَى مَحْلَنا بإِبَابِه ، وأنبت عُشْبَنا بسَحابه ، وأقرأنا كتابَ وَجْهِه وأغنانا عن وَجْهِ كَابِه ، وجَعَلَ لكلِّ مَقامٍ مَقالًا من صِدْقِ أوليائه ، ومَنَحَهم بمـا آختار لهم من سرائرِ مَواهِبِـه وعَطائِه ، وجَمَعَ قُلُوبَ الفُقَراء على العِبَادة والدعاء بواسطةٍ من أحْبابِه وأخِصَّاءِ نُجَبائِه ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ نَجْمِ السُّرَى ، ولَيْثِ الشَّرَى ، وسَيِّدِ من وَطِئَ الثَّرَى ، وعلى آله وصَحْبه الذين منهم من لو أقسم لأَبَرَّ قَسَـمَه رَبُّ السما ، وسلَّم تسليما كثيرا ــ فلمَّـا كان الاعْتِناءُ بالأمور الدِّينيَّة من الواجبات ، والمحافظةُ عليها [مما] تُبادِرُ إليه من النُّفوس الرَّغَبات ؛ وبُيُوت الله تعالى فهى قِوامُ الدِّينِ المتِين ، ولا ينهَضُ بعمارتهـا إلا الذين آتَّقَوْا وآمنوا بربِّ العالمَين ، فطُوبَى لهم ونِعْم أجْرُ العاملين .

ومن البيوت العامِرَه ، والسَّراة الطَّاهِرَه ، والمقامات التى إذا حَلَّ بساحَتِها أكْمَهُ العَيْن بَصَرتْه نُجوماً زَاهِرَه ــ مقـامُ من ذِكْرُ كرامَتِـه أشْامَ فى أقطارِ الأرض وأيْمن وأنْجَـد وأتْهم ، السَّيِّدِ الجليل وَلِىِّ الله « إبْراهيم بن أدْهم » ؛ سَـيِّدِ الأولياء ، وسُلْطانِ الأتْقياء ؛ رَحْمَةُ الله عليه ما سَارَ على الطَّرِيقِ سائر ، وما آمْتطَى ظَهْرَ قَلُوصٍ مُسَافِر ؛ مَقَامٌ بالزُّهْدِ موصوف ، وبالبَرَكاتِ مَعْرُوف ؛ وله الإطلاقاتُ المَشْهوره ، والمَناهِلُ المأْثوره ، فى وِرْدِها المَبْروره ؛ قد آستولَتْ عليه يَدُ التَّبْذِير ، وعَادَ بَعْدُ طُولِ سِمَـاطِه فى تَقْصِير ، وآختلَف فيـه النِّيَّاتُ فكان فى كِيسِ الفقير(١) ؛ فكشَف الله هـذه النِّقْمَه ، وأدام سَوابِغَ النِّعْمه ؛ وأسْـبَل على هذا المقـام ظِلالَ الحُرْمه ؛

(١) لعلّ الصواب «فكان فى كيس الغنى بعد أن كان فى كيس» الخ .

وأرسَلَ اللهُ على عباده المتّقين باعثًا من عنده ، وأيقظهم لعلمه بأن كلًّا واقفٌ عند أمْرِه وحدَه ، وأنطق لِسانَ من لا رادّ لأمْرِه ، فكشف غُمّةَ هذا المقام وعزَل من يُخافُ عليه من سُوءِ تدبيره وشرِّه .

فلذلك رُسم — أن تفوّضَ مشيخةُ المقام الجليل الأدهمى بثغر جبلَة المحروس — على ساكنه الرحمة والرضوان — إلى فلانٍ — نفع الله ببركاته ، وأعاد على المسلمين من صالح دعواته — عِوضًا عمن كان بها بحكم انفصاله حَسَب ما وردتِ المراسيم الشريفة — شرفها الله تعالى وعظمها — عند اتصال العلوم الشريفة — زادها الله تعظيما — بأمر المقام المشار إليه واعتماد المتصرفين فيه : إذْ وُضعت الآنَ الأشياءُ فى محلّها ، وأُسندت الأمور إلى أهلها ، وقُلّدتْ هذه المثوبَةُ إلى من يُظْهِر سرائرَ فضْلِها ، ولحظت الآراء حَجَر هذا المقام والأثر ، ولا شَكَّ أنّ السَّعادة تلحظُ الحجَر ، كَمْ له من آيات مَشْهوره ، وكرامات بلسانِ الحَمْد مَذْكوره ، ومساعٍ فى الخيرات مَبْروره ، وقد عمَّ الزّوايَا بأجْناسِ المَكارِم ، وبَسَط للزّائرين من إكرامه سِماطًا يقول الزّائرُ : هذا ولا حاتِم :

تَزُورُ دِيارًا زارَها جُودُ كَفِّهِ ، * ومن دُونِها للزّائرينَ مَراحِلُ ،

ونَرْجِعُ عنها والجُفُونُ قَرِيرَةٌ : * كما رَاجَعتْ مأْوى الحُقُوفِ المَساحِلُ !

فليَتلَقّ — أعاد الله من بركَتِه — هذه الوِلاَيَه ، وليَجعلْ للمقامِ المُشارِ إليه من خاطِرِه الكريمِ أوفَرَ عنايَه ، ويستخلفْ عنْه إذا توجّه إلى (١) بحِصْنِ الأكراد فإنّها مُستَمِرّةٌ بيده وولايتها باقية عليه ، وأمْرُها فى إبْدائه وإعادتِه عليه ، واللهُ تعالى يتولّاه ، فيما ولّاه ، والاعتماد ... .

(١) بياض بالأصل ومراده الى مشيخة ... ... بحصن الأكراد .

قلتُ : وقد أتيتُ علىٰ جُمْـلةٍ من تواقيع أرباب الوظائف : بدِمَشـقَ وحَلَب وطَرَابُلُس وأعمال كلٍّ منها، يَسْتغنِى بها المـاهِرُ عمّا سواها، ويَقِيسُ عليها ما عَداها؛ إذْ لا سبيلَ إلىٰ آستيفاء جَميعها ، والإتيانِ علىٰ جُمْلتها .

وفيما ذُكِر من هذه الممالك الثلاثِ تَنْبيهٌ علىٰ ما يكتب بحَماة وصَفَدَ اللّتين هما فى رُتْبـة طَرابُلُس ، وتَلْوِيحٌ إلىٰ ما عداها، ممـا هو دونهـا كغَزّة إذا كانت نيابة ، والكَرَك التى هى دون ذلك .

والله تعالىٰ هُو الهـادى إلىٰ التوفيق ، والمُرْشِدُ للسَّداد ، بمنّه وكَرَمه .

تم الجزء الثـانى عشر . يتلوه إن شاء الله تعـالىٰ الجزء الثالث عشر

وأوّله المقـالة السادسـة

(فيما يكتب فى المسامحات، والاطلاقات السلطانية، والطَّرْخانيات وتحويل السنين والتذاكر، وفيها أربعة أبواب)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين وآله وصحبـه والتابعين ، وسـلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ٥٠٧١/١٩١٦/٣٠٠٠)